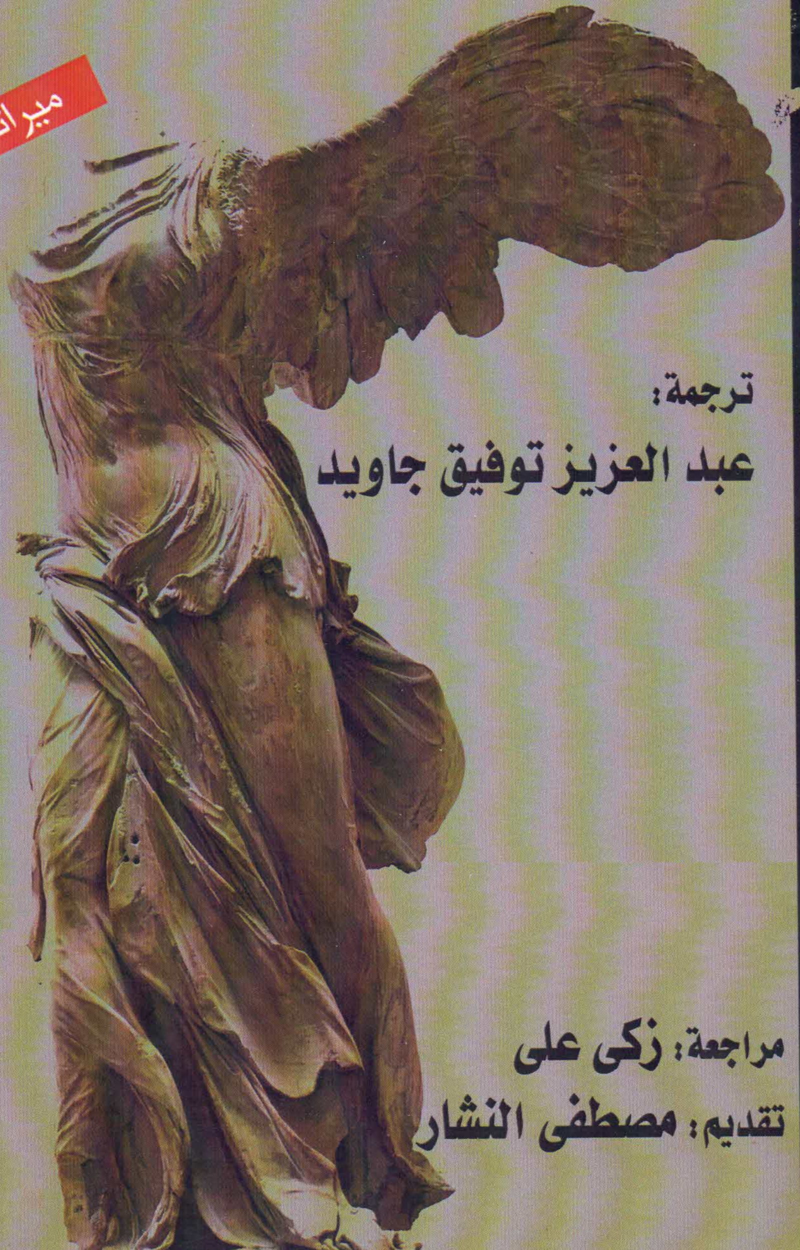
و. و. تارن

الحضارة الهللينستية

ميراث الترجمة



ترجمة:

عبد العزيز توفيق جاويد

مراجعة: زكى على

تقديم: مصطفى النشار

1954

المركز القومى للترجمة

"الحضارة الهللينستية" للمؤرخ الثقة وليم تارن كتاب قيم يعرض لتفاصيل دقيقة وشيقة توضح صورة العصر الهللينستى على الصعيد النظرى الفلسفى والعلمى والأدبى من جانب، وعلى الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى من جانب آخر، وذلك بملامحه العالمية المميزة التى عكست التأثير الشرقى على الروح اليونانية الخالصة والممهدة للعصر المسيحى فى العصور الوسطى، وهى فترة حاسمة من تاريخ الإنسانية قلّت الكتابة عنها.

تصميم الغلاف: نيرڤانا

الحضارة الهللينستية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف : جابر عصفور

مدير المركز : رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : مصطفى لبيب

- العدد: 1954
- الحضارة الهللينستية
- وليم وود ثورب تارن
- عبد العزيز توفيق جاويد
- زكى على
- مصطفى النشار
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
Hellenistic Civilization
By: W. W. Tarn

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
E.mail:nctegypt@nctegypt.org Tel.: 27354524 Fax: 27354554

الحضارة الهللينستية

تـألـيـف : وليم وود ثـورب تــارن

ترجـمـة : عبد العزيز توفيق جاويد

مراجعة : زكـــى عـــلـى

تقـديـم : مصطفى النشار

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تارن؛ وليم وود ثورب، ١٨٦٩-١٩٥٧
الحضارة الهللينستية/ تأليف: وليم وود ثورب تارن؛ ترجمة: عبد العزيز
توفيق جاويد - مراجعة: زكي علي؛ تقديم: مصطفى النشار
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
ص؛ ٢٤ سم
١ - الحضارة الهللينستية
(أ) جاويد، عبد العزيز توفيق (مترجم)
(ب) علي زكي (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٣٨

رقم الإيداع ٢٠١٤/٢٣٨٣٧
الترقيم الدولي I.S.B.N. 978-977-718-985-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

تقـــديم

يعد السيد وليم وود ثورب تارن w.w.tarn من المؤرخين الثقات المعدودين فى تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية.

ولد بإنجلترا فى السادس والعشرين من فبراير ١٨٦٩، وقد تلقى تعليمه فى كلية إيتون، وتخرج فى كلية ترينيتى كولج فى إنجلترا، كما حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة كمبردج، وكذلك على الدكتوراه فى الأدب بمرتبة الشرف من جامعة إدنبرة. وقد حصل على زمالة الأكاديمية البريطانية عام ١٩٢٨م.

وقد دارت معظم كتاباته تقريبًا حول العالم الهلينستى وخاصة الإسكندر الأكبر؛ حيث كانت أهم مؤلفاته: العصر الهلنستى عام ١٩٢٣، والعسكرية الهلنستية عام ١٩٣٠م، والإسكندر الأكبر ووحدة الجنس البشرى عام ١٩٣٣م، واليونان وروما فى التراث الأوروبى عام ١٩٥٤م. وكان أهم ما كتب هو الكتاب الذى بين أيدينا بعنوان الحضارة الهلنستية الذى نشر لأول مرة عام ١٩٢٧م، وأعيد نشر هذه المؤلفات عدة مرات بعد ذلك.

وقد توفى فى السابع من نوفمبر ١٩٥٧م عن عمر يناهز الثمانية والثمانين عامًا.

جرت العادة فى التأريخ للحضارة اليونانية التمييز بين عصرين كبيرين من عصورها، أولهما: هو العصر الهلينى الذى يمتد من نشأة حضارة بلاد اليونان حتى وفاة الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م. ثانيهما: العصر الهلينستى، وهو الذى يمتد من وفاة الإسكندر حتى القرون الثلاثة التالية تقريبًا. وكان أبرز ما يميز هذين العصرين – فى اعتقادى – على الصعيد السياسى خاصة، والحضارى عامة، هو أن العصر الأول

كان عصر دول المدن اليونانية التى كانت كل مدينة فيها تمثل دولة مستقلة؛ مما أتاح لدول المدن هذه التداول على نطاق واسع شارك فيه كل مواطنيها حول نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل وأيضًا النظم الدينية دون خشية من أى سلطة كانت، حيث كان كل مواطن يتمتع بالحريات الأساسية، ولم يكن يستند فى تحصيل رزقه على ما توفره الدولة أو ما تدعمه به السلطة السياسية، بل على جهده فى رعاية ممتلكاته أو من خلال اجتهاده فى تجارته؛ ومن ثم تميز العصر الهلينى بالتحول من صور الحكم الأرستقراطية التى حكم فيها النبلاء وأصحاب الملكيات الذين توارثوا الحكم جيلا بعد جيل فيما كان يعرف بحكم الأراكنة إلى النظام الديمقراطى الذى أتاح الفرصة للجميع للمشاركة السياسية المباشرة، وكانت تشريعات المشرع الأثينى الشهير صولون بداية هذا التحول السياسى فى أثينا؛ ومن ثم فى كل دول المدن اليونانية تقريبًا. وقد كان نتاج الحضارة اليونانية فى هذا العصر من أدب وفنون وعلوم وفلسفات انعكاسًا واضحًا لهذه الروح الفردية الوثابة التى فجرت الطاقات للإبداع بدون أى حدود أو معوقات.

أما العصر الثانى: العصر الهلينستى فكان أبرز ما يميزه هو انهيار نظام دولة المدنية هذا؛ حيث إن الإمبراطورية المقدونية التى بدأ تأسيسها مع الملك فيليب والد الإسكندر وتبعه ابنه فى مد حدود الإمبراطورية التى تتعدى بلاد اليونان لتضم معظم بلاد الشرق، وخاصة فارس ومصر والهند وبابل... إلخ، قد غيرت وجه العالم القديم، حيث عرف اليونانيون لأول مرة الوجه الإمبراطورى للحكم والدولة المدنية المتسعة الأطراف للدرجة التى جعلتهم يسيحون فى أرجاء العالم الأربعة، متخطين الحواجز والحدود المعروفة لدول كانت بحد ذاتها تشكل إمبراطوريات ضخمة كالإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية المصرية القديمة. إن هدم الحواجز والعوائق بين حدود هذه الدول وتلك الإمبراطوريات لتنضم جميعها إلى الإمبراطورية المقدونية بقيادة الإسكندر وما تبعه من تأسيس لمدن جديدة حمل الكثير منها اسم الإسكندر، وكان أشهرها مدينة الإسكندرية فى مصر، كان من شأنه أن يغير عادات الشعوب وعقائدها الدينية، فضلاً عن نظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث لم يعد للفرد مهما علا شأنه أى دور واضح

فى سياسة بلده؛ لأن الأمر تحول وأصبحت السياسة تابعة فى مجملها للغزاة من اليونانيين من أتباع الإسكندر وقادة جيوشه أولئك الذين بدءوا مرحلة جديدة من الصراع فيما بينهم فى الوقت الذى كان الإسكندر لم يواره الثرى بعد. وظل هذا الصراع بين أجنحة تلك الإمبراطورية الضخمة وأجزائها فى آسيا وإفريقيا، بين الجزء اليونانى، والجزء الآسيوى، ومصر سمة أساسية من سمات العصر الهلينستى، ومع ظهور نتائج هذا الصراع، وما ترتب عليه من استقرار للأوضاع بشكل نسبى بين مصر وآسيا وبلاد اليونان، بدأت ملامح عصر جديد تماماً تبدو على السطح، حيث اختفت دول المدن اليونانية بصورتها التقليدية، واختفت فيها قيم كانت سائدة، وعرف اليونانيون بلاد الشرق معرفة جيدة، وحدث تبادل الهجرات بين مواطنى اليونان ومواطنى بلاد الشرق. وحلت الدعوة إلى الأخوة العالمية محل الدعوة إلى التميز اليونانى وتحقير الأجانب (البرابرة). وظهرت فلسفات جديدة بأفكار جديدة مواكبة للعصر الجديد، حاول الفلاسفة فيه التماس طرق جديدة للسعادة التى لم يكن يجدها الفرد اليونانى فى العصر السابق إلا فى قدر المشاركة السياسية والإحساس الدائم بالحرية والفردانية فى الحياة والعمل.

وهذا بالضبط ما جعل مؤرخى الفلسفة هم أيضاً يقسمون تاريخ الفلسفة اليونانية إلى عصرين كبيرين، كلاهما يمثل حقبة مستقلة ومتميزة؛ أما الحقبة الأولى فهى الحقبة الهلينية التى تمتد تاريخياً من ظهور الفلسفة اليونانية على الساحل الأيونى، وخاصة فى مدينة ملطية على يد طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد حتى وفاة أرسطو فى منفاه الاختيارى بآسيا الصغرى عام ٣٢٢ق.م، أى بعد وفاة تلميذه الإسكندر الأكبر بعام واحد تقريباً.

(٢) الحقبة الهلينستية التى تبدأ منذ وفاة أرسطو، وظهرت فيها تيارات فلسفية جديدة، كان أشهرها التيار الرواقى والأبيقورية والشكاك، واستمرت حتى تأهب العالم الرومانى لانتصار المسيحية على حد تعبير رسل.

وكما كانت الحقبة الأولى فلسفيا متأثرة بالظروف السياسية والاجتماعية التى عاشها الفلاسفة منذ طاليس حتى أرسطو، فإن هذه الحقبة الثانية قد تلونت بفعل هذه الظروف السياسية التى استجدت بعد وفاة الإسكندر وأرسطو. وكان ذلك أمراً طبيعياً؛ حيث إن العيش فى ظل دولة مدنية يتمتع أفرادها بكامل الحرية ويشاركون فى سياسة المدينة، يختلف عن العيش فى ظل دولة مترامية الأطراف ضمت بين ثناياها اليونانى والشرقى، والأوروبى والآسيوى والإفريقى معا تحت إمرة حاكم عسكرى حفل سجله بالانتصارات، وحينما مات ظل العسكريون هم الحكام الحقيقيون، وإن كانت القشرة ملكية - أرستقراطية للأسرة المقدونية. لقد ضاع تميز المواطن اليونانى، واضطر لمخالطة (البرابرة) الأجانب والعيش معهم والحرب معهم أحيانا وضدهم أحيانا أخرى، وكان الجميع (اليونانى والشرقى معًا) مضطرين للخضوع للنظام الإمبراطورى وتخطى حدود مدنهم وقراهم وبولهم والاتجاه إما شرقًا أو غربًا، حسب الحاجة أحيانًا وحسب ما يصدر إليهم من أوامر واجبة التنفيذ أحيانًا أخرى.

والحقيقة التى لا مراء فيها بالنسبة للعصر الهلينستى أن الأهداف التاريخية الكبرى فى هذا العصر وما شهده من تغيرات وأحداث حربية وسياسية متلاحقة وسريعة قد أثر على الفكر الفلسفى تأثيرا بالغا جعلنا بالفعل أمام عصر فلسفى جديد يتميز عن سابقه فى الفكر اليونانى، بخصائص عديدة يمكن أن نجملها فى اثنين؛ أولهما:الامتزاج بين الفكر اليونانى والفكر الشرقى، حيث كان طبيعياً أن تصبح الثقافة اليونانية ملكا مشتركا بين جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط؛ فمنذ وفاة الإسكندر حتى الفتح الرومانى انتشرت هذه الثقافة رويداً رويداً؛ امتداداً من مصر وسوريا ووصولاً إلى روما وإسبانيا، وفرضت نفسها فى الأوساط اليهودية المستنيرة، كما فى أوساط الأعيان الرومان، وكانت أداتها هى اللهجة الدارجة من اللغة اليونانية التى انتشرت بين كل الأوساط المثقفة فى جميع تلك الأنحاء. وربما يكون ذلك هو ما جعل قراءة عبارة "صبغ الشرق بالصبغة الهلينية" بوصفه تعبيراً عن طبيعة هذا العصر مسألة شائعة!

ولكن الحقيقة التى عبرت عنها الأحداث السياسية والظروف الاجتماعية التى سادت هذا العصر تكشف فكريًا عن شىء مختلف؛ إذ لا بد من أن نسلم - على حد تعبير مؤرخ العلم جورج سارتون - بضروب من التأثيرات المحلية، وهى هنا التأثيرات الفرعونية فى مصر، والتأثيرات البابلية فى المملكة السلوكية؛ إذ إن ثقافات هذه البلاد الشرقية ظلت حية وذات روعة وتأثير. وكان من الضرورات السياسية للبطالمة الذين حكموا مصر أن يوجهوا انتباههم إلى الديانة المصرية القديمة. كما كانت سياسة السلوكيين فى بابل قائمة على احترام المعارف والطقوس الدينية البابلية وإحيائها. كما كان طبيعيًا كذلك أن تكون التأثيرات الفارسية (الإيرانية) كبيرة فى هذا العصر، لأن المستعمرين اليونانيين فى آسيا ورعايا ملوك فارس تبادلوا علاقات كثيرة متنوعة: منها ما هو طيب، ومنها ما هو سيئ، وكل ذلك ترتب على ضرورة التزاوج بين الأمراء والقادة المقدونيين وبين أمراء الفرس وأميراتهم، كما أمر بذلك الإسكندر وما فعله. ومظاهر التأثير الفارسى كثيرة؛ إذ لا بد أن التجار الفارسيين كانوا منتشرين بكثرة فى ملطية اليونانية وفى مدن أخرى من مدن الاتحاد الأيونى، وعلى الناحية الأخرى فى الغرب اليونانى نجد أن ملوكهم قد استقبلوا الحكماء الفرس، ونجد كتسياس الكنيدى قد شرح الثقافة الفارسية منذ أواخر القرن الخامس فى كتابه عن تاريخ الفرس. كما أنه من المؤكد أن كل يونانى متعلم كان قد قرأ حياة الملك الفارسى قورش من الكتاب الذى ألفه عنه كسينوفون (٤-١ق.م). فضلاً عن أن بابل كانت ولاية فارسية منذ عام ٥٣٨ق.م، وكذلك مصر منذ عام ٥٢٥ق.م حتى فتح الإسكندر لها عام ٣٣٢ق.م. فالاتصالات بين الممالك الهلينستية وإيران كانت عديدة بلا شك. أما العلاقات اليونانية الهندية فقد كانت علاقات تجارية؛ إذ لم يعرف التجار الهنود أى عوائق للوصول إلى الأسواق الغنية فى بلاد اليونان. كما استطاع الوسطاء بين الجانبين أن يحملوا البضائع والآراء الهندية أيضًا إلى هناك، كما قام هنود آخرون بزيارة بلاد اليونان لعرض حكمتهم على اليونانيين. وقد ذكر أحدهم قصة مقابلة سقراط لأحد حكماء الهند فى أثينا، وإذا كانت صلات الهند باليونان كانت محدودة أو نادرة، فإن هذه الصلات قد ازدادت واتسعت بعد قيام الإسكندر بحملاته فى آسيا؛ إذ وصل بفتوحاته إلى نهر

السند وفيما تلا ذلك غزا اليونانيون الجزء الشمالى من الهند، وأسسوا ممالك ومستعمرات فى أماكن عديدة.

كما أن بعض الهنود قد جاءوا إلى مصر بغرض التجارة أو بغرض نشر الأفكار البوذية. وقد خضعت العلاقات التجارية والثقافية بين مصر والهند لتقلبات عديدة، لكنها مع كل ذلك ظلت قائمة حتى بعد انتهاء السيادة اليونانية على الهند نهائيًا قبل بداية العصر الميلادى.

إن الاتصالات الفكرية بين بلاد الشرق وبلاد اليونان كانت قائمة فيما قبل الإسكندر، وإن توطدت وقويت عقب فتح الإسكندر لبلاد الشرق وانتشار اليونانيين حكاما وعسكريين وعلماء ومواطنين عاديين فى هذه البلاد. فكما أن التأثير اليونانى قد امتد مع هذه الحملات إلى كل بلاد الشرق المعروفة آنذاك، امتدت أيضًا التأثيرات الشرقية إلى بلاد اليونان. إن الملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أنه على الرغم من أن الإسكندر قد استهدف بفتوحاته لبلاد الشرق نشر الفكر اليونانى والحضارة اليونانية فى العالم الشرقى لتصبح هى النموذج الذى يتشكل به وتبعا له أبناء الشرق، أقول على الرغم من ذلك فقد حدث العكس تقريبًا، حيث ما لبث الشرقيون أن نشروا معتقداتهم الفكرية والدينية والأخلاقية فى بلاد اليونان؛ والتاريخ الفكرى لليونان يؤكد ذلك من مجرد استعراض أسماء الفلاسفة فى هذا العصر؛ فعلى الرغم من أن أثينا قد بقيت هى مركز الفلسفة – بالإضافة إلى الإسكندرية بالطبع – فلم يكن بين الفلاسفة الجدد – على حد تعبير برييه – أثينى واحد ولا حتى إغريقى واحد من البحر اليونانى؛ فجميع الرواقيين المعروفين فى القرن الثالث قبل الميلاد كانوا من الأغراب والدخلاء، وقد قدموا من الأمصار فى أطراف الحضارة اليونانية وعند تخومها، وهى أمصار غير معنية بالتراث اليونانى ومتأثرة بمؤثرات أخرى غير المؤثرات الهلينية. فكل هؤلاء الرواقيين كانوا من أصول شرقية؛ فزينون مؤسس الرواقية من كتيوم إحدى المدن القبرصية، وهى أيضًا المدينة التى أنجبت تلميذه برسيوس. كما أن خريسبوس المؤسس الثانى للمدرسة كان من مواليد مدينة طرسوس هو وثلاثة من تلاميذه من

الرواقيين، ومن بلدان شرقية قحة - بتعبير برييه - أتى هيرلوس القرطاجى تلميذ زينون، وبؤثيوس الصيدونى تلميذ كريسبوس وغيرهم من الرواقيين.

ويتضح من ذلك أن ما أراده الإسكندر فى غزوه لبلاد الشرق من سيادة للثقافة وللفكر اليونانى على الشرق لم يتحقق، بل ربما تحقق العكس من ذلك؛ إذ يبدو أن الثقافة والفكر الشرقى هو الذى غزا بلاد اليونان، فقد أصبح أشهر فلاسفة أثينا - وهم الرواقيون - فى ذلك الوقت هم من أتوا من خارج أثينا ومن أصول شرقية حاملين ثقافتهم الشرقية وعقائدهم الدينية المختلفة. ومن ثم كان من الضرورى أن يحدث ذلك الامتزاج بين فكر الشرق وفكر اليونان لدى هؤلاء أو أولئك من فلاسفة هذا العصر الهلينستى. فلم يعد فكر اليونان يونانيًا خالصًا، كما لم يعد فكر الإنسان الشرقى شرقيًا خالصًا، بل اختلطت عناصر الفكر اليونانى الأصلية بعناصر الفكر الشرقى الأصلية رغم تعدد منابعها، فجاءت النتيجة مختلفة عن مقدماتها، رغم أنها نتيجة انبثقت عن هذه المقدمات وترتبت عليها.

وثانيهما: تغير المثل الأعلى للبحث الفلسفى والاتجاه نحو الذاتية والسعادة الفردية، حيث ترتب على هذا الامتزاج بين الفكر الشرقى والفكر اليونانى أن تعرضت صورة الفلسفة التقليدية لليونان إلى الانهيار؛ فقد غزتها الحضارة الشرقية بما فيها من تهاويل وآراء تتصل بالخوارق والسحر، وما فيها من أديان ذات أبعاد صوفية، وترتب على هذا الغزو أن أخذت الروح اليونانية فى الاضمحلال والذبول ومسخت، ووضعت تفكير الحضارة اليونانية فى قوالب لا تتلاءم مطلقًا مع طبيعتها. لقد تحولت نظرة الفيلسوف فى هذا العصر من البحث عن الحقيقة المجردة للوجود وإدراك مظاهره المختلفة والكشف عن كنهها وماهيتها، إلى البحث عن طريق للسلوك يحقق للفرد السعادة الذاتية، لقد انعكف الفرد على ذاته؛ لأنه لما كان قد فقد حريته فى العالم الخارجى نتيجة للظروف السياسية السائدة، فقد راح ينشد نوعًا من الحرية فى العالم الباطن. ولما كان قد فقد استقلاله السياسى، فقد ترك السياسة تمامًا وأصبح يفرق بين السياسة والأخلاق على عكس ما كان سائدًا من قبل فى عصر أفلاطون وأرسطو؛

إذ لم تعد السياسة عنده كما كانت عند هؤلاء واجبات المواطن وحقوقه التى لم تكن تنفك عن سلوكه الأخلاقى ومثله الأعلى فى الحياة، وإنما أصبحت مجموعة من القواعد التى يراعيها الإنسان حتى ينجو بنفسه ويحقق الاطمئنان الشخصى لنفسه.

لقد ولت أيضاً الروح العلمية الخالصة التى كانت تعنى المعرفة لذات المعرفة، ومات الفضول أو تلك الدهشة التى تحدث أرسطو عنها على أنها الروح الملهمة للفلسفة والدافعة للتفلسف والسعى نحو اكتشاف الحقيقة المجردة. وتبدلت فأصبحت مجرد رغبة من الفرد فى أن ينجو ويهرب من شرور الحياة. لقد أصبحت الفلسفة ـ على حد تعبير ستيس ـ متمركزة حول الإنسان ومقصورة عليه. وأصبح فلاسفة العصر مشغولين بالبحث عن التماس طريق لتحقيق هذه الرفاهية الأنانية للأفراد وصارت نظرتهم ضيقة وأحادية الجانب.

إن التفاصيل الدقيقة لهذه الصورة العامة للعصر الهلينستى على الصعيدين؛ النظرى الفلسفى والعلمى والأدبى من جانب، وعلى الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى العملى من جانب آخر، إنما عرض لها باقتدار شديد العلامة تارن بين دفتى هذا الكتاب الذى بين أيدينا عبر عشرة فصول ممتعة، بدأها بعرض خلاصة مدققة حول العصر الهلينستى فى الفترة الزمنية التى حددها لنفسه، وهى الفترة الممتدة من عام ٣٢٣ إلى عام ٣١ق.م، ليتجول بنا بعد ذلك بين المدن الإغريقية وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية، ثم ينقلنا إلى آسيا.ليتحدث عن أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تحت حكم الإمبراطورية السلوقية ومملكة الآتاليين والممالك الوطنية بآسيا الصغرى، ومنهما إلى مصر، حيث يحدثنا عن مصر البطلمية ويفصل الحديث عن إمبراطورية البطالمة وما قدموه لمصر من نظم، تراوحت بين الإنجاز والظلم، ويخصص فصلاً خاصاً للحديث عن الهلينستية واليهود، حيث يتحدث عما يسميه بلاد اليهودية تحت حكم البطالمة ومشكلات المواطنة والترجمة السبعينية للتوراة والعبادات اليهودية وأسفارها، وإن كنت لا أدرى ما الذى دعــاه لأن يتحدث عما أسماه بلاد اليهودية، وهل ثمة ما كان يعرف بذلك آنذاك أم أن الأمر لم يكن يعدو أن هناك جاليات يهودية

فى بعض المدن والبلاد الخاضعة فى الواقع لحكم البطالمة، وهو نفسه يؤكد ذلك فى ثنايا ما كتبه فى هذا الفصل. ومن هذا الحديث عن البلاد والحكام والظروف السياسية والاقتصادية بها إلى الحديث عن التجارة والاستكشافات فى مختلف ميادين الحياة فى العصر الهلينستى فى مختلف البلدان، ثم الحديث فى فصلين متواليين عن الأدب والعلوم وأهم الأدباء والعلماء فى مختلف العلوم وإنجازاتهم، ثم يخصص الفصل العاشر والأخير للحديث عن الفلسفة والدين فى العصر الهلينستى موضحًا كيف اختلطت المذاهب الفلسفية بالعقائد الدينية فى هذا العصر، وتأثر كلاهما بالآخر تأثرًا بدا بوضوح لدى فلاسفة هذا العصر، كما بدا فى عقائده الدينية، سواء الديانات الإغريقية والهلينستية أو اليهودية والمسيحية.

لقد قدم لنا تارن فى هذا الكتاب وجبة دسمة عن موضوع قلَّت فيه الكتابات وعن فترة زمنية أغفل الكثيرون الحديث عنها. ورغم كثرة وتشعب الموضوعات التى أحاط بها، فإنه نجح بالفعل فى أن يقدمها لنا بصورة واضحة تنم عن فهم عميق للأسس التى قامت عليها الحضارة فى العصر الهلينستى، كما كشف لنا عن أهم الإنجازات التى قدمها البشر فى هذا العصر، سواء كانوا حكامًا أو محكومين. وما قدموه كان بلا شك نقطة تحول استغلت الظروف المستجدة فى هذا العصر لتقدم لنا إنجازات عديدة ساهمت فى تقدم البشرية ونقلها من العصور القديمة إلى العصور الوسطى، إذ لا شك أن تلك الإنجازات التى قدمها صانعو الحضارة فى العصر الهلينستى قد ساهمت بشكل أو بآخر فى التمهيد لكل ما جرى من تطور فكرى ودينى منذ بزوغ فجر التاريخ الميلادى بظهور السيد المسيح حتى ظهور الإسلام.

والحقيقة أن الترجمة العربية لهذا الكتاب المهم التى قام بها الأستاذ القدير عبد العزيز توفيق جاويد جاءت على نفس مستوى الكتاب من قوة وقدرة، حيث كانت أقرب إلى التعريب منها إلى الترجمة الحرفية، حيث إن قارئ الكتاب لا يحس أبدا أنه إنما يقرأ كتابًا مترجمًا، بل يشعر أنه يقرأ كتابًا مؤلفًا بالعربية من الأصل، لأن لغته جاءت خصبة وثرية بقدر وضوحها وسلاسة أسلوبها. وقد تميزت بالحفاظ على المصطلح

الخاص بتلك الحقبة - التى تكاد تكون مجهولة لقارئ العربية - سواء كان مصطلحًا أدبيًا أو علميًا أو فلسفيًا، كما بذل المترجم جهدًا فائقًا فى نقل الأسماء، سواء كانت أسماء لأماكن أو لأشخاص بصورة دقيقة، سواء بالقياس إلى أصولها اليونانية أو بالنسبة لما اصطلح عليه بين قراء العربية وكتابها. وربما يرجع هذا التدقيق إلى جهد مشكور بذله بلا شك أ.د. زكى على أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب - جامعة القاهرة الذى راجع هذه الترجمة، وكتب تصديرًا مهمًا لها، وقد كان من مميزات هذه الترجمة كذلك أن مترجمها ومراجعها قد حرصا على "خدمة الترجمة" بما قدماه من هوامش تجلى بعض الغموض عن بعض الأسماء والمصطلحات، فضلاً عن أنهما أتبعا الترجمة بفهرس أبجدى للكتاب أصبحنا نفتقده فى المترجمات الحديثة.

ولكل ذلك، فالكتاب نصا وترجمة يستحق الإشادة من كل الوجوه، ويستحق أن يتلقفه القارئ المعاصر بشغف شديد، حيث طرافة الموضوع وندرته بالعربية، وحيث الترجمة الناصعة بأسلوبها العربى السهل الجميل. فشكرا لمترجمه ومراجعه وشكرًا للمركز القومى للترجمة على التفكير فى إعادة نشره؛ لأننا بحاجة شديدة إليه، سواء كنا من المتخصصين فى العصر الهلينستى وحضارته أو كنا من المثقفين الشغوفين بالقراءة حول الحضارة وتاريخها فى كل العصور.

د. مصطفى النشار

أستاذ الفلسفة القديمة بآداب القاهرة

الحضارة الهللينستية

تأليف

السير وليم وود ثورب تارن

ترجمه

عبد العزيز توفيق جاويد

وراجعه

زكي علي

١٩٦٦

التعريف بالكتاب ومؤلفه

١ — ظهر هذا الكتاب بالإنجليزية فى١٩٢٨ وطبع عدة مرات ثم ظهرت طبعته الثالثة المنقحة عام ١٩٥٣ وتوالت طبعاته بعد ذلك .

٢ — والمؤلف هو السير وليم وود ثورب تارن .

ولد بإنجلترة عام ١٨٦٩ .

وتوفى فى عام ١٩٥٧ .

تعلم فى كلية إيتون وتخرج فى ترينيتى كولدج .

وحصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة كامبريدج .

وعلى دكتوراه الآداب مع درجة الشرف من إدنبرة .

٣ — مؤلفاته :

الحضارة الهللينستية (١٩٢٨) وكذلك .

Hellenistic Military & Naval Developments (1930.)

فضلا عن عدة مقالات وبحوث فى تاريخ كامبريدج القديم ج ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠

Cam. An. His.

ومن أشهر كتبه Alexander The Great فى جزئين (١٩٤٨) .

وكتاب Greece & Rome In European Inheritance

ج — ١ (١٩٥٤)

٤ — وساعده فى إصدار الطبعة الثالثة الإنجليزية المنقحة التى ترجم عنها الكتاب الأستاذ ج . ت . جريفث الأستاذ بجامعة كمبريدج

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الخرائط

كلمة المترجم

يقترن هذا الكتاب بذكرى شخصية عزيزة علينا ،عزيزة على العلم والتاريخ، هى ذكرى أستاذنا العالم المرحوم محمد شفيق غربال الذى فقدت مصر فيه مؤرخها الأول — إذ بفضله شهد هذا الكتاب النور رغم إشفاقه — رحمه الله — على القارىء العام من دسامة مادته وجزالة موضوعه . وبفضله يتيسر لنا الآن أن نقدم لطلاب الجامعات بين دفتى « الحضارة الهللينستية » كتاباً علمياً غزير المادة لاشك أنه سيسد فراغا فى المكتبة العربية .

ونظرة واحدة إلى الكتاب تبين الروابط الفكرية والأخلاقية والثقافية التى تربط بين عالمنا والعالم الهللينستى ، ذلك أن رواسب هذا العالم القديم لاتزال راسخة فى عقول الكثيرين من أفراد وشعوب الشرق. وأبسط دليل على ذلك: الاعتقادات الشعبية فى التنجيم والطوالع والسحر والعرافة ، فضلا عن كثير من النزعات والتقاليد والعادات الشائعة .

والحقبة الهللينستية — كما يتبين من الكتاب — تغطى القرون الثلاثة التى أعقبت وفاة الإسكندر وحملاته ، ومسرحها هو منطقتنا من بلاد الشرق الأوسط التى تعد ليبيا واليونان والبلقان جزءاً منها .

ومن المعلوم أن تلك الحقبة قامت فيها حركة حضارية،وهو أمر لايختلف فيه أحد من المؤرخين — ولكن الأمر الذى يدور حوله النزاع ويشتد هو دور الإسكندر وحملاته فى بذر بذور تلك الحركة — فمنهم من يقول بأن تلك الحركة كانت نتيجة لخطة مرسومة وضعها الإسكندر ومن قبله أبوه فيليب — ومنهم من ينكر على الإسكندر ذلك جملة وتفصيلا — ومنهم من يقف موقفاً وسطا بين بين .

ومما يذكر لهذه المناسبة ماقاله الكاتب الإنجليزى هـ . ج . ولز فى الفصل الذى عقده عن الإسكندر فى كتابه The Outline of History (١) حيث

---

(١) وقد ترجمه كاتب هذه السطور إلى العربية باسم « معالم تاريخ الإنسانية » « لجنة التأليف والترجمة والنشر » .

ذكر أن كثيراً من المؤرخين يحلو لهم أن يطلقوا لخيالهم العنان وأن ينسبوا إلى الإسكندر أنه فكر فى فعل كذا ووضع خطة كذا وآمن بكذا . وهى أقوال يرى ولز أنه ربما لم يقم عليها دليل . ومهما يكن من شيء فإن حملات الإسكندر أحدثت فى الشرق نهضة كبيرة ودعوة تقدمية ، نهضة استنفرت بلاد اليونان إلى تجميع علوم أوائلها وتنظيمها وتبويبها والزيادة عليها . وهى الحركة والحقبة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالهللينستية . فقامت النهضات العلمية والفلسفية والحركات الدينية طوال تلك الحقبة الهللينستية وظهرت مجموعات ضخمة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين .

وبفضل هذه الهللينستية ومن برز فيها من الرجال وما عمها من روح ، أقبل الناس من جديد على دراسة أعمال معلمى اليونان القديمة فقاموا يبحثون عنها ويجمعونها ويدرسونها . فالهللينستية هى التى صانت لنا الأدب اليونانى القديم بما فيه من ملاحم وكوميديات وتراجيديا فضلا عما حوى من فنون الشعر وألوانه ، وهى التى حفظت أرسطو وأفلاطون من الضياع .

ولم تقتصر الهللينستية على تجميع حضارة اليونان القديمة فحسب بل إنها جمعت حضارات غيرهم من الأقدمين وصانتها من الدمار .

ومنذ اللحظة التى ظهر فيها الإسكندر سرت فى تربة هذه المنطقة روح جديدة قربت بين شعوبها وانتشرت فيها ، كما تغلغلت بين مختلف شعوبها بفضل اللغة اليونانية هى روح تفاهم كانت أساساً لشبه وحدة ثقافية حضارية عامة اعتنقتها شعوب المنطقة ومهدت السبيل لتلك الوحدة الثقافية والدينية العامة والترابط الحضارى الشديد الذى فرضه الإسلام ولغته العربية من المحيط إلى الخليج بقوة حملت شعوب ذلك النطاق على نبذ لغاتها الأصلية واتخاذ لغة القرآن لسانا وهو الشيء الذى لم تحققه حملات الإسكندر ولا حكم خلفائه ومن جاء بعدهم من يونان ورومان وبزنطيين .

وطريقة الكاتب فى الكتابة هى البحث بتعمق شديد وتركيز بالغ مع الإيجاز الذى يكاد يبلغ حد الاقتضاب أحيانا ، ذلك أن المؤلف شاء لغزارة علمه أن يكدس فيه — فى أضيق الحدود — أكبر قدر ممكن من المعلومات ، ثم عاد فأضاف إليه فى طبعته الأخيرة مجموعة ضخمة من المراجع والهوامش

تصـــدير المراجع

بين طيات هذا الكتاب الفذّ فصول عشرة ، تضم موضوعات قد يبدو لمن يتصفحها — لأول وهلة — أن بها شيئا من التناثر أو التنافر من حيث رءوس الموضوعات المختارة لفصول هذا الكتاب وأبوابه ثم الإغراق فى ذكر التفصيلات إلى حد الإسهاب أحياناً . ولكن هذه الموضوعات فى واقع الأمر تؤلف فى مجموعها وحدة متكاملة مترابطة ، بل وتعطى فى النهاية صورة قشيبة بها أطرف اللمحات عن مظاهر الحياة الإنسانية فى ظل تلك الحضارة الهللينستية الفريدة . ذلك أنها تكشف لنا عن شتى المناحى والألوان فى ضروب من الحياة التى عاشتها شعوب كثيرة من بلاد الشرق الأدنى وجزء ضخم من الشرق الأوسط طوال حقبة تربى على ثلثمائة عام قبل الميلاد . وقد جاءت تلك الصورة على نحو أخاذ ، تجلت فيه الروعة والجدة وحسن الأداء .

ولعل من عناصر تلك الروعة والجدة أن هذه الحضارة اجتاحت بلاد الشرق فى ركاب حملة عسكرية ضخمة شنها قائد عظيم هو الإسكندر الأكبر وهو فى ريعان شبابه (سن التاسعة عشرة) . وكانت ألوية النصر والحظ (Fortuna : Tyche) تلاحقه فى كل مكان وترفرف عليه بهالاتها حيثما ذهب . وفوق ذلك فإن تلك الحضارة سادت وعمت أرجاء الشرق الأدنى برمته وتغلغلت بصفة خاصة فى مناطق فسيحة منه ، كان للبعض منها حساسيته واستراتيجيته الخاصة. ولم تكن هذه الحقيقة الأخيرة لتغيب عن وعى اليونان والرومان . إنهم على التعاقب أدركوا مالها من أهمية وأولوها كل تقدير . ولدينا على سبيل المثال فيما كتبه المؤرخ الرومانى تاكيتوس خير شاهد على الأهمية التى بلغتها مصر وهى واحدة من بلاد الشرق الذى اجتاحته جيوش الإسكندر . إذ نوه بمركزها الجغرافى الفذ فقال جملته المأثورة : « مصر مفتاح البر والبحر » "Aegyptium claustra terrae et maris" ثم أكدت الأحداث المتعاقبة على مصر فى شتى العصور صدق قول هذا الكاتب الرومانى وحسن فراسته وتقديره .

خرجت من البلقان وبلاد اليونان وجزرها المنتشرة فى بحر إيجة تيارات تحمل ألوانا من تلك الحضارة الهللينسية وأخذت تنتشر فى أرجاء آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وفارس وسوريا وفلسطين ومصر — وهذه كلها بلاد كانت على مضى الزمان ملتقى تيارات فكرية ومهبط حضارات عريقة وبواتق انصهرت فيها تلك الحضارات. وكان من حسن الطالع أن قامت وسط تلك الحضارات دول — مدن يونانية، انتشرت فى أرجاء هذه المنطقة الفسيحة من الشرق الأدنى ، وكان قيام بعضها تلقائياً أو بحافز من المؤسسين لها لأسباب ودوافع متباينة. ولكن أغلبها أو بالأحرى سبعة عشر منها على الأقل يرجع تأسيسه إلى الإسكندر نفسه الذى أراد الأخذ بيد هذا الشرق وتوحيده ، وطبعه بالطابع اليونانى. واختار أن تكون وسيلته لتحقيق ذلك تأسيس المدائن على أوسع نطاق، لتكون بنظمها وأسلوب الحياة التقليدى والمرعى فى كنفها بمثابة مناطق إشعاع ضخم يهدى الناس وينير لهم سبل الحياة الحضارية الجديدة. وعلى أثر ذلك قامت انتفاضات متعاقبة ، أخذت تبعث فى قلوب الناس روحاً جديدة فى عصر شهد من الأحداث أضخمها .

كان من أولى تلك الأحداث الجسام ظهور دولة مقدونيا نفسها وهى تطل على الساحل الشمالى من بحر إيجة (بحر الأرخبيل) . فخرجت من دور التفكك الذى رميت إبانه بالعجمة والهمجية بالنسبة لبقية اليونانيين وأخذت تردد دعواها ونداءها على عهد فيليب الثانى والد الإسكندر الأكبر بأنها نصيرة اليونان والعاملة على تجريد حملة مشتركة شعواء على دولة الفرس .

وثانى تلك الأحداث الجسام تقويض دولة الفرس على يد الإسكندر وتقلص سلطانها وتخليص بلاد كثيرة من الشرق الأدنى مما كانت قد عانته من سيطرة الفرس وسلطانهم .

وهكذا استقبل الناس والشرق عهدا جديدا بمقدم الإسكندر وحياة عرفت منذ ذلك الحين بالهللينستية، تمييزاً لها عن الحضارة اليونانية العريقة وهى الهللينية الصميمة . وكانت تلك الهللينستية خليطا من عناصر هللينية ، مشوبة بأخرى شرقية بين أسيوية وإفريقية ومصرية. وقد قدر لتلك الحضارة الجديدة

تعد بالمئات ، رأت إدارة الثقافة التجاوز عنها حتى لا ترهق بها القارىء العربى غير المتخصص .

والواقع أن الكتاب يعطى صورة واضحة متكاملة للحقبة والمنطقة . فبفضله يلم القارىء بتاريخ مصر فى عهد البطالمة ، وبتاريخ سوريا فى عهد السلوقيين إلى غير ذلك من بلاد الشرق الأوسط والأدنى ، فضلا عن أحداث بلاد اليونان مع إحاطة واسعة بالحركات والتفاعلات الفلسفية والأدبية والدينية ، الأمر الذى عرض له الأستاذ المراجع فى تصديره بالتفصيل الوافى .

وتاريخ هذه الحقبة غامض فى أذهان كثير من أبناء العربية الذين آلت إليهم هذه الأرض بعد أن غزاها اليونان والرومان مدة تربو على الألف سنة كما أصابوا كثيراً مما كان عليها من إرث فكرى وعلمى وثقافى .

وقد حرصنا على تزويد الكتاب بالخرائط التى زودت بها الطبعة الإنجليزية الأخيرة وأضفنا إليه فهرساً أبجدياً ليسهل على القارىء الرجوع إلى مايريد من مواده .

وإنى لأرجو أن يجد قارىء هذا الكتاب المتعة التى وجدها فى كتابى « الحضارة البيزنطية » لستيفن رانسيمان ، « وحضارة الإسلام » لجرونباوم ، وهما الكتابان اللذان أسعدنى الحظ بنقلهما إلى العربية . كما آمل أن يتهيأ للقارىء العربى المثقف الذى لم تسعفه الظروف بمطالعة الكتابين السابقين — أن يقرن بينها جميعا حتى تتكامل لديه بالحضارة الهللينستية صورة مشرقة لحضارة الشرق الأوسط مبتدئة من الأصول البالغة القدم عند اليونان ، إلى الفروع والثمار باذخة الذرا التى تجلت فيها صورة حضارة العرب والإسلام .

ومن الله نستمد التوفيق والرشاد ؟

أول نوفمبر ١٩٦٦

عبد العزيز توفيق جاويد
مدير المركز الرئيسى للتدريب
بمنشية البكرى

أن تسود أرجاء الشرق وتنتشر فى ربوعه ، وأن يقبل الناس فى كل مكان على المضى فى تيارها والأخذ من خيراتها بنصيب .

وساعد الملوك والحكام ممن خلفوا الإسكندر على السير فى ركب تلك الحضارة الجديدة . فأسسوا جميعاً المدن اليونانية فى بلادهم ، أسوة بما كان يفعله الإسكندر وتبريراً لادعائهم بأنهم خلفاؤه . وبينما توسع السلوقيون فى آسيا والشام فى هذا المضمار ، إذا بالبطالمة فى مصر يحجمون ، فكان نصيب مصر أقل القليل من حيث تأسيس المدن . على أن مصر البطلمية كانت بين هذه الدول سباقة فى أكثر من مضمار آخر وسارعت إلى تذوق شتى ألوان تلك الحضارة الهللينستية .

وهذا الكتاب الذى يحوى بين دفتيه ألوانا شتى من تلك الحضارة يمتاز بأن مؤلفه وهو السير تارن ، مؤرخ بارع وعالم ضليع فى الدراسات الكلاسيكية واليونانيات منها بوجه خاص . وفضلا عن ذلك فقد عاش حقبة من عمره فى بلاد الشرق وجاب أقطاره وأمصاره ، فتعرف على أحواله وطبوغرافيته إبتداءً من الهند حتى العراق وآسيا الصغرى وسوريا . وهكذا أتيح له من الفرص ماساعده على أن يجمع حصيلة ضخمة من المعرفة الوثيقة عن بلاد الشرق القديم وتراثه . ومكنه هذا من استيعاب ماوقع تحت بصره مما ساقه المؤرخون والجغرافيون القدامى من أخبار هذه البلاد وأوصاف شعوبها وأحوالهم . وتوافر له حظ كبير من المعرفة بفضل ما أتيح له من الإطلاع على مجموعات من أوراق البردى وموسوعات النقوش اليونانية واللاتينية — ساعده كل ذلك على تصنيف كتابه هذا والإلمام فيه بجوانب كثيرة وجمع أشتات من المعرفة . وقد استطاع أن يحيط بموضوع الحضارة الهللينستية فى فصول هذا الكتاب وأن يربط فيه بين الأحداث التى جرت فى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر وما توالى عليها من دول متعاقبة . وأفرد لكل بلد من هذه البلاد فصلا قائماً بذاته ، ثم تعمق فى التعرف على التيارات الفكرية والفلسفية التى وفدت على هذه المنطقة . وبلغ فى هذا الجهد حد استيعاب العناصر الأساسية فى هذا الموضوع والإحاطة بأطراف كبيرة منه فى قدرة وبراعة . فكان ينحو نحو الإيجاز والتلميح أحياناً إلى أمهات المسائل التى قد

تجول بخاطر الباحث المدقق ، ولكنه لم يغفل الإشارة إلى كثير من البحوث الجديدة ، والاراء الحديثة فى شتى الموضوعات فى ضوء ما كشف من أوراق البردى وما أثير حول البعض الآخر من مختلف النظريات والآراء . تم كل هذا دون إخلال بالفكرة العامة التى كانت هدف المؤلف وهى بيان وتوضيح ماجلبته تلك الحضارة الهللينستية إلى بلاد الشرق الأدنى من آراء وفكر وما أدخلته فى ربوعه من مشروعات وأستحدثته من نظم إداريةوغير إدارية. وبذلك قدم لنا المؤلف صورة رائعة لما أسهمت به كل بلد من تلك البلاد ومبلغ مابذلته من جهد فى هذه الحركة الحضارية وما اكتسبته من خبرات على أيدى أولئك اليونانيين والمقدونيين الوافدين كالسيل المنهمر على ربوع الشرق عامة وعلى سوريا ومصر خاصة .

ولا يمكن أن ينتقص من هذا التقريظ ما يعاب على المؤلف من أنه آثر فى بعض الأحيان التعمق فى موضوعات دون أخرى وأنه نحا نحواً كانت بغيته فيه أن يزود القارىء بشتى التفاصيل عن موضوعات عابرة من صميم الفلسفة والدين والأدب وفنون العمارة وأعمال التجارة وحركات الاستكشاف وغير ذلك من ألوان المعرفة وعناصر الحضارة . فتلك أمور كان يتطلبها مقتضى الحال ويستلزمها تشعب الموضوع وحالة الشمول التى تتضمنها كلمة الحضارة فى حد ذاتها . ولما كان من العسير الإلمام بأطراف موضوع مشعب كهذا ، نظراً لأن التيارات فى هذه المنطقة وفى هذه الحقبة بالذات ، متداخلة ومتلاطمة وعدائية فى بعض الأحيان ، فإن الأمر يتطلب شيئا من الصبر والأناة حتى تستبين لعين القارىء العادى عناصر الموضوع برمته .

ولئن كان المؤلف قد تحاشى أن يخوض فى موضوع روما وجمهوريتها الناشئة ، فإن أثر قيامها كان ملحوظا فى سياسة دول الشرق .

على أنه كان من حسن حظ الحضارة الهللينستية أن روما لم تعمد إلى إزاحة النفوذ اليونانى واقتلاع جذور الثقافة اليونانية من طريقها وطمس معالم تلك الحضارة العريقة ومظاهرها الهللينستية المتأصلة فى هذه المنطقة . وما كان فى وسع روما أن تجتث معالم تلك الحضارة من ربوع هذه المنطقة ، ولذا استسلمت للأمر الواقع وتركت اليونان ينشرون ثقافتهم ويجولون ويصولون فى بلاد الشرق .

والآن نعود لتفصيل بعض ماجاء في هذا الكتاب من جزئيات وماعرض له المؤلف من تفصيلات . إنه في سبيل تمكين القارئ من الإحاطة بموضوع مترامي الأطراف والتعرف على مناهج الحضارة الهللينستية ومناطق نفوذها آثر أن يقدم لكتابه بتمهيد تاريخي مستفيض ، فعرض لنا تاريخ كل من مصر البطلمية وسوريا السلوقية في إطار معقول، مبيناً ما كان بين الدولتين الجارتين من علاقات ودية حيناً وعدائية أحياناً أخرى ، وذكر المؤلف في ثنايا ذلك تاريخ اليهود في فلسطين وعلاقتهم بالحضارة الهللينستية — ثم عرض لتاريخ آسيا الصغرى وبابل ومنطقة أرض الجزيرة وما اجتاحها من تيارات عابرة من الشرق والشمال والغرب ، خلفت بها آثاراً لا تحصى فيما أقامته من مدن وما جلبته من فكر وما تركته في عقول الناس من روح التجديد والتوجيه .

ولم ينس المؤلف أن يخصص شطراً لا بأس به، يمثله الشق الأخير من كتابه أفرده لفصول ممتعة عن موضوعات متفرقة ، منها عيون الأدب من التراث اليوناني واللاتيني ومنها الفلسفة والمذاهب الفكرية التي سادت في هذه المنطقة ، ثم الديانات ومختلف الآلهة التي كانت تعبد في صور وأشكال متباينة — وقد أوضح لنا المؤلف كيف تداخلت تلك الآلهة وتقاربت وتآلف منها في مصر مثلا مأمعة من الديانات الوثنية على حد قول سير هارولد إدريس بل في كتابه عن « العقائد والديانات . في مصر اليونانية - الرومانية » ، الفصل الأول .

وعلى الجملة فقد وفق المؤلف أيما توفيق في إثارة السبيل لتفهم الأسس التي قامت عليها تلك الحضارة ، وما جرفته في عمارها من حياة الشعوب النازلة في هذا الجزء من عالم الشرق القديم فغيرته وبدلته . وقد عدد ما أقامته من نظم بديلة وما قدمته من مظاهر وما أدته من خدمات عن طريق التبويب والترقيم وحفظ تراث الأدب الكلاسيكي . فكان هذا العمل الجليل حسنة من حسنات الحضارة الهللينستية ، ولها الفضل كل الفضل فيما أدته للعلم وللانسانية جمعاء في عصورها المتعاقبة من خير وما حفظته من تراث .

زكي علي

أستاذ التاريخ القديم - كلية الآداب بجامعة القاهرة
ورئيس قسم التاريخ بها سابقاً

القاهرة في ١٢ يوليه ١٩٦٦ .

مقدمة الطبعة الثالثة

عندما صدر هذا الكتاب لأول مرة فى ١٩٢٧ أسميته « محاولة للحصول على صورة عامة لحضارة العصر الهلينستى » ، وهى مدة اشتد إهمال العلماء البريطانيين لها فى ذلك الوقت . وقد اضطررت حتى فى عام ١٩٢٧ نفسه — رغبة فى وضع العمل فى حدود معقولة — إلى حذف موضوع اليونان فى الغرب (إيطاليا وصقلية) وإغريق الشرق الأقصى (باكتريا والهند) ؛ فأما حدود الزمان التى التزمتها ، فهى الفترة التقليدية الممتدة من عام ٣٢٣ ق.م (أى تاريخ وفاة الإسكندر) إلى ٣٠ ق.م (أوغسطس) ، أما المكان فهو العالم الممتد بين البحر الأدرياتى والصحراء الفارسية بما فى ذلك مصر . ثم ظهرت فى ١٩٣٠ طبعة أخرى أضيفت إليها الهوامش وبضع إضافات قليلة ، وظلت تلك الطبعة تتداول من ذلك التاريخ. وفى الحين نفسه ظهرت فى كثير من اللغات طائفة ضخمة جداً من الدراسات الخاصة والبحوث ذات الموضوع الواحد تتعلق بتلك المدة ، فضلا عن المكتشفات الجديدة . ولما أن أصبحت الحال تحتم بشدة ظهور طبعة ثالثة منقحة من هذا الكتاب ، حالت الحرب دون ذلك . على أن محاولة الحصول على صورة عامة فى حدود معقولة ، وهو الغرض الذى لانزال نهدف إليه من الكتاب — زادت عند ذلك عسراً على عسر . ومن الأعمال المطولة الشاملة التى يستطاع الحصول عليها الآن فى الإنجليزية كتاب « تاريخ العالم الإغريقى من ٣٢٣ إلى ١٤٦ ق . م » (١٩٣٢) للأستاذ م. كارى ، فضلا عن الفصول المرتبطة بالموضوع والمنشورة فى « تاريخ كمبردج القديم » C. An. History (الفصول ٦—١٠) ، التى تغطى الموضوع وجميع البلاد عدا الشرق الأقصى ، والكتاب الفخم الذى ألفه العلامة م. روستوفتزف وأسماه « التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الهلينستى » (٣ مجلدات ١٩٤١) ، وهو يستوعب كل الاستيعاب المادة التى يدرسها .

وفى هذه الطبعة من كتابنا « الحضارة الهلينستية » شطر عظيم لم تمسه اليد بالتغيير ، على حين أن قطعة كبيرة منه قد نقحت أو أضيف إليها أو أعيد صوغها أو بدلت تبديلا ، رغبة فى محاولة جعله متمشياً مع التقدم العلمى إلى حد ما ، ومن ثم فالكتاب الذى بين يديك طبعة جديدة وليس كتاباً جديداً بأى معنى من المعانى .

وقد حالت الظروف دون قيامى بهذه الطبعة بمفردى ، ولكن كان من حسن حظى أن تفضل بالتعاون معى المستر ج. ت. جريفيث ، الذى تحمل العبء الأكبر من الجهد كله ورفع عن كاهلى النصيب الأكبر من العمل ، وهو وضع أرانى إزاءه مديناً له بأعظم آيات الشكران . ونحن على وجه الجملة متساهمان فى تبعة الحقائق التى يضمها الكتاب ، ولكن هناك حالات استثنائية : فالمستر جريفيث مثلا لا يوافقنى على الآراء التى عرضت لها فى الفصل الثانى حول مسألة اشتد فيها الجدل والنقاش بين أهل الرأى ، وهى الدوافع التى دعت إلى تأليه الإسكندر فى حياته . ويفضل أن يرجئ الحكم على مسألة تصور الإسكندر لفكرة الأخوة البشرية (أول الفصل الثالث) . وفضلا عن ذلك، فإن الكتاب على ما كتبته فى ١٩٢٧ كان عملا شخصياً بحتاً ، تحدثت فيه بضمير المتكلم بوفرة إلى حد ما ؛ وبعد إعطائنا الأمر حقه من التأمل والبحث عولنا على أن يظل هذا الوضع على حاله ، وإلا أصبحنا نقدم فى ثوب الحقائق ما ليس إلا تفسيرى الشخصى لتلك الحقائق ، أو للتخمينات إن شئت ، وزميلى فى العمل غير مسئول بطبيعة الحال عن تأويلاتى الشخصية للأمور . وقد انتقل إلى دار البقاء معظم العلماء الذين عبرت عن امتنانى لهم فى طبعة ١٩٢٧ ، بيد أنى أرى من الواجب تقديم الشكر للأستاذ العلامة ا . د . نوك بجامعة هارفارد لما قدم لنا من مساعدة كريمة فى نقاط معينة فى القسم المنقح عن الديانات . ويهمنا أن نقدم الشكر للسادة إدوارد أرنولد وشركاهم على تفضلهم بنشر هذه الطبعة الجديدة وعلى محافظتهم على حياة طبعة ١٩٣٠ بمعاودتهم طبع الكتاب من جديد بين الفينة والفينة ، ونود بوجه خاص أن نعبر عن شكرنا للمستر ب. و. فاجان على الاهتمام والمساعدة التى أولاها إيانا فى أثناء إعداد هذه الطبعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالخرائط ، التى هى ظاهرة جديدة فى الكتاب .

و . و . تارن

عن ميور تون هاوس بأنفرنس

منتصف صيف ١٩٥١

الفصل الأول

خلاصة تاريخية

الغرض من هذا الكتاب تقديم خلاصة موجزة تشكل صورة تخطيطية لحضارة القرون الهللينستية الثلاث، الممتدة من وفاة الإسكندر في عام ٣٢٣ ق.م. إلى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد أوغسطس في عام ٣١ ق . م.(١) ومن البديهي أن هذه الحدود إن هي إلا شيء وضعي بحت ، وذلك أن بذور بعض مظاهر الروح الهللينستية تبدأ في الظهور قبل الإسكندر ، كما أن أوغسطس لا يمثل في بعض النواحي أي فاصل حقيقي بين عهدين . غير أن هذه الحدود تقوم بتوكيد حقيقتين : أولاهما أن الدوافع الخلاقة التي تمخضت عنها سيرة الإسكندر وحياته لم تترك ألبتة شيئاً على حاله الأولى ، وثانيتهما أنه بعد أن سقط العالم الهللينستي سقوطاً نهائيا بين أطلال الدمار الذي خلفته الحروب الأهلية الرومانية ، بدأ ينهض من جديد في عهد الإمبراطورية على أسس مغايرة ، فأصبحت الحضارة بذلك ذات طابع إغريقي روماني . وفي جميع فصول هذا الكتاب تعتبر روما والتاريخ الروماني من الأمور المسلم بها . وكل ما يعنينا أن نلمس بأيدينا الروح الهللينستية وطابع ذلك العالم الذي تكشف للجمهورية الرومانية عند ما توغلت شرقاً . فإن تلك الجمهورية عند اتصالها بالحضارة الهللينستية كانت — على النقيض من الإمبراطورية — لا تعدو أن تتقبل ما يعرض لها ، ولم تكن بلاد الإغريق التي علمت روما هي بلاد الإغريق العريقة بل الحضارة الهللينستية المعاصرة، وبقدر ما تقوم الحضارة الحديثة على دعائم من المدنية الإغريقية ، فإنها إنما تقوم قبل كل شيء على الحضارة الهللينستية .

(١) جميع التواريخ والقرون التي في الكتاب من أوله لآخره قبل الميلاد ، ما لم ينص صراحة على غير ذلك .

والآن ماذا تعني لفظة الهللينستية(١)؟. ذلك ما اختلف فيه الثقات. فمن قائل إنها ثقافة جديدة مركبة من عناصر يونانية وشرقية، ومن قائل إنها عبارة عن امتداد الثقافة اليونانية إلى الشرقيين، ومن قائل إنها استمرار للنهج القويم الذى كانت تنتهجه الحضارة الإغريقية القديمة، وعدا هذا فهناك من يقول، إنها هى نفس تلك الحضارة منقحة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة(٢). وما من ريب أن جميع هذه النظريات تحتوى على نصيب من الحقيقة، ولكن ليس منها ما يمثل الحقيقة برمتها. وكلها غير صالح، ولا يستقيم العمل به إذا ما تناولنا التفاصيل، كقولهم (مثلا) إن الرياضيات الهللينستية كانت يونانية صرفة، على حين أن الفلك وهو شقيقها كان علماً يونانياً بابلياً. ولا بد لنا للتعرف على صورة حقيقية لتلك الحضارة من إلقاء نظرة على جميع الظواهر، وعندئذ يتجلى لنا أن الهللينستية ماهى إلا عنوان مناسب للدلالة على حضارة تلك القرون الثلاثة التى كانت فيها الثقافة اليونانية تسطع بأضوائها بمنأى من أرض الوطن الأصلية(٣)، ولن يستطيع تعريف عام أن يغطى كل هذه المعانى. وفضلا عن ذلك، فإن هذه القرون الثلاثة تمثل من بعض النواحى طورين من أطوار الحضارة لا طوراً واحداً: الطور الأبكر الذى يتسم بالابتداع الخلاق فى بروج العلوم والفلسفة والأدب والنظم والأوضاع السياسية للدول، عدا أشياء أخرى كثيرة اضطلع بها عالم إغريقى مقدونى مستقل حين مد ألوية حضارته على آسيا. والطور الأخير يتميز بذلك الكلل الذى أصاب الدافع الخلاق، والإعياء الذى اعترى تلك الروح الإنشائية الخلاقة كما يتميز بظهور رد الفعل الروحى والمادى المنبعث من الشرق ضد الغرب. وذلك بينما كان العالم الإغريقى المقدونى محصوراً بين رد

---

(١) تستخدم فى الإنجليزية لفظة (Hellenism) رغم خروجها على قواعد القياس والاشتقاق بدلا من لفظة (Hellnisticism) لأن ذلك ما جرى به العرف فى الاصطلاح التاريخى لصعوبة الكلمة الثانية، ولأنه قد فات أوان صوغ بديل عن الأولى فى اللغات الأجنبية، فأما فى العربية فقد استعملنا لفظى الهللينسى والهللينستية.

(٢) R. Laqueur Hellentimus, 1925; Berve, Phil. Wach 1926 329, gurbnes, G. G. A 1926, 76, schufant N. G. Klalt 1926, 637.

(٣) تضم مدرسة من المدارس العلمية حضارة الجمهورية الرومانية المعاصرة إلى المدنية الهللينستية. ولكن هذا الكتاب لا يدرجها تحتها على هذا النحو، وإن كنت لا أريد أن أبدى رأياً فى هذا الشأن.

الفعل» ذلك من ناحية وبين روما من ناحية أخرى. حتى لقد اضطرت روما فى آخر المطاف ، وقد ذمرت نظام الدول الهللينستية ، أن تحل محلها بوصفها حاملة للواء الثقافة الإغريقية . وليس فى الإمكان على الدوام فصل هذين الدورين فصلا قاطعاً ، ولكن معالم التطور فى أى أمر معين تصبح أيسر فهما إذا وضع التميز الإجمالى المذكور أعلاه نصب الأعين. ومع هذا فإن هناك نواحى كثيرة كانت فيها الحقبة الهللينستية تؤلف بالفعل كلا متماسكا. وسنلقى عليها بهذا الوصف نظرة عجلى .

كان عالم الهللينستية قد مسته يد التغير واتسعت آفاقه . ومع أن الروح الانفصالية التى انطوت عليها « دولة المدينة » الإغريقية قد كتب لها أن تظل فى الواقع قوية ومتينة إلى حد ما ، إلا أنها كانت قد تحطمت من الناحية النظرية ، وأخذت تحل محلها فكرة العالمية الشاملة ونتيجتها الحتمية : وهى الروح الفردية . وتتولد تلك الفكرة عن وجود « عالم مأهول Oecumene » بوجه عام ، هو بمثابة تراث شائع للمتحضرين من الناس ، ونشأت لخدمته اللهجة الإغريقية المسماة باسم الكوينى « Koine » أى « اللسان العام » الذى كان شائعاً كذلك بين كثير من الأسيويين . وبفضل اللغة اليونانية أصبح من اليسير أن ينتقل الإنسان من مرسيليا إلى الهند ، ومن بلاد القوقاز إلى شلالات مصر . أما القومية والروح الوطنية فقد أصبحتا دبر الأذن. ومن الجلى أن التعليم واللسان العام المشترك يتمخضان عن ثقافة مشتركة فى كل مدينة من مدن «العالم المأهول» ، أجل إن الأدب والعلم والفلسفة قبل كل شيء ، قد تشمل فعلا إلى حد ما عالماً أوسع نطاقاً من بلاد اليونان ، وأن علية القوم بروما وبأجزاء من آسيا قد أصبحوا يحسون أن الثقافة اليونانية شيء ينبغى أن يتحلى به المرء من الناحية الظاهرية على الأقل . وقد أصبحت التجارة دولية وأزيلت معظم الحواجز : إذ حور الفكر بصورة لم يبلغها مرة ثانية إلا فى العصور الحديثة ، ولم يعد للتباغض بين الأجناس وجود ، اللهم إلا عند بعض المصريين الوطنيين وبعض اليهود فيما يظن ، ولم يكن الاضطهاد الدينى لأسباب دينية بحتة معروفاً فى ذلك الزمان (إذ المعروف أن اعتداء أنطيوخوس على اليهود كان إجراءً سياسيا) ، وكانت النزعات الخلقية من شئون العلم لا السلطان . وكان لشخصية الفرد

وكيانه مجال حر . وكان العصر عصر أخصائيين من الباحث العلمي إلى النجار الذي يصنع الباب، إلا أنه يحتاج إلى رجل آخر ليقيمه. وعندما حاول بوسيدونيوس للمرة الأخيرة الإلمام بجميع نواحي المعرفة كما فعل أرسطوطاليس من قبل، تجلت سطحيته في بعض النواحي والآفاق . بل إنه حتى القرن الثالث نفسه الحافل بالخلق والابتكار يختلف عن سابقيه في أنه وإن كان الروح الإغريقي لم يزل ذا أهمية قصوى، إلا أنه لم يعد في الإمكان القول بأن كل فكرة مثمرة كانت وليدة العقل الإغريقي وحده . وذلك لأنه بغض النظر تماما عن العقيدة الدينية والفلك، لم يكن الابتكار الأعظم الوحيد في ذلك العصر، ألا وهو الفلسفة الرواقية إلا وليد فكر إنسان كان أهل عصره يعدونه فينيقياً قحاً، سواء أجرت في عروقه بضع قطرات من الدم الإغريقي أم لا .

والتماثل بين ذلك العالم وعالمنا يكاد يملؤنا بالعجب والدهشة لأول نظرة نلقيها . فقد كانت به نفس المجموعة المتشابكة من الدول ما بين كبيرة وصغيرة، مع وجود أشكال ونظم مختلفة للحكومات، منها ما هو أكثر تقدما مما عداه، وكلها تعمل داخل نطاق حضارة مشتركة . وفضلا عن بعض الظواهر التي ذكرناها آنفاً، فإنه كانت هناك ظواهر أخرى كثيرة تبدو عصرية إلى حد كبير . ومن أمثال هذه الظواهر تلك المشكلات التي لا تنقضي على كر التاريخ كمشكلات الأسعار والأجور، والاشتراكية والشيوعية، والإضراب والثورة، ونمو الفكرات الداعية إلى النزعات الإنسانية والأخوية مصحوبة بألوان وحشية من النزاع والخلاف، وتحرير المرأة وتقييد عدد السكان، ومسائل نيل الحقوق السياسية، بل والتمثيل النيابي (فيما يحتمل) والهجرة وطبقة البروليتاريات Proletariat أو الطبقة الدنيا من العامة، وقيام كل من العلم المضبوط الدقيق وغليظ الخزعبلات أحدهما إلى جوار الآخر، وظهور مجموعة ضخمة من المؤلفات تعالج كل ميدان من ميادين النشاط البشري، وهي في الغالب تتسم بالكفاية، ولكنها لم تعد تخرج بعد كتاباً يضارعون الأسماء العظيمة التي برزت في الماضي، وكذلك انتشار التعليم الذي يتمخض عن صنع كتل متراصة من أنصاف المتعلمين، ونشوء طراز من الدعاية أشد وعياً، ونمو شعوب أنصاف متحضرة تتعلق بأذيال العلم والتاريخ والدين . ولا يعنيني في هذا المقام كثيراً أن أسرد ما في

العالم القديم من أشباه لما فى العالم الحديث ، وإنما آثرت فى الأحوال العادية أن أترك ذلك الأمر لفطنة القارئ ، ولكن ينبغى ألا نغلو فى جمع مثل تلك النظائر والتغلغل وراءها . فإن كثيراً من الأشياء وإن أوتى فى ظاهره شيئاً من الشبه لما فى عالمنا العصرى من أشياء ، إلا أنها قلما كانت متماثلة أو متطابقة ، مثال ذلك أن وجه الشبه ضئيل لا يكاد يذكر بين الإضراب المصرى القديم والعصرى ، أو بين الشيوعية العصرية والشيوعية الرواقية . وكان يكمن وراء كل شيء فارقان أساسيان وقاطعان : أولهما أنه كان عالماً خالياً من الآلات (الماكينات) ، وثانيهما أنه كان مملوءاً بالرقيق . وهذه الحقيقة الأخيرة شيء لا داعى إلى المبالغة فى تأكيده إذ لن يتيسر لنا الحصول على صورة واقعية للمجتمع الهللينستى ، إلا إذا كان الرق موجوداً أمام نواظرنا ، لا يغيب عنا أبداً . ولا يغربن عن البال أن كثيراً من الآمال المرجوة كالحرية والأخوة — بل حتى الثورات نفسها — كثيراً ما تحمل إلينا صورة لا تمت إلى الواقع بأدنى سبب عندما نتذكر بوضوح أن شطراً كبيراً من السكان قد أخرجه معظم الناس عن مجاله الأصلى وأسقطوه من حسابهم .

ولطالما عالج المؤرخون الحقبة الهللينستية باعتبارها فترة اضمحلال بل حتى انحلال وانهيار ، ولكن لعل قلة منهم هى التى تهتم الآن بالنقاش والجدل فيما إذا كان ذلك يصدق على القرن الثالث . فإن مثل هذه التسميات لا يمكن أن تنطبق — إذا انطبقت على الإطلاق — إلا على الفترة التى أسميتها بالطور المتأخر ، ولو فرض حتى إنها انطبقت على تلك الفترة ، فإن الأمر هنا فيما أظن لابد أن يتوقف إلى حد كبير على وجهة النظر . مثال ذلك أننا إن أعرنا العلوم الطبيعية أو الفنون منزلة الصدارة القصوى ، كان الطور المتأخر طور انحطاط وتدهور ، ولكن إذا وضع بزوغ فجر بعض الغرائز والمشاعر الدينية من التى قد تمهد السبيل لأحداث أعظم وأكبر ، موضع تقدير واهتمام يعادل منزلة تلك العلوم والفنون على الأقل ، كان ذلك الطور طور نماء . والشيء الذى يبدو فعلا أننا نراه فى الطور المتأخر ، هو مجموعة من المتناقضات ، فنحن نسائل أنفسنا مثلا : أى الأشياء يمثل حقاً أواخر القرن الثانى ، أهو سوق الرقيق بديلوس أو فك الرقاب والعتق بدلفى ؟ وهل لنا أن نبدأ بحث موضوعنا من أفعال الساحر المشآء ،

أو استناداً إلى آراء الرواقى الذى كان يعتقد بأن الفضيلة هى الجزاء الأوفى عن نفسها ؟ وأنا نفسى قد أتجاسر وأعبر عما يخالجنى من شكوك كبيرة فى أن اليونانى القح الذى هو قوام الأرستقراطية العنصرية فى المحيط الإيجى ، قد اعتراه الاضمحلال والانحلال حقاً . وليس هذا بالرأى الأكثر شيوعاً بين أهل الرأى ، بيد أنى قد عرضت الحقائق على ما بدت لى . وينبغى أن تساعد تلك الحقائق القارئ على استخلاص نتائجه الخاصة . وهناك أشياء كثيرة أيضاً ، قد تبدو لأول نظرة تلقى عليها كأنما هى حالة انحطاط وتدهور ، ولكن يمكن تعليلها فى ضوء اعتبارين هامين . أولهما هو النقص المتواصل فى عدد الإغريق الأقحاح بعد حوالى عام ٢٠٠ ق . م ، ثم بالإضافة إلى ذلك دخول العناصر الأجنبية أو امتزاجها بهم ، وهى التى مهما يكن مقدار ما يكمن فيها من قدرات ، لم يكن لديها فى الغالب فى ذلك الزمان ما كان للإغريق من طاقة ذهنية ولا سياسية ولا اجتماعية . وثانيهما هو مسلك الجمهورية الرومانية التى جعلت همها تحطيم الروح اليونانية، حتى ترامت فيما يرجع إلى إقناع أناس كثيرين ـ فضلا عن ملوك سوريا ومصر ـ بأن كل جهد مقدر عليه مقدماً بأن يكون شيئاً لاغناء فيه ولا طائل تحته . ومن الطبيعى أن مجرد الإذلال والإخضاع البحت بوساطة قوة متفوقة تفوقاً عظيما ـ مهما يكن من يستخدم تلك القوة ـ لا علاقة له بالموضوع . وليس من شئون التاريخ فى شىء أن يهلل بالتحية لضخام الكتائب .

ولا بد لنا من أن نسجل هنا ملحوظة على المصادر الأدبية . ففضلا عن كونها جزئية بتراء ، بل وأهم من ذلك كثيراً ، أنها كثيراً ما تكون معادية لما تصف (ولا يشذ عن ذلك إلا بلوتارخوس) ؛ بل إنه حتى بوليبيوس نفسه لم يكن حظه من عدم التحيز إلا ضئيلا . ولا مراء أن من التضليل البحت نقل دعاية حزبية كالتى يتمثلها بوزانياس مثلا عند كتابته عن نهاية الحلف الآخى أو كالتى يسطرها جستن عن بطلميوس يوجتيس الثانى — وتسميتها باسم التاريخ . وهناك سؤال أعتقد أننا لا نزال بعيدين إلى حد ما عن الوصول إلى إجابة مضبوطة عنه ، وهو : ما قيمة الشىء الكثير من المتواتر إلينا من الروايات ؟ إذ يخيل إلى أن هناك فى هذا العصر عدداً كبيراً من الشخصيات والأحداث

التى لا نراها مطلقاً فيما أعتقد ، وكل ما نراها إنما هو ستار أدبى تشوبه غشاوة.
بيد أن لدينا مصدراً لا يبرح يزداد على الأيام وفى الإمكان أن يعوّل عليه ، هو النقوش والبرديات المعاصرة ، وبفضلها أخذ الدخان ينقشع فعلا شيئاً فشيئاً .

* * *

كانت إمبراطورية الإسكندر تشمل عند وفاته مقدونيا ومصر ومعظم آسيا من بحر إيجة إلى بلاد البنجاب ، إلى الجنوب من خط القوقاز وقزوين ، وذلك باستثناء بلاد العرب وأرمينية وشمال آسيا الصغرى. وقد تحالفت وإياه بمحض حريتها معظم المدن اليونانية بآسيا فيما عدا تلك التى كانت واقعة على البحر الأسود، على حين كان حلف كورنثة ينظم علاقاته بتلك المدن الواقعة فى بلاد اليونان الأصلية . ومات الإسكندر دون أن يترك وريثاً ، ودون أن يضع أية ترتيبات لمواصلة نظام الحكم فى البلاد. ولم يكد قواده يقضون على ثورات الإغريق فى الحرب اللامية وعلى تمرد اليونان بالشرق الأقصى، حتى شب بينهم نزاع على الحكم اتخذ صورة حرب بين الستاربة Satraps (أى الأسر الحاكمة المحلية) وبين أية قوة مركزية كانت تهدف إلى التسلط العام على الجميع ، وقضت معركة إبسوس Ipsus سنة ٣٠١ بصفة نهائية على كل أمل فى جمع شمل العالم الإغريقى المقدونى . وما لبث ذلك العالم أن عاد من الناحية السياسية إلى ما يقرب من الوضع الذى كان عليه قبل الإسكندر وإن صار له حكام آخرون ، واستظل بحضارة مخالفة . وما حلت ٢٧٥ حتى أضبحت ثلاث أسر ملكية منحدرة من ثلاثة من قواده ، موطدة الملك راسخة القدم . فحكم السلوقيون شطراً كبيراً من رقعة الإمبراطورية الفارسية القديمة بآسيا ،وحكم البطالمة مصر وتربع آل أنتيجونس على عرش مقدونية. وما لبثت أسرة مالكة أوربية رابعة لاتمت إلى الإسكندر بأية صلة هى أسرة أتالوس صاحبة برجامة، أن اتسعت رقعتها بآسيا الصغرى على حساب الدولة السلوقية ، كما علا شأوها بفضل روما . ثم أخذت روما تقوم بدور فى الشئون الهلينستية بطريقة تنطوى على شىء من الحذر أولا ، حتى انتهى بها الأمر إلى التهام عالم البحر المتوسط بأكمله ، بعد أن سقطت فى يدها آخر دولة مستقلة وهى مصر فى ٣٠ ق.م.

ولا يسعنا إلا أن نشير إشارة موجزة إلى قصة الكفاح المعقد الذى شب بين القواد حتى ٣٠١، والذى خاضت غماره إلى حد كبير مرتزقة من جميع الأجناس. وكان الجيش قد رتب الأمور بعد موت الإسكندر على صورة تجعل الملك شركة بين أخيه الأبله وغير الشقيق فيليب الثالث وولده الإسكندر الرابع المولود بعد وفاته من زوجته روكسانا : واستولى قائده برديكاس على أزمّة الأمور فعلا بآسيا . كما استقر الأمر لأنتيباتر فى أوربا ، حيث كان يحكم مقدونيا ويشرف على بلاد الإغريق بالنيابة عن الإسكندر . واقتسم نفر من القواد مختلف الولايات (الستراپيات) من جديد . فحصل بطلميوس وهو رجل حكيم بعيد النظر ، على مصر فى ذلك التقسيم . كما حصل أنتيجونس ساتراب أو والى فريجيا الأعور على نصيب آخر من الأرض. وتلقى ليسياخوس مقاطعة تراقيا . وشبت الحرب فى ٣٢١ بين عصبة مكونة من أنتيباتر وأنتيجونس وبطلميوس وبين برديكاس ، الذى أعلن أنه يناصر الملكين ، بيد أنه اتهم بأنه إنما يهدف إلى العرش . وانتهى الأمر بقتله ثم عينت الجيوش المقدونية المتحدة أنتيباتر وصياً على العرش . وكان أنتيباتر آخر قائد من قواد فيليب الثانى ظل على قيد الحياة . ولم يلبث ما كان يحبوه به الجميع من احترام أن مكنه من لم شتات الإمبراطورية إلى أن مات فى ٣١٩ . وفى غضون ذلك الزمن راح أنتيجونس الذى كان بوصفه أحد قواده رأس قوة ضخمة — يحطم حزب برديكاس وأتباعه حتى لم يبق منهم حياً إلا واحد فقط هو يومينيس الإغريقى من كارديا ، وهو سكرتير الإسكندر . فلما توفى أنتيباتر انتخب پوليپرخون محليا وصار وصيا على العرش بمقدونيا. وشرع أنتيجونس يمهد الأمور لنفسه ، وانضم يومينيس إلى پوليپرخون مناصراً للملكين . واستعرت نار الحرب ثانية ، وكان بطلا القصة فى آسيا هما يومينيس وأنتيجونس ، الذى كان يؤيده بطلميوس وآخرون . فى حين أن بطليها بأوربا كانا پوليپرخون وكساندر (ابن أنتيباتر) وكان حليفاً لأنتيجونس . وانتهت الحرب بأوربا فى ٣١٦ بالفوز المبين لكساندر، وهو رجل أوتى مقدرة فائقة ، ولم يلبث أن صار سيداً على مقدونية وشطر عظيم من بلاد الإغريق بما فى ذلك أثينا . وهلك كل من فيليب الثالث وأوليمبياس والدة الإسكندر

فى أثناء الكفاح، ووضع كساندر يده على الملك الصغير الإسكندر الرابع. على أن القتال الذى قام به يومينيس اكتنفته الصعاب العظيمة من كل جانب. وكان رجلا واسع الحيلة والعقل مطلق الولاء لمليكه، فقاتل لذلك قتالا يذكر بالإعجاب على مر التاريخ ويعد من أعظم قصص الكفاح الرومانتيكية، ذلك أنه استولى على بابل ، وتمكن من الحصول على مساعدة ستاربة الشرق الأقصى . وهزم أنتيجونس أكثر من مرة . ولكن جنوده خانته فى أوائل ٣١٦ وأسلمته إلى أنتيجونس الذى أمر بإعدامه . وقضى بموته على آخر من يدافع عن قضية الإسكندر الرابع قضاء مبرماً .

وكان أنتيجونس رجلا أوتى كفاية هائلة وطموحاً لا حد له . وقد أصبح إذ ذاك أمنع القواد مركزاً ، وأخذ يزعم أنه يقوم مقام الإسكندر ؛ فشرع فى القضاء على الستاربة الشرقيين ، ولم يستطع سلوقوس ساتراب بابل أن ينجو بحياته إلا بالفرار والالتجاء إلى بطلميوس . وفى ذلك الحين كان قد قضى على صغار القواد وأصبحوا فى خبر كان ، وعمد الحكام الكبار وهم كساندر وبطلميوس وليسياخوس إلى تكوين حلف ضد أنتيجونس متهمين إياه بتهمة لا شك فى صدقها ، هى أنه يهدف إلى إنشاء إمبراطورية . وشبت بين الطرفين حرب (٣١٥ — ٣١١) غير حاسمة ، وإن استطاع بطلميوس فى ٣١٢ أن يعيد سلوقوس إلى عرش بابل . غير أن أنتيجونس تمكن فى ٣١٤ من الحصول على مؤازرة معنوية من الديموقراطيات الإغريقية ، بإعلانه إعلاناً ظل متمسكاً به بأمانة تامة بضع سنوات يتعهد بمقتضاه بمنح جميع المدن الإغريقية الحرية ورفع ما بها من حاميات وتمكينها من حكم نفسها بنفسها ، وكان ذلك إحياء لسياسة الإسكندر موجها ضد طريقة كساندر فى حكم المدن بوساطة الأوليجركيات والحاميات (انظر الفصل الثانى) . وكانت إحدى نتائج ذلك تمرد ديلوس على أثينا وانفصالها عنها وتمتعها بالحرية حتى ١٦٦ . وبعد أن عقد الصلح فى ٣١١ بين أنتيجونس والحلفاء ، ذلك الصلح الذى أصبح أنتيجونس بموجبه سيداً على سوريا وآسيا الصغرى وأرض الجزيرة، حاول أن يقضى على سلوقوس ولكنه أخفق دون ذلك ، وإن دمر نصف بابل . ثم تمكن سلوقوس بعد ذلك من توطيد أركان

دولته فى كل المناطق الواقعة إلى الشرق من بابل ، وإن اضطر إلى النزول عن الولايات الهندية لجندر كبت المورى ، وحصل فى مقابل ذلك على قوة ضخمة من فيلة القتال (١). وفى ٣١٠ تخلص كساندر من الإسكندر الرابع بالقتال، وهى خطوة كانت الأسرات المالكة الأخرى قد دعت إليها بمقتضى معاهدة ٣١١ ، وبذلك أصبح الجميع حكاماً مستقلين .

وفى ٣٠٧ خاض أنتيجونس وابنه الألمعى ديمتريوس ، وهو رجل ذو مواهب عظيمة ومتعددة ، وإن لم يكن ذا خلق ثابت — معترك الكفاح من جديد للاستيلاء على الإمبراطورية بأكملها ، وكان كفاحاً ترامى فى النهاية إلى اشتراك جميع القوات العسكرية فى كل جزء من أجزاء العالم الهلينستى . وكان كساندر يحكم أثينا منذ ٣١٧ حيث نصب عليها من قبله شخصاً اسمه ديمتريوس من فاليروم ، وهو من المشائين . وحظيت المدينة بالرغد والسلام ، واستن ديمتريوس القوانين، مستوحياً فى ذلك روح أرسطوطاليس، ولكن حكومته كانت تمالئ الأثرياء . وفى ٣٠٧ حرر ديمتريوس بن أنتيجونس أثينا من قبضة ذلك المشاء وأعاد إليها الحكم الديمقراطى ، ثم هزم أسطول بطلميوس فى ٣٠٦ هزيمة ساحقة فى معركة بحرية خاضها بقرب سلاميس بجزيرة قبرص وأحرز السيادة البحرية . وعندئذ تلقب هو وأبوه بلقب الملك وأصبحا عاهلين مشتركين لإمبراطورية الإسكندر وكانا يتبادلان الثقة والإخلاص المطلق ، ثم حاول أنتيجونس غزو مصر والقضاء على بطلميوس دون طائل ، ومالبث بطلميوس أن اتخذ اللقب الملكى فى ٣٠٥ هو وغيره من الأسر الحاكمة وصاروا جميعاً عواهل مستقلين بعضهم عن بعض ، وأضاع ديمتريوس سنة حاصر فى أثنائها رودس حصاره الشهير غير الموفق . ثم تمكن بعدها كساندر من البدء فى إعادة فتح بلاد الإغريق ، ولكن ديمتريوس تمكن من رد كساندر على أعقابه وخلص معظم بلاد الإغريق من قبضته، ثم أعاد فى ٣٠٣ تكوين حلف كورنثة الذى أنشأه الإسكندر أول مرة متربعاً بذلك فى رياسته هو وأبوه على دست

(١) انظر مقال لتارن فى مجلة (J H S) العدد ٦٠ ص ٨٤ فيما يتعلق بأصل الرقم الخيالى وهو ٥٠٠ .

الإسكندر ، وعندئذ طلب كساندر وليسياخوس وبطلميوس العون من سلوقوس . ثم عبر ليسياخوس البحر إلى آسيا فى ٣٠٢ مزوداً بتعزيزات أمده بها كساندر ، على حين كان ديمتريوس يزحف على مقدونية بقوة عظيمة ، فلما فشل أنتيجونس فى القضاء على ليسياخوس اضطر إلى استدعاء ديمتريوس لنجدته . وفى ٣٠١ تلاحم جيش الرجل وابنه عند إبسوس بإقليم فريجيا مع قوتى ليسياخوس وسلوقوس مجتمعتين ، وكان معهما فى القتال معظم مالديهما من فيلة ، وهزم أنتيجونس وقتل ، ولكن ديمتريوس فر .

واقتسم الظافرون الغنائم ، حيث نال ليسياخوس آسيا الصغرى شمال جبال طوروس وأخذ سلوقوس أرض الجزيرة (العراق) وسوريا ، على أن بطلميوس كان قد احتل سوريا جنوبى كل من أرادوس ودمشق فى أثناء معركة إبسوس ، فلم يطالبه سلوقوس بإرجاعها وإن احتفظ بحقه فيها ، لأنه لم ينس أنه مدين لبطلميوس بحياته وملكه . ولكن كساندر الذى كان روح التحالف وعقله المفكر ، قنع بمقدونيا ، على أن ديمتريوس كان لا يزال يسيطر على البحر ويقبض على صور وصيدا ، وبعض مدن آسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان . وكان مايسود بين الظافرين من عدم الثقة خيراً وبركة على أثينا التى لم تبرح أعظم مدن اليونان جميعاً باستثناء سيراقوزة ، واستمتعت بحريتها بفضل ترفق كساندر بها حتى فتحها ديمتريوس فى ٢٩٥ وترك بها حامية . ومات كساندر فى ٢٩٨ ، ونشبت بين أبنائه منازعات مكنت ديمتريوس من الاستيلاء على عرش مقدونيا ، وهو عرش ظل محتفظاً به ست سنوات أخضع فى أثنائها معظم بلاد الإغريق ماعدا إسبرطة وآيتوليا وبيروس ملك إبيروس ، وبنى مدينة ديمترياس المسماة على اسمه (انظر الفصل الثانى). ومالبث مركز الأحزاب بالمدن الإغريقية أن اتضح واستبان . ومنذ ذلك الحين أخذ الأثرياء يشخصون إلى مقدونيا التماساً لعونها كما كانوا يفعلون ذلك إزاء روما فيما بعد ، وذلك على حين كانت الديموقراطيات تناصر فكرة الاستقلال القومى . غير أن ديمتريوس وإن كان فاتحا ماهراً ، إلا أنه كان عديم الكفاية كحاكم ، فلم يكن ثمة وجه للمقارنة بينه وبين كساندر السياسى البارع . لذا لم يحبه شعبه قط ، وذلك لأنه لم يكن يعامل مقدونيا إلا كمجرد قاعدة يعيد

منها غزو آسيا . وفى ٢٨٩ أزعجت استعداداته البحرية غيره من الملوك ، فتحالفوا ضده . وفى ٢٨٨ اجتاح ليسياخوس وبيروس مقدونيا بجيوشهما واقتسماها فيما بينهما ، وثارت أثينا بمعاونة بطلميوس . وللمرة الثانية لم يبق لديمتريوس سوى أسطوله وبضع مدن إغريقية . ومع ذلك فإنه غزا آسيا ، وقذف بنفسه على ليسياخوس عدوه اللدود دون أن يصيب نجاحا يذكر ، حتى إذا دفع فى النهاية إلى ماوراء جبال طوروس ، دخل فى قتال بطولة عارمة مع سلوقوس . وجاءت عليه هنيهة تراءى له فيها شبح النصر فى آسيا واقتربت منه قطوف حكمها دانية ، ولكنه اعتل وتخلى عنه جنده ، حتى اضطر فى ٢٨٥ إلى التسليم . ولم تنقض على ذلك سنتان حتى اضطر ذلك البطل ، ألمع خلفاء الإسكندر ، أن يموت فى الأسر من فرط الشراب .

ولما سقط ديمتريوس انتقل جزء من أسطوله إلى بطلميوس ، الذى استولى به على صور وصيدا ، وعصبة الجزر (الفصل الثانى) وبه تحققت له السيادة البحرية. على أن الذى فاز بنصيب الأسد كان ليسياخوس الذى طرد بيروس فى ٢٨٥ من نصيبه فى نصف أرض مقدونيا ، حتى إذا بات سيداً لمقدونيا وتساليا وتراقيا وشطر كبير من آسيا الصغرى ، صار بذلك أقوى عندئذ من سلوقوس . وكان سياسياً مدبراً حذراً وقائداً محنكاً وماليا ممتازاً ، وهو وإن حكم المدن الإغريقية على طريقة كساندر ، إلا أنه لم يحظ على الدوام بمحبة الناس . واهتم بالتجارة وبخاصة فى البحر الأسود ، ولعله كان يرجو أن يتخذ منه بحيرة تابعة له . وجعل عاصمته فى البداية مدينته الجديدة التى أسماها ليسياخيا بالقرب من غاليبولى ، على أنه عاد فيما بعد فنقل مقر ملكه إلى مقدونيا على الأرجح . وكانت آخر حملات ديمتريوس قد كشفت عن قيام حالة متبادلة من عدم الثقة المتزايد بين ليسياخوس وسلوقوس ، كان ينذر بنشوب الخلاف حول السيادة على آسيا . وفى ٢٨٣ بعث سلوقوس يخطب ود أنتيجونس جوناتاس بن ديمتريوس من «فيلا» بنت أنتيباتر ، وكان أنتيجونس هذا يحكم مدن أبيه الإغريقية .

ولعبت أسرة بطلميوس دورها فى إسقاط ليسياخوس نهائيا . وكان بطلميوس متزوجا من يوريديكى ابنة أنتيباتر ، وكان كفاحها الطويل مع وصيفتها برنيس

(بيرينيقة) عشيقة بطلميوس قد انتهى قبل عام ٢٨٧ بنبذ الملك ليوريديكى وزواجه من بيرينيقة. وقد نفى بطلميوس وهو الملقب فيما بعد بالصاعقة (Keraunos) ابن يوريديكى ، حتى إذا توفى أبوه ٢٨٣ (وهو الوحيد الذى مات فى فراشه) بين خلفاء الإسكندر خلفه على العرش ابنه من بيرينيقة دون منازع وتسمى بطلميوس الثانى . وذهب كيراونوس إلى ليسيماخوس الذى اتخذ من أرسينوى زوجة ثالثة ، وهى شقيقة بطلميوس الثانى ، وابنة بيرينيقة . ومن حوله أخذت تدور المؤامرات الغامضة التى انتهت بأن عمد ليسيماخوس إلى قتل ابنه البكر أجاثوكليس وزج كل العناصر المتذمرة فى مملكته فى أحضان سلوقوس . وانتهى الأمر بسلوقوس إلى عبور جبال طوروس ، فهزم ليسيماخوس وقتله فى عام ٢٨١ عند كوروبيديون فى ليديا ، ومرت لحظة على آخر وأسعد رفقاء الإسكندر . شهد فيها إمبراطورية الإسكندر عدا مصر عند قدميه . ولكنه لم يهنأ بالملك طويلا فقد اغتاله فى أوائل ٢٨٠ كيراونوس ، الذى كان جيش ليسيماخوس قد اختاره ليأخذ بثأر ليسيماخوس ، وعينه ملكا على مقدونيا . وتمكن كيراونوس أن يحتفظ بملكه رغم منافسيه الكثيرين ، حيث هزم أنتيجونس جوناتاس بحراً ، وضم بيروس إليه ببذله العون له فى حملته الإيطالية ، وتخلص من أرسينوى التى كانت مستولية على كساندرية ، بأن تزوج منها أولا ثم طردها بعد ذلك . وكان أنطيوخوس الأول بن سلوقوس من أباما زوجته الصغدية مشغول البال بورطة كبيرة داخل بلاده . ذلك أن بطلميوس الثانى الذى كان يملك منطقة كاريا كان يهدده ، كما أن الثورة شبت بشمال سوريا . فضلا عن أن خط مواصلاته مع أوربا والبحر الأسود قد قطعه عليه الحلف الشمالى ، وهو عصبة تألفت من هرقليا وبيزنطة وخلقدونية وكيوس وتيوس ومعهم مثريداتس أمير بونطش الفارسى ونيقوميدس صاحب بيثينيا ، وكلهم كان يقاتل فى سبيل استقلاله . وهاجمه أيضاً أنتيجونس من بلاد الإغريق .

على هذا النحو كان الموقف عندما وصلت إلى التخوم المقدونية ومنها فأولاتها قبائل الغلاطيين المهاجرة وهى من الغاليين الذين انحدروا وتمكنت قوة منهم فى أوائل ٢٧٩ من اقتحام حدود مقدونيا بقيادة بولجيوس وهزموا كيراونوس وقتلوه ، ولكنهم سرعان ما عادوا حاملين غنائمهم. غير أن قوة أخرى

بقيادة برينُّس عادت فدخلت البلاد ، ولكنها لم تستطع توطيد أقدامها بها فزحفت جنوبا فى أواخر السنة تريد غزو بلاد اليونان . ووفق برينُّس الذى لم يتجاوز عدد جيشه الثلاثين ألفاً فى القضاء على المدافعين عن ممر ترموبيلاى، ولكنه أخفق فى محاولته الإغارة على دلفى بأحد الطوابير السريعة ، فى حين صدت كتلة جيشه الرئيسية ثم ردت على أعقابها شمالا متكبدة خسائر جسيمة على يد الايطوليين ، الذين أحرزوا عندئذ شهرة عظيمة عن جدارة بتخليصهم بلاد الإغريق . واضطر أنتيجونس وأنطيوخوس إزاء هذا الخطر المحدق ببلاد الإغريق إلى عقد صلح حقيقى بينهما ، وظلت معاهدتهما (التى عقدت فى خريف ٢٧٩) أمداً طويلا محوراً أساسيا تدور عليه السياسة الهللينستية، وقد تعهد أنطيوخوس بمقتضاها ألا يتدخل فى شئون مقدونيا وبلاد اليونان كما لا يتدخل أنتيجونس فى تراقيا وآسيا ، ودامت الصداقة بعد ذلك طويلا بين الأسرتين . وفى ٢٧٨ وصلت إلى الدردنيل ثلاث قبائل من الغال هى تولستواجياى وتروكمى وتكتوساجيس وعدتها عشرون ألفا ، ودخلوا تحت لواء نيقوميدس وميثريداتس لمهاجمة أنطيوخوس ، فعاثوا فى أراضى آسيا سنتين فسادا ينهبون ويسلبون ويلقون الرعب فى القلوب ، ولكن أنطيوخوس فى ٢٧٥ تمكن بعد القضاء على الفتن فى سوريا من منح آسيا شيئاً من الهدوء بدحره الغال بمساعدة ستة عشر فيلا أرسلها إليه قائده فى باكتريا . وعندئذ أنزل نيقوميدس وميثريداتس الغال فى فريجيا (غلاطية) كدولة حاجزة بينهما وبينه . وفى نفس الحين أخذت قوة أخرى تهاجم تراقيا ، ثم وصل لفيف من هؤلاء فى ٢٧٧ إلى البحر حيث أفناهم أنتيجونس عن آخرهم بمعركة دارت رحاها قرب ليسيماخيا. ودخل أنتيجونس مقدونيا وعلى رأسه هالة ذلك النصر ، وكانت مقدونيا ترزح فى مهاوى الفوضى ، فقبلته على الفور عاهلا . ولم يلبث أن أصبح فى نهاية عام ٢٧٦ سيداً على البلاد وأن تزوج فيلا (Phila) أخت أنطيوخوس غير الشقيقة. وفضلا عن غلاطية استطاع الغال أن يؤسسوا مملكتين أخريين أثرتا فى التاريخ الإغريقى كل مؤثر ، أولاهما مملكة الإسكورديين ببلاد الصرب ، وثانيتهما مملكة توليس بتراقيا .

وفى مدى الجيلين اللذين أعقبا فتح الإسكندر آسيا ، استجاب الشعب

المقدونى والشعوب الإغريقية لحاجات الأمراء والأسر الحاكمة من الناحيتين السياسية والعسكرية فتوزعا من جديد توزيعا متسع الرقعة فوق المنطقة التى أصبحت فيما بعد تضم شمل العالم الهللينستى . ذلك أن هذه الممالك لم تكسب وتفقد بغير جنود، ومع أن الحال اقتضت استخدام رجال من جميع الأجناس ، فقد كان من الطبيعى أن الهيبة العسكرية والنضج السياسى للإغريق والمقدونيين لا بد أنهما كانا مطلوبين إلى أقصى حد . ولا جدوى فى إعمال الحدس فى عدد الرجال الذين تركوا بيوتهم فى أوربا واستقروا فى النهاية استقراراً دائماً فى آسيا أو مصر ليكونوا نواة الجيش النظامى السلوقى أو البطلمى . ولا داعى أيضاً للحدس فى عدد من أرسلوا يطلبون زوجاتهم أو أقاربهم من أرض الوطن . بيد أن من المحقق أن كثيراً من أفراد الجيل الأول نفسه من سلالة الأبناء (Epigonoi) ولدوا من أمهات أسيويات ، وإن أوحت إلينا حروب خلفاء الإسكندر بكل ما انطوت عليه من تقلبات فى الحظ ، أن كل من أسهموا فيها إسهاما فعليا تعرضوا لما نجم عنها من فوضى ومخاطر . والواقع أن محنكة الجند الذين تمرسوا بحروب الإسكندر ، فضلا عن غيرهم بلا ريب ، سرعان ما انقلبوا مغامرين محترفين يتقبلون كل الأمور بهدوء تام ، ولا يترددون فى أخذ متاعهم وعائلاتهم معهم حينما ذهبوا فى الحملات الكبرى . وقد كتب أيزوقراطيس عن سكان بلاد اليونان من الجند (الذين هم جند وإلا أصبحوا من العاطلين) الذين أمكن استخدامهم لاستعمار آسيا الصغرى : كما أن إعادة استيطان سيراقوزة وغيرها من مدن صقلية على يد تيموليون أظهر قبل عهد الإسكندر أنه كان هناك فى الواقع (وليس فى جدل خطيب فحسب) آلاف من الإغريق الذين هم على استعداد للتطواف البعيد فى أرجاء الدنيا لكى يبدءوا حياتهم بدءاً جديداً . وكانت هذه هى فرصتهم الكبرى . فهؤلاء الإغريق والمقدونيون الساكنون فى الخارج استمروا يعيشون جيلا بعد جيل عاملين بصفة رئيسية فى وظائف الجند والمديرين ، مكتسبين بذلك عند حكامهم وسادتهم أهمية عظيمة لا تتناسب ألبتة وأعدادهم ، وإن كثر عددهم نسبياً . لقد كانوا هم الشعب الحاكم ، ولم يكن ذلك نتيجة لأية نظرية أو بعامل التحيز ، بل لأن ما لديهم من معرفة كان يناسب حاجات الملوك أنفسهم .

ومن عام ٢٧٥ نستطيع أن نتعقب سيرة الأسر المقدونية المالكة الثلاث على صورة تاريخ لوحدات ثلاث منفصلة . ولم تقم لمملكة ليسياخوس بعد ذلك قائمة ، كما لم يقم بعده خليفة على البحر الأسود . أما الملوك الجدد ، فأولهم أنطيوخوس الأول الذى كان منشئاً عظيماً للمدن وصاحب أسلوب فى السياسة والإدارة ضاع تاريخه . وتصور الروايات المتواترة بطلميوس الثانى فى صورة السقيم البدن المولع بالفنون . وهو وإن لم يكن قائداً عسكرياً ، إلا أنه فى الحقيقة حاكم قوى ذو مطامع عدوانية . وكان على جانب وافر من الثقافة والتعليم ودبلوماسياً قديراً ومنظماً حاذقاً . وكان أنتيجونس المؤسس الثانى لدولة مقدونيا ، شخصا جاف الطبع مستقيم الخلق ، يغلب عليه الإصرار والعناد متشرباً بكامل الولاء العائلى الذى جبلت عليه أسرته ، وكان صديقاً وتلميذاً للفيلسوفين مينيديموس وزينون ، حتى لقد تشبع بالعطف على الرواقيين تشبعاً جعله يعد أول ملك استطاعت الفلسفة أن تنسبه إليها . وكان من الطبيعى أن تؤدى سياسة مصر الخارجية التى كانت تهدف إلى بسط السلطان على البحر الإيجى وما يحيط به من سواحل وما توافر لمصر من قوة ضخمة ، إلى إثارة النزاع بينها وبين المملكتين الأخريين ، وذلك فضلا عن أن السلوقيين لم يستطيعوا أن ينسوا حقهم فى جنوب سوريا التى احتفظت بها مصر . وهذه الولاية على مالها من أهمية اقتصادية بسبب منتجاتها وما يمر بمدنها من تجارة ، كانت لها أهمية أكبر لدى البيتين المالكين العظيمين كليهما بسبب موقعها الاستراتيجى الفذ ، وخاصة إن تولد بينهما سبب يثير ريبة أحدهما فى الآخر . وكانت نتيجة ذلك وقوع سلسلة من الحروب المسماة بالحروب السورية بين مصر والسلوقيين ، مجتمعة مع الحروب التى شبت بين مصر ومقدونيا . وأدت هذه الحروب إلى حرمان الحضارة الإغريقية من ترسيخ قدمها فى آسيا بنفس القوة التى كانت ستحصل عليها لولا تلك الحروب .

وكان بطلميوس الثانى هو البادئ بذلك الصراع الطويل . ولعله جنح إلى العدوان بمجرد وفاة سلوقوس ، وذلك استنتاجا من حال ميليتوس التى كانت تابعة للسلوقيين فى ٢٨٠ ، فأصبحت مصرية فى عام ٢٧٩ ؛ وهى حرب غامضة تلتها الحرب المسماة بالحرب السورية الأولى عندما غزا جيشه سوريا

السلوقية فى ٢٧٦ ، ولكن أنطيوخوس الأول هزمه ورده عن البلاد ، وكان قد تحالف مع ماجاس حاكم برقة وهو أخ غير شقيق لبطلميوس الثانى . ومهما يكن الأمر فإن بطلميوس طلق فى الشتاء (٢٧٦ — ٢٧٥) زوجته (أرسينوى الأولى ابنة ليسماخوس) وتزوج أخته الشقيقة أرسينوى الثانية ، أرملة ليسماخوس وكيراونوس على التعاقب، ولعل مرد ذلك احتياجه إلى رجاحة عقلها. وتناولت أرسينوى الحرب الخاسرة بيديها القويتين، فأحالتها إلى نصر جارف ، حتى انتهت بها وقد انتزعت (٢٧٣أو٢٧٢) فينيقية بأكلها ومعظم ساحل آسيا من ميلتيوس إلى نهر كاليكادنوس بقيليقيا ، وحصلت فى مقابل ذلك على آيات من التكريم ليس لها من ضريب، أسبغت عليها كامرأة وربة . وكانت السنوات التى تلت ذلك حتى وفاتها فى ٢٧٠ عصر مصر الذهبى . وتنبأ كاليماخوس أن بطلميوس سيحكم الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها . وكانت أرسينوى ترغب فى تعيين بطلميوس ابنها من ليسماخوس ، ملكاً على مقدونيا ، لولا أن المنية عاجلتها ، ومع ذلك فإنها منعت أنتيجوناس من التدخل فى الحرب حين قدمت العون إلى بيروس الذى كان قد عاد من إيطاليا وأراد أن يهاجمه وينقض عليه . وفى ٢٧٣ فتح بيروس مقدونيا إلى حين ، ولكنه تخلى عنها ليخلو لمغامرات أخرى ببلاد اليونان ، فحاول فتح إسبرطة ، ولكنه فشل ، ثم لقى فى النهاية مصرعه فى (٢٧٢) فى قتال دار بشوارع أرجوس ، تاركاً مصائر بلاد الإغريق فى يد أنتيجونس .

وجعل أنتيجونس الاعتدال رائدة . وكان مركزه ببلاد اليونان يتوقف على أمرين أولها احتفاظه بكورنثة التى كان بقاؤها فى يده كفيلا بعدم اتحاد البلاد ضده (لعلمه بأن بلاد اليونان إن اتحدت تصبح أقوى من مقدونيا) وثانيهما التمسك عرفاً بيرايوس (بيريه) التى كانت خير ضمين بأن تظل أثينا عاصمته الروحية . فواصل الفتح بالقدر الذى يضمن سلامة مواصلاتهما مع ديمترياس عاصمته ، ولكنه لم يحاول الحصول على المزيد من الممتلكات ببلاد اليونان (الفصل الثانى) . غير أن أثينا عمدت فى ٢٦٧ هى وإسبرطة ومدن أخرى إلى التحالف مع مصر والعمل على مهاجمته بتشجيع من بطلميوس . على أن هذا الصراع القاسى (٢٦٦ — ٢٦٢) المسمى بالحرب الخريمونيدية ، نسبة إلى

خريمونيديس السياسي الأثيني ، انتهى بانتصار أنتيجونس واستيلائه على أثينا ، التي كفت منذ ذلك الحين عن القيام بأي دور بارز في عالم السياسة . كما أن زعماء حزب أنتيجونس والشخصيات البارزة فيه قبضوا على زمام السلطان ، فأصبح منهم طغاة في أرجوس وميجالوبوليس ومدن أخرى بالبيلوبونيز ، وأخذ هؤلاء يعملون لمصلحته وبمعاونته على الكبح من قوة إسبرطة . ومالبث أنتيجونس الذي كان حاكماً ماهراً حتى استرد لمقدونيا أوسع حدودها الأولى وجعل لأسرته مركزاً في البلاد وطيد الأركان يستطيع أن يصمد للأحداث . وفي ٢٦٢ مات أنطيوخوس الأول بعد أن سلخت منه مصر مدينة إفسوس .

على أن ابنه أنطيوخوس الثاني لم يلبث هو وأنتيجونس – بعقد تحالف بينهما في أرجح الاحتمالات – أن انتقما من بطلميوس الثاني بشن الحرب السورية الثانية (٢٥٩ — ٢٥٥) ، فاسترد أنطيوخوس إفسوس وميليتوس وشطراً كبيراً من ساحل آسيا الصغرى ، وبلاد الفينيقيين حتى بيروتوس (بيروت) ، في حين أن أنتيجونس دمر أسطول بطلميوس بالقرب من ساحل قص Cos وصار له السلطان على حلف الجزر والسيادة على البحر ، وتولى أخوه غير الشقيق ديمتريوس الوسيم حكم برقة ردحا من الزمن . ولكن ثورة الإسكندر قائده في كورنثة ويوبيا (قرابه ٢٥٢) بمساعدة مصر كسرت شوكته بحراً . ولم يستطع استرداد كورنثة إلا في ٢٤٦ بعد وفاة الإسكندر . وذلك على حين تمكن بطلميوس في ٢٥٣ من استمالة أنطيوخوس إليه ، فأقصى هذا الأخير زوجته لاؤديكي وتزوج من ابنة بطلميوس ، بيرينيقة (برنيس). حتى إذا توفي أنطيوخوس (في أخريات ٢٤٧) استعر الكفاح بين الملكتين المتنافستين ، فقتلت بيرينيقة وابنها، وكتم خبر موتهما ، ثم انبرى إلى الميدان بطلميوس الثالث (ابن أرسينوى الأولى) في ٢٤٦ وكان قد خلف أباه بطلميوس الثاني على العرش في يناير . فاحتل شمال سوريا وقيلقيا وقام باستعراض عسكري في تلك المملكة المفككة الأوصال والمنقسمة على نفسها ، مدعيا أنه يناصر الملك الشرعي ابن بيرينيقة ، حتى بلغ مدينة سلوقية على نهر دجلة . ولم يلق بطلميوس مقاومة تستحق الذكر ، بيد أنه نعت حملته بأنها حملة إخضاع آسيا السلوقية . وفي الحرب التي عقبت ذلك وهي المسماة بالحرب السورية الثالثة أو الحرب اللاؤديكية

(التى استمرت حتى ٢٤١)، تمكن سلوقوس الثانى ابن لاؤديكى ، من استرداد قيلقيا ، وشمال سوريا (من الداخل) كما استرد الشرق ، ولـكنه فشل فى استرجاع سلوقيا بسفح بيريا كما لم يستطع استرجاع بلاد الفينيقيين ، ثم فقد أيضا ساحل آسيا الصغرى من جديد، ومنه مد بطلميوس بعد ذلك سلطانه حتى احتل ساحل تراقيا . ومع ذلك فإن أسطول بطلميوس لقى الهزيمة على يد أنتيجونس فى مياه جزيرة أندروس (٢٤٦ أو ٢٤٥) ، وبذلك النصر استرد أنتيجونوس جزيرة ديلوس وبضع جزر أخرى ، وفقدت مصر سيادتها البحرية إلى الأبد ،ولكن يبدو أن حلف الجزر تفكك عند ذلك . وفى أعقاب ذلك تحطمت قوى الإمبراطورية السلوقية وأعجزتها الحروب الأهلية التى نشبت بين سلوقوس الثانى وبين أخيه أنطيوخوس هيراكس ، الذى تحالف مع الغلاطيين . وكانت كابادوكيا قد أصبحت منذ حين مملكة وطنية مستقلة ، كما أن إقليم باكتريا انفصل عنها فى أثناء تلك المدة إلى غير رجعة هو وإقليم بارثيا وما وراء بارثيا من الولايات . وعندئذ عاد الغلاطيون المنتصرون فأصبحوا خطراً على من جاورهم .

وكان ذلك التهديد هو السبب فى صعود نجم برجامة. فإن فيليتايروس حاكم قلعة برجامة وهو خصى من تيوس ، أبوه أو أمه من بافلاجونيا ، خان على التعاقب سيديه أنتيجونس الأول وليسيماخوس ، وأصبح شبه مستقل فى عهد أنطيوخوس الأول،حتى إذا توفى فى ٢٦٣ ترك إمارة صغيرة على نهر كائيكوس لابن أخيه يومينيس ، الذى عاد فوهبها لابن أخيه أتالوس الأول فى ٢٤١ بعد أن اتسعت رقعتها اتساعا جسيماً . وسنحت فرصة أتالوس الذهبية بأفول نجم السلوقيين بآسيا الصغـرى . فأعلن تحديه للغلاطيين بأن أبى دفع الجزية التى فرضوها حتى على السلوقيين أنفسهم ثمنا للامتناع عن الإغارة عليهم ، ثم هزمهم فى معركتين (قبل عام ٢٣٠) ، وتلقب باللقب الملكى ثم طارد هيراكس من آسيا الصغرى وحكم من ٢٢٨ إلى ٢٢٣ جميع أملاك السلوقيين شمال جبال طوروس . وقد مات سلوقوس الثانى فى ٢٢٦ وهو يحاول إعادة فتح بارثيا ، كما مات ابنه سلوقوس الثالث فى ٢٢٣ دون أن يتمكن من تسوية الحساب معه .

وفى نفس الحين كانت بلاد اليونان تشهد نمو الحلفين العظيمين (انظر الفصل الثانى) . فإن أيتوليا التى كانت لها السيادة على دلفى من قبل ، أخذت توسع رقعتها بعد ٢٧٩ ، وقد وعدت أنتيجونس بالتزام الحياد فلم تحنث بوعدها ، وشرعت فى مقابل ذلك الوعد تدخل فى حلفها الدول الصغرى الأمفيكتيونية، فلقيت فيما يظهر بعض المعارضة المتقطعة من فوكيس وبؤيتيا ، ولكن تيسر لها فى ٢٤٥ القضاء على بؤيتيا فى معركة خيرونيا ، ولم تقم لهذا القطر بعد ذلك قائمة أبداً . وكان نطاق حلف المدن الآخية الإحدى عشرة فى ٢٥١ قد بدأ فى الاتساع ، عندما باغت شاب منفى من أهل سيكيون، اسمه أراتوس، مسقط رأسه سيكيون ليلا ،وطرد طاغيتها. والتماسا للأمنة ضم سيكيون إلى الحلف الاخى . وكان أراتوس هذا غريب الأطوار، يجمع بين البطولة والضعف العصبى ، كما كان مجرداً من وازع الضمير ، ولكن كان له سلطان عجيب على مواطنيه ، فظل مدى جيل كامل وهو روح الحلف وعقله المفكر ، إذ كان يتولى القيادة عليه سنة بعد أخرى منذ ٢٤٥ . وما عتم فى ٢٤٣ أن شرع فى حملته الكبرى التى جعلها هدفه الأقصى فى الحياة ، وهى تخليص البيلوبونيز من أنتيجونس ومن يناصرهم من الطغاة ، ففاجأ كورنثة أهم المواقع المقدونية ليلا فى أثناء فترة السلم واستولى على قلعة كورنثة. وتوفى أنتيجونس فى ٢٤٠ — ٢٣٩ دون أن يسترد كورنثة ، فدخل الحلفان على الفور حومة الوغى مع ابنه ديمتريوس الثانى. وقد استطاع ديمتريوس أن يضعف من قوة أيتوليا وسلطانها ، ولكنه لم يقض عليها تماماً ، بيد أن أصحاب الحلف الآخى أخذوا يستولون على مدينة إثر أخرى ، بما فى ذلك ميجالوبوليس وأرجوس ، اللتين نزل طاغيتاها عن سلطاتهما وأصبحا موظفين تابعين للحلف.

وفى ٢٢٩ توفى ديمتريوس الثانى بعد أن لقى هزيمة منكرة من أعداء مقدونيا الرابضين فى الشمال وهم الدردانيون الذين اجتاحوا البلاد . ولما كان فيليب ابنه من زوجته الثانية الأميرة إفثيا الإبيروسية طفلا لا يميز ، عمد الجيش فى النهاية إلى تتويج الوصى على فيليب ، وهو أنتيجونس دوسون، بن ديمتريوس الوسيم ، وهو حاكم مقتدر ، فبادر بطرد الدردانيين من البلاد واسترد مقدونيا من أيديهم . ولكن الحلفين كانا قد انتهزا الفرصة السانحة ، فإن أيتوليا

استطاعت فى أثناء الاضطراب الذى نشأ فى ٢٢٩ أن تبسط سلطانها من بحر إلى بحر (الفصل الثانى). فأصبحت بذلك تعد نفسها نظير المقدونيا ، على حين قضى أراتوس على كل أثر لسلطان مقدونيا فى البيلوبونيز . حتى إذا وافت ٢٢٨ كان الحلف الآخى بلغ ذروة مجده ، وأصبح يضم آخايا وسيكيون وكورنثة وميجارا وآيجينا وأرجوس والمدن الساحلية وميجالوبوليس ومعظم أركاديا ، أعنى فى الواقع أنه قد دانت له إذ ذاك تقريباً كل البيلوبونيز التى كان يحكمها فيما مضى من الزمان كساندرو ديمتريوس الأول. وبذا لم يعد بين سكانها إلا مواطنون مخلصون، كما أنها كانت مستقلة تماما وذلك لأن تحالفها الاسمى مع بطلميوس الثالث — وكان إذ ذاك لا يبدى أى نشاط — لم يكن له أى تأثير على سياستها .

وتسجل هذه السنوات بلوغ الحركة الاتحادية ذروتها . ولم يمد دوسون يداً للتدخل فى البيلوبونيز ، بل قنع بالحصول على حياد آيتوليا. أما أثينا فإنها استردت هى الأخرى استقلالها بموت ديمتريوس، فلم يتدخل فى أمورها أحد، ولم تشتبك بعد ذلك فى أية حرب حتى ٨٨ اللهم إلا حين هاجمها فيليب ، والواقع أنها أصبحت بإجماع الجميع تعتبر بلداً محايداً تقريباً ، وذلك لأنها كانت مدينة جامعية زاهرة ، كما كانت المركز الثقافى لبلاد اليونان . وكان التشرف بالانتماء إليها بغية كثير من الملوك الذين كانوا يعدون ذلك أسمى مراتب التقدير والإكبار من جانب العالم المتحضر .

على أن الحلف الآخى وقف حيال إسبرطة عاجزاً فلا هو يستطيع أن يغزوها ولا أن يستميلها إلى جانبه ، وبذلك فشل ذلك الحلف نهائياً على صخرتها . ذلك أن ملك إسبرطة الشاب كليومينيس الثالث تشاجر مع الحلف وجمع حوله المرتزقة من الجند ، ثم أقدم فى ٢٢٧ على مواصلة ثورته على الحلف (نهاية الفصل الثالث) بعد أن اجتمعت له القوة الكافية لمناوأته. واسترد (فى زعمه) دولة إسبرطة لعهد ليكورغوس ، وزاد فى قوة بلاده زيادة هائلة . وعندئذ غزا آخايا ، ثم انتصر فى معركة « هيكاتومبايون » انتصاراً جعل الحلف يخر عند موطئ قدميه ، وما عتم أن خضعت له المدن واستسلمت الواحدة منها تلو الأخرى ، بما فى ذلك كورنثة وأرجوس لأن العامة فى كل مكان ظنوا أنه يعتزم القيام بثورة اجتماعية تسفر عن منحهم الأراضى وتوزيعها

عليهم . أما هو فكان في الحقيقة رجلا شديد الطموح ، كما كان يرمى إلى تولى الزعامة في البيلوبونيز . واستهل أعماله بالمطالبة برياسة الحلف، الذى كان في وسعه أن يجعله نواة لحلف جديد لدولة اتحادية جديدة . وتملك اليأس الجنونى رأس أراتوس . ولكى ينقذ الباقية من الحلف أقدم على عمل ينطوى على خيانة كبيرة . ذلك أنه بعد أن طرد المقدونيين من البيلوبونيز ، صمم على إعادتهم إليها ثانية . ولما طلب العون من دوسون ، قدمه هذا الأخير مشترطاً إعادة كورنثة إلى سلطانه ، وبذلك أصبحت كورنثة منذ ذلك الحين قلعة مقدونية . وأعاد دوسون تكوين حلف كورنثة جاعلا منه حلف أحلاف هلينى (الفصل الثانى)، ولكن لما كان حلف الأحلاف ذاك لا يضم الحلف الأيتولى وإسبرطة وأثينا وإيليس ومسينيا ، فإن بلاد الإغريق أصبحت بذلك منشطرة شطرين ، وإن كانت فكرة دوسون فكرة رجل سياسة عظيم التدبير . وقاتل كليومينيس قتالا باهراً ، ولكنه دُحر في سللاسيا (٢٢٢) على يد دوسون وفر إلى مصر حيث قضى نحبه . واحتل دوسون إسبرطة التى لم يفتحها أحد قبله، وقضى على الثورة وأعاد نظام الحكم القديم ، واتخذ من إسبرطة حليفاً لمقدونيا . ثم توفى في ٢٢١ ، وكانت وفاته خسارة كبيرة على مقدونيا ، ولكنه كان قد أعد عدته لتولية فيليب على العرش من بعده .

إن المؤرخ پوليبيوس يبدأ تاريخه دائماً، تبعاً للأصول المرعية، باستواء الملوك الجدد بجميع الممالك على عروشهم. فهو في سوريا يبدأ بأنطيوخوس الثالث أصغر أبناء سلوقوس الثانى (٢٢٣)، ويبدأ في مصر ببطلميوس الرابع الملقب فيلوپاتر أى المحب لأبيه Philopater (٢٢١) ، كما يبدأ بفيليب الخامس في مقدونيا . وكان بطلميوس الثالث قد غفل عن جيشه مما أدى إلى اضمحلاله، بينما كان ولده بطلميوس الرابع خليعاً مستهتراً محباً للفنون ، فترك أعنة الحكم بيد وزيره سوسيبيوس القوى البأس المجرد من رادع الضمير . أما أنطيوخوس الثالث الملقب فيما بعد « بالعظيم » وكان شاباً هماماً نشيطاً مرهف الحس ، فقد ألفى بين يديه دولته محطمة مضعضعة القوى فنصب نفسه لإعادة بنائها واسترداد مجدها . وما وافى عام ٢٢٠ حتى كان ابن عمه أخايوس قد استرد من أتالوس ما كان

للسلوقين من ممتلكات بآسيا الصغرى ، كما أن أنطيوخوس نفسه كان قد قمع ثورة أشعلها قواده فى ميديا ورسيس . وما إن أصبحت له السيادة التامة على دياره حتى تحول لتخليص سوريا الجنوبية (أى فلسطين) من يد بطلميوس فيلوباتر المتواكل . ولكن الحصون السورية عاقته ، وأوقفه سوسيبيوس عن مواصلة الحرب بأن تظاهر بإجراء مفاوضات وأتاح بذلك لنفسه فرصة استقدم فيها بعض القواد من البلاد اليونانية وأنشأ جيشاً ، ثم أقدم أيضاً هو أو فيلوباتر على خطوة لها خطورتها هى تجنيد عشرين ألفاً من المصريين الأقحاح فى فيلق . ولم يكن أحد من المصريين قد حمل سلاحاً منذ تجربة بطلميوس الأول فى عام ٣١٢ . وانتهت هذه الحرب للسماة بالحرب السورية الرابعة بمعركة رفح (٢٢ يونيه ٢١٧) ، وفيها تخلى فيلوباتر عن ملذاته وتولى القيادة ، نخاض غمارها فى يوم حمى فيه الوطيس وانتهى بالنصر على يديه بفضل قيادته وشجاعة فيلقه المصرى . وبذلك احتفظ فيلوباتر بسوريا الجنوبية وفينيقيا ؛ ولكنه لم يدر أن ذلك النصر كان بالنسبة لأسرته كالسم فى الدسم إذ إن العنصر الوطنى فى مصر تمرد منذ تلك اللحظة على الإغريق .

أما مقدونيا فإن ارتقاء فيليب الخامس العرش ملأ الناس بالآمال الكبار لما له من مواهب عظيمة وجاذبية أخاذة ، إذ إن طبعه الجامح الذى أفسد عليه حياته لم يتجل إلا بعد ذلك بكثير . وتخلى الأيتوليون بزعامة إسكوباس عن التزاماتهم منذ توفى دوسون ، وما نشبت غاراتهم فى عام (٢٢٠) على الدول الأخرى حتى تمخضت عما يسمونه باسم الحرب الاجتماعية (حرب الحلفاء) التى ناهضوا فيها هم وحلفاؤهم : إسبرطة وإيليس ، كلا من فيليب وحلفه الهلينى . وكان فيليب يرقب عن كثب تصرفات الرومان فى إلليريا ، ولم يكن يريد حرباً ، ولكنه دافع عن حلفائه بإخلاص ، فقام بغارة جريئة على ترموم ، القصبة الاتحادية لأيتوليا ، وأعمل فيها يد النهب والسلب وانتهت تلك الحرب ، التى لم تثمر أية ثمرة ، فى (٢١٧) بصلح « ناوباكتوس » ، وامتاز مؤتمر الصلح بذلك النداء الذى ناشد فيه أجيلاوس الأيتولى مواطنيه بالتزام الوحدة الهللينية فى وجه تلك « الغمامة التى أخذت تتجمع فى الغرب » ، ألا وهى ذلك الشعب الذى كتب له النصر فى النهاية فى الحرب بين روما وقرطاجة . وبلغت محبة

الناس لفيليب الذى أصبح « معبود هللاس » فى (٢١٧) مبلغاً من القوة جعله يبدو كأنما أتيحت له فرصة لتوحيد بلاد اليونان أفضل مما سنح لأى فرد من أسلافه . بيد أنه ضيع تلك الفرصة ، لو صح أنها كانت فرصة . وزاد الأمر سوءاً وفاة أراتوس فى (٢١٤ — ٢١٣) ففقد بذلك خير ناصح ومستشار له ، وذلك لأن أراتوس قد وعى فيما يبدو كل ما ألقته عليه التوازل من دروس قاسية . وتحالف فيليب فى ٢١٥ مع قرطاجة وحاول طرد الرومان من إلليريا . وكانت نتيجة ذلك هى تحالف روما مع أيتوليا (٢١٢) الذى تولدعنه وقوع الحرب المقدونية الأولى . وبذلك تجددت الحرب الاجتماعية مرة ثانية مع فارق عظيم واحد : هو أن أيتوليا فى هذه المرة تلقت المعونة العسكرية من روما وبرجامة، وذلك لأن أتالوس كان متحالفاً مع روما ، على حين أن حلفاء فيليب الجدد ، وهم قرطاجة وبروسياس الأول صاحب بيثينيا لم يقدما إليه إلا مساعدة لا تكاد تذكر . وكان فيليب عاجزاً فى البحر لا يقدر على شىء لاضمحلال الأسطول المقدونى الذى كان قويا فيما سلف من الأيام . ولم يكن يستطيع من ثم أن يناهض إلا بالكد الشديد أعداءً يستطيعون توجيه الضربة حيثما شاءوا . وكل ما استطاع تحقيقه من مغنم هو أن فيلوبومين من أهل ميجالوبوليس أعاد تشكيل الجيش الآخى الضعيف . وكان فيلوبومين هذا ، وهو جندى مقتدر ولكنه لا يزيد على ذلك إلا قليلا ، قد أبدى امتيازاً فى أثناء قتاله فى سللاسيا، ولكنه عاد بعد ذلك ، فأبدى إعوازاً عجيبا فى وطنيته وانضم إلى جيش كريت مغامراً ثم عاد إلى بلاده فى (٢١٠) ولم يلبث الجيش الآخى الجديد أن هزم بقيادته فى (٢٠٧) ماخانيداس الذى استولى على مقاليد الأمور بمدينة إسبرطة وبذلك اكتسب ثقة مواطنيه . وثمة نتيجة أخرى أفادها فن النزال الحربى: فإن العالم اليونانى الذى ألف طرق الحرب المقدونية التى اتسمت نسبيا بروح الشفقة والإنسانية ، شهد الخوف أو الغضب يملأ فؤاده ، كيف يعامل الرومان المدن التى يفتحونها . على أن هذه الحرب التى لم تحسمها معركة فاصلة انتهت فى (٢٠٥) بصلح عام يسمى صلح فوينيكى (Phoenice) .

وعند ذلك نشبت على الفور فتن الدائنين والمدينين بأيتوليا ، وحاول اسكوباس إلغاء الديون ، ولكنه أخفق ثم فر إلى بطلميوس الرابع حيث

تولى قيادة جيشه . وسنحت الفرصة لنابس (Napis) وهو قريب من بعيد للبيت المالك ، فاستولى على إسبرطة بعد أن ظلت بلا سيد منذ وفاة ماخانيداس . وواصل نابس الثورة هناك فقويت شوكة إسبرطة قوة عظيمة (الفصل الثالث) ، كما أنه حصل على شيء من القوة البحرية بعقده المحالفات مع الكريتيين . ومهما تكن عيوبه ومساوئه فإنه كان محبوباً جداً من جمهرة الشعب . ومن سوء حظنا أننا لم نعثر إلا على إشارات معادية له . وكان اضمحلال الأسطول المقدونى سبباً فى ترك منطقة البحر الإيجى بلا سيد أو قائد . وما عتمت رودس فى عام (٢٠٠) أن ملأت ذلك الفراغ وأنشأت حلفاً جديداً للجزر تحت رياستها وزعامتها .

وتوفى بطلميوس الرابع فى أغلب الظن عام (٢٠٥) ، تاركا على العرش طفلا صغيراً هو بطلميوس الخامس إبيفانيس (Epiphanes) أى المتجلى ، وقد دبج لنا بوليبيوس صورة أخاذة لتلك الثورة التى شبت بالإسكندرية وأسقطت الوزير المكروه أجاثوكليس وأقامت على الملك الطفل أوصياء جدداً . وانتهز فيليب وانطيوخوس تلك الفرصة خاصة وقد كانت أسرتاهما قد لقيتا من مصر شراً مستطيراً ، فبدآ على الفور الهجوم على ممتلكات مصر الخارجية . وكان لأنطيوخوس هدف ثابت يرمى إليه ، هو استرجاع الإمبراطورية السلوقية إلى سالف مجدها ورقعتها . وقد عمد بعد معركة رفح إلى استرداد آسيا الصغرى من أخايوس ابن عمه الثائر عليه ، وعندئذ قام بحملته الشرقية الذائعة الصيت . وكان قد فتح شطراً من أرمينية ، وجعل أرشك (Arsaces) ملك بارثيا تابعاً له يقوم بدفع الجزية ، ثم هزم يوثيديموس صاحب باكتريا واخترق دولة الباروپامسيديين Paropamisadae (وادى كابول) ، وأظهر أنطيوخوس قدرة سياسية عالية حين ترك ليوثيديموس عرشه ليكون حصناً منيعا لابد منه ، يقى الحضارة غائلة الرحل . وكان فى وسعه إذ ذاك أن يطالب بقبرص وجزر السيكلاديس (Cyclades) ، ولكن جنوب سوريا كان أجدى وأهم بالنسبة له . وفى (٢٠٢) اجتاحت جيوش أنطيوخوس جنوب سوريا (وتلك هى الحرب السورية الخامسة) ، وهزم اسكوپاس فى (عام ٢٠٠) عند بانيون بالقرب من منبع نهر الأردن ، وبذلك صار سيداً على المنطقة بأكملها (بما فى ذلك بلاد الفينيقيين « فينيقيا » التى احتفظت بها أسرته . وبنى فيليب أسطولا هاجم به المضايق

فى (٢٠٢) واستولى على ليسماخيا وخلقدونية وكيوس ، على أنه دمر كيوس بوحشية عاد إلى إظهارها مرة ثانية فيما بعد بمدينتى أبيدوس ومارونيا ، كان فيليب يحاول تجربة الأساليب الرومانية ، فأثار بذلك فى الناس قاطبة شعوراً من عدم الثقة بل حتى الكراهية . وفى (٢٠١) عاد بعد أن اطمأن على الشمال فتحول جنوباً واستولى على جزيرة ساموس ، ولكنه أظهر حماقة حين أثار حنق رودس عليه عندما هيج عليها جزيرة كريت ، وعندئذ عمد أهل رودس الذين كان قد وعدهم بعدم المساس بكيوس إلى الانضمام إلى أتالوس صديق المصريين والوقوف فى وجه أنطيوخوس . وتمكن أسطول رودس بالاتحاد مع أسطول أتالوس من خوض معركة قاسية ولكنها غير فاصلة خارج شواطئ خيوس ، ومع أنه تمكن فيما بعد من دحر أسطول رودس بمفرده قرب لادى (Lade) ، وفتح جزءاً من كاريا ، إلا أنه لم يستطع ألبتة أن يسترد فى البحر ما نزل به من خسارة عند خيوس .

أما روما ، فإن فتحها لقرطاجه فى (٢٠٢) أطلق يديها للعمل ، ثم التمست منها مصر ورودس وأتالوس العون ، ولم يكن فى ذلك الموقف شىء غير طبيعى ، بيد أنه منح روما مركز الحكم المتسلط على شئون شرق البحر المتوسط ، وهو المركز الذى لم تتخل عنه بعد ذلك أبداً . ولم تكن روما آنذاك عقدت نيتها الأكيدة على إخضاع الشرق ، وكان تدخلها فى شئونه حتى ذلك الحين بناء على طلب الغير ، ولكن صارت لها منذ تلك اللحظة كتلة ثابتة من الأنصار : هى مصر وبرجامة ورودس وأثينا . أما أثينا فلم تكن تبغى إلا السلام ، على حين رامت مصر المحافظة على كيانها ، كما بغت رودس حرية الإغريق والبحر . على حين أن برجامة التى كانت دولة السلوقيين من ورائها تمثل خطراً محدقاً مقيما ، كانت مستعدة على الجملة أن تواصل تحريض روما . ولكن مقدونيا والسلوقيين وآيتوليا فيما بعد أخذت جميعها تلزم جانب المعارضة الوطنية المناوئة لتقدم روما . ولم يكن لروما فى (٢٠٠) أى مأخذ تأخذه على فيليب ، ولكن يبدو أنها كانت فى خوف وقلق تخشى أن يفتح فيليب وأنطيوخوس مصر ويضعا أيديهما على مواردها الغنية ، ثم يوجهان على روما كل إمبراطورية الإسكندر . ولكن ذلك كان وهما باطلا ، فإن الملكين كانا يرمقان بعضهما

بعضا بعين الحذر الشديد وعدم الثقة المتبادلة . وما كان فيليب ليسمح ألبتة لأنطيوخوس أن يعبر البحر إلى بلاد اليونان . وكانت خطة روما أن تقابل ذلك الخطر الموهوم بتحرير بلاد الإغريق وجعلها نقطة دفاعها الأمامى ضد الملكين ، فأعلنت الحرب (وهى المقدونية الثانية) وأرسلت جيشا كبيراً إلى إلليريا . وانضم الأيتوليون أعداء فيليب الألداء إليها فى (١٩٨) ، وأثار فيليب بتصرفاته عداوة أثينا المسالمة ، فهبت ترحب بأتالوس بعد أن عاث فيليب فى أرضها نهباً وسلباً وتخلى الآخيون عنه ، كما لم يكن لمن تبقى له من حلفاء وزن كبير . على أن فيليب صمد سنتين كاملتين ، ولكن مقدونيا كانت بلغت من الإعياء والإنهاك كل مبلغ حتى لم يستطع فى (١٩٧) أن يجمع إلا ٢٦٫٠٠٠ رجل بينهم طائفة كبيرة من الصبيان والكهول ، فهزم هزيمة ساحقة عند كينوسكيفالاى (Cynoscephalae) بتساليا على يد البروقنصل ت . كوينكتيوس فلامينينوس ومعه الأيتوليون .

وتصايح الأيتوليون مطالبين بالقضاء على فيليب ، ولكن فلامينينوس أبى تنفيذ ذلك . وقضت شروط الصلح على فيليب أن يتخلى عن أسطوله وأن يرفع الأغلال عن بلاد الإغريق — وهى كورنثة وخالكيس وديمترياس — وأن ينسحب انسحابا تاماً من اليونان وتساليا ، ويتخلى عماله بآسيا من مدن منحت عند ذاك الحرية وأن يدفع التعويض اللازم ، وبذلك يصبح حليفا لروما . ودفعت روما ثمن هذه المحالفة بما جرته على نفسها من عداء أيتوليا الذى كاد أن يكون سافراً ، وذلك لأن أيتوليا لم تستطع أن تضم إلى حلفها جميع المدن التى كانت تطالب بها . بيد أن فلامينينوس أخر ضربته المسرحية القاضية إلى يوم ألعاب البرزخ (١٩٦) ، حين أعلن مناديه فى جمع حاشد من الناس أن جميع الإغريق الذين كانوا فى الماضى رعية فيليب أو كانوا أعضاء فى الحلف الهلينى قد أصبحوا أحراراً . وكان ذلك الإعلان أشبه شىء بإعلان أنتيجونس الأول الصادر فى (٣١٤) . وكانت روما كأنتيجونس سواء بسواء تعمل بدافع سياسى محض لادخل له بالعاطفة ، كما تعنى كل حرف تفوهت به فى البداية . واندلعت الحماسة فى بلاد اليونان لهيبا متأججا ، ولكن كانت خيبة آمالها فيما بعد مريرة ومن ثم قاسية . وبذلك انفرط عقد حلف دوسون الهلينى . وأصبح أعضاؤه

بما فى ذلك الحلف الآخى حلفاء لروما ، كما فعلت أكارنانيا ، ولقد تفكك اتحاد مدينة ديمترياس (الفصل الثانى) ، وعندئذ أصبحت المدن الماجنزية مستقلة ذاتيا للمرة الثانية واتحدت فى حلف جعلت فيه ديمترياس مركزها الاتحادى . فأما الأحلاف الأخرى الجديدة التى تكونت آنذاك فهى الحلف التسالى والحلف البرهابى واليوبى (Euboean)

وبقى بعد ذلك نابس . وكان فيليب قد حاول فى أثناء الحرب ضمه لجانبه بمنحه أرجوس ، وفعلا أخذ نابس أرجوس ومع ذلك عقد تحالفاً مع روما . غير أن ضياع أرجوس أجج من جديد جذوة العداوة الدائمة بين أخايا (Achaea) وإسبرطة ، وكان الاثنان حليفين لروما ، ولكن فلامينينوس أعلن مؤازرته لأخايا وعبر عما يكنه من تقدير لنابس الذى كان قد جمع من حوله خمسة عشر ألف مقاتل حين ولاه الحق فى دعوة كل حلفاء روما من الإغريق لنصرة روما . واجتمع له فى النهاية خمسون ألف رجل فى لكونيا . وقاتل نابس قتالا عظيما ، ولما حاول الرومان فى ختام الأمر أن يفتحوا إسبرطة عنوة فى (١٩٥) ، أحرق قائده بيثاجوراس الحى الذى كان معرضاً للسقوط وردم خارج المدينة ، ولكن نابس خانته أعصابه وعقد الصلح . وبمقتضاه تنازل عن أرجوس والمنطقة الساحلية ولكنه احتفظ بإسبرطة ، على أن فلامينينوس لم « يحرر » المدينة ولم يرد الإسبرطيين المبعدين عنها أيام الثورة إلى مدينتهم . وكان إحجامه وامتناعه عن ذلك يرجع من ناحية إلى رغبته فى تسوية مشكلات اليونان قبل أن يستطيع حلف جديد التدخل فى الأمر ، وبسبب أنطيوخوس من ناحية أخرى.

أما أنطيوخوس فإنه بدلا من أن يمد يد العون لفيليب ، راح طوال (عام ١٩٧) يواصل فتح ساحل آسيا الصغرى من قيليقيا إلى الهللسبونت ، كما أنه أعاد إلى بلاده كل ما استقطعه منها أتالوس ، الذى توفى فى تلك السنة ، ولم يترك لوريثه يومينيس الثانى إلا منطقة برجامة الأصلية ، فليس عجيبا والحالة هذه أن يظل يومينيس عدواً لدودا له . وفى (١٩٦) عبر أنطيوخوس مضيق الدردنيل وشرع فى إخضاع ساحل تراقيا . وكان كل من الإغريق والرومان مغاليا فى تقدير قوته ، ذلك أنه قضى حياته ينتقل من نصر باهر إلى نصر ، وكان يحكم دولة رقعتها هائلة ، ويمثل أمام خيال روما خطر الشىء المجهول . ومثل بين يديه

مبعوثون عن الرومان طالبين منه الجلاء عن أوربا . فأجابهم أنطيوخوس بأن كل مافعله هو أن عاد إلى احتلال ممتلكات سلوقوس : وأنه لم يتدخل فى الشئون الإيطالية ، وأن روما ينبغى ألا تتدخل فى شئون آسيا . ودامت المفاوضات ثلاث سنوات ولكنها باءت بالفشل،ذلك بأن أنطيوخوس لم يكن يبغى إلا أن يترك وشأنه ، كما أن روما لم تكن تريد حرباً ،خاصة وأن يدها كانت مغلولة إلى عنقها بانشغالها بالحرب فى إسبانيا . على أنه كانت هناك دولتان تريدان الحرب: أولاهما مملكة يومينيس الذى كان يخشى أنطيوخوس، وثانيتهما أيتوليا التى كانت تريد أن تنتقم من روما .وكانت الجيوش الرومانية قد جلت عن بلاد اليونان فى (١٩٤) بعد أن قاست البلاد الأهوال ، وذلك على الأقل لمجرد تزويدها بالطعام مثل ذلك العدد الضخم من القوات ، فضلا عن أن الديموقراطيات قدخاب رجاؤها فى كل شيء أملته، وذلك لأن الأثرياء كانوا هم وحدهم الذين يمالئون روما، مثلما كانوا يمالئون فى الماضى مقدونيا ،ولذا فإن روما رفعتهم إلى كراسى الحكم فى كل مكان .

(وفى ١٩٣ — ١٩٢) زوّج أنطيوخوس ابنته كليوبطرة الأولى من بطلميوس الخامس،وضمن لنفسه محالفة كل من بيثينيا وكابادوكيا وغلاطية، ومع أن روما أرسلت إليه إنذاراً نهائياً فى (١٩٣) ، إلا أنه لم يتخذ للحرب أهبتها الحقة حتى وفد عليه وفد أيتولى ،ووصف له شعور بلاد الإغريق ورجاه أن يعبر البحر إليها ،ووعده بأن يتحالف معه فيليب ونابس. وكان من الطبيعى أن يحرضه على مهاجمة روما بإيطاليا هانيبال الذى التجأ إليه منذ نفى من قرطاجة فى(١٩٥) ، على أن من الطبيعى جداً والمتمشى مع وجهة نظر أنطيوخوس ، أن يعول على تحويل عمليــة الدفاع عن تراقيا إلى صراع مــوت أو حياة ، لذلك مال إلى تفضيل خطة أيتوليا على خطة هانيبال ، كما أن وزيره مينيبوس وعد بدوره أيتوليا وعودا جوفاء . فهبت أيتوليا تضرب من فورها ، حيث فاجأت مدينة ديمترياس واستولت عليها، فكان هذا حدثا رائعا ، ولكن فاتها أن تأخذ إسبرطة على غرة .ومع ذلك فإنها قتلت نابس،وانتهز فيلوبويمين الفرصة فأجبر إسبرطة على الانضمام كرها إلى الحلف الآخى . ثم عاد فى (١٩١) فضم أيضاً إليس وميسينيا ، وبذلك أصبح الحلف يضم كل البيلوبونيز . غير أن إسبرطة

وميسينيا كانتا عضوين متكرهين . فكانتا من ثم نقطة ضعف فى الخلف . ولكن أنطيوخوس وهو الرجل العاقل المتزن فى الماضى ، خدعته فى هذه المرة أيتوليا ومينيبوس ، فخانه التوفيق وأبدى قصر نظر عجيب . لم يكن جيشه مستعداً للقتال ولكنه أقدم فى (١٩٢) على عبور البحر إلى ديمتزياس مع عشرة آلاف مقاتل، وهى قوة كافية لإشعال الحرب ولكنها أضأل من أن تخوض غمارها. وكانت صيحة الحرب هى تحرير اليونان من قبضة الرومان. على أن الثورة الموعودة لم تقم . ومع أن أنطيوخوس استولى على يوبيا وضم جزءاً من تساليا ، إلا أن فيليب وأخايا لزما جانب روما ، حتى استطاع جيش رومانى ، بالتعاون مع فيليب ، أن يسترد تساليا ، فى (١٩١) وأن يدمر جيش أنطيوخوس عند ثرموبيلاى ، مصيدة الموت المعروفة ، فلم ينج الملك ويفر إلى آسيا إلا بمفرده تقريباً .

وفى (١٩٠) أعد القنصل ل . كورنيليوس اسكيبيو العدة لغزو آسيا يصحبه أخوه اسكيبيو الإفريقى ، قاهر هانيبال بوصفه القائد الحقيقى للحملة. وكان مما ساعدهما مساعدة عظيمة التماس أيتوليا الهدنة مع روما ، فتقدما خلال تراقيا بمساعدة فيليب ، على حين ظهر الأسطول الرومانى فى بحر إيجة وساعده هناك أسطولا يومينيس ورودس . وهنا أبلى بوليكسينيداس قائد أسطول أنطيوخوس ، وهو منفى من أهالى رودس ، بلاء حسنا فى القتال . ولكنه هزم فى كوريكوس على يد الرومان ويومينيس، غير أنه عاد بعد ذلك فدمر عمارة بحرية لرودس ، ولعله كان فى وسعه أن يهزم الرومان وحدهم بمعركة ميونيسوس الفاصلة التى لعلها هى المعركة البحرية الوحيدة التى خاضتها روما فى تاريخها كله وكفة الرجحان ليست فى جانبها، ولكن مهارة بحرية رودس كسبت النصر لهم. وبهذه المعركة انتهت سيادة الممالك المقدونية فى البحر بعد أن دامت منذ سقوط بحرية أثينا قرب أمورجوس فى أثناء الحرب اللامية (٣٢٢). وفى نفس الحين كان أنطيوخوس قد جمع جيشه فى غضون ذلك ، ولكنه فقد رشاده بعد معركة ميونيسوس وتخلى عن الدفاع عن ليسيماخيا القوية التحصين وعن الدردنيل جملة، إذ يلوح أنه اعتقد أن «الحظ» قد أدبر عنه . واستطاع اسكيبيو وأخوه أن يعبرا

الدردنيل بمساعدة يومينيس . ولم يلبثا حتى هزما أنطيوخوس قرب ماجنيزيا فى أخريات عام (١٩٠) هزيمة ساحقة يرجع الفضل الأكبر فيها إلى يومينيس . وفى (١٨٩) دخلت قوة رومانيـة إقليم فريجيا وهزمت الغلاطيين حلفاء أنطيوخوس ، على حين أن فيليب كان فى بلاد الإغريق يفتح أيتوليا مع الرومان . وقاومت أمبراكيا مقاومة بطولية مجيدة استطاعت أيتوليا بفضلها أن تحصل على شروط معتدلة . وعندئذ عادت أيتوليا حليفة لروما ، ولكن حلفها صغر إلى حد جسيم ، كما أنها فقدت دلفى . وعقد الصلح فى (١٨٨) بأباميا بين أنطيوخوس وروما ، وبمقتضاه ألزم أنطيوخوس على التنازل عن كل أملاكه السلوقية بآسيا الصغرى عدا قيليقيا ، وأن يتخلى عن أفياله وأسطوله وأن يدفع تعويضاً ضخماً . وطالبت روما أيضاً بهانيبال الذى فر إلى بيثينيا .

غيّر صلح أباميا وجه الشرق الهللينستى ، إذ أصبحت روما عندئذ القوة المتسلطة فى كل مكان ، ولم تكن أية دولة ببلاد الإغريق نفسها بمستقلة عنها حقاً . وكانت فقرات نزع السلاح البحرى الواردة فى شروط معاهدات السلم الثلاثة المنعقدة فى السنوات (٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٨٨) قد جعلت من البحر المتوسط بحيرة رومانية . وجاءت بعد ذلك حقبة حافلة بتدخل الرومان المستمر فى شئون تلك البلاد ، فكان كل متنازع يشعر بضعفه عن خصمه يلجأ إلى روما وكل صاحب ظلامة يتظلم إليها ، كما كان مندوبو روما ومبعوثوها يسافرون على الدوام إلى الشرق . أما فى المدن فإن الديموقراطيات التى كانت تناصر الاستقلال القومى فى داخل موطنها على الأقل ، كانت تميل آنذاك إلى الشخوص بأبصارها نحو مقدونيا ، على حين كان الأثرياء يؤثرون الخضوع لرغبات روما . وحصل يومينيس على جزائه فى معاهدة الصلح ، فضم إليه بمقتضاها ممتلكات السلوقيين بآسيا الصغرى شمال جبال طوروس ونهر الماندر مع أجزاء من سواحل بامفيليا وتراقيا ومدن كثيرة . ولكنه لم يستطع قط أن يبسط كلمته على إقليمى بيسيديا وطوروس الهمجيين . وتقدم حتى البحر الأسود عند تيوس ، وبذلك أصبحت عدوته بيثينيا بين ذراعيه . وشبت بينهما نار حرب استطاعت روما فى (١٨٣) أن تسويها لصالحه . وعندئذ عادت روما

إلى المطالبة بهانيبال ، فبادر ذلك المسكين بتناول السم قبل أن يسلمه إليها بروسياس . واقتتل يومينيس مع فارناكيس ملك بنطش ، الذى تمكن رغم ذلك من الاستيلاء على سينوبى واتخاذها عاصمة له . على أن يومينيس جعل من نفسه سيداً إقطاعياً على غلاطيا — وهو نجاح لعل المذبح العظيم ببرجامة هو الذى أقيم لتخليد ذكراه (الفصل التاسع) — ثم لم يكتف بذلك بل مد سلطانه إلى كابادوكيا نفسها بل حتى أرمينية . وسوف نعرض فى غير هذا المكان لشيء من علاقاته بمدنه الإغريقية (ف٣) . أجل إن شأنه صار عظيما ، ولكنه كان مكروها فى كل مكان لأنه كان تابعاً ذليلا كابن آوى لروما وخائناً للقومية الهللينية . وتسلمت رودس ليكيا وكاريا جنوبى نهر المياندر . وبذلك بلغت ذروة مجدها ، حيث أصبحت رئيسة لاتحاد قوى من دول مدن . وأصبحت متسلطة على البحر ، ولكن الليكيين أخذوا يتمردون عليها مرة تلو أخرى ، حتى صاروا كالدمل المؤلم فى جنبها . وكان أنطيوخوس لايزال يحتفظ رغم كل ما فقد ، بامبراطورية عظيمة ، وإن كان طبيعياً أن يفلت من قبضته سلطانه على إقليم پارثيا ، ولكنه لقى بعض العسر فى جمع التعويض المطلوب ، حتى قتل فى (١٨٧) قتلة غير كريمة وهو يحاول نهب معبد بإيليمايس (عيلام) . وتولى بعده ابنه سلوقوس الرابع فلم يدخل حرباً ولم يجرد حساماً ، وخيراً فعل . ولكنه اغتيل فى (١٧٥) على يد وزيره هليودورس ، الذى قضى أيضاً فيما يظهر على ولده الذى قولى العرش من بعده . أما ابنه الأصغر ديمتريوس فكان رهينة عند روما ، وفى نفس تلك السنة ارتقى العرش أخوه الملك المقتدر أنطيوخوس الرابع إيبفانيس (Epiphanes) .

وكان الحلف الآخى يستمتع إذ ذاك هو الآخر كرودس تماماً بسمعة طيبة ، وكان فيلوپومين ممن يؤمنون بالصداقة مع روما ، مع تمسكه بالاستقلال التام فى كل ما يخرج عن التزامات الحلف كحليف لروما . على أنه كما كانت ليكيا بإزاء رودس كالدمل المتقيح الأليم ، فكذلك كان شأن اسبرطه تجاه آخايا . وحاول فيلوپومين أن يسوى الأمر فى (١٨٨) بالقوة الغشوم، ففتح اسبرطه وأزال أسوارها ، وأعاد الرجال الذين أبعدهم عنها نابس ومن سلفوه فى الحكم ، وألغى نظم ليكورغوس ، ثم نقل إلى آخايا كثيراً من المواطنين الجدد الذين

اصطنعهم نابس ، وباع بيع الرقيق ثلاثة آلاف منهم رفضوا مغادرة المدينة ، وبذلك صار له عدد أكبر من المنفيين ، الذين بدأوا يلجأون إلى روما شاكين. وفى (١٨٣) ثارت مسينى ولم يتيسر إخضاعها حتى تم لها القبض على فيلوبويمين وتجريعه السم . على أن خلفه ليكورتاس واصل سياسته ، وتولى المؤرخ بوليبيوس ابن ليكورتاس، وكان فى شبابه ، حمل القارورة الحاوية لرفات فيلوبويمين عند ما نقلت إلى مسقط رأسه . وفى (١٨١) تدخلت روما لمناصرة اسبرطة ، وأتاحت لخصم ليكورتاس المسمى كاليكراتيس رئيس الحزب الرومانى فى آخايا بأن يعيد بناء على مشورتها جميع الاسبرطيين المنفيين ويعيد الأسوار إلى سابق عهدها ونظم ليكورغوس كذلك . وبطبيعة الحال لم يحسن بوليبيوس الشهادة فى كاليكراتيس ، ولكن روما كانت مضطرة إلى قبول تسوية لمشاكل اسبرطة على نحو ما ، فكان تصرفها هذا من الأعمال التى لها أكبر المسوغات .

وكان فيليب قد استولى مرة ثانية أثناء الحرب مع أنطيوخوس على مدينة ديمترياس بإذن من روما وعلى أجزاء من تساليا وتراقيا . وقد احتفظ لنفسه بديمترياس ، ولكن روما أمرته بالانسحاب من تراقيا وتساليا . فأذعن لرغبتها طاوياً نفسه على المقت المرير لها . ذلك أنه أسدى لروما خدمات جليلة ، ولم يتلق عن ذلك إلا جزاء سنمار الذى صار منذ ذلك الحين هو الجزاء العادى الذى يتلقاه منها أصدقاؤها . وكان كل ما حدث لمقدونيا نفسها من شر هو هزيمتها فى معركة واحدة ، وأخذ فيليب يعد العدة لحرب ثانية . ولم تكن نوبات جنونه قد زالت عنه بعد — حيث تجلت قبل ذلك فى المذبحة التى أعملها فى مارونايا عند ما أخلاها ، وفى قتله ابنه الأصغر ديمتريوس لمناصرته روما ، وهو أول حادث قتل فى آل البيت الأنتيجونى . وعندئذ زاد تعسفاً على تعسفه . ولكن مواهبه كانت فى الضراء ألمع منها فى السراء ، فأخذ يعمل جاهداً على إعادة مقدونيا إلى سابق عهدها من القوة والرخاء وأمر بمنع قتل الأطفال واستقدم إلى البلاد سكانا نازحين وفتح العمل فى مناجم جديدة وسيطر على تراقيا سيطرة تامة ، حتى إذا توفى فى (١٧٩) ترك لابنه برسيوس (Perseus) مقدونيا فى خير حال ، قد زاد سكانها وكثرت ثرواتها بصورة لم تشهدها

منذ عهد كساندر . وقضت وفاته على خطته التى اختطها . فانه كان عزم على استخدام اتحاد دويلات الباستارناى الصديق — وهو اتحاد لقبائل الغالة على الدانوب الأدنى — فى القضـــاء على الدردانيين ، وعلى استخدامهم وأقربائهم من الإسكوردسكيين فى غزو إيطاليا على حين يتقدم هو لغزو اليونان . ولكن وفاته قضت على تلك الخطة إذ لم يتحرك للعمل إلا شطر من اتحاد دويلات الباستارناى ، على حين أن الإغريق انزعجوا واتهموا پرسيوس بالتآمر على بلاد الإغريق . وعند ذلك أمسك پرسيوس عن تقديم العون المنتظر ، وهزم الدردانيون اتحاد دويلات الباستارناى وكسروا شوكتهم إلى حين .

ومن سوء الحظ أن پرسيوس كان أقل من تولى من آل بيت الأنتيجونيين قدرة وكفاية ، وكان متردداً ضعيف العزم وانى الإرادة لا يبت فى أمر من الأمور . ولكنه سرعان ما هفت إليه جميع الأنفس ؛ وتزوج إحدى بنات سلوقوس الرابع ، ووصلت العروس إلى بلاده بحراسة أسطول رودس ؛ وشخصت إليه أبصار جميع الأحزاب الوطنيـة أو الديموقراطية ببلاد الإغريق ، وكثر أعوانه فى كل مكان ، حتى فى رودس نفسها وأيتوليا . ولكن الشخص الوحيد الذى أبى الصلح معه كان يومينيس ، وبلغ من حقده أنه ذهب إلى روما بنفسه فى (١٧٢) ليحضها على القضاء على مقدونيا . ولا شك أن روما خيل إليها أن پرسيوس ربما كون اتحاداً دولياً ضخماً ، ولم يكن پرسيوس أساء قط إلى روما . ولكنها أصغت إلى أقوال يومينيس (انظر الفصل الثالث) ، وسنحت لها الفرصة حين أوشك يومينيس أن يقتل فى شجار خاص وهو فى طريق عودته إلى بلاده ، فاتهمت روما پرسيوس بالحادث واتخذت من ذلك ذريعة للحرب . وزعم الناس أن يومينيس قتل ، فاستولى أتالوس أخوه على ملكه وتزوج امرأته إستراتونيكى . فلما عاد يومينيس نزل أتالوس له عن الاثنين جميعاً ، وكل ما فعله يومينيس أنه قال إن أخاه تسرع بعض الشىء بالزواج (الفصل الأول) .

أعلنت روما الحرب فى (١٧١) ودعت لنصرتها كل حلفائها ، حتى إذا وافت (١٦٨) كان لها مئة ألف مقاتل فى مقدونيا وبلاد اليونان مقابل ثلاثة وأربعين ألفاً جمعها پرسيوس . ولم يكن مع پرسيوس من الحلفاء سوى

كوتيس صاحب تراقيا ثم إبيروس . وانضم إليه فيما بعد جنثيوس صاحب إلليريا. وعملت حكوماتهم على أن تبقى الدول الإغريقية محتفظة بجانب الهدوء ، وذلك أن مصلحة تلك الدول لم تكن فى انتصار برسيوس ، بل فى بقائه ليخلق التوازن مع روما . وكان برسيوس متهماً بالتردد والشح . ولعله كان يعتقد مع ذلك أن هزيمته لجيوش الرومان لم تكن لتعود عليه إلا بصلابة التصميم من جانب روما على القضاء عليه ، وأن فرصته الوحيدة كانت تقوم على احتفاظه بموارده وتمطيط أجل الحرب حتى تمل روما من بذل جهود غير مجدية . ونجح برسيوس فى تنفيذ خطته ثلاث سنوات مستعيناً فى ذلك بانتصارات صغرى تافهة وبما أبداه الرومان من عدم كفاية ، حتى لم يستطع القنصل ك. مار كيوس فيليبوس أن يعبر حدوده من تساليا إلا فى أواخر (١٦٩) . بيد أن روما أرسلت إلى مقدونيا (١٦٨) قائداً أمهر ، هو القنصل ل . إيميليوس باولوس فى نفس الوقت الذى فقد فيه برسيوس عون عشرين ألف مقاتل من الباستارناى بمماحكته ومساوماته فى أعطياتهم . وأخذ باولوس يداور حتى استدرج برسيوس إلى خارج مركزه المنيع الذى استعصم به ، وتمكن من حمله على الهجوم عليه هجوماً سابقاً لأوانه قرب بيدنا (Pydna) . وتمكنت كتائب الفيلق المقدونى من جرف حرس الطليعة الرومانى أمامها ، وقد اعترف باولوس فيما بعد أنه كان يرتجف وهم يزحفون عليه كالسيل المنهمر ويقذفون برجاله يمنة ويسرة على أسنة رماحهم . على أن التشكيلات المهاجمة لم تكن مترابطة ترابطاً مضبوطاً فاندفعت بعض الجنود الرومانية بين الفيلق والفرسان ، وبتطويق الجناح على هذا النحو أصبح الفيلق عاجزاً عن الحركة . وكانت النتيجة المحتومة مذبحة كبرى . وفر برسيوس بينما كان المقدونيون يعانون سكرات الموت ، وبذلك ضاع مركزه بين أفراد شعبه ، وقد فاته أن يحرق أوراقه التى كانت تحتوى على أشياء تدين الكثيرين من اليونان. فلما أن تخلى عنه الجميع آخر الأمر ، سلم نفسه لروما واقتيد ذليلاً فى موكب النصر ، ثم مات تعساً محسوراً فى أحد سجون روما .

لقد تجلى فى التسوية التى تمت بعد ذلك كل من الانحلال المتزايد الذى أخذ ينخر فى الخلق الرومانى والأفول الوقتى الذى انتاب عطف الرومان

على الهلينستية وتعشقهم لروحها. فقد قسمت مقدونيا بالقوة إلى أربع جمهوريات ثم زيدت ضعفاً بفرض قيود اقتصادية عليها. أما الاحزاب القومية ببلاد اليونان التى كانت تساعد برسيوس بالتمنيات الطيبة ليس غير، فقد لقيت عسراً وشراً مستطيراً ونفى منها فى كل مكان عدد كبير من الرجال. ولم ينج من هذا المصير حتى رجال آخايا أنفسهم، وهى التى وضعت جيشها تحت تصرف الرومان، إذ نقل ألف من زعمائها إلى إيطاليا من بينهم بوليبيوس. ومزقت أوصال الحلف الأيتولى، وأعيدت أيتوليا إلى حدودها الأصلية، ونفى أعضاء مجلسها بأسرهم. وقضى على دولة إبيروس إلى الأبد انتقاماً منها على غزو بيروس لإيطاليا. وبلغ من عظم الجماهير التى بيعت بيع الرقيق أن أصبح ثمن الفرد من إبيروس لا يتجاوز بضع شلنات، وبيع أيضاً سكان ثلاث مدن يونانية أخرى انضمت إلى برسيوس. وكان أسطول برسيوس يستعين بجزيرة ديلوس، ولم يكن لديلوس قبل بمنعه، ولكنها عوقبت بضمها ثانية لأثينا، فطردت أثينا السكان جميعاً وأسكنت مكانهم آثينيين حائزين لأنصبة وإقطاعات من الأراضى (Cleruchs). وخدع القنصل فيليبوس رودس التى ظلت دائماً صديقاً مخلصاً لروما. إذ اقترح عليها أن تتقدم للوساطة، ففعلت، ولذا حرمتها روما من معظم ما كانت تمتلك على أرض آسيا، وقضت على سيادتها التجارية بجعل ديلوس التابعة لأثينا ميناء حراً. ولم ينج من المكابدة حتى يومينيس نفسه الذى كان أكثر من حليف لروما، حيث لقى الشر لأنه أصبح قوياً، فاتهمته روما بأنه كان ينوى أن يتقدم للوساطة (وحقيقة هذا الأمر يكتنفها الغموض) وحرضت الغلاطيين عليه. ولما ذهب إلى روما ليدافع عن نفسه رد على أعقابه دون أن يستقبل لسماع أقواله. ولما أن تمكن فى (١٦٦) من كسر غزاة الغلاطيين لبلاده بعد صراع عنيف، بادرت روما إلى إعلان استقلالهم الذاتى. وفى (١٦٣) جلس ب. سلبيكيوس جالبا عشرة أيام فى برجامة يستمع إلى الاتهامات المقدمة ضده. ولم تكن أية خدمة تؤدى للجمهورية الرومانية ولا أى خضوع لإرادتها يستطيع أن يجلب الصداقة الخالصة من تلك الدولة المجردة من كل خلاق. ولاشك أنه قلما صدر عن أى حاكم من ذوى الدم المقدونى من ضروب التصرفات المتطرفة الهوجاء وألوان المظالم والجور ما يمكن مقارنته بما جرت به سنة تلك الجمهورية فى أواخر أيامها. وكانت

عاقبة غضب روما على يومينيس هى تخفيف كراهية اليونان الأسيويين له .
وتوفى يومينيس (١٦٠ — ١٥٩) . وخلفه فى الملك أخوه باسم أتالوس الثانى
وعاد مرة ثانيه فتزوج إستراتونيكى .

وتوفى بطلميوس الخامس مسموماً فى (١٨١ — ١٨٠) تاركا وراءه ثلاثة أطفال صغار ، بعد أن تمكن إلى حين من إخماد ثورات الوطنيين التى بلغت ذروتها أثناء حكمه . أما الابن الأكبر وهو بطلميوس السادس الملقب فيلوميتور (Philometor) أى المحب لأمه فتزوج فيما بعد أخته كليوبطرة الثانية ، وأما الأخ الأصغر فانه هو الذى أصبح فيما بعد بطلميوس السابع وهو يورجيتيس الثانى (Euergetes II) . وفى (١٧٣) أعد وزراء الملك الغلام العدة لاسترداد جنوب سوريا ، بيد أن أنطيوخوس إيبفانيس كان يتوقع خطتهم هذه فاستبق الحوادث . وكان أنطيوخوس الخامس « منقذ آسيا » من أعظم رجال أسرته وأشدهم كفاية . وقد عاش فى روما أربعة عشر عاماً ، وكان لها مقلداً مؤمناً بها وصديقاً مقتنعاً بضرورة صداقتها ، وكان مواطناً آثينياً ، كما كان معجباً متحمسا بكل ما هو إغريقى . وقد أكثر من تزيين أثينا ومدن أخرى غيرها بما كان يهبها من المعابد والمبانى ، وزاد فى سعة مدينة أنطاكية (Antioch) ، وأعاد تأسيس مدن كثيرة بوصفها مدناً يونانية (انظر الفصل الرابع). واستجلب إلى بلاده مستوطنين جددا . كان ذلك الملك رجـلا جواداً سخياً ذا أبهة وجلال مستعداً للقيام بدور الديموقراطى من عامة الناس أو الساخر الهازل ولكنه كان محبوباً . وكان فوق كل شىء ملكا حقا ، واعتبره البعض مخبولا ، بيد أنه دفع بمملكته حتى بلغت ذروة عالية من الكفاية ، كما أن التنظيم الجديد الذى ابتدعه فيما بعد وحاول إدخاله فى بلاده كان يستحق التقدير . وقد غزا مصر فى (١٦٩) واستولى على الفرما ومنفيس ، وبسط حمايته على بطلميوس السادس . ثم عاد بعد ذلك إلى سوريا . أما عن علاقته ببلاد اليهودية فانظر الفصل السادس ، ولكن أهالى الإسكندرية نصبوا يورجيتيس ملكا عليهم ، واعترف به فيلوميتور نفسه، وبذا أصبح لمصر ملكان . وفى (١٦٨) عاد أنطيوخوس وحاصر الإسكندرية واتخذ لنفسه اللقب الملكى بوصفه وصياً على فيلوميتور . ولكن الأوضاع

كانت قد تغيرت: إذ وقعت معركة بيدنا ومضت روما فى تنفيذ سياستها التقليدية من إضعاف السلوقيين فتدخلت فى الأمر. وجاء ج. بوبيليوس (C. Popilius) مبعوث روما وسلم إلى أنطيوخوس أمر مجلس الشيوخ (الرومانى) إليه بمغادرة مصر، ورسم بعصاه دائرة على الرمل من حوله، مطالباً إياه بأن يبت فى الأمر قبل مغادرة تلك الدائرة. وكانت وقاحة لم يسمع الناس بمثلها، وإن شابهها فى أغلب الظن فى الفظاعة فيما بعد اضطرار اسكيبيو أيميليانوس للملك بطلميوس يورجيتيس الثانى بأن يرافقه سيراً على الأقدام بشوارع الإسكندرية وتعمده الإسراع فى السير ليحقر مضيفه البدين أمام رعاياه. ولم يكن أنطيوخوس يرمى إلى تحدى روما، فغادر مصر، وقضى البقية الباقية من عمره محاولا تنفيذ خطته الحقيقية، وهى إعادة غزو باكتريا وتخليصها من الأسرة اليوثيديمية وسحق قوة بارثيا الناهضة قبل فوات الأوان. ولكنه توفى فى (١٦٣) بعد أن كللت جهوده بالنجاح، فذهبت بموته كل فرصة لإمبراطوريته فى القيام بأى دور آخر كدولة عالمية.

وكان ابنه أنطيوخوس الخامس طفلا صغيراً فانتهزت روما الفرصة وطالبت بتدمير الأسطول السورى والفيلة الحربية، ونفذت الدولة الطلب. وثارت ثائرة الجمهور لمرأى الفيلة المقطوعة الأفخاذ والعراقيب حتى بلغ الأمر بشخص يدعى ابتينيس (Leptines) أن قتل رسول الرومان أوكتافيوس، وهى حادثة أسرتها روما فى نفسها لا لسبب إلا لكى تدخرها لتستخدمها مستقبلا. بيد أن الصبى لم يعمر فى الملك طويلا. إذ حدث فى (١٦٢) أن ديمتريوس ابن سلوقوس الرابع فر من روما بمساعدة بوليبيوس، وتمكن بسهولة من التغلب على لسياس وصى العرش المكروه من الشعب، واستولى على التاج باسم ديمتريوس الأول سوتر. وأظهر ديمتريوس فى الملك نشاطاً جماً: فاسترد بلاد بابل من القائد تيمارخوس، الذى ثار من قبل على الدولة واعترفت به روما، كما أنه نصب ملكا جديداً فى كابادوكيا محل عدوه أرياراثيس الخامس (Ariarathes V). بيد أنه كان مكروهاً من شعبه؛ واستطاع أتالوس الثانى أن يرد أرياراثيس إلى عرشه. وتحالف الاثنان عليه ومعهما فيلوميتور ملك مصر؛ ثم ظهر فى الأفق مدع للعرش اسمه إسكندر بالاس (Alexander Balas)، ادعى بأنه ابن إيفانيس. فاعترفت به كل

من روما وفيلوميتور، وغزا إسكندرهذاسوريا بمساعدة مصر، وهزم ديمتريوس وقتله فى عام (١٥٠).

وفى مصر، كان الحكم المشترك للأخوين فيلوميتور ويورجيتيس قصير الأمد، إذ ثار أهل الإسكندرية فى (١٦٣) وطردوا فيلوميتور. ولكن روما أمدته بشىء من العون، ثم عنّ لها فيما بعد فأعادته وتوسطت حتى قسمت المملكة بين الأخوين. فحصل فيلوميتور على مصر وقبرص، وحصل يورجيتيس على برقة وليبيا. والمأثور المتواتر عن فيلوميتور أنه كان من أحسن البطالمة. وكانت روما قد ألمت بها مشاكلها الخاصة، مما جعلها تنفض يدها من شئون مصر والسلوقيين، مادامتا لاتبلغان من القوة حداً يشكل خطراً على مصالحها؛ واتجه فيلوميتور بتفكيره صوب سوريا. فبعد أن مد لبالاس يد العون، عاد فزوجه ابنته كليوبطرة ثيا، وصارت له بالفعل الحماية على المملكة السلوقية. على أن بالاس كان ملكا عديم الكفاية، ومالبث ديمتريوس الثانى ابن ديمتريوس أن عاد إلى البلاد ومعه مرتزقة من كريت، وأخذ ينازعه على العرش. فاحتل فيلوميتور بنفسه الساحل السورى، ولكنه اختلف مع بالاس وسرعان ماتحول عطفه ورعايته إلى ديمتريوس وزوجه ابنته. وهاجمه بالاس فى (١٤٥) فهزم وقتل بعد ذلك بقليل؛ ولكن فيلوميتور توفى متأثراً بجراحه، وعند ذلك أصبح يورجيتيس ملكا على الإمبراطورية المصرية برمتها، وتزوج أخته كليوبطرة الثانية أرملة أخيه فيلوميتور. وتنقل الروايات الإغريقية عنه أنه كان طاغية مخضب اليد بالدماء، اقترف جرائم كثيرة. ومن الجلى أن الشىء الكثير من ذلك دعاية مكشوفة يعوزها السند التاريخى وتنقضها من أساسها مجموعته الضخمة من المراسيم التى لا سبيل إلى إنكارها؛ وإن جاز أن خلقه تغير فى أخريات أيامه كما تغير خلق أوغسطس. وقضى ذلك الملك شطراً كبيراً من مدة حكمه فى حرب أهلية مع أخته؛ وهو موضوع مشوب بالغموض ولكن الأضواء سلطت عليه حديثاً فتكشفت معالمه. ثم تزوج الملك ابنة فيلوميتور وهى كليوبطرة أخرى تكنى بالثالثة، وكثيراً ما تظهر معه الكليوبطرتان كلتاهما فى أعماله الرسمية؛ فهل ظلت الكبرى منهما زوجته كذلك من الناحية الإسمية ؟ وماذا كانت التغييرات الحقيقية التى ألمت بعلاقة

الثلاثة ؟ — تلك أمور تمت الآن إستبانتها وحلت أسرارها . على أن أهم ما يعنينا فى حكمه ليس الأمور الشخصية بل هى أمور أخرى (يبينها الفصل الخامس) . وتوفى الملك فى عام (١١٦) ، فكان آخر فرد فى سلسلة الملوك العظام من أسرة البطالمة .

وكانت تصرفات مرتزقة ديمتريوس الكريتيين المتطرفة الهوجاء مثار المعارضة من السوريين على الفور ، وعند ذلك تقدم قائد من قواد بالاس اسمه ديودوتس فنصب على البلاد ابن بالاس الصغير باسم أنطيوخوس السادس ، ولكنه ما عتم أن قتل الصبي فى (١٤٢) وتناول بيده صولجان الملك تحت اسم تريفون. ولم يستطع ديمتريوس أن يخلعه ، فترك زوجته كليوبطرة ثيا لتضطلع بشئون الملك بدله بسوريا واتجه بجيوشه شرقاً ، حيث كان ميثريداتيس الأول ملك بارثيا قد بسط سلطانه من بورالى (البنجاب) حتى دجلة ، واستولى فى (١٤٢) على دولة بابل . وكانت المدن الإغريقية بعثت إلى ديمتريوس تستدعيه وتطلب منه المعونة ، ولا شك أنه سعى إليها مؤملا أن يعود بموارد مالية وعتاد ورجال تكفى للقضاء على تريفون . فوجد منها عونا كبيراً تمكن به من انقاذ دولة بابل . ولكن ميثريداتيس عاد فأسره واحتفظ به أسيراً مكرماً وتزوج من ابنته ، وعند ذلك ضم ميثريداتيس إقليم بابل ثانية إلى مملكته (١٤١) . أما (ثيا) فإنها صمدت فى مقاومتها ، ولم تلبث حتى جاءها من رودس فى (١٣٩) أنطيوخوس السابع سيديتيس شقيق ديمتريوس وتزوجها بوصفه الزوج الثالث وقضى على تريفون . وكان سيديتيس آخر رجل قوى فى أسرته ؛ والنقيصة الوحيدة التى تنسب إليه هى الشراب . وقد وحد مملكته وشد من قوتها وأخضع بلاد اليهودية التى طال الأمد بفقدانها (الفصل السادس) ، ثم عبر الفرات فى النهاية بجيش عظيم . فاستقبلته المدن الإغريقية بحماسة بالغة ، ففتح أرض الجزيرة وإقليم بابل وطرد فراتيس ملك البارثيين خارج ميديا ، وبدا كمن أوشك أن يسترد إمبراطورية أنطيوخوس الثالث . وما نشب ملك البارثيين أن باغته فى معسكره الشتوى فى أوائل (١٢٩) ، وهزمه وقتله واسترد منه كل فتوحه . وآخر ما وصلنا من وثائق السلوقيين البابلية مؤرخ فى يونية (١٣٠) . وبعث فراتيس بجثمان سيديتيس إلى بلاده ، فشيعته سوريا

بمظاهر التفجع والحزن الشديد كأنما كانت تعرف أن التاريخ الجدى لأسرته الملكية قد انقضى بموته .

ومرت على مقدونيا بعد معركة بيدنا فترة حافلة بالاضطراب، دامت بضع سنين ، حتى ادعى العرش فيها رجل يدعى أندريسكوس مؤكداً أنه فيليب ابن برسيوس الذى كان قد مات فى الحقيقة بإيطاليا . وكانت روما مشغولة تماماً بأسبانيا ، فلم تُعر « فيليب الزائف » هذا اهتماماً كبيراً، حتى توطد قدمه ووجد من يعينه فى تراقيا ، ثم غزا مقدونيا فى (١٤٩) ، وعندئذ اعترفت به المملكة كلها عاجلا . وغزا تساليا فى (١٤٨) وهزم قوة رومانية ؛ ولكن نفرت منه قلوب المقدونيين لأنه كان مستبداً غشوماً ، ومن ثم هزمه القائد الرومانى (البريتور) ك . كايكيليوس ميتللوس وأخذه إلى روما حيث أعدم . وبذلك أصبحت مقدونيا باعتبارها أولى الدول الهللينستية ، ولاية رومانية منذ (١٤٨) . أجل إنه ظهر « فيليب زائف » آخر ، ولكنه لم يلق إلا نجاحاً ضئيلا ، ومن ثم فصاعدا لم يعد تاريخ الولاية فى غالب أمره إلا غارات متكررة يشنها البرابرة الشماليون، وهى غارات بلغت أقصى ذروتها وإن لم تكن آخر غارة — فى الغزو الكبير الذى قام به الإسكوردسكيون والتراقيون فى أثناء الحرب الميثريداتية الأولى ، التى دمروا فيها دلفى ودودونا . وكان فشل الرومان فى صد البرابرة أسوأ نقيض للسجل الباهر الذى سجله لأنفسهم فى هذا المضمار ملوك آل أنتيجونس .

كان من العسير على بلاد اليونان أن تستفيق من العقوبة التى لقيتها ومن حرمانها من خيرة رجالها لإبعادهم خارج البلاد . وفضلا عن ذلك فإن الزيادة فى عدد السكان اليونان كانت فى بعض النواحى غير كافية لموازنة النقص . ولكن بقيت هناك معركة أخرى يخبئها لها القدر . والكفاح الأخير للحلف الآخى يكتنفه شىء من الغموض . وقد فُقد معظم ما كتبه فى هذا الشأن بوليبيوس الذى بات فى هذا الصدد ميالا للرومان ميلا صريحاً ، كما أن روايات بوزانياس لا تعكس إلينا إلا وجهة نظر المشايعين لروما، وإن كان من حسن الحظ أن النقوش تساعدنا على تبين الموقف . فإذا نحن سمعنا أن الحلف كان آخذاً فى التدهور وأن الزعماء كانوا من الفسدة المرتشين، كان من الخير

لنا أن تتحفظ فى إصدار الحكم وظل كاليكراتيس سنين عديدة أكبر سياسى فى البلاد ، عمل أثناءها لمصلحة روما دون غيرها ، ولكن البقية الباقية على قيد الحياة من المنفيين وعدتها ثلاثمئة فقط عادت حوالى عام (١٥٠) من إيطاليا (ماعدا بوليبيوس) . واستولى الديموقراطيون على مقاليد الحكومة واتخذوا قائداً لهم هو ديئايوس من ميجالوبوليس وكان أحد أنصار الاستقلال. وتوفى كاليكراتيس فى تلك السنة نفسها. ولاح فى الأفق أن ما تلقاه روما من متاعب فى كل من أسبانيا ومقدونيا وإفريقية يبشر بانتعاش الأمل فى بعث سياسة الحرية من جديد . وحدثت من جديد بعض الإحتكاكات مع اسبرطة التى انفصلت صراحة فى (١٤٨) ، وأعلن الحلف الحرب عليها ، ولكن روما تدخلت ودعت كلا من الطرفين إلى مؤتمر يعقد بكورنثة فى (١٤٧) . وهناك أعلن رسل الرومان أن الحلف لاينبغى عليه فقط أن يتخلى عن اسبرطة ، وهو أمر عادل لاخلاف فى عدالته ، بل وعن كورنثة أيضاً فضلا عن أرجوس وأورخومينوس، وكلها كانت مدى أجيال عديدة أجزاء أساسية فى الحلف ، وكان الحلف قد ظل على الدوام موالياً لروما ومناصراً لها — وها قد انتوت روما إذ ذاك تدميره كما قضت من قبل على الحلف الأيتولى . وهدأ الآخيون الرسل،ولكنهم لم يؤذوهم ،إذ أن القصة التى تقول بالاعتداء عليهم أصبح من المسلم به بين جميع الثقات أنه لا نصيب لها من الصحة . لذا أقر الحلف إعلان الحرب فى ربيع (١٤٦) . إذ لم يكن هناك مفر من ذلك ، إلا أن تقضى الأيام بأن ليس من حق الدولة الصغيرة أن تقاتل دولة كبيرة دفاعاً عن حريتها .

كانت الحرب حرب شعب باسره ، وأعلن فى البلاد قرار رسمى بتأجيل دفع المستحقات (موراتوريوم) ، وتقاطر الرجال على التطوع فى الجيش كالسيل المنهمر ، وأسست فى المدن أندية تضم غلاة الوطنيين الأحرار ، وتهافت الأعضاء بالتبرعات حتى لقد وضعوا فى ترويزن ، فضلا عن جهات أخرى كثيرة ، كل ما يملكون تحت تصرف المدينة . وكان الشعور منطلقاً كالسيل الطامى وهو أمر يعترف به حتى بوليبيوس نفسه . وانضمت إلى أخايا كل من بؤتيا ويوبيا وفوكيس ولوكريس . وتقدم القائد كريتولاوس نحو الشمال لينضم إلى حلفائه ، ولكن ميتللوس أسرع إليه بجنده من مقدونيا وهزمه وقتله ، وفرت شراذم الجيش المنهزم إلى كورنثة والتجأت إليها،حيث انتقلت القيادة من ميتللوس

لى القنصل ل. ميميوس . وتولى القيادة عند اليونان ديئايوس ، فأعلن التعبئة العامة وأمر باعتاق اثنى عشر ألف عبد رقيق وتسليحهم (وهو أمر لم ينفذ على الإطلاق) وسارع إلى كورنثة على رأس أربعة عشر ألفاً وستمائة رجل ، ولعله أعظم جيش استطاع الحلف تكوينه فى مدى عمره كله . وتمكن من التغلب على حرس الطليعة لجيش ميميوس ، فأغراه ذلك بالتقدم إلى القتال، وإن كان تفوق العدو عليه فى العدد ساحقاً ، وقاتل الفيلق الآخى قتال المستيئس ، ولكن الهزيمة لحقت بجنده عند ما كشف جناحها خيالة الرومان المتفوق عدة وعدداً ، ونجا ديآيوس من القتل فى المعركة ولكنه انتحر هو وأفراد أسرته . وكانت أخايا جديرة بأن تفخر بقتالها هذا الأخير ، الذى أبلت فيه أحسن بلاء ، ونشرت المدن لوحات الشرف ، وقد وقعت فى يدنا بالصدفة لوحة الشرف الخاصة بإبيداوروس ، وهى تذكر أن عدد من قتلوا فى المعركة من مدينة صغيرة واحدة هو ١٥٦ رجلاً . واحتل ميميوس كورنثة فلقيت منه ما لقيت قرطاجة من قبلها وإن لم تجرد حساماً لمقاومة . فقتل الرجال جميعاً وبيع النساء والأطفال بيع الرقيق وسويت المدينة بالأرض . وكان ذلك تحذيراً صريحاً متعمداً لبلاد الإغريق (الفصل السابع) ، شأن تدمير الإسكندر لطيبة . وكابدت خالكيس وطيبة شر العناء أيضاً . على أن ميميوس لم يسىء التصرف فى كثير من الأماكن .

وأصبحت بلاد الإغريق منذ (١٤٦) محمية رومانية تدار من مقدونيا ؛ فإن بعض الوثائق تؤرخ متخذة من تلك السنة حقبة جديدة، ولكن بلاد الإغريق لم يؤل بها الأمر بعد إلى أن تصبح ولاية . وحصل پوليبيوس آنئذ على إذن بالعودة إلى وطنه ، فأسدى إليها أجل الخدمات حين توسط فى تخفيف وقع الشدائد الأولى على رأس آخايا ، ثم تمكن فيما بعد من الإشراف على فترة الانتقال فى البلاد . ولم تعد لبلاد اليونان أية سياسة خارجية ولا حروب تشتجر فيما بينها ، اللهم إلا منازعات الحدود . وأقيمت فى كثير من المدن حكومات تيموقراطية « أى حكومات للأغنياء » . وحظرت محاولة تغيير الدساتير حظراً باتاً . وكان أنتيجونس الأول قد ادعى فيما سبق من الزمان وفى بعض مدن معينة فى البلاد أن له الحق فى « توبيخ ومعاقبة » من يقترحون القوانين التى تعتبر فى نظره غير صالحة ، غير أن روما استنت إذ ذاك « قوانين جديدة » نصت

على عقوبة الإعدام فى مثل هذه الأحوال . وفى ذلك ما فيه من إيضاح للفرق بين الحكم الرومانى والمقدونى. ومع ذلك فإن بلاد اليونان كانت هى القطر الوحيد الذى بررت فيه الجمهورية الرومانية نفسها إلى حين ، فإنها نشرت فى البلاد لواء السلام والرغد ، ولو كان ذلك بطريق القوة الجبرية . وفرضت الجزية على بعض المناطق ككورنثة ويوبيا وبؤتيا . بيد أن أثينا واسبرطة وبعض المدن الأخرى كانت معفاة من الجزية، ولعله لم يكن هناك نظام عام تفرض بمقتضاه الجزية إلا بعد عام ٨٨. وتمتعت أثينا بفترة سعيدة من الرخاء المادى الجميل ، كما أن الحقائق التى نعرفها عن ميسينى تشير إلى تمتعها التام بالرفاهية حوالى عام ١٠٠ (الفصل الثالث) . وحدث هناك أيضاً انتعاش ونهضة دينية ، فإلى هذه المدة ينتسب المرسوم التشريعى العظيم الذى يعترف بأسرار أندانيا (الفصل الثالث) وعودة الوحى الالهى والخدمة والصلوات بمعبد أبولون الكوروبائى ، ونشر سجلاته الدينية فى (٩٩) بمدينة لندوس ، (وهى المسماة بالتاريخ اللندوسى) . وكانت أثينا وبؤتيا هما الزعيمتان السباقتان فى هذا المضمار ، وأصبحت دورة الألعاب البتوئية (Ptoia) تعقد فى بؤتيا كل أربع سنوات ، كما أن تاناجرا أسست دورة ألعاب تسمى سيرابيا ، وأحيت أثينا فى ديلوس حفلات الألعاب الدينية التى كانت تقام كل أربع سنوات، وهى شعائر كانت قد ألغيت منذ ٣١٤ ، كما كانت ترسل إلى دلفى بين الفينة والفينة مواكب دينية مزودة بأفخر العتاد ، هى مواكب البيثياد ، لإعادة النار المقدسة رغبة فى تطهير المدينة . فكانت هذه الأشياء جميعاً من أعظم دواعى إعادة تكوين الوعى القومى .

وكان حكم أتالوس الثانى الملقب فيلادلفوس حكماً خالياً من الأحداث الهامة فى برجامة وليس فيه ما يستحق الذكر إلا الحرب العادية المألوفة مع بيثينيا ، بيد أن أسطوله ناصر روما فى (١٤٨ ، ١٤٦) . وبلغت المملكة فى عهده أقصى درجات الرخاء والتقدم . وتوفى فى (١٣٩ — ١٣٨) ، وخلفه أتالوس الثالث ولعله ابن سفاح رزقه يومينيس الثانى ،ثم عاد فاعترف به وتبنته الملكة استراتونيكى التى لم تعقب طفلا . وربما يكون أتالوس الثانى قد تزوج إستراتونيكى التى لم تكن صغيرة السن آنذاك — ولكنه تزوجها ولاء منه ليومينيس — رغبة منه فى ضمان العرش لابنه . ذلك هو التفسير الوحيد للعجلة

التى أبداها فى (١٧٢) وعدم إظهار يومينيس لأى استياء من ذلك . وكان أتالوس الثالث رجلا مضطرب الأعصاب يجمع بين القسوة والغرور . أعدم كثيراً من رجال دولته البارزين وصادر ممتلكاتهم ، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن انزوى وتوارى بوازع تأنيب الضمير فيما يحتمل ، وأخذ يمارس النحت وصنع التماثيل ويدرس أنواع السموم . وتوفى فى بواكير (١٣٣) دون أن يعقب ، مخلفاً وراءه وصية ذاع صيتها ونصت على ما يلى : — منح الحرية لبرجامة ، بل وعلى الأرجح لمدنه الإغريقية عامة ، وأن توهب مملكته لروما «من بعده» . ومعنى ذلك أنه أعطى روما أراضى الملك والكنوز الملكية والحق فى تولى الملك فى برجامة بالنسبة للعناصر الأخرى الموجودة فى البلاد . ولا يزال السبب الذى دعاه إلى ذلك موضع الحدس والتخمين ، ولعل مرد ذلك فيما يقول البعض هو كراهيته لوريثه وهو أخ غير شقيق يسمى أرستونيكوس ، ولعل الهبة ، شأنها شأن هبة بطلميوس الأصغر فى برقة سنة (١٥٥) ، كانت مشروطة بأن تحدث الوفاة لأتالوس فى وقت لا يكون له عقب أو ابن يخلفه ، وهى نتيجة كان عليه أن يحتاط لها بالطبع ، أو لعله توقع فقط أمراً تصوره واقعاً وهو أن روما لابد أن تستولى على المملكة متى شاءت . وتقبلت روما الهبة . وخشى أهل برجامة من أن يثور الرقيق فاعتقوا جموعاً كثيرة منهم (الفصل الرابع) ، ولكن أرستونيكوس تزعم فى (١٣٢) ثورة قومية واسعة الأرجاء على الرومان وربط بين مصيره ومصير الأرقاء . وتمكن بسهولة من هزيمة حلفاء روما : وهم حكام بنطش وبيثينيا وكابادوكيا وبافلاجونيا . ورغم أن برجامة نفسها تخلت عنه ، إلا أنه وفق إلى اجتياح كاريا ومحاصرة كيزيكوس وقيامه بغزو الخرسونيين كما تمكن فى مستهل ١٣٠ من قتل القنصل كراسوس وتدمير جيشه . بيد أن القنصل الجديد م . برپرنا هزمه وحاصره بمدينة إستراتونيقية ، ثم اضطر إلى التسليم ونقل إلى روما حيث أعدم . ومع ذلك كله لم تنته الحرب ، ففى (١٢٩) اضطر القنصل م . أكويليوس إلى خوض غمار حرب ضروس فى كاريا وميسيا . وتنحصر أهمية هذه الحرب فى النظريات التى حاول أرستونيكوس أن يضعها موضع التنفيذ العملى (الفصل الثالث) .

واتخذت روما الحرب ذريعة للتخلص من وصية أتالوس ، ذلك أنها كانت فتحت المملكة بحد الحسام ، وفى (١٣٠) سلخت جزءاً منها جعلته ولاية آسيا الرومانية . وأصبحت المدن التى ساندت أرستونيكوس مدناً تابعة وفرضت عليها الجزية . ولكن كثيراً منها كيليتوس مثلاً ، بقيت حرة واعتبرت حليفة لروما . واتبعت روما السوابق الهللينستية :— فكانت تبدأ بتخفيف الضرائب . ولكنها لا تلبث حتى تعيد فرضها فيما بعد بمقتضى قانون سمبرونيوس الذى سنه ج . جراكوس . ومع ذلك فإن وضع كل مدينة على حدة كثيراً ما كان يتغير إما إلى أحسن أو إلى أسوأ . وكان مطمع الجميع هو الحصول على الحصانة من الضرائب الرومانية . ولم تكن تلك الضرائب باهظة فى حد ذاتها ، بل كان الباهظ فيها هو طريقة جبايتها . فإنها كانت تعطى على سبيل الالتزام لبعض الأفراد بدل أن يجبيها موظفون مسئولون ، أعنى أن الجابى أو الملتزم (Publicanus) كان يشترى الحق فى جمع الضرائب فى إقليم من الأقاليم . وعندئذ يصبح ما يجمعه فعلاً شيئاً لا يحده إلا مدى جشعه . وذلك هو أسوأ نظام وضع للناس على مر التاريخ ، وخاصة لو علمنا أن الجابى الملتزم للناحية لم يكن فى الغالب إلا مندوباً عن إحدى الشركات بروما . ومع ذلك فإن الدولة كانت تفرض حتى عام ٨٨ شيئاً من القيود على تلك العملية ، ولذا ظلت المدن ، على الجملة ، تواصل رخاءها ورغدها وخاصة منها المدن الحرة .

وفى عام ٨٨ بدأ الصراع الذى كان فاتحة الدمار على الهللينستية ، ألا وهو الحرب الأولى التى نشبت بين روما وبين ذلك الهمجى النابه ميثريداتيس يوباتور ملك بنطش . على أن هذه الحروب تخص التاريخ الرومانى ، وكل ما يعنينا هنا هو أثرها وعواقبها . ولقد تبلور حول شخصية ميثريداتيس كل البغضاء التى يحسها الناس نحو روما ونحو ملتزم الضرائب الرومانى ؛ حتى إذا اجتاح بجيوشه فى ٨٨ ولاية آسيا الرومانية انضمت إليه كثير من المدن اليونانية . وعند ما أصدر أوامره بإعمال يد الذبح والتقتيل فى الرومانيين جميعاً ، استجاب لها الناس إلى حد كبير . أجل إن هناك مدنا كرودس أبقت على الرومانيين وصانت كرامتهم . بيد أن عدداً كبيراً منهم هلك ، بلغ ثمانين ألفاً أو مئة وخمسين ألفاً فى بعض الروايات — وجلهم من التجار المسالمين وعائلاتهم الذين لم تقترف يداهم إثماً .

وقتل أرخيلاوس قائد ميثريداتيس فوق هؤلاء السالفين عشرين ألفاً أويزيدون في ديلوس والجزر الأخرى . ووجد ميثريداتيس حلفاء له مناصرين حتى في بلاد الإغريق نفسها، من ذلك أخايا ولكونيا وبؤتيا . وكان أشدها بروزاً في هذا التأييد ديمقراطية مدينة أثينا. وكانت حدثت بأثينا ثورة أوليجركية حوالي ١٠٣، وكانت الديمقراطية تريد أن تسترد سلطانها وتقبض على ناصية الحكم ؛ ولكن المدينة المسالمة ذات التاريخ التليد ظلت أجيالا عدة لا تظهر أى ميل إلى خوض الحرب ، ولذا فإن تبنيها الصريح لقضية ميثريداتيس شاهد قوى على أن ما أحسه اليونان من الكراهية نحو سادتهم الرومان، لايقل قوة عن مذابح آسيا . وقاتلت أثينا قتال المستيئس عندما حاصرها سولا (Sulla) قاهر ميثريداتيس ،ولم تستطع بعد ذلك ألبتة أن تستفيق مما حل بها على يديه من دمار . أما في آسيا ، فإن الإجراء الذى اتخذه ميثريداتيس من طرد أهل خيوس وترحيلهم من آسيا أغضب مدناً عديدة وجعلها تنفض من حوله . وعلى ذلك حاول استرداد عطف تلك المدن بإثارة الثورات الاجتماعية بها لصالحه . فأعلن إلغاء الديون وتحرير الأجانب المستوطنين (metics) (وهم نفر من الغرباء الذين استقر بهم المقام في إحدى المدن دون أن يكون لهم حرية المواطنة) ، كما أعلن عتق الأرقاء ، وهنا كان ميثريداتيس يحذو حذو أرستونيكوس حين حاول استخدام الثورة سلاحاً يحارب به روما .

وعلى يد ميثريداتيس بلغ رد الفعل المادى الذى قام بآسيا ضد الحكم الغربي ذروته ، وهو رد الفعل الذى بدأته كبادوكيا وبارثيا وواصلته بلاد اليهودية وأرمينية ، فاضطرت روما في النهاية بعد أن بذلت النفس والنفيس في سبيل إضعاف الدول الإغريقية — المقدونية أو القضاء عليها ، اضطرت أن تحل محلها كنصير وحام للحضارة اليونانية ببلاد الشرق . بيد أن الهلينستية كتب عليها أولا أن تمر في دور من النكبات والأزمات المدمرة . وأصيبت كل من بلاد الإغريق وآسيا بأضرار جسيمة لوقوعهما بين روما من ناحية وبنطش من ناحية أخرى ، ولعدم تورع كل من الاثنتين عن كيل الضربات الموجعة الأليمة لهذين القطرين التعسين ، فإن سولا لم يكفه أن شن الحرب الفعلية عليهما وفرض الغرامات وأنزل الخسارات ، بل راح ينهب المعابد بأولمبيا وغيرها من المناطق،

ونهب أرخيلاوس ديلوس ، كما نهب حلفاء ميتريداتيس المتبربرون دلفى ؛ وكان قراصنة قيليقيا الذين يناصرون ميتريداتيس طامة كبرى على من تصل إليه أيديهم . وكانت الغرامات التى فرضها سولا بكل من الإقليمين شديدة قاسية ، كتلك التى فرضها فى أثناء الحرب الكريتية فيما بعد . أنطونيوس الملقب بالكريتى ، وكانت المدن الإغريقية فى غضون تلك الحروب المديدة كلها مضطرة أن تزود الأساطيل الرومانية بالميرة . وقبل أن يستطيع الشرق اليونانى أن يفيق ويسترجع هدوءه وسلامه وقع فى الحروب الأهلية الرومانية وقوعاً لا سبيل له فيه إلى خلاص .

أما بلاد الإغريق نفسها فلم تتح لها فرصة للخلاص مما ألمّ بها ، فتجردت مناطق بأكملها من نصف سكانها ، وصارت طيبة قرية صغيرة وميجالوبوليس صحراء جرداء وميجارا وأيجينا وبيرايوس أكواماً من الأحجار ؛ وكان الأفراد فى لكونيا ويوبيا ممن يملكون مساحات ضخمة من الأرض لا يجدون لها من العمال فى الغالب إلا قلة ضئيلة من الرعاة ، ودمرت أيتوليا هى وإبيروس إلى الأبد . وجاء الفرج آخر الأمر فى ٢٧ ق . م عندما جعل أوغسطس من هذه البلاد ولاية رومانية أسماها ولاية آخايا . وازدهرت عند ذلك مدينتان تجاريتان عظيمتان هما كورنثة التى شادها قيصر وباتراى التى ابتناها أوغسطس ، وسمح لأثينا أن تظل محتفظة بجامعتها الزاهرة ، واسترجعت إيليس وبؤتيا فى النهاية بعض الرخاء المادى . وكانت الحيوية لا تزال تدب فى بؤتيا ، فأخرجت لنا أعلاماً مثل بلوتارخوس . وسمح لمدن أخرى منوعة أن تعاود العيش وتستأنف جانباً محدوداً من الحياة . ولكن السلام الذى جلبه أوغسطس جاء متأخراً جداً بالنسبة لبلاد اليونان فى جملتها .

أما آسيا الصغرى فإنها وإن لقيت الأمرّين ، إلا أن مصيرها اختلف عن مصير بلاد اليونان . فإن فترة الانتقال من تاريخها كانت فترة شر ووبال عليها ، إذ فقد كثير من المدن حريته بعد (٨٨) . ولعله كان من الطبيعى أن ينشأ جيل جديد من ملتزمى الضرائب ، أشد ابتزازاً وظلماً للناس من إخوانهم القدماء . فبينما كان شخص المدين فى ظل بعض القوانين الإغريقية مصوناً لا يجوز القبض عليه ، أصبح المدينون آنذاك لا يقبض عليهم فى بعض

الأحيان فحسب بل ويعذبون كذلك ، كما يباع أطفالهم . وكان حكام الأقاليم يبتزون من الناس مبالغ طائلة ، فإن شيشرون قد كشف النقاب عما يصادفه الإنسان من متاعب كان يجرها على نفسه كل من اتخذ النزاهة العامة أسلوبا له وسبيلا. وقد اضطرت بعض المدن بعد أن استنزفت كل ما بمعابدها من أرصدة أن تقترض المال من أصحاب المصارف الرومان بالربا الفاحش . وأوقفه لوكوللوس الربا حيناً من الدهر ، ولكن هذا الداء الوبيل مالبث أن عاد إلى أقصى قوته فى أثناء الحروب الأهلية . ولم يكن أحد من القواد المتنازعين على السلطان يهتم بأى شيء سوى التغلب على منافسيه، عدا قيصر (الذى ألغى إلى حين قصير نظام الالتزام فى جباية الضرائب) ، فى حين أنهم جميعاً كانوا بحاجة إلى المال . وهناك أمثلة قليلة لما كان يحل بالناس من اغتصاب وابتزاز للأموال نجد إشارات إليها بمواطن أخرى من هذا الكتاب (الفصل الثالث) . بيد أن المدن الكبرى لم تدمر تدميراً فعلياً ، كما أنها فيما عدا ذلك ظلت شديدة القوة عظيمة الثروة بحيث لا تنهار أمام مثل تلك الابتزازت ، حتى إنها لا تكاد تحظى بحكومة مستقرة حتى يعاودها رخاؤها أقوى مما كان .

سقطت بقية أقطار آسيا الصغرى فى يد روما واحداً بعد الآخر ، وكان مما يخفف من وقع الانتقال أحياناً تنصيب ملك تابع على العرش. فألحقت فريجيا بولاية آسيا فى (١١٦) . وفى (٧٤) حذا نيقوميديس الرابع حذو أتالوس الثالث ، فوهب بيثينيا لروما ، حتى إذا تمت هزيمة ميثريداتيس نهائياً جعلها بومبى ولاية رومانية ، هى وشطراً من بنطش . أما غلاطية التى أعدم ميثريداتيس معظم أشرافها، فإن شخصا اسمه ديوطوروس نصب نفسه ملكا عليها ، وقد تمكن كاتم أسراره أمينتاس فى (٣٦) من ضمان تأييد ماركوس أنطونيوس والحصول بذلك على تلك المملكة التى وسع رقعتها جنوبا توسيعا عظيما، ولكنه خر صريعا عام (٢٥) فى أثناء قتاله مع الهومادنيين (Homadenses) الرابضين فى جبال طوروس ، وبذلك انتقلت مملكته إلى يد روما. وهناك ملك آخر نصبه أنطونيوس هو بوليمون الذى حكم بنطش من (نهر) إيريس إلى كولخيس وأسس أسرة مالكة ، ولم تنتقل مملكته إلى قبضة روما إلا فى (٦٣) للميلاد ، كما ألحقت كبادوكيا، وهى آخر دولة شبه مستقلة، فى عهد فسباسيان . ولا حاجة

بنا إلى أن نهتم هنا بالتفاصيل المعقدة والحدود المتغيرة للولايات الرومانية بآسيا الصغرى، وكل ما يهمنا العلم به هو أن أوغسطس عاود العمل ببعض النظم السلوقية وطبق جزءاً منها (انظر الفصل الرابع). وكان شطر عظيم من الأرض قد صار أرضا عامة ملكا للدولة (Ager Publicus) في أثناء حكم الجمهورية، كما أن بعض الرومان كانوا قد استولوا على مزارع وضياع واسعة، ولكن أوغسطس جعل الأرض ملكا للدولة من جديد وألغى ملتزم الضرائب وترك جمع الضرائب في يد موظفي الدولة، كما كان السلوقيوس يفعلون.

واستمر حكم السلوقيين ستة وأربعين عاماً بعد وفاة سيديتيس؛ ولكن دولتهم فقدت قوماجيني والرّها، وأصبحت الأسرة مملكة محلية صغيرة بشمال سوريا، وما لبثت الخلافات على العرش أن مزقتها إربا. وكان فراتيس قد أطلق سراح ديمتريوس الثاني قبل هزيمة سيديتيس، فاسترد سوريا وزوجته السابقة كليوبطرة ثيا، التي ولدت لسيديتيس عند ذلك خمسة أطفال. ولكن تلك المرأة التي أرهقها تعدد الأزواج وزالت عن عينها غشاوة الخداع لم تستطع صبرا على قلة كفاية ديمتريوس بعد أخيه، حتى إذا هزمه مدع للعرش اسمه الإسكندر زابيناس منعته فيما يظهر من الفرار والنجاة بنفسه. ذلك أنها قد قررت أن تستولى بيدها على مقاليد الحكم في البلاد. فلما تولى العرش ابنها الأكبر من ديمتريوس قتلته غيلة بالسم، وعادت فيما بعد فنصبت معها في الحكم ابنها الثاني وهو أنطيوخوس الثامن جريبوس الذي سبق مصيره فقتلها أولا. وحدثت حروب أهلية لا نهاية لها بين أنطيوخوس الثامن جريبوس وأنطيوخوس التاسع كزيكينوس بن سيديتيس، وانتقلت الحرب على مر الأيام بين أبناء كل منهما، واضطرت المدن العظيمة أن ترعى شئونها بنفسها، وراح طغاة هزال ومشايخ أعراب يؤسسون الإمارات في كل أرجاء البلاد، وكان الإيتوريون (Ituraeans) سكان لبنان يغيرون حيث شاء لهم هواهم، وتقدم النبط حينا من الدهر حتى أوشكوا أن يستولوا على دمشق. وتمكن تيجرانيس في (٨٣) بعد أن وجد أرمينية كلها، من فتح معظم البلاد والقضاء على حكم الأسرة السلوقية؛ وهو وإن أبغضه الشعب إلا أنه منحه حكومة على الأقل. فلما عزله لوكوللوس ضربت الفوضى أطنابها، حتى لقد كان من الخير على

الهللينستية الجريحة الكسيرة فى شمال سوريا أن يقضى عليها بومبي فى (٦٤) ويحول البلاد إلى ولاية رومانية .

ومع أن مصر لم تنجب بعد وفاة (بطلميوس) يورجيتيس (الثانى)عاهلا ممتازاً على أى نحو ، إلا أن البلاد كانت لاتزال تنتج الثراء العريض وتمتلك من عناصر القوة الشىء الكثير ، كما يتجلى ذلك من مواصلة الاكتشافات والتوسع جنوباً (انظر الفصل السابع) . وحكم مصر بعد يورجيتيس أرملته كليوبطرة الثالثة وولداه بطلميوس الثامن الشاحب الملقب سوتر الثانى (لاثيروس Lathyros) وبطلميوس التاسع (الإسكندر) . حكما مصر وقبرص مع حدوث بضع تغييرات منوعة فى رقعة الدولة واتحادات مختلفة حتى (١٨ – ٨٠) . أما برقة فإن يورجيتيس الثانى تركها لابنه غير الشرعى بطلميوس أبيون (Apion) الذى وهبها فى (٩٦) لروما . وانتهت السلالة الشرعية للأسرة بوفاة ابنة بطلميوس لاثيروس فى (٨٠) ، ولكن أهل الإسكندرية عينوا الابن غير الشرعى للاثيروس ملكا عليهم باسم بطلميوس الحادى عشر الملقب ديونيسوس الجديد (Neos Dionysos) ، ويكنى بالزمار (Auletes) . وتقول الروايات إنه كان مولعاً بالفنون ، خليعاً آثماً من طراز نيرون ، تمكن بإظهار الذلة والخضوع لروما من البقاء فى العرش حتى (٥١) ، بعد أن فقد قبرص فى (٥٨) . وتولى الملك من بعده اثنان من أبنائه هما بطلميوس الثانى عشر وابنته كليوبطرة السابعة مشتركين فى الحكم . وأبلى الملك الغلام تناصره الإسكندرية بلاء مجيداً فى القتال مع قيصر وأوشك أن يقضى عليه وعلى مستقبله . على أن بريقاو هاجا قد سلط على سقوط تلك الأسرة وهى فى نزعها الأخير بفضل كليوبطرة . وقد صنف الكثير عنها ولكن قل منه ما يصور لنا فكرة حقيقية عن ماهية تلك المرأة ، التى مهما قيل عن جرائمها ومعايبها – كانت عظيمة إلى درجة جعلت روما تهابها وتخشاها والتى كانت فى جسارتها وفى أطماعها تحاكى شيئاً من روح الإسكندر – تلك المرأة التى تكهنت لها النبوءة أنها ستعود بعد تغلبها على روما فتمد لها يد العون وتنهضها من جديد وتفتح عهداً ذهبياً ينتهى به النزاع الطويل بين أوربا وآسيا بالصلح بينهما ونشر لواء العدالة والمحبة . وكان هدفها أن تصبح إمبراطورة للعالم

الرومانى ، ولو أن الأجل امتد بقيصر فلربما بلغت مشتهاها ، ولكن المنية عاجلته واضطرت أن تتجه بوجهتها نحو أنطونيوس بوصفه خير بديل له . وأخيراً تمكنت من إقناعه بالأخذ بخطتها الجريئة القائمة على محاولة قهر روما على يد الرومان أنفسهم ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد فوات الأوان، فإن تألب أسطوله عليه وإخلاله بواجبه فى أكتيوم (٣١ ق.م) قضى على كل آمالها ؛ وبموتها منتحرة فى السنة التالية انتهت فعلا دولة آخر سلالة مقدونية،وجلس أوغسطس على عرش البطالمة .

الفصل الثاني

الملكية ، والمدينة ، والحلف

احتفظت الملكية المقدونية القديمة ببعض خصائص ملكيات البطولة الأولى التي يصورها لنا هوميروس وقصص الملاحم التيوتونية . فكان الملك سليل الآلهة ومن حوله من أمراء تابعين ونبلاء أحرار ، يحكم مملكة ذات طابع قومي وطني ، ولكنه يدعي لنفسه عليها ولاء شخصياً ووطنياً في الوقت نفسه ، وكان رفقاء الإسكندر هم البقية الباقية من حاشية تمت إلى عهد البطولة ؛ أما رابطة الاتحاد القديمة وهي ما تنطوي عليه فكرة القرابة والرحم والعشيرة ، فلم تكن قد اندثرت تماماً في أيامه . وكان الاجتماع الأصلي للرجال الأحرار المشتركين في حمل السلاح – وهم يمثلون الجيش – لا يزال باقياً ، وما برح أفراده يستمسكون بشدة بما بأيديهم من سلطان . والراجح أن هذه السلطات كانت بمقدونيا أقدم من الملكية التي لم تكن ملكية مطلقة ، بل تحدها حقوق حملة السلاح من الناس ، حتى لقد أطلق عليها بعض الناس ملكية شبه دستورية . فلم يكن من حق الملك أن يعين خلفه ، فإذا مات الملك انتقل تاجه الشاغر إلى الجيش ، فينتخب الجيش الملك الجديد . وبطبيعة الحال كان ذلك الوريث على وجه العموم أكبر أبناء الملك ، ولكن ليس ذلك ضرورة حتمية . فإن كان الملك طفلا كان من حق الجيش وحده تعيين قائمقام ملكي أو وصي . فإن حدثت محاكمة على الخيانة حيث كان المفروض أن الملك طرف فيها ، وكان الجيش هو الممثل للدولة وهو الذي ينظر القضية ويصدر فيها الحكم . وكما أن الجيش كان ينتخب الملك ، فقد كان في مكنته أيضاً أن يخلعه ، وإن كان مثل ذلك — إن حدث في حالة ملك قوي الشكيمة — يستتبع لجوء الملك إلى أعداء البلاد مستنصراً . ولكن الجيش لم يكن له أي رأي في السياسة ، فإن شاء أن يكون له صوت في سياسة ما ، لم يكن له من سبيل إليها سوى التمرد والعصيان — وهو الشيء الذي حدث أحياناً .

كان الجيش يمثل الشعب تمثيلا تاماً ،وذلك لأن كل المقدونيين الأحرار كانوا يؤدون الخدمة العسكرية ، بيد أن هؤلاء لم يكونوا يؤلفون جزءاً رسمياً من الدولة المقدونية ، وكان الملك هو الدولة — مع خضوعه لسلطاتهم المدونة آنفا ، وهو وحده ممثل مقدونيا فى علاقاتها الخارجية . وهكذا كان الإسكندر يشغل فى حلف كورنثة مركزاً مزدوجاً ، لم يكن الناس يفهمونه دائما . فكان الحلف مكوناً من الدول الإغريقية والإسكندر ، الذى هو رسمياً الدولة المقدونية ، بينما الإسكندر الرجل ملك مقدونيا كان هو الرئيس . ودام هذا الموقف حتى اعتلى العرش أنتيجونس دوسون ، الذى جعل الشعب المقدونى هو « حكومة المقدونيين » ، وبذلك جعلهم قطعة من الدولة ، التى لم تعد عند ذاك هى الملك « أنتيجونس » — كما تقول لغة التعبير الرسمى ، بل أصبحت « هى الملك أنتيجونس والمقدونيين » . ولم يكن ذلك إلا اسماً أجوف لا يوسع حقوق الشعب بأى حال ، بل الواقع أن فيليب الخامس كان يتصرف أحياناً تصرفات أكثر استبداداً من أى ملك مقدونى آخر .

غير أن فتح المقدونيين لمصر وآسيا جلب مشكلات جديدة . وفى أثناء حروب خلفاء الإسكندر ، احتفظ المقدونيون الذين يعملون بالجيوش خارج البلاد بحقوقهم حينا من الدهر ، ولكن الراجح أن هذه الحقوق ضاعت بعد عام (٣٠٠) ، حيث لم يعد المقدونيون إلا أقليات صغيرة وسط جيوش مخلطة من المرتزقة . كما أن ملكيات السلوقيين والبطالمة ذات السلطان المطلق لا يتبين فيها أى أثر للظواهر الدستورية المقدونية مهما كان نوعها إلا أن يكون ذلك متمثلا فى حق تقديم الملتمسات إلى الملك ، وهو الحق المعروف بمصر . فإن حدث فى عهد أواخر البطالمة أن تدخل الجيش أحياناً ، لم يكن تدخله إلا من نوع تدخل أى حرس بريتورى ، لا علاقة له بأى حال بالدستور المقدونى القديم . بل الحق أنه كان جيشا لا يكاد يحتوى على مقدونى واحد حر المولد. فلئن كانت مقدونيا هى التى صنعت الملكيات السلوقية والبطلمية ، فإن آسيا ومصر هما اللتان صاغتاها على صورتهما المعروفة . ولقد كان هؤلاء الملوك هم الدولة يتمتعون بسلطان مطلق يباشرونه فى جميع الأحوال والأغراض ،

شأنهم فى ذلك شأن دارا الأول أو تحتمس الثالث سواء بسواء، لم يكونوا حكاماً قوميين، كما لم تكن هناك حقوق مواطنة إمبراطورية فى ممالكهم، كما كان الحال فى روما فيما عقب ذلك من أيام . ومن المبررات التى تساق لهاتين الأسرتين المالكتين قولهم إنه لم يكن من الممكن توحيد الشرق والغرب إلا على يد عاهلية مستبدة مطلقة ، تقف مترفعة وبمعزل عن اليونان والشرقيين ، وهو شىء اكتشفته روما فى النهاية بعد أن فشلت الجمهورية فى حكم الأقطار الهللينستية . وكثيراً ما كان كل من السلوقيين والبطالمة يجعلون ولى العهد يشترك فى الحكم مع أبيه فى أثناء حياته. ولم يكن قتل أفراد الأسرة المالكة أمراً غير شائع عند البطالمة، وبفضله امتنعت الحرب الأهلية فى البلاد نحو قرن من الزمان .

ومع ذلك ، فإن كل ملك فيهم كان متأثراً بالأفكار اليونانية ، ويريد أن يبنى ملكه على أسس خلاف الفتح البحت ، أو لعل الموقف فى حالة الملوك الأول المبكرين كان ينطوى على أنهم أكفأ الرجال الأحياء وأحق الناس بالحكم . وقد تمثل هذا الأساس آخر الأمر بكل من آسيا ومصر فى مذهب ألوهية الملك ، وهى فكرة ألفها كثير من الشعوب المحكومة مدى أجيال عديدة ، ولعلها من أجل هذا السبب عينه كانت فكرة قيمة بالنسبة لحكامها الجدد . على أنه ينبغى ألا يغرب عن بالنا فى أثناء البحث فى تاريخ هذه الفكرة ، أنه كان هناك خلاف ملحوظ بين عبادة الملك بوساطة المدن الإغريقية وبين النحل الرسمية التى كان الملوك أنفسهم يفرضونها على الناس ، ولم يكن تأليه الإسكندر فى أثناء حياته نحلة رسمية ، بل كان إجراءً سياسياً مقصورا على مدن حلف كورنثة التى كانت تؤلهه . وكان يرغب فى ذلك لكى ينشئ لنفسه موطئ قدم بالمدن الإغريقية ببلاد اليونان القديمة ، ويفرض شيئاً من سلطانه الضرورى عليها ، وهى حليفاته الأحرار اللاتى لم يكن بوصفه ملكا يستطيع أن يكون لنفسه بها مركزاً وطيداً إلا بهذه الطريقة . وعندما شرعت المدن تعبد خلفاء الإسكندر ، رحب هؤلاء الخلفاء بالفوائد السياسية التى تعود عليهم من العبادة كما عادت على الإسكندر . فإن أنتيجونس الأول وديمتريوس الأول وليسماخوس وسلوقوس الأول وبطلميوس الأول بل حتى كساندر نفسه ، كانوا جميعاً يعبدون بمدن مختلفة ،

ولكن واحداً منهم لم يصبح رسمياً ربا لمملكته فى أثناء حياته . وحدث فعلاأن ثلاثة من الإغريق نجوا بمصر من بعض الأخطار فأظهروا العبادة لبطلميوس الأول وزوجته بيرينيقة بوصف كونهما « إلهين مخلصين » من المهالك ، ولكن ليس من الضرورى أن يدل ذلك على قيام تأليه رسمى . غير أن الإسكندر كان مع ذلك يُعبد فى الإسكندرية كمؤسس للمدينة ، شأن غيره من مؤسسى المدن الذين كانوا غالباً ما يُعبدون . وقد حدث بعد وفاته أن يومينيس وجيشه المقدونى عبدوه ، وربما كانت تقام أيضاً عبادة رسمية بمملكة ليسياخوس (ولكن ليس فى مقدونيا) كما تشير إلى ذلك النقوش المرسومة على عملة تلك المملكة ، بيد أن العبادة التى اتخذت سُنّة وسابقة للعالم تحتذى ، هى العبادة الرسمية « للمقدونى الأعظم » التى أسسها بمصر بطلميوس الأول ، فى موعد لعله بعد توليه العرش فى (٣٠٥) بعهد قصير . وما لبث بطلميوس الثانى أن استنّ بالإسكندرية بعد (٢٨٠) بقليل عيداً عظيما تقديساً وتأليها لأبيه ، بطلميوس الأول . وما عتم أنطيوخوس الأول أن حذا حذوه فى عبادة سلوقوس تحت اسم زيوس نيكاتور أى الناصر (Zeus Nikator) ؛ وتأسس بذلك المذهب القائل بأن الملوك يصبحون شأن الإسكندر آلهة رسميين بعد موتهم .

ومن المحتمل أن بطلميوس الثانى هو الذى اتخذ الخطوة النهائية ، وقد ألهت رسمياً أخته وزوجته أرسينوى الثانية تحت اسم الربة فيلادلفوس ، وقد تم هذا قبل وفاتها ، كما ألّه معها بطلميوس الثانى (الذى لم يلقب قط باسم فيلادلفوس) ربا رسميا فى أثناء حياته حيث كان يُعبد بالاشتراك معها ، كما يعبد بمفرده أيضاً . فلما مات صار من الأمور المقررة أن كل ملك بطلمى يتولى العرش يصبح ربا رسمياً فى أثناء حياته ، ويتبوأ مكانه من العبادة الرسمية . وكان على رأس تلك العبادة الإسكندر ، الذى كان يتولى كهانته أكبر عظماء البلاد ، وكان اسمه يذكر أولا ومن ورائه أسماء الملوك المؤلهين وزوجاتهم ، كل تحت اسم نحلته — فهناك الربان الأخوان (بطلميوس الثانى وأرسينوى الثانية) ، والإلهان الخيران (Euergetae) والإلهان المحبان لأبيهما (Philopatores) وهكذا ؛ وفى آخر الأمر تبوأ بطلميوس الأول وبيرينيقة مكانهما فى قائمة

الأرباب بعد الإسكندر مباشرة تحت اسم الربين المخلّصين (Soteres) . والراجح أن ذلك تمّ في حكم بطلميوس الرابع . وكان لأرسينوى الثانية أيضا كاهنةمنفصلة تقوم على عبادتها وحدها ، كما فعلت فيما بعد بيرينيقةزوجة بطلميوس الثالث وأرسينوى زوجة بطلميوس الرابع . وكان البيت السلوقى كبيت مالك يُعبد عبادة رسمية تنتشر فى جميع أرجاء إمبراطوريتهم ولها فى كل ساترابية مركز . ولعل ذلك تم منذ البداية ، ولكن أعيد تنظيم الوضع فيه منذ عصر أنطيوخوس الثالث أو ربما أنطيوخوس الثانى . وكان لكثير من المدن أيضاً عباداتها الخاصة للبيت المالك . ومن ثم اخترعت للأسرتين المالكتين جميعاً أنساب قدسية ، فنسب السلوقيون إلى أبولون ، ونسب البطالمة إلى هيراقليس وديونيسوس . أما حكام برجامة ، فإنهم وإن عبدوا فى مدن متعددة فى أثناء حياتهم (بعد أن صعد أتالوس الأول إلى أريكة الملك) وأُلهوا رسمياً بعد مماتهم ، إلا أنهم لم يصبحوا رسمياً آلهة ألبتة فى أثناء حياتهم. ومن ثم لم يكونوا يستطيعون أبداً أن يدعوا أن أساس ملكهم هو الألوهية والتقديس .

أما مقدونيا فكان لها وضع آخر . فإنها كانت دولة ملكية قومية ، ملوكها من أبنائها حيث لم يكن ملوك آل أنتيجونس غزاة ولا فاتحين ، بل ملوكا قوميين انتخبهم الجيش انتخابا دستوريا ؛ لذلك لم تكن عبادة مثل هؤلاء الملوك رسمياً موضع بحث . ومن ثم لم يحدث قط أن ملكا من بنى أنتيجونس صار يوما ما ربا للمقدونيين ، وإن عساه قد أُلّه بالمدن الإغريقية أو بمدن فى مقدونيا تحتفظ بسماتها الإغريقية ، وهكذا كان ديمتريوس الأول يؤله فى أثينا وبويا وسيكيون وفى أماكن أخرى ، كما كان أنتيجونس دوسون يعبد فى سيكيون وهستيآيا (Histiaea) ولكونيا ، وفيليب الخامس فى أمفيبوليس ، مثلما عبد كساندر وليسيماخوس فى كساندرية . على أن هناك ملكا واحداً هو أنتيجونس جوناتاس الذى يشذ عن الملوك جميعاً فى كل شىء حتى هذه المسألة ، فهو يُعد ظاهرة عجيبة من حيث كونه ملكا لم يؤلهه أحد فى صقع من دولته . ولعل تربيته وميوله الرواقية جعلته فيما يظهر يعد مثل تلك العبادة زيفا سخيفاً ، ولعله ورث شعور جده أنتيباتر ، وهو مقدونى من

المدرسة القديمة رفض أن يقدم فروض العبادة للإسكندر . وكان جوناتاس نفسه يؤثر أن يقيم الأساس النظرى لسلطانه على استيفاء ما تتطلبه الفلسفة . وإن تعريفه الشهير لأعباء حكمه الملكى بأنها « عبودية شريفة » ليدل بأوضح عبارة على أنه كان يرى أن أساس السلطان هو واجب الخدمة : فالملك ينبغى أن يكون خادماً لشعبه .

والآن ما معنى عبادة الملك لدى هؤلاء القوم ؟ لقد سماها الأستاذ وندلاند (فى كتابه المشار إليه فى قائمة المراجع العامة) « ديانة سياسية » ، وهو قول يعبر عن حقيقة واقعة على شريطة التشديد على لفظة « سياسية » ، وذلك لأن الأمر لا علاقة له بالشعور الدينى . وكانت العبادة بالنسبة للملك إجراء سياسياً يمنحه موطئ قدم بالمدن الإغريقية ويضمن استمرار صحة تصرفاته وأعماله بعد مماته ، ومما ساعد على تمهيد الجو لها ما ران على طبقة المتعلمين عامة من شك وكفر ، وذلك لأن الديانة الأولمبية كانت ميتة موتاً روحياً ، ولم يتقدم شىء للحلول محلها حتى تأسست ديانة الملك. على أن الخوض فى كبرياء هؤلاء الحكام وصلفهم ونسبة تلك العبادة إليهما يعد خروجاً عن الموضوع ، فإن أحداً من الملوك لم يفكر يوما ما أنه رب معبود حقاً ، أو أظهر (فيما عدا أنطيوخوس إيفانيس) اهتماماً كبيراً بعبادته هو الخاصة . وأنتيباتر وهو ربيب عالم أقدم كان يرى فى عبادة الملك بعداً عن الورع وخروجاً على التقوى ، ولو عرضت مثل هذه الفكرة على الناس فى القرن الثالث لعلت وجوههم ابتسامة ساخرة ، وإن كان من المرجح أن جوناتاس كان يراها تنطوى على شىء من السخف، ذلك أن الرجل العادى ربما جادل قائلا : ما هو الإله ؟ لقد كانت لربين بارزين فى ذلك الزمان ، هما أبولون وديونيسوس أمهات فانيات من البشر شأنهم فى ذلك شأن الإسكندر وبطلميوس تماماً . وكانت بعض آلهة أخرى مثل أسكليبيوس من البشر لحماً ودماً، كما أن نظرية يوهيميروس بأنهم جميعاً كانوا يوما ما من البشر كانت معروفة للجميع . أجل، إنهم كانوا من الخالدين، ولكن ألم يكن الإسكندر الذى لم تزل روحه مصدر إلهام للعالم ، بمقتضى هذه الحقيقة خالداً أيضاً . ولم تكن آلهة العقيدة الأولمبية تحبو الفرد القانت بأدنى بارقة من الخلاص الشخصى أو بأى أمل فى الخلود ، كما لا تمده إلا بالنزر الضئيل من الروحانية . كما أن هؤلاء الأرباب ما كانوا بوصفهم حماة للأخلاق العليا إلا مخيبين للأمل

فى معظم أمرهم . هذا فضلا عن أن الفرد كان عليه أن يتقبل الشىء الكثير منهم بالاتكال ، اعتماداً على مجرد الثقة ، فلربما آمن إنسان بقوة زيوس وعظمته ، ولكنه كان يرى ويلمس قوة بطلميوس وعظمته . وما كان فى مكنة الرب المحلى أن يطعمه من جوع ويسقيه من عطش ، ولكن الملك كان يطعم ويسقى. أجل ربما استطاع الآلهة أن ينقذوا ثميسونيوم من قبضة الغالة ، ولكن من المحقق أن أنطيوخوس الأول استطاع لفترة من الزمان أن ينقذ آسيا الصغرى بأكلها . ولم يستطع أبولون مساعدة القائمين على سدانة معبده فى ديلوس على الحصول على ديونه من الجزر ، على حين أن بطلميوس يبادر عندما يطلب إليه بإرسال قائد أساطيله فيحصل على الديون فوراً . وإذن أليست السلطة التى يستمتع بها أحد الملوك شيئاً ليس فى قدرة أحد الأرباب ؟ — ذلك هو على الأقل ما كان الناس يعتقدونه . وليس أدل على ذلك من نص الأنشودة الشعبية التى التمس بها الأثينيون من ديمتريوس حمايتهم من أيطوليا وقد جاء كما يلى :

« إن الآلهة الآخرين إما أن يكونوا غير موجودين وإما على مسافة قاصية منا، وهم إما صم لا يسمعون وإما مُعْرضون لا يأبهون ، فأما أنت فانك هنا تملأ الأبصار ، ولست متقمصاً فى خشب أو حجر ، بل أنت ماثل أمامنا حقيقة مجسمة » .

ذلك هو السبب الذى جعل الرجل العادى يجنح نحو عبادة الملك ، ولا يغيبن عن بالنا أن أسماء النحل التى كانت تطلق على الملوك الأول ، كقولهم سوتر أى المخلّص ويورجيتيس أى الخيّر أو المحسن — تعبر عن أنهم كانوا يعبدون من أجل ما يفعلون ، وقد عبدت أثينا ديمتريوس لأنه أنقذها من كساندر ، كما أن رودس والجزر عبدت بطلميوس الأول لأنه أنقذها من ديمتريوس ، على حين عبدت أيونيا أنطيوخوس الأول لأنه أنقذها من الغال وعبدت ميليتوس أنطيوخوس الثانى لأنه أسقط عنها أحد الطغاة ، وكان المفروض أن الوظيفة النموذجية الأساسية للملكية هى حب الإنسانية (Philanthropia) : أى حب المساعدة للرعايا . ولا يذهب عنا أن مثل تلك العبادة لم تكن مقصورة على الملوك بل كانت ظلالها تمتد أيضاً حتى تشمل

أفراد المحسنين ، كديوجينيس الذى أعان أثينا على استرداد حريتها فى (٢٢٩) وعُبد هنالك من ثم إلى جوار بطلميوس الثالث ، ومثل ديودورس كاهن زيوس برجامة الذى أقيم له فى حياته معبد عظيم بمدينة فيليتايريا ، أفتتح افتتاحا رسمياً نظراً بسبب ماتم على يديه من خلاص برجامة إبان الفتن التى حدثت بعد (١٣٣) ، بل لقد أصبح البطل الذى أطلق اسمه على إحدى القبائل ، وهو شرف لم يكن يناله إلا الآلهة أو الملوك . وفى نفس الوقت شرعت الشبيبة الآثينية (Ephebes) فى تقديم الأضحيات للمحسنين إلى المدينة بوجه عام . وحدث فى تاريخ الحلف الآخى أن كلا من أراتوس وفيلوبويمين تلقيا العبادة بعد موتهما ، كما أن عبادة الرجال كأبطال بعد الموت كانت أمراً شائعاً كما كانت أقدم من الهللينستية بزمن بعيد .

وفضلا عن لقبي المخلص والمحسن ، فإن معظم أسماء النحل الملكية كانت تقتبس من العلاقات والروابط العائلية — فهناك من اسمه المحب لأخته (فيلادلفوس) أو المحب لأبيه (فيلوباتور) أو المحب لأمه (فيلوميتور) ، بيد أنه كانت هناك تسمية تقوم على أساس مخالف هى لقب إيفانيس أى الرب المتجلى أو الظاهر . وقد أطلقت تلك التسمية لأول مرة على بطلميوس الخامس عند بلوغه سن الرشد فى (١٩٧) فى أغلب الظن ، فإنه لما كان إذ ذاك غلاماً لم يتجاوز الثانية عشرة ، كما أنه ربما كان أول فرد من أسرته توجه الكهنة المصريون على الطريقة المصرية ، فإن اللقب الذى يقابله فى النص المصرى على حجر رشيد هو « من يطلع ويشرق » وهو تعبير دقيق عن لفظة المتجلى (Epiphanes) ربما كان لقباً أطلقه عليه الكهنة المصريون ، الذين كان الغلام فى الحقيقة يعد عندهم إله الشمس متجلياً على الأرض . على أن الأحداث السياسية فى ذلك الوقت لا توضح لنا السبب فى ذلك . بيد أن هذا الاسم أصبح ذا مدلول هام عندما انتقل إلى يد حامله التالى . ولعل أنطيوخوس الرابع الملقب بالمتجلى (إيفانيس) هو الملك الوحيد الذى أخذ ألوهيته مأخذ الجد ، ولكن — أكان ذلك أمراً شخصياً بأية صورة من الصور ؟ أم هل كان تألهه وذكاؤه يتخطى فى بعض الأحيان الخط الفاصل بين العقل والجنون بل يتجاوز الجنون أحياناً ؟ ذلك أمر يصعب

علينا أن نقطع فيه برأى . ولكن من المحقق أن دواعيه وأسبابه كانت سياسية فى جوهرها ، إذ إنه كان يرى أنه لكى يستطيع أن يصمد فى موقفه تجاه روما ، لا بد لمملكته من أن تكون متجانسة من حيث الثقافة والعبادة ، وهما أمران لم يكن بد من أن يكونا إغريقيين وإغريقيين فقط . وكما أنه قد أكثر إلى أقصى حد من تحويل البلدان القومية الصغيرة الحجم إلى مدن ذات أشكال ونظم إغريقية ، فمن المحتمل أيضا أنه كان يعد عبادة شخصه الملكى فى صورة زيوس المتجلى على الأرض ، وسيلة لتوحيد مملكته . إنه كان أول ملك سلوقى ضرب اسمه المستخدم فى نحلته ولقبه الإلهى على العملة . وبمضى الزمن فقدت جميع الأسماء المستخدمة فى نحل الملوك كل معنى خاص، حتى لم تعد لفظة « المتجلى » (إيبفانيس) نفسها تفوق فى مدلولها مدلول ذلك اللقب الذى دار على الألسن فى بعض الأزمان وهو « أشد الملوك مسيحية » .

ولما أن تغير الحال وأصبحت روما شيئاً فشيئاً العامل المسيطر فى معترك السياسية الهللينستية ، بدأت المدن الإغريقية تحول إلى روما ظاهرة عبادة الملك، ومن ثم عُبدت «الربة روما» : وهى الحصيلة الكلية للرومان ـ بمدينة (أزمير) فى ١٩٥ وبآ لابندا فى ١٧٠، وكان ذلك فى الحالتين جميعاً بقصد إظهار شكر الناس لها على ما طوقتهم به من « خلاص » ، هو حمايتها لهم من أنطيوخوس الثالث ، وإنك لتجد نفس هذه العبادة بميليتوس وإيلايا وأماكن أخرى ، بعد إنشاء ولاية آسيا الرومانية . وقد منحت روما بالمدن الإغريقية الحرة نفس المكانة والمنزلة التى كانت للملوك المؤلهين من قبل . وكان يصحبها أيضاً عبادة « المحسنين » الرومان ، مثل فلامينينوس قاهر فيليب الخامس وكان يعبد فى خالكيس ، و م . أكويليوس الذى استوطن آسيا وكان يعبد فى برجامة . وكان الولاة الرومان كافة يعبدون فى القرن الثانى بلا تمييز بين أحدهم والآخر ، حتى لقد لقى شيشرون مشقة كبيرة فى منع تلك العبادة عن نفسه ، ولا شك أن عاملى الخنوع والخوف يتجليان هنا ، وذلك لأن هؤلاء القوم لم يكونوا يجلبون فى الغالب إلا الضرر . وبلغ الأمر ذروته بما تم فى إفيسوس من عبادة قيصر فى صورة « إله متجل » على الأرض ، ثم انتقل الأمر كله فى النهاية إلى تقديم الولايات جميعاً شعائر العبادة الرسمية لروما وأوغسطس .

أما من حيث الزواج فإن خلفاء الإسكندر من الجيل الأول كانوا المصدر الصريح للقانون بالنسبة لأنفسهم، إذ إن كل الظواهر تشهد بأن أنتيجونس الأول وكساندر كانا فيما يظهر مقتنعين بالتمسك بمبدأ عدم تعدد الزوجات ، واتبع سلوقوس - وكذلك بطلميوس فيما يرجح - سنة الإسكندر ، فكانت لكل منهما ملكتان شرعيتان فى وقت واحد ، أما ديمتريوس وبيروس فكانا من المؤمنين بمبدأ تعدد الزوجات المطلق ، والظاهر أن ليسماخوس كان على الدوام يبعد الملكة الموجودة قبل التزوج من الأخرى . فلما انقضى الجيل الأول صارت عادة الاحتفاظ بزوجة واحدة فقط بدورها هى السائدة بصورة مطلقة، وإن أمكن أن تنبذ متى شاء الملك وتؤخذ مكانها أخرى ، وكانت لبعض الملوك خليلات ، وإن لم يتخذ بعضهم الآخر خليلات فيما يظهر . وكانت الملكات تنتخبن بصفة عامة من بين بنات الأسر الملكية، وإن دخلت فى عدادها صغار الأسر الملكية بآسيا الصغرى وربما كانت بيرينيقة (بيرنيس) الزوجة الأخيرة لبطلميوس الأول استثناء من تلك القاعدة ، ولكن يحتمل أنها كانت من ذوى قربى أنتيباتر . وهناك استثناءات أخرى جاءت فيما بعد ومنها زواج أتالوس الأول من تلك الملكة المطوقة بالثناء الجم، أبولونيس، وهى ابنة مواطن من كيزيكوس، ومنها زواج أنطيوخوس الثالث بفتاة من خالكيس . وحدث فى مصر بدافع المثل الذى استنته أرسينوى الثانية فيلادلفوس ، - أن رأس الملكة أخذت تظهر منذ ذلك الحين على العملة مع رأس زوجها ، كما أن كلاً من أرسينوى الثانية وأمها بيرينيقة كانت تلبس التاج . وكانت الملكات بمصر يلقبن منذ عهد أرسينوى : « بالملكة الأخت » وهو لقب مالبث السلوقيون أيضا أن اتخذوه لأسباب أخرى ، وهو أمر أدى إلى شىء من اللبس فإن البطالمة الخمسة الأول لم يتزوج منهم من أخته إلا اثنان . وهؤلاء الأميرات المقدونيات موضوع شائق للدراسة ، ليس فقط بسبب كفايتهن ومطامعهن ، ولا بسبب مظاهر ولائهن فى الغالب ، بل لأنه لا تكاد تكون هناك - فى القرن الثالث على الأقل - إشارة تمس فضيلتهن وتمسكهن بالخلق الرفيع ، فلم يسجل أحد « أنه كان لإحداهن عاشق » . ويلوح أن امرأة كأرسينوى الثانية كان الطموح يشغل عقلها كله ولا يترك فراغاً لأى شىء آخر ، فكأنما كانت تعرف قدراتها ومميزاتها تمام المعرفة وتريد أن تمنحها نطاقا واسعاً حراً

تسرح فيه وتمرح. وأتيح لها ذلك النطاق بعد زواجها من بطلميوس الثانى ، يوم أصبحت شريكته فى الحكم اسماً وحاكمة البلاد الواقعية فعلاً . وإن الطريقة التى عالجت بها حرب الهزيمة مع أنطيوخوس الأول ، وأحالتها بيديها الضليعتين إلى انتصار مصرى كاسح ، ربما أمكن وضعها متى عرفنا التفاصيل — فى مصاف عظائم الأعمال التى أدتها أية امرأة فى العالم . وظلت النساء تحافظن على قوة شكيمتهن مدة أطول من الرجال ، حتى فى الوقت الذى كانت فيه الأسرات تنحل وتتدهور . وكانت كليوبطرة ثيا الملكة السلوقية الوحيدة التى سكت العملة باسمها ، تكاد تعين الملوك وتعزلهم بإرادتها ، كما أن آخر كليوبطرة مصرية كانت تبعث فى نفوس الرومان من الخوف مالم يداخلهم مثله من أحد منذ عهد هانيبال .

وقد عمت جميع الممالك ظواهر معينة مشتركة . فإن الملك كان هو الدولة فيهن جميعاً ، ولم يكن الوزراء ولا الموظفون إلا رجاله ، يعينهم ويعزلهم متى شاء ، وكان مجلس أصدقائه مجلسا استشاريا بحتا . والملك هو منبع القانون ، ولئن كان الموظفون يعملون بقواعد تقررها وتضعها لهم أوامره الملكية ، فإنه هو نفسه كان يضع ما يرى من قواعد . ولديه إدارة للإنشاء تضع مسودات أوامره ، وفيها كاتم سر ينشىء صحيفة رسمية يراجعها الملك كل يوم ، وهى صحيفة تسجل الأحداث العسكرية والسياسية الهامة ، ونشأت بين تلك الصحف والأوامر الملكية لغة دواوين ، يمكن تتبع أثرها فى كتابة بوليبيوس وأسلوبه . وكانت الولايات سواء منها الداخلية أو الخارجية يحكمها فى العادة قواد لهم سلطات عسكرية (Stratégoi) ، وإن لم يستخدم آل أنتيجونس تلك الطريقة قط بمقدونيا نفسها ولا تساليا ، كما لم يستخدموها ببلاد الإغريق إلا على قلة شديدة . وكان للبطالمـــة والسلوقيين أيضا أمير بحار أعلى (Nauarchos) ، ويوشك أمير البحار الأعلى المصرى فى عهد بطلميوس الثانى أن يكون نائب ملك على البحر . ولكن نظام الوكالة والتفويض كان على وجه الجملة غير كاف ، ومن ثم فإن العمل الذى كان يقع على كاهل ملك حى الضمير — العسكرى منه والإدارى والقضائى والتجارى ، بل حتى المتعلق بالإنشاء والتحرير ، كان عملا باهظا تنوء دونه أقوى الكواهل ، لذا فليس

ثمة شك فى أن ما كان يصيب بعض ذوى الهمة من الملوك الناشطين فى أيامهم الأولى، من خمول ظاهر ، ليس له من معنى إلا أن قواهم قد استنفدها العمل المضنى .

ولما كانت النظم المقدونية تقضى فى حالة وفاة الملك بانتقال التاج إلى الجيش حتى يعين الجيش الملك الجديد ، كانت النتيجة الحتمية لذلك أن تتعطل أعمال لدولة عند وفاة كل ملك ، وأن تنتهى جميع المعاهدات التى عقدها الملك الراحل أو عقدت معه ، وكذلك كل المنح التى منحها ، حتى يقرها ويجددها خلفه . وكان الملك الجديد يجدد فى العادة المنح المقررة بفرض غرامة هى « ضريبة التاج » ، فى حين أن الطرف الآخر فى المعاهدات كان يصبح غير مقيد بما ارتبط به ، وهو نظام معيب يمكن مشاهدة آثاره السيئة فى تصرفات أيطوليا يوم كانت معاهداتها التى تتعهد فيها لجوناتاس ودوسون بالتزام الحياد تنتهى بوفاة كل منهما . على أن تصرفات الملك السلوقى أو البطلمى كانت تظل بمجرد تأليهه وعبادته صحيحة ومعمولا بها بعد مماته ؛ ومع ذلك فإن هؤلاء الملوك كانوا يأخذون بالنظرية القائلة بأن المنح تنتهى بوفاة صاحب التاج ، وذلك بقصد فرض ضريبة التاج على الناس .

وكان يحيط بالملك البلاط المألوف لدى الملوك ، ومن ورائه النظم والترتيبات العسكرية المألوفة منذ أيام الإسكندر — وهى حرس الملك (Agema) وفرقة من الوصفاء الملكيين ، وهم فتيان من عائلات كريمة دربوا تدريبا حسنا على أداء المهام التى يكلفون بها ، ثم ضباط يسمون بالحرس الملكى الخاص . وكان حرس الإسكندر الخاص هم أركان حربه ؛ ولكن الذى حدث عند حلول القرن الثانى هو أن ذلك المصطلح لم يعد هو ولفظة «الأصدقاء وأبناء العشيرة » ، إلا ألقاب بلاط يمنحها الملك حسب سوابق محددة تجعل من « أبناء العشيرة » أعلاهم مكانة . وكان المظهر الخارجى الدال على الملوكية هو التاج ، وهو شريط من نسيج الكتان الأبيض يلف حول الرأس ؛ وكان الملوك فى بعض الأحيان يمنحون لغيرهم كالموظفين مثلا أو الممثلين — الحق فى إرتداء الأرجوان الملكى الخاص بمقدونيا ، الذى نعلم الآن أنه كان بنفسجيا لا قرمزيا . ومما ساعد كثيراً على تكوين ما يشبه « طائفة » ملكية

دولية ، الاعتراف بالممالك ذات الأهمية الثانوية بآسيا على أنها ملكية . فإن هناك إلى اليوم قدراً معيناً من الرسائل المتبادلة بين الملوك ، وهى معنونة بالديباجة العتيقة « ونحن نرجو أن تجدكم هذه الرسالة على ما غادرتنا عليه من خير وسلام » ، تلك الديباجة التى اندثرت الآن أو أصبحت قاصرة على الجهلة والأميين ، والتى كانت فى تلك العصور الخوالى هى الصيغة التى كان ملوك الأرض يستهلون بها على الدوام ما يتبادلونه من خطابات .

وكان الجيش والأسطول ملكاً خالصاً للملك . وتسابق البطالمة وآل أنتيجونس فى بناء السفن الحربية بحراً ، وهى منافسة بدأت فى ٣١٤ باختراع ظهر فى فينيقيا استحدثه فيما يحتمل ديمتريوس أو استحدث له — وهو الهبتيريس Hepteres أى المسباعة ، وهى غليون على مجاديفه سبعة ملاحين لكل مجداف ، وإذن تكون نسبة قوته إلى الخماسة (أى السفينة ذات الخمسة ملاحين لكل مجداف Quinquereme) كنسبة ٧ : ٥ ؛ وقد ظهرت قيمتها حقاً فى سلاميس (بقبرص) فى ٣٠٦ . وكثيراً ما تذكر السجلات اشتراك فلك عليها ثمانية وتسعة وعشرة ملاحين لكل مجداف فى عمليات حربية ؛ وتذكر بردية أن تلك الفلك كانت فى اللغة الدارجة تسمى بالعدد الجالس إلى المجداف ، فتسمى السفينة من هؤلاء « بالتسعية » . وأرجح الظن أن الإغريق والفينيقيين — شأن البنادقة فيما بعد — لم يكونوا يضعون أكثر من عشرة ملاحين للمجداف الواحد ، وإن عرف فيما بعد استخدام فرنسا لعدد أكبر . ولذا فإنه عندما عمد ديمتريوس بعد ذلك إلى ابتناء فلك ذى أحد عشر ، استلزم ذلك مبدأ جديداً فى التصميم ؛ ولابد أن العدد كان يمثل مجدافين مجموعين عليهما ستة وخمسة من الملاحين ، وهم مكدسون بطريقة لا يمكن التحقق منها فى أيامنا هذه إلا بطريق التجريب . وعند عام (٣٠١) ، صار لديمتريوس سفن « ذات ثلاثة عشر » وهى فلك بنى منها بطلميوس الثانى مجموعة كاملة . وعندما خسر ديمتريوس مكانته البحرية لمصر فى (٢٨٥) ، كانت سفينتا القيادة لديه « ذواتا الخمسة عشر والستة عشر » . وقد تمكن بطلميوس الثانى من إنشاء ذات الخمسة عشر ، ولابد أنه دشنها فى ديلوس ، وذلك لأن الترسانة العظمى التى يرجح أنها بنيت من أجلها قد كشف عنها الستار . وحصل ليسياخوس على ذات الستة عشر ، وهى

فلك ذائعة الصيت . وكانت على رأس الأسطول الذى هزم به خلفه كيراونوس خصمه أنتيجونس جوناتاس وظلت محتفظاً بها فى مقدونيا حتى عمد أيميلوس باوللوس بعد معركة بيدنا إلى أخذ السفينة العريقة إلى روما ودفع بها فى نهر التيبر . وهناك سفينة أخرى ذائعة الصيت ، هى سفينة القيادة عند أنتيجونس جوناتاس المسماة إسثميا (Isthmia) ، وهى ذات ثمانية عشر ، ومنها هزم أسطول بطلميوس فى كوس ، وبعد المعركة كرسها بجزيرة ديلوس للإله أبولون . وعندئذ شاد بطلميوس الثانى ذات عشرين وذات ثلاثين ، وكرم مصممها بيرجوتيليس (Pyrgoteles) ؛ ولابد أن ذات الثلاثين كانت سفينة مثلاثة (Trireme) جبارة الحجم ، عليها ثلاثة مجموعات من المجاديف لكل منها عشرة رجال . وأخيراً شاد بطلميوس الرابع سفينة ذات أربعين ، وهى مرباعة جبارة لها مقدمة ومؤخرة مزدوجتان ، مثل السفن القديمة التى كانت تعبر البحر بين كاليه ودوفر ، ولكنها لم تنجح . ولا يمكن القول بأن سفينة جوناتاس ذات الثمانية عشر قد استخدمت يوماً فى المعارك ، وذلك لأن جميع ما كتب عن المعارك البحرية بين جوناتاس ومصر قد ضاع من التاريخ .

وكانت هناك نظريتان مختلفتان تماماً للقتال البحرى طوال القرن الثالث ؛ وعلى الجملة كانت التقاليد الأثينية الفينيقية القائمة على السفن السريعة التى تداور انتهازاً لفرصة الصك بالكباش مستخدمة عند قرطاجة وردوس ولربما مصر كذلك (وكانت فينيقيا تابعة لها) . وثم التقليد الكورنثى السيراقوزى القائم على السفن الأثقل وزناً والأكبر حجماً التى تحاول العراك والمنازلة وإنزال الجند إلى السفن المعادية ، وهى الطريقة التى استخدمتها مقدونيا وروما . وفى القرن الثانى شهدت السفن المألوفة وهى المرباعة والخماسة أخواتها الكبرى تفنى فى البحر الإيجى ، ولعل ذلك يرجع إلى النفقات والأيدى العاملة وليس إلى عجز فى كفاية تلك السفن ، بينما استطاع فيليب الخامس أن يحدث انقلاباً فى (٢٠١) بنجاحه فى أن يدخل إلى الصف فى القتال غلايين(١) إلليرية خفيفة تسمى (لمبى lembi) ، فكانت إيذاناً بظهور السفن الليبورنية (Liburnian) الرومانية . وبقيت السفن الهللينستية الكبيرة موجودة بمصر مدة طويلة . كما أن أنطونيوس أعاد استخدامها برهة ؛ بيد أن روما لم تعمد إلى استخدامها

(١) الغليون معرب Galley : وهو السفينة القديمة . [المترجم]

قط ، وفضلا عن ذلك فإن عودة الإمبراطورية إلى استخدام المثلاثات والليورنيات قد ختم فصلا خارقاً إلى حد ما من فصول التاريخ البحرى . . . .

أما فن الحرب البرية فقد انقلب رأساً على عقب بما أدخله عليه الإسكندر من استخدام الخيالة الثقيلة ، ولم تزل الصدارة للخيالة من عهد معركة إسوس (٣٣٣) إلى سلاسيا فى (٢٢٢) . وكان الإسكندر بارعاً متمكنا من فن ربط الأسلحة بعضها ببعض — المشاة الثقيلة والخفيفة بطرزها وأشكالها المختلفة والخيالة الثقيلة والخفيفة . واحتفظ خلفاؤه بجميع طرز الأسلحة تلك ، وأضافوا إليها فيلة الحرب ، التى لم يستخدمها الإسكندر قط . وقد كانت الطريقة المتبعة أثناء المدة التى بقى أثره فيها حيا أن تشكيل خط القتال الطرازى يتألف فى أساسه من فيلق المشاة الثقيلة فى القلب (الوسط) ، على أن يكون حملة السلاح الخفيف فى الجناحين ويضاف إليه هناك الخيالة . وكانت الخيالة تفتتح القتال ، بل وتختتمه أحيانا — حيث دارت معارك لم تشترك فيها المشاة الثقيلة مطلقا . وانقضى على وفاته قرن من الزمان كانت الحرب أثناءه تشب على يد الجند المرتزقة ، الذين يجمعون من كل شعب يسكن أوربا وآسيا . وبعد (٢٧٨) صار المرتزقة الغاليون يفضلون كثيراً على غيرهم لشجاعتهم ولسبب آخر هو رخص أجورهم فى البداية . وكان الملوك يرحبون باستخدام المرتزقة من الجند ، لأنهم كانوا بذلك يستطيعون الاحتفاظ بجندهم القوميين الذين هم قوام الفيالق . وفضلا عن ذلك فإن المرتزقة قلما قاتلوا حتى الموت ، ولذا كانت الحرب فى الغالب تعنى إرغام مرتزقة العدو على التسليم ثم ضمهم إلى الجانب الآخر . ولكن أخذ التغير يداخل طريقة خوض الحرب عند قرابة (٢٢٢) ، وأخذ الفيلق الذى هو السلاح المقدونى القومى يعود ثانية إلى المقام الأول . وكان العامل الحاسم فى معركتى سلاسيا (٢٢٢) ورفح فى (٢١٧) هو دخول الفيالق القومية معمعان المعركة ، حيث قاتلوا كما يقاتل الرجال الذين يلهب الشعور الوطنى مشاعرهم . ومن سوء حظ مقدونيا يوم التقت بروما ، أنها كانت نسيت طرائق الإسكندر فى القتال . ذلك أن فيلق الإسكندر كان هيئة ناشطة مرنة مقسمة إلى سرايا عديدة ، وتمتد حرابها من ثلاثة عشرة إلى أربعة عشر قدما طولا ، وبعد هذا كله كان يعتنى عناية

هائلة بوقاية جناحيها ، وكم من مرة لقى الفيلق العنت والمشقة لإخلاله بالوقوف صفا متراصا . ولكن فيليب الخامس كان يستخدم فى كينوسكيفالاى (Cynoscephalae) فيلقا قد أصبح صلبا جامداً غير مرن بسبب ثقل الحراب المطولة ، حيث ضحى القوم بكل شيء فى سبيل الحصول على أكبر عدد ممكن من رؤوس الحراب بارزاً أمام الصف الأول ، بينما أهملت الحاجة الحيوية الماسة إلى حرس الجناحين الشديد القوة . ولا شك أن الفيلق لم تكد تتاح له فرصة عادلة مواتية فى أى من كينوسكيفالاى أو بيدنا ، وذلك لأن كلاً من المعركتين بدأت بطريقة غير منتظمة . ولا شك أن الفيلق متى توفرت شروطه الضرورية : وهى الأرض المنبسطة وحرس الجناحين الذى لا سبيل إلى اختراقه — كان يستطيع أن يهزم الكتائب أو أى تشكيلات أخرى . بيد أن توفر مثل هذه الظروف كان أمراً نادراً ولم يحدث فى الواقع عند الحرب مع روما ، كما أن قدرة الكتيبة على إجادة القتال فى معظم الظروف والأحوال كانت أمراً قاطعاً لا شك فيه . لقد هلكت الفيالق ونظامها كما هلكت الدناصير (فى المملكة الحيوانية) بسبب شدة إفراطهما فى التخصص .

وكان عصر السفن الحربية الجبارة فى البحر هو عصر حرب الفيلة على البر . وكان قواد الإسكندر جميعاً يقدرون الفيلة أعظم تقدير لتأثرهم القوى بالمعركة العنيفة المستيئسة التى دارت مع پوروس ، ولا يزال فى إمكاننا إلى اليوم أن نتعقب وصول أسراب الفيلة المختلفة من بلاد الهند بين عامى ٣٢٤، ٢٧٥ . وقد شرع بطليموس الثانى حوالى ٢٧٥ فى اصطياد الفيلة من أفريقيا ؛ ولا شك أن بعثته العجيبة التى بعث بها إلى فندوسارا المورى كانت لطلب مدربى الفيلة وسواسها من أبناء الهند . وظل البطالمة يدربون الفيلة حتى القرن الثانى . ولكن السلوقيين كانوا هم « السادة الحقيقيين للفيلة » ؛ فالفضل الأكبر فى استيلاء سلوقوس على آسيا إنما يرجع فى الواقع إلى فيلة إپسوس (Ipsus) . وعندما حاولت روما فى (١٦٣) نزع سلاح تلك الأسرة ، كان القضاء على سلاح الفيلة هو الشيء الذى اثار ثائرة الأهالى إلى أقصى حد . وكانت الفيلة سلاحاً قتالا فى أول مرة تلتقى فيها بجنود لم تتعود القتال معها ؛ فإن التقت بمشاة خبيرة محنكة فسرعان ما تفقد أثرها ، ولكنها كثيراً

ما تكون ذات نفع عند ملاقاة الراكبة. وقد التقت الفيلة الهندية بالإفريقية ذات مرة عند رفح لقاء هزمت فيه الإفريقية فى أحد الأجنحة، ولكن لا يجوز لنا أن نستنتج من ذلك أى حكم نصدره، وذلك لأن الفيلة الإفريقية كانت أقل عدداً بكثير من الهندية .

وقد عالج الجانى فى موضع آخر من الكتاب موضوع النظام الإدارى السائد فى ممالك كل من آسيا ومصر ، ولكنا سنلقى هنا نظرة إلى شئون مقدونيا فى حكم آل أنتيجونس . فإن هذه الدولة ذات الحكم القومى احتفظت بقوتها إلى النهاية . وكانت تعتمد على جيشها الوطنى ، حيث لم تكن المرتزقة تستخدم إلا بقصد الإبقاء على حياة الجند المقدونيين ما أمكن ذلك . وكانت حياة البلاط أبسط منها فى الممالك الأخرى ، وذلك لأن مقدار الثروة كان صغيراً نسبياً (حيث لم تزد حصيلة ضريبة الأراضى كثيراً على مئتى تالنت سنوياً) ، كما أن العرش كان يشغله حتى أخريات أيام فيليب الخامس عواهل من طراز رفيع ، وكان ولاؤهم لأسرتهم مضرب الأمثال ، فلم تعرف الأسرة الاغتيال والقتل حتى تولى فيليب الخامس ، على حين أنه كان من أروع مظاهر عصر الملك جوناتاس ولعه بالفلسفة والتاريخ وحلقة الأدباء الذين جمعهم من حوله . وعادت بيلا (Pella) مرة ثانية فأصبحت حاضرة البلاد ، ولم يحاول أحد أن يشيد مدينة تنافس الإسكندرية أو أنطاكية . ولعله لم تكن هناك أملاك للملك فى مقدونيا ذاتها ، وأن الفلاح المقدونى كان يمتلك مزرعته ، ولكن الأرض كانت تنتقل ملكيتها إلى الدولة أو بمعنى آخر الملك — فى المناطق المقهورة التابعة للدولة مثل خلقديكى وبايؤنيا . وكان آل أنتيجونس يعالجون شئون أرض الملك بنفس طريقة السلوقيين (أنظر الفصل الرابع) ، فكانوا يمنحون الضياع للنبلاء وأنصبة من الأراضى على النحو المألوف للمستوطنين العسكريين وللمرتزقة الذين وفّوا فترة الخدمة العسكرية ، ولكن الظاهر أنهم لم يكونوا يمنحون الفرد قط ملكية الأراضى بصفة مطلقة كما كان السلوقيون يفعلون غالباً ، بل يحتفظون للدولة بحق استرداد الملكية . أما أراضى الملك غير الممنوحة لأحد فكان يزرعها المستأجرون ، وفوق هذا كان الملوك يمتلكون المناجم والغابات .

وقد اصطبغت مقدونيا تماماً أو على الأقل طبقاتها العليا بالصباغ الهلينستى فى القرن الثالث ، فخلت اللغة اليونانية ذات اللهجة الأتيكية (الأثينية) أو « اللسان المشترك » (الكوينى) محل اللهجة المقدونية ، كما حل آلهة الأوليمب محل آلهة البانثيون القومى . وكان المقدونيون قد أصبحوا آنذاك شعباً واحداً على الرغم من تخلط دمائهم ، وصارت قادرين على هضم وتمثل من يستوطنون بلادهم من الأجانب . وأصبحت البلاد لا تعدو أن تكون وحدة أخرى فى الدائرة الإغريقية ، ولكنها أقوى من زميلاتها جميعاً ، وإن لم تستطع مرة أخرى بحال ما أن تجمع جيوشا كالتى تم لها حشدها فى القرن الرابع . وأخذ الناس المقيمون بالمدن الإغريقية الساحلية يسمون أنفسهم آنذاك مقدونيين .. وقد أصبحت بيلا (ومعها دون ريب مدن مقدونية قديمة أخرى) ، مدنا مقدونية لها أنظمة المدن اليونانية وأشكالها . وبنى آل أنتيجونس عدداً قليلا من المدن ذات الأهمية الثانوية ، ولكن المدينتين الرئيسيتين الجديدتين بالبلاد قد أنشأهما كاتبهما كساندر : وهما تسالونيكا (سلانيك) وكساندرية بالموقع الذى كانت به بوتيديا . وكلتاهما كانت مدينة إغريقية روحا وتنظيما ، حتى أن أهل كساندرية لم يدعوا أنفسهم قط مقدونيين . وكانت مقدونيا تبدو لعين الإغريق شيئا غريبا لسببين ، أولهما أن ذلك القطر لم يكن له مركز للدين والعقيدة ، وثانيهما أن الشعب كان يؤمن بيقين بالملوكية ؛ ذلك بأن أسرة أنتيجونس تمكنت بفضل جوناتاس من الاستيلاء على عواطف الناس وكسب محبتهم بحيث أن تلك الأسرة لم تسقط إلا بسبب القوة الهائلة الجارفة التى أوتيها العدو الأجنبى . ورغم وجود أولئك العظماء الذين أخرجتهم مقدونيا ، فلعل أعظم شىء فى ذلك القطر الصغير هو الفلاح المقدونى العادى : — ذلك الرجل الحر القوى الولاء ، صاحب الاقتدار التام فى كل من الحرب والسلم على السواء ؛ ولم تسقط مقدونيا صريعة أمام الرومان إلا لسبب واحـــد هو قلة عديد المقدونيين .

وتاريخ تلك الفترة بالنسبة للمدن الإغريقية بوضعها الذى كانت عليه فى ذلك الحين يسجل مرحلة انتقال تلك المدن من دول مدن حرة إلى بلديات فى عهد الإمبراطورية الرومانية . وتبدأ الحقبة بنظريتين متضاربتين عن علاقات

الملوكية بالمدينة. فإن الإسكندر عامل المدن الإغريقية كحلفاء أحرار، بينما رغب أنتيباتر فى معاملتها كرعايا ودول خاضعة، يضع الحاميات فيما يشاء منها وينصب فى دست الحكم بها أوليجركيات تناصره أو طغاة يمالئونه، ودام الصراع بين هاتين السياستين زمناً طويلا. وبطبيعة الحال حذا كساندر وليسياخوس والبطالمة وآل أنالوس حذو أنتيباتر فى معاملته المدن معاملة الرعايا التابعين. أما أنتيجونس الأول فإنه أحيا أساليب الإسكندر متخذاً منها سلاحاً سياسياً ضد كساندر، وظل سنين عديدة يعامل المدن معاملة الأحرار حقاً، ولكنه عاد فيما بعد فأخذ يتدخل فى شئونها، وإذا به فى النهاية يضع الحاميات فيما يشتهى منها. واتبع ديمتريوس نفس النهج، حيث بدأ بالحرية وانتهى بالإخضاع، واستحدث هو وليسياخوس ظاهرة جديدة هى الضرائب، ولعله نظام تطور عن المساهمة المالية للحرب وكانت تدفع اختياراً بالاسم فقط، للإسكندر وأنتيجونس الأول من المدن الحليفة. أما جوناتاس فإنه استخدم جميع الطرق حسبما اقتضته الحاجة والضرورة، وعاد دوسون عودة صريحة إلى أسلوب الإسكندر. وفى عهد سلوقوس وأنطيوخوس الأول كانت بعض المدن تُعد حلفاء أحراراً، وتعد بعضها خاضعة تُفرض عليها الضرائب (الجزية) فيما يبدو (أنظر الفصل الرابع)، وكان إرجاع أنطيوخوس الثانى الحرية لمنطقة أيونيا حدثاً يُعد فى التاريخ. ولعل النزعة السائدة على وجه الإجمال إلى معاملة المدن كتوابع خاضعة هى الفكرة المتسلطة الغالبة، التى كان يغيرها أحيانا مع شىء من المشقة والجهد بعث سياسة الإسكندر القائمة على المحالفة الحرة، بيد أن ذلك الموضوع معقد بدرجة هائلة لاحتوائه على كل مايتصوره العقل من أنواع التغييرات والاستثناءات. وكانت هناك بطبيعة الحال مدن كما كانت هناك ببلاد الإغريق نفسها أقطار لا صلة لها البتة بأية ملوكية مطلقا. ولم تكن المحالفة الحرة تنطوى على حرية مطلقة غير مقترنة بأى شرط، وذلك لأن السياسة الخارجية للمدن كانت تصوغها يد حليفها الأقوى، على أنها كانت تتمتع بحرية داخلية تامة. وبمضى الوقت أخذ فرض الضرائب يصبح رويداً رويداً علامة الإخضاع، كما باتت غيبة الضرائب آية على الحرية، وحل حاكم المدينة أو مندوب الملك (Epistates) محل أساليب أنتيباتر — وهو نظام ليس من الضرورى أن يقترن بالجور

إن كان فى أيد مخلصة عادلة . وهناك طريقة أخرى طبقها القوم فى بعض الأحيان ، هى أن يتولى الملك بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين ، كما فعلت أسرة أتالوس ببرجامة وكما فعل بطلميوس الأول فى برقة (Cyrene) وكما فعلت فيما يرجح أسرة البطالمة فى عهدها الأخير بمدينة بطلمية بمصر . وقد فعل جوناتاس ذلك بمدينة أثينا من ٢٦٢ — ٢٥٥ ، ولعل تلك المعاملة هى الحالة الوحيدة التى حدثت ببلاد الإغريق ذاتها .

وسنتخذ الآن من حكم جوناتاس مثلاً على مدى التباين المشار إليه فى الفقرة السابقة . فإنه كان يحكم مقدونيا القديمة وتساليا حكماً مباشراً ، وجعل مدنها تحت إشراف حكام للمدن ، ولكن مجالسها لم تكن تخضع لهيمنة أحد . وكان يحكم خلقديكى بواسطة أحد القواد ، وكان لسالونيك حاكم مدينة يهيمن على مجلسها ، على حين تمتعت كساندرية فيما يحتمل بالاستقلال الذاتى تماما . ولم توضع مجالس المدن قط ببلاد الإغريق تحت ضبط أحد ، ولكن وضعت الحاميات بمدن كورنثة وخالكيس وبيرايوس ، كما أنها وضعت تحت حكم قواد عسكريين هى وميجارا ويوبيا . وظلت أثينا تستمتع بالحرية منذ (٢٨٨) فما بعدها ، ولكنها كانت على علاقات طيبة بجوناتاس ، ثم تحول الحال غير الحال وإذا بأثينا من (٢٦٢ إلى ٢٥٥) تحشد فيها حامية ويُنصب عليها حاكم مدينة (Epistates) ، كما يعيِّن جوناتاس الحكام السنويين ، ولم تلبث أثينا أن مُنحت الحرية بعد (٢٥٥) وأخليت من الحاميات ، ولكن جوناتاس كان إذ ذاك هو السيد الأعلى بصورة قاطعة لا ريب فيها . وكانت أرجوس وميجالوبوليس وربما عدد آخر من المدن البيلوبونيزية ، تحكم لمصلحته على يد مشايعين له تولوا الحكم بوصفهم طغاة على البلاد ، أما بقية بلاد اليونان فلم تكن لها به علاقة وكانت بالتبعية حرة تفعل ما تشاء . ومن ثم فإن مثل هذه الحال لا يمكن تلخيصها تحت عبارات عامة جامعة تدور حول إخضاع بلاد اليونان . إذ كان تفاعل القوى محتدم الأوار بالبلاد شأنها فى كل أيامها السالفة ، ولم يكن هناك من فارق حقيقى إلا أن مدنا بعينها مثل كورنثة ، قد ضيقت عليها آنذاك فرصة الاستمتاع بالحرية . غير أنه ينبغى ألا يغيب عنا ونحن نتكلم عن الحرية ، أن الإغريق غالبا ما كانوا يقصدون بها مجرد الحرية

المطلقة فى تدمير بعضهم بعضا ، وأنه لم يكن يمنعهم من ذلك شىء أو يكبح جماحهم دونه إلا وجود ملك أو حلف . وشاهد ذلك أنه عندما أهاب بهم أجيلاوس فى (٢١٧) بالاتحاد تحت راية واحدة ضد روما كان أحد المغريات التى عرضها عليهم لاستمالتهم ، احتفاظ كل منها بحق محاربة الأخرى دون تدخل من أحد ، بل لقد حدث فى أخريات تلك الفترة أن بيزنطة (وكانت مستقلة آنذاك) دمرت كالاتيس أو كادت ، وهى أشد مدن غرب البحر الأسود إزدهاراً . بل الحق إن نظام الوحدة الفيدرالية نفسه (Federalism) وإن جاز أن يكبح الجماح ، إلا أنه لم يستطع أن يوقف روح الانفصال والأنانية ، تلك الروح التى كانت نكبة ولعنة على بلاد اليونان .

ولو نظرنا إلى الأمر من ظاهره إبان القرن الثالث لبدا دستور المدينة الإغريقية ذات الحكم الذاتى كأنما هو على صورته الأولى وكأنما لم تمسسه يد تغيير، فكان بكل مدينة جمعية تضم شمل الأحرار ومجلسها وحكامها وسلطاتها التشريعية على مواطنيها ، ولها ماليتها غير المستقرة ولها خلافاتها الداخلية . أجل إنه حدث فعلاً بشمال بلاد اليونان زيادة هائلة فى عدد المدن المستقلة ذاتيا وخاصة فى أيطوليا ولكن الواقع أن يد التعديل والتحوير كانت لا تنفك تعمل ، وذلك بسبب الحقيقة الأساسية من أن الحياة السياسية الفعلية للمدينة من حيث هى أمر يشترك فيه الجميع ، كانت قد أخذت تفقد ما كان لها عند الناس من أهمية وما تحظى به من اهتمام (الفصل الثالث) . حتى إذا حل الربع الثانى من القرن الثالث كانت الأوليجركية والديموقراطية بوصفهما نظريتين سياسيتين قد لفظتا آخر أنفاسهما ، وأخذ الأساس الذى يقوم عليه إنقسام الناس شيعا وطبقات يتجه اتجاهات أخرى جديدة . فكان الأساس فى آسيا هو التشيع للسلوقيين أو التحزب للبطالمة بينما كان الأصل فى أية مدينة من المدن الانضمام لحزب الملك أو للأحزاب الوطنية والروح القومية ؛ ولكنه كان فى كثير من الأحيان هو الفقر والغنى ، وهو عندى نذير سوء — وذلك لأن الأحزاب الديموقراطية القديمة كثيراً ما كانت تضم الأغنياء والفقراء جنبا إلى جنب . وخسرت الجمعيات التى تضم شمل الأحرار نفوذها . أجل إن السلطة ربما كانت تنتقل إلى المجلس (مجلس المشورة) ، ولكن

كثيراً ما كان يتولاها الحكام مجتمعين بهيئة لجنة . ومما يشهد باطراد زيادة أهميتهم أنه كثيراً ما كانت المدينة التى تعقد محالفة أو تنضم إلى حلف تعمد إلى تغيير هيئة حكامها بحيث تـتفق وهيئة حكام الحلف أو الحليف . على أن هناك وظيفتين لحكام لم تنيا تزدادان عظمة وقوة : هما وظيفة الموثق أو المحتسب « الأجورانوموس » (Agoranomos) الذى كان يشرف على تزويد البلاد بالقمح ، ووظيفة الجمنازيارخوس (Gymnasiarchos) الذى كان يشرف على التربية والتعليم . وحدث فى بعض مدن آسيا أن وظيفة الاسطفانيفوروس (Stephanephoros) الكهنوتية وهو الذى كان اسمه يطلق على السنة ، أصبح شاغلها هو الموظف العمومى الأكبر ؛ ولم يكن يستطيع تولى ذلك المنصب إلا رجل ثرى ، وذلك لأنه كان من أعبائه إقامة الحفلات والولائم للمواطنين . وعمد القوم إلى طريقة بيعه بالمزاد العلنى وبذلك استفادت المدينة استفادة مزدوجة ، وذلك يكشف عن صدق الوطنية فى المدن حتى إبان الفترة المتأخرة ، من حيث أنه كان بين الرجال من ينفقون المال التماساً لمزية المزيد من الإنفاق ؛ ولكن الذى كان يحدث أحياناً فى أزمان الشدائد والفتن هو أن المنصب لم يكن يجد شارياً يشتريه ، وأن الرب المحلى كان يشترى الوظيفة وتسمى باسمه « السنة » . وأخذت مناصب الكهانة تباع بانتظام هى الأخرى منذ القرن الثانى ، كما كانت تتطلب بعض النفقات ، وإن كان الشارى فى هذه الحالة يتلقى بعض المال مقابل ما أنفق ؛ فإنه ربما نجا هنا من تحمل أعباء وظيفة (الجمنازيارخية Gymnasiarchy) أو وظيفة (الترياركية Trierarchy) أو الالتزام بتقديم المال أو جوقات المنشدين اللازمين للحفلات والأعياد ، وذلك فى حين أنه حدث فى ميليتوس (مليطة) فى القرن الأول أن كاهن الشعب الرومانى كان يتقاضى راتباً متواضعا . وربما اضطر الجمنازيارخوس والمحتسب أو الموثق (الأجورانوموس) أن ينفقا عن سعة هما أيضاً . وكانت النتيجة النهائية للتغيرات التى مرت بك آنفا هى أن الرجل الفقير لم يعد يستطيع أن يتولى أحد مناصب المدينة ، ما لم يتكفل بنفقات المنصب وتمويله أحد الملوك أو أحد المواطنين الأثرياء ، وهو أمر حدث فى بعض الأحايين . ولما أن صارت الغلبة والسلطان للجمهورية الرومانية دُفعت هذه النزعات أشواطا أخرى إلى الأمام ، فأحلت روما التيموقراطيات

(حكومات أصحاب الدخول من عقار ثابت) محل الديموقراطيات ، وظهرت لجان جديدة من الحكام ، مثل لجان البوليتارك (Politarchs) بالمدن المقدونية والتسالية ، كما أن السلطة كانت تتولاها أحياناً أوليجركية ضئيلة ، مثل « أعيان ميليتوس الحسين » . وربما ادعت روما أن كل ما تعمله هو أنها إنما تدفع سلطات أولئك الموظفين الملقبين (Demiourgoi) و (Apokletoi) بالحلفين السابقين الآخى والأيتولى ، إلى نهايتها المنطقية .

وهناك إجراء انتشر حتى أصبح طرازاً شائعاً عمد الملوك إلى استخدامه كثيراً : هو إدماج المجتمعات (Synoecism) ، أى تأليف وحدة واحدة من مدينتين أو مجتمعين أو أكثر . فكوّن أنتيجونس الأول مدينة أنتيجونيا الطروادية من تجميع سبع مدن ، كما ضمّ كساندر ستة وعشرين مجتمعا أنشأ منها سالونيك . وربما محيت تلك المدن التى تدمج ، ولكن الغالب ألا ينقل من السكان إلا شطر فقط وتظل المدن القديمة باقيةعلى حالهاولكنها تصبح قرى (أى أحياء Demes) تابعة للمدينة الكبيرة الجديدة . وكان أعجب إدماج عرفناه هو مدينة ديمترياس الواقعة على خليج باجاساى وهى التى أسسها ديمتريوس ليجعل منها عاصمته الجنوبية . وكانت تجاور باجاساى وحولها سور منفصل مكونة بذلك مدينة واحدة ذات حيين . ولم يدم شىء فى سبيل إنشائها ، ولكن باجاساى وكل مدينة بمغنزيا تقع بين رأس سيبياس وتمبى على التخوم المقدونية أصبحت قرى تابعة لديمترياس التى أصبحت بدورها تضم كل أراضى مغنزيا وتكوّن إمتداد المقدونيا نحو الجنوب . حتى إذا انتزعت روما من فيليب الخامس مغنزيا ، حطمت ذلك الإدماج .

ولم تكن المدينة هى الشكل الشائع الوحيد للدولة الإغريقية ، وذلك لأنه يكاد كل قطر بشمال اليونان ينتظم فى صورة هيئة تقليدية من المجتمع الكانتونى الذى يطلق عليه من غير تفرقة ولا تمييز كلمة (Koinon) أى المجتمع أو الحلف أو القبيل ، وله على الدوام مركز عبادة دينى . فقد أدى شعور المدن الصغرى المتزايد إبان القرن الثالث بالعجز وقلة الحيلة إزاء الحكومات الملكية ، إلى زيادة الاهتمام بتوسيع مبدأ الوحدة الفيدرالية ببلاد الإغريق نفسها توسيعا عظيما ، حتى أوشكت الأحلاف الهللينستية الكبرى أن تصبح هى المرحلة الوسطى بين المدينة والملكية ، وكان كل من تلك الأحلاف يجنح إلى الانضواء تحت رأس واحدة ، ولذا فإن أراتوس (القائد والزعيم) كان يستمتع

فى الحلف الآخر بسلطة تماثل سلطة الحاكم المفرد المطلق . وقد أدت تلك الأحلاف للبلاد خدمات جليلة ، فكانت تمنح أعضاءها أمنا أعظم وقدرة أكبر على المساومة مع الحكومات الملكية ، على حين كانت تجعل منازعات أعضائها محدودة فى أضيق نطاق، وتحول دون نشوب القتال بينهم. ومن سوء الحظ أن اليونان لم يكن لديهم إلا كلمة «Koinon» هذه يطلقونها على كل شكل بلا إستثناء من أشكال الجماعة خاصاً كان أم عاماً ، فهم ما كانوا إلا ليطلقوا لفظة كوينون «Koinon» هذه بدرجة متساوية حتى على عصبة الأمم أو الجمهورية السويسرية أو هيئة كلية من كليات كبردج أو على نقابة للعمال أو نادى لعبة الكريكت بالقرية ، ومن ثمّ لم يعد من سبيل فى ترجمة ذلك المصطلح إلى تجنب الوقوع فى الخطأ فى استعمال لفظة حلف .

وقبل الخوض فى حديث دولة الاتحاد الفيدرالى نفسها (Bundesstaat) يجدر بنا أن نوجه التفاتنا إلى إحدى الهيئات وهى المكونة من اتحاد كنفدرالى مفكك مؤلف من دول منفصلة ذات سيادة وهو مايطلق عليه (Staatenbund). وحلف الجامعة الهللينية الكورنثى الذى أنشأه فيليب الثانى وواصل الإسكندر العمل به بمقتضى معاهدات جديدة، كان فى حد ذاته وفى نوع اتجاهه فكرة عظيمة. وهو الذى مهد للبلاد الفرصة الوحيدة التى سنحت لها فى تاريخها كله لتحقيق ذلك الحلم القديم : توحيد العالم اليونانى ، إن كان اليونان يعدونه حلما يداعب أخيلتهم . كان محالفة بين الإسكندر والدول اليونانية ، كلٌّ بمفردها — باستثناء إسبرطة وحدها، مع تكوين مؤتمر من المندوبين يجتمع بمدينة كورنثة، وكانت كل دولة عضو تظل دولةً ذات سيادة ، وتكون شئونها الداخلية حرة من كل تدخل مالم تقم ثورة اجتماعية بإحدى المدن (الفصل الثالث). على أن الإسكندر كان هو الرئيس للحلف والقائد الأعلى لقواته ، وكانت سيادتهم الخارجية فى الواقع ملك يمينه . ومع ذلك فلم يكن هذا الحال شيئا لا مندوحة منه ، فلو اهتمت المدن الكبرى بتنفيذ شروط الحلف بعزيمة صادقة وبتكاتف مطلق لبلغت من القوة ما يمكنها من الحيلولة دون كل اعتداء على حرياتها ومن إسماع أصواتها عالية فى السياسة الخارجية . وكان مصدر القوة فى الحلف أنه كان يمنح المدن الصغيرة حقوقا تتناسب مع حقوق المدن الكبيرة،

حتى لقد كانت بعض المدن تعده عهداً بضمان الحرية ، ولكنه فى بعض المدن الأخرى كان لسوء الحظ يرتكن إلى حكومات مكروهة من الشعب ، كما أن كثيرا من الإغريق اعتبروه رمزاً للتسلط الخارجى . فليس عجيبا إذن أن ينهار الحلف بمجرد وفاة الإسكندر . على أن إحياءه على يد ديمتريوس فى (٣٠٣) أتيح له جو أفضل ، وذلك لأن حلف ديمتريوس كان يقوم على حكومات ديمقراطية كانت تؤيده بكل إخلاص . ولكن هذا الحلف أيضا مالبث أن تفكك بعد إيبسوس (Ipsus) . وظل منهاراً حتى أحياه أنتيجونس دوسون للمرة الثالثة، حيث لم يعد الأعضاء آنذاك مدنا مفردة، — بل أحلاف أخايا وبؤتيا وفوكيس وتساليا وإيبيروس وأكارنانيا ومقدونيا ، إذ لم تبق هناك تقريبا دولة مدينة واحدة باقية بمفردها فيما عدا أثينا واسبرطة ، وذلك لأن ملك مقدونيا وحده لم يعد من الناحية الرسمية كما أسلفنا اليك هو الدولة المقدونية . ولم يكن حلف دوسون يدعى بأنه حلف جامعة هللينستية ، ولكن دول الحلف بلغت من القوة بحيث اضطرت فيليب الخامس إلى خوض غمار الحرب الاجتماعية رغم أنفه ، وهو أمر يوضح لنا تماما مدى ماكان حاف كورنثة القديم يستطيع صنعه لورغب . وهذا الحلف آخر محاولة بذلتها مقدونيا لتوحيد بلاد اليونان . ولكن بلاد اليونان مالبثت أن توحد شملها فى النهاية فى اتحاد جامعة هللينستية كنفدرالى مفكك الأوصال : وقد أنشأ تلك الجامعة الإمبراطور هادريان ، وذلك بعد ثلاثة قرون من فقدانه لكل معنى له . وكان إنشاؤه من سخريات القدر حتى لكأنى به نقش ساخر على قبر الوحدة التى لم تستطع بلاد اليونان تحقيقها بحال .

وإذا نحن ألقينا نظرة إلى الاتحاد الفيدرالى فى حد ذاته ألفيناه يتألف عند اليونان من ثلاثة أصناف : « ا » الحلف الذى ينشئه ملك أو يتخذ منه أداة لمآربه ، « ب » الحلف الذى كان يتولد عن تقوية الروابط بين أجزاء بعض الأقسام الكانتونية ، « جـ » حلف المدن . وتساليا هى المثال الرئيسى الذى يمثل الصنف الأول . فمنذ عهد فيليب الثانى فصاعدا أى إلى أن خسر فيليب الخامس الإقليم فى (١٩٧) كان كل ملك مقدونى يتولى الملك يحكم تساليا كجزء من مقدونيا بأن يصبح رئيساً مدى الحياة لحلفها . ولا شك أن

ملوك إبيروس كانوا يحكمون أحيـــانا أكارنانيا بتولى رئاسة حلفها . أما إبيروس نفسها فيتجلى بها صراع طويل معقد بين مبدأي الاتحاد الفدرالى والملوكية ، حتى إذا وافى عام (٣٠٠) كانت أصولها الثلاثة وهم أقوام المولوسيين (Molossians) والخايونيين (Chaoniuns) والتسبروتيين (Thesprotians) قد كونوا من أنفسهم « المحالفة الإبيروسية » الفدرالية بزعامة ملك المولوسيين ، الذى كان شعبه من المولوسيين يستطيعون عزله متى شاءوا ، وقد أوشكت الملكية أن تصبح استبدادية مطلقة فى عهد بيروس ، وحدث حوالى (٢٣٥) أن قتل الشعب آخر أفراد من سلالة بيروس وجعلوا دولتهم جمهورية فدرالية . وثمـة هيئات شـديدة الغرابة والشـذوذ هى تلك الأحلاف التى أنشأها أنتيجونس الأول أثناء كفاحه فى سبيل توسيع سلطانه. فإنه كان يتمنى أن يكوّن من جديد حلف كورنثة ، ولكن لما كان تحقيق ذلك أمراً مستحيلا حتى (٣٠٣) ، فإنه أنشأ أحلافاً محلية ثلاثة : هى (١) الحلف الأيونى وهو بعث للحلف القديم ، (٢) والإليومى وهو حلف يضم المدن الأيولية جاعلا من إلليوم المركز الرئيسى الفدرالى ، (٣) وأهل الجزر ويضم سـكان الجزر السكلادية من الأيونيين ومركزهم الفدرالى هو ديلوس . ولم تكن هذه الأحلاف دولاً ذات سيادة ، حيث لم تكن لهم جمعية تضم شمل الأحرار ولا رئاسة مدنية ولا سلطات عسكرية ولا قضائية ولا عملة مسكوكة فيما يظهر . وكان يجرى تصريف الأعمال بواسطة مجلس يتألف من مندوبين ، على أن تتولى المـدن القيام بالنفقات غير العادية . أما المهمة الكبرى الملقاة على عاتقهم فهى إقامة أعيادهم الفدرالية وعبادة أنتيجونس. ولم تكن تلك الأحلاف فى واقع الأمر إلا منافذ ينفذ بها أنتيجونس إلى بسط نفوذه على المدن التى يتكون منها الحلف .

وإن شئت مثالا على الأحلاف التى تطورت عن الأقسام الكنتونية التى تضم شعوبا متلفة ، أمكننا أن نسوق إليك أمثلة منها عديدة بشمال بلاد الإغريق ، ولكن أهم مثال نستطيع ضربه هو أيطوليا ، وهى القطر الوحيد بالبلاد الذى لم يفتحه منذ البداية إلى النهاية ملك ولم يتبع قط ملكا. ولم تكن لأيطوليا عاصمة فضلا عن أن مدنها قليلة كانت قليلة العدد ، وقصبة الاتحاد الفدرالى بها هى معبد أبولون

عبد ثرموم ، حتى إذا أعادت تنظيم هيئتها الكوميونية القديمة ، ولعل ذلك قد تم فى زمن المحالفة الطيبية لعام (٣٧٠) وبتأثير « إيبا مينونداس » ذلك الداعية العظيم للاتحاد (بل حتى قبل زمانه فيما يحتمل) ، فكثيراً ما كانت وحدات الأحلاف لا مدناً بل نواح ريفية تجمعت حول قرية أو حصن فوق تل ؛ بيد أن المدن واصلت على التدريج تطورها . وكانت السلطات السياسية جميعاً فى قبضة الجمعية ، التى كانت تضم كل أيطولى حر . وكان مصدر تلك الجمعية هو الجيش وأفراد الشعب القادرون على حمل السلاح ، كما أنها كانت البديل المدنى للجيش . وكانت تعقد اجتماعاتها مرتين كل عام ، إحداها قبل موسم الحملات الحربية وثانيتهما بعد ذلك الموسم . وينصب على رأس الحلف قائد ينتخب كل عام ، فيصبح رئيساً للدولة وقائداً أعلى للجيوش ؛ ولم يكن فى الإمكان إعادة انتخابه إلا بعد انقضاء فترة من بضع سنين . أما الموظفون الآخرون فى الدولة فهم قائد الخيالة وكاتم أسرار وحكم أو رئيس فى مسابقات الألعاب وحفلاتها Agonothetes وسبعة مشرفين على المالية . ولم يكن نظام أيطوليا من ذلك النوع الذى تفوض فيه الدول الأعضاء سلطاتها إلى هيئة فدرالية ؛ أجل نما الحلف نمواً طبيعياً عن منظمة الحرب الشعبية ، بيد أن المدن كانت تتمتع بالاستقلال الذاتى الداخلى كما تحتفظ بما كان لها من حقوق المواطنة .

وكان كل اتساع فى نطاق الحلف الأيطولى معناه أن أى قطر ينضم إليه كان يفكك إلى مدن أو وحدات منفصلة ويضم إليه على تلك الصورة . فإذا كانت الوحدة الجديدة متاخمة لأراضى الحلف ، انضوت فى سلك « الدولة المندمجة » (Sympolity) مع أيطوليا ، أى أن شعبها كان يصبح أيطوليا من كل النواحى ، وصار له الحق فى حضور الجمعية العامة . فإن كانت المدينة بعيدة صارت حليفاً ودخلت فى حالة تبادل للمواطنية ومساواة فى الحقوق (Isoplity) فيصبح مواطنوها أيطوليين وضعاً وحقوقاً ، ولكن كونهم مواطنين أيطوليين بهذا الحكم الاعتبارى لا يصبح حقيقة واقعة إلا إذا هم سكنوا إحدى مدن «الدولة الأيطولية المتحدة أو المندمجة» (Sympolity) ، فأصبحوا بذلك مواطنين فيها (وهو حق يخوله لهم القانون) . وسنلتقى مرة ثانية بهذه

المواطنيات الاعتبارية فى مناسبات أخرى تالية . وكان للحلف الأيطولى مجلس (بولى Bouié) مكون من أعضاء تنتخبهم وحدات الحلف بحيث يتناسب عددهم مع حصة كل حليف من الجند ، بيد أن تلك الهيئة كانت ضئيلة الحظ من السلطان ، لا تستطيع البت إلا فى الأمور الجارية التى لا يمكن إرجاؤها حتى دورة الانعقاد التالية للجمعية التى تضم شمل الأحرار . على أن زيادة اتساع نطاق الحلف جعل من المستحيل إدارة شئون الحكم بوساطة « الجمعية العامة » — أى بعقد اجتماعها العام مرتين سنوياً . ولم توفق أيطوليا يوماً إلى إقامة أى نوع من أنواع التمثيل النيابى ، وكانت النتيجة أنه تفرغت عن مجلس البولى لجنة ليس لها أصل فى الدستور وتسمى باللجنة المختارة (Apokletoi) وهى تشترك على الدوام مع القائد وتتولى حكم البلاد فعلا ، وإن احتفظت « الجمعية العامة » لنفسها بحق التصرف فى شئون الحرب والسلم . وهكذا انتقلت أيطوليا بين (٢٨٠ ، ٢٢٠) فصارت أقل دول الإغريق ديمقراطية بعد أن كانت أشد دولهم ديمقراطية .

وكان الحلف الأيطولى أول حلف استخدم مواطنيته الفدرالية كوسيلة لتوسيع نطاق رقعته ، وما عتمت آخايا وبؤوتيا أن حذتا حذوه . فإذا حلت (٢٢٠) صارت الدولة الأيطولية المندمجة (Sympolity) تمتد عبر بلاد اليونان من البحر إلى البحر ، محتوية على لوكريس الغربية ولوكريس الإبكنيميدية (Epcinemidian) وماليس ودوريس والأنيانيين (Aenianes) ودولوبيس وشطراً من أكارنانيا وجزءاً من فوكيس وقسما من تساليا وآخايا إفثيونيس ، وكانت الأعضاء التى انضمت إلى الحلف عن طريق تبادل المواطنية والمساواة فى الحقوق (Isopolity) هى كيفاليينا وأمبرا كيا وكيوس وخيوس وفا كسوس بجزيرة كريت وفيجاليا ومعها (فى واقع الأمر) ميسينيا ، ثم عاد فيا بعد فضم إليه ليسياخيا وكيوس وخلقدونية . وصارت دلفى تحت هيمنته من حوالى (٢٩٠ إلى ١٨٩) ، على أن دلفى لم تصبح عضواً فيه ألبتة .

وأحلاف أركاديا وبؤوتيا من الأمثلة القديمة للأحلاف التى وإن كانت تمثل فرعاً محدداً إلا أن أساسها لم يقم على أقسام كانتونية بل على اتحاد مدن ؛

وقد تقلبت على كل منهما تصاريف كثيرة للحظ ، ولكن حلف بؤوتيا ظل قائماً أبد الدهر وهو يضم إليه من وقت لآخر لوكريس الأوبونتية (Opuntian) وميجارا . ولم تتغير نظمه الفدرالية تغيراً جذرياً منذ القرن الرابع ، كما أن نظم مدنه المختلفة ، وإن تجلى فيها شيء من الوحدة والاتساق من حيث الخطوط العريضة ، إلا أنها تختلف اختلافاً بعيداً في التفاصيل . فإن المدن كانت تحتفظ لنفسها بحرية عجيبة في التصرف ، حتى في علاقاتها الخارجية (وإن حدث ذلك بين حين وآخر) . كما أن الحلف الأركادى ، وإن نكل به العادون واقتطعوا منه بعض أجزائه في بعض ما مر به من الأيام ، إلا أنه دام حتى انضمت مدنه إلى الحلف الآخى . وكان الحلف الآخى يضم في الأصل المدن الآخية الاثنتى عشرة ، التي تشتت شملها في أثناء حروب خلفاء الإسكندر ، ثم شرع يتكون من جديد في (٢٨٠) ، حتى إذا وافت (٢٧٢) إذا هو يضم المدن الآخية العشر الباقية بعد أن دمرت عوامل الطبيعة كلا من هيليكى (Helice) وبورا ، ثم أصبحت أولينوس بعد ذلك العضو الحادى عشر بالحلف . ولكن تنظيمه الفعال لم يظهر مع ذلك إلا في (٢٥٥) ، عندما حل قائد واحد بمفرده محل القائدين الموجودين قبلا . وكان الحلف عبارة عن «دولة مندمجة» كالحلف الأيطولى ، فاذا انضمت إليه أقطار أخرى فكككت بالمثل إلى أجزائها الأساسية المكونة لها ، على حين تحتفظ المدن بمواطنيتها ودساتيرها (وإن أدخلت بعضها وظائفها العامة في الوظائف العامة للحلف) ، ومحاكمها وقدر من الاستقلال الذاتى الداخلى بلغ من ضخامته أن دور سك النقود المحلية كانت (على النقيض لما حدث في أيطوليا) تواصل عملها جنباً إلى جنب مع دار النقود الفدرالية ، ولم يكن لأى مواطن بأية مدينة حقوق خاصة داخل أخرى دون منحة خاصة تمنح له . ومع ذلك فإن السياسة الخارجية كانت من اختصاص الحلف ، وكذلك أيضاً شئون الجيش والضرائب الفدرالية وجميع الموازين والمقاييس (وقد وُحدت ونُسقت) ، فضلا عن اتخاذ الإجراءات القانونية إزاء كل ما يحدث ضد الحلف من أخطاء ومخالفات . وكان مركز الاتحاد هو معبد زيوس الأمارى الموجود بالعاصمة أيجيون . وكان القائد رئيساً للحلف وقائداً عاماً وفى الإمكان إعادة انتخابه سنة بعد أخرى بالتناوب ، ويقوم إلى جوار كاتم الأسرار وصاحب الخزانة

وقائد الأسطول عشرة موظفين عموميين (Demiourgoi) يظهر أنهم جعلوا على نسق الخمسة عشر عند الأركاديين ومتطابقين مع المدن العشر الأصلية (وإن كان الواقع أنه لئن كان لكل مدينة أصلا الحق فى موظف عام (Demiurge) واحد فقد أسقط ذلك الحق بعد مدة قصيرة) ، وكانوا يكوّنون بالاشتراك مع القائد لجنة حاكمة تستمتع بسلطات ضخمة .

ومن المحتمل أن آخايا كان لها يوماً ما ككل الاتحادات الفدرالية الصغيرة الأخرى مجلس بولى (Boule) وجمعية عامة للأحرار ، كما أنه يلوح أيضاً أن هاتين الهيئتين قد ضمتا إحداهما إلى الأخرى فى الحلف الجديد المعدل وتألفت منهما الجمعية الآخية المشتركة (السنودوس Sunodos) ، التى كانت دون أدنى ريب عظيمة الحجم بعد توسيع الحلف . وكان هذا المجلس يعقد كل سنة اجتماعات منتظمة العدد ، أرجح الاحتمالات أنها أربعة ، وكان أهم ما يتم فى أحد هذه الاجتماعات انتخاب موظفى الحلف مدة السنة التالية . وكان مكان الاجتماع فى القرن الثالث هو أيجيون ، ولكن فيلوبويمين أصدر فى (١٨٨) قانوناً بسط فيه مركز الاجتماع إلى جميع المدن بالتناوب ، وإن كان الواقع أن أحداً لم يكن يراعى تنفيذ الدورة فعلا بالدقة . وكانت الجمعية المشتركة (السنودوس) تعالج سياسة الحلف برمتها وتعالج إدارة الأعمال الحكومية ، لا يستثنى منها عادة سوى ما يستجد من معاهدات ومحالفات فضلا عن شئون الحرب والسلام . وهذه الأخيرة كانت تحال إلى اجتماع يطلق عليه السنكليتوس (Sunkletos) ، أى اجتماع كل من شاء الحضور ممن جاوز الثلاثين من المواطنين . ولم يكن ذلك السنكليتوس (Sunkletes) فى الواقع إلا نوعاً من الاستفتاء الشعبي تؤخذ فيه الأصوات بالمدن لمنع أهالى المدينة التى يجتمع بها من التكاثر فى الاجتماع والتغلب عليه . وكانت الأصوات تؤخذ فى السنودوس بنفس الطريقة . وكانت أيجيون مركز اجتماع السنكليتوس أيضاً ، بيد أن عادة الدعوة إلى عقد الاجتماعات بمكان آخر كانت متبعة قبل نهاية القرن الثالث بمدة طويلة .

وإذن فإن حكمنا على دستور الحلف (وهو دستور لقى كثيراً من الثناء) لابد له أن يتوقف إلى حد كبير على شكل السنودوس وكنهه الحقيقى ،

ولا تكاد تكون هناك صفة واحدة من صفاته لم يثر حولها النزاع بين العلماء. وأرجح ماتهيأ لنا تصوره عن شكل السنودوس مما بين يدينا من معلومات يجعله جمعية أولية تباح عضويتها لنفس من لهم الحق فى دخول السنكليتوس بالضبط (أى المواطنين الذين جاوزوا الثلاثين) ، مع تقييد ذلك ببعض احتياطات إضافية للتحقق من أن إعطاء الأصوات يعكس حقاً الرأى الذى تراه كل مدينة على حدتها . والواقع أنه كان من الضرورى التيقن من أن نسبة معينة من كل مدينة تحضر إلى أيجيون أربع مرات فى السنة جلسات قد تدوم بضعة أيام . وكانت هذه النسب مجتمعة هى التى تكون ما يسمى بالمجلس البولى (Boulé) ، وهو هيئة لا يمكن أن تكون بأى معنى من المعانى مجلساً آخر منفصلا ، سواء أكانت له حقوق التشاور والمداولة (Probouleutic) أم مجلساً له حق التصديق أو الرفض (Veto) . ومن الجلى تماما أن هذه الحقوق أو الاختصاصات لم تكن موجودة . وكل ما فى الامر أن هذا المجلس (Boulé) كان مجرد جزء من السنودوس ، وهو فى الواقع الجزء الذى كان مجبراً على أن يحضر فى دورة انعقاد خاصة (أو دورات انعقاد سنة خاصة) وكان بالتالى يجوز له أن يفصل بنفسه فى التصويت الذى تم فى جلسات لم يكن الحضور فيها قانونياً ، وإن كان فى الإمكان التغلب على تصويته من الناحية العددية، إن شاء عدد كاف من المتطوعين أن يعطى صوته فى السنودوس . ولسنا ندرى شيئاً كذلك عن عدد المواطنين الذين كان يتكون منهم مجلس البولى Boulé ولا كيف كانوا يختارون ، ولكن لو أنهم كانوا يتقاضون أجورا على الحضور (وهو أمر يبدو محتملا) ، فربما كان الوضع أن الإجراء المقابل الذى كانت تمارسه الديمقراطية ، وهو الانتخاب بالقرعة من بين جميع المواطنين ، (وهم فى هذه الحالة جميع من تجاوزوا الثلاثين) ، كان يلجأ إليه كذلك . وذلك لأن الآخرين كانوا على التحقيق يعتقدون أن دستورهم ديمقراطية صرفة .

على أن هذا الدستور يبدو أنه كان من الناحية العملية فى مصلحة الأثرياء والسياسيين المحترفين ، ولعل ذلك يرجع من ناحية جزئية إلى اتصاف هيئة المواطنين ممن هم « فوق الثلاثين » بشىء من روح الرجعية ، كما يرجع من

ناحية أخرى إلى أن الفقراء لم تكن مواردهم المالية تمكنهم من حضور جلسات السنودوس بعيداً عن مواطنهم الأصلية ومقار أعمالهم إلا عندما يحدث بالصدفة أن يكونوا أعضاء فى مجلس البولى ويتناولون عن ذلك أجوراً ، فضلا عن سبب آخر لعله لا يقل قوة ، هو العظمة الشخصية التى كانت تتحقق لشخص مثل أراتوس Aratus ممن يمكن إعادة انتخابه قائداً (Strategos) بمفرده سنة بعد أخرى بالتناوب . وثمة نقض آخر هو قصر حضور السنكليتوس على من جاوز الثلاثين من المواطنين ، ومعنى ذلك أن نصف الرجال الذين كان يجب عليهم خوض جومة القتال لم يكن لهم رأى فى إعلان الحرب . والظاهر أن أيطوليا لم يكن بها ذلك القيد ، وربما ساعد ذلك على تفسير السبب الذى من أجله كانت أيطوليا فى الحرب أكفأ كثيراً . وهناك شىء نجح نجاحاً باهراً فى آخايا ، هو التوازن الذى ضرب بين المصالح الاتحادية الفدرالية وبين مصلحة المدينة ، وذلك لأن قلة عدد الاجتماعات الفدراليه ما بين عادية (سنودوس) وغير عادية (سنكليتوس) ، تثبت بالدليل القاطع ، أنه لم يكن فى الإمكان أن تقوم الحكومة الفدرالية بأى عدوان على حق المدن — فرادى — فى تصريف شئونها الخاصة . ولو شاءت ما أسعفتها الحال بوقت تتدخل فيه فى هذه الأمور . ومما يجدر ذكره أيضاً أن مجلس البولى تجربة ممتعة وإن داخلها عنصرا المحاولة والاختبار (وذلك لا جرم بطريق التطور) فى اتجاه الحكم النيابى ، وقد توانى اليونان فى تطوير أى نظام حقيقى للتمثيل النيابى ، بيد أن هذا المثال الذى ضربه الحلف الآخى اقترب من ذلك التمثيل أيما اقتراب يوم ظهر .

وربما جاز لنا أن نورد هنا نبذة موجزة عن التاريخ المتأخر لنوع الدولة القائم على الاتحاد والترابط (Koinon) لأنه لم يرد ذكره فى الفصل الأول . فقد حدث فى (١٨٩) أن روما بترت أجزاء من الحلف الأيطولى وحرمته من دلفى ، ثم عادت فحلت الحلف حلا نهائياً بعد (١٦٨) ؛ وبذلك أصبح كل أعضائه حتى الفروع الصغيرة منه كالأويتانيين أحلافاً منفصلة ، وأصبحت هذه هى والأحلاف التى شكلت فى (١٩٦—١٩٤) ، هى المسئولة عن كل القسم الشمالى من بلاد الإغريق بأكمله . وكانت الظاهرة الهامة الوحيدة فيهن

هى أن الحلف التسالى كان يملك — كحلف الجزر من قبله — سلطة عجيبة هى الحق فى منح المواطنية بكل مدينة من المدن المكونة له ، وذلك شأن الحلف الكريتى . ولكن الظاهرة الرئيسية الجديدة فى النظم الفدرالية فى القرن الثانى هى الميل إلى الاستغناء عن الجمعية التى تضم شمل الناس عامة والتى كانت التراث الموروث عن دولة المدينة ، ثم الاعتماد بدلا من ذلك على جمعية أو مجلس من الممثلين (Sunedrion) شأن أى برلمان عصرى . وكان ذلك هو وضع جمهوريات مقدونيا الأربع المنفصلةالتى أقيمت فى (١٦٧) تحت إشراف روما ، وإن تمّ ذلك لاجرم طبق عادة إغريقية مقررة ، تصادف أنها صادفت هوى من الرومان . والأمثلة الأخرى المعروفة كانت فى تساليا فيا يحتمل ، كما كانت بالتأكيد فى ليقيا . وظهور فكرة الحكومات النيابية يستثير اهتمامنا لسببين : أولهما أن استخدام تلك الفكرة فى مجتمعات شديدة الصغر (مثل الجمهوريات المقدونية) يومئ إلى أنها لم تستخدم للحاجة إليها بسبب بعض الدواعى الجغرافية ، بل لأنها كانت إليها ضرورة ماسة ، لأنها توائم الطبقات الموسرة وتؤثرها بالسياسة دون الطبقات الفقيرة التى تبعدها عنها بقدر الإمكان . والثانى أن وجود الحكم النيابى هنا وفى ذلك الحين كان يعد مثالا يحتذى لدى الرومان فى مقدونيا ، وكذلك فى إيطاليا نفسها ، لو أنهم شاءوا أن يطبقوه على أنفسهم ، وهو ما لم يفعلوه .

وما لبث الحلف الآخى الذى ظل من (٢٢٤ إلى ١٩٨) تابعا لمقدونيا يسير فى فلكها إلى أن أصبح مستقلا من جديد فى (١٩٧) وكان استقلاله بالمدى الذى يستطيع أن يصل إليه حليف من حلفاء روما . ومع أنه أصبح يشمل فى (١٩١) جميع البيلوبونيز ، فإنه لم يسترد ألبتة مركزه الذى كان له فى (٢٢٨) . بيد أن المبدأ الفدرالى كان لا يزال يمثل عنصراً محتملا من عناصر القوة لا تستطيع روما إطاقته ، لذلك لم تلبث بعد (١٤٦) حتى حلت الحلف الآخى والأحلاف الأخرى المتحالفة معه . ثم سُمح لمجموعة ما من أنواع الترابط الجماعى والأحلاف (Koina) أن تتكون فيما بعد ، وآية ذلك أنه فضلا عن أحلاف شمال اليونان ، تُعرف بمنطقة البيلوبونيز أحلاف آخايا وأركاديا وأرجوليس واللاكونيين الأحرار (Eleuthero!acones) ؛

بيد أنها كانت هيئات دينية ، مجردة من أية قيمة سياسية . وتألفت رابطات واتحادات (Koina) أو أحلاف غير سياسية مماثلة لهذه أو كانت مؤلفة في آسيا الصغرى ، فإن حلفي بيثينيا وبنطس (أو قل رابطتيهما) ترجعان إلى أيام بومبي ، بينما يحتمل أن حلف آسيا كان موجوداً منذ عهد أنطونيوس ، ثم جاءت أحلاف أخرى فيما بعد . وترجع أصولها الأولى إلى الأحلاف التي أنشأها أنتيجونس الاول ، وكانت تمثل بالفعل ولاياتها من ناحية ما ، وذلك لأنها كانت تستطيع أن تقدم إلى روما الشكاوى من الحاكم الإقليمي ، ولكن وظيفتها الحقيقية كانت الإشراف على عبادة الإمبراطور الرسمية . وكانت الرابطة الوحيدة (Koinon) التي احتفظت بطابع سياسي حقيقي في عهد أوغسطس ، هي الحلف القديم الذي يضم مدن ليقيا الثلاث والعشرين .

من هنا يتبين أن النظام الملكي هو نظام الدولة الوحيد الذي تبقى من بين جميع النظم المتناحرة لدول الفترة الهللينستية ، وإن هلكت الملوكية المقدونية وزالت من الوجود . ويحتمل أن قيصر فكر في إقامة مملكة إغريقية رومانية على الطراز الهللينستي وإن كان ذلك موضع أخذ ورد بين العلماء ، كما أقام أنطونيوس فعلا مملكة من ذلك الطراز . ولكن الشخص الذي كتبت له الأقدار أن يكون الوريث الحق للملوك الهللينستيين هو أوغسطس ، وذلك لأن إمارته (Princibate) ، وإن كانت رومانية شكلا وليست هللينستية ، إلا أن خيوطاً كثيرة كانت تربط إمبراطوريته بالممالك المقدونية . بيد أن هذا الموضوع يمتّ إلى تاريخ روما وحده .

الفصل الثالث

المدن الإغريقية

أحوالها الاجتماعية والاقتصادية

بوفاة أرسطو انتهى عهد الإنسان بوصفه كائناً سياسياً ، أى كجزء من المدينة الدولة (Polis) أو دولة المدينة التى تحكم نفسها بنفسها ؛ وبظهور الإسكندر ، يبدأ الإنسان كفرد . وكان ذلك الفرد محتاجاً إلى البحث فى تنظيم حياته الخاصة ، وكذلك علاقاته مع الأفراد الآخرين الذين كانوا بالاشتراك معه يكونون سكان « العالم المأهول » ، فلمواجهة الحاجة الأولى ظهرت فلسفات السلوك (الفصل العاشر)، كما ظهر لمواجهة الثانية عدد معين من الفكرات الجديدة الداعية إلى الأخوّة بين البشر . وقد نشأت هذه الفكرات فى لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة — يوم أعلن الإسكندر بمأدبة أقامها فى أوبيس (Opis) رجاءه فى أن تجتمع القلوب فى اتحاد (Homonoia) ويلتئم المقدونيون والفرس فى دولة موحدة ؛ فكان الإسكندر بذلك أول من تعالى فوق الحدود القومية ، وأول من أخذ خياله يداعب ولو بصورة يعوزها الكمال ، تصور قيام أخوّة بشرية لايجوز أن يوجد فيها تفرقة بين إغريق ولا برابرة . وبادرت الفلسفة الرواقيه(Stoic) بالتقاط الفكرة ، ومن ثم كشف مؤلَّف للفيلسوف زينون وهو « المدينة الفاضلة » عن أمل براق لم يغادر أفئدة الناس منذ تلك اللحظة ؛ وقد حلم فى ذلك الكتاب بعالم لا ينبغى أن يظل بعد ذلك مقسما إلى دول منفصلة ، بل يكون مدينة عظيمة واحدة تستظل قانوناً مقدساً واحداً ، يكون الجميع فيها مواطنين وأعضاء بالتبادل تربطهم جميعاً رابطة عمادها الرضا والرغبة لا القوانين البشرية ، أى تربطهم رابطة الحب « كما عبر هو بنفسه » . وربما سميت هذه الفكرة أحياناً بالنزعة العالمية (Cosmopolitanism) ، وهى كلمة صاغها الكلبيون (Cynics)

للدلالة على أن أصحابها لا ينتمون إلى أية دولة معينة ؛ ولكن بقية الإغريق الآخرين لم يستخدموا تلك اللفظة ، كما أنها ارتبطت بمعان ودلالات غير سارة حتى أصبح من الخير تجنبها ، وذلك لأنها لا تعبر بحال عما كان الرواقيون يقصدونه منها ؛ ذلك أنها كانت تدل ضمنيا على معنى التوانى عن أداء الواجبات القومية ، وهو أمر لم يكن ليستسيغه أى رواقى ، وذلك لأنهم كانوا يرون أن الرجل الحكيم لا بد أن يؤدى واجبه المفروض عليه من بلده، ويلوح أنهم كانوا يرون أنه لو قدرت الأيام أن يسود الإخاء يوماً ما، لم يكن بد من أن يكون ذلك عن طريق الدولة القومية ، وليس عن طريق إنكارها. وتأثر العالم العملى نفسه بالرغم منه بحلم زينون. بفضل إصرار زينون ومدرسته على أفكار معينة تدعو إلى المساواة والإخاء، وبفضل حقيقة واقعة آنذاك ، هى أن (المسكونة « العالم المأهول » Oecumené) أخذ الناس ينظرون إليها ككل متكامل ؛ ولم يعد الغريب يمكن أن يعد عدواً بحكم الأمر الواقع (Ipso facto)فى حد ذاته، كما أن فكرة اجتماع القلوب واتحادها قد لقيت عطفاً وإكباراً عاماً أكثر من أية فكرة هللينستية أخرى . ثم أخذت تظهر فكرات أخرى معينة عن العلاقات المتبادلة بين الدول بغض النظر عن المعاهدات الفعلية القائمة ، وعلى ذلك فإن بذور القانون الدولى الحديث يرجع عهدها قديماً إلى مذهب الرواقية بالقرن الثالث .

وكان على الإغريقى أن يصوغ خلاصه من جديد بين هاتين الفكرتين : فكرة الفردية وفكرة الأخوّة الجامعة . وأول شىء نستطيع أن نلاحظه على القوم ظهور قدر معين من الازدياد فى الشعور الإنسانى . وكان ذلك العصر حافلا بالمتناقضات الخارقة لكل مألوف — وربما كان مغنى هذا القول بأن اليونانى كان إنسانى النزعة — ومن العجيب أن ذلك الشعور نما فى وسط خضم لا نهاية له من الخلافات والحروب . ذلك أن اليونانى لم يتخل قط عن ميله إلى الشجار والشقاق ؛ وكل ما ألمّ به من التغيير هو أنه أخذ يشك فيما إذا كان ينبغى له أن يظل كذلك . وقديماً تمنى أيسوقراطيس فى (٣٧٠) لو جمع كلمة اليونان جميعاً استعداداً لشن هجوم على فارس ؛ كما أن أجيلاوس رغب فى (٢١٧) فى توحيدهم رغبة فى وقاية أنفسهم من روما ؛ وشتان بين

الرغبتين . ومن نتائج تلك الحال إقبال القوم على استخدام التحكيم إقبالا هائلا عظيماً . وكان التحكيم يستخدم قبل ذلك بزمن بعيد، وإن كان على قلة فى بلاد الإغريق . ولكن الذى حدث إبان القرن الثالث وبعده ، أن التحكيم بين المدن ، وهو فى العادة تحكيم فى شئون الحدود ، أصبح شائعاً شيوعاً عظيماً . وجرت العادة بأن يكون كل المحكمين لجاناً منتدبة من مدينة أخرى . بيد أن الإسكندر وكثيراً من خلفائه كانوا يحكمون أيضاً بين المدن دون ما حاجة إلى استخدام سلطاتهم ، كما فعل ذلك مجلس الشيوخ الرومانى فيما بعد . ولا شك أن هذه الخصومات المستديمة على الحدود (وسببها خشية القوم من المجاعة خشية لا تنقطع ، وما يترتب عليها من الرغبة المتواصلة فى الاستحواذ على قدر أعظم من الأرض الزراعية ذات الرقعة المحدودة) لم تكن وما تقتضيه من تحكيم بالحالة المثلى ، ولكنها كانت على كل حال خيراً من بديلها الآخر وهو الحرب . فكأن كل حكم يقضى به الحكام كان حرباً كتمت أنفاسها فى المهد ، ولئن لم يراع المحتكمون شروط الحكم دائماً ، فلم يكن لذلك من معنى سوى زيادة عدد الأحكام التى يصدرها المحكمون عليهم ، وحتى المدن غير الكريمة السمعة فى هذا الصدد كبعض المدن الكريتية ، كانت تحول التحكيم إلى معاهدات دائمة .

وجاء حين من الدهر أيضاً لاح للناس فيه أن الحرب نفسها ربما عدلت من صفتها . وذلك لأن عظماء المقدونيين ، أخص بالذكر منهم الإسكندر وديمتريوس وأنتيجونس جوناتاس حاولوا أن يدخلوا فيها شيئاً من روح الفروسية . وكان من العادات الشائعة التى جرت مجرى القانون فيما سلف من أيام ، أن القائد يستطيع ، متى فتح إحدى المدن ، قتل الرجال وبيع النساء والأطفال أرقاء . ثم تعدلت تلك العادة فى عهد الإسكندر إلى بيعهم جميعاً بيعاً عاماً ، حتى لقد أنفذها هو نفسه فى أربع مدن ، حيث باع طيبة وغزة دون أن يلتمس لنفسه إلا العادة عذراً ، كما باع اهل صور وكيروبوليس معتذراً بأن ذلك (حسب مألوف العرف المتبع بالعالم) وكان كل عذر يقدم فيما يتعلق بالرجال فقط . على أن الظاهر أن خلفاءه أسقطوا تماماً ذلك العرف الفظيع ، فأصبح القوم يقولون آنذاك بأنك تفتح إحدى المدن لكى تنتفع بها لنفسك ، لا لكى

تجعلها صحراء بلقعاً . وبدا للناس كأنما القاعدة القديمة قد وئدت ، ولما اجتاح الغاليون فى (٢٧٩) بلاد اليونان ، شكت المدن اليونانية مر الشكوى من « قساوة » الإنسان الفطرى ووحشيته وقد تجلت مرة أخرى .

ثم جاءت موقعة مانتينيا : حيث حدث فى (٢٢٣) أن أنتيجونس دوسون سمح لأراتوس والآخايين أن يشفوا غليل أنفسهم انتقاماً من المدينة ببيع أهاليها . وكانت قد استفزتهم استفزازاً كبيراً ، ولكن لا تزال تتردد فى أسماعنا أصداء العاصفة الهوجاء من الاحتجاج التى أثارها ذلك العمل . أما فيما يتعلق بالحكام والقائمين بالأمر فى هذه الأرض ، فإن مانتينيا كانت ختاما لكل أمل فى ظهور أحوال أفضل بين ربوعه ، وماعتمت الحرب أن عادت فى القرن الثانى سيرتها الأولى على يد كل من الرومان وفيليب الخامس ، ولم تكن معاملة فيلوبويمين الآخى لإسبرطة أحسن كثيراً من الوحشية التى أظهرها فيليب نحو كل من كيوس ومارونيا . بيد أن بعض المدن الإغريقية وكثيراً من الإغريق أنفسهم كانوا يرون الاستمساك بمعاملة المقهور بالحسنى . وحدث يوماً فى القرن الثانى أن ميليتوس وماجنزيا أنهتا صراعها بعقد ميثاق بتبادل الأسرى رأساً برأس ، بيد أن ماجنزيا أعادت الفائض لديها من الأسرى دون فدية . وأصدر ليكورغوس ذات يوم قانوناً بأثينا ملؤه الرحمة الإنسانية ، إذ يحرم على الأثينيين شراء الأسرى اليونان الأحرار ، وكانت بعض المدن أحسن آنذاك تصرفاً ، حيث تعهدت بمعاهدات عقدتها بينها بإلزام كل مواطن فيها اشترى مواطناً من المدينة الأخرى بعتق رقبته مقابل استرداده الثمن الذى دفعه . وما أكثر عدد الحالات التى عمد فيها أفراد معروفة أسماؤهم مخاطرين بأنفسهم فى كثير من الأحوال — إلى إطلاق سراح الأسرى أو افتدائهم بالمال سواء أخذوا فى الحرب أو بوساطة القراصنة . ومع أن الأسير المفتدى بالمال كان يصبح من الناحية القانونية عبداً لمفتديه حتى تسدد الفدية ، فكثيراً ما كان الفادى ينزل عن الفدية . وسنجتزئ باسمين فقط بين الأمثلة الكثيرة المنطوية على الغيرية هما اسما الأخوين من أيجيالى (Aegiale) وهما هيجيسيبوس وأنتيپاتروس اللذان جعلا نفسيهما رهينتين لدى بحارة إحدى سفن القراصنة رغبة فى إنقاذ عدد من النساء ، ولم يكافأ الرجلان إلا بإكليلين من الأغصان

الخضراء وضعا منهما على الهامة ثم بالسجل الذى صان بالصدفة اسميهما وخلد مآثرهما على الأيام .

ومن أدلة الرحمة الإنسانية التى تحركت فى نفوس القوم تلك الحركة الداعية إلى تحريم الحرب ببعض أماكن معينة وجعلها حرماً آمناً . فكان « أحد الأمكنة المقدسة » كمعبد وما يحيط به من حرم يُعد بمأمن من كل قتال ، وإن كان الجزاء الوحيد لمن خالف ذلك هو غضب الآلهة عليه ؛ وكانت جزيرة ديلوس بأكملها ، وهى مسقط رأس أبولون ، حرماً من تلك «الأماكن المقدسة » منذ أزمان سحيقة القدم فيما يرجح . وعندئذ حاولت عدة مدن مختلفة أن تجعل من نفسها وبما يحيط بها من أرض حرماً « مقدساً » أى بمأمن من الحرب عن تراض من العالم اليونانى والملوك الهللينستيين. فظهرت أزمير فى هذا السبيل أولا حوالى (٢٤٠) وأعقبتها ماجنيزيا على نهر المياندر ثم ألاباندا وتيوس فيليتوس وخلقدونية فغيرها وغيرها ؛ واتجهت مدن أخرى إلى نفس هذا التكريس المقدس ، ولكن لم تُنفذ رغبتها قط وإن استصوب الوحى الإلهى تصرفها . وعرفت دلفى والأحلاف الأمفكتيونية (Amphictyons) بأثرها الذى لا يستهان به فى تلك الحركة ، والذى أسبغ عليها سنداً دينياً كريماً . وسرت بحذاء تلك الحركة حركة أخرى تدعو إلى تحريم اقتحام بعض الأماكن وجعلها آمنة من العدوان (aslya) أى ذات حصانة من كل انتقام (Syla) أى من كل حرب خاصة — وأعنى بذلك حق المدعى سواء أكان فرداً أم مدينة ، فى القبض عنوة على الأفراد أو الاستيلاء على السلع دون قيام حالة الحرب ، وهو حق كان يرجع إليه على الدوام الشىء الكثير من خروج السفن الخاصة بإذن من الحكومة لاصطياد سفن الأعداء التجارية . وحدث فى بعض الأيام أن كان كل غريب معرضاً على الدوام للانتقام ، ولكن ذلك الحق كان يعارض دائماً، ولعل ذلك لأنه كان يعرقل التجارة ويعود عليها بأفدح الأضرار ، ولأن كثيراً من المعابد صارت منذ زمن طويل ملاذاً لمن يلجأ إليها . ثم أضفيت هذه الصفة على كثير من المعابد فى أثناء الحقبة الهللينستية ، ولكنها بسطت أيضاً على مدن بأكملها وما يحيط بها من أرض . وكانت جزيرة تينوس أولاها حوالى (٢٧٠)

وأعقبتها جميع المدن الاغريقية ، التي أصبحت « مقدسة » وتبعتها عدة مدن منوعة أخرى اختتمت في النهاية بدلفي نفسها .

وغني عن البيان أن قول بعضهم بأن لقب « مقدس والحرم الذي لا يجوز انتهاكه» ما هي إلا عبارات جوفاء ، دليل على أن صاحبه لا يحسن فهم الزمان . لقد كان هذا الاتجاه محاولة جدية لتضييق نطاق الحرب ، وإلا فهل يعقل أن يجشم سلوقوس الثاني نفسه تلك المؤونة التي تجشمها ليحصل لمدينة أزمير على اسم أجوف وهي أشد حلفائه ولاء ؟ . لقد احتفظت تلك الظاهرة بشيء من الأهمية حتى في سوريا نفسها في أثناء القرن الأول (ف ٤) ، ولم تصبح اسماً أجوف إلا في ظلال الحكم الروماني الإمبراطوري . ولكن يشك في الأثر الفعلي المترتب على تلك القداسة ، وذلك لأنها لم تكن لتغير الصفة السياسية للمدينة ولا هي كانت تحدد وتعين نوع مجالاتها السياسية . ومع ذلك فإن الفكرة طبقت في إحدى الحالات بطريقة غريبة جداً : فإن أنطيوخوس الثالث بعد أن عجز عن الاستيلاء على زانثوس (Xanthus) لجأ إلى إعلان « قداسة » المدينة لكي يصون ماء وجهه حين تراجع عنها . أما حق الحصانة والقداسة (Asylia) فقد كان له بعض التأثير ، إذ إنه ساعد على وضع حد لحرية التصرف الفردي ، وهي الحرية التي كانت تنطوي على إنكار النظام العام . وذلك لأن تلك الحصانة امتد سلطانها بعيداً وراء حدود بعض المدن والمعابد المعينة ؛ ووهبت الحصانة للفنانين الديونيسيين لكي يطمئن الجمهور على استمرار قيام الحفلات في معبد ذلك الإله ، وذلك على حين أن كل مرسوم يقضي بالوكالة أو الإنابة في رعايا المصالح الخاصة برعايا دولته في أخرى ، كان يمنح كل مستفيد منه ضماناً بالحصانة من انتهاك الحرمات ، وبذا أصبح العالم الاغريقي نسيجاً متشابكاً من الناس الذين لا يجوز مضارتهم على يد رعايا هذه الدولة أو تلك . غير أنه ليس من المعقول أن رجلاً من قراصنة السفن الأيطولية ما كان يهاجم القرى وبيده قائمة تضم أسماء الموكلين برعاية المصالح والضيافة وهم الذين لا يجوز لأيطوليا مس حصانتهم ، بيد أن أيطوليا حاولت مواجهة مثل تلك المواقف الحرجة بمنحها شهادات إعفاء للمدن الصديقة وتعهدها بالتعويض عن الخسائر التي قد تلحق الأفراد . ومن البديهي أنه ليس مما يشين مزايا نظام

الحصانة والقـداسة على وضعه الأول الذى شُرّع من أجله ، أن قد أسىء تطبيقه فى ظل الإمبراطورية ، وأنه لم يعد له من معنى إلا ازدحام مـــدن معينة برعاع ودهماء لا يجوز مسهم بسوء مما استدعى تدخل روما .

وبغض النظر تماماً عن الجنوح نحو الاتحاد الفدرالى ، كانت عوامل كثيرة تهدف إذ ذاك إلى تقريب المدن بعضها من بعض والقضاء على ما كان لها من عزلة قديمة . ومن تلك العوامل ذلك العدد الضخم من المواطنية الشرفية التى شاع آنذاك منحها للرجل وسلالته من بعده ، وبذلك أصبح لكل مدينة أصدقاء فى مدن أخرى كثيرة كانوا بها مواطنين لتلك المدينة الأولى . ومن هنا أصبح الاعتقاد بأن الرجل لم يكن يستطيع أن يكون مواطناً بأكثر من مـدينة واحدة يتطلب شيئاً من التحوير والتعديل ، إذ كان فى المستطاع أن يكون مواطناً بأى عدد من المدن ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يستطيع ذلك فى وقت واحد إبان القرنين الثالث والثانى . فلا يكون مواطناً عاملا إلا بمدينة واحدة فقط ، أما مواطنياته الأخرى فهى مجرد « إمكانيات اعتبارية » . فلومنحت كورنثة مواطنية الشرف لأحد مواطنى طيبة ، كان للطيبي هذا ، إن هو أقام بكورنثة ، الحق فى أخذ هذه المواطنية ويصبح كورنثيا من جميع النواحى ؛ فاذا هو لم يفعل ذلك أصبحت مواطنيته الـكورنثية فى حدود الإمكانية والاعتبارية . والشىء الذى نجهله إلى اليوم هو ما إذا كان يظل مواطناً عاملا بطيبة إن هو أخذ مواطنيته الكورنثية : الراجح أنه لم يكن يحتفظ بمواطنيته الطيبية . ولـكن الذى كان يحدث فى القرن الأول هو أن الإنسان بـكل تأكيد يستطيع ممارسة مواطنيتين عاملتين — وذلك هو التطور الطبيعى للأحداث ، وآية ذلك أنا نرى بومبي يحظر فى بيثينيا ممارسة تلك المواطنية المتعددة ، ولـكنه أخفق فى إيقافها . وقد كان ديو مواطناً بمدينه بروسا ثم كان كذلك فى نيقوميديا وأباميا ، فلما إن رغب تراجان فى إلغاء المواطنية المتعددة ، وجد ذلك من الشيوع ببيثينيا بحيث لا يستطيع منعه بغير تمزيق نظام المجتمع بأكمله ، ولم يستطع تطبيق الحظر إلا على المستقبل . وبغض النظر عن المواطنية ، فإن كل مدينة أصبح لها آنذاك أصدقاء كثار بمناطق أخرى

كانوا حين يزورونها (أى المدينة) لا يُعدون مجرد أجانب غرباء بل كانوا يُمنحون مقاعد أمامية فى مشاهدة الألعاب ويحضرون الولائم بقاعة المدينة ؛ ومن ثم فإن الروابط والصلات بين المدن قـــد أخذت تتشح بوشاح جديد مخالف.

ولـكن المسألة تجاوزت الأفراد إلى حد بعيد جداً ؛ إذ شرعت المدن تمنح مواطنيتها إلى كامل هيئة المواطنين بمدينة أخرى ، وهى العملية المعروفة باسم التساوى فى المعاملة بالمثل بين المدن (Isopolity) (ف ٢) . وقد حدث فى بواكير القرن الثالث أن منحت أثينا مواطنيتها لمدينة برينى (Priene) وذلك فى مقابل منحة منحتها قبل ذلك برينى لأثينا ، وتم عقيب ذلك تبادل منح المواطنية بين مـدن كثيرة : منها أثينا ورودس ، ومنها ميسينى وفيجاليا وباروس وإللاريا ، ومنها برجامة وتيمنوس ، ثم ميليتوس ومجموعة كاملة من المدن ـــ هى كزيكوس وهرقليا ـــ لاتموس وكيوس وفوجيلا ومولاسا وتراليس ، وكان جميع أهالى قيرنية أو برقة مواطنين لدى تينوس ، وأصبح جميع الطيانيين مواطنين لدى عدة مدن كريتية ، وجميع المغنزيين مواطنين فى مدن الحلف الـكريتى . وكان مفعول هذه كمفعول المواطنية الشرقية سواء بسواء ، وكانت هذه بمثابة مواطنية بحق الإمكان أى اعتبارية ، وكان كل حامل لها فى وسعه استخدامها كحق من حقوقه لو شاء . وفضلاً عن المواطنية كانت المدن تمنح على هـذا النحو حقوقا أخرى . فكانت أثينا تمنح حق الاضطلاع برعاية مصالح الغير واستضافتهم لطبقات من الناس بأجمعها مقيمة ببعض مدن تساليا ؛ فصار لجميع أهالى مسينى الحق فى القيام برعاية المصالح بالنسبة لدلفى ، وصار لاهل دلفى نفس الحق بالنسبة لساريس ، ولجميع الأكراجانتيين نفس الحقوق عند الحلف المولوسى . وكثر منح الأفراد حق الرعاية لمصالح الغير لدرجة جعلت بعض المدن تكف عن إعلان المراسيم ، وحدث فى القرن الثالث أن جعلت إيداورس ـ وهى مدينة صغيرة ـ معدل عدد المراسيم أربعة فى السنة ، واقتصرت بوضع الأسماء فى إحدى القوائم كما كانت تفعل ذلك من قبل مدينة أنافى ، وحذت دلفى حذوها منذ (١٩٧) ؛ وفى قريب من (٢٦٤) منحت هستيآيا نفس الحق لاثنين وثلاثين فى عام واحد .

وكانت حقوق رعاية مصالح الغير بطريق الإنابة (Proxeny) تشريفاً مرموقاً محسوداً ، لأنه لم يكن يخول لحامله الحصانة من الاعتقال فحسب ، بل كان يعطيه أيضاً الحق فى امتلاك الأرض بالمدينة المانحة . وكان أصحاب هذا الحق يمارسونه بكثرة ، وشاهد ذلك أن أولى الخطوات التى خطتها روما بعد فتح آخايا ، أن حظرت امتلاك الأرض بمدينتين ، رغبة منها فى إضعاف البيلوبونيز ، وإن عادت بعد ذلك فسحبت ذلك الحظر . ومُنحت مدن بأكملها، منها مسينى وخرسونيسوس والإسكندرية وأزمير وسارديس، حق السبق فى استشارة وحى دلفى ؛ ومنحت إيتاكا جميع الجنيزيين الحق فى الجلوس فى المقاعد الأمامية بألعابها المحلية المسماة بالأوديسية . وعمدت مدن كثيرة رغبة منها فى تشجيع التجارة ، إلى رسوم الصادر والوارد فأعفت منها مدناً أخرى بكاملها . واتجهت هذه الأمور جميعاً نحو ربط المدن بعضها ببعض . ولقد استطاع بوسيديبس أن يقول فى القرن الثالث : « إن هناك مدناً كثيرة ، ولكنها تؤلف فى مجوعها عالم هيلاّس واحد » وإنا لنتساءل : إلى أى مدى كانت العملية تمضى لولا أن تدخلت روما ؟

وما يستطيع أحد أن يحدد المدى الذى بلغه حمل المواطنية الشرفية . وبحسبك أن تعلم على كل حال أنه قل من رجال الأدب مَنْ كان يعمل بمدينته الأم ؛ بل كانوا يذهبون حيث يدعوهم العمل أو الأصدقاء أو حتى دور الكتب . وأسبغت آيات التكريم على كثير من الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون أشعارهم ومحاضراتهم بمدن أخرى ، وكانت فى الغالب من نوع مقصود به إرضاء القومية المحلية للمدينة التى يزورها الشاعر أو الفيلسوف . ولامراء أن هذه الطبقة من الناس كانت فى العادة إذا حلت بمكان آخر اتخذت مواطنيته لنفسها . وآية ذلك أن ميناندر الثيريونى (Thyrreion) أطلق عليه اسم الكاسوبيانى ، وأطلق لقب الخلقدونى ؛ على مترودورس الإسكبسى (من إسكبس). ونسب إلى رودس كل من بوسيدونيوس من أباميا وأبولونيوس الإسكندرى ودينوقراطيس المقدونى ؛ وكنى أرستارخوس الساموتراقى بكنية الإسكندرى ، وأرستوبولس من كوس بالكسندرى ؛ وهذا على سبيل المثال لا الحصر لأن حالات كثيرة مشابهة لهذه معروفة مشهورة . ومن ثمّ

أمكن لنا أن نفترض وجود قدر معين من تبادل المواطنين بين المدن . ومع ذلك فإن دساتير الأحلاف كانت توضع بصيغة لا تسمح لأى مواطن بان يكتسب حقوقاً شخصية بمدينـــة أخرى دون الحصول على منحة صريحة بذلك . .

وثمة عامل آخر قرّب بين أجزاء العالم المختلفة هو تطور لغة مشتركة . فقد شرع المتعلمون بكل مكان فى استخدام اللهجة الأتيكية ؛ وعن الأتيكية مع تعديلها وتحويرها بما جرى عليه العرف المحلى ، نشأ اللسان اليونانى الهللينستى وهو اللسان المشترك المألوف والمعروف باسم إغريقية « العهد الجديد » . وجاء أوان أخذ فيه لسان آخر مشترك فى التكون متفرعا عن اللهجات الدُورية ، وخلف لنا أثراً خالداً عظيما هو شعر الشاعر ثيوقريطس ؛ ولكن ذلك اللسان لم يستطع أن يصمد طويلا . إذ دامت اللهجات المحلية وبقيت مرعية ببعض الأقطار حتى القرن الأول ؛ ولـكن اللسان المشترك تمكن فى النهاية من غزو كل مدينة يونانية ، وذلك لأنه حين أصبح وسيلة التواصل العامة بين أقوام لهم لهجات مختلفة ، استلزم فى النهاية التخلى عن اللهجات المحلية . وظهر مع اللسان المشترك أيضاً ما يسميه رجال القانون باسم « الصيغ المشتركة » ؛ حيث كانت جميع مراسيم المدن تتبع نفس الخطوط الأساسية . بل الواقع أن الكتلة الهائلة من المراسيم الشرفية التى صدرت أثناء تلك المدة كانت أيضاً رابطة أخرى تربط بين المدن ، وذلك لأن العرف المتبع عند ما كانت إحدى المدن تـكرم مواطناً من مدينة أخرى ، أن يقوم مندوبون بأخذ نسخة من ذلك المرسوم إلى المدينة التى شُرِّف مواطنها بالتـكريم . وهناك كان المندوبون يلتمسون الإذن بإشهار ذلك التشريف وإعلانه وتولم لهم وليمة يلقون فيها خطاباً يؤكدون به ما بين المدينتين من وحدة وتماسك أملاها الشعور الطيب المتبادل بينهما . وكان للعدد الهائل من الأعياد الجديدة أثره هو الآخر ، إذ أن الممثلين القائمين بتلك الأعياد ، وإن لم يـكونوا سوى محترفين يجولون جولتهم ، إلا أن الألعاب ذاتها كانت عملاً دينياً . وكانت المدن ترسل مبعوثين دينيين . وكانت أرباض معبد المدينة وحرمه تزدحم بلوحات حجرية وشواهد قائمة (Stelae) نقشت عليها مراسيم المدينة وسجلاتها ، فكأن تلك المعابد هى إدارة سجلات —

المدينة (وإن احتفظت بعضها كذلك بسجلات على ألواح تختزن بقاعة المدينة وصالة احتفالاتها) . وكان أى زائر يستطيع أن يقرأ هناك آيات التشريف التى أسبغت على بنى وطنه . وكثيراً ما كان مرسوم التكريم فى القرن الثالث وثيقة سياسية قيمة ، بل حتى إعلاناً سياسياً . ولكن شأنه انحط فى القرن الأول يوم أخذت السياسة المستقلة تتوارى وتزول دواعيها ، لقد أخذ يزداد إطناباً زيادة تتناسب مع عدم أهمية ما يحتويه ، وربما أسفّ فروى أتفه التفاصيل عن الحياة الخاصة للرجل الصادر بشأنه المرسوم ، حتى لقد يسرد عدد الضيوف الذين حضروا عرسه ، وذلك لأنه كان يتولى إذ ذاك نفقات إقامة اللوح بنفسه ، كما أنه كان يميل أن يحصل على ما يتوازى مع ما أنفقه من مال .

ولعل أهم شيء لديهم فى هذا الصدد هو اللجان القضائية ، وهى ليست تلك التى كانت تحكم فيما ينشب بين مدينتين من خلاف سياسى ، بل التى تفصل فى القضايا داخل المدينة نفسها ، إذ أن الانحلال السريع كان قد أخذ قبل ٣٠٠ يدب فى النظام القديم ، وهو نظام الفصل فى القضايا بوساطة هيئة من المحلفين مكونة من عدد كبير من المواطنين — وكان والحق يقال خليقا بأن يعتريه ذلك الانحلال ، فإنه يكاد يكون أسوأ نظام قضائى استحدثه عقل البشر . وذلك لأن قرارات المحلفين كانت تتأثر فى العادة بنزوات السياسة وشهوات الجماهير والتحيز والتحزب . وحل محله إبان الحقبة الهللينستية بأسرها نظام كانت لجنة من قاض أو أكثر (Dicasts) تحضر بمقتضاه من مدينة أخرى وتنظر فى القضايا المقدمة إليها . ولم يكن ذلك النظام مثالياً ، إذ لم يكن يعمل به بانتظام ، إذ الظاهر أنهم ما كانوا يلجأون فى الغالب إلى طلب المساعدة من مدينة أخرى إلا حين تسوء الأحوال إلى حد كبير ، كما أن ذلك النظام كان يترتب عليه الشيء الكثير من تعطيل إقرار العدل فى نصابه — وقد حدث أحياناً أن اللجنة كانت تجيء فتجد القضايا معطلة منذ سنوات . ولما كانت العدالة السريعة لا تقل قيمة عن العدالة المجردة من الهوى ، فلا شك أن ذلك الحال أدى إلى الشيء الكثير من قيام كل فرد بأخذ حقه بيده ، وما يصحب ذلك عادة من أمور غير مستحبة . فإذا وفدت اللجنة القضائية

فعلاً أحسنت أداء مهمتها ، وذلك لأنها كانت تقف بمعزل عن شهوات الأحزاب المحلية . وفي الإمكان القول بناءً على ما تبقى لنا من سجلات بأن اللجان ربما أكثرت من الذهاب إلى بعض الأماكن رغبة في تفادى كل تأخير في العدالة لا لزوم له. وكانوا يتبعون إجراءات واحدة لا تتغير، فكانوا يبدأون أولا بتسوية كل ما يستطيعون من خلافات وقضايا عن طريق الاقناع أو التحكيم غير الرسمى . فأما بقية القضايا فيفصلون فيها إما بأنفسهم بالطريقة القانونية والشكل القانونى وإما بإحالتها إلى هيئة محلفين . ويؤخذ من بعض السجلات مثلاً بمدينة كاليمنا أن القضاة (Dicasts) الذين أرسلتهم ياسوس وجدوا في انتظارهم أكثر من ثلاثمئة وخمسين قضية ، ففصلوا في أكثر من ٣٤٠ منها ، ولم يرسلوا للمحلفين إلا عشرة فقط . ولما كان الفيصل في القضايا التي ينبغى الفصل فيها بدقة هو القانون المحلى (الذى تعززه المراسيم الملكية إن كانت المدينة تحت ملك) وليس بحسب قانون المدينة التي منها اللجنة ، فإن معنى ذلك هو أنه عندما وافى القرن الثانى كانت بالمدن الإغريقية لاجرم هيئة مزدهرة من رجال القانون الأصلاء ، وهو شيء لم يعرفه الناس قبل ذلك — وهم رجال درسوا قوانين مدن كثيرة فضلاً عن قوانين مدينتهم . ولا تنس أن دراسات تيوفراستوس في التشريع ساعدت أيضاً على تكوين رأى أصح عن وظائف القانون . هذا إلى أنه نظراً لأن معظم القضايا كانت في كل مكان تُسوّى بطريقة غير رسمية ، فلا بد أنه تكونت بالبلاد طائفة من القواعد اللازمة لتنفيذ ذلك ، ربما لمسنا فيها الأسس التى بنى عليها نظام دولى لإقامة العدالة والمساواة، وعلى هذا النحو بدأت العدالة بانجلترة بطريقة غير رسمية بحتة . وقد يبدو غريباً على أسماعنا ما يترامى إلينا من مدح للقاضى لما يتصف به من « عدم التحيز والعدل » أو لعدم تفريقه بين غنى وفقير، وهى أمور تُعد اليوم مسلماً بها . ولكن عدم التحزب كان شيئاً مستحدثاً تماماً ببلاد اليونان ، وذلك لأن المحلفين طالما رجحوا بشدة كفة الفقير أو كفة المدين . واشتهرت بعض المدن بعدم التحيز ، إذ يلوح أن أهم ما كانت تشتغل به مدينة بريني هو تسوية قضايا جيرانها .

وللملوك في هذا الصدد تاريخ كريم مشرف ، ويحتمل أن الفكرة الاولى

فى هذه اللجان القضائية نبتت فى عهد أنتيجونس الأول . وقد يحدث أحيانا عند ما تكون المدينة تابعة لأحد الملوك وداخلة فى اختصاصاته ، أن يتولى القضاء حاكم من قبل الملك بدل أن تعين لجنة لذلك الغرض ، وكان ذلك استباقاً لعهد ولاة الرومان فى عصر تال ، وقد كان أهالى أيجينا يثنون أحسن الثناء على كليون ، الوالى عليها من قبل الأتاليين ، لأنه كان « قاضياً عادلا بين الجميع لا تظهر فيه آثار أية بواعث خاصة ، قد عقد العزم على أن لا يكون رائده فى التصرف جور ولا تعسف ، بل يحاول فى معظم الحالات حمل الفريقين المتخاصمين على الاتفاق والتراضى » ، ومعنى ذلك أنه كان يتصرف بالضبط مثلما كانت اللجنة تتصرف ، لو كانت مكانه . وقد كرم أهل ديلوس شخصاً اسمه فيلوديموس من « كلازوميناى » لأنه أتم مهمته بنجاح كحكم فى القضايا التى تدور حول العقود ، وهى مهمة قد وكلها إليه ملك من آل أنتيجونس ، لعله جوناتاس أو دوسون . وكان الملوك أنفسهم كثيراً ما يستدعون لتسوية الاضطرابات الداخلية ، التى تتعدد أنواعها فتتراوح بين النزاع على الرهون وبين بدايات الثورة ، فكانوا أو كان ولاتهم كثيراً ما يعمدون إلى إرسال لجان قضائية لذلك الغرض .

وكان كثير من القضايا التى يعالجها القضاة يقوم على ميثاق قضائى بين مدينتين لتسوية المنازعات الخاصة بين مواطنيها (Symbolon) بقصد الحيلولة دون معاملة أىّ من طرفيه معاملة الغرباء فى محاكم الأخرى ، ومع أن ذلك الميثاق القضائى يسبق الحقبة الهيللينستية بزمن مديد ، فإن كثرة استخدامه المتزايدة تسجل تقدماً ، حتى لقد زعم بعض ذوى الرأى أنه هو والمذهب الرواقى ، قد أعانا على قيام الفكرة التى نشأت فيما بعد حول القانون الدولى . ولكن أكثر أنواع القضايا شيوعاً هى قضايا الديون وهى المحور الذى تدور حوله معظم أنواع الخلافات الداخلية التى تنشب بالمدن . ولم يحدث قط أن اتصف المحلفون بالنزاهة فى حكمهم بقضايا الديون ، كما أن الوثيقة التى حصلنا عليها من كاليمنا والتى سلفت الإشارة إليها ، توضح أن القضاة كانوا يحاولون تجنب ترك القضايا لهيئة من المحلفين ، لأن قرارهم الذى كان يصدر بأخذ الأصوات بينهم ، وهم هيئات شبه سياسية كان مصدراً لإثارة ألوان من

الخلافات الجديدة . ثم إن جميع ما لدينا من معلومات حول اللجان القضائية يؤكد نقطة واحدة : هي أنها كانت تحاول محبوة بالنجاح فى غالب لأحيان — أن ترد الوفاق (Homonoia) إلى نصابه بالمدينة . ولو أخذت مراسيم اللجان القضائية الباقية إلى اليوم جملة لكانت كلها أنشودة تترنم بذكر محاسن الوفاق ، تلك البغية التى كان يتشوّف إليها الناس دون أن يتمكنوا من بلوغها . ولم يكن الحديث فيها مجرد ثرثرة جوفاء لا ظل فيها للإخلاص ؛ فإنا نعلم تمام العلم أن إحدى الدول ربما وقعت فى الخلافات والمتاعب رغم أن تلك الخلافات هى آخر شيء ترغبه الغالبية العظمى من سكانها . وكان كل شكل من أشكال السلطة : الملوك والمندوبون والولاة وقادة الأحلاف يحض الناس على الدوام على العيش فى وفاق . وكانت أشد النساء استدراراً للثناء فى ذلك الزمان (ومنهن من تسمى فيلا Phil، أو أبولونيس Apo lonis) هن من حاولن تزكية تلك الفكرة ؛ بل حتى الآلهة أنفسهم كانوا يتوسطون فى الأمور، وإذ بك تسمع أن أبولون يحض مدينة ياسوس على الوفاق. وكان الوفاق (Homonoia) نفسه يعبد فى ياسوس وفى بريني تحت اسم الربة هومونويا ، وأقام لها أرتميدورس فى مدينة ثيرا البطلمية هيكلا « بالنيابة عن المدينة » . وكانت تلك الربة من عظمات المعانى الفكرية التى خلفها لنا العصر الهللينستى ، ولكنها ظلت أمنية للأتقياء . إذ لم تحرز بلاد اليونان أى وفاق حتى سحقت روما كل الخلافات الداخلية . ثم راحت المدن فى العهد الإمبراطورى تكرم الهومونويا (الوفاق) بوفرة وتسكها على عملتها ، وكثيراً ما كانت تعبد ربةً بعد أن زال كل معنى لعبادتها لدى الإغريق .

ولعل هذه الأمور جميعاً كانت تؤدى بمضى الوقت إلى قدر من التعاون بين المدن أكبر مما أدركته فعلا فى أى يوم من أيامها . إذ ما أكثر الأشياء التى احتاجت إلى العمل المتضافر والتى فشلت فيها تلك المدن فشلاً مطلقاً . فمن هذه الأمور عدم وجود تقويم مشترك للبلاد . أجل إن المؤرخ تيمايوس أدخل ذلك التأريخ القبيح المبنى على دورات الألعاب الأولمبية (ف ٧) ، ولكن كل مدينة واصلت التأريخ لنفسها خاصة بعهود موظفيها

العموميين ، بل لم تجمع كلها على ابتداء سنتها فى وقت واحد ، فكانت السنة بأثينا تبدأ حوالى شهر يولية وتبدأ فى اسبرطة حول شهر أكتوبر ، وفى ديلوس فى يناير كما انتهى بها الأمر أن كانت تبدأ فى ميليتوس قرابة شهر أبريل . وناهيك بفداحة الارتباك الذى ينجم عن مثل تلك الحال . والتقاويم الوحيدة للمدن التى يمكن تحويلها إلى سنوات التقويم اليوليوسى تحويلاً محققاً هى التقاويم الديلوسية والميليطية . ولا يزال فهمنا لتنظيم التقويمين الهامين الآثينى والدلفى المرعيين فى القرن الثالث أمراً يعتمد على الحدس والتخمين إلى درجة ما . وزاد الحالة سوءاً تقصير القوم دون إنشاء الطرق المعقولة وضمان المواصلات الآمنة فيها . وانتشر قطع الطرق فى البلاد طولا وعرضاً ، ونظمت العصابات بقيادة شيخ منصر أحياناً (Archklepht) ؛ يدلك على ذلك أن هيراقليدس عندما جاس خلال بلاد اليونان سائحاً حوالى ٢٠٥ ، لاحظ أن طريقاً واحداً كان آمنا وهو الذى يوصل بين أوروبوس وتاناجرا . وكانت القرصنة وبالاً أفدح من قطع الطرق وأحسن تنظيماً . إذ كانت مقاومة الملوك لها على سبيل المعاونة للناس منعدمة تماماً . وعلى العكس ، فإن ديمتريوس وأنتيجونس جوناتاس وبطلميوس الثانى وأنطيوخوس الثالث كانوا جميعاً على أحسن علاقة مع ربابنة القراصنة ، وكانوا يجدون فيهم حلفاء نافعين . وكان كثير ممن يطلق عليهم اسم القراصنة أرباب سفن خاصة تكلفها الحكومة بالاستيلاء على سفن الأعداء ونهبها . وكان القراصنة الحقيقيون من الأفراد المنفيين والمحطمة آمالهم من الرجال ومن لا يجدون عملا من المرتزقة والأرقاء الآبقين ، — يعيشون فى معاقل صغيرة تحيط ببحر إيجة . وقد حدث ذات مرة أن عصابة من هؤلاء استولت على معقل بالقرب من فوجلا الواقعة بأرض إفيسوس . ويسجل التاريخ كثيراً من الإعتداءات على الجزر ، ولكن هذه لم تكن فى الغالب إبان القرن الثالث إلا غارات سفن بمفردها تهاجم الشاطىء للحصول على بضعة أرقاء ، ذلك أن القراصنة كان لهم عدو واحد صادق فى عداوته هو جزيرة رودس ، وظلت رودس أمد ارتفاع سطوتها تحصر شرهم فى نطاق ضيق . ولكن العدو الذى أعياها أمره إنما هو كريت . فإن أى مدينة فى كريت كان يتولى الشيوخ الحكم فيها بطريقة مرضية تماماً ، وقد خلعت عليهم السنون وقارها ، فى حين ينطلق الشباب فى مغامراتهم الخارجة على كل قانون بقيادة زعيم مغامر ، ووجهت

رودس همها نحو حمل حكومات مدنهم على كبحهم . وذلك هو السر فى أنها على العكس من الملوك ندر أن تدخلت فى الحروب الأهلية اللانهائية التى كانت تنشب بتلك الجزيرة ، إذ أن تلك الحروب كانت من وجهة نظرها نافعة لأنها تحجز المغامرين داخل بلادهم . ولكن حدث بعد ١٦٨ أن أثمرت سياسة روما الذاهبة إلى إضعاف كل دولة قوية دون إحلال أى شىء آخر محلها ؛ لذا لم تعد رودس قادرة على إنزال سوط القصاص بهم فى حين أن روما بعد ضمها برجامة إليها فى ١٣٠ أهملت كل شأن يلاد « قليقية الغربية » الضارية وألقت لها الحبل على الغارب ، هنالك اجتمع لواء القراصنة وأسسوا دولة نظامية . وكلفت قليقية روما ثمناً باهظاً جزاء وفاقاً لها على إهمالها حيث خاضت بسببها حربين لتخمد ما بها من فتن ، ولم يستطع الجهد العظيم الذى بذله پومپى أن يوفق إلى شىء أكثر من تطهير البحار إلى حين فقط .

الآن وقد بحثنا تصاريف العلاقات الدولية بين المدن ، وجب علينا أن نتحول إلى أشياء معينة كانت تؤثر فى الفرد ، سواء بوصفه مواطنا أو حتى كإنسان فقط — إنسان واع للأهمية المتزايدة لحياته الفردية ، (كوعى الشعوب عند كل تقدم عظيم جديد يحدث فى الحضارة) . فمنذ دب دبيب الضعف فى روابط الفرد بالمدينة ، تكاثرت فى البلاد جمعيات وأندية خاصة لا تمت إلى السياسة بسبب وقد نشأ من تلك الأندية بأثينا أثناء القرن الرابع عدد قليل (ولا يخفى أن أندية القرن الخامس الأوليجركية كانت شيئا آخر) ، بيد أن ديمتريوس الفاليرى (٣١٧ – ٣٠٧) حرم إنشاء أخرى جديدة ، ولذا فإن انتشار الجمعيات بدرجة عظيمة فى كل أرجاء العالم اليونانى يعود إلى الحقبة من ٣٠٠ فصاعدا . وكان معظمها عبارة عن جمعيات صغيرة جدا ، حيث كان من غير المألوف فيها — فيما عدا جمعية الفنانين الديونيسيين أن يصل أعضاؤها إلى مئة عضو . وكانت أساساً تمثل هيئات اجتماعية ودينية اجتمعت حول عبادة أحد الآلهة ، ومن المحتمل أن جماعات من الناس كان يطلق عليهم اسم طوائف المتعبدين الثياسوى (١) (thiasoi) كانت أغراضهم دينية بحتة ، بينما كانت

(١) الثياسوى هم جماعات دينية تقيم الأعياد والحفلات الدينية فى مناسباتها وتسير فى الشوارع منشدة مهللة بذكر الإله . (المترجم)

جمعيات و نوادى أخرى(١)(Eranoi) تمثل هيئات أغراضها اجتماعية قبل كل شيء، وللإشتراكات فيها أهميتها وكانت قيمة رسم الدخول فى أحدها ثلاثين دراخمة. ثم تظهر الجمعيات العائلية حوالى عام ٢٠٠ ويؤسسها بعض الأفراد إبقاء على ذكرى العائلة وتخليداً لها ، نظراً لأن وظيفة الكهانة كانت وراثية بين نسل الكاهن وحفدته . وكان لكل نادٍ منها يكن صغيرا معبده الخاص ، ولكن الناحية المالية كانت الصعوبة الدائمة التى تواجهها تلك الأندية ، وكانت الكثير منها تؤجر معابدها لتستخدم فى الأغراض الدنيوية حين لا تكون بها إليها حاجة ، شأن نادى عائلة إيجريتيس (Egretes) بأثينا ، التى كانت تؤجر معبدها للناس محتفظة بيوم واحد فى السنة لإقامة عيدها السنوى وكان لنادى إبكتيتا بمدينة ثيرا (Thera) وهو من أغنى الأندية ، دخل سنوى حبسه عليه مؤسسه قيمته ٢١٠ دراخمة ، كما أن ناديا آخر بأثينا وجد بخزانته فى آخر إحدى السنوات مبلغ ١٫٧٧٠ دراخمة ، بيد أن هذه كانت حالات استثنائيه ، ولذا شرعت الأندية تجنح رويداً رويداً إلى الاعتماد فى ماليتها على عضو ثرى من أعضائها هو الذى يتحمل جميع نفقات النادى ويكرم بإقامة تمثال له كان يدفع هو ثمنه — وهو نفس الشيء الذى كان يحدث بالضبط بالمدن (ف ٣).

ولم تكن هذه الأندية بأى حال أندية مودة وتعاطف بين الأعضاء . أجل إنها قد تساعد عضوا من أعضائها ، تعرض لبعض المتاعب أو تتولى تشييع جنازته متخذة من هذه المناسبة ذريعة لتناول أكلة دسمة ، ولكن الأمر كان ينتهى عند هذا الحد . وبدأت تظهر بأثيناوكوس جمعيات من الرجال تحمل اسم حرفهم وصناعاتهم بيد أن نقابة أرباب الحرف تكاد تكون شيئا مجهولا بالعصور الهللينستيه ، اللهم إلا أن يكون ذلك بمصر ، أما نقابات العمال الحقة فإنها لم تتطور إلا فى ظل الأمبراطورية الرومانية ، حتى اعترف قانون جستنيان فى النهاية بقواعدها ، كما اعترف القانون الانجليزى العام بعرف التجار . والعادة أن النادى لم يكن له معنى سياسى ، ولكن حدث أثناء آخر كفاح قام به الحلف الآخى ضد روما أن ظهرت أندية « الوطنيين الغيورين » ،

(١) النوادى Eranoi = هى الجمعيات التى تقوم على اكتتاب يخصص لغرض إجتماعى أو تجارى أو للاحسان . (المترجم)

أى الرجال الذين اتحدوا وعقودا الخناصر على نصرة ماورثوا عن أواليهم من دستور. وكان النادى المؤلف من هؤلاء يشكل نفسه على غرار هيئة المدينة، فكان به موظفون يحملون نفس الألقاب ويُصدر قرارات تماثل مراسيم المدن. وأصبح ذلك الوضع إلى أقصى حد هو الغرار المعيارى الذى يقاس عليه، بحيث أن أشد أشكال المناشط تباعداً مثل المدارس الفلسفية وأكاديمية الإسكندرية وجمعية فنانى ديونيسوس، وجند حاميات بطلميوس والشعراء الذين حلوا بمدينة أثينا، والأطباء الذين يدربون بجزيرة كوس وغيرها، وقدامى أبناء المعاهد بهذا الجنازيوم أوذاك، — اتخذت هذه كلها لنفسها نوعا واحداً متماثلا من التنظيم. وكان عدد الأندية كبيرا، فعدتها فى ١٤٦ بمدينة تروبزن الصغيرة ثلاثة وعشرون ناديا، وواضح أن الأندية كانت تسد حاجة قائمة، وتحول دون شعور الفرد بأنه مضيع فى خضم عالم هائل جديد. حقا إن حياتهم تبدو لنا متعبة ومملة مللا لاسبيل إلى وصفه، ولكن ذلك شىء لايكاد يستحق الذكر، فليس هناك شاهد واحد يدل على أن اليونانى كان برما ضيق النفس بحياته إلا بمقدار برم الناس بحياتهم فى أيامنا هذه بعد ألفى سنة من أيامهم. وكان أهم عمل للنادى فى الحياة الإغريقية هو أن يجعل من نفسه السبيل الطبيعى لتسرب الأجانب والعبادات الأجنبية ودخولها إحدى المدن، هذا والأندية الإغريقية البحتة توجد بأثينا ورودس ولكنها كانت عادة إما أجنبية أو مختلطة. وكان للأخيرة منها الفضل فى تحطيم الفوارق العنصرية، وهكذا كان أحد الأندية بمدينة كنيدوس يضم عدا الإغريق عضوا تراقيا وآخر فينيقيا وثالثا بيسيديا ورابعا فريجيا ثم آخر ليبياً. وكان الرقيق أعضاء بتلك الأندية أحيانا، ولكن يبدوا أن أول ناد للعبدان لم يظهر إلا فى وقت متأخر من الحقبة وكان ظهوره بمصر.

وحدث بعض التقدم فى التربية والتعليم أثناء تلك الفترة. وقد حدث آخر الأمر أن رئيس الجنازيوم (Gymnasiarch) وهو الموكل بالإشراف عليه أصبح أهم الموظفين العموميين تقريباً. وأدركت بعض المدن كميليتوس مثلا أن التربية ينبغى لها أن تناط بالدولة، كما ارتأى أفلاطون من قبل، ولكن الأرجح أن هذه المدن كانت تعتمد فى تنفيذ ذلك على الهبات

التى يمنحها لها الملوك والأثرياء ، لكى تستخدمها فى إقامة المبانى ودفع الارزاق ؛ حتى لقد بلغ الأمر أن قبلت رودس من يومينيس الثانى هبة لذلك الغرض . وكانت المدارس الأولية أرسخ قدماً بالمدن الأشد أخذاً بالتقدم ؛ فهى فى أيونيا تجمع بين الصبيان والبنات ، كما أن الجنسين كانا يتعلمان معاً فى كل من نيوس وخيوس ، شأن المتبع باسبرطة منذ زمن بعيد . وكان الأطفال يبدأون التعليم بتلك المدارس عند بلوغهم سن السابعة ، ولكنهم لا يتعلمون بها سوى مبادىء القراءة والكتابة . ومن المشكوك فيه أن مبادىء الحساب الأولية ، كما نفهمها نحن اليوم ، كانت تُعلم بها بصفة عامة . والظاهر أن المدرسين لم يكن يُشترط فيهم أى مؤهل ، بيد أن الموظفين العموميين كانوا يحاولون الحصول على رجال ذوى أخلاق متينة . ويظهر أن تعليم البنات لم يتجاوز هذا المستوى ؛ أما الصبيان فكانوا يواصلون التعلم متى أظهر آباؤهم استعداداً لدفع النفقات اللازمة إلى مدرس مدرسة ثانوية (Grammatikos) ، بغية الحصول على تدريب أدبى أولى تمهيداً لدراسة علم البيان ، ثم يذهبون فى النهاية إلى مدارس الشباب (Ephebate). وقد عدل ليكورغوس نظام هذه المدارس الأخيرة بأثينا حوالى ٣٣٥ ؛ فأصبحت تضم أبنــاء التاسعة عشرة والعشرين ، وكانت إجبارية ، ومع أنها كانت مؤسسة على التدريب العسكرى إلا أنها أفسحت بعض المجال للتعليم أيضاً ، ولكن الأسماء التى كانت تطلق على المثقفين وهى معلم النظام (Cosmetes) ومعلم ضبط النفس (Sophronistes) تكشف عن الهدف الذى رمى إليه ليكورغوس وهو على الأغلب تكوين الناحية الخلقية الكريمة . وأصبح نظام معاهد الشبيبة (Ephebate) شائعا بين جميع المدن الإغريقية تقريباً ، ولكن أثينا عادت سريعاً فأسقطت الإلزام ، كما أن مدناً أخرى لم تعمل به مطلقاً ؛ فهو من ثم تعليم اختيارى ، مركزه هو الجنازيوم الذى بلغ من أمره أن أصبح يلعب بالمدن الهللينستية نفس الدور الذى لعبته بانجلترة المدارس العامة . وكان الذين يتخرجون من الجنازيوم يُكوّنون ضرباً من الأرستقراطية غير الرسمية . كما أن الجنازيوم كان بالمدن الجديدة باسيا هو الممثل لطراز الحياة الإغريقية ؛ فإقامة الجنازيوم فى أى مكان تعتبر إلى حد ما بمثابة التمهيد لبلوغه مرتبة المدن . وظهر بمصر من هذا النوع من المؤسسات مجموعة لا بأس بها متناثرة بين القرى المأهولة بالإغريق . وكانت المدينة الكاملة

العدة والتقدم كبرجامة مثلا تحتوى ثلاثة جمنازيات أو أقسام من جمنازيوم للصبيان وللشبان Ephebes الذين أنهوا دراستهم بمدارس الشباب (Ephebate) . وكان التدريب الرياضى تاماً ومستوفىً ؛ أما التدريب الذهنى فمعلوماتنا عنه ضئيلة لا تغنى فتيلا ، بيد أن الراجح أنه لم يكن يتجاوز تدريس الأجرومية والشعر (مع الموسيقى) وشىء من علم البيان. والواقع أن التعليم كان يتجه اتجاهاً عتيقاً ومحافظاً ؛ وذلك لأن محتواه الجمالى والرياضى كان إلى حد كبير استبقاء لما كان يجرى فى عهد الأرستقراطية العتيقة ؛ بل إن علم البيان نفسه كان من ثمرات القرن الخامس . ولا شك أن تطوره ونموه فى العهد الهلينستى (ف ٨) إنما يرجع إلى المزاج الإغريقى نفسه من جهة ، كما يرجع من جهة أخرى أيضاً إلى أن عادات الفكر والكلام التى كان يبثها فى الناس علم البيان كانت لا تزال تهدف إلى النجاح الدنيوى ، سواء أكان ذلك فى شئون سياسة إحدى المدن أو فى بلاط أحد الملوك . وينبغى أن يتذكر القارىء أن الرومان لعهد الإمبراطورية لم يكونوا أقل كلفاً به من إغريق الإسكندرية أو برجامة فى العهد الهلينستى . فكل من شاء تعليماً عالياً كان عليه بعد ذلك أن يذهب للعمل بنفسه تحت إشراف معلم مرموق . ولم تكن الأيام قد تمخضت بعد عن فكرة أن الرجل العادى من أوساط الناس كان يستطيع أن يأمل الإفادة من الدراسات العليا المتقدمة ، فى أى من علمى البيان والفلسفة ولا فى أحد العلوم . وكان التبحر فى العلم مغامرة فكرية لكل من يناسبه التبحر من الأفراد ومن تستطيع مواردهم المالية الإنفاق فى سبيله . وربما انطبق نفس الوضع أيضاً على تعلم الطب والتدرب عليه ، وهو الحرفة الوحيدة المقترنة بالعلم فى ذلك العصر . وكانت دراسة القانون كعلم لا تزال مجهولة أو تكاد ، وهى حقيقية لعلها تبدو مدهشة لأول وهلة ، بيد أن دهشتنا منها تقل حين نتذكر أن ممارسة القانون كانت قليلة التطور نسبياً بحيث لم يتيسر لها أن ترفعه عن مكانه التقليدى (فى مجتمع إغريقى) كخادم للحكومة .

وبعض الجمنازيات كان بها مكتبات . وكانت وظيفة رئيس الجمنازيوم ثقيلة الأعباء ، فإنه كثيراً ما كان يُضطر أن ينفق عن سعة لسد حاجة النفقة الضرورية من ناحية ولدفع تكاليف الجوائز الخاصة أو الحفلات العامة .

والواقع أن الدارسين جميعا كانوا يضيعون الشيء الكثير من الزمن فى السير فى المواكب لحضور القرابين ، فى كل من حفلات المدينة المعتادة والمناسبات الخاصة كزيارات الملوك أو أعياد ميلادهم . وشاهد ذلك أن أحد تقاويم كوس يذكر فى شهر واحد ثمانية أيام مخصصة للأعياد وأربعة للامتحانات . وكان من المألوف أن يطلب عظماء الرجال منح المدارس إجازة ، ولـكن ذلك كان معناه على وجه العموم القيام بموكب آخر . وإن المرء منا ليسائل نفسه : أكان الصبيان يسعدون بإجازة يقضون أغلبها إجباراً بالمعبد مفضلين إياها على عملهم اليومى من سباق ومصارعة ؟ وإن نظرة واحدة على حجرات الدراسة التى أزيلت عنها الأتربة فى برجامة وبرينى لتريك الجدران وقد غطيت بالأسماء من أسفلها إلى أعلاها كالمدرسة الثانوية بإيتون سواء بسواء . وكان الشبان اسوة بالشيوخ يكوّنون فيما بينهم جمعيات تقلد نظم المدينة على معيار مصغر . كما أن جمعية الطلاب القـــدامى (Gerousia) — وهم أولئك الذين تخرجوا بجيمنازيوم المدينة — ما لبثت أن ترامت فى النهاية إبان حكم الإمبراطورية الرومانية إلى التحول إلى ضرب من مجلس شيوخ المدينة . بل إن التلميذات الصغيرات أنفسهن كن يصدرن قرارات بالطريقة السليمة المألوفة تكريماً لـكبار الزائرين .

وكان للأميرات المقدونيات العظيمات اللائى ظهرن فى الجيلين التاليين للإسكندر (ف٢) أثر عظيم فى مركز النساء الإغريقيات . فلئن كانت مقدونيا أنجبت فى أغلب الظن أكفأ من شهد العالم حتى ذلك الوقت من الرجال ، فلقد كانت النساء أنداداً للرجال من كل النواحى . فكن يقمن فى الشئون العامة بدور كبير ويستقبلن البعوث ويحصلن من أزواجهن على ما تحتاج إليه تلك البعوث من حقوق وامتيازات ، وكن يبنين المعابد ويؤسسن المـدن ويستخدمن المرتزقة ويقدن الجيوش ويمتلـكن القلاع والحصون ، ويقمن مقام الملك أحياناً أو يشتركن فى الملك على قدم المساواة فى أخرى . وغنى عن البيان أن امرأة كأرسينوى فيلادلفوس ، وهى الجميلة المقتدرة صاحبة السيطرة والنفوذ على من ينضوون فى خدمتها من الرجال ، كان لها بالبداهة تأثير هائل . وتوفرت لهؤلاء الملكات نفس الرغبة التى كانت عند أزواجهن إلى

الثقافة . ومن دلائل منزلة المرأة أن أرانوس يوجه الأشعار إلى فيلا، على حين كتب بوسيديبوس من أهل نيلا المقطعات الشعرية إلى أرسينوى ، ووجه كاليماخوس قصائده إلى بيرينيقة زوجة بطلميوس الثالث . وكانت أرسينوى تتراسل مع العالم الفوزيقى استراتون ، على حين زادت إستراتونيقة ، زوجة أنطيوخوس الأول من عدد الذخائر الفنية بديلوس . ولا يقل عن ذلك نباهة ذكر بعض ملكات أخريات من الأرومة الإغريقية . فقد قيل إن واحدة منهن كانت المثل الأعلى فى كمال الصفات النسوية هى أبولونيس من كيزيكوس وهى التى تزوجت أتالوس الأول صاحب برجامة ، وكانت أماً لأبناء ذاع صيتهم ، وكان الناس يتحدثون عنها مثلما كان الرومان يتحدثون عن أم الأخوين الجراكيين متخذين منها مثالا للصفات النسوية الكريمة . كما أن أى مجتمع كريم كان يشرف لاجرم بامرأة مثل خيلونيس الاسبرطية شقيقة كليومنيس . وأوتيت امرأة يونانية هى بيثودوريس ابنة أحد المواطنين من أهل تراليس سلطاناً عظيماً وحكمت مملكة ضاربة تمتد من كيراسوس إلى كولخيس بيد أنها كانت أيضاً حفيدة أنطونيوس .

ومن البلاطات المقدونية أخذت الحرية (النسبية) تترقرق إلى البيوت اليونانية ، وأصبحت النساء الراغبات فى التحرر — ولعلهن أقلية صغيرة — قادرات على الحصول إلى درجة كبيرة على بغيتهن تلك . وأصدر ديمتريوس الفاليرى بأثينا القوانين التى تلزم المرأة مكانها ، ولكن هذه القوانين ما لبثت أن ألغيت بعد سقوطه . ومع أن بعض الموظفين العموميين الملقبين بلقب « المشرفين على شئون النساء » (Gynaeconomi) يظهرون ببعض المدن ، إلا أن الشىء الوحيد الذى ثبت أنهم أشرفوا عليه هو تعليم البنات . وكذلك أيضاً كان للمذهب الرواقى الذى يرجع إليه الفضل فيما بعد فى إعطاء التعريف الكريم للزواج إلى المشرع الرومانى ، النصيب الأكبر فى رفع مستوى حال المرأة . فعندئذ أصبح فى إمكان النساء أن يحصلن على القسط الكامل من التعليم بحسب ما يردنه ؛ فصار كثير من الفلاسفة يعدون النساء من بين مستمعيهم مثل ليونتيون تلميذة أبيقور ، وهى التى تزوجت صديقه مترودورس . وبدأت الشاعرات تظهرن مرة أخرى فى البلاد أثناء القرن الثالث ، وراحت الشاعرة أرستوداما الأزميرية

محجوب بلاد اليونان متخذة من أخيها مديراً لأعمالها ، وهى تلقى الشعر وتلقى كثيراً من آيات التكريم . ويذكر التاريخ اسم سيدة تبحرت فى العلم هى هستآيا وواحدة أخرى برزت فى التصوير . وإنك لتحس بجلاء أن بعض الكتاب كانوا يكتبون لقراء من الجنس اللطيف . وأخذت النساء عندئذ تتلقين المواطنية ويوكل إليهن رعاية مصالح الغير من مدن أخرى وتأدية الخدمات على نفس الأسس كالرجال سواء بسواء، كما أن الموظفات العموميات من النساء فى العهد الرومانى يرجع بدء ظهورهن على كل حال إلى القرن الأول ق.م يوم تولت امرأة هى فيلى أعلى المناصب بمدينة بريني وشادت سقاية ماء وخزاناً جديدين . وغدت العلاقات بين الجنسين أقل ضيقاً وتعقيداً وصارت طبيعية أكثر من ذى قبل . وإذا بك ترى النساء يؤسسن الأندية ويسهمن فى حياة النوادى ، وإن كان ذلك بطبيعة الحال إلى حد أقل من الرجال ، غير أنه كانت هناك أندية مخصصة للنساء فقط بكل من أثينا والإسكندرية . وكان للفيلسوف الكلبي قراطيس (Crates) تلميذة من أسرة كريمة هى هيبارخيا تزوجته وعاشت « عيش الطبيعة » الذى تدعو إليه فلسفته وهو عيش الشحاذ المتجول . وهناك قلة دفعت بتحرير المرأة إلى أبعد من ذلك . ولكن من الجلى أن معظم هذه الأمور لا تشير إلا إلى أقلية معدودة . ولم تكن الحرية شيئاً يحصل عليه تلقائياً بل شيء لابد من تصيده والإحتفاظ به . وكانت الجمهرة العظمى من الناس تتلقى تعليماً أولياً جداً . ومن النساء حتى اللواتى عشن منهن فى القرن الأول — من بلغن من الثراء ما أتاح لهن امتلاك العبيد ، وإن كن يجهلن القراءة والكتابة ؛ فلا غرو إذن أن كابدت بلاد الإغريق الشيء الكثير من جراء البون الشاسع بين مستوى التعليم عند الجنسين . وثمة شر مستطير فى حياة المرأة فاق كل هذه الشرور جميعاً ، ذلك أنها كثيراً ما كانت تحرم من تربية من حملت من أطفال . فإلى أى مدى كان رضاها بهذا الاحتياط المتخذ تقية من المجاعة وخشية الإملاق ؟ — ذلك أمر لا جدوى من البحث فيه . إذ ليس بين أيدينا سجل واحد يسجل رأيها .

ذلك أنه لم يكن فى طوق أية بحبوحة عيش ورغد تصيبه الطبقات العليا أن يغير من الحقيقة الجوهرية الماثلة الشبح دائماً أبداً ببلاد الإغريق : وهى أن

البلاد لم يكن بها إلا قدر محدود من الأرض الصالحة للزراعة ، كما لم تكن تستطيع بنفسها أن تقوت رجلا واحداً فوق عدد ثابت من السكان بلغته البلاد من أمد بعيد . أما الغذاء المستورد فشيء لابد من دفع ثمنه ، ولما كانت البلاد محرومة من كل ثروة معدنية عدا ما تنتجه مناجم « لاوريوم » من فضة وقد أخذ يقل إنتاجها آنذاك من البلاد سريعاً ، ولما كانت كل مدينة فى حوض البحر المتوسط تستطيع أن تقوم بكل ما يلزمها من عمليات النقل البحرى ، لم يكن من وسيلة من ثم لدفع ثمن الطعام إلا عن طريق تصدير المصنوعات أو رسوم الترانسيت (التجارة العابرة) . وأثرت كورنثة من تجارة الترانسيت التى تمر بها ؛ ولكن نظام الصناعة اليونانى فى حالته البدائية لم يكن له قيمة كبيرة للدول على وجه الإجمال ، وإن أثرى بفضله بضعة أفراد قلائل فيما يحتمل. فمن الطبيعى إذن أن تعيش بلاد الإغريق القديمة كلها متوجسة كل شر من زيادة عدد الأفواه الطاعمة . وواجه الناس تلك الحال فى أخريات القرن الرابع وأوائل الثالث بانطلاقهم للخدمة العسكرية كمرتزقة وبالهجرة إلى آسيا. وكثيراً ما يعبر كتّاب القرن الرابع عن انشغال بالهم بزيادة عدد السكان وبلوغها حداً يفوق طاقة البلاد ، كما أن البلاد كان بها حوالى عام ٣٠٠ فائض جسيم من السكان ؛ بيد أن الفائض أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً . يقول بوليبيوس إن الإغريق كانوا يرفضون فى منتصف القرن الثانى أن يكون لهم أكثر من طفل واحد أو على الأكثر طفلين ؛ والشواهد التى تثبت صدق قوله وتدعمه كثيرة .

إن نصوص الأدب اليونانى تؤكد بإلحاح انتشار قتل الأطفال ووأدهم ببلاد اليونان ، كما أن منها ما ينفى تلك التهمة بكل قوة . ولكن النقوش لاسبيل إلى الشك فيما تسوقه من بينة فيما يتعلق بأخريات القرن الثالث والقرن الثانى . وسألخص هنا بإيجاز الشواهد والبينات بقدر ما استطعت جمعها . إذ أن هناك ما يقارب بضعة آلاف من العائلات اليونانية التى تلقت المواطنية المليتية حوالى ٢٢٨ — ٢٢٠ ، وبقى لنا منها حديث تفصيلى عن تسعة وسبعين سرة بأطفالها ؛ وقد أنجبت هذه الأسر ١١٨ ولداً ، ٢٨ بنتاً ، الكثير منهم من القصر ؛ وغنى عن البيان أن هذه النسب الضئيلة لا يمكن تعليلها تعليلا طبيعياً . وبالمثل كان أقارب إبيكتيتا

(حوالى ٢٠٠) خمسة وعشرين ذكراً إلى سبعة إناث، وكان لاثنين وثلاثين من العائلات المليتية طفل واحد فقط ولإحدى وثلاثين منها طفلان، ويستشف شيء من محاولة هذه الأسر الحصول على ابنين اثنين، والنصوص بوجه عام تشهد بذلك. ونسبة من لديهم ابنان شائعة بدرجة لا بأس بها مع قلة متناثرة أطفالها ثلاثة. ومن المحقق أن عائلتين من كل تسع عشرة بإريتريا كان لها في القرن الثالث أكثر من ولد واحد، وهي نسبة أقل مما جرى بين النازحين إلى ميليتوس، ولكنها تتفق مع الشواهد المستقاة من دلفي؛ وربما كانت النسبة في فرسالوس عائلة واحدة من كل سبع عائلات، وذلك مع التجاوز عن هجرة بعض الأبناء من البلاد. ولكن يكاد يكون محققاً أن القوم لم يكونوا يسمحون مطلقاً بإنجاب أكثر من بنت واحدة، وهو مصداق لما يقرره بوسيديبوس حيث يقول: « إن الرجل الغني نفسه ينبذ دائماً إحدى بناته طعمة للموت والجوع ». وتقول نقوش دلفي من القرن الثاني إن نسبة العائلات التي كانت تعول بنتين لم تكن تتجاوز الواحد في المائة بين ستمائة عائلة. وتتفق الشواهد المليتية مع هذا الحال، كما أن الحالات التي تذكر وجود أخوات في كل مجموعة النقوش يمكن أن تعد على الأصابع، وذلك فيما عدا حالة استثنائية غريبة واحدة: فإن هناك قائمة من القرن الثاني تحوي أسماء بعض المتبرعات من النساء من باروس، لعلها تضم عشرين أختاً (من ثماني عائلات) من اثنين وستين اسماً، ولكن ذلك شيء لا يقاس عليه لأن الجزر كانت تعيش في رغد آمنة من الحرب، كما أنها من حيث السكان يجب أن تعتبر تابعة لآسيا لا لبلاد اليونان. ولابد أن يتجاوز المرء بعض التجاوز إزاء عامل العقم (عدم الإنجاب)، ولذا ترى التبني شائعاً في رودس، حتى لقد عثرنا على قائمة فيها أربعون موظفاً عاماً (حوالى ١٠٠) منهم سبعة من المتبنين، كما أن حي تيلوس منها كان به قائمة فيها ثلاثة متبنون من أربعة، على حين أن تبني الأطفال حتى البنات منهم كان من الأمور الشائعة بمناطق أخرى. وليس معقولا أن يقتل الناس أبناءهم ليتبنوا آخرين. وتفاخر سجلات تيلوس أيضاً بوجود عائلة من سبعة أفراد، لعلها هي العائلة الهللينستية الوحيدة التي يتجاوز عدد أفرادها خمسة، وذلك باستثناء أطفال كليوبطرة ثيا الثمانيه الذين أنجبتهم من ثلاثة أزواج، ولكن لاشك أنه كانت هناك وسائل

منع صناعية ، وأكبر دليل على ذلك كثرة العائلات المكونة من أربعة أفراد وخمسة بأثينا فى أثناء فترة ازدهارها الأخير فى أخريات القرن الثانى .

ويلوح أن النتيجة العامة منذ حوالى ٢٣٠ فما تلاها من السنين كانت نتيجة محققة لا ريب فيها : فإن الأسرة ذات الطفل الواحد كانت أكثر الأسر شيوعاً . بيد أنه كانت لدى القوم رغبة معينة فى الحصول على ولدين (وذلك رغبة فى التعويض عن أحدهما إذا مات فى ميدان القتال) ، وكانت الأسر المكونة من أربعة أفراد أو خمسة نادرة جداً ، وقلما نشأت الأسرة أكثر من بنت واحدة ، كما أن الإقدام على وأد الأطفال على معيار ضخم لا سيما البنات ، أمر لا تكتنفه أية شكوك . ومن المعلوم أنه لابد للإبقاء على عـدد السكان ثابتاً ، أن تتكون الأمة من أسر غير عاقرة يكون معدل ما تنجب من الأطفال ثلاثة . لذا فليس ثمة شك فى أن عدد السكان الذين كانوا يولدون ببلاد اليونان قد تناقص تناقصاً كبيرا حوالى ١٠٠ ق.م، فكأن بلاد اليونان قد أفرطت فى تحوطها من الخوف من عوادى الزمن ، ومع ذلك لم يرتفع صوت واحد فى البلاد عدا صوت اليهود يعترض على قتل الأطفال اعتراضاً قائماً على أسس خلقية ، حتى ظهر الفيلسوفان الرواقيان موسونيوس وإبكتيتوس فى عهد الإمبراطورية ، وأفصحا عن رأيهما فى ذلك الأمر . وقـد اتخذ فيليب الخامس بعد معركة « كينوسكيفالاى » الإجراءات الكفيلة بإيقاف ذلك الاتجاه فى مقدونيا لأغراض عسكرية ودأب على تشجيع الأسر الكثيرة العدد، وبذلك تهيأ له أن يزيد عدد الجيش المقدونى قرابة خمسين فى المائة فى مدى جيل واحد،وعمدت طيبة فى عهد الأباطرة الأنطونيين إلى اعتبار مزاولة ذلك أمراً غير مشروع يحظره القانون ، ولعل أهل طيبة هم الشعب الوحيد باستثناء اليهود الذى حظر ذلك العمل القبيح إلى أن تدخلت المسيحية .

ولا شك أن بلاد الإغريق لم تصب بتناقص فعلى فى عدد السكان حتى عهد الحروب الأهلية الرومانية . أجل إن مدنا معينة بمفردها قد يضمحل عدد سكانها لأسباب عدة ، مثال ذلك أن الحروب ونفى المشايعين لأيطوليا ذهبا بأكثر من نصف سكان لاريسا فى عهد فيليب الخامس ، وأن مدينتى هيراقليا بسفح لا تموس وثيريون بإقليم أكارنانيا ضيقتا الأسوار المحيطة بهما ، بيدأن

نيريون ، وهى مدينة صغيرة كان لها عند ذاك سور أطول من سور طيبة . ومن المسلم به أن هذه أمور لا تدل على شيء ، فإن أرسطويذ كرحالات مدن من هذا القبيل معتبراً إياها أشياء عادية تماماً . وحدث فى القرن الثالث أن المدن التى كان بها فراغ لمواطنين جدد كدائن لاريسا وديمى وميليتوس (لإسكانهم فى ميوس) لم تجد أدنى صعوبة فى الحصول على كفايتها من الإغريق من مناطق أخرى . ولكن الشيء الذى نكاد نقطع به أن عتق الأرقاء أو ضم الأجانب كان يتم حوالى ١٠٠ ق.م. على معيار ضخم ببلاد الإغريق ، شأنه فى آسيا كذلك (الفصل الرابع) ، إذ إنه يلوح لنا ألا سبيل إلى تفسير الحقائق المتعلقة بذلك على غير هذه الصورة ، إذ إن تناقص السكان اليونان الأقحاح أمر لا يتطرق إليه شك . حقاً إن من العسير الحصول على البينات التى تثبت ذلك لأن الأجانب كانوا يتخذون أسماء اليونان ، ولكن شاع فى تلك الأيام قبول الإيطاليين تحت اسم الشبيبة Ephebes ، وبديهى أنه لو قُبل دخول شعب أجنبي فى المجتمع ، دلّ ذلك على أن الشعوب الأخرى لم تكن تُستبعد . ومما يجدر ذكره أن برجامة فى ١٣٣ وإفيسوس حوالى ٨٥ منحت صفة الأجنبي المقيم ومنزلته للأرقاء الذين حُرروا آنذاك ، وربما لم يجانب الصواب فكرة فيليب الخامس من أن حل تلك المسألة مستقبلا يكون فى منح حق المواطنية للعتقاء ، وذلك لأن المدن الإغريقية أصبحت غاصة بالعتقاء . ولاشك أن بلادالإغريق كانت تحتوى فى القرن الأول على عدد كبير من السكان الأجانب ، سواء أكانوا ممن نالوا حق المواطنية أم لم ينالوه ، وأن ما كان يحدث بأرض آسيا ومصر كان يحدث ببلاد اليونان على معيار أصغر ، وكما أن نهر العاصى (Orontes) كان يفيض فى نهر إليسوس قبل أن يتدفق إلى نهر التيبر ، فإن من يذكرهم جوفينال من أشباه الإغريق الحقراء الشرهين لم يكن فيهم من الإغريقية القحة إلا الاسم واللسان . وفى إمكانك أن تجد هذا التغير فى نوع السكان منذ عهد مبكر نسبياً بكورنثة ، التى لم تكن لتستطيع أن تحشد فى القرن الثالث من جند المشاة المدججين بالسلاح إلا رُبع من كانت تحشدهم فى القرن الخامس ، وذلك على الرغم من أن المدينة قد انسعت ونمت ، وهذه الحال جلية واضحة فى ديلوس منذ ١٦٦ ولا تحتاج إلى برهان . وفى الإمكان أيضاً مشاهدة آثار تلك العملية التى تجلت ناشطة فعالة فى تحطيم فوارق الطبقات

والأجناس . فكان الرجل الثرى إذا أو لمَ فى القرن الأول وليمة لمواطنيه الأحرار ، دعا إليها فى الغالب الأجانب المستوطنين (Metics) والعتقاء بل حتى الأرقاء . وكانت القرابين تقدم إذ ذاك التماساً لصحة جميع سكان المدينة وليس للمواطنين الأحرار فقط . وتوجدهناك أندية كنادى سيديكتاس مثلا بلا كونيا ، الذى كانت عضويته تجمع بين أفراد سيديكتاس نساءً ورجالا ، وبعض موظفى المدينة العموميين وكثيراً من الصناع بينهم الأحرار والعتقاء ، فضلا عن جارية صغيرة .

وهناك نوع من الرق فى الهللينستية يختلف عن بقية أنواعه ، هو رق المناجم (الفصل السابع) ، وكانت المناجم جحيما فى الأرض لم تستطع الفلسفة الرواقية ولا معبد دلفى أن يمسّاه بسوء . وكان هذا النوع من الرق جريرة يرتكبها الملوك والمدن على حد سواء . ولكن الرق المنزلى العادى لم يكن فى العادة خلواً من إشفاق ورحمة ، ولربما وُلد العبد مولداً خيراً من سيده ورُبى أحسن من مولاه ، وآية ذلك أن كثيراً من الفلاسفة الذين هزوا العالم بأفكارهم كانوا من الأرقاء فعلاً أو من العتقاء . ولو نظرت إلى أثينا التى كانت تتسامح إزاء ما كان يحدث بمناجم لاريوم من فظائع رهيبة لوجدتها قد قيدت منذ زمن بعيد بأشد القيود والعقوبات الممكن توقيعها على غيرهم من الرقيق — وهذا ينطوى على تناقض آخر عجيب . وحذا حذوها قانون الصحة العامة ببرجامة . وبذلت الفلسفة الرواقية جهودها للحصول للرقيق على معاملة أطيب ، وتمكنت من تغيير الجو رويداً رويداً ، فأصبح الناس يحسون بوجوب الرثاء للرقيق لا إنزال العقوبة بهم ، وشاع فك الرقاب عن طواعية ، شيوعاً متزايداً طوال القرن الثالث وخاصة فى الأوساط الفلسفية ، ولا شك أن شيئاً من فك الرقاب كان يحدث دائماً ، ولكن بدعة عظيمة بدأت حوالى ٢٠٠ ق.م . فبفضل نفوذ دلفى التى كانت على استعداد دائم إبان فترة عظمة أيطوليا وسيطرتها لمناصرة كل نزعة إنسانية ، بات من الممكن للعبد أن يشترى حريته ببيعه بيعاً صورياً لأحد الآلهة ، ومما أعان على نجاح تلك الحركة اعتبار مادى دنيوى ، هو أن رخص العمال الأحرار جعل الأرقاء الصناع غير مربحين لسادتهم . وكان بعض الأرقاء يكسبون المال مما يحترفون من حرف ، ولذا فسرعان ما أصبح

فك الرقاب من الشيوع بمكان — حيث أعتق ٣٦ عبداً بلاريسا فى سنة واحدة، وأعتق أربعون فى مدى سنتين بمدينة هالوس ، وهى بلدة صغيرة — ومن ثم أخذ العتقاء يؤلفون طبقة قائمة بذاتها فى المدن تختلف اختلافاً طفيفاً فى حالتها الاجتماعية عن الاجانب المستوطنين . ولكن حتى فك الرقاب نفسه كانت له ناحيته المعتمة، فإن المرأة الجارية بعد أن تعتق، كثيراً ما كانت تُلزم بالمكث مع سيدتها مادامت على قيد الحياة لكى تدفع بالعمل الذى تؤديه ثمن شرائها ، وهذا أمر لم يكن فى حد ذاته بعيداً عن العدل ، ولكن الواقع أنها كانت تمكث لديها فى ظلال الذل والهوان ، حيث كان فى المستطاع تكبيلها بالأغلال وضربها بالسياط بل حتى بيعها بيعاً . وكان كل طفل تلدهُ يعدعبداً هو الآخر — وهو شىء رهيب ذريع — إلا أن يكون صك فك الرقبة قد نص مقدماً على تحريرهم، وذلك يتم فى بعض الأحيان بشروط منصوصة مقدماً . وكانت فى بعض الأحيان أيضاً تلزم بأن تلد لسيدتها — بل حتى أن تربى لها طفلا أو أكثر يكونون عبيداً لسيدتها . وربما عوضت سيدتها فى بعض الأحايين عن هذا الإلزام بدفع شىء من المال ، ولكن طريقها المعتاد كان واضحاً ، وكانت خاتمتها هى الاضطرار إلى التردى فى الرذيلة .

أما عدد الرقيق ببلاد اليونان أو نسبتهم من السكان الأحرار بها ، فأمر نجهله كل الجهل ، ولكن ما تم من فك الرقاب بدلفى وناوپاكتوس ألقى شيئاً من الضياء على عدد العبيد بشمال بلاد اليونان . وكانت النسب متعادلة بين الرجال والنساء من الرقيق المشترى بالمال ، أما الرقيق المولود بالمنازل ، فإن لعدد النساء فيه — قياساً على عدد المحررين من أفراده — أغلبية كبرى، بحيث يبدو أن الطفلة البنت التى تلدها إحدى الجوارى كانت فرصة البقاء لها أحسن مما لو كانت أمها من الأحرار . وكان الرقيق المشترى بالمال أوفر عدداً بكثير من المولود بالمنازل ، وأغلب الجنسيات شيوعاً فيهم هى الإغريق والتراقيون والسوريون، وإن وجد أرقاء من كل جنسية ابتداءً من قوم الباستارناى إلى بلاد العرب . وكان معدل سعر العبد من أحد الجنسين من ثلاثة

مينات(١) إلى أربعة ، ولكن بعض الجنسيات بين الرقيق المشترى كانت تباع بثمن أغلى . وتتربع مقدونياً صدر القائمة بسهولة ويسر ، حيث يتراوح ثمن العبد منها بين ٥ ٣/٤ مينات للرجل و ٥ ١/٤ للمراة ، وهو أمر يشهد بما يقوله بوليبيوس عن سجايا ذلك الجنس العظيم . ومن أحسن أنواع الرجال التراقيون وسعر الواحد منهم قدره ٥ ٢/٥ ، والرومان والإيطاليون (وبعضهم من أسرى هانيبال) بسعر ٥ ١/٤ ، على حين أن نساءهم لم يكنّ يحصلن إلا على معدل السعر المعتاد . ويبرز أيضاً الرجال الغلاطيون بسعر ٤ ١/٢ ، أما النساء ، فالمرأة الإغريقية التي كانت تساوى ٤ ١/٥ إنما تلى المقدونية فى المرتبة مباشرة . وهناك فارق عجيب فى سعر الجنسين فضلاً عن النسب العددية فى الجنسين بين الرقيق المشترى والمولود بالمنازل . أما الأرقاء شراء المال ، فإن ٩٦ رجلا معروفة جنسياتهم كان معدل ثمنهم هو ٣ ١/٢ مينات للواحد ، كما كان ٩٨ امرأة بمعدل أقل قليلاً من ٤ مينات ، أما المولودون بالمنازل فإن بينهم ١١٠ امرأة معدل ثمنهن أكثر قليلا من ٤ ، فى حين أن ٤٧ رجلاً معدل ثمنهم ٥ ١/٢ . ولو نظرنا إلى الأمر فى جملته لوجدنا أن العبد المولود بالمنزل والمدرب منذ نعومة أظفاره كان أعلى قيمة . وأعلى سعر تذكره السجلات هو ٢٥ مينات دفعت ثمناً لامرأة فريجية ، ويرجع السر فى هذه الأسعار العالية — على قلتها — إلى توافر بعض المهارات الخاصة بالعبد .

وكان تزويد بلاد الإغريق بالقمح أخطر المسائل العاجلة بالبلاد . وكان معدل سعر القمح المستورد بأثينا أيام ديموسثنيز يتراوح عادة بين خمس دراخمات للميدمنى (Medimnos) الواحد وهو يساوى البوشل(٢) . ولما أن أنزل الإسكندر الأكبر كنوز فارس للتداول ، أفضى ذلك إلى تخفيض قيمة

(١) المينا الواحد (Mina ويكتب Mna) باليونانية يساوى (١٠٠) مائة دراخمة كمعيار فى الوزن أو خمس عشرة أوقية . أما كعملة متداولة فيساوى مائة دراخمة كذلك ، ومقدار ذلك بالجنيه الإنجليزى ثلاثة جنيهات . وأربعة عشر شلنا وأربعة بنسات وكل ستين من المينات تساوى تالينتوم Talentum (المترجم)

(٢) البوشل مكيال إنجليزى جاف للحبوب وغيرها يحتوى على ثمانية جالونات أى ما يعادل ٣٦ لتراً بالتقريب باعتبار اللتر الواحد ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب (المترجم)

الدراخمة ، فارتفع سعر القمح بطبيعة الحال ؛ وحدث حوالى ٣٠٠ وقد خفضت الدراخمة (التى كانت تساوى ٦ أوبولات) إلى ٣ أوبولات ، أن معدل سعر القمح أصبح لاجرم حوالى عشر دراخمات تقريباً للبوشل الواحد مع التجاوز عن الفروق الموسمية فى الأسعار ؛ وهبط ذلك السعر بالتدريج مع ارتفاع قيمة النقد ، ولكنه كان حوالى عام ٢٠٠ لا يزال يقارب ٥½ دراخمة ؛ ذلك أن القمح أصبح موفوراً بالعالم (الفصل السابع) . وعنى البطالمة أعظم عناية بتنظيم تصدير القمح ، كما أن أثينا وكورنثة وديلوس وكثيراً من الجزر وأيونيا ومدناً أخرى فيما يحتمل كانت تعتمد اعتماداً أساسياً على القمح المستورد ؛ ولكن المألوف هو أن كل مدينة كانت تعتمد على محصولها الخاص ، وإن اضطرت أحياناً إلى تكميله بما تستورده . لذا لم يكن لنقص المحصول من معنى سوى نشوء حالة تتراوح بين نقص الجرايات وبين المجاعة ؛ والمجاعات المحلية كانت من الأمور الشائعة فى تلك الفترة كلها ، منذ كانت المواصلات البرية سيئة للغاية . وكان المألوف فى الأحوال العادية أن بعض أرباب الوظائف العامة مثل مراقب الأسواق (Agoranomos) أو مراقب الأغذية (Sitophylaces) ينظرون فى شئون تجار الغلال ويحرصون على تزويد المدينة بما يلزمها من الطعام بسعر معقول . ولكن هذا النظام كان ينهار عادة إذا ارتفعت الأسعار لقلة الموجود فى السوق ، ما لم يتول مراقب الأسواق شراء القمح بنفسه أو يتمكن من إقناع أحد أغنياء التجار ببيعه بأقل من سعر التكلفة ؛ وإن عظم عدد الرجال الذين كانوا يدفعون الفرق على هذا النحو من مالهم الخاص لأبلغ دلالة على ما كانت المدن تتمتع به من سليم روح الغيْرية والحدب على المصلحة العامة . ولكن ذلك لم يكن إلا إجراءً ملطفاً ؛ فليس عجيباً إذن فى أثناء المجاعة الكبرى التى حدثت فى ٣٢٩—٣٢٥ ، وامتدت إلى بلاد اليونان قاطبة وإيبيرس معها وزاد من وطأتها ذلك التضييق المصطنع فى القمح المصرى الذى افتعله كليومينيس والى الإسكندر على مصر ، — أن اضطرت الدولة بأثينا إلى التدخل فى الأمر وجمع التبرعات وتعيين لجنة اشترت القمح بأية وسيلة تيسرت لها وباعته بالتجزئة بالسعر المعتاد مع إرداف ذلك بتوزيع الجرايات على الناس ببطاقات تموينية ؛ فكأن بطاقات الخبز إذن ليست استكشافاً حديثاً . ومنذ ذلك الحين أصبح تأليف مثل تلك اللجان الخاصة وتوزيع القمح

على الناس بالبطاقات من النظم المألوفة فى أثناء عهود أزمات القمح. ولكنه كان نظاماً معيباً بعيداً عن الكمال ، حيث كان التبرع شيئاً اختيارياً ، وربما لم يصل إلى القدر الكافى لتخفيف ويلات المجاعة ، هذا إلى أن الفقراء لم يكن فى مستطاعهم دائماً أن يدفعوا ثمن ما يخصهم من الجرايات .

ولعل ساموس هى التى اتخذت الخطوة النهائية فأنشأت رصيداً لشراء القمح ، وقد أزعجتها سلسلة المجاعات التى حاقت بها حوالى ٢٤٦ ، يوم أضاع التجار مرتين النقود المجموعة لتخفيف ويلات المجاعة ، فلم ينقذ المدينة إلا فرد من المواطنين اسمه بولاجوراس ، وتهيأ للمدينة بطريقة ما أن تجمع من الأغنياء القدر الكافى من المال ، وأن تستثمره فيما يغل عليها سنوياً من الفائدة ما يكفى لإمداد المدينة بالقمح . وما لبثت كثرة عظيمة من البلدان أن حذت حذو ساموس ، ونشأ نظام يقضى بقيام الدولة بشئون التموين بمدينة بريني ، بل وربما فى غيرها من المدن ، وإذا بالسجلات تذكر وجود أرصدة دائمة للقمح فى ميليتوس وتيوس وديمترياس وديلوس وأيجينا وثيريا ، ولعل تلك الأرصدة عمّت جميع البلدان تقريباً . وكان معنى هذه الأرصدة ـ حتى فى ظل نظام توزيع الجرايات نفسه ـ أن الأغنياء (الذين اكتتبوا فى رأس المال الأصلى) كانوا يتولون إطعام الفقراء ، على نحو ما كان يفعله أغنياء رودس طائعين مختارين بما يقدمون من خدمة عامة للدولة فى شئون الطعام ، وهى خدمة كان كل ترى هناك يعنى بمقتضاها برعاية عدد معين من الفقراء . على أن ساموس وثيريا لم تقفا عند هذا الحد ، إذ إن القمح فى ساموس كان يوزع كل عام مجاناً على المواطنين جميعاً ، وصار يوزع فى ثيريا على الفقراء فقط قرابة (١٠٠ ق. م.) . والظاهر أن الأغنياء كانوا يدفعون أثماناً مضاعفة . ونظراً لأن الملوك والأغنياء كانوا غالباً ما يقدمون هبات عينية من القمح ، كما أن الأغنياء شرعوا يوزعون أيضاً فى أركسيني ومينوا فى القرن الثانى (وليستا بهذا على أية حال فريدتين فى بابهما) تذاكر مجانية لمشاهدة الحفلات المحلية ، يتبين لنا أن نظام الطعام المجانى والحفلات المجانية (Panem et circenses) وهو إجراء يقوض الأخلاق ، لم يكن إلا سُنة نقلتها روما عن التاريخ الهللينستى فى عهده الأخير .

وفى ذلك العصر الملىء بالمتناقضات ليس ثمّ شىء أدعى إلى الدهشة والعجب من التباين الشديد بين الحالة التعسة للأجور (الفصل الثالث، فيما يلى) وبين أريحية الاغنياء المذهلة. فإنهم ما كانوا يمنحوهم المال أجراً، ولكن يعطونهم إياه هبة وعطاء. غير أنهم عندما يعطون يوجهون عطاياهم للدولة فى جميع الحالات، بمعنى أنهم كانوا يعاملون المواطنين (أو السكان) ككل واحد. وكم من مدينة يلوح أنها استطاعت أن تلجأ إلى ثرى من أبنائها لينقذها كلما دعت الحاجة أو رأت أن تلجأ إليه: ليجزل لها العطاء أو يقرضها بدون أرباح مبالغ طائلة تواجه بها بعض ما يلزمها من نفقة خاصة استثنائية، أو يذهب فى وفادة لها بغير أجر أو يناصر المدينة على الملوك أو على جباة الضرائب الرومانيين؛ أو يبنى لها الجسر (الكوبرى)، أو الجنازيوم، أو المعبد، إن قصرت أرصدتها المالية دون ذلك؛ أو يمدها بأدوات الحرب أو يهبها نفقات احتفال جديد أو مدرسة جديدة، أو يسدد الأعباء الفادحة للخدمات العامة أو يقدم الزيت للرياضيين أو الجوائز للتلاميذ أو يأدب الولائم للمواطنين وزوجاتهم؛ وذلك من أجل أن يُكرّم فى النهاية بإقامة تمثال له غالباً ما كان يقوم بنفقاته هو نفسه، إذ يبدو أن رجالا من أمثال بروتوجينيس من أولبيا وميناس من سستوس وموسحيون من برينى وبوليكريتوس من إريثراى، كانوا كمن يحمل المدينة على منكبيه أو يكاد. وكأنى بهذا الاعتماد المستمر من جانب المدن على تقدم أحد الأثرياء لسد الثغرات التى تفتح أفواهها، دليلا على أن المدن لم تكن قائمة على نظم اقتصادية سليمة، ولكن قل من العصور ما ظهر فيها من أبدى من روح الشهامة والإيثار ماهو أعظم من ذلك، وإن حدث أحياناً من الأمر مالم يكن ليخرج عن تصرف مساو لشراء أحد الألقاب. يقول إيداوروس فى شخص اسمه أرسطوبولس «لقد أثر بمورد رزقه وأضرّ به من أجل المصلحة العامة» فى حين أن برجامة كتبت تشهد لديودوروس أن «عنايته بالخير العام قد أعاقته عن الاهتمام بصالحه الخاص». ولم تكن روح الغيرية تلك والاهتمام بالصالح العام مقصورة على الأغنياء وحدهم. فليس هناك شىء أجمل وقعاً فى النفس من المراسيم العديدة التى تسجل الشكر للأطباء. ولم تكن طبقة أطباء المدن بالطبقة الموسرة (إذ إن الراتب الوحيد الذى عرفناه بلغ أربعين جنيهاً فى السنة)، ولكنهم كثيراً ما كانوا يضربون صفحاً عن أجورهم ويتنازلون عنها فى أثناء

الأوبئة ، ومع ذلك فمنهم من كان كداميادیس الإسبرطى الذى « لم يكن لديه فارق بين الموسر والفقير وبين الحر والعبد » . وعندما قضى الوباء على جميع أطباء كوس تقدم زينوتيموس طوعا لمساعدة المدينة ، كما أن أبولونيوس المليطى كان يقاوم الطاعون فى الجزر دون أن يتلقى أى جزاء . لقد كانت هذه المهنة تنطوى على مستوى عال من الإخلاص. وكان الفلاسفة أيضاً يردون أحياناً أجور محاضراتهم لمن تضيق يده من تلاميذهم عن الدفع . إذ يلوح حقاً أن البلاد كان بها عدد جم من الناس ممن يرون أن هناك أشياء كثيرة أهم من المال .

وعلى الرغم من هذا البر الإنسانى وروح الاهتمام بالصالح العام الذى ساد فى ذلك الزمان ، فإن البر بالإنسانية بالمعنى المفهوم لدينا الآن وهو مساعدة الغنى للفقير مساعدة منظمة كان شيئا غير معروف تقريباً . ويمكن القول بوجه عام إن العطف على الفقراء لم يكن له محل كبير فى الخلق اليونانى العادى، ومن ثم لم يجد الفقراء والحالة هذه من يتخذ ما يكفل إعالتهم فى الأحوال العادية ، وذلك لأن فكرة الديمقراطية والمساواة كانت من القوة بحيث إن كل ما يُقضى فيه من أمر كان ينبغى أن يقضى فيه للجميع على السواء ؛ لم يكن لدى القوم شىء يقابل مالدينا من ضروب الإحسان والمستشفيات التى ينظمها الأفراد . وعندما ننوه بذكر هبات الأطعمة برودس أو الصدقات التى كانت أثينا توزعها على العجزة ومشاركة الموسرين الفقراء أموالهم فى تارنتم، وما قاله بوليبيوس من أن أوفيلتاس من بيؤتيا أعان الفقراء من أرصدة الدولة، وما قاله هراقليدس من أن موسرى تاناجرا كانوا يحسنون إلى فقرائهم واستطراده بلهجة جاسية لا تخلو من جفاف « من السهل عليك أن تكون خيّراً عندما يكون لديك ما يكفيك من الطعام » ، نكون قد استنفدنا أسماءهم تقريبا إلا إذا أضفنا إليها الحالات التى كانت فيها هيئات منظمة كهيئة رجال الأحياء بالمدن تقدم العون إلى بنت أحد أعضائها إذا توفى . ولا يُتصوّر عقلاً أن فى الإمكان أن يكون توزيع اللحم من الأضاحى الذى طالما أكده بعض الناس أمراً شائعاً عند القوم ، إلا أن يكون ذلك ـ فيما نقدّر ـ بمدينة أثينا وحدها ، وذلك لما جرت به العادة من احتفاظ الكهان بعائدتهم منه ، وهى

عائدة كانوا مع ذلك كثيراً ما يدفعون ثمنها ، كما أن اللحم مهما تكن الحال ـ قلما وقع فى مجال تصرفات القوم مطلقا . وتذكر قائمة ميكونوس التى تدور حول قرابة عام ٢٠٠ والتى هى ملحق يكمل أخرى مفقودة ، مرة واحدة وزع فيها اللحم فى مدى أربعة أشهر ، وهى وليمة أقيمت لزوجات المواطنين وللنساء اللواتى أخذن العهد الدينى . وهناك قائمة من مدينة كوس تنسحب على بضعة أيام تذكر مرتين اللحم الذى نقل «إلى المدينة» ، ولكن ليس معنى ذلك أنه وزع على السكان ، وكأنى بالقديس بولس يكاد يفصح عن أن الشىء الكثير من هذا اللحم كان يتحول فى المعتاد إلى الدكاكين . ولعلنا كنا نتوقع من الرواقيين والكلبيين بما لديهم من حاسة الأخوة البشرية أن يحتضنوا فكرة البر ، ولكن أحدا منهما لم يفعل ذلك . ذلك أن الرواقيين كانو يرون أن الفقر مثل العبودية لم يكن ليؤثر إلا فى الجسد ، وكل ما أثر فى الجسد وحده فهو شىء لا يؤبه له ، فأفقر عبد قد يكون ملكا فى دخيلة روحه ، ولذا ركزوا اهتمامهم بالروح وتركوا الجسد وشأنه ، وذلك هو السبب الذى دعاهم إلى عدم المطالبة بإلغاء الرق . وكان الكلبيون يمجدون الفقر الذى كانوا يمارسونه بأنفسهم ممارسة عملية ، فلئن كان الحرمان من الممتلكات لا يعنى فى الواقع الاتصاف بالفضيلة ، فقد كان الشرط الذى لا غنى عنه فى اكتساب الفضيلة . وغنى عن البيان أنهم لم يكونوا يفرقون بين الفقر الاضطرارى القسرى للعامل الكادح وبين عمل الفيلسوف فى نبذه الإرادى للدنيا . والظاهر أن التعبير الوحيد الذى ورد فى الأدب عن محبة البشرية هو قصيدة لكركيداس (الفصل الثامن) يظهر أن الدافع إليها هي الثورة التى قام بها كليومينيس .

وقد كثرت إشارتنا فى هذا الفصل إلى ما كان يظلل العصر الهلينستى من رغد العيش . فالآن ينبغى لنا أن نوجه إلى ذلك الموضوع نظرة أدق . ولا مشاحة أن العهد السابق للقائد سلا ، كان عهداً تمتعت فيه الطبقات العليا بالرغد واليسار ـ وإن لم يخل الأمر من تقلبات محلية : ـ فإن الاتساع الهائل الذى بلغته التجارة (الفصل السابع) يتحدث عن نفسه بأفصح بيان ، كما يفصح عن ذلك معه زيادة عدد الأندية وكثرة الاحتفالات الجديدة (الفصل الثالث فيما يلى) ، فضلا عن ألوان الترف على الموائد وما يصحبه من إنتاج أدبى ، عدا الترف فى ثياب النساء

وبخاصة أقمشة الحرير المنسوج بالذهب (الفصل السابع)، وثمة المدن الأحسن تخطيطاً وتنسيقا والبيوت الخاصة بما أدخل عليها من تحسينات والأثاث الأكثر نفقة (الفصل التاسع). ولا يفوتنا مع ذلك أن نذكر القارئ بوجود فارق بين بلاد الإغريق الأصلية وآسيا (ومعهما الجزر). وبديهي أن التيار الصاعد لم يشمل بلاد الإغريق كلها، فإن كورنثة وأيطوليا وأمبراسيا وباجاساى ازدادت ثراء (الفصل السابع)؛ ولكن أثينا تأخرت من ناحية الثروة حتى وافت نهضتها وانتعاشها فى أخريات القرن الثانى، وكذلك فعلت إسبرطة لأسباب أخرى. وكانت بلاد الإغريق الشمالية فى بحبوحة من رغد العيش على وجه العموم، كما يستبان من عدد الرقيق والطريقة التى كانت تصعد بها إلى ذروة العظمة مدن لم يكد الناس يسمعون بها من قبل، ولا تنسى أحوال ميسينى (قرابة ١٠٠ — ٩١) فان ما حدث لها كان شيئاً مذهلا، وذلك أن مسينيا كانت قطراً زراعيا يعيش ولا شأن له - خارج تيارات التجارة. ويقدر الأستاذ فلهلم متوسط ثروة المواطن الميسينى فى ذلك الزمان بخمس التالنتوم، مقابل ½ تالنتوم كان نصيب الأثينى المتوسط فى عهد ديموستنيز، كما أن ضريبة الأراضى البالغ قيمتها اثنان فى المائة كانت تغل نحو دراختين ونصف عن كل رأس، ذلك فى مقابل ٢٫٧٥ من الفرنكات عن الرأس بفرنسا فى ١٩٠٨، مع العلم بأن القدرة الشرائية للدراخمة كانت بطبيعة الحال أعظم كثيراً من القدرة الشرائية للفرنك. وكثيراً ما كانت المرأة من هؤلاء تنفق أكثر من مائة دراخمة فى ثوب واحد، كما كن يؤثرن الأنسجة الحريرية الشفافة الغالية الثمن ويتظاهرن بها، وكانت صحاف الفضة شائعة الاستعمال، كما أن الغرامات كانت تصل أحيانا إلى ألفى دراخمة. وثمة نقطة أخرى من اليسير تعقبها، هى زيادة معيار الجزاءات الموقعة كعقوبة على خرق أحكام لجان التحكيم، وكانت أعلى تلك العقوبات فى القرن الخامس هى خمسة تالنتات، ولكنا نعثر فى القرن الثانى على غرامة مقدارها ٢٠ (فى جزر سيكلاديس)، و٣٠ و٥٠ فى آسيا الصغرى و٦٠ (فى لوكريس). أما عن الأفراد فربما كان أغناهم ببلاد الإغريق لعهد ديموستنيز، وهو ديفيلوس الأثينى وكان يملك ١٦٠ تالنتا، على حين أن أغنى الرجال (حوالى ٢٠٠) وهو الإسكندر الإيسى Isian فى أيطوليا كان يملك ٢٠٠ تالنتوم. وإن قلنا كل ما يبرر قولنا إنه على حين لم ينهض الرخاء وينم

ببلاد الإغريق كما نما بآسيا، إلا أنها ظلت تستمتع بقدر معقول جداً من الرغد حتى عهد سلا .

وبغض النظر تماما عن نمو للمدن واتساع التجارة ، كانت آيات اليسار بآسيا والجزر كثيرة جارفة . وكانت أثينا تحصل من بيزنطة على جزية سنوية قدرها ١٥ تالنتا وتحصل عن كل مدينة من مدنها الكارية على مبلغ يتراوح بين تالنتوم واحد أو تالنتين، واضطرت بيزنطة أن تدفع للغاليين (حوالى عام ٢٠٠) مبلغ ثمانين تالنتا كل عام ، ثم حدث فى تاريخ تال أن كانت رودس تأخذ ١٢٠ تالنتا فى العام من ممتلكاتها الكارية ولاسيما كاونوس وإستراتونيقية. ومما ينطق بالقصة بأجلى بيان أن معدل صداق البنات بميكونوس يضاهى الصدقات بأثينا فى أثناء القرن الرابع ،وكذلك مقدار الاكتتابات التى تجمع فى كوس حوالى ٢٠٠ ، وأن معيار الغرامات بنادى إيبكتيتا فى ثيرا يماثل ما كان يجرى فى اثيناء ، وتلك العادة الجديدة التى نشأت فى أندية كوس وثيرا : من تكريم الأعضاء بتيجان من الذهب بدلاً من أوراق الشجر . ومهما تكن الاحداث السياسية بآسيا الصغرى ، فإن الرغد والثراء ظلا يتزايدان بها حتى عام (٨٨) ، بل لعلهما داما حتى الحروب الأهلية . ومن الطبيعى أن يجمع وزراء الملوك الثروات الطائلة ، ولـكن المواطنين الأفراد فى القرن الأول كانوا هم أيضا يصلون إلى ثراء عريض يفوق الحد ويجاوز أى ثراء عرفته قبل ذلك بلاد اليونان ، فإن شخصا اسمه هيرون من لاؤديكيا على نهر ليكوس كان يملك ما يربى على ألفى تالنتوم ، وجاء أوان كان فيه بيثودورس من تراللس وهو صديق بومبى يملك ثروة تزيد على أربعة آلاف تالنتوم بما فى ذلك مالديه من أراض . ولكن خير دليل على عظم يسار البلاد هو مقدار الثروة التى وجدتها روما بآسيا وانتهبتها . ففى عام (٦٣) اشترى ملتزم الضرائب فالكيديوس حق جباية ضرائب مدينة تراللس مقابل تسعمائة ألف سيسترسيس (حوالى ٣٩ تالنتوم) ، ثم عاد فعرض خمسين تالنتوم رشوة للحصول على هذا الحق سنة أخرى بنفس الرقم . أعنى أنه استطاع أن يحصل فى سنة واحدة على مائة تالنتوم من مدينة واحدة من الدرجة الثانية ـ وذلك فى حين أن ضريبة الأراضى بمقدونيا كلها لم تكن تنتج إلا مائتى تالنتوم سنويا . وهذا أفصح كثيراً فى

الترجمة عن الحال من الثروات الطائلة التى ابتزها من آسيا كل من بومبى وكراسوس . وفى (٨٦) أخذا مثريداتس من خيوس مبلغ ألفى تالنتوم. وفى (٧٠) فرض مجلس الشيوخ الرومانى على كريت دفع أربعة آلاف تالنتوم . وأخذ كاسيوس ٥٠٠ تالنتوم من رودس ، كما جمع من الأفراد بها ثمانية آلاف وتسعين تالنتوم أخرى وسلب سلا عام (٨٤) مبلغ عشرين ألف تالنتوم من ولاية آسيا ، وهى المسماة بمتأخرات الضرائب عن خمس سنوات ، وجمع بروتس مبلغ ستة عشر ألفاً كضريبة عن سنة واحدة ، وأخيراً طالب مارك أنطونيوس مقدماً بمائتى ألف بحجة أنها ضريبة السنوات التسع وهو مبلغ أعظم من الكنوز التى جمعها ملوك فارس من نصف القارة كلها فى مدى يتجاوز القرنين . ولا حاجة بنا إلى تفصيل القصة ، وبحسبك أن تعلم أن الأيام التى قيل فيها إن العالم الهللينستى قد أضرت به الفاقة قد ولت أو وجب أن تولى من بعيد .

وانعكست صورة هذا الثراء فى ملاهى الناس وأوجه مسراتهم ، ليس فقط من حيث تعدد الألعاب ، بل وأيضاً من حيث زيادة نفقات الحفلات ، خاصة وقد أصبح اللاعبون إذ ذاك من المحترفين . ولو سردنا على مسامعك قائمة الأعياد الهللينستية الجديدة جميعاً لملأت صفحة كاملة . فقد استنت المدن فى كل مكان عدداً عظيما منها بين وفاة الإسكندر وعام ١٨٩ ، بما حوت من ألعاب واضاحى تستدعى مايقابلها من نفقات ، على حين أن أعياداً سنوية خمسة كانت تقام فى تسبياى وكوس ودلفى وماجنيزيا وميليتوس حولت إلى ألعاب أى إلى احتفالات « متوجة » أعنى بالغة الذروة تقام كل أربع سنوات . وإلى جوار هذه الألعاب كانت تقوم مجموعة الاحتفالات التى استنها الملوك والتى لا نكاد نقل عنها عدداً ، وأعظم هذه الحفلات هو عيد البطلومايا بالإسكندرية ، وهو الاحتفال الوحيد الذى كانت جوائز الشرف فيه تعادل مراتب الشرف الأوليمبية ، وإن كان كثير منها يعد نظيراً للأعياد البيثية . وما لبثت عدة مدن حتى أنشأت فى القرن الثانى احتفالات تسمى بالروما يا تكريماً لروما ، نعرف منها الآن ثلاثة عشر احتفالا على الأقل ، أولها احتفال فى دلفى فى (١٨٩) . على حين أنه حدث حتى بعد (١٤٦) أن احتفال بتوئيا البؤثية (Boeotian Ptoia) أصبح يقام كل أربع سنوات ، وأنشأت تاناجرا احتفالاتها السيرابية . ثم جاء سلا ، ومن بعد ذلك لم تستن أية أعياد جديدة

حتى عهد سلام أغسطس . ومن الطبيعى أن اللاعبين والممثلين فى هذه الحفلات وهم الفنانون الديونيسيون قد زادت أهميتهم عند ذاك زيادة هائلة . ويرجع تاريخ أقدم جمعية لهم وهى الأثينية، إلى ما بعد عهد الإسكندر بقليل وحافظت لها الأحلاف الأمفكتيونية على امتيازاتها بعد ٢٧٩ بقليل. ثم تكونت بعد ذلك بقليل جمعية البرزخ وقد جعلت مركزها كورنثة وارتبطت بعلاقات خاصة بمدينة ثسبياى، حتى إذا وافى القرن الثانى كانت تضم تحت جنحها بلاد اليونان القديمة كلها عدا أثينا، وصارت لها فروع بمدن كثيرة. بيد أن تدمير كورنثة فى ١٤٦ كان ضربة قاصمة وحدثت بعد ذلك خلافات داخلية بين أقسامها، فانضم بعضهم إلى الجمعية الأثينية، ولذا لم تسترد جمعية البرزخ قوتها بعد ذلك أبداً . وتكونت بآسيا منذ وقت مبكر جمعية ثالثة اتخذت من تيوس مركزاً ومقراً لها، وما لبثت أن اندمجت مع ممثلى البلاط الملكى ببرجامة، التى تسمى جمعية «ديونيسوس الكاثيجيمونى»، وعندئذ صارت الهيئة كلها تعتمد على آل أتالوس . وكان الفنانون الدنيسيون يكادون يشكلون فى أيام ازدهارهم دولة مستقلة ترسل السفراء وتستقبل السفراء وأغدقت عليهم آيات التكريم والامتيازات، ومنحوا الحصانات من كل ضير فضلا عن ضمان الوصول بسلام إلى حيث يشاءون، وكان الملوك والمدن يمنحونهم العطايا والأرزاق، وخُول لأعضاء الجمعية الأثينية الحق فى ارتداء اللون الأرجوانى، وبلغوا من العز والكرامة بحيث يخيل إلينا أن تسلية الناس بالملهيات كانت خيراً بكثير من تولى الحكم والأمر والنهى فيهم .

وربما أمكن اتخاذ سعر الفائدة دليلا يبين بشكل ما مبلغ الثروة الأساسية بأحد الأقطار، ولكن ذلك ليس دليلا محققاً ببلاد اليونان ، وذلك لقلة مالدى القوم من الوسائل العصرية لتسهيل تداول رأس المال . فكانت المصارف الخاصة صغيرة عادة ، كما أن المصادر الرئيسية لرأس المال الذى يستطيع التجار أو الفلاحون أن يقترضوه كانت إما هبة يجرى الإقراض من رأس مالها بالأرباح للحصول على دخل سنوى توفى به أغراض الهبة ، وإما من الأرصدة المالية للمعبد. على أن الأرصدة السيالة لأى معبد كانت قليلة على وجه الجملة ، كما أن معبد ديلوس ظل قروناً عدة يقرض الناس بفائدة قدرها ١٠ ٪ بغض النظر عن التغيرات التى تلم بقيمة النقود . ومع ذلك فإننا سنقدم

إليك اتضاحاً بالفائدة وتطوراتها بقدر علمنا به. فلقد كان السعر فى المعتاد فى أثناء حكم الإسكندر هو ١٢ ٪. بغض النظر عن القروض البحرية الأعلى سعراً من ذلك كثيراً لما تتعرض له من أخطار. ثم هبط السعر حوالى ٣٠٠ إلى ١٠ ٪ وكان فى ذلك انعكاس لهبوط سعر الدراخمة الذى ترتب على تداول الكنوز الفارسية، وظلت فائدة العشرة فى المائة هى القدر المألوف طوال القرن الثالث، وإن وردت أيضاً فوائد قيمتها ٨ ½ ٪ (وإن كانت هذه الفائدة الأخيرة تنطوى بشكل واضح على عطف سياسى)؛ ثم نلتقى فى النصف الأول من القرن الثانى بكل من ٧، ٦ ⅔ وكلتاهما فى حالات الصفقات التجارية ومعاملاتها. حتى إذا انتصف القرن الثانى عاد السعر إلى الارتفاع ثانية إلى أن وصل فى عهد "سلا" إلى الاثنى عشر فى المائة القديمة. على أن الفائدة بعد "سلا" لا تدل إلا على جشع الرومان، وصد لوكولوس تيار الصعود بآسيا إلى حين بتثبيت سعر الفائدة وجعل ١٢ ٪ حداً أقصى له، ولكن الرومان كانوا يبتزون فى أثناء الحروب الأهلية أسعار فائدة خارقة لكل مألوف قد تبلغ ٤٨ ٪. ومهما يكن من شيء، فإن سعر الفائدة يدل على استمرار الرخاء حتى ١٤٦، وعلى توافر النقود وتداولها بكثرة ورخص قيمتها (بانقضاء الزمن). وعادت الدراخمة إلى الثبات مرة ثانية قبل عام ٢٠٠، وذلك لأن مستأجرى المزارع بتسيباى كان لهم فيما يظهر الخيار فى تجديد العقود بنفس الأسعار، على حين أنهم لم يكونوا يستطيعون تجديد إيجاراتهم فى ديلوس (حوالى ٣٠٠) إلا بزيادة قدرها ١٠ ٪. من قيمة الإيجار، ولكن ليس من المحقق أن الدراخمة عادت إلى قيمتها الأولى فى عهد الإسكندر حيث كان سعر القمح خمس دراخمات؛ وهناك من الدلائل ما يدل على أن القمح ظل حتى حوالى ١٠٠ بسعر يتجاوز قليلا الخمس دراخمات.

وحدث تطور من نوع ما فى أعمال المصارف، وإن وجب ألا نبالغ فى تقدير أعمال المصارف ببلاد اليونان أكثر من قدرها، وهى شيء لم يبلغ قط عندهم مبلغ أهميته عند الرومان. فإن المصارف الخاصة كانت — فضلا عن فك النقود — تأخذ الودائع المالية وتقدم القروض. فأما ما يسمونه بمصارف «الدولة» ببعض المدن اليونانية فلم يكن مجرد احتكار لفك النقود منح

التزامه لبعض الأفراد ، بل كان فى الحقيقة ملحقاً تابعاً لخزانة الدولة ؛ وكانت تتلقى إيراد الدولة وتصرفه وتقيد حسابات المدينة ، وربما قدمت المال اللازم للنفقات غير المنظورة مع استعاضته فيما بعد ، وبذلك كانت المصارف تنقذ المدينة من عناء الاستدانة من الخارج ، وهو أمر غالباً ما كانت المدن تضطر إليه لولا تلك المصارف .

ذلك أن معظم اقتراضات المدن التى نجد لها ذكراً فى التاريخ كانت مجرد تدبيرات تنظيمية ، لا شأن لها بالفقر كأى قرض يعقده مجلس بلدى الآن . وكان السبب فى ذلك بسيطاً جداً . وهو أن المدينة لم يكن لها ميزانية ، وكل ما فى الأمر أن مبالغ معينة تصل إلى الخزانة وتوجه نحو نفقات معينة ؛ فإذا بدرت نفقة غير منظورة مهما صغر قدرها ، كان معناها فرض ضريبة جديدة أو مساهمة جديدة من الأهالى لابد لجمعها من انقضاء قدر من الوقت ، لذا كانت المدينة تقترض المبلغ التماساً لليسر ثم تسدده على مهل. أجل إنه كان يحدث أحياناً شىء من المماطلة المتعمدة فى السداد ، ومع ذلك لم يكن لهذا الأمر أيضاً أية علاقة أو دلالة عليه . وربما أمكن عرض مثال لهذه الحالة . فقد كانت هناك أموال طائلة فى بؤوتيا حوالى (٢٢٠ — ٢٠٠) فيما يروى بوليبيوس . ولكن هيراقليدس يقول : إن تسديد الديون كان متعذراً أو يكاد ، وقد اقترضت مدينة أورخومينوس فى أثناء تلك الفترة مرتين ، وقد ماطلت المدينة فى تسديد دين نيكاريتا إلى أقصى حد ، بينما سدد قرض يوبولس بكامله قبل موعده المحدد وواضح أن الاعتبارات الباعثة على ذلك كانت شخصية أو سياسية وليست اقتصادية . وكانت مدينة ديلوس تفهم الاقتراض المنظم جيد الفهم ، كما كانت تتلقى الأموال بانتظام من أرصدة المعبد ، فتقترضها وتردها على الدوام . وغنى عن البيان أن كل مدينة كانت فقيرة من الناحية الرسمية ، وذلك لأنه ندر أن كانت لخزانة المدينة أية أموال احتياطية ، ولكن لم يكن معنى ذلك أن المواطنين كانوا فقراء — فليس من الضرورى أن يتسم خريجو كامبريدج بالفقر لأن الجامعة فقيرة . ومع ذلك فإن معناه الطبيعى أن تعجز المدن غالباً عن إقراض بعضها بعضاً إلا فيما ندر ، ولكن مواطنيها كانوا يستطيعون فعل ذلك ويقومون به فعلا عن طريق الاكتتاب باسم المدينة .

أما المدن فكانت في الواقع تعيش عيش الكفاف من اليد للفم . من أجل ذلك اضطرت إفيسوس في أحد الأيام إلى جمع المال لتسليح بعض أصدقائها ببيع اثني عشر صكا مواطنية على سبيل الهبة ، كما باعت تاسوس (حوالى ٢٨٥) أربع أو خمس مواطنيات بسعر مرتفع (٢٠٠٠ دراخمة للواحدة) ، واضطرت تريتايا في أثناء الحرب الاجتماعية أن تبيع بعض المواطنيات هي الأخرى لكي تجمع بعض الجند المرتزقة ، ومن الطبيعي أن هذه أشياء لاصلة لها ألبتة بالفقر إلا بقدر صلة الفقر بما فعله نادي ماريليبون للكريكت بانجلترة حين باع عضويته ابتغاء بناء المظلة الموجودة الآن . وربما فقدت إحدى المدن بطبيعة الحال ثقة الناس بها ، فإن أوروبس اضطرت يوماً إلى إغراء المقرضين بما وعدتهم من آيات التشريف المدني . كما أن الحرب ربما أفسدت النظام المالي بأعظم المدن ثروة ، فقد حدث في ٢٠١ أن أعمال فيليب الخامس الحربية في كاريا منعت ميليتوس من تحصيل إيراداتها ، حتى اضطرت إلى الاستدانة من مواطنيها لمواصلة النهوض بأعبائها ، مع التعهد بالسداد على أقساط سنوية مدى الحياة . على أن المدن التي كانت تتدهور على هذا النحو سرعان ما كانت تسترد نشاطها ككل نظام اقتصادي بسيط .

وكان أسوأ ما يتمخض عنه هذا النظام المالي غير الناضج هو صعوبة تنفيذ المنشآت والأشغال العامة . وكان من المحال تقريباً القيام بتنفيذ المشروعات التي تتطلب التعاون ، لا يستثنى من ذلك حتى إنشاء الطرق اللائقة ، ما لم يتزعم الملوك مثل تلك الحركة كما فعلوا عندما تعاون العالم لإعادة بناء طيبة (٣١٦) ورودس بعد أن دمرها زلزال ٢٢٥ ، بل إن أشغال المدينة نفسها وأعمالها كان من العسير القيام بها ما لم تكن للمدينة بعض الموارد الخاصة . فقد تمكنت إرتريا يوماً من تجفيف مستنقع بمنحها المقاول امتيازات جسيمة . على أن ديلوس استطاعت دفع نفقات مينائها الجديدة بما ربحته من التجارة الجديدة التي أتاحتها لها روما ، كما أن أسواق ميليتوس البديعة لم يكن في الإمكان القيام بها (ما لم يبنها السلوقيون لها) إلا لأن المدينة نفسها كانت تملك مصانع للصوف كأنها أحد الملوك (الفصل السابع) .

وليس معنى ذلك أن المدن لم تكن تفرض الضرائب على نفسها . ولكن

الواقع أن الإغريق كانوا ينفرون من الضرائب المباشرة ، فأما ضريبة العشرة فى المائة التقليدية من المحصول فكانت مأخوذة من آسيا . على أن الضرورة كانت تقضى عليهم أحياناً بالتغلب على نفورهم هذا : فإن أثينا كانت تجبى من زمن مديد ضريبة عقارية تسمى الأيسفورا (Eisphora) توقعها على المجموع الكلى لممتلكات الفرد من هؤلاء ، ولم تلبث بعض المدن وأخصها ميليتوس أن تبنت هذه الضريبة فى أثناء الفترة الهللينستية . أجل إنه حدث أن مدناً أخرى مثل كرانون وديلوس كانت تأخذ فعلا عشرة فى المائة من المحصول ، أو كانت مثل ديلوس وكوس تأخذ عشرة فى المائة من إيجارات المنازل . ولكن جرى العرف عادة بأن تجمع الأموال بطريقة غير مباشرة والضرائب غير المباشرة المعروفة لدينا الآن كثيرة العدد جداً . فمنها ضريبة قدرها ٢ ٪ على جميع الواردات والصادرات (الفصل الرابع) ، وضريبة رعى على عدد الحيوانات التى تربى ، ومنها رسوم الموانى والضرائب المفروضة على المناضد فى السوق وهما أمران شائعان ، وكانت كوس تفرض رسم تصدير خاص على النبيذ ، كما تجبى المكوس على الخبز والدقيق والخضر والسمك المملح وأشياء أخرى كثيرة . وقررت تيوس الضرائب فى القرن الثالث على ثيران الحرث وبغال حمل الخشب وقطع الأخشاب وعلى الغنم والخنازير والثياب المنسوجة من الصوف المليطى (ومعها الصوف الخام أيضاً فيما يحتمل) وصبغ الأقمشة باللون الأرجوانى وعلى الحدائق والنحل . وكان مثل هذا النوع من الضرائب يرجع فى بعض الحالات إلى اضطرار المدينة إلى جبايتها لتقدمها جزية لأحد الملوك، ولم تكن المدينة تحصل على الفائدة الكاملة من الضريبة . ولو فرض أنها حصلت عليها كاملة ، لما وجدت فى ذلك النظام البغيض لدى الناس وسيلة مناسبة لتمكين الدولة من التسلط على الممتلكات الخاصة اللهم إلا حيثما نفذ نظام الضريبة العقارية(١) (Eisphora) ، ومع ذلك فإن تلك الضريبة لا تخلو من عيوب ، لأن الناس فى ظلها كانوا يدفعون الضرائب بناء على إقرار بسيط منهم بمقدار ما لديهم من ثروة ، وكثيراً ما كانو يخفضون قيمتها فى إقراراتهم هذه .

---

(١) Eisphora هي ضريبة عقارية كانت تجبى فى أثينا فى الأوقات الاستثنائية لمواجهة مطالب الحرب . (المترجم)

وكان نظام الالتزام فى جباية الضرائب معروفاً لدى القوم ، ولكنه ظل شيئاً عديم الأهمية حتى وفد على البلاد ملتزم الضرائب الرومانى البغيض .

والآن وقد أوردنا لك صورة موجزة للرخاء بالعالم الإغريقى ، صار لزاما علينا أن ننتقل إلى نقيض ذلك : فنصور لك حال الرجل البسيط والطبقة العاملة ، ولم تكن الصناعة ببلاد الإغريق عامة فيما عدا بعض المدن الآسيوية مثل ميليتوس تتمشى مع التجارة بصورة منتظمة . ولذا فإن الرجل البسيط الذى كان يستخدم اثنى عشر عاملا لم يكن ليستطيع منافسة المصانع الكبرى التى يعمل بها الأرقاء بالإسكندرية ورجامة . أما من حيث الأعمال الزراعية فقد ظن بعضهم أن الهبوط الحق الذى ألم بإيجارات المزارع بديلوس بعد ٢٥٠ ليس له من معنى سوى أن الزراعة شرعت تضمحل ، ولكن الواقع أن معناه الوحيد هو أن الناس بديلوس وجدوا تجارة الترانسيت أجدى عليهم وأربح ، وذلك لأن رغبة الناس المتواصلة طوال القرنين الثالث والثانى فى الحصول على نصيب من الأرض أكبر شاهد على أن الزراعة لم تبرح محتفظة بمكانتها ، وإن أصبحت الأرض الزراعية فى كثير من الأقطار مثل لاكونيا وأيطوليا وتساليا مثقلة بالديون فى أثناء أزمان مختلفة . ومن الطبيعى أن تتحول المدن الكبرى إلى تكوين طبقة من البروليتارية ولكنها طبقة مستهلكين . وكانت الصناعات القليلة فى العالم الهللينستى صغيرة ومتناثرة ، ولم تكن هناك بروليتارية من المنتجين ذات وعى طبقى . ولكن لا يفوتنا أن ما بين أيدينا من شواهد الموضوع كله معيبة بدرجة محزنة ، اللهم إلا فى ناحية واحدة فقط . ونحن على بينة تامة من أحوال الرجل العامل بديلوس (حوالى ٣٠٠ - ٢٥٠) ، كما نعرف أننا حين نستطيع أن نتعقب فيما بعد حرفة خاصة كحفر النقوش لا نجد أن الأحوال تحسنت . ولما كان الناس يفدون على ديلوس من جزر أخرى وجب علينا أن نعتقد أن الأحوال كانت أسوأ فى تلك الجزر الأخرى وإن تمتعت بالرخاء .

وأفضى انخفاض قيمة العملة حوالى (٣٠٠) إلى ارتفاع فى الأسعار . فتضاعف سعر القمح ضعفين تقريباً وارتفع سعر الزيت ثلاثة أضعاف ونصفاً والنبيذ العادى ضعفين ونصفاً . بينما صار متوسط إيجار المنزل فى ديلوس مائة دراخمة فى القرن الثانى بعد أن كان أقل من ٢٠ دراخمة فى القرن الرابع ، وإن لعب الازدحام المحلى هنا دوره ، غير أن أسعار الأطعمة لم تكن فى ٢٥٠ بل ربما فى ٢٠٠ أيضاً قد عادت إلى مستواها فى عهد ديموستنيز . وفى مقابل ذلك انخفضت

الأجور فى ديلوس فعلا بالمقارنة إلى أجورهم بأثينا لعهد ديموستنير ، ولعل ذلك راجع إلى المنافسة الحادة بين العمال. وكان معدل عيش الكفاف أى نفقة المعدم والعبد مع تقدير أن سعر القمح هو خمس دراخمات للبوشل ــ هو ٢ أوبول فى اليوم على مدار السنة للرجل الواحد، ودراخمة واحدة (أى ستة أوبولات) للعائلة الواحدة، أما فى ديلوس فلم يكن الصانع الماهر بها يستطيع أن يحصل فى أحسن الأحوال على أكثر من أربعة أوبولات فى اليوم على مدار السنة ، بينما لم يكن الصانع غير الماهر ليستطيع الحصول إلا على أوبولين اثنين ، بل أقل من ذلك أحياناً حتى فى الأوقات التى قد يرتفع فيها القمح إلى أى سعر ولو عشر دراخمات . ، ومعنى هذا أن العامل الحر غير الماهر الذى كان فى الإمكان إحلال الأرقاء محله ، لم يكن يستطيع أن يحصل على معدل أجر أكثر من العبد ، بل كان أحيانا ينزل عن مستوى أجره . والنتيجة الطبيعية لهذه الحال بالمقارنة إلى ماعليه الحال فى القرن الرابع ، هى أن الثغرة الفاصلة بين الغنى والفقير أخذت تزداد اتساعا . وكانت تلك أسوأ ظواهر العصر الهللينستى وأكثرها وبالا . وبديهى أن آثار ذلك فى موضوع السكان واضحة للعيان : فكانت تربية الأطفال من أشق الأمور على الفقير . ولم يكن شيئاً ذا بال أن تحتوى السنة على عدد جم من أيام العطلات (الاحتفالات) التى لا يعمل فيها العمال ، ومع ذلك فلابد أن يتناول الناس طعامهم أيام الآحاد. وربما فسرت هذه الأجور السبب الذى من أجله لجأت المدن إلى توزيع القمح بالمجان على السكان (الذين صاروا عندئذ يعدون معدمين) .

ومن الطبيعى أن تنشأ بالبلاد حالة من عدم الاستقرار الاجتماعى . فلم تكن هناك منظمات للعمال ، كما أن الإضراب فى مجتمع به الأرقاء كان ضربا من المحال . (ولا يدخل فى هذا إضرابات مصر ــ الفصل الخامس) . وحدث مرة أن خبازى باروس تجمهروا فى الطرقات لحجز أجورهم عنهم ــ وهو حادث يظهر أنه لم يكن شيئاً نادراً . وسارع مراقب الأسواق إلى التدخل ، حتى دفعت لهم أجورهم وعادوا إلى أعمالهم . ولم يسجل لنا التاريخ أى إضراب آخر حتى حدثت الإضرابات الآسيوية فى عهد الرومان فى القرن الثانى الميلادى ، يوم أخذت نقابات العمال تتكون ، يحدث أول إضراب ورد ذكره فى

السجلات مطالباً بتحسين الأحوال إلا فى القرن الخامس الميلادى . وذلك لأن الوسيلة الوحيدة المألوفة لتحسين الاحوال إذا بلغت الأمور درجة لا تطاق ، هو القيام بفتنة أو ثورة .

وكان القرن الرابع حافلا تماماً بالخوف من قيام الثورات الاجتماعية ـ وذلك هو أحد الاسباب التى دعت الموسرين أن يشخصوا بأبصارهم إلى مقدونيا لتكون نصيراً للنظام القائم إذ ذاك . فإن المعاهدات التى عقدت بين الإسكندر ومدن حلف كورنثة نصت أن على مقدونيا ومدن الحلف أن تقمع بأية مدينة من مدن الحلف كل حركة ترمى إلى إلغاء الديون أو تقسيم الأراضى أو مصادرة الأملاك الخاصة أو تحرير الأرقاء بقصد مساعدة الثورة . وكان دستور حلف ديمتريوس المجدد فى (٣٠٣) يحتوى على نصوص مماثلة لهذا . فكأن كل ثورة كان لها بذلك برنامج عام تحت نقاط أربع . فكان الفقراء يشتهون الأرض ، ولـكن القوة المحركة لجميع صغار الشأن من الرجال هى الديون ، وربما تصبرت المجتمعات البسيطة على شظف العيش ، ولكنها تكره الدائن على الدوام . وإن حسابات معبد ديلوس التى تشهد بوجود قروض كثيرة صغيرة جداً وديون فادحة ، لتلقى شيئا من الضياء على مسألة الديون .

وأدلت الفلسفة بسهمها فى الموضوع من زاوية أخرى مخالفة تماماً ، ذلك بأن إصرار الرواقيين على المساواة والإخاء تغلغل فى قرارة الأنفس ، وألهم الناس أحلاماً تصور أشياء أجمل كثيراً من النظام الذى يظللهم . وأخذ بعضهم يفر من الحضارة بأن يعمد إلى رسم صور خيالية تمثل همجاً (برابرة) يعيشون على سن الفطرة الأولى ويستمسكون بأهداب الفضيلة ، وهذه هى الطرز الأولى التى سبقت تاكيتوس فى مؤلفه « جرمانيا » كما أن كتب الطوبى « اليوتوبيا Utopias » أخذت منذ ذلك الحين فى الظهور . أجل إن أفلاطون وأرسطوطاليس قد صورا ـ لا جرم ـ دولا مثالية ، ولكنها ليست دولا ذات غناء كبير للرجال الواقعيين فى هذه الدنيا ، وفضلا عن ذلك كانت الطوبى الأولى التى أنشأها زينون أنخر وأبعد من أن تصل إلى فهمها عقول البشر (الفصل الثانى) . على أن يوهيميروس (حوالى ٣٠٠) وأيامبولوس (القرن الثالث) أنشا يوتوبيات عصرية حقة، وتصورا موضعها جزائر بالمحيط الهندى.

وتتجلى الشيوعية مكتملة النمو فى كتاب أيامبولوس « دولة الشمس » (Sun - state) الحافل بالعظمة . فالناس فيه أكفاء فى كل شىء حتى الحكمة . وهم يعيشون فى صورة هيئات أو «نظم» اجتماعية يعمل كل فرد فيها بالتساوى ويشتركون فى الثمرات بالتساوى . وقد نجا القوم من الخضوع والعبودية لوسائل الإنتاج ، وذلك لأن بالجزيرة لحسن الحظ محاصيل ـ تنتجها هى بنفسها ـ بصورة جزئية على مدار السنة . وكل فرد قادر يقوم بدوره بأى عمل ابتداء من عمل الخادم إلى الحاكم ، ويكون حاكم كل « هيئة فى هذا النظام » أكبر أفراده سناً ، ولا بد له من أن يموت حين يبلغ سناً معينة (هذا إجراء منقول عن أحد التقاليد المرعية فى كيوس) . من هنا لا يكون هناك متسع للثراء ولا المطامع ولا التعلم ـ وهى كلها أعداء المساواة . ولا مكان لحرب الطبقات، إذ ليس هنا طبقات . لقد كان الناس يحبون الوفاق واتحاد القلوب Homonoia وتسود بينهم المحبة ، فإن ما كان يهدف إليه أيامبولوس وزملاؤه هو إلغاء حرب الطبقات تلك التى شهد فظائعها كثير من اليونان . والحق أنه حتى بينما كان الفلاسفة الثوريون والحكومات المحافظة يكرمون جميعاً «الوفاق» الربة ، فإن الواقع أن كثيراً من العمليين من القانتين المخلصين لعبادة هذه الربة كانوا على أتم استعداد لسفك دماء إخوانهم بآسيا .

وأول ما يسجله التاريخ فى القرن الثالث من الثورات ـــ (فوق ماعساه أن يكون تمرداً قام به الرقيق فى خيوس) هو فتنة قامت بها البروليتارية بمدينة كساندرية (٢٧٩) ، بقيادة رجل اسمه أبولودورس جعل نفسه طاغية على المدينة وأخذ ينزل بالأثرياء العذاب ومنح شطرا من ممتلكاتهم لأتباعه . وقد أظهر تصرفه هذا سهولة القيام بمثل هذا العمل اعتمادا على قوة من المرتزقة، وعاش قويا منيع الجانب حتى قضى عليه أنتيجونس جوناتاس . وعقبت ذلك اضطرابات أربعة بالجزر ، لا شك أن أحدها شب بين الأغنياء والفقراء، وتمكن الملوك من تسويته دون نشوب ثورة علنية . على أن الثورتين العظيمتين فى القرن الثالث هما اللتان شبتا بإسبرطة لسوء الأحوال بها ، حيث احتكرت قلة من الناس جميع ما تملك المدينة من أرض . وحاول الملك آجيس الرابع (وقد تولى سنة ٢٤٤) إلغاء الديون وتوزيع الأرض بين الناس بطرق الإصلاح

السلمية ولكنه لم يوفق فى مسعاه ، غير أن خلفه القوى كليومينيس الثالث تمكن بمساعدة الفيلسوف الراقى سفايرُس تلميذ زينون من تنفيذ الإصلاح بالقوة ، فألغى الديون وأمم الأرض ، التى قسمها إلى أربعة آلاف نصيب جعلها للإسبرطيين (Spartietes) وخمسة عشر ألفا لطبقة الموالى (البريوئيكى (Perio ici) ومالئاً الفراغ الموجود فى طبقة الإسبرطيين بأفراد من طبقة الموالى والأجانب المقيمين Meties . ولم يمس أحد من هذين الملكين مسألة الرقيق الهلوطيين (Helots) بغض النظر من قريب أو بعيد لاعتقادهما الجازم بأنهما كانا يعيدان إلى الوجود إسبرطة القديمة لعهد لكورغوس، وهو موقف بعيد كل البعد عن نزعتها الثورية . أما بلاد اليونان فكانت تعتقد أن كليومينيس كان ينفذ برنامج الثورة ، ومن ثم كان الفقراء فى كل مدينة فى صفه فى أثناء الحرب التى نشبت بعد ذلك بينه وبين الحلف الآخى . وحدث فى إحدى المدن وهى كينايثا ، أن بلغت الثورة مداها وقسمت الأرض ، فلو أنه تخلى عن أطماعه العسكرية التى كان يهدف من ورائها إلى تولى الزعامة فى البيلوبونيز لأمكنه أن يحول ما أحدثه من إصلاح بإسبرطة إلى نجاح مستديم ، على أن حكام الحلف الموسرين تملكهم اليأس الأعمى فاستغاثوا بمقدونيا ، وعندئذ استولى أنتيجونس دوسون على إسبرطة فى (٢٢٢) وأعاد كل قديم فى المدينة إلى نصابه . وما لبثت الثورة أن اندلعت من جديد فى إسبرطة (٢٠٧) بقيادة نابس (الفصل الأول) ، ونفذ هذا الأخير نقاط برامج الثورة الأربعة بحذافيرها ، فحرر كثيراً من الهلوطيين ، وإن لم يعالج قط مسألة الهلوطية معالجة جذرية . وقد كانت كل ثورة إغريقية فيما عدا ثورة برجامة تنطوى على ظل من البعد عن الحقيقة والواقع وذلك لعدم اشتراك الرقيق فيها مطلقا . ونهب نابس الأثرياء ، ولكن ذلك كان فيما ادّعى — من أجل الدولة وحدها ، وربما كانت الدولة آنئذ تدفع للعامة ثمن وجبات طعامهم (وهو أمر لم يكن منه بدّ لو حرر كثير من الهلوطيين) ، وهناك من الدلائل ما ينبئ بأن نابس لم يكن بالقسوة التى صوره عليها أعداؤه . حتى إذا تمت لروما الغلبة على مقدونيا إذا هى تتدخل بدلا من مقدونيا وتقص أجنحة نابس ، ومع أنها لم تتدخل فى ثورة إسبرطه نفسها،

إلا أن الأغنياء الإغريق شرعوا منذ ذلك فى الترحيب بها باعتبارها نصيراً لهم .

وحدث فى قريب من (٢٠٠) خلافات بين الدائنين والمدينين فى الحلف الأيطولى ، فإن أسكوباس القائد المنتصر حاول إلغاء الديون ، ولكن معارضة الأغنياء حطمت جهوده ، وذهب إلى المنفى فى مصر ، ولكن المشكلة دامت بعد ذلك سنوات عدة . وقامت فى تساليا أيضاً مشكلة مزمنة كما قامت أخرى فى بؤوتيا فى الربع الأخير من القرن الثالث وبعده بقليل ، وراح يومينيس الثانى يتهم « برسيوس » أمام مجلس الشيوخ بأنه عقد النية على استخدام المدينين التساليين فى قتل أصدقاء روما الأثرياء — وكان النص الواقعى للاتهام هو : ممالأة الثورة الاجتماعية — وهو موقف جديد لا جرم لم يتخذه ملك مقدونى من قبل . على أنا لم نسمع بقيام أية ثورة كبرى بين (٢٠٠ ، ١٣٢) ، وذلك إما لقلة ما بين أيدينا من معلومات ، وإما لأن العلاقة بين الاسعار والأجور أمست خيراً مما كانت . أجل إنه حدث على التحقيق فى ١٤٦ فى أثناء الكفاح الأخير مع روما ، أن الحلف الآخى أصدر قرارا بتأجيل الدفع (موراتوريوم) وبتحرير اثنى عشر ألف عبد وتسليحهم (وإن دل عدد الرجال الذين ساقهم الحلف إلى الميدان وهو ١٤٫٧٠٠ ، على أن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ) ، ولكن أين ذلك من إشعال نيران ثورة ؟ وإن صح فيما يظن أن تعد من الثورات فتنة المدينين فى ديمى بعد الفتح الرومانى ، يوم أحرقت دار سجلات المدينة . ومع ذلك فإن ميتريداتيس حاول بالفعل فيما بعد أن يستخدم الثورة الاجتماعية سلاحا ضد روما ، على حين أن مدينة إفيسوس استخدمت فى مناهضته ذلك السلاح نفسه . وكان لما حدث من تمرد كبير بين العبيد بصقلية أثره فى المنطقة الإيجية ، فقد ثار الرقيق على ديلوس (١٣٠) ، ولكن ثورتهم قمعت ، وتمردوا أيضاً فى مناجم مقدونيا وشغبوا كذلك فى لوريوم واستولوا على صنيوم ، وظلوا ينهبون ويخربون فى أتيكا ردحا من الزمن ، ويظهر أنهم ثاروا أيضاً ببرجامة . وقد ذهب الأستاذ كارستد إلى أنه ظهر ضرب من الدولية الشيوعية الحمراء حوالى عام (١٣٠ — ٦٣) ، وأن بُسلا وبمبي أنقذا العالم من البلشفية ، ولكن البلشفية نظرية اجتماعية

واقتصادية ذات أصول دقيقة جداً . ولا شك أن فتن هؤلاء الأرقاء لم تكن فيما أعتقد — سوى الثمرة العمياء للتعاسات التى يقاسيها الرقيق المحشودون فى المناجم أو المصانع الملكية أو يكابدون منها بالمزارع الكبرى فى إيطاليا . لقد ثار الرقيق التماساً للحرية ، وهب المدينون طلباً للأملاك . أما ميثريداتيس ، فما كان ليتردد فى شىء يصب به جام انتقامه على روما . ولم تكن بين تلك الحركات جميعاً ، عدا حركات إسبرطة ، إلا حركة واحدة يمكن القول بأنها تقوم على نظرية من النظريات أو يمكن إطلاق اسم الاشتراكية عليها وهى حركة برجامة. وربما كانت حركات برجامة الثورية — لو أننا نملك القدر الكافى من تفاصيلها — أكثر إمتاعا من فتن إسبرطة، وذلك لما ظهر فيها لأول مرة من فكرة بناءة جديدة . فعندما رفع أرستونيكوس فى (١٢٣) راية العصيان على روما (الفصل الأول) ربط حظه بثورة الرقيق وانضم إليه الرواقى بلوصيوس من كوماى، وهو الصديق الصريح لتيبريوس جراكوس، الذى قام هنا بالدور الذى قام به إسفايرس بإسبرطة ، وارتأى الاثنان إقامة ضريب يماثل فى الأرض « دولة الشمس » التى تصورها أيامبولس. وبلغ من قوة تأثير ذلك فى أتباعهما المختلطين : ما بين مرتزقة آسيويين ومتطوعة من المدن وأهل مرتفعات من ميسيا Misia وزجال وعبيد مفلسين — أنهم قضوا على قنصل رومانى وحطموا جيشه. وهذا أمر لم يقو أحد من اليونان على فعله حتى مقدونيا نفسها . لقد كان ما حدث والحق يقال حلما عظيما . على أن روما ما لبثت حتى قضت فى النهاية على أرستونيكوس ومزقت الحلم الجميل الذى داعبه بإقامة « دولة للشمس »، ذلك أنه فى قبضة الحكم الرومانى لم يعد ثمة مجال لأحلام .

الفصل الرابع

آسـيا

تتركز أهمية تاريخ السلوقيين فيما بذله أوائل ملوك تلك الأسرة من جهود لتعمير معظم آسيا الغربية بالمدن والمستوطنات الإغريقية : وهى من أعظم أعمال العالم العتيق وأدعاها للدهشة . وقد ظلت مادة ذلك التاريخ أمدا طويلا بتراء ناقصة بل متناقضة متضاربة فى الغالب ، ومع أن أعمال البحث والتنقيب قد ساعدتنا إلى حد ما ، إلا أن الكتلة الكبرى للأبحاث الحديثة — بغض النظر عن المدن اليونانية القديمة بآسيا الصغرى — قد ألقت ضياء كاشفاً على العهد البارثى المتأخر ونظيره الرومانى ، بدلا من العهدين البنائين لسلوقوس وابنه ، وسندلى إليك بخلاصة موجزة لهذه الأبحاث الحديثة مسقطين منها فلسطين . فقد استطاعت البعثة الفرنسية بعد حوالى ثلث قرن من البحث والتنقيب بمدينة سوس (Susa) العيلامية القديمة أن تعثر على ذخيرة ذاع صيتها الآن حاوية للنقوش الإغريقية ولا تتناسب قيمتها العظيمة بالنسبة للمؤرخ مع حجمها بأية حال . وقد كشفت بعثة أمريكية اللثام عن مجموعة ضخمة من المنازل فى سلوقيا وحصلت على أشياء صغيرة كثيرة لها قيمة تاريخية — منها العملة والأختام (Bullae) والتماثيل الطينية . وجمعت حفائر أوروك (Uruk) طائفة جمة من الأختام، وأظهرت مدى عناية السلوقيين بمعابد الأهالى وعقيدتهم. على حين عاونتنا الوثائق البابلية على تعرف ما كان لديهم من طرق التأريخ والتجارة والاقتصاد بوجه عام . وتحاول بعثة فرنسية فى هذه الأيام أن تحدد موضع مدينة باكترا فى وادى بلخ الفسيح المقفر الذى كان فى يوم من الأيام جنة من جنات الأرض ؛ وقد وجدت على قطعة من الشقافة أول نقوش يونانية من باكترا ، وهى الحروف (Atpos) . وتمت أعمال البحث والتنقيب فى دورايوريوس على نهر الفرات بدقة وتقص ليس بعدها غاية ، حيث عمل بها العلماء الفرنسيون أولا ثم الأمريكيون ، حتى توصلوا إلى صورة

مدهشة لها في أيامها المتأخرة ، ولكنها لم تضف إلا القليل إلى ما نعرفه عن مدينة هللينستية في ذروة ازدهارها ، وذلك فضلا عن قانون حق الإرث والملكية (في الأرض) (الفصل الرابع فيما يلي) وبعض تفصيلات عن المباني . ولكن لا يفوتنا أن ننوه بأن دقة التنقيب ربما كانت هي السبب الذي يجعل المكان يبدو أهم كثيراً مما هو في الحقيقة : فأما النتائج التي أمكن الحصول عليها في أنطاكية فترجع إلى العهود الرومانية .

وقد ألمت برقعة المملكة السلوقية ذاتها تقلبات كبيرة . فإن سلوقوس الذي صار حاكما لبابل منذ ٣١٢ ، غزا الشرق وفقد بلاد الهند قبل ٣٠٣ ، ولكنه استولى على شمال سورية وأرض الجزيرة في ٣٠١ ،وعلى قيليقية في ٢٩٦ وعلى آسيا الصغرى كلها فيما عدا الممالك الوطنية وبضعة مدن معينة في ٢٨١ ، وبذلك توطد لابنه وحفيده ملك عريض على إمبراطورية تمتد من إيجة والبحر المتوسط إلى التركستان وأفغانستان . ولكن الذي حدث بين ٢٥٠، ٢٧٧ في أثناء قيام المملكتين الإغريقية الباكترية (والبارثية) وتأسيسهما بالتدريج ، هو أن الدولة السلوقية فقدت كل شيء شرقي ولايات ميديا وسوسيانا وپرسيس وكرمانيا . على أن أنطيوخوس الثالث مالبث في ١٩٨ ق م أن استولى من مصر على بقية سوريا . ولكن هزيمته أمام الرومان أفقدته في ١٨٩ آسيا الصغرى ماعدا قيليقية . غير أن السلوقيين كانوا لا يزالون يحكمون إمبراطورية عظيمة حتى تمخضت وفاة أنطيوخوس سيديتس (Sidetes) في ١٢٩ عن ضياع بلاد بابل ومملكة يهوذا (uJdaea) من يد الدولة نهائياً وأنزلتهم إلى مرتبة أسرة حاكمة محلية بشمالي سوريا . ومن سوء الحظ أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن سوريا الشمالية ، الموطن الأصلي الحقيقي لتلك الأسرة ، ولا بد من استقاء القدر الكبير من معلوماتنا عن الشطر الغربي منها ، من آسيا الصغرى ومصادرها .

وكانت الإمبراطورية السلوقية تمتلك ثلاثة مراكز حيوية منفصلة : أيونيا وقصبتها سارديس وسوريا الشمالية ثم دولة (بابل) ؛ فأما ماعدا ذلك فممتلكات من الدرجة الثانية من الأهمية ، ولئن كانت أنطاكية قصبة سوريا الشمالية ، في أحسن موضع يوصل منه إلى المركزين الآخرين ، فإن مدينة سلوقيا الواقعة

على الدجلة كانت أيضاً عاصمة لا تقل عنها كثيراً فى الأهمية . وقد مرت على أرض آسيا الغربية موجات كثيرة من الغزاة ، وتركت كل منها رواسب وبقايا وراءها . وكانت تقوم إلى جوار ثقافات بابل وفارس أجناس أخرى تتصف بالهمجية البدائية ، وذلك على حين كان الساحل فى يد المدن اليونانية بآسيا الصغرى والمدن التجارية الكبرى بفينيقيا . وفرضت فارس على البلاد ضرباً من شبه الوحدة إلى حد ما ، وذلك فى خارج نطاق المدن الإغريقية ، كما أن النظام الإدارى السلوقى استؤصلت شأفته من بعض النواحى فى المنطقة الأكمينيَّة ، كما استؤصلت شأفته من المنطقة الآشورية من قبل . ولذا كان هناك ضرب من تتابع الحوادث والاستمرار التاريخى ، وإن تغير على المسرح كل من الحكم والثقافة المتسلطة . ومن مظاهر الحكم السلوقى بعث بلاد بابل ونهضتها على يديه ، وكانت ثقافة بابل للسلوقيين أشبه بالثقافة المصرية بالنسبة للبطالمة على حد سواء ، فابتعث الأدب المسمارى وذلك كله فضلا عن تدوين الجهود العلمية فى الفلك (الفصل التاسع) ووثائق الأعمال التجارية ، وسطرت المدونات التاريخية المسجلة للأحداث الجارية ، كما كتبت بالشعر رطازات (Myths)(١) القوم وأساطيرهم، ومن بين الأساطير الشعرية ما يعنى بقصة الرب بعل مردوك منذ نهاية ملحمة الخليقة . وكثيراً ما كانت شعائر الطقوس والترانيم ومدونات الفأل والطيرة وبخاصة هذه الأخيرة ، تُنسخ وتدرس ، شأن تراتيل سومر وترجماتها البابلية . وقد عُثر على كثير من التعليقات ومدونات التهجى مع وجود صورة جديدة للأخيرة ، الظاهر أنها كانت مما يستخدمه اليونان ، ويرجع تاريخ آخر وثيقة مسمارية باقية حتى اليوم إلى عام ٧ ق. م. ويشير هذا النشاط إلى نهضة دينية تعهدها الملوك الأولون بالرعاية ؛ وتقـفـ أنطيوخوس الأول تماماً مشروع الإسكندر بتجديد بناء «الإزاجيل» وهو معبد « بعل » فى بابل الذى كان إجزرسيس قد دمره ، كما أعاد بناء معبد نيبو Nebo فى بورسيا ، على حين أهدى إليه بيروسّوس كاهن بعل ، مؤلفه فى التاريخ البابلى . وفى عهد سلوقوس عثر أحد كهان أوروك — ولعل ذلك كان تلبية لطلب الملك — بمدينة سوس على الشعائر القديمة لآلهة أوروك وانتسخ منها نسخاً عديدة. ثم أعيدت عبادة تلك الأرباب سيرتها الأولى وأعيد بناء معبد « أنو » فى أروك عام ١١٠ بحسب التقويم السلوقى أى (٢٠١) ، فى عهد

(١) الرطازة (Myth) قصة عن الآلهة أو الأبطال ، تفسر إحدى الحقائق أو الظواهر. والأسطور (Legend) قصة تقليدية غير حقيقية ولا تاريخية . [المترجم]

أنطيوخوس الثالث ، وفوق هذا بنى السلوقيون مبانى كثيرة بتلك المدينة أو شجعوا الناس على فعل ذلك . وجمع كهان أوروك كذلك مكتبة لمعبدهم . وقد أظهرنى المستر سيدنى سمث على أن السلوقيين كانوا يناصرون الدين البابلى كحصن يصد غائلة الزرادشتية عقيدة القومية الفارسية ، والواقع الذى لاريب فيه أن نقطة الضعف الرئيسية التى قطعت أوصال الإمبراطورية هى أنه فاتها أن تحصل على تعاون العنصر الإيرانى ، الذى كان الإسكندر يدرك أن تعاونه شىء حيوى . حتى إذا وافى انتفاض الشرق على الدولة كان من ناحيته تمردا من الريف وعقيدته موجهة ضد سكان الحضر من اليونانيين والبابليين .

وكان السلوقيون أنفسهم كالأكينين يرون أن إمبراطوريتهم تحتوى على العناصر الأربعة وهى الملوك التابعون والأسر الحاكمة والشعوب والمدن، وسندلى إليك الآن فى إيجاز بنظرة عجلى على تلك الإمبراطورية وهى فى أعظم مابلغته من اتساع مع غض النظر عن شرقيها الأقصى . كانت الساترابيات السلوقية بآسيا الصغرى وهى التى كان يحكمها القواد بالشكل المألوف هى : فريجيا على الهلسبونت وفريجيا وليديا وكاريا وقيليقية وكبادوكيا الجنوبية وهى (كبادوكيا السلوقية) ومعها كاتاؤنيا ، أما ليقيا فكانت تابعة لمصر ، كما أن سواحل أيونيا الجنوبية وكاريا ويامفيليا وقيليقية الغربية قد استولت مصر عليهن جميعاً قبل ٢٧٢ . وكانت قبضة مصر على تلك البلاد فى تأرجح وتذبذب، على حين لم تتمكن قبضة السلوقيين تماماً من خط السواحل حتى عام ١٩٧ . وكانت تحجب الإمبراطورية حجباً تاماً عن البحر الأسود دول ثلاث : هى مملكة بنطش الوطنية أو كبادوكيا الشمالية (وتضم قدراً كبيراً من بفلاجونيا) وبيثينيا ، وبينهما مدينة هرقلية الإغريقية القوية ، التى كانت منطقتها تضم بلدانا أخرى كثيرة هى تيوس وكيريوس وأماستريس . وكانت كل من بيثينيا وبنطش تخترق فريجيا الشمالية ، وما لبثتا بعد ٢٧٥ بقليل حتى وطنتا حلفاءهما من الغاليين المغيرين فى ذلك الإقليم (غلاطية) ، وماعتمت كادوكيا الجنوبية حتى جعلت من نفسها فى أواخر القرن مملكة وطنية تحت حكم «أرياراثيس».ومنذ ٢٦١ شرع أمراء الأسر البرجامية فى اقتطاع إمارة صغيرة فى أيوليس . ولم يتمكن أحد من إخضاع بيسيديا — وهى أرض الهضبة فى جبال طوروس ، وكانت تحكمها أسر صغيرة الشأن ، على أن مدينة سلجى شبه اليونانية كانت من

القوة بحيث قاومت كل محاولة بذلها السلوقيون أو غيرهم المساس باستقلالها. حتى إذا تقدم القرن وجدت أن أسرا مالكة قد وطدت أقدامها خارج بيسيديا شأن أسرة أو لمبيخوس بكاريا ويت ليسياس المقدونى حول فيلوميليوم بفريجيا، ثم أسرة مواجيتس الوطنية (منذ ١٨٩) بمدينة كيبورا الآهلة بالسكان. والمناطق الوحيدة التى كان للسلوقيين بها قدم موطدة باسيا الصغرى هى فريجيا على الهلسبونت وليديا وكاريا الداخلية وفريجيا الجنوبية وقيليقية الشرقية والطريق الملكى، وهو السكة العامة الكبرى الموصلة بين ساردیس وأنطاكية. حتى إذا توفى سلوقوس لم يعودوا قط إلى الضغط بسلطانهم على الأسرة الحاكمة الوطنية الصغرى، نظراً لما كانوا يرمون إليه من إيجاد العلاقات الطيبة عن طريق المعاهدات والمصاهرات. وفضلا عن الغالة، فإن عدوهم الدائم اللدود الأوحد كان برجامة. فأما فى سوريا فكان لهم السيادة بصفة عامة على البلاد شمالى لبنان، بما فى ذلك أرادوس ببلاد فينيقيا ثم دمشق من حين إلى حين. على أن الحدود بين ممتلكات السلوقيين والبطالمة بسوريا ظلت غير ثابتة. والراجح أن الولاية الوحيدة التى بقيت تابعة لهم بصفة دائمة شمالى سوريا وأرض الجزيرة كانت كوماجينى، وإن كان بعض حكام أرمينية يدفعون الجزية بين حين وآخر.

وعمل السلوقيون بسنة الإسكندر فاحتفظوا بالساترابيات الفارسية الكبيرة مع إضافة حرفى الياء والالف (ai) فى آخر كل كلمة، ولكنهم كانوا يقسمون البلاد وراء الفرات إلى أقسام ثلاثة هى الساترابية الإيبارخية والهيبارخية (القسم أو الدسكرة) التى تقابل تقسيم مصر الثلاثى إلى نوم (الإقليم) وتوبوس (المركز) وقرية، ولكن لما كانت إمبراطوريتهم أوسع من مصر سعة هائلة، ولما كانت الهيبارخية ربما انطوت على جسيم من القرى، فإن تنظيمها كان بحكم الضرورة مفككا أكثر منه عند البطالمة (وتقسيم بعض الهيبارخيات إلى استاثمات الذى أخذ عن إيزيدور الخاراكسى، يرجع إلى البارثيين). وربما كان لهذا التقسيم الثلاثى بالبلدين مصدر واحد مشترك، فإن كان الحال كذلك فان حقيقته مجهولة على حال، ذلك أن الإيبارخية قد تكون شيئاً قديماً أو شيئا استحدثه السلوقيون على حد سواء. وكان الاسم الشائع للإيبارخية ينتهى

بحروف (éné) وإن أمكن أحياناً أن ينتهى بحروف (iané) أو (ia) أو (itis) . ويرجع الفضل فى تميزنا للإيبارخية إلى مجموعة الأسماء المنتهية فى آسيا بحروف (éné) ثم ما لبثت أن صارت أهم الأقسام السلوقية الصغرى . وعندما أخذت الإمبراطورية تتفكك إذا بالدول التى خلفتها تحوّل بزعامة البكتيريين الإغريق (Graeco - Bactrians) والبارثيين جميع إيبارخياتها إلى ساترابيات ، أى أقسام أولية كبرى . ولما كانت كل إيبارخية سلوقية محتفظة بنظامها الخاص ، ولها حاكم (يتبع قائد الساترابية) وله موظفوه ومقره الرسمى ويطلق عليه (Basileion) ، فإن بعض حكام الإيبارخيات مثل هيسباؤسينيس الميسينى ، استطاعوا أن يحولوا إيبارخياتهم بأنفسهم إلى ممالك مستقلة مع إنشاء أقسام صغرى جديدة ينتهى أسماؤها بالحروف الآتية (éné) . حتى إذا وافى القرن الأول إذا بأراضى آسيا فيما وراء الفرات وهى التى كانت تابعة للسلوقيين ، قد أصبحت مزيجاً مخلطاً من أسماء تنتهى بحروف (éné) ، وقد صار معظمها إذ ذاك أقساماً أولية كبرى ، وأصبحت لفظة إيبارخيا هى الترجمة العادية المقابلة للفظة (provincia) اللاتينية بمعنى الولاية . وكثيراً ما اختلط الأمر على رجال الأدب فلم يفرقوا بين الإيبارخيات والساترابيات السلوقية القديمة ، وذلك لأن الأقسام التى تنتهى أسماؤها بحروف (éné) كانت فى أيامهم هم ساترابيات ، إذ لا شك أن ما يذكره أبيان مثلا من ساترابيات سلوقية عددها ٧٢ لا يعنى سوى الإيبارخيات . ولعل نظام الإيبارخيات الذى كان مقصوراً فى بداية الأمر على الساترابيات الواقعة شرقى الفرات قد امتد فيما بعد غربى ذلك النهر إلى كبادوكيا وبنطش ، كما أنه امتد على التحقيق شمالا بأرمينية وليست أية واحدة منها بالتى ينطبق عليها بالضبط اسم الدول التى خلفت السلوقيين (Sucession Statesène) ، ومما يدل تماما على أن أرمينة كانت تنقل نظاماً معروفاً ، إنشاؤها لأسماء خيالية عجيبة بحروف (éné) مثل اجزرسينى وقمبزينى تطلقها على أقسام جديدة بلادها . ووقف إقليمان بمعزل من ذلك كله : هما آسيا الصغرى غربى نهر الهاليس ، حيث لا وجود لهذا النظام إلا بقية للأسماء الساترابية القديمة ، ثم سورية التى يغشى الإبهام آثار ذلك النظام فيها . أجل إن بوسيدونيوس

يطلق على المدن السلوقية الأربع بشمالى سورية اسم الساترابيات ، ولكن الراجح أن ذلك لا يشير إلا إلى قسم ثانوى صغير من الدولة السلوقية عندما أخذ الحكم السلوقى فى التداعى . وربما جاز لنا أن نرتاب فى أن السلوقيين حولوا جنوب سورية وبلاد اليهودية إلى ساترابيتين وقد كانتا تابعتين للبطالمة حتى عام ٢٠٠. ثم تظهر أقسام يطلق عليها باليونانية (Merides) ،وهى شيء مجهول كما هو ظاهر بكل بلاد آسيا فيما عدا بلاد الهند الإغريقية تحت حكم أسرة ساكا(Saca) ، كما أن « اليهودية » نفسها أصبحت دولة كهنة تابعة للسيادة السلوقية . وقد ادعى الكثيرون أن هناك وزنا كبيراً للمعلومات التى استقيت من «اليهودية»، وذلك لمجرد وجودها ، أجل إن كتاب اليهود قد أكثروا من القول ،ولكن لا ينبغى أن تؤخذ أقوالهم قضية مسلمة موثوقاً بصحتها . ومهما يكن من شيء فإن الظروف الخاصة المحيطة بتلك الولاية ليس من الضرورى أن تلقى نوراً يبين لنا أحوال الإمبراطورية فى جملتها .

وكان حكم ملوك السلوقيين استبدادياً مطلقاً من الناحية النظرية . ولكن الواقع الحقيقى أن حكمهم المطلق كان مقيداً بضرورة احترام الحقوق التى وهبوها هم أنفسهم للمدن والمستقرات العديدة التى أنشأوها ، وأكبر شاهد على احترامهم لها محبة الناس لهم . ومعلوماتنا عن الموظفين الذين كانوا يديرون شئون الإمبراطورية ضئيلة لا تغنى . وقد كان الاعتقاد الشائع فى وقت ما أن كل ساترابية كان لا يحكمها ساتراب بل قائد (Strategos) ، وكانت له سلطة عسكرية . وذلك لأن كل ساترابية كانت تضم قبائل جبلية أو عناصر أخرى لم يتم إخضاعها لسلطان الدولة . ولكن هناك نظرية أخرى قوية قامت فى الآونة الأخيرة تقول بأن كل ساترابية كانت تحتوى على ساتراب وقائد . وبديهى أن الموضوع والأدلة عليه كليهما غامض وليس هنا مجال بحثهما . وكان يهيمن على الإمبراطورية وزير «للشئون» (ho epi ton Pragmaton) من الجلى أنه كان المقابل للوزير عند الفرس ، ولكننا لا نسمع عنه الشيء الكثير قبل عهد أنطيوخوس الثالث . وثمة وزير آخر يسمى « المشرف على الإيرادات والدخل العام . (ho epi Ton Prosodon)وربما كان على رأس الإدارة المالية للإمبراطورية ، بيد أن تلك التسمية فى بعض الأحيان تدل فيما يبدو على

موظف صغير تابع . فأما الوظيفة التى كانت تقابل لقبي مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) ووزير المالية (Dioiketes) فهذا أمر يحوطه الغموض . وكان السلوقيون ـ شأنهم شأن أنتيجونس الأول ـ يحذون وإن كان ذلك على قلة ـ حذو الإسكندر فى استخدام الفرس حكاماً للأقاليم . وقد حافظوا على نظام البريد الفارسى ، ولعلهم بذلوا شيئاً من الجهد فى تحسين مجموعة الطرق الفارسية .

وكان هناك دار لتسجيل الأرض فى كل هيبارخية ، وظيفتها تحديد تخوم القرى والممتلكات ، وتجمع من هذه الدور سجلات الساترابية التى كان يقوم عليها فى عاصمة الساترابية مسجل فى ديوان يسمى « دار السجلات الملكية » ، ثم تجمع من دار التسجيل بالساترابيات السجلات المركزية التى يستخدمها الملك . وكما أن الهيبارخية كان لها قصبة ينزلها الحاكم Basileion فلا بد أنها كانت فيما يلوح ذات دار لتسجيل الأراضى تقع بمنزلة وسط بين دار تسجيل الهيبارخية والساترابية ، وإلا فمن العسير أن نتصور ماذا كان يحدث عندما كانت الهيبارخية تتحول فيما بعد إلى ساترابية ، فلم تكن دور التسجيل المركزية ولا الساترابية تقدم الحدود التفصيلية ، كما أن دور التسجيل المركزية لم تكن تحصل دائماً على المعلومات أولا بأول بسبب بعد المسافات . وكان ذلك النظام هو نفس النظام المصرى الذى تكون فيه (الهيبارخية) هى الوحدة بدلا من القرية . ولعل من الواضح أنه بالنظر إلى شدة اتساع رقعة الدولة لم يكن السلوقيون يستطيعون ألبتة أن يجمعوا صافى ضرائبهم بنفس الدقة التى كان يجمعها بها البطالمه . وقد أدخلت الإدارة نظام الإيجارات اليونانى كما أنها كانت تؤجر أحيانا أراضى الملك . وكانت حجج البيع تسجل فى بعض المدن السلوقية ، بل لعلها كانت تسجل فيها جميعا .

وكانت علاقة الملوك السلوقيين بالأرض فى كل من آسيا الصغرى وسورية متأصلة ترجع قواعدها إلى أعماق التاريخ . ويحتمل أن كل الأرض أو جلها كان يملكها فى الأصل عدد من دول الكهنة ، كما أن تاريخ البلاد قبل عهد الإسكندر لم يكن إلا سلسلة متكررة من الاعتداءات على تلك الدول ، يقوم بها الفاتحون المختلفون الذين كانوا يجلبون معهم عقائدهم . ولو

تجاوزنا عن ذكر سكان المناطق الجبلية المستقلين كالبيسيديين مثلا ، لوجدنا الأرض تنقسم أقساماً ثلاثة (ا) أرض الملك (ب) أرض المعبد (ج) أرض المدينة ، وهى أرض المدن الإغريقية القائمة ، ولكن السلوقيين ادعوا ملكية أراضى المعابد بوصفهم ولاة الدولة الأعلين ، ولذا لم يكن هناك فى عهد السلوقيين إلا أرض الدولة (الملك) وأرض المدينة . ولا بد أن أرض الملك كانت تحتوى على معظم أراضى القطر كما تضم دون ريب كل المناجم والغابات التى لا تقوم على أرض المدن . أما أرض الملك فكان بعضها ملك يده وبعضها الآخر جرى منحها لكبار ملاك الأراضى من الأهالى والفرس . وربما كان بعض هذه العائلات المالكة للأرض أقدم عهداً بكثير من الحكم الفارسى ، كما أن بعضها دام حتى العصور الرومانية . ولكن الملك كان السيد الإقطاعى عليهم ، كما أن الملكية الفعلية للأرض كانت له . وكان أصحاب الأراضى هؤلاء يعيشون كبارونات القرون الوسطى فى قلاع يمتلكونها — وهى مربعات محصنة تبنى حول فناء — كما كانوا يحتفظون بمجموعة من الأتباع ويجمعون الضرائب من أراضيهم ويرفعونها إلى الخزانة العامة .

وكان السكان الحقيقيون للأرض الزراعية فى كل مكان هم الفلاحون الأهالى الذين يسكنون القرى ، وهم طبقة يندر أن تتغير مهما مر بها من غزاة غدواً وذهابا . وحيث كانت الأرض أرض الملك فى يده ، كان الفلاحون الذين هم رجال الملك ، يزرعونها ويدفعون ضرائبهم للموظفين . وحيث كانت الأرض موهوبة رسمياً لأحد الملاك ، كان فلاحو القرى الواقعة بتلك الأرض يعدون رجال الملك رسمياً لا رجال ذلك المالك ، وإن دفعوا الضرائب عن طريقه . ولم يكن الفلاحون أشباه موالى أرض كحالهم فى مصر بل موالى أرض تماماً يباعون ويشرون مع الأرض ، ولم يكونوا يستطيعون مغادرة موطنهم المخصص لهم . ولم يكن لقراهم هيئات أو مجالس . فكانوا يدفعون الضرائب أفراداً وليس عن طريق قراهم كمجموع ، ولكن لا شك أنه كان من الخير للفلاح مثلما كان الحال بين الملك ومالك الأرض أن يجمع منه الضرائب موظف مسئول . ولكن إذا حصلت إحدى المدن الإغريقية على الأرض ومعها الفلاحون فكثيراً ما كانت الأحوال تعدل ، وما ندرى على وجه التحقيق أكان ذلك بتحرير موالى الأرض قصداً وعمداً أو بحكم سير الأمور فى مجرى تطورها الطبيعى ؟ . ومع ذلك فربما ظل الفلاحون فى بعض الأحيان موالى أرض

كما حدث فى زيليا لعهد الإسكندر ، ولكنهم كانوا يصبحون على الإجمال مستوطنين وراثيين أحراراً (Katoikoi) يدفعون الضرائب المدينة ، كما أن قراهم أخذت فى بعض الحين تسعى إلى الحصول على ضرب من الحياة الجماعية ، وكان هؤلاء يؤلفون قسما آخر يختلف عن العبيد الزراع فى لاكونيا مثلا . ومن ثم فإن المدينة الإغريقية كانت نعمة على الفلاح الأسيوى وكانت تهدف إلى رفع مستواه ومنزلته .

ولم يحرر السلوقيون موالى الأرض[1] ، ولكن ربما كان لديهم قضاة خاصون لفلاحى الملك ، وبذلك كانوا من الحكمة بحيث فصلوا بين القضاة والإدارة ، وقد ابتدعوا ثلاث وسائل عملت باطراد على إنقاص رقعة مناطق رق الأرض ، وربما أدت فى النهاية إلى إلغائه نهائياً . وأول هذه الوسائل هى المدن الإغريقية التى أسسوها والتى حولت أرض الملك إلى أرض مدن على نطاق واسع . وثانى تلك الوسائل أنهم كانوا على استعداد — بعكس البطالمة — أن يهبوا أرض الملك أو يبيعوها بصورة تامة ونهائية ، على شريطة أن يعمل الممنوح على ضم أرضه إلى إحدى المدن وجعلها أرض مدينة . ومن الطبيعى أن المدن كانت راغبة تماما فى زيادة رقعتها . ونالت تلك الوسائل عملهم على إلغاء ملاك الأرض الإقطاعيين ، وهو أمر ترتب عليه إلغاء حالة كانت تنطوى أو تكاد على امتلاك موالى الأرض امتلاكا خاصاً . وقد شرع يومينيس صاحب كارديا وأنتيجونس الأول فى نقل المزارع الإقطاعية إلى يد الإغريق أو المقدونيين ، ولم تلبث المزارع الإقطاعية وقد نقلت إلى ملاك جدد فى عهد السلوقيين الذين كانو يناصرون المدن بكل أفئدتهم ، أن اتجهت إلى الانضمام إلى المدن لتصبح بذلك أرض مدن ، والظاهر أنهم لم يستطيعوا التغلب فى بيسيديا وكبادوكيا وبنطش على أرض المزارع الإقطاعية فاستمرت على الرغم منهم تماماً إلى العهد الرومانى . وحيثما أصبحت الأرض أرض مدينة ، صار من المحتمل ألا يظل الفلاح مولى أرض ، بل لا شك أنه لم يكن يستمر فى ذلك الوضع . ولا بد أنه كان لذلك أثره فى الفلاحين بأرض الملك الباقية ، وذلك لأن هؤلاء الفلاحين كادوا يصبحون فى صدر عهد الإمبراطورية الرومانية مستوطنين ، كفل لهم نظام جماعى ؛ بل الواقع أن مجموعة من قرى

(١) موالى الأرض أو رقيق الأرض (Serfs)

سورية (هى منطقة حوران) قد حصلت على نظام يحاكى إلى أقصى حد نظام أية مدينة إغريقية . ولعلهم ظلوا فترة من الزمن ينعمون من الناحية الاقتصادية بما يفوق ما كان لدى سكان أراضى المدن . على أنهم انحدروا عن منزلتهم وعادوا سيرتهم الأولى فى ظل العهد الأخير من الإمبراطورية الرومانية ، حتى لقد ظهرت الملكية الخاصة لموالى الأرض نفسها من جديد بآسيا فى عهد جستنيان .

وكانت دول المعابد القديمة ، الكبيرة منها والصغيرة ، مفرطة فى كثرة عددها ، كما كان بعضها لا يزال يمتلك قدراً عظيما من الأرض وكلها ترجع إلى نظام اجتماعى يسبق العهد الآرى قوامه نظام الأمومة ، وهو أمر غريب تماماً عن الأفكار اليونانية أو الفارسية . والراجح أنهم كانوا فى الأصل يعبدون جميعاً ربة الخصب العظيمة بآسيا وزميلها الرب الذى كان فى نفس الحين ابناً لها وزوجا . وإلى هذه العقيدة القديمة يمكن أن ترجع عادة زواج الأخ من أخته الشقيقة التى أمكن تتبعها فى عدد جم من الأسر المالكة بغربى آسيا — ومن أشهر الأمثلة على ذلك أسرة ماوسوللس بكاريا — التى لعلها هى السبب فى أن ملكات السلوقيين ومن ورائهم النبط كن يلقبن رسمياً بلقب الأخت (الفصل الثانى) . وثم أثر آخر لتلك العادة استمر طويلا ، هو أن النقوش اليونانية التى وجدت فى فريجيا لا تذكر أحياناً إلا اسم الأم وحدها أو تذكر اسم الزوجة سابقاً على اسم زوجها . وقد غزت آلهة أجنبية بعض هذه البيوت المقدسة ، ولكنها خضعت مع ذلك للنظام القديم المرعى ، حتى إذا وافى العصر الهللينستى كان تأثير تجمع الفكرات الهندو — أوربية بعضها إلى بعض ، من فريجية وفارسية وإغريقية ، قد بلغ من القوة بحيث رفع اسم الرب أحياناً على حساب الربة ، كما طبع بعض الأسماء بالطابع الهللينستى (الفصل العاشر) . وكثيراً ما عرف حاكم دولة المعبد وهو كبير كهنة يتولى منصبه بالوراثة ، كيف يتتبع نسبه حتى يصل به إلى أحد أبطال عصر الرطازات أى الميثولوجيه الإغريقية . ولكن النظام لم يتغير قط . فإن الكاهن كان يحكم أراضى دولة المعبد بما عليها من فلاحين هم « فلاحو الرب » وإليه كانوا يدفعون الضرائب . فأما قرية المعبد نفسها فكانت تحوى عدداً من الرجال

وهبوا أنفسهم للإله ، وهم فى بعض الحين من الخصيان . ولكن الظاهرة التى أثارت دهشة اليونان أيما إدهاش هى وجود تلك الجمهرة الغفيرة من رقيق المعبد الإناث اللاتى كانت كثيرات منهن بغايا مقدسات يقمن على خدمة ربة الخصب وعبادتها . ودن فى العادة من بنات موالى الرب ، اللاتى كن يخدمن فى المعبد إلى حين قبل أن يصبحن زوجات للفلاحين ، ذلك أن الأرض ومن عليها من أناس يعيشون بقوة الربة ، لذا فإن تقديم الابنة بغية المعاونة فى نشر سلطانها لم يكن إلا شيئاً ينطوى على الشعور الطيب نحو المجتمع ، لذا كانت النساء يفخرن بأنهن ينحدرن من سلسلة من عاهرات المعبد . وكان المعبد غالباً ما يقوم بدور البنك المحلى ، كما أن قريته كانت مسرحاً لسوق سنوية عظيمة .

وربما جاز لنا أن نذكر أشهر دول المعابد وآلهتها ، وإن كان معظم دول المعابد الكبرى يقع خارج حدود السلوقيين . ففى كبادوكيا كانت «ما» من كومانا (أى موضع التراتيل) ولها ستة آلاف من عبيد المعابد من الرجال والنساء ، وكان هناك زيوس من فيناسا ، وله ثلاثة آلاف ، وذلك عدا «أرتميس بيراسيا» فى كستابالا هيروبوليس التى كانت كاهناتها يستطعن المسير فوق الجمر المتقد . وفى بنطش كانت تعبد الربة «ما» من كومانا بونتيكا التى كان لها ستة آلاف من رقيق المعبد مع تحريم شديد للخنزير ولحمه ، كما تعبد أنائتس من زيلا ، و« مين » فارناكو (مع سيليني أو القمر) من كابيريا ، وهى التى كان ملوك بنطش يقسمون بها رسمياً . وكانت بفريجيا معبودة هى كيبيلى أجديستس وثمة آتس فى بيسينوس ، وهناك ليتو وليربينوس وتعبدان بالقرب من ديونيسوبوليس ومين كارو بالقرب من أتودا والأم ديندميني بالقرب من بيسنيوس وفى نطاق كزيقوس ، وزيوس من أزانى . وهناك أيضاً معبدا « مين » أسكاينوس (مانيس من أورامنا) وسيليني (القمر) قرب أنطاكية البيسيدية . ثم الأم زيزميني فى ليكاؤنيا ، ومين تيامو أو التيرانى والأم أنائتس من ليديا ، وزيوس من أولبا بكليكيا . وعدد آخر عرف من النقوش ، بما فى ذلك الأماكن المختلفة المسماة هيروبوليس أى « مدينة المعبد » التى تصبح هيرابوليس أى « المدينة المقدسة » إذا كان النفوذ اليونانى قوياً — وهو تفريق جوهرى بين الكلمتين . ولم

تكن أرتميس من إفيسوس سوى ربة الخصب التى ألحق معبدها القديم بمدينة إغريقية . وظل ذلك المعبد طويلا حكومةداخل الدولة فى إفيسوس بما له من كبير كهنة يلقب بملك النحل (Megabyzus) وسرب عظيم من الفتيات المتكرسات اللواتى كن أبكاراً عذراوات ، ولعلهن كن يعرفن بخلية النحل . وقد ظل المعبد كذلك حتى وضع ليسماخوس إدارته فى يد لجنة إغريقية وألغى صورة النحلةمن عملة إفيسوس . وكانت بشمالى سورية «دول كهنة» مماثلة لهذه كالتى قامت فى بامبيكى (مبوّج) Bambyee وبايتو كايكى (Baetocaece) وإمينا (حمص) ، وامتدت إلى ألبانياو إيبريا فى سفوح القوقاز الذى هوموطن لعدد كبير من بقايا الشعوب القديمة .

ومع أن السلوقيين الأول كانوا على استعداد لاحترام مشاعر رعاياهم الدينية، كما أنهم فضلا عن المعبد الذى أعادوا بناءه بمدينة بابل قد شادوا معابد أخرى فى بامبيكى (مبوّج) وأولبا ، إلا أنهم حاربوا السلطة الزمنية التى كان يستمتع بها الملوك الكهنة محاربتهم للإقطاع سواء بسواء . وكانت سياستهم تهدف إلى ترك الكاهن وشأنه فى دولة معبده — هو والمعبد وقرية المعبد ، مع القدر الكافى من الأرض لخدمة المعبد ، وصبغ ما تبقى من ممتلكات المعبد الزراعية بالصبغة الدنيوية الزمنية . ويرجح أن أنطاكية المواجهة لبيسيديا مثلا اقتطعت من ممتلكات (الرب) مين الأسكينى (mén Askaenos) التى كانت مترامية الأرجاء فيما سلف من الزمان . ومع ذلك فإن دول الكهنة تمكنت من الحيلولة دون تنفيذ تلك السياسة إلى غايتها القصوى ، وعاد السلوقيون فى أيام اضمحلال دولتهم إلى توسيع رقعة بعض المعابد السورية وأعطوها حق إيواء اللاجئين (Asylum) ، وهو شىء مماثل لما حدث بمصر . وقد اختفت بعض الكهانات الوراثية إبان فترة الاضطراب التى سبقت حكم أوغسطس ، وكان القواد مثل بومبى أومار كوس أنطونيوس يعينون الكهنة على هواهم ، فأعطى أنطونيوس دولة المعبد فى أولبا لإحدى النساء . ثم أصبحت زيلا وكابيرا وبعدهما كومانا بونتيكا مدناً إغريقية رومانية ، وواصلت الإمبراطورية الرومانية اقتطاع أراضى المعابد إلى الحد الأدنى الضرورى . بيد أن بعض

عائلات الكهنة الكبرى دامت حتى العصور المسيحية ، وكان منها فى الكنيسة أساقفة ممتازون .

وتدل الثروة التى جمعها الكمينيون (Achhaemenids) على أن غرب آسيا كان ينتقل فعلا من الاقتصاد العينى إلى أساس نقدى. ولا شك عندنا فى أن المدن السلوقية كانت من عوامل التعجيل بهذه العملية ، وإن كانت العملية تسير هنا على الراجح بخطى أبطأ منها بمصر . كما أن الاقتصاد القائم على التبادل العينى لاشك أنه ظل هو الأصل فى كثير من نواحى الريف . ونظام الضرائب فى الإمبراطورية السلوقية موضع يحوطه الغموض . وبين أيدينا اليوم قائمة أغلب الظن أنها سلوقية ، استطعنا بوساطتها هى والأختام التى أمكنتنا استخراج أعداد جمة منها من مدينتى أوروك وسلوقية تكوين قائمة بالضرائب، وإن لم يكن معنى كل بند فى تلك القائمة التى اجتمعت لنا واضحاً دائماً . والقائمة تشمل رسوم الواردات (أى ضرائب جمركية) ورسوم الموانى ورسوماً دخولية فضلا عن ضرائب على الأسواق والمبيعات والماشية والملح وعلى الاستمرار فى ممارسة بعض أنواع الأعمال وتسجيل المستندات ، وهناك ضريبة التاج ، ثم ضريبة أخرى على الأرقاء لاندرى طبيعتها . وهناك فيما يحتمل ضريبة رءوس لا يمكن أنها كانت تجبي إلا من فلاحى الملك ، ولكن ذلك شىء غير محقق تماماً . ويجىء فى نهاية الأمر آخر تلك الضرائب وأعظمها أهمية وهى ضريبة الأرض المفروضة على أرض الملك . وفوق ذلك كان الملوك يحصلون على الإيراد من ممتلكاتهم الشخصية ، كالمناجم والمحاجر والغابات ومن الجزية التى تدفعها المدن التى تفرض عليها الجزية . ومن المحتمل جداً أن نظام الضرائب لم يكن واحداً فى جميع الساترابيات بتلك الإمبراطورية المترامية الأطراف . أجل إن إقليم بابل (بابلونيا) ربما كان يختلف فعلا عن مألوف تلك القاعدة ، كما أن الكتاب اليهود يوردون بعض التفاصيل عن نظام الضرائب ببلاد اليهودية (Judaea) ، وهى تفاصيل ، إن صدقت ، دلت على أن ضرائبهم ثقيلة ثقلا خارقاً ، ومع أن نظريات كثيرة وضعت لتعليل ذلك ، فلابد من النظر إلى الأرقام بعين التحفظ ، وذلك لما جرى عليه كتاب اليهود من ميل إلى تمثيل السلوقيين فى صورة الطغاة الظلمة . ولا شك أن نظام الضرائب السلوقى كان « أقل إحكاما وأكثر مرونة» من نظام الضرائب البطلمى ، بل

الواقع اعتماداً على ماعرفناه من معلومات ضئيلة أن الفوارق بين ذلك النظام والنظام المصرى كانت كبيرة جسيمة . ولم يصل إلى علمنا أى احتكارات ملكية للتجارة أو الصناعة لديهم ، ولم نسمع قط بأى ضروب من ضروب التذمر الدائم الذى كان يصدر من الفلاحين والعمال المصريين وكان طابعاً مميزاً لهم ، كما أن نظام جباية الضريبة الخطيرة الشأن وهى ضريبة الأرض على أراضى الملك كان يختلف تماماً . وبينما ظل الفلاح المصرى طوال عصر البطالمة يدفع مبلغاً سنوياً ثابتاً ، فإن السلوقيين واصلوا العمل بطريقة أخذ عشر المحصول ، وهى الطريقة السحيقة القدم بآسيا والتى عملت بها مصر لعهدى الفراعنة والفرس ، وبذلك كانوا شركاء حقيقيين للفلاحين يشاطرونهم الخسارة فى السنوات العجاف ، وهو أمر فاخر به ماركوس أنطونيوس عندما أخذ يؤكد فضل روما ومالها من أياد بيضاء باتباعها للطريقة السلوقية بأخذ عشر المحصول . ويحتمل أن جزءاً من ضريبة الأرض كان يدفع نقداً ، ولكن القدر الذى كان يقدم عيناً كان كافياً لجعل الملك تاجراً عظيما للقمح . أما طريقة تصرف القوم فى القمح فأمر لا نعلمه ، اللهم إلا أن ضرائب كل ساترابية كانت تفيض إلى عاصمتها أنهاراً ، فتحول النقود إلى الخزانة المركزية (Basilikon) ولكن بعد الشقة وصعوبة النقل كانتا ولامراء تحولان دون نقل القمح بهذه الطريقة ، ومن ثم لابد أن القوم كانت لديهم مراكز عديدة . وكان على الفلاحين أن يقوموا بنصيب من العمل بطريق السخرة .

أما العملة فكان السلوقيون يحتفظون بها فى أيديهم وجعلوها العملة الأساسية فى الشرق ، وكانوا على وجه الإجمال يستخدمون المعيار الآتيكى كالإسكندر سواء بسواء ، ويحرصون حرصاً تاماً على أن يقصوا من إمبراطوريتهم نقد أعدائهم البطالمة الذين كانوا يستخدمون المعيار الفينيقى ، وإن استخدموه هم أنفسهم أحيانا . وكان هذان المعياران يقتسمان العالم بينهما (الفصل السابع) . ولم يكن يسمح لأية مدينة سلوقية جديدة بأن تسك عملتها لنفسها ولا حتى العملة النحاسية اللازمة للفكة الصغيرة ، كما أن هؤلاء الملوك كفوا حوالى منتصف القرن الثالث عن سك العملة الذهبية ، ولعل ذلك كان يرجع إلى اضطراب طريق الذهب الوارد من سيبيريا . وجميع تقديرات دخل

السلوقيين وإيرادهم إنما تقوم على الحدس والتخمين . وكانت قيمة ضريبة الأرض تختلف باختلاف سعر القمح . وليست هناك أسعار مدونة للقمح بالمناطق الريفية كما أن الأسعار المدونة بالنسبة للمناطق الساحلية قليلة (حيث وجد القليل منها فى أوروك) ، وفضلا عن ذلك فليس من الضرورى أن سعر القمح كان واحداً فى سورية أو بابل مثلما كان فى ميلتوس أو ساموس . وقياساً على ما حدث بأماكن أخرى من العالم ، لا بد أنه حدث ارتفاع عظيم فى الأسعار بلغ ذروته حوالى (٣٠٠) ،ثم أعقبه هبوط طويل الأمد . وكثيراً ما كان ضيق ذات اليد يلم بالعاهلين السلوقيين الأولين، وكانا ملكين كريمين فى العطاء ولا بد أنهما أنفقا أموالا طائلة فى إنشاء المستوطنات بآسيا وتعميرها ، وإن جمع بعض موظفيهما ثروات طائلة ،وذلك قياساً على ما ظهر من أمثلة فيما بعد ،ومع أن الولايات الداخلية قد حظيت دون ريب بالرغد والثراء فى ظل ما كانوا يعتقدون أنه السلام السلوقى الطويل الأمد ، إلا أن المدن الساحلية بآسيا الصغرى وشمالى سورية قد كابدت عناء كثيراً من تلك « الحروب السورية » التى لم تكن لها نهاية والتى كانت تدور رحاها بين السلوقيين والبطالمة (٢٧٣ — ٢٠٠ ق.م) . حتى إذا استولى أنطيوخوس الثالث فى (٢٠٠ ق . م) على سورية بأكملها بما فى ذلك جميع منافذ التجارة البرية الواردة من الشرق ، فليس لدينا شك فى أن الأموال قد تدفقت إليهم بسبب تلك التجارة ، ومع أن أنطيوخوس الرابع قد ضيق عليه الخناق فى النهاية بسبب فقدانه لغرب آسيا الصغرى والغرامة التى فرضتها عليه روما ، إلا أنه لا شك أصبح فيما بعد أغنى من أى ملك سلوقى قبله .ومع ذلك كله فإن السلوقيين بعامة لم يحرزوا ألبتة مثل تلك الثروة التى كان البطالمة يحصلون عليها من مصر. ولما كانوا لم يجمعوا ألبتة أى كنز من ثروة مدخرة، فلا بد أنهم أنفقوا على البلاد قدراً أكثر كثيراً بالنسبة لدخلهم ، وكان أنطيوخوس الرابع يستخدم ثروته كجده سلوقوس الأول فى تأسيس عدد جديد وضخم من المدن أو صبغها بالصباغ الهللينستى .

وينبغى لنا قبل أن ندخل فى مسألة التوطين والتعمير التى عنى بها السلوقيون، أن ندخل فى اعتبارنا ذلك الموضوع الشائك الخاص بعلاقة الملوك السلوقيين الأول

بالمدن اليونانية القديمة بآسيا الصغرى التى كانت تقع من وقت إلى آخر داخل الحدود الجغرافية لإمبراطوريتهم . ولا شك أن الرأى السائد هو أن هذه المدن كانت مدناً تابعة . ولكن الأمر ليس على مثل هذه الدرجة من البساطة . فإنها كانت جميعاً مدناً حرة ، حليفة للإسكندر ، وخضع بعضها فى أثناء حروب « خلفاء الإسكندر » لهذا أو ذاك من خلفاء الإسكندر . وقد حررها جميعاً أنتيجونس الأول . بيد أن بعضها ربما عاد إلى التبعية لأحد الأفراد ثانية ، مثل ليسماخوس أو غيره من الحكام . ولا نكاد نعرف شيئا عن حكم سلوقوس نفسه ، ولكن بعض المدن اتحدت مع ابنه أنطيوخوس الأول بمعاهدة تحالف (Symmachia) فى حين أن بعضها الآخر مثل تيوس وبارجيليا كانت مدنا خاضعة . أما الرأى القائل بأن جميع المدن كانت خاضعة غير مستقلة ، فيلوح اليوم أنه قائم على اعتقاد المؤرخين بأن معاهدة التحالف (Symmachia) هذه كانت تضم جميع الأراضى السلوقية الحقة ، ولذا فإنها اتخذت معنى إقليمياً ، وأنه بناء على هذا لما كانت بعض المدن خاضعة ، وجب أن تكون كلها خاضعة . ولكن معنى كلمة سوماخيا لا يمكن أن يدل إلا على معاهدة تحالف حرة ، كما أن عبارة « وأية مدينة يرغبها بين تلك المشتركة فى معاهدة التحالف الحرة » لا يمكن أن تدل على أن جميع المدن كانت بالضرورة عضوا فى تلك المحالفة أى « السوماخيا » . هذا إلى أنه كانت هناك مدن مثل « إريثراى » التى لم تكن يوما ما إلا مدينة حرة بالمعنى الذى أخذت الحرية تكتسبه آنئذ من حيث : « حق سن القوانين وعدم وجود أية حامية وعدم دفع أية جزية » . وقد ألقى أحد النقوش نوراً موانياً على ثالث الملوك السلوقيين وهو أنطيوخوس الثانى ، حيث يفهم منه أنه سيعيد الحرية التامة لكل المدن الأيونية ، وهو عمل ظلت تلك المدن مدة طويلة تعده صكا رسمياً بتلك الحرية ، وعندئذ تبدو بعض المدن لآخر مرة كأنما تتصرف من جديد فى سياستها الخارجية بحرية ، وما يستطيع إنسان أن يجادل فى أن أزمير كانت لعهد سلوقوس الثانى دولة مستقلة تماماً ، شأنها شأن ميليتوس وماجنيزيا على نهر الميانذر إذ اشتبكتا فى الحرب فى ١٩٦ ، وقوة أنطيوخوس الثالث فى ذروتها — حتى أصلحت بعض المدن الإغريقية الأخرى ذات بينهما ، كأنما لم يكن لأنطيوخوس بالفعل أى وجود . وقد ادعى أنطيوخوس الثالث فيما بعد أن

جميع المدن الإغريقية كانت من الناحية الشكلية رعيته، وأن الحرية منة وفضل منه عليها، وهي وجهة نظر لعل من الممكن تتبعها قبل ذلك، ولكن بعد أن فقد ذلك الملك آسيا الصغرى فى (١٨٩)، عاد مركز المدن فأصبح يعتمد كل الاعتماد على برجامة وروما. ومن المحتمل أن المدن قاطبة كان لها حق شرعى أكيد فى الحرية على نفس الصورة التى اعترف بها الإسكندر، بيد أن هذه المدن لم تستطع على طول الزمن أن تصمد أمام اعتداءات الملوك، ولم يكن بد من أن يجىء الوقت الذى لا يصبح فيه للحرية من معنى سوى التحرر من الجزية.

ولننتقل الآن إلى ما بذله السلوقيون من جهود فى عملية التوطين والتعمير بآسيا. كان أساس ذلك التوطين هو المستقرات العسكرية، وليس المدينة الإغريقية (Polis) كما كان يُعتقد قديماً، أجل إنه حدث فعلا أن الملوك ملئوا البلاد فى نهاية الأمر بالمدن الإغريقية، ولكن ذلك كان يتم إلى حد كبير بصورة غير مباشرة. وذلك لأنه لم يكن فى مستطاع أحد غدا الملك وحده أن ينشىء مدينة. ومع أن التقاليد كان يؤثر فيها عن سلوقوس أنه ملك عامل مجد كابنه تماماً، إلا أن تأسيس مدينة (Polis) كان معناه أن يبذل الملك جهداً شاقاً عظيما. إذ كان ملزما أن يبحث لها عن رقعة من الأرض، وعن سكان ينزلونها وأن يشيد أسوارها، ويموّنها بعدد من الطعام وقمح للبذور وماشية وآلات يبدأ الناس بها معايشهم مع تأجيل الضرائب حتى تقف المدينة على قدميها، وأن يتصرف هو شخصياً فى مسائل لا حصر لها تتعلق بالإسكان والاقتصاد والاجتماع، وأن يمنحها دستوراً ليدرعليه دولاب الحياة السياسية، وأن يختار القانون الذى تجرى عليه أحوال المدينة، وإن كان هنا يستطيع إصدار الأمر بتبنى قانون إحدى المدن الإغريقيه الشهيرة واقتباسه مع تعديله أو عدم تعديله. ولكنه فيما يتعلق بالمستقرات العسكرية، فإنه وإن كان لا يزال ملزماً بأن يجد لها الأرض للسكن والمال للنفقة، إلا أنه كان فى وسعه (أو قل يعمد دائما تقريباً) أن يكل ذلك العمل إلى مندوب عنه يكون هو الحاكم المحلى. ومع أن جالية المستقرات العسكرية سرعان ما كانوا يصبحون هم الاحتياطى العسكرى للدولة، إلا أن واجب الدفاع كان الهدف الأول منها.

وقديما أنشأ الإسكندر بعض هذه المستقرات فى باكتريا وبلاد الصغد ، ليرتكز عليها الدفاع ضد قبائل الساكا الرحل كما أنشأها فى ميديا لكبح جماح قبائل البرز (E p..rz). كما أن سلسلة المستقرات السلوقية التى كانت تمتد عبر آسيا الصغرى من نهر الكايكوس (Caicus) إلى نهر الماندر — وهى ناكراسا وتياطيرا وهيركانس وكادوى وبلوندوس فالميسوبون المقدونيون ثم بلاً كان الغرض الواضح منها حماية المنطقة الساحلية من غائلة الغلاطين . وربما كانت بعض المستقرات الأولى مقدونية خالصة ، بيد أن الشطر الأعظم من مستقرات الغرب كان يونانيا . وكان المستقرون ممن أتموا الخدمة العسكرية من الجند ومن المرتزقة ، والرجال القادرين على الخدمة والراغبين فيها . وكان كل مستوطن يعطى رقعة من الأرض ليزرعها ويحصل منها على معاشه ، وهى تسمى بالنصيب (Kleros) . أى الإقطاع العسكرى ، وكان إقطاع التمليك عسكريا يضطر الحائز للأرض بموجبه ما دام حياً أن يؤدى الخدمة العسكرية بالجيش كلما دعى لذلك . وكان النصيب وراثياً ، ولكن كان فى الإمكان بيعه أو التوصية به ، وإن ظل مع ذلك خاضعاً للالتزام بالخدمة العسكرية ، إذ يلوح أن الأرض ما تكاد تصبح نصيبا أو إقطاعاً عسكرياً حتى تظل كذلك على الدوام ، إذ إن التزام صاحب الأرض بالخدمة العسكرية (أو ربما إحضار بديل له يقوم بها) يظل ملازماً للأرض إلى الأبد . ويرى الأستاذ العلامة روستوفتزف أنه ربما كان هناك أكثر من نوع واحد من المستقرات العسكرية ، وذلك مع أن وجود نموذج يحتذى كان لابد أن يسهل عملية التوطين بدرجة عظيمة ، بحيث يرجح أن هذه النماذج كانت موجودة . ومهما يكن الأمر ، فإن رجال هذه الأنصبة وهم أصحاب الإقطاعات والحائزون لها (Cleruchs) كانوا العمود الفقرى للجيوش السلوقية أى الفيلق الإغريقى المقدونى ، وكان ولاؤهم للملك السلوقى المتربع على العرش مضرب الأمثال ، وهو ولاء ينبئ عن حسن أحوالهم. وكان المستقر العسكرى يقام عادة بجانب مدينة أو قرية سكانها من الأهالى أو بالقرب منها ، ولم يكن له فى الغالب اسم يدل عليه عدا اسم القرية ، ولكن المستقر كان فى بعض الأحيان يطلق على نفسه اسم الموظف الذى أنشأه أو اسم المدينة أو الحى الاغريقى الذى تصادف أن جاء منه معظم

المستقرين . وكان نظام الإقطاع العسكرى عند السلوقيين أنجح كثيراً منه عند البطالمة .

والفرق بين المستقر العسكرى والمدينة شيء ليس تحديده بالأمر السهل ؛ ولا يقدم إلينا كتاب الإغريق كبير عون فى هذا الصدد ، وذلك لأن غالبيتهم يطلقون لفظة مدينة (polis) على أى شيء يجدونه كما أن بعضهم قد يسمون المستقر العسكرى قرية لأنه كان غالباً ما يحمل فى البداية اسم قرية . ولم يكن الإغريق قبل الإسكندر يعرفون شيئاً سوى المدينة (Polis) والقرية (komé) . ولكى يصبح المكان مدينة وجب أن يستمتع بالحكم الذاتى وأن تكون به منظمات معينة وعناصر أخرى لضمان الحياة الجماعية المشتركة . وكان الحد الأدنى الذى لا يستغنى عنه من تلك الحياة هو انقسام المواطنين إلى قبائل ، وقيام مجلس مختار من هذه القبائل ، ووجود موظفين عموميين ينتخبون أو يعينون بالقرعة ، ووجود أراض خاصة بالمدينة ثم قوانينها وماليتها . وكان هناك على الجملة — وإن لم يكن ذلك أمراً ضرورياً — سور يحيط بالمدينة وجمعية عامة تضم شمل الأحرار وأقسام صغرى محلية لأرض المدينة هى الأحياء (Demes) . فإذا اجتمعت مجموعة من البيوت بغير هذه العلامات كونت قرية ، ولا علاقة لذلك بالرقعة والمساحة مطلقاً . ولعل الإغريق كانوا يرون أن بابل ومنف وأورشليم لم تكن فى الحق إلا قرى ، وإن استثنوا من ذلك استثناء واحداً عند البرابرة : حيث اعتبروا المدن الفينيقية الشديدة التنظيم مدناً حقة ، كما أن أرسطو أدخل دستور قرطاجة فيما ذكر من دساتير المدن الإغريقية . ولكن الذى حدث بعد الإسكندر أن ذلك التناقض القديم « الذى يفرق بين المدينة والقرية » لم يعد ينطبق على الوضع القائم حيث زالت الفوارق رويداً رويداً حتى اختلط الشيئان ، ونشأت أشكال جديدة وسط بين الأمرين ، حيث ظهرت أشكال جديدة مثل الجالية (Politeuma) وهيئة المستوطنين (katoikoi) لتجدد مجتمعات ذات نظام فيه شيء من شبه الاستقلال والحكم الذاتى يقل عن استقلال المدينة ، ويسمى أعضاء هذا النظام الأخير باسم المستوطنين (katoikoi) . وكان للجالية (البوليتيما) مركز دينى كالمدينة تماماً ، وربما كان لها مجلس وموظفون عموميون ، وكانت لديها وسيلة تضم

بها إلى المدينة هيئة من الأجانب دون أن تجعلهم مواطنين أحراراً . وفوق هذا فإن مراكز كبرى للأهالي الوطنيين أخذت هي الأخرى تسمى مدناً ، وإن أطلق بعض الحذرين من الكتاب مثل إزيدور وإسترابون لفظ مدينة القرية (komopolis) على أية مدينة أهلية ليس لها نظام يستطيع اليوناني فهمه . ونحن نجهل على وجه العموم حال المدينة الأهلية الخاضعة قبل طبعها بالطابع الهللينستي :

ويعتقد العلماء بصفة عامة أن مستوطني المستقر العسكري كانوا يسمون كاتويكيين(katoikoi) وهي كلمة نافعة كان لها أكثر من معنى واحد . ولم تكن مدن الإسكندر نفسها وهي الإسكندريات مدناً ((poleis) إغريقية عادية ، وإن أصبحن كذلك في ظل السلوقيين ، بل كانت شكلا جـــديداً قصد به إسكان أناس من أكثر من جنس واحـد أو ربما كانوا يؤلفون مجموعة من جاليات (بوليتياتا) يكون الإغريق فيها أهم عنصر ، وكانوا رعايا خاضعين لولاة من قبل الملك ، كما أن الإغريق المستقرين بها كانوا يرفضون أن يعدوا هذا النظام منطويا على شيء من «الحياة الهللينستية والأسلوب الهللينستي» . وكانت المستقرات العسكرية عند السلوقيين يتوافر لها شكل ما من أشكال الحكم الذاتي على يد الموظفين المعينين فيها كما أنها كانت محصنة ، وكلما زادت رقعتها اتساعا زاد اقترابها شيئاً فشيئاً من شكل المدينة (polis) وصورتها ، كما أن كثيراً منها حققت في آخر الأمر أمنيتها وأصبحت مدناً كاملة الاتساع . وكان ذلك يستلزم على الأقل موافقة الملك وربما استلزم أيضاً شيئاً من إعادة تعديل الوضع من جانبه . مثال ذلك أنه عندما أصبح المستقر العسكري بسوسا يسمي سلوقية على نهر البولانوس ، فلا شك أن الاسم الجديد الحاوي لاسم العائلة المالكة لم يكن في المستطاع إطـلاقه إلا بإذن من الملك المتربع في الحكم . بيد أن المستقر العسكري بعد أن يصبح مدينة كان يحتفظ بما فيه من أنصبة من الأرض (kleroi) المخصصة للجند ، كما يتضح فيما بعد من الحال في دورا الواقعة على الفرات ، على حين أن مكانا يؤسس مباشرة كمدينة لم يكن به أنصبة من الأرض للجند . ومعنى ذلك أن المواطنين الذين يحتلون الإقطاعيات (kleroi) من الاراضي المخصصة

للجند كان لا يزال فى الإمكان استدعاؤهم للخدمة العسكرية ، فى حين لم يكن فى الإمكان استدعاء نظرائهم بمدينة بدأت كاملة التكوين . مثال ذلك أنه عندما أظهرت النقوش التى عثر عليها بسوسا أنها كانت تعد مدينة إغريقية وأنها مع ذلك كان بها أصحاب إقطاعيات من الأراضى المختصصة للجند (kleroi)،ظهر أنها كانت يوماً ما مستقراً عسكرياً ثم حولت إلى مدينة (Polis) وتغير اسمها على يد أحد الملوك . وغنى عن البيان أن المدينة الإغريقية قديمة كانت أم حديثة — كانت المالكة المطلقة لأراضيها ، فى حين أن المستقر العسكرى لم يكن كذلك . ويبين قانون الوراثة المرعى فى دورا يوروبوس،الذى يرجح أنه قديم جداً ، وإن كانت النسخة الموجودة فعلا عندنا أحدث عهداً ، أن صاحب الإقطاع وإن كان يحق له أن يتصرف فى نصيبه على الدوام وكان يستطيع أن يبيع ذلك الحق المكتسب أو يهبه للغير، إلا أن الملك كان مع ذلك المالك النهائى ، وذلك لأنه كان فى حالة وفاة أحد الأفراد بلا وصية يحتفظ بحق الاستيلاء على الأملاك عند عدم وجود ورثة. ولذا فمن الجائز تماماً ، وإن لم يكن فى المستطاع القطع به فى الوقت الحاضر ، أن الفارق الأساسى بين المدينة والمستقر العسكرى لم يكن مرده سعة الرقعة ولا درجة الحكم الذاتى بقدر ما كان مرده امتلاكها لأرضها أو عدم امتلاكها لتلك الأرض .

ولو تركنا المدن الإغريقية وشأنها وأمعنا النظر فى المدن السلوقية الجديدة فى آسيا التى لها نظام المدينة المألوف،وجدناها تنقسم إلى قسمين ، أولها ما كان إغريقيا فى جوهره وثانيها ما كان أهلياً بحتا ، وسنبحث الصنف الثانى من فورنا . والكاتب الوحيد الذى يمكن الاعتداد به والثقة فى استخدامه لكلمة مدينة (polis) هو إيزيدور الخراكسى . وذلك لأنه ينقل عن البيانات المساحية البارثية الرسمية ، وكثيراً ما يكونون استرابون حريصاً ودقيقاً ولكنه لا يلتزم تلك الدقة على الدوام بأية حال . ومن ثم يجوز لنا أن نعد كل مكان بالإمبراطورية يحمل اسماً إغريقيا أو مقدونيا (مع استثناء ممكن ولكنه غير مرجح هو يوروبس (Europus) مسقط رأس سلوقوس) اما مستقراً عسكرياً اتسعت رقعته وإما مدينة كان بها إقطاعيات

عسكرية (Kleroi) ، مثل سوسا (سلوقية على اليولايوس) أودورا يورويس كانت فى البداية مستقراً عسكرياً . ولكن يصح أيضاً اعتبار كل مكان يحمل أحد الأسماء الأربعة للأسرة المالكة — سلوقية وأنطاكية المسماة (على اسم أنطيوخوس والد سلوقوس) ، ولاؤدكيا (على اسم والدته) وأباميا (على اسم زوجته الإيرانية) ، أنه كان مدينة إغريقية إما أنها كانت منذ البداية من إنشاء أحد الملوك وإما مكاناً أطلق عليه ملك اسماً جديداً مثلما كانت عليه سوسا . وأن المدن ذات الأسماء المقدسة مثل أرتميتا وهراقليا ، ربما كانت هى الأخرى مؤسسات ملكية أيضاً ، ولكن التسمية سرعان ما أصبحت شيئاً عسيراً بالنسبة لوجود هذا العدد الضخم من الأسماء الملكية ، مثلما كان الحال بإزاء إسكندريات الإسكندر السبع عشرة . والواقع أنه فيما يتعلق بالمدن السلوقية كان الاسم الرسمى يحتوى فى كل حالة على إضافة جغرافية ، وذلك كما هو معروف من أن اليونانى من أبناء سلوقية — سوسا كان من الناحية الرسمية يسمى نفسه لا باسم السلوقى بل باسم « السلوقى من النازلين على اليولايوس » ؛ ولكن تحديد الموضع فى الاستعمال اليومى كان من المحال ، ولذا اكتسبت كثير من المدن السلوقية (بل ربما جميعها تقريباً) كنيات (أى أسماء شعبية) ، وذلك هو ما فعلته كثير من الإسكندريات. وغنى عن البيان أن عدداً عظيماً من هذه الأسماء الشعبية العديدة الأنواع لا تزال معروفة إلى اليوم ، كما أنها غالباً ما تحل فى المصادر الأدبية محل الأسماء الرسمية وتقصيها إقصاء تاماً ، وهو أمر جلب على الكتاب المعاصرين الشىء الكثير من الارتباك قبل أن يتم اكتشاف هذه الطريقة .

وليس فى المستطاع دائماً معرفة أعمال وآثار أى فرد من الأسرة السلوقية. ولكن يمكن القول إجمالا إن تنظيم المدن بشمالى سورية وإقليم بابل وما حول الخليج الفارسى يرجع إلى سلوقوس قبل كل إنسان ، وإن التنظيم بإيران يعود الفضل فيه إلى أنطيوخوس الأول . وإن الفضل فيما يوجد بآسيا الصغرى من مدن يعود إلى أنطيوخوس الأول وأنطيوخوس الثانى ، مع توسع ملحوظ فى تلك الجهود بقيليقية والشرق ينسب إلى أنطيوخوس الرابع إبيفانز ، حيث غالباً ما تميز مدنه باسم « إبيفانيا » . وإليكم قائمة موجزة بأسماء المدن السلوقية الرئيسية . فإن سورية الشمالية العامرة من قبل بالمحنّكة من جند أنتيجونس

وقواده أصبحت فى ظل سلوقوس مقدونيا ثانية ؛ فهنا كانت توجد بيريا جديدة وكورهستيكى ، كما كانت توجد وراء الفرات ميجدونيا جديدة ، وهنا كانت تقوم المدن الأربعة العظيمة المسماة على اسم سلوقوس . وقد صار لأنطاكية عاصمة الإمبراطورية الواقعة على نهر العاصى (Orontes) (الذى كان صالحاً للملاحة فى تلك الأيام)ـ أربعة أحياء كبرى لكل منها سوره داخل سور المدينة العام. فقد بنى سلوقوس بالمدينة الحى الأول وشاد سلوقوس الثانى الحى الثالث، كما أقام أنطيوخوس الرابع الحى الرابع . ولم تصبح أنطاكية فى يوم من الأيام مركزاً للعلم، وهى إن أصبحت مركزاً تجارياً عظيماً فقد كانت شهرتها دائماً أنها مدينة ملذات، كما ساءت سمعة حديقتها الكبرى دافنى (Daphne) ، وقد كتب بوسيدونيوس وهو من سكان أباميا المجاورة ينعى على السكان الإغريق السوريين ما ينغمسون فيه من ترف . وبالقرب من مصب نهر العاصى يقع الميناء الحصين وهو سلوقيا الواقعة عند سفح جبل بيريا ، وبها مقابر الأسرة المالكة وهى ترتفع أروع ارتفاع عن البحر فى مدرجات بعضها فوق بعض منبسطة فى صخرتها العظيمة وتعبد حجراً مخروطيا ، ورثته عن عالم أقدم منها . وإلى الجنوب تقع على البحر لاؤديكيا (اللاذقية) ، كما تقع فى المجرى الأوسط من العاصى وفى سهلى ملىء بالأبخرة مدينة أباميا ترسانة السلوقيين التى حلت محل بلا (Pella) التى شادها أنتيجونس. وهنا كانت توجد أحياء الفيلة والإسطبلات العظيمة لكرائم الخيل . وفضلا عن هذه المدن الأربع اكتظت المنطقة بالمستقرات الممتدة حتى لاؤديكيا اللبنانية وهليو بوليس (بعلبك) بالقرب من منبع نهر العاصى ؛ وكانت المدن الموجودة فى الناحية الشرقية أكثر عدداً ، وهى المجتمعة حول بيرويا (حلب) على نهر خالوس ، على الطريق من أنطاكية إلى هيرابوليس ـ بامبيكى (مبوّج) وحول مدينة خالكيس (Chalcis) الموجودة دون ذلك جنوباً ، كما توجد فى الشمال مدينة باسم أنطاكية الموجودة فى كورهستيكى . وكان خط مديد من المدن يقع على حافة الفرات ، منها دورا التى أعيد بناؤها تحت اسم يورويس وثاپساكوس التى جددت باسم أمفيبوليس ؛ وإلى ما فوق ذلك شمالا كانت مدينة باسم أباميا تحمى كوبرى الزوارق المقام قرب زيوجما ، التى حلت محل ثاپساكوس وصارت منطقة العبور المطروقة . وكانت تقوم بشمال أرض الجزيرة عدة مدن من بينها مدينتان شهيرتان ، هما أنطاكية (نصيبين) بميجدونيا، وأنطاكية

إدسا (الرُها) بوادى الأورفة. وفى القرن الثانى انقلب اسم حماة إلى إبيفانيا، وأصبحتْ بيروت لاوُديكيا (اللاذقية) ، كما ظهرت مدينة باسم أنطاكية على بحر الجليل ، هذا إلى أن مدينة أورشليم أطلق عليها اسم أنطاكية فترة من الدهر (الفصل السادس) .

كان سلوقوس يعمل فى إقليمى بابل وسوسيانا بوحى من أفكار الإسكندر فيما يتعلق بالخليج الفارسى ، وذلك هو نفس النهج الذى يرجح أن ليسيماخوس قد اتبعه فيما يتعلق بالبحر الأسود . وكانت أعظم مدينة هنا أول شيء شيده سلوقوس ، وهى مدينة سلوقية على الدجلة أسفل بغداد بمسافة قصيرة ، وقد حلت فى الأهمية محل بابل . وأصبحت سوس مدينة سلوقية على اليولايوس (ورد ذكرها من قبل) ، وكانت هنالك مدينة أخرى باسم سلوقية بإقليم سوسيانا على الهيديفون وثالثة على البحر الإريترى[1] (أو بالأحرى الخليج الفارسى) وهى موطن سلوقوس الفلكى (نفس هذا الفصل) . وكانت هنالك مدينة باسم أباميا فى ميسنى ، كما كانت تقع أعلى بغداد أباميا أخرى وأنطاكية أخرى ودورا أخرى ، وعلى قرب من التلال السوسية ، حيث يتشعب الطريق الرئيسى الممتد شرقا من سلوقية ، كانت تقوم مدينة أرتميتا العظيمة الشأن . وهناك مدينة الإسكندرية الواقعة على مصب الدجلة والتى سميت فيما بعد خاراكس إسباسينو ، وقد أعاد بناءها أنطيوخوس الرابع باسم أنطاكية ، على أن الأماكن الثلاثة المعروفة على الجانب العربى من الخليج وهى لاريسا وخالكيس وأريثوسا لابد أنها كانت مستقرات عسكرية ، وثمة مستقرات أخرى معروفة على الخليج . وقد دمر أنتيجونس الأول مدينة بابل ، وفى ٢٧٥ نقل أنطيوخوس الأول البقية الباقية من سكانها المدنيين ولم يترك بها إلا المعبد ، والراجح أن إعادة تشييدها من جديد كمدينة إغريقية كان على يد إبيفانيز . وكذلك أيضاً اصطبغت أوروك وهى ورقة (Warka) بالصباغ اليونانى بصورة جزئية وتسمت أورخوى (Orchoi) ؛ ولكنها على الرغم من ضخامة عدد سكانها اليونان كان يحكمها موظفوها العموميون من الوطنيين كما لم يكن لها فيما يلوح أى شكل من أشكال المدينة اليونانية .

فأما عن إيران فقد أنشئت فى ميديا طائفة جمة من المنشئات قصد بها فيما

---

(١) البحر الإريترى هو البحر الأحمر . (المترجم)

قصد كبح جماح القبائل الجبلية ـ منها يوروبس راجاى قرب طهران وأباميا عند البوابات القزوينية بإقليم بارثيا مدينة هيكاتومبيلوس وأربع مدن أخرى، وأنشئت فى برسيس مدينة أنطاكية على الخليج الفارسى (ولعلها بوشير)، وربما أنشئت مدينة باسم لاؤديكيا، وإن كان الشعور الوطنى قوياً والملوك الكهنة الوطنيون أجداد الأسرة الساسانية لا يزالون يحكمون فى برسبوليس (إصطخر). وقد أدت الغزوة العظيمة التى قامت بها قبائل الساكا قرابة ٢٩٣ والتى لعلها هى السبب فى أن سلوقوس بعث بابنه أنطيوخوس (الأول) ليحكم الشرق، أدت إلى تدمير ثلاث على الأقل من الإسكندريات هى خوقند (Chodjend) ومرو وتارميتا (ترمز) على نهر جيحون (أموداريا). وكلها أعاد أنطيوخوس بناءها من جديد باسم أنطاكية، ولعله بنى مدناً أخرى كذلك لولا أن النصوص هنا تستعصى على كل حل وتفسير. وأخيراً حول اسم سوس إلى سيلوكيا على اليولايوس على يد أنطيوخوس الثالث (فيما يحتمل). كما أن إيبفانيز أعاد بناء مدينة إكباتانا وسماها إيبفانية.

وفى آسيا الصغرى كان الطريق الرئيسى بين سورية وأيونيا موضع عناية كبيرة. وعند ملتقى الطريق الآتى من ميليتينى (Melitene) مخترقة مزاكا الكبادوكية بالطريق الآتى من طرسوس خلال أيكونيوم، — كانت تقوم مدينه لاؤديكيا وتُكنى (المحروقة) وتسمى كذلك بسبب أفران مناجم الزئبق الموجودة قرب زيزيما، وتقوم فى الجانب الغربى المدينة العظيمة أباميا — كيلايناى المسماة «بالفلك»، وهو اسم مجهول المعنى أدى بها فى النهاية إلى وضع صورة فلك نوح على عملتها، وإلى ما وراء ذلك غرباً على نهر ليكوس، حيث يفترق الطريقان المؤديان إلى إفيسوس وسارديس كانت تقوم لاؤديكيا أخرى. وكانت هذه المدن هى المراكز الرئيسية للأسفار والمواصلات. وكان هناك طريق يمتد جنوباً من لاؤديكيا المحروقة ويبلغ البحر عند سلوقيا (سيليفكيا Selefkia) على نهر كاليكادنوس، وآخر يمتد شمالا بجوار فيلوميليوم وسينادا إلى نيقيا ونيقوميديا بإقليم بيثينيا. وكانت الطرق تمتد من أباميا كيلايناى إلى أنطاكية وأبولونيا وسلوقية (الحديد)، وهى مدن حراسة على الحدود الفاصلة عن بيسيديا المستقلة. وكان هناك طريق

يمتد جنوباً من لاؤديكيا على الليكوس مخترقاً كيبورا الوطنية إلى ساحل بامفيليا . وعند هذه اللاؤديكية — كان الطريق الرئيسي يتفرع ، فيتجه طريق إلى ساردیس ويواصل مسيره شمالاً إلى ثياطيرا السلوقية التي يمتد منها طريق إلى برجامة وآخر يسير شمالاً ماراً باستراتونيقيا على نهر الكايكوس إلى كيزيكوس . ويسير الآخر إلى إفيسوس ماراً من خلال أنطاكية على الماندر وأنطاكية — نيسا ثم سلوقية — ترلليس، وكان فرع منه يسير جنوبا ماراً بأنطاكية — ألابندا إلى استراتونيقيا بكاريا. وقد أعيد تنظيم وتسمية كثير من المدن القيليقية فى عهد الملك إبيفانيز، وإن كنا نعتقد أن القول بأن خمسين مدينة يونانية كانت معروفة هناك فيما بعد ، فيه شيء من المبالغة ، وأصبحت كل من مالوس وأدانا (قطنة) تسمى أنطاكية، كما صارت موبسيوستيا تسمى سلوقية . وأصبحت طرسوس التي تسمت أنطاكية من قبل فى القرن الثالث مدينة جامعية هامة فيما بعد .

ومن المحقق أن المدن السلوقية الجديدة كانت تدفع الضرائب ، وذلك لأن قدراً عظيماً جداً من أرض الملك (الدولة) كانت تنتقل إلى ملكيتهم وتصبح أرض مدن بحيث لم يكن فى وسع الخزانة العامة أن تتحمل ما يصيبها من خسارة فى ضرائب الأرض لو لم تكن تتلقى ما يعادل تلك الضرائب . وكان بعض هذه المدن تحت حكم ولاة مدنيين (Epistatai) مسئولين أمام الملك ، ومع ذلك فالواقع أنهم لم يرد ذكرهم إلا مرتين ، فى كل من سلوقية فى سفح جبل بيريا وسلوقية على الدجلة فضلا عن « سيد المدينة » البابلى بأوروك . ومن الجلى أنه كلما كان هناك عدد كبير من السكان الوطنيين ، كان من المرغوب فيه وجود سلطة أخرى فوق موظفى المدينة العموميين ، ولكن الواقع الذى جرى به العمل بأنطاكية فى برسيس ، أنه إذا كان هناك وال مدنى (Epistates) فإنه لم يكن له سيطرة على الجمعية العامة من الأحرار ، كما أن المدينة كانت تؤرخ تواريخها بعام كاهن عبادة السلوقيين وليس بالعصر السلوقى . حتى إذا بدأت الأسرة فى الاضمحلال نجحت المدن السورية شيئاً فشيئا فى الحصول على قسط كبير من الاستقلال . فلم تكد تحل ١٤٨ — ١٤٧ حتى كانت المدن السورية الشمالية الأربع قد حصلت على قدر من الاستقلال كاف لكى تكوّن

محالفة لتبادل النقد والعملة بين «الشعوب الشقيقة». وعندما كانت تنشب الحروب الأهلية بين أفراد الأسرة المالكة ، كانت المدن السورية تقوم بدور هام باعتبارها عنصراً سياسياً ، فتساعد هذا « المنازع » أو ذاك ، ومنذ (١٤٠) فصاعداً كان الكثير منها يحصل من بعض الملوك ، ثمناً لما يقدمه إليهم من مساعدة ، على لقب « المقدسة التى لا تنتهك حرمتها » (الفصل الثالث) . ومعنى ذلك حصانتها من كل هجوم يصدر منه عليها وأن يكون لها الحق فى إيواء من أساءوا إليه ، كما أنها كانت تبدأ فى سك عملتها مستخدمة فى تأريخها الحقب التى نالت فيها حريتها .

وفضلاً عن المدن والمستقرات العسكرية ، ربما كانت هناك بعض المستوطنات المدنية بآسيا الصغرى، وإن لم يرد ذكرها فى المراجع حتى الأزمنة الرومانية ، كما أنه ليس فى الإمكان التفريق بسهولة بينها وبين القرية الوطنية المتطورة ، التى كانت تعمل على الدوام نحو الحصول على مظهر من مظاهر التماسك . وفى ظل هذا النظام لا يعود القرويون يسمون أشباه رقيق الأرض (Laoi) ، بل يسمون بتلك اللفظة النافعة « المستوطنون » (Katoikoi). وهنا كانت المدن الإغريقية القديمة تقدم المعاونة ، وذلك لأن الفلاحين كانوا فى مناطقهم يميلون أن يصبحوا مستوطنين (Katoikoi) (الفصل الرابع) . وذلك يتضمن وجود ضرب من الحكم المحلى فى القرى ، مهما يكن بدائياً فى أول الأمر . ولا مراء أن ذلك الوضع نفسه كان يحدث فى مناطق المدن الإغريقية الجديدة . وكان ذلك بمثابة درجة ارتفعها قدر الفلاحين ، كما يتبين من أن يومينيس الثانى صاحب برجامة رد بعض المستوطنين (Katoikoi) ثانية إلى مرتبة أشباه رقيق الأرض (Laoi) ؛ وقد سبق أن لاحظنا نمو الحكم المحلى ببعض القرى الوطنية بشمال سورية (الفصل الرابع هامش) . والحق إن من أهم وأبرز الظواهر التى تتميز بها الحقبة السلوقية استمرار النمو والتقدم فى الأوضاع والأشكال السياسية المتنوعة ، واستمر هذا التقدم دون عائق يعوقه حتى الأزمنة الرومانية ، حيث كانت القرية الوطنية غير المحددة الشكل آخذة فى أن تصبح مستوطناً ، قد يتحول بدوره إلى مدينة هللينستية . وكانت القرى التى يطبق عليها هذا التنظيم تتجمع بعضها مع بعض فى النهاية ، وربما

كان ذلك مع شيء من المحاكاة للأشكال الإغريقية — مكونة رابطات أو أحلافا ترجع أصولها إلى العصور السلوقية . ومن هذه الرابطات ما كان يسمى باسم الكايستريانيين (Caystriani) أو الهيرجاليين (Hyrgaleis)أو الهيبتاكوميتانين(ذوى القرى السبع) (Heptakometai)أو البنتيديميين(الأحياء الخمسة) (Pentedemiti) وكثير غيرها . ومنها ما كان يصل فى النهاية إلى مرتبة سك العملة ، وهو حق كان فى العادة مقصوراً على المدن . وبديهى أن تطور القرية إلى مدينة مُهلنة لم يكن جديداً جدة مطلقة ، كما أن هذه العملية نفسها كانت مرعية فى بعض بلاد اليونان أيضاً مثل أيطوليا ، بيد أن القرية الأيطولية كانت تختلف اختلافاً بليغاً عن قرية سكانها من موالى الأرض الفريجيين ، أما الشيء الذى كان لا نظير له فى حكم السلوقيين فهو نطاق تلك العمليات . فلو أتيح الزمن الكافى للعمليات الجارية فى آسيا الصغرى وشمال سورية ، لكانت النتيجة النهائية أن تصبح المملكة كلها مكونة من مدن يقع فى تخومها نطاق من الأرض وتستمتع باستقلال ذاتى ، وكلها تحت سيادة ملك رب يتولى شئون الأمن ويدبر السياسة . ولسنا ندرى هل كان السلوقيون الأول يرون هذا الرأى فعلاً أم لا . ولكن الشيء المحقق هو أن روما كانت ترى ذلك ، كما أن الطريقة التى حاولت روما بها أن تعجل بالأمور توحى بأن الفكرة هللينيستية . وذلك لأن بومبي حاول أن ينفذ هذه الفكرة فى بعض الأماكن بجرة قلم بعد أن تغلب على مثريدانيس ووجد نفسه قادراً على عمل أية تسوية يشاؤها ، وهكذا قسم بنطش إلى إحدى عشرة مدينة إقليمية ، ولم تكن بين هذه المدن الإحدى عشرة سوى ثلاث إغريقية هى : سينوبى وأميسوس وأماسيا . وكان باقيها مدناً أو قرى وطنية حولت إلى مدن إغريقية رومانية مثل « يوبانوريا — ماجنوبوليس » أو « كابيرا — ديوسبوليس »، ثم إنه أنشأ بالمثل اثنتى عشرة مدينة إقليمية فى بيثينيا . بيد أن الإمبراطورية الرومانية كانت تقنع بتطور أبطأ وأدنى إلى الطبيعى ، دأبه أن يكون غير منتظم الشكل . ذلك أن أية مدينة قد تضمحل وتعود فتصبح من جديد قرية .

وربما جاز لنا أن نعرض عليك حالة تمثل مبلغ تعقيد أوضاع أشكال المدن

الهللينستية بآسيا . ذلك أن كاريا كان بها حلف دينى قديم من القرى الوطنية التى كانت تعبد زيوس ذا السيف الذهبي Chrysaoreus، وثم قرية هى ألا باندا أعيد بناؤها باسم أنطاكية . ومع أنها أصبحت عندئذ مدينة يونانية إلا أنها ظلت عضواً فى هذا الحلف الكارى . وهناك مدينة جديدة هامة هى استراتونيقيا . وقد ضمت إليها بعض هذه القرى كأراض تابعة للمدينة ، فأصبحت أحياء (Demes) لها ، وعن طريق هذه الأحياء أصبحت هى أيضاً عضواً فى الحلف. وكان اسم أحد هذه الأحياء « بانامارا » ، (Panemara) ، وكان يعبد زيوس طوال النهار، وقد بلغ به التقدم فى التنظيم مرتبة جعلته يصدر المراسيم ويمنح مواطنيته ، أى « مواطنية الحى » للأجانب . ومما فعلته بعض الأحياء فى هذا الصدد أنها وهبت مواطنيتها لمواطنين من مدن أخرى منهم بعض أبناء استراتونيقيا ، وهى المدينة التى كان اليونان يعدونها جزءاً منها . فلا عجب أن استرابون كف عن محاولة العثور على اسم يونانى يعبر عن وصف هذا الحلف الكارى القديم على ما عرفه ، والتمس النجاة لنفسه حيث سماه a'system' « نظاما » ما .

فاذا انتقلنا الآن إلى الدور الذى كان يلعبه الآسيويون فى عملية التوطين السلوقى ، وجب على المرء أن يميز أولا المدينة (polis) التى كانت إغريقية فى معظم أمرها ، من تلك التى يغلب عليها الطابع الآسيوى . وهناك مدن جديدة تبدو إغريقية صرفة مثل أنطاكية فى برسيس (بوشير) وهى التى استوطنتها بالنيابة عن أحد ملوك السلوقيين مدينة ماجنيزيا الواقعة على الماندر . ولكن الأسماء اليونانية لا تدل على الشىء الكثير ، وذلك لأن الفينيقيين قد أخذوا يستخدمون تلك الأسماء بعد (٣٠٠) بفترة وجيزة ، كما أنتهج كثير من الآسيويين ذلك النهج نفسه . ثم سمحت بعض المدن الإغريقية ، القديمة منها والحديثة ، بدخول بعض أفراد النخبة المختارة من الأسيويين فى مواطنيتها حتى فى القرن الثالث نفسه (حيث كانت هناك سوابق قديمة ، وذلك لأن الدم الكارى والليبي كان شديد الانتشار بين مجاميع السكان المواطنين فى ميليتوس وقيرنية) . وهكذا سجلت أسبندوس فى قبائلها بعض المرتزقة الأسيويين ذوى الدماء المخلطة ، ومنحت أزمير حق المواطنية لجماعة من جند الفرس ،

وكان باستراتونيقيا أحياء (وقد سبقت الإشارة إليها) . أما ساردیس التی لم يكن لها فی أثناء القرن الرابع إلا منظمتها الوطنية ، فقد أصبحت مدينة (Polis) فی أثناء القرن الثانی . وليس من المعقول أنه لم يكن بها عدد من المواطنين الليديين ، شأن سلجی (Selge) التی اخترعت لنفسها أسطورة إغريقية قديمة تتحدث عن تأسيسها . ولا شك أنه كان بها كثير من البسيديين ، كما كان بالمدن الليقية المهلنّة كثير من الليقيين ، ولا بد أن أنطاكية — طرسوس أيضاً كان بها كثير من المواطنين الوطنيين ، على حين أن برجامة منحت فی (١٣٣) حق المواطنة للأسيويين بالجملة (نفس الفصل الرابع) .

على أن منح حق المواطنة الفعلی للأسيويين لم يكن فيما يلوح هو الصورة المألوفة . وتشير جميع الاحتمالات إلى أن الطريقة المألوفة لانضواء الأسيويين فی مدينة إغريقية هی نظام الجاليات (Politeuma) وهو المعروف بآسيا فيما يبدو باسم نظام المستوطنين (Katoikia) (نفس الفصل) . وكان معنى ذلك وجود هيئة منظمة تتألف من الأجانب . مثال ذلك الجالية السورية (Politeuma) فی سلوقية أو الجالية اليهودية فی كثير من المدن ، وكلها كان لها حقوق سياسية محددة أدنى من حقوق المواطنية ولها منظمتها الخاصة ، ولها هيئتها الخاصة من الموظفين العموميين ، أو من هم فی مرتبتهم ، ولكنهم لم يكونوا جزءاً من كيان المدينة ، حيث كان الإغريق وحدهم هم المواطنون ، فهم « الأنطاكيون أو السلوقيون » أو أی نوع آخر ، كما أن الموظفين العموميين من اليونان كانوا يتولون شئون جميع السكان فيما يتعلق بأمور من أمثال الأغذية أو الصحة العامة .

فإذا كان هناك هيئة ضخمة من الأهالی الوطنيين ، فربما حلت المشكلة الأهلية على أوجه كثيرة عدا المواطنية أو نظام الجاليات (Politeumata) . وكان لبابل الجديدة مسرح (مدرج) يونانی وجيمنازيوم ومنظمة مدنية ؛ ولكن مناشط البابليين الدينية والعلمية تواصلت ، رغم وجود تلك الأشكال اليونانية مثلما تواصلت بمدينة أوروك التی لم تكن فيما يبدو مدينة (Polis) يونانية (نفس الفصل) . وحافظت سلوقية على طابعها الهللينستی حتى النهاية ، ولكنها امتصت أيضاً سكان بابل الوطنيين ؛ وحلت محل أوبيس (Opis) ،

وهى مدينة محلية كبيرة . ولما كان مجموع سكانها الكلى يبلغ فى النهاية ستمائة ألف نسمة ، فلابد أن يكون بها بصورة ما عدد ضخم من السكان الوطنيين خارج الأسوار . بيد أن أوبيس ظلت محتفظة بكيانها منفصلاً ، كما ظلت مركزاً هاماً للتجارة قائماً بذاته مثلما حدث فى أبولونيا تجاه بيسيديا أن ظلت المدن التراقية والليقية منفصلة . وربما كانت أوبيس بمثابة القرية التابعة الملحقة بسلوقية . ولكن سلوقية أصبحت من ناحية ما مدينة مزدوجة ، وذلك لأن بعض قطع عملتها تحمل صورة ربتى مدينة ذات أبراج وقد اشتبكت أيديهما . والعادة أن الربة الثانية تعد ممثلة لمدينة طيشفون (Ctesiphon) القديمة، ولكن ربما جاز أنها أوبيس باعتبارها ممثلة لسكان سلوقية البابليين . ومعنى هذا أن العملة ربما كانت تمثل بصورة أوسع الصداقة بين الإغريقى والبابلى . وربما كان هؤلاء السكان الوطنيون أحد الأسباب (حيث تكون الأسباب التقليدية هى وحدة الوطن وقرب الجوار) التى من أجلها يسمى السلوقيون فى أغلب الأحيان بابليين ، فيعود ذلك بالارتباك على العلماء المعاصرين . وعلى نفس هذه الشاكلة كان سلوقوس الفلكى الإغريقى ينعت بالكلدانى (نهاية الفصل الرابع) ، وهو من سيلوقيا الواقعة على الخليج الفارسى . على أن أنطاكية (العاصمة) كانت تختلف مع ذلك هى الأخرى . فإن مدينة الملك سلوقوس كانت إغريقية ـ مقدونية بحتة ، ولكن أنطاكية وجد بها فيما بعد عنصر سورى ضخم ، وربما كان هذا تفسيراً للحى الثانى الذى استغلق أمره علينا ، والذى لم يكن له أى مؤسس حقيقى . وكان السوريون يسكنون خارج الأسوار ، ثم عمد القائمون بالأمر بعد ذلك إلى إدخالهم فيها وإحاطتهم بالسور الثانى ؛ ولعلهم كانوا يكونون جالية (Politeuma) كالجاليه السورية بسلوقية ، ولكن المرء لا يستطيع أن يجزم فى هذا الصدد برأى وربما كانت أنطاكية — إدسا (الرها) التى تنعت بأنها شبه بربرية — من نفس هذا الطراز ، وكذلك شأن أنطاقية تجاه بيسيديا ، ومع أنها كانت مدينة إغريقية إلا أنها احتاجت إلى أن يؤسس بقربها مزار مقدس منفصل للرب مين الأسكينى (Mén Askaonos) (انظر الفصل العاشر) ، وهو أمر يشير إلى وجود حى وطنى كبير منذ البداية . وثمة مدينة وطنية قديمة هى مدينة أرادوس الفينيقية تحظى بامتيازات استثنائية جداً من سلوقوس الثانى ، منها الحق فى إيواء اللاجئين السياسيين .

وفضلا عن هذه الظواهر كانت هناك أيضاً مدن جديدة لم تسم إلا بأسماء وطنية . ويذكر إيزيدور الخاراكسي عدداً منها يقع معظمه فى شرق إيران . ولما كان ينقل إلينا ما سجلته البيانات المساحية البارثية الرسمية عن المواقع فى زمن يقارب ١٠٠ ق.م ، فإنه إذا سمى مكاناً باسم مدينة (polis) كان ذلك المكان مدينة فعلا . ولابد أنه كانت هناك مستقرات عسكرية شرق الفرات إما مختلطة الأجناس وإما أسيوية صرفة (وذلك لأن السلوقيين كانوا يستخدمون بعض الجند الأسيويين) مثل المستقر القائم بأفرومان بكردستان (نفس هذا الفصل ، هامش) ، حيث كانت الإغريقية هى اللغة الرسمية . بيد أن جميع من ورد ذكرهم كانوا من الآسيويين . على أن هذه المستقرات العسكرية قد نمت فصارت مدناً ذات أسماء وطنية ، فلو فرض أن بعض الإغريق كانوا بتلك المدن، فلابد أنهم كانوا يعيشون تحت حكم الحكومة المحلية للمواطنين الآسيويين مثل إغريق سيرينكس Syrinx فى هيركانيا (Hyrcania) أو أولئك الذين كانوا يعيشون فى الحى اليونانى بمدينة سورية لم يذكر اسمها . وهناك نقش يرجع إلى القرن الأول مصدره أنيسا بكبادوكيا ربما أوضح لنا نشأة مثل تلك المدينة ، ولعلها نشأت فى هذه الحالة بأمر ملك كبادوكيا . ومنه يستنبط أنه كان لها مقومات المدينة الإغريقية المستكملة ، وكانت لغتها الرسمية هى اليونانية . بيد أن جميع من وردت أسماؤهم من الرجال كان لهم إما أسماء كبادوكية وإما كانت أسماء آبائهم كبادوكية ، وكانت دار التسجيل معبد ربة محلية . والشىء الذى تشهد به تلك المدن حقاً هو شدة افتتان الآسيويين بأنظمة المدن الإغريقية .

والسلوقيون ، وإن لم يكن لهم هدف معين يرمى إلى طبع سورية بالطابع الهللينستى إلا أن مجرد التجاور البحت كان له بطبيعة الحال بعض الأثر ، كما أنه كانت هناك قوتان تعملان إلى جوار عامل السياسة : أولاهما هى القانون ، ذلك أن القانون اليونانى كان يشق طريقه يساعده فيما يرجح تلك السياسة التى كانت فى الأصل سياسة الإسكندر دون ريب ، وهى سياسة تطبيق ذلك القانون على الجاليات الأجنبية بالمدن . فقد نما قانون إغريقى سورى اضطرت روما أن تحترمه ، وقد تعقب المؤرخون تاريخه فى سورية إلى ماوراء ذلك بعدة قرون

كما أن النظم القانونية الإغريقية كانت متأصلة عميقة . وكما أن قانون مدينة الإسكندرية ، وإن كان يونانياً ، إلا أنه ليس فيما يظهر قانوناً يونانيا منقولا عن أية مدينة بعينها ، فكذلك قانون الإرث الذى نقل عن دورا (الفصل الرابع هامش) فإنه يعد أثينياً أضيفت إليه عناصر أخرى . ولكن الشيء المدهش المسترعى للأنظار هو وثائق القرن الأول ، وهى عقود إيجار يونانية كتبت باللغة الإغريقية بين رجال لهم أسماء إيرانية ووجدت ببلدة أفرومان ، وذلك لأن هذه لم تستخرج من أية مدينة كيفما اتفق ، بل من قرية نائية بكردستان الإيرانية . وكانت القوة الثانية هى اللغة اليونانية التى كانت لساناً قاهراً حيثما حلت . وكان يستخدمها عدد عظيم جداً من الأسيويين ، وكان لها موطىء قدم حتى فى كيبورا الشهيرة بكثرة ما بها من ألسن ، وكان بعض الأسيويين يكتبون الكتب باليونانية . ومن المحتمل أنها أصبحت لغة التخاطب الشائعة والواسعة الانتشار (Lingua franca) بين التجار فى كل مكان خلا إقليم بابل . بل إنه حدث حتى فى بابل نفسها أن بعض الكهنة فى القرن الأول ق.م كتب تكريساً بالأحرف اليونانية . وبعد ذلك بفترة وجيزة كانت شواهد القبور النبطية وما عليها من نقوش تترجم ما كان لدى اليونان منها . وقد عثر على وثائق يونانية حتى فى جورجيا ، التى لا يكاد يصدق أن أى إغريقى زارها . وهناك ألفاظ إغريقية كثيرة مستخدمة فى اللغتين السوريانية والأرامية ، كما أن اليونانية طردت الألسن الأهلية طرداً تاماً من كل من ليديا وغرب فريجيا . ولكن مهما تكن القوة التى بلغتها اليونانية كأداة توصل بين الناس فإن نجاحها كانت له حدوده ، ذلك بأن فريجيا الشرقية وليكا وليكاؤنيا وسورية احتفظت جميعاً بلغاتها الأصلية فى النواحى الريفية ، وذلك هو بطبيعة الحال ما فعلته بلاد آسيا الداخلية ، فإن اللغة الفينيقية لم تبرح لغة الكلام فى أثناء الحقبة المسيحية حتى فى بيبلوس (Byblos) وصور على ساحل البحر . ولكن هناك نتيجة لتجاور الأجناس فى الحياة والتجارة ، هى ظهور ما يسمونه باسم «اليونانى بالثقافة» وهو الأسيوى الذى «يتحول إغريقياً» — إن جاز مثل هذا القول — فيتخذ اسماً إغريقياً ويتعلم اللسان والثقافة الإغريقية فإن المرأة (الأممية الإغريقية) التى هى «فى جنسها فينيقية سورية» والتى يذكرها إنجيل مرقس إصحاح ٧: آية ٢٦ — كانت من هذا النوع . وفى الإمكان جمع الأمثلة الدالة على ذلك النوع من

التحول عن طريق الثقافة بين الجانبين ، وليس هنا موضع بحثها .

ومن أعظم الأشياء التي فعلها السلوقيون إدخالهم تقويماً حقيقياً. ولكنهم ليسوا أسبق الناس إلى ذلك ، وذلك لأن بعض المدن الفينيقية قد سبقتهم إلى البدء في استخدام تاريخ ثابت يؤرخون به . بيد أنه كان أول تقويم عام . وكان ينطوي على تقدم عظيم في الحساب والتقويم على أساس تسمية العهود بأسماء بعض الموظفين العموميين أو على أساس سنوات حكم أحد الملوك — وهي خصيصة بربرية لا تزال تستخدم في التاريخ الرسمي للقوانين وإصدارها ببريطانيا العظمى . ومنذ ابتداء الحقبة السلوقية أخذت التواريخ تحسب بأرقام بسيطة، على أنه كانت هناك صيغتان تستخدمان لتلك الحقبة، فإن السنة الأولى ابتدأت بإقليم بابل بيوم أول نيسان (مارس — أبريل) عام ٣١١ وهو العيد الأول للسنة الجديدة لسلوقوس بعد أن استرد مدينة بابل ، ولكن التقويم كان يبدأ في سورية باليوم الأول من السنة المقدونية التي كانت دارجة الاستعمال آنذاك أي أول ديوس (أكتوبر) عام ٣١٢ . وبذلك كان هناك فرق يقارب خمسة أشهر بين التاريخين . وكان التقويم السلوقي واسع الانتشار في آسيا حتى عند اليهود كما أنه دام طويلا ، وتستخدم فيه في الغالب أسماء الأشهر البابلية أو الفارسية بدلا من المقدونية . وكان يستخدم في كل أرجاء الإمبراطورية البارثية وما يتبعها من ممالك ، وبلغ بلاد الهند ، وكان (فيما يقال) لا يزال يستخدم في بعض أجزاء من سورية في القرن الراهن .

ولو تأملنا المدى الواسع الذي بلغه الاستيطان الذي قام به السلوقيون في آسيا، أوشك أن يتعذر علينا أن نصدق أنه فشل . ولكن الواقع أنه قد فشل ، فلم يصادف نجاحاً إلا في أجزاء آسيا الصغرى وسورية التي أمدته فيها روما بالعون والرعاية . ولكنه لم يفشل (كما كان الناس يعتقدون فيما سبق) لأن الزواج المختلط قد جعل من الإغريق قبل نهاية القرن الرابع شرقيين مولدين يجري في عروقهم دم مشترك، والواقع أن شيئاً من ذلك لم يحدث . فإن اليونان كانوا يستطيعون أن يستوعبوا القدر الكبير من الدم الأجنبي ويظلون مع ذلك إغريقاً كما تشهد بذلك ميليتوس وبرقة، أو يصبحون هجناء مثل تميستوكليس وكيمون. ولكن الواقع أن الإغريق في آسيا ظلوا حتى قرابة الحقبة المسيحية يبذلون أقصى الجهد للمحافظة على نقاء دمائهم ، كما أن ذيوع الأدب اليوناني

بعد الفتح البارثى لم يكن إلا إثباتاً منهم وتأكيداً لعترتهم اليونانية . وقد كون الهجناء المولدون بشمال أرض الجزيرة حوالى ٥٠ ق. م. طائفة منعزلة عُدت أقرب إلى البرابرة منها إلى الإغريق، كما أطلق عليهم اسم خاص ينطوى على الزراية والتحقير ، وكان هناك حتى بمدينة دورايوروبس مراقبون للسلالات والأنساب (genearchs) ، كانت إحدى مهام وظيفتهم المحافظة على نقاء دماء الأسر الإغريقية . ومما يؤثر عن دورا بطبيعة الحال وفرة تخالط الدماء بها ، ولكن ذلك جميعه جاء متأخراً عن الحقبة المسيحية ، إن دورا التى خلفت لنا النقوش لم تكن كما سماها بعضهم مدينة إغريقية دب فيها الانحلال ، بل مدينة تنتقل إلى نوع جديد من الحياة فى أيدى البارثيين ثم بعد ذلك فى أيدى الرومان . وكانت عادة البارثيين وهم طبقة أرستقراطية متسامحة أن يحسنوا معاملة المدن الإغريقية، ولكن دورا الواقعة على حدودهم كان نصيبها أن احتلوها وأعادوا بناء بعض أجزائها. ولا شك أن التسمية التى أطلقوها أصبحت عند ئذ ناطقة بأفصح بيان. وكان هناك خلط خارق عجيب من النظم منها البابلى والفارسى والسورى. وكانت أسماء الرجال مزيجاً من أمثال ساميسيلابوس (شاماش أبى) وبافالادادوس وزبيدادادوس (وهى مركبات من أداد) ورهاجابيلوس (راحة بعل) ودانيال وبرناباس ، كما أن أسماء النساء المكونة من أسماء الربات الآسيويات وأفضلها ما اشتق من نانايا، وهى الربة البابلية للمدينة مثل متانانات (هبة أناتس) وبثنانيا (بنت نانايا) وميكات نانايا وباربونايا ورهيجونتاى (وهو اسم وصيفة عشتاروت المساة ساباس) ، واسم الربة الذى اتخذه فلوبير بطلة له وهو سلامبو ، الذى ظهر عند ذاك كاسم لامرأة هو سلامبو فى كل من دورا وغزة. لقد حدث تخالط وفير فى الدماء وأخذ الخطأ فى قواعد النحو والصرف يدب إلى اللغة اليونانية المستخدمة، كما يظهر ذلك فى عملات العصر البارثى المتأخر والعملات الكوشانية .

وهناك أسباب عدة لفشل السلوقيين فى هذا الاتجاه .منها أنه لم يكن هناك من الإغريق العدد الكافى لاستعمار آسيا، ومنها أنهم لم يكونوا بأية حال يتخذون من الأرض الزراعية أبداً مستقراً لهم بل يتجمعون فى المدن، الأرض تكون فى النهاية ملكا لمن حرثها . وكانت بعض المناطق لا تصلح لطريقة العيش

الإغريقية ، كما أن كثيراً منها لم يكن من المستطاع الوصول منه إلى البحر ، وهو السبب الذى من أجله حاول السلوقيون – اقتفاء منهم لسياسة الإسكندر أن يستعمروا المنطقة المحيطة بالخليج الفارسى . وفضلا عن ذلك لم يحاول هؤلاء الملوك قط – على النقيض من أسرة يوثيديموس – أن يحصلوا على رضا الشعوب الإيرانية العظيمة عن حكمهم . والراجح أن ذلك هو السر فى قوة نفوذ الديانات الشرقية بل فيما هو أكثر من ذلك – وهو شىء كان الناس يبالغون فى التشديد فيه . ذلك أن اليونانى كمشرك يعبد عدة آلهة ، كان وهو فى قطر غريب عنه يعبد بطبيعة الحال الرب الذى يعرف أسلوب الحياة فى البلاد والكتناس نزداد اطلاعاً حين نرى إغريق سوس يجبرون الربة العظيمة نانايا على خدمة أغراضهم خدمة أفضت إلى القضاء عليها ، أو نرى تجار سلوقية الإغريق اختاروا أن يضعوا على خواتمهم صورة أثينا الربة الإغريقية التى لم يصل إلى مرتبتها أى معبود أسيوى ألبتة إلا عند النبط وحدهم . بيد أن من المحتمل أن السبب الرئيسى هو أن الشىء الذى كان الآسيوى يبغى أخذه من اليونانى هو الشكل فقط وليس الروح الميالة إلى البوح بما لديها من علم ؛ فقد كانت آسيا من ناحية الروح تعلم أن مسائلها الروحية أطول عمراً من الروح الإغريقية، وهو الواقع الذى حدث فعلا . وكافح اليونان كفاحاً مجيداً ، وإن انتهى الأمر بأن غمر الطوفان الآسيوى الأمكنة جميعاً مكاناً بعد آخر ، ورغم ذلك فإن بعض المدن التى نعرف منها سوس وسلوقية كانت لاتزال مدناً إغريقية فى القرن الثانى الميلادى ، كما أن التدمير الكامل تقريباً الذى حل بسلوقية فى ١٦٣ للميلاد ، وإن فتحت أبوابها للغزاة ، لا تنسب جريرته إلى أى شىء آسيوى بل إلى أحد أباطرة الرومان . وكان الناس يعدون الطاعون الذى أخذ منذ ذلك الحين يجتاح الإمبراطورية الرومانية من سورية إلى نهر الرين بمثابة انتقام السماء من أجل سلوقية .

***

ولننتقل الآن إلى برجامة . بدأ الأتاليون أمرهم بداية متواضعة كأمراء لقلعة على أحد التلال . وسرعان ما أصبحت لهم السيادة على أيوليس ، ثم أصبحوا حكاما على آسيا الصغرى حول جبال طوروس من ٢٢٨ — ٢٢٣

ومن ١٨٨ — ١٣٣ ، بعد أن تلقب أتالوس الأول بلقب ملك ، ولكن الدلائل تشير إليهم كمملكة من الطراز البطلمى ، أى أداة منظمة لتكديس الثروة، وتعتبرهم قطراً يعدمن وجهة النظر الهللينستية فى مستوى السلوقيين. وأدى موقع البلاد السياسى إلى جعل الأتالين أعداء ألداء للسلوقيين وحلفاء أصدقاء لمصر ، لذا كان من الطبيعى أن يقلدوا مصر فى كل شيء . ولما كانوا لا يستطيعون أن يتخذوا من الألوهية أساسا لحكمهم (النصل الثانى) ولم يكونوا ملوكاً قوميين ، فإنهم قنعوا بأن يتولوا الحكم كحكام ديموقراطيين ، فلم يستخدموا قط فى مراسيمهم لفظة « نحن » التى يستخدمها الملوك ، كما أنهم كانوا يسمون أنفسهم أحيانا مواطنين من برجامة . ومن المحتمل أن فكرتهم هى أن يكون الملك فيهم بمثابة « المواطن الأول » فى الدولة ، وهو نوع من الاستباق لأحداث عهد أوغسطوس . على أن قيام الأتالين بإدارة دولتهم على أحسن وجه وبطريقة تنطوى على الكناية ، وأن الرومان والموالين لهم من الإغريق ينوهون بذكر أنصار روما المخلصين — كل تلك أمور لا يمكن أن تخفى وراءها العاطفة اليونانية البحتة المترقرقة تحت التيارات الظاهرة ، ذلك أن اليونان ذوى النزعة القومية القوية كانوا يرون أن يومينيس الثانى لم يكن إلا يهوذا الأسخريوطى الخائن الكبير لقضية الهللينستية ، والرجل الذى حرض روما على تحطيم الأسرة السلوقية ، التى كانت تناصر التقدم والارتقاء الهللينستى . أجل إن سكان أنطاكية ربما سخروا من عاهلهم أنطيوخوس ، وربما حقر هو نفسه بالقيام بعمل المقالب فيهم . بيد أن دافيتاس النحوى يشبه بمنتهى المرارة والجد هؤلاء الأتالين الحدثى النعمة ، الذين يتسلطون على المدن الإغريقية فى ثيابهم الأرجوانية ، بما يتركه الجلد والتعذيب من آثار حمراء على ظهر عبد ضرب بالسياط وكان جزاؤه الصلب تبعاً لذلك . ولم يكن أحد من اليونان يتحدث أبداً بمثل هذا عن السلوقيين .

وحينما حكمت برجامة ، ألغيت سياسة السلوقيين الرامية إلى مواصلة إنقاص أرض الملك وتضييق رقعة رق الأرض ، إذ الظاهر أن الأتالين لم يكونوا يقتصرون على الاحتفاظ بأرض الملك ، بل يزيدون فيها بالاستيلاء على أراضى المعابد الزراعية وجعل المعابد تابعة لبعض المدن . وقد أعانهم على ذلك

أنه بالرغم من وجود كثير من دول المعابد فى أيوليس من زمن بعيد ، إلا أن واحداً منها لم يكن قوياً حقاً . ولابد أنهم كانوا كالبطالمة يمنحون الموظفين حق الانتفاع والارتفاق القابل للاسترداد فى استغلال الأراضى الزراعية ، وذلك لأن أتالوس الثالث وجد كثيراً من تلك المزارع الفسيحة فصادرها أو استردها بمعنى آخر . ومع ذلك فإنهم أسسوا عدداً من المنشئات ، ولا شك فى أن اثنين منها كانتا مدينتين مستكملتين هما : أتاليا فى بامفيليا ، وهى ميناؤهم تجاه مصر ، حيث كان الطريق المؤدى من لاؤدكيا إلى كيبورا يصل إلى البحر وفيلادلفيا بالمنطقة البركانية بليديا ، وهى التى أصبحت فيما بعد مكاناً عظيم الشأن ، وكانت تسمى « أثينا الصغيرة » ، كما أنها بنيت بقصد مقاومة الزلازل التى كانت كثيراً ماتهزها . ثم إنهم وسعوا حجم إيلايا لتكون مرفأ لبرجامة ، كما شادوا ميناء آخر هو هيلينوبوليس على بحر مرمرة (Propon tis) وأسسوا بعض مستقرات عسكرية على الطراز المألوف . وكان أولها فيليتاريا عند سفح جبل إيدا وأتاليا على نهر هرمس ، وهناك عدة أسماء أخرى لمنشئات أسسها الأتاليون ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يقطع هل هى مدن أو مستقرات عسكرية . وكان الأتاليون يعتمدون على جيش من المرتزقة ، وإن استخدموا سكان ميسيا الجبليين فى كل من أغراض الحرب والمستقرات . ولما اتسعت رقعة مملكتهم صاروا يولون على الساترابيات قوادا حسب العادة الشائعة ، وصار لهم « وزير لشئون الدولة » كالسلوقيين سواء بسواء .

وقد انكشفت علاقاتهم بما فى مملكتهم من المدن الإغريقية انكشافاً ظاهراً فى مؤتمر الصلح الذى عقد بعد هزيمة أنطيوخوس الثالث ، يوم أعطت روما آسيا الصغرى السلوقية ليومينيس الثانى : فبينما كانت رودس تطالب بحرية المدن الإغريقية ، كان يومينيس يطالب بجعلها رعية له . وتساهلت روما ، ثم أسلمت إليه باعتبارهم رعاياه — كل من كان تابعاً يدفع الجزية لأتالوس الأول أو من ساعدوا أنطيوخوس ثم أعلنت حرية الباقين ، ومن المدن التى سلمت إليه : إفيسوس وتيوس وتراللس ، على حين أن بعض المدن التى أعلن أنها حرة — والمعروف منها هو ساموس وبريني وماجنيزيا ولا مبساكوس — عادت بعد ذلك فدخلت فى « صداقة ومحالفة » مع روما ، وهو أمر حدد

تصرفاتها ووجهها وجهة أخرى . على أن عدداً كبيراً من المدن ، منها ميليتوس وأزمير ، كانت تستمتع بحرية حقيقية . وقد أخذت أبولونيا تجاه بيسيديا تؤرخ لحقبة تبدأ فى ١٨٩ . ومن البديهى أن التذمر انتشر بين المدن الخاضعة ، ويعلم القارىء كيف عالج يومينيس أمر إحدى المدن الإغريقية ، ولعلها أبولونيا على نهر ريندا كوس بفريجيا الهلسبونتية : فألغى استقلالها وصادر معابدها ووضعها تحت حكم قائد الساترابية . ثم عاد فيما بعد فأرجع إليها استقلالها الداخلى ومعابدها ، بيد أن المدينة ظلت تدفع الجزية وتخضع للقائد . وكانت تيوس تدفع الجزية هى أيضاً ، ويقول الكتاب المتأخرون : إنه لا شك بناء على هذا أن جميع المدن الإغريقية غير الحرة كانت بالمثل تدفع الجزية ، وذلك لأن تيوس كانت تمتاز بكونها المركز الرئيسى فى آسيا للفنانين الديونيسيين ، الذين كان الأتاليون يحبونهم ويقربونهم . والظاهر أن بعض المدن التى تذكر السجلات منها إفيسوس وأمبلادا — كانت تفرض عليها الضرائب مبلغاً معيناً من المال يقدر حسب تقدير الأملاك وتجمعه المدينة من المواطنين على الطريقة التى ترضيهم . ولكن الضرائب فى أبولونيا كانت تفرض على المواطنين مباشرة وليس عن طريق المدينة ، ويلوح أنه كانت هناك ضرائب كثيرة ، ولعل القائمة الطويلة التى كانت تيوس نفسها تفرضها على مواطنيها (الفصل الثالث) ، وإن كان ذلك فى زمن أبكر كثيراً (حوالى ٣٠٠) ، ربما أعطتنا فكرة عن نظام الضرائب الأتالى فيما بعد . ولا شك أنه على النقيض من تلك الحال كان الملوك يمنحون بعض المدن إعانات مالية من الخزانة العامة مثل التى كانت تتلقاها تيوس وأبولونيا ، وهى إعانات كانت تدفع كل عام لمديرى خزانة المدينة ، كما كان فى الإمكان استخدامها لسد النفقات المدنية والدينية اللازمة للمدينة ، بيد أن طريقتهم العامة فى معاملة مدنهم اليونانية كانت واضحة تماماً . فإنهم كانوا يفرضون على المدن من الضرائب والجزية ما لا طاقة للمدينة بجمعه ، ثم يعوضون النقص بأنفسهم ، وبذلك يضعون المدن فى قبضتهم بوسائل مالية لا تقل قوة عن الوسائل السياسية .

وإذن فلم يكن للمدن الإغريقية غير المحررة نصيب من الحكم الذاتى إلا الشكل وحده فى ظل الحكم الاتالى ، وحتى ذلك الشكل نفسه كان مزعزعاً

نواحى الأساس يمكن سحبه متى شاء الملك ، وكانت المدينة خاضعة بصورة ما للقائد الإقليمى ، كما كانت تفرض عليها الضرائب ، على حين أن قبولها للإعانات الملكية كان يعطى الملك الحق فى التدخل فى إدارتها المالية الداخلية . ولكن كانت لهم مظاهر أخرى تعسفية للتدخل . فقد صادر بعض ملوك الأتاليين الإيرادات التى تنتجها مصايد الأسماك ببحيرات أرتميس المقدسة قرب إفيسوس ، وهو شىء لم تغفره إفيسوس بعد ذلك أبداً . وكان الملوك يدعون لأنفسهم الحق فى نقل السكان من مكان إلى آخر حسبما يشاءون ، (وذلك كما فعل أنتيجونس الأول أخيراً وليسياخوس) ، وسلخ أحدهم جزءاً من أرض بريابوس ومنحها لباريوم ، كما ضمت داردانوس إلى أبيدوس ، وكادت جارجارا تختنق بمن دفع إليها قسراً من رجال القبائل المتبربرين ، كما أن قرية جرجيتا نقلت من منطقة تروادة إلى نطاق نهر كايكوس . وكان لنقراسا وآيجينا وأماكن أخرى كثيرة ولاريب حاكم (Epistates) يتولى الإشراف على المدينة ، كما أن برجامة كان بها مفتش على إيرادات المعبد . أما برجامة نفسها فهى وإن كانت لها مظاهر المدينة الإغريقية ونظمها ، إلا أنها كانت مما يتصرف فيه الملك ويتحكم عن طريق حقه فى تعيين الموظفين العموميين الرئيسيين بالمدينة ، وهم قواد المدينة الخمسة الذين كان الملك يعينهم ومنه يتلقون الأوامر ، ومن المحتمل أنهم هم وحدهم كان لهم الحق فى عرض المسائل على الجمعية العامة والمجلس ، وهو أمر كان من شأنه أن مكن الأتاليين من التحكم فى مالية المدينة ، شأن البطالمة وما فعلوه فى مدنهم بآسيا الصغرى وإن اختلف الأساس .

ازدهرت برجامة مالياً بصورة مكنت الملوك من استخدام جيوش ضخمة ، وكانوا مضرب الأمثال فى الغنى بين ملوك آسيا . أما أرض الملك عندهم وهى بخلاف تلك التى تمنح للموظفين أو تستخدم للمستقرات العسكرية (Cleruchland) ، فكانوا يديرونها بأنفسهم على جارى العادة المتبعة ، ولكن الراجح أنهم كانوا يستخدمون الطريقة المصرية حيث يأخذون من الفلاحين نصيباً مقرراً ، وليس نسبة معينة من المحصول كما كان السلوقيون يفعلون .

وذلك لأنه يروى عن قائد فريجيا الهللسبونتية أنه يفترض أنه لو احتاج الأمر إلى بذور القمح ، وجب أن يقدّم التماس بذلك إلى الملك ، الذى كان بناء على ذلك هو المتحكم فى كل الفائض من القمح خارج المدن . ومع ذلك فإن أصحاب الإقطاع العسكرى وهم (Cleruchs) المحظوظون أصحاب المستقرات العسكرية كانوا يدفعون عشر المحصول ضرائب . وكانت أبوليس وإقليم تروادة مناطق تجيد الزراعة وتربية الماشية . والراجح أن اصطبلات الخيل الملكية كانت تقام بالقرب من جبل إيدا ، كما أن إيدا نفسها كانت تورد الخشب والقار . وكانت حاجة مصر إلى قار إيدا أحد الأسباب التى ربطت بينها وبين الأتاليين ، فى حين أن ماشيتهم والجلود التى كانوا يستوردونها من إقليم البحر الأسود عن طريق كيزيكوس هى التى تمون العالم بما يلزمه من رق(١) - ونظامهم الإقتصادى مجهول ، ولكن لا شك أنه كان نظاماً عالى الازدهار والرقى وخاصة فيما يتعلق بالموارد الطبيعية . وكان الملوك شغوفين بالزراعة العلمية شغف البطالمة الأول . وقد كتب أتالوس الأول وصفاً لجبل إيدا كما أن أتالوس الثالث كتب رسالة عن الحدائق . ومما هو جدير بالذكر أن خزانة الملك بتلك البلاد كان يستخدم فى وصفها المصطلح البطلمى (ريسكوس Rhiscus) وليس لفظة جازا Gaza وهى المصطلح الذى كان يطلقه على كنوزهم الملوك المقدونيون بآسيا : أنتيجونس الأول وليسيماخوس والسلوقيون . ولم نسمع قط عن وجود احتكارات ملكية هناك ، ولكن من المعقول أن الرق والقار لا بد أنها كانت احتكاراً . ومع ذلك فإن هناك ظاهرة اتسم بها نظامهم وتختلف عن أية ظاهرة فى أية مملكة أخرى : وهى إفراطهم فى استخدام العمال الأرقاء . فالجميع من ملوك ومدن على السواء كانوا يستخدمون العمال الأرقاء فى المناجم . ولكن بينما الذى كان يحدث فى مصر أن الصناعات الاحتكارية كان يقوم بها قوم من أشباه رقيق الأرض ، فإن المصانع الملكية ببرجامة التى كانت تنتج جلود الرق والمنسوجات والديباج الموشى الأتالى الذائع الصيت وقد غزل بخيوط الذهب ، كانت تستخدم حشوداً من الرقيق معظمهم من النساء تحت

---

(١) الرق (بفتح الراء) كما ورد فى المعجم الوسيط : جلد رقيق يكتب فيه . (المترجم)

رعاية « مشرف على المصانع الملكية » . ولا بد أن الدولة الأتالية كانت تقوم حقاً ، لا على المدن والمستقرات كالدولة السلوقية ، بل على الثروة التي ينتجها رقيق الأرض والعمال الأرقاء . بيد أنها أسدت للعالم خدمتين . فإنها وقت عدداً كبيراً من المدن غائلة الغلاطيين ، كما أنها جمعت بمدينة برجامة مكتبة ليس لها من ضريب سابق إلا مكتبة الإسكندرية .

ولم يلبث ملوك الأتاليين ، خاصة يومينيس الثاني وأتالوس الثاني أن حولوا رويداً رويداً قلعة التل القديمة في برجامة القائمة على حافتها الشبيهة بالهلال إلى عاصمة فخمة ، وهي لم تبن على النظام المستطيل المعتاد ، ولكنها أوتيت من الجمال ما لم تكن تقاربها فيه مدينة أخرى عد اسلوقية القائمة على سفح بيريا . وكانت بيوت العامة تزدحم عند سفح التل ، على حين كانت المدينة الإغريقية تصعد جناحي التل من جانبيه وتشرف عليها على طول القمة مباني الملوك الفاخرة . وكان الطريق الرئيسي الموصل إليها يؤدي إلى المدخل الموصل إلى الجمنازيات الثلاثة ، وهي تقوم الواحدة منها بعد الأخرى في مصاطب ومدرجات تصون حوافها جدران واقية متينة . وكان المدرج موجوداً في الطنف الأعلى ، ومن فوقه كان سور القلعة الذي يضم بين دفتيه جزءاً من الحافة . وفي داخل هذا الجدار على امتداد الحافة من الشمال إلى الجنوب كان يقوم القصر والمكتبة ومعبد أثينا الربة . وإلى جوار هذه وفي خارج السور كان هيكل زيوس سوتر (المخلّص) يرتفع مشمخراً (الفصل التاسع) ، يحيط به فناء مبلط بالزليج(١) كان يستخدم سوقاً ؛ ومن وراء السوق معبد ديونيسوس وسوق أخرى سفلية ، تقف فيها ساعة على صورة الإله « هرميز » وله قرون الخيرات التي يفيض منها الماء بين الفينة والأخرى . وقد عرفنا إلى حد ما شيئاً عن قانون الصحة العامة المدينة وهو الذي وضعه أحد الملوك . وكان ينص على تكليف أصحاب البيوت بكنس الشوارع وإصلاح المنازل الخربة أو التي أوشكت أن تتهدم . فإذا لم يقم مالك المنزل بأداء ما عليه من واجب كان في إمكان حكام المدينة

---

(١) الزليج : صفائح ملونة من الآجر لكساء الأسطح . (المترجم)

(Astynomi) أن يوقعوا عليه الغرامة وأن يقوموا بالعمل على حسابه ، فإذا أهملوا القيام بذلك كان فى إمكان قادة المدينة أن يفعلوه ، ولما كان القواد يتلقون الأوامر من الملك كان الملك هو السلطة الصحية العليا . وقد اتخذت الوسائل الكفيلة بالمحافظة على حسن نظام الطرق . وكانت جميع الصهاريج تسجل ، كما أن ما كان يوقع من العقوبات جزاء على تلويث موارد المياه بالمدينة بغسل الثياب أو سقاية الحيوانات كانت قاسية شديدة . ولكن مدينة برجامة كانت مدينة شبه أسيوية رغم عظمتها واتخاذها نظم المدينة الإغريقية . فإن معبد أثينا كان يعبد فيه إلى جوارها زيوس السبازى (Sabazios) ، وهو شكل ما من أشكال المعبود العام لآسيا الصغرى أحضرته معها من موطنها الكبادوكى استراتونيكى زوجة يومينيس الثانى ، وكانت المدينة السفلى مزدحمة بالتجار الأجانب وفرق المرتزقة والمحررين من الناس عدا الحشود الكبيرة من العمال الأرقاء فى مصانع التاج . وفى نفس الوصية التى وهب بها أتالوس الثالث مملكته لروما ، جعل مدينته مدينة حرة أيضاً . ولكى يحول المواطنون دون قيام ثورة بين الأرقاء تقليداً للتى حدثت بصقلية، منحوا الحقوق السياسية لكل أجنبى مقيم (Metic) وللمرتزقة بما فى ذلك جميع الميسيين والبافلاجونيين النازلين فى أرض المدينة ، كما رفعوا المحررين من الناس والعبيد ما عدا بعض النسوة إلى مرتبة الأجانب المقيمين — وهو شىء يُعد فى حد ذاته ثورة ، كما أنه أعظم تحرير جماعى للآسيويين سجله التاريخ .

* * *

على أن ممالك آسيا الصغرى الوطنية لم تصطبغ بالصباغ الهللينستى إلا بصورة سطحية فحسب . فإن كبادوكيا وبنطش وأرمينيا احتفظت بنظمها الإقطاعية القديمة . ومع أن كبادوكيا قسمت ، محاكاة لما فعله السلوقيون ، إلى عشر ساترابيات أو قيادات ، إلا أنها كانت تؤرخ بتقويم فارسى . وقد اقتبس هؤلاء الملوك الأسيويون أسماء العبادات والنحل اليونانية واستخدموا فى حديثهم اللغة اليونانية والألقاب اليونانية فى بلاطاتهم وشملوا برعايتهم الفنانين الديونيسيين ، واستخدموا الخبراء اليونانيين من كل نوع ما استطاعوا إلى ذلك

سبيلا ـ كما بنوا المدن على أسمائهم هم — وهى أرياراثيا فى كبادوكيا وبوباتوريا فى بنطش وأرساموساتا وبعدها تجرانوكرتا فى أرمينية ؛ ولكن هذه لم تكن فى العادة إلا مدن ملوك ، كما أن الممالك ظلت أسيوية فى جوهرها. وكانت كبادوكيا وبنطش معاقل قوية للمزدكية (Mazdaism) ، كما أن مثريداتس يوباتور لم يكن إلا متبربراً عليه طلاء خارجى لا يستر شيئاً. ومما يشهد بهذه النزعة الهللينستية المشوبة المختلطة ذلك النقش الإغريقى الموجود على قبر أنطيوخوس الأول ملك كوماجينى وصديق پومبي وهو القبر الذى أقيم على نيمرود—داغ. وقد كتبه بلغة إغريقية شديدة الازدحام بمحسنات لفظية وفصاحة منحطة الدرجة ، شخص لم يكن يعرف طريقة استخدام أداة التعريف اليونانية. وفيه يرجع الملك نسبه إلى دارا الأول والإسكندر مع أنه لم يكن فى الحقيقة إلا نصف سلوقي (وهو ينتسب إلى الإسكندر عن طريق « أباما » زوجة سلوقوس التى يزعم الناس أنها إبنة الإسكندر) ، كما أنه يعد بلاد فارس ومقدونيا المصدر الأصلى لعاهليته ؛ وهو يستخدم التقويم المقدونى ، ولكنه ينسب ما أوتيه من توفيق إلى تقواه وقداسته ؛ والآلهة التى يعبدها هى أهورامزدا الفارسى ومثرا مع إضافة أسماء يونانية إلى اسميهما . وهو يؤسس مبنى ليضمن قيام عبادتها إلى الأبد إلى جوار قبره ، مع عبادته هو نفسه كبطل ـ وذلك نظام إغريقى لا شك فيه — وإن كان المبنى لا يشابه أى شىء لدى الإغريق . وقد كرّس عدد من القرى للعبادة هناك ، كما كرّست هيئة من رقيق المعابد (Hierodules) يلزم نسلها بالقيام على خدمة تلك النحلة إلى أبد الآبدين — وبذلك بعثت من جديد الأشكال الآسيوية القديمة لدولة المعبد .

ولعل بيثينيا وحدها هى التى تغلغلت فيها الروح الهللينستية إلى أعمق من ذلك . وكانت الأسرة المالكة الوطنية تعد نفسها منافساً للأتاليين ومعادلا لهم، كما أنها أسست كثيراً من المدن. وقد حلت نيقوميديا (الجميلة) محل أستاكوس اليونانية التى دمرها ليسماخوس وأصبحت مدينة هامة فى العصر الرومانى . وقد شاد « پروسياس » الأول مدينة پروسياس على البحر (وكان لها حق سك النقود) لتحل محل مدينة كيوس ، وهى مدينة إغريقية قديمة دمرها فيليب الخامس ، وأعاد تأسيس كيروس تحت إسم پروسياس على نهر الهيپيوس ، كما

أنه بناء على نصيحتها نيبال أنشأ مدينة بروسا (بروسة) ولعله أقامها لتحل محل مدينة إغريقية أخرى دمرت تلك هي مدينة أتوسا التي هلنت ميناؤها، ميرلية، فيما بعد باسم أيامبا، وكانت بالمملكة أيضاً مدينة نيقيا التي أقامها ليسياخوس. ولا بد أن نيقيا وبروسياس كانتا تستمتعان بشيء من الاستقلال، كما أن المدن الأخرى ربما كان لها على الأقل نظم المدن اليونانية، وذلك لأنه يجدر بنا أن نذكر أنها جميعاً كانت تحل محل مدن إغريقية أقدم منها.

ولكن هناك شعباً ظل بعيداً عن منال الروح الهلينستية تقريباً حتى العصر الروماني، وهو شعب الغلاطيين. ذلك أنهم كانوا هيئة أجنبية تعسكر في أرض غريبة وتعيش في معاقل حصينة يخرجون منها للإغارة والنهب ويحكمون ما حولهم من فلاحين وطنيين يزرعون لهم الأرض. ولعلهم كانوا يتلقون إمدادات من أوربا ويحافظون على لغتهم وتنظيماتهم القبلية وعاداتهم وفضائلهم — وهي شجاعة الرجال وعفة النساء الشديدة الشماس. وقد انتهى بهم الأمر في النهاية إلى أن قبائلهم الثلاثة انقسمت كل منها إلى أقسام أربعة (Tetrarchies)، يحكم كلا منها ناظر ربع (Tetrarch) من دونه قاض. وكان القضاة ينظرون في القضايا المدنية، بيد أن التشريع الجنائي وربما شئون السياسة أيضاً إختص بها مجلس من ثلاثمئة مسن، كانوا يجتمعون بمكانهم المقدس «درينيميتوس»، وهو موضع لعله منتدى مستدير للمناقشات يقع في أحد الأحراش، ومن بين نظار الأرباع كان ينتخب قادة الحروب الذين يظهرون في الأدب اليوناني والروماني «كملوك». على أنهم لم يتدخلوا في شئون دولة المعبد في بيسينوس التي كانت تقع داخل أراضيهم — إلا بعد ١٦٦ عندما احتلوا بيسينوس وأخذت عقيدتهم تصطبغ على التدريج بالصباغ الفريجي. ولا شك أن مما يرشدنا في هذا الصدد مراسلات يومينيس الثاني وهو إذ ذاك صاحب الملك في غلاطيا (١٨٣ — ١٦٦)، مع أتيس ملك بيسينوس الكاهن. ذلك أن يومينيس كان يكتب إليه كما يكتب ملك إلى ملك، كما أن صداقة أتيس له كانت تقوى نفوذه في غلاطيا، على حين أن شقيق أتيس خانه وانضم إلى الغالة واتخذ لنفسه إسماً غلاطياً، وأخذ يحاول الحصول على الكهانة لنفسه، وكان

ذلك دون ريب لمصلحة غلاطيا وبمعاضدتها . وقد شيد يومينيس الثانى فى بيسينوس معبداً وعدة أبهاء أعمدة وقضى فى النهاية على مابقى من قوة الغلاطيين حتى إذا تمت المذبحة التى أعملها مثريداتس فى أرستقراطية الغالة شرعوا يتخذون لأنفسهم المظاهر العامة للمدنية السائدة فى البلاد . ولكن لغتهم لم تنقرض حتى فى القرن الثالث الميلادى ، كما أنهم كانوا لايزالون يعبدون رباً كلتياً إسمه زيوس البوسوريجى (Boussourigios)

* * *

وربما جاز لنا أن نختم هذا الفصل بإشارة إلى أهمية المدن الإغريقية القديمة بآسيا ، وهى مدن لم تكد تحس أنها أدنى من الممالك مرتبة ، بما كان لها من تقاليد عريقة وعدد سكان ضخم وحياة متماسكة حافلة بالعمل وثروة نامية ومبان عامة فخمة وأسوار هائلة . ومع أن واحدة من هذه المدن لم تضارع أثينا فى القرن الرابع قط فضلا عن سيراقوزة ، إلا أن ميليتوس فى القرن الثانى بما كان لها من أرض ، كان عدد سكانها يقارب المئة ألف بما فى ذلك الأرقاء . على حين أن إفيسوس كانت أكبر وأن رودس لا يمكن أن تكون أصغر كثيراً . وكانت ميليتوس لاتزال حوالى ٣٠٠ أعظم المدن الأيونية ، وهى تعتمد اعتماداً شديداً على تجارة الصوف بها وعلى معبدها الذى يعد أعظم معبد إغريقى بآسيا ، بيد أن إفيسوس وأزمير مالبثتا بعد ذلك أن تفوقتا عليها . فإن أزمير أخذت بعد ٢٥٠ تتسنم ذروة العظمة ، وكان استقلالها تاماً ، ويحفظ لنا التاريخ سجلا رائعاً عن علاقتها بسلوقوس الثانى ومساعدتها القلبية له ؛ فإنه عندما عبر جبال طوروس فى ٢٤٤ ، قامت أزمير بالعمل معه كأنما هى تحت نائب ملك له ، وذلك لأنها أرادت أن تؤكد باسمه امتلاكها منحاً من الأرض وهبها أبوه ، وتكلفه أن يمنح منحاً جديدة ، وتكلف خزانته دفع أعطيات للمرتزقة . ويرجع السبب فى النمو العظيم الذى بلغته إفيسوس إلى تركز تجارة الشرق فى طريق أباميا — إفيسوس ، ذلك التركز الذى قواه نقل ليسما خوس للمدينة إلى شاطىء البحر بعد أن امتلأ المرفأ القديم بالرواسب . ولعل إفيسوس هى التى ابتكرت الكيستوفورات(١)(Cistophor) التى أصبحت

(١) الكيستوفورا : هى عملة آسيوية ، ضرب عليها صندوق وتساوى الواحدة منها نحو أربع دراخمات . (المترجم) .

العملة الطرازية لمملكة برجامة وانتشرت فى كل أرجاء آسيا الصغرى . وشرع الأتاليون فى القرن الثانى يتخذون من إفيسوس مرفأ لمملكتهم ؛ بيد أنها لم تنس لهم قط ماقاموا به فيها من مصادرات ، وانتهزت فى ١٣٢ فرصتها للانتقام منهم ، فإن أسطولها هزم أرستونيكوس فى البحر ، ومهد طريق روما إلى آسيا . ومنذ ذلك التاريخ صارت إفيسوس فى الواقع المدينة الكبرى فى الدولة مع قيام مركز القواد والخزانة الإقليمية بها ؛ وإن كانت برجامة هى العاصمة الرسمية لمقاطعة آسيا الرومانية . ذلك أنها كانت المنفذ والمخرج الطبيعى للبلاد ولأنها كانت شيئاً يتجاوز مدينة إغريقية ؛ فإن معبدها الذائع الصيت لربة الخصب الأسيوية بما فيه من خصيان ومن بنات متكرسات وما به من ملاذ للجيرة والإيواء يرجع إلى ماقبل التاريخ وما كان يربى به من سمك مقدس ، كل ذلك كان ينتمى إلى عالم أقدم .

فإذا انتقلنا شمالا وجدنا مجنيزيا على الميا ندر تستطيع أن تمد أذرعها من إيثاكا إلى نهر جيحون ؛ وقد اشتركت فى الدفاع عن دلفى ضد الغاليين ، كما أعطت الحقبة الهللينستية فى باكتريا أقوى أسرة مالكة تولت عرشها ، وبذلك تمكنت من غزو الهند ؛ كما ساعدت السلوقيين على إنشاء مدينة أنطاكية المواجهة لتخوم بيسيديا وأنطاكية فى برسيس ، كما أعطتها دون ريب مدناً أخرى لا نعلمها . ولم يكن الناس يكثرون من قتل أولادهم فى مجنيزيا أثناء القرن الثالث . وكان معبدها العظيم المقام لعبادة أرتميس ذات الجبهة البيضاء (Leukophryene) التى خلفت الأم الدنديمية ، لا يقل فى الحجم إلا عن معابد إفيسوس وديديما (الفصل التاسع) ، كما أنه كان فيما يقال أجمل منها كليها . أما من حيث القوة الحقيقية فإن هرقليا البونطشية حوالى ٢٨٠ كانت تفوق فيما يرجح أية مدينة قائمة على أرض القارة . وكانت تحكم رقعة عظيمة من الأرض تضم مدناً أخرى ، كما أنها تفاخرت فى أحد الأيام بأنها أقوى من سلوقوس ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ على مركزها فيما عقب ذلك من الزمن . ويصدق هذا القول أيضاً على سينوبى . وكانت تشخص ببصرها إلى اللحظة التى بدأ فيها ليسياخوس يجعل من البحر الأسود بحيرة له خاصة ، بينما تمنى سينوبى أن تسوده وتتحكم

فيه وتحظى بتجارة ضخمة جديدة . بيد أن ليسياخوس لم يترك من ورائه عقبا، ومن ثم فإن سينوبى انحدرت وأصبحت عاصمة ملوك بنطش . غير أن كنزيكوس المستقلة بما لها من ميناء مدهش مزدوج وأسطول عظيم الكفاية احتفظت بمكانها وزيادة . وكان لها طريق جيد الرصف يمتد إلى سرديس أعلى وادى الماكستوس،وعن طريقها كانت تمر التجارة بين مملكة برجامة والبحر الأسود ، ويضعها استرابون فى مرتبة رودس وقرطاجة ومارسيليا . وكانت قد بنت سياستها على الصداقة المستديمة لبرجامة ، بل حتى المحالفة لها فيما يحتمل. وكانت علاقاتها مع تلك المملكة علاقة رودس بمصر ، كما أنها وهبت الأسرة المالكة خير ملكة ظهرت فيها وهى أبوللونيس التى عادت المدينة فالهتها فيما بعد. وكان أمراء من بيوت كثيرة يبعثون إلى كنزيكوس ليتلقوا تعليمهم . وقد بلغت من القوة فى ٢٧٧ أن قاتلت تروكمى الغلاطى بمفردها ، ولكنها استطاعت بعد ذلك بقرنين أن تواجه ميثريداتس وكادت تأسره وهو فى عنفوان قوته وكانت رقعة أرضها فى حكم أوغسطس ضخمة مترامية تضم مدناً قديمة مثل زيليا ، كما أنها قامت بعمل جرىء أخطر كثيراً من مقاتلة ميثريداتس: وهو ضرب بعض الرومانيين بالسياط. وكان لها فى ذلك كل الحق،ولكنها كانت سعيدة الحظ حيث لم ينلها من العقوبة إلا دفع ضريبة خمس سنوات .

ويقول استرابون إنه لم يكن هناك لرودس من ضريب بين المدن — فإنها استطاعت أثناء حصار ٣٠٤ التاريخى الجليل أن تقاوم بنجاح قوة ديمتريوس العارمة ، كما أن قوتها ومواردها ظلت تنمو حتى ١٦٦ ، وكان تجارها وأصحاب المصارف فيها يرغبون فى السلام ، ولكنها جعلت ديدنها شيئين : توازن القوى وحرية البحر ، ومن أجل هذين الأمرين لم تكن تتوانى فى قتال كل معتد ، فساعدت مقدونيا على هدم قوة بطلميوس الثانى البحرية الساحقة وأعانت برجامة على كبح جماح فيليب الخامس ، وساعدت روما على دحر أنطيوخوس الثالث . وكانت حكومتها ذات نظام ديموقراطى مقيد أو بمعنى أصح أرستقراطى كان السلطان فيه بيد العائلات المتسلطة شأن إنجلترة فى القرن الثامن عشر . ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم جنباً إلى جنب مع الفقراء . ولذا فإن رودس لم تحدث بها أية اضطرابات داخلية ، على الرغم من اختلاط أنواع عدة من السكان بمينائها العالمى ، وكانت من ثم أيضا تستطيع أن تسلح عبيدها .

وكانت الجزر المحيطة بها توابع وأحياء (Demes) لها ، كما أنها كانت تدعى إدعاء غريباً هو أن لها الحق فى الاعتراض (حق الفيتو) على أى تكريم تمنحه تلك الجزر . وكان لها من موقعها الممتاز ما يضطر التجارة بين مصر والشمال وبين سورية والغرب أن تمر فى مينائها . وفى عام (١٧٠) عادت عليها رسوم الصادر والوارد البالغ قيمتها اثنان فى المئة بمبلغ مليون دراخمة . ولا شك أن ضخامة ما يوجد فى كل أرجاء العالم من عدد مقابض الزلع والجرار المصنوعة فى رودس تشهد لتجارتها بالاتساع العظيم . لقد كانت مركزاً لعمليات المصارف والمبادلات الدولية ، فهى مدينة رئيسية تعد مفتاحاً لحركة التجارة الهللينستية . وعندما دمرتها إحدى الزلازل فى ٢٢٥ وأوشكت أن تقع فى أزمة تجارية ، أظهر العـــالم الهللينستى تماسكه التجارى القوى بالمساعدة الفياضـة التى انهالت عليها نقداً وعيناً من كل ملك ينطق باليونانية ومن مدن كثيرة .

فلما أن اضمحل شأن الأسطول المقدونى حوالى ٢٠٠ حكمت رودس البحر الإيجى وأعادت تكوين حلف الجزر برياستها كأنها أحد الملوك ، كما أنها قضت على القرصنة ، وبعد ١٨٨ أصبحت تحكم معظم كاريا وليقيا . وعندما حدث فى ٢٢٠ أن فرضت بزنطة ضريبة على السفن التى تعبر البوسفور ، اتخذت رودس على الفور الإجراءات الكفيلة باعادة الحرية إلى ذلك المضيق . والراجح أن أسطولها لم يكن ليزيد قط على حوالى خمسين سفينة تعمل فى البحر فى وقت واحد ، ولكن صنفها كان أجود ما فى العالم ، وقد هزمت الأسطولين المصرى والسورى بمفردها ، وكانت تفاخر الناس قاطبة بأن كل رودسى يعادل سفينة حربية . وعندما التقى الأسطول الرومانى بأسطول أنطيوخوس الثالث بمعركة ميونيسوس (Myonneus) كانت عمارة رودس هى التى أنقذت الرومان ودفعت بهم إلى النصر . ولو أن النتيجة كانت عكس ذلك لكان زمام النصر فى يد رودس مع ذلك ، لأن قائد أسطول أنطيوخوس كان أحد المنفيين من أبناء رودس . وكان الدخول إلى بعض ترساناتها محظوراً على الجمهور ويعاقب عليه بالإعدام . وكانت المدينة مزدانة بالقطع

الفنية التى كان منها صور من صنع بروتوجنيس (Protogenes) وباراسيوس (Parrhasius) ، وبها تمثال هائل هو الـكلوسوس (Colossus) (الفصل التاسع.) الذائع الصيت وكثير غيره من التماثل الحيارة ، كما أنها أصبحت فى القرن الثانى مركزاً للعلوم الإغريقية ومثوى للفلسفة وعلم البيان . وقد ارتفع شأوها إلى الذروة بفضل أسماء أبنائها أمثال بانايتيوس (Panaetius) وپوسيدونيوس(Poseidönius) ؛ وقد عاشت جامعتها الضخمة مدة طويلة. وذاعت شهرة قانونها البحرى ، الذى اقتبس عنه الأنطونيون . وربما كانت أجزاء منه موجودة فى مجموعة القوانين البيزنطيةالتى تسمى باسم قانون رودس البحرى ، وعنها انتقل إلى البندقية . فهو إذن القانون الإغريقى الوحيد الذى وصل حياً إلى العالم الحديث.

الفصل الخامس

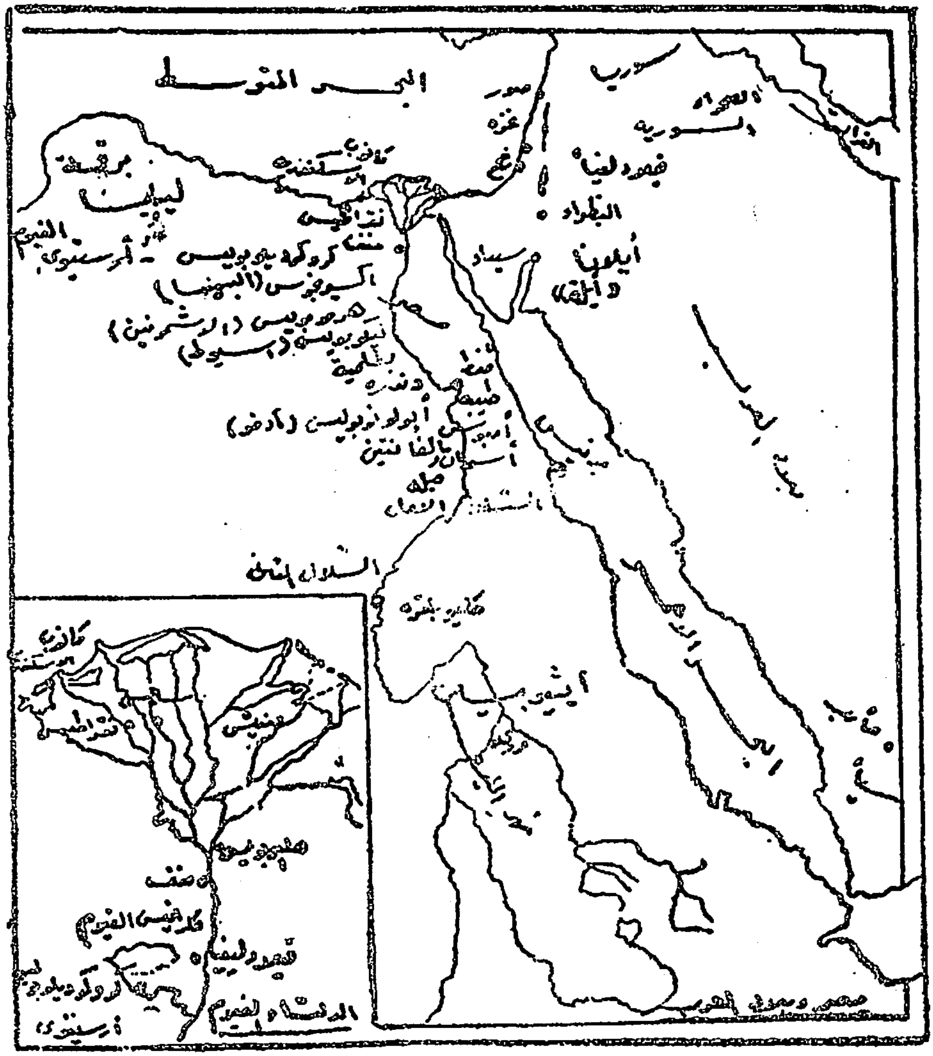
مصـــر

إن وثائق البردى التى عثر عليها فى مصر أثناء نصف القرن الأخير ، تعطينا صورة عن ذلك القطر تحت حكم البطالمة أكثر تفصيلا فى بعض النواحى من أى شىء آخر فى التاريخ اليونانى القديم — كما أنها رغم ما يعتريها من قصور — من نوع يمكن مقارنته من بعض النواحى بالصورة التى نخرج بها من وثائق التاريخ الحديث. على أن قصورها ذاك وما به من شوائب شديد بالغ الشدة. وذلك لأن بقاء وثائق البردى إلى يومنا هذا تم بمحض الصدفة ، ولأن مصدرها (وهو نواحى مصر وريفها وليس العاصمة نفسها) يؤكد أن الغلبة فيها للمصالح المحلية، وأن السياسات العليا للحكومة المركزية لا تتكشف فيها إلا بين حين وآخر وبصورة عرضية بحتة . وفوق هذا فإن مصر فى حد ذاتها عالم تنحصر مصلحته قبل كل شىء فى نظامه الاقتصادى ، وهو تراث يرجع (من حيث أسسه الرئيسية ومبادئه العامة) إلى مصر فى عهد الفراعين ، ثم تطور وارتقى جملة وتفصيلاً حتى أصبح نظام تأميم للدولة إلى أقصى حد وبصورة لا يعرفها الناس قبل القرن العشرين إلا فى بلاد بيرو فيما نعتقد . ومصر لا تلقى على الهللينستية فى صورتها العامة إلا ضوءاً قليلا نسبياً . ولولا أكاديمية الإسكندرية ومكتبتها ما أثرت فى تطور الحضارة اليونانية إلا بأضأل قسط . وذلك لأن الإغريقى بمصر ظل غريباً بين ظهرانى الجمهرة الغفيرة من السكان الوطنيين الذين كان من المؤكد أن يمتصوه فى آخر الأمر امتصاصاً تاماً لولا تدخل روما. أجل إن القطر لم يكن مزدحماً بالسكان إلى الحد الأقصى فى حكم بطلميوس الأول ، كما يتجلى ذلك من وجود فائض من الأرض غير المزرعة . وتقول الروايات المتواترة إن السكان كانوا سبعة ملايين أو سبعة ملايين ونصفاً (بغض النظر عن سكان الإسكندرية) فى أثناء العصر الهللينستى ، على أن بعض العلماء يجادلون فى هذا التقدير مدعين أنهم أكثر عدداً. وقد وفد بعض المقدونيين مع بطلميوس الأول

وظلوا يستمتعون على الدوام بمركزهم الممتاز ، ولكنهم كانوا قلة ضئيلة جداً لا تأثير لها ، كما أن حكم البطالمة الأول كان يعتمد على الإغريق ، الذين كانوا ينثالون إلى البلاد كالسيل حتى منتصف القرن الثالث ، سواء أجاءوا جنداً مرتزقة أو مستوطنين . وكان ينزح معهم تراقيون وأسيويون من غرب آسيا ثم لا يلبث معظمهم (عدا اليهود منهم) أن يصطبغوا بسرعة بالصباغ الهللينستى . وفى ٢٥٢ كان أحد الرومان منضوياً فى سلك جيش بطلميوس .

وظل الإغريق حينا من الدهر يحكمون مصر كقطر مقهور . ولم يكن ذلك هو ما كان يرمى إليه الإسكندر ، ذلك أن نظامه كان يجعل الأوربيين يتصرفون فى المالية وفى جيش الاحتلال ، على حين أن الحكومة المدنية التى يرأسها هو كانت توكل إلى المصريين . وقد ظلت الأقسام الإدارية بالقطر (Nomes) تحت حكم نظار أقسام (Nomarchs) ، كما أنه عين حاكمين مصريين بدلا من ساتراب مقدونى . والمعروف أن بطلميوس الأول نفسه لم ينبذ تماماً وهو ساتراب فكرة الإسكندر . وأفسح للأهالى مجالاً أوسع مما حصلوا عليه فيما بعد ، وحدث التغيير عندما بدأ الملك فى سياسة الفتوح فيما وراء البحار . وكان خلفاؤه المباشرون يرومون ضم منطقة البحر الإيجى وسواحله إلى رقعة ممتلكاته وتكوين إمبراطورية منها ، وصاروا يعاملون مصر كأنما هى فقط مصدر لجمع المال ، ولم يحدث فى عهد البطالمة الثلاثة الأول ، أن وطنياً من الأهالى حمل السلاح مطلقاً بعد ٣١٢ ق . م . ولكن الموقف تغير تماماً قرب نهاية القرن الثالث . إذ أن الجند الوطنيين الذين كانوا حديثى العهد بالجندية أحرزوا النصر للملك بطلميوس الرابع فى ٢١٧ بمعركة رفح وعرفوا من ثم أهميتهم . ولما كانت الهجرة اليونانية إلى البلاد قد توقفت ، فإن العنصر الإغريقى أخذ منذ ذلك الحين يخلى السبيل أمام العنصر المصرى . وخير ما ننهجه فى هذا الصدد أن نقدم وصفاً إجمالياً لمصر البطلمية ونظامها على ما كان عليه فى القرن الثالث ، ثم نلحظ ما حدث بعد ذلك من تغييرات وخاصة كما تتكشف عن طريق السلسلة العظيمة من الأوامر والقرارات التى أصدرها بطلميوس يورجيتيس الثانى .

ولو قارنّا أوجه الشبه والاختلاف فى النظم السياسية والإدارية والاقتصادية لدى الإمبراطوريتين البطلمية والسلوقية — لتجلى لنا أن النظامين جميعاً ينبعان من مصادر واحدة، ولكنهما لم يتطورا فى نفس السبيل . وكانت أوجه الاختلاف الرئيسية تنحصر فى سياسة الدولتين الاقتصادية وموقفهما من حياة المدينة الإغريقية . وكان البطالمة موقنين منذ البداية أنهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يؤسسوا دولة قوية بمصر، يكون قوامها المدينة الإغريقية كما فعل السلوقيون بآسيا . ومع أن بطلميوس الأول ما كان ليستحق أن يصبح خلفاً للإسكندر لو لم ينشىء بعض المدن، فإنه لم ينشىء منها فى مصر إلا مدينة واحدة هى بطلمية بمصر العليا وذلك ولا ريب لمناهضة طيبة، المركز الرئيسى للكهنة . وكانت بطلمية هذه من حيث مظهرها مدينة إغريقية تستمتع بالحكم الذاتى ، ولكن هذه الحرية الذاتية لم يلبث نطاقها أن حدد وقيد، عند ما أصبح حاكم الإقليم الطيبى (Thebaia) الموظف الرئيسى فيها ، وهو إجراء يعيد إلى الذاكرة الحكم الذاتى المقيد الذى كانت تستمتع به برجامة أو سالونيكا . وظلت نقراطيس قائمة ، ولكنها فقدت إلى جوار الإسكندرية كل أهمية كانت لها ، وبغض النظر عن الإسكندرية كان النشاط الذى أظهره البطالمة فيما يتعلق بالمدن مقصوراً على ممتلكاتهم الخارجية . وقد بلغت هذه الممتلكات فى وقت ما من الاتساع شأواً بعيداً ، وإن تأرجحت رقعتها من وقت إلى آخر . وكانت جزر السكلاديس (Cyclades) الواقع بين تركيا وبلاد اليونان الحالية ملكاً للبطالمة وخاضعة لإشرافهم من ٢٨٥ إلى ٢٤٥ . وساموس من ٢٨١ إلى ٢٠١ . وكذلك معظم ساحل آسيا الصغرى من جبال كاليكادنوس بقليقيا إلى إفيسوس من حوالى ٢٧٣ (أو قبلها) بصورة متقطعة حتى ١٩٧ ، وإن كان الحكم فى كثير من المدن والأقاليم ظل ينتقل من يد إلى يد أثناء حروب البطالمة مع السلوقيين . وكان لهم أيضاً شطر عظيم من سواحل الهللسبونت وتراقيا بما فى ذلك لسبوس وثاموتراقيا من حوالى ٢٤١ إلى حوالى ٢٠٢ فضلا عن أبديرا نفسها الواقعة فى النطاق المقدونى . وظل لهم أيضا جنوب سوريا حتى لبنان وشطر كبير من فينيقيا، ولكن الحدود لم تبرح دائبة التغيير حتى ٢٠٠ ؛ وأيديروملكوا أيضاً مدينتى ثيراوميثانا فى إقليم أرجوس وإيتانوس بجزيرة كريت حتى ١٤٦، وكذلك برقة (Cyrenaica) فيما عدا فترة استقلالها


البحر المتوسط
برقة
ليبيا
صور
غزة
فلسطين
البتراء
أيلة

الوجيزة (من نحو ٢٥٨ — ٢٤٦) حتى ٩٦ ، وكذلك قبرص وهى آخر ممتلكاتهم الأجنبية حتى ٥٨ . وقد أطلقوا أسماء جديدة على كثير من المدن . فإن ميثانا وباتارا فى ليقيا وبعض مدن كيوس سميت كلها أرسينوى (Arsinoe) . على أن أرسينوى وفيلادلفيا بقليقيا ربما كانتا مؤسستين جديدتين وكانت لهما نظائر فى سورية مثل فيلوتيريا على بحيرة جنسارت (Gennesareth)؛ على حين أعيد من جديد تأسيس مدن أخرى وطنية على صورة مدن إغريقية ، حيث سميت عكا باسم بطلمية وأطلق على رابات عمان اسم فيلادلفيا . أما السياسة الخارجية التى انتهجها البطالمة الثلاثة الأولون ، وهل كانت عدوانية أو دفاعية ، فإن ذلك كان مثار نقاش طويل . إذ إن المرء ربما استطاع أن يزعم أنهم كانوا يحتفظون بجنوب سورية وقبرص (بما حوت من الأخشاب اللازمة لبناء السفن) لأغراض دفاعية ، وأن كل ما عدا ذلك كان عدواناً .

كانت المدن الإغريقية الواقعة فى ممتلكاتهم الأجنبية بلداناً خاضعة خضوعاً لا شك فيه ، وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس ذلك الوصف ، كما أن شكل نظام الحكم كان مرتبطاً بأنموذجه المصرى . وثمة شىء استحدثه البطالمة بمصر هو إلغاء حكام الأقسام الأهليين وتعيين حكام عليها من قواد إغريق أو مقدونيين ، كأنما كانت تلك الأقسام ساترابيات . وكذلك الشأن فى الممتلكات الخارجية ، فإنها كانت تحت حكم قواد ، وهو الحال المعتاد فى جميع الممالك المقدونية ، مع جعل الرياسة فى المدن بيد حكام مدنيين : ولكن الشىء المهم هو أن الشئون الداخلية بتلك المدن الإغريقية لم تكن فقط تحت هيمنة بطلميوس عن طريق القائد والحاكم المدنى ، بل لوزير المالية (Dioiketes)الهيمنة كذلك، ومقره بالإسكندرية ، وذلك لأنه كما كان يوجد إلى جانب القائد فى كل قسم مرءوس لوزير المالية هو مدير الشئون الاقتصادية (Oikonomos) فكذلك كان هناك مدير للشئون الاقتصادية وقائد فى ولايات مثل كاريا يباشران السلطان فى المدن الإغريقية . والواقع أنه لم يحدث أن ملكية أخرى بلغت هذا المدى. وهذا الإجراء فى حد ذاته يومئ إلى محاولة لإدخال النظام الاقتصادى المصرى فى العالم الإغريقى . ومن سوء الحظ أننا لا نعرف إلى أى حد تم تنفيذ ذلك فعلا . بيد أن لسبوس اليونانية كانت — فضلاً عما تدفعه من الضرائب

النقدية ـ تدفع ضريبة من القمح عيناً . ومعنى هذه الضريبة العينية أن أرض تلك المدينة كانت تعامل كأنما هى أرض يملكها العاهل . وكان هناك بها ليكارناسوس فيما يلوح ، نظام الربابنة المتعهدين(١)(Trierarchy) للمساهمة فى صيانة الأسطول المصرى . وحاول بطلميوس الثانى أن يُحل عملته محل عملات المدن الأسيوية . ولا ريب أن سوريا نُظمت إلى حد ما على غرار النظام السارى بمصر ، ولكن ليس إلى الحد الدقيق تماماً . وكان لا يزال يقوم إلى جوار دولة الكهنة ببلاد اليهودية (Judaea) رؤساء أهليون كأسرة طوبيا (Tobiads) فى عمون (عمان) تحت السيادة البطلمية ، بل لعل البطالمة كانوا يمتلكون الأراضى التى يديرها هؤلاء الرؤساء .

أما فيما يتعلق بالمنشآت بمصر فإن بطلميوس الأول أسس المكتبة والأكاديمية (المتحف) ، على حين أكمل بطلميوس الثانى المكتبة وأعاد القناة التى أنشأها دارا الأول لوصل البحر الأحمر بالنيل عن طريق البحيرات المرة ، كما بدأ منذ أوائل عهده فى تجفيف بحيرة موريس لتكوين القسم الأرسنويتى وهو إقليم الفيوم ، وبذلك استعاد قدراً عظيماً من الأرض الزراعية الخصبة التى جعلها مركزاً لاستيطان الإغريق ، وحوّل المستنقع الأصلى فى النهاية إلى بحيرة يقارب حجمها حجم بحيرة قارون اليوم . وزوّد طريق القوافل بين قفط (Coptos) على النيل وبين برينيقة أو برنيس (Berenice) على البحر الأحمر بالآبار والحصون الصغيرة وأنشئ بالبلاد نظام بريد سريع على غرار النظام الفارسى ، كما أنشئ نظام أبطأ لنقل الطرود الثقيلة والأفراد قائم على نظام إعداد ما يلزم من حيوانات الجر والنقل على طول الطريق ، وأدخل بطلميوس الثانى الجمل إلى البلاد ، ومن ثم فصاعدا أخذ بريد الجمال يجرى من الجنوب إلى الإسكندرية . وسيجد القارئ فى غير هذا المكان بياناً بالمجموعة العظيمة من الاستكشافات التى تمت على امتداد ساحل البحر الأحمر (الفصل السابع) . ولعل أعظم ما تم من جلائل المشروعات هو إكمال بناء مدينة الإسكندرية .

---

(١) الربابنة المتعهدون : نظام يمثل أعمالا يتولى فيها موظفون أو أعيان يعينون بالاختيار ، مهمة إعداد السفن والإنفاق على تجارتها وصيانتها . (المترجم)

وكانت الإسكندرية تسمى بالإسكندرية على حافة مصر Alexandria) ad Aegyptum) ، وكان الأهالى يميزون بينها وبين بقية القطر كله بتسميتها «المدينة» ، وهى تقوم على عنق من الأرض يقع بين البحر وبحيرة مريوط وله على كل من جانبيه مرفأ . وقد خططها دينوقراطيس على الشكل المستطيل المألوف فى المدن الهللينستية (الفصل التاسع) والذى يوجد حتى فى القرى اليونانية بإقليم الفيوم ،ولكن الطرق التى كشف عنها فعلا طرق رومانية خالصة ، وأهم مصدر نعرف منه شيئاً عن المدينة الهللينستية، هو استرابون الذى يصف لنا شارعاً عظيماً عرضه مائة قدم يمتد شرقاً وغرباً ويقطعه آخر بزاوية قائمة ، وتحمل كثير من الشوارع أسماء عبادات أرسينوى الثانية . وكان الإسكندر أوصل جزيرة فاروس (pharos) بأرض القارة بوساطة جسر طوله سبعة فراسخ يسمى جسر الفراسخ السبع (Heptastadion) فتكون بفضله ميناء مزدوج،وهو نوع معروف فى سيراقوزه وسينوبى وكيزيكوس. وإلى الشرق من الجسر حوض طبيعى كبير ، أهمل فى هذه الأيام كما يوجد إلى الغرب منه مرفأ صناعى يسمى بر السلامة (Eunostos) أقيم بإنشاء حواجز الأمواج وهو متصل ببحيرة مريوط بإحدى القنوات .وكان بكل منها مرفأ داخلى صغير مقفل ينفتح بابه من داخله — فينفتح أحدهما من الميناء الشرقية وهو مرفأ بطلميوس الخاص والثانى من مرفأ برالسلامة وهو المرفأ الحربى (Kibotos) . وكانت ميناء بحيرة مريوط تتلقى تجارة نهر النيل ، وكان يقال عنها إنه يمر بها من أطنان البضائع ما يفوق ما يمر بالمينائين البحريين نفسيهما ؛ وبها كان يرسو أسطول النزهة الفاخر الخاص ببطلميوس الثانى ، كما أقيم بها فيما بعد (الفيلا) الأنيقة التى شيدت على إحدى العائمات لبطلميوس الرابع . وكان الحى الملكى (Brucheion) واقعاً على الميناء الشرقية ، وكان يقوم فيه بين المعابد والحدائق الفسيحة كل من القصر والأكاديمية والمكتبة ومعسكرات الحرس ومقابر البطالمة والقبر الرائع الذى شاده بطلميوس الثانى ليوارى فيه جثمان الإسكندر عندما أحضره من منف ، وهو قبر ظل أباطرة الرومان ينظرون إليه بعين التقديس ،حتى لقد حج إليه الإمبراطور كراكلا . وكانت المنارة (pharos) تمتد إلى عنان السماء كالحارس اليقظ على كل هذا

الجمع ، وقد بناها على الجزيرة سوستراتوس من كنيدوس حرصا على سلامة البحارة (الفصل التاسع) .

وكانت المبانى التى تضم الإدارات المركزية للنظام الإدارى بأكمله والمخازن الرئيسية للقمح والزيت وغيره من الحاصلات ودار القضاء والجنازيوم أو المعهد الرياضى والثقافى تقع كلها داخل المدينة ، وكان الإستاديوم يقع خارج البوابة الشرقية ، كذلك ميدان السباق المعد لسباق العربات ؛ وفى الغرب بالقرب من الحى الوطنى كان يقوم المعبد العظيم لسرابيس . وكان فى الإمكان الحصول على منظر عام للمدينة بأكملها من تل صناعى كرس للإله بان(١) (pan) . وكانت الدكاكين والأسواق تحف الشارع الرئيسى على جانبيه . والراجح أن المنازل قد صارت فى حوالى سنة ١٠٠ ترتفع إلى عدة طوابق ؛ وكانت بيوت النزلاء (البنسيونات) معروفة فى ذلك الزمان يديرها عبيد أصحابها . وكانت إحدى الترع تجلب مياه النيل إلى المدينة وهناك توزع بوساطة قنوات وأنابيب توصل الماء إلى مجموعة من الصهاريج السفلية ، التى كان السكان يأخذون منها حاجتهم من الماء . والظاهر أن بعض البيوت صارت فيما بعد تستطيع الحصول على حاجتها من الماء بالمضخات . وكانت مبانى المدينة تمتد خارج أسوارها من كلا الجانبين . ويقع الحى المصرى الوطنى فى الغرب ؛ وإلى الشرق خارج ضاحية إلوسيس (٢) كانت حدائق الأغنياء تمتد إلى كانوب (Conopus) (أبى قير) التى كانت ساحة لهو الإسكندرية . وفى عام ٢٠٠ كانت الإسكندرية أعظم مدينة فى العالم المعروف آنذاك ، وإن فاقتها روما فيما بعد ؛ وبلغ عدد سكانها المليون فيما يحتمل فى عصر أوغسطس . وقد عثر حديثاً على محاورة ادعى فيها أحد المتحمسين أن الإسكندرية هى العالم : فالكرة الأرضية كلها هى «أرض المدينة» التابعة لها ، كما أن المدن الأخرى ليست إلا قراها . وفى الإمكان تكوين صورة عن ثروتها وفخامتها فى عهد بطلميوس الثانى مما كتبه كاليكسينوس فى وصف حفظه لنا أثينايوس عن موكب خرج فى عيد لذلك الملك .

---

(١) محله الآن كوم الدكة .

(٢) إلوسيس هى حى النزهة حالياً .

إن وجود مثل هذا الحشد الهائل من النفوس البشرية وتكوينه لمدينة واحدة بكل مفهوم « المدينة» الدقيق عند اليونان لأمر يكاد يكون فيه استحالة مادية . لقد كانت الإسكندرية عبارة عن مجموعة من الجاليات (politeumata) (الفصل الرابع) ، تقوم على أساس القوميات . وكانت أهمها بدرجة كبيرة الجالية الإغريقية ، وبمعزل عن هؤلاء جميعاً وفى أعلى مرتبة بالمدينة كان يقف عدد قليل من المقدونيين ذوى الامتيازات على حين تقف كتلة المصريين فى أدنى المراتب . ولم يكن لها حتى مجلس مدينة (وإن ظن البعض غير ذلك) ؛ ولا شك أن محاجة فلكن بأنه ليس معقولا أن ينشئ الإسكندر مدينة بلا مجلس ، زعم يفترض مقدماً ودون بينات أن ما أنشأه الإسكندر كان مدينة (polis) ، على حين أن مؤسساته كانت فى الراجح ذات طراز مختلط جديد . ومع ذلك فإن الجالية الإغريقية بالإسكندرية كانت أدنى كثيراً إلى طراز المدينة المعروف عند اليونان من أية جالية أخرى نعرفها ؛ وكان الإغريق يسمون « المواطنين الأحرار Citizens » — و « الإسكندريين » وكانوا ينقسمون إلى قبائل ؛ وكان يؤخذ من بينهم الموظفون العموميون على الطراز الإغريقى وهم الذين كانوا يشرفون على المبانى وشئون الصحة العامة وما إليها . وكذلك كانت تتألف منهم المحاكم اليونانية التى كانت تطبق قانونا يجمع بين «قانون المدينة» وهو قانون المواطنين الإغريق الأحرار وبين المراسيم الملكية. وكان لهذه المحاكم اختصاص فيما يبدو على السكان عدا الجالية اليهودية (بعد القرن الثالث)،وكانت الأرض الملحقة بالإسكندرية هى أرض الإسكندريين، أى أرض الجالية اليونانية . ولو فرض أننا اكتشفنا فيما بعد وجود مجلس (بولى) فالراجح أن هذا المجلس هو الذى كان يدبر شئون تلك الجالية وهو أمر لابد أن نسلم بوجوده ، ومع ذلك فقد كان هناك سكان كثيرون من الإغريق لم يكونوا أعضاء فى تلك الجالية اليونانية ، كما أن السكان جميعاً كانوا خاضعين للحاكم الذى يعينه بطلميوس ،وكان لذلك الحاكم فى الفترة التالية سلطات عسكرية . وكان هناك موظفون ملكيون آخرون مثل رئيس الشرطة ورئيس البلدية الملقب (Exegetes) (الذى كان يرتدى ثيابا أرجوانية) ومثل اليوثينيارك (Eutheniarch) . وربما كان من اختصاص أحد الاثنين الأخيرين تدبير موادالتموين ، بيد أن الملك كان يشرف بنفسه على توفير ما يلزم

للمدينة من الطعام . وأهم ما يشوق المؤرخ فى ذلك الدستور هو أن يتتبع « قانون المدينة» بما كان له من طابع شخصي خاص بالإغريق ، وقد بسط تطبيقه على غير الإغريق — حتى أخذ يصبح قانوناً إقليمياً حقاً. وربما كان ذلك جزءاً من خطة الإسكندر لصهر الأجناس المختلفة بعضها ببعض. ولاشك أن الإسكندرية ما لبثت بعد أن أخذ الإغريق والمصريون يختلطون بالتزاوج فى القرن الثانى ، أن نجحت فى النهاية (بغض النظر عن اليهود وقلة ضئيلة من الإغريق) فى صهرهم جميعاً فى كتلة متجانسة بدرجة صغرى أو كبرت، وهى كتلة من السكان المحبين للشغب ، الذين يهيمون جنوناً بالمهرجانات والحفلات العامة ،والساخرين المتهكمين بالأسرة المالكة ، بل المعادين لها أحياناً وإن قانلوا عنها مع ذلك فى النهاية ثم عادوا فندموا عليها طويلا .

والحديث فى وصف النظام السائد فى عهد البطالمة كالخوض فى وصف جسد بلا رأس . وذلك لأن الخيوط جميعاً كانت تمتد إلى الإسكندرية ، ولسنا نعرف شيئاً عن الدواوين المركزية فيها ، أما المعلومات الباقية لدينا فتجيء من ريف البلاد . وكانت مصر منذ أيام حكم الفرس قد أخذت بأسباب الدفع نقداً وإحلال ذلك محل طريقة الدفع عينا ، ولقيت تلك الطريقة تشجيعاً كبيراً فى عهد البطالمة . ولكن النظام القائم على الاقتصاد العينى كان لا يزال موجوداً. وقد ظل رأس المال النقدى على الدوام من الأمور النادرة نسبياً فى البلاد ، وكانت الفائدة وهى ٢٤ فى المائة إلى ٢٦ فى المائة ، هى نسب لم تكن بلاد اليونان تعرفها إلا فى القروض البحرية . أما فيما يتعلق بالفلاحين فكان أساس النظام أنه يتعين على كل إنسان أن يكون له « مكانه الخاص » ، الذى لم يكن يستطيع مبارحته إلا بأمر رسمى أو تصريح . وقد تمكن المؤرخون من ترسم أصول نظام الاحتكار وإرجاعها إلى عهد احتكارات المعبد القديم فى العصور الفرعونية وإلى ذلك الاحتكار الشهير للقمح الذى جلبه كليومينيس ، الوكيل المالى عن الإسكندر عندما كانت البلاد فى قبضته فعلا . ولكن النظام على ما نعرفه يبدو كأنما هو من عمل بطلميوس الثانى ، وإن كان المعقول فى تصورنا أن أباه هو الذى أنشأه .

كان الملك هو الدولة ، وقد ادعى بطلميوس الأول بعد وفاة برديكاس

أنه حصل على مصر « بحد الحسام » فهى من ثم تنتقل إلى الملك حسب العرف المقدونى المتبع . ولذا فإنه ادعى أنه مالك أرض مصر كلها عدا أرض نقراطيس والإسكندرية وبطلمية : فلم يقتصر ادعاؤه على الأراضى القديمة الملكية السابقة ، بل ضمّ إليه أيضاً أملاك المعابد وأرض الأسر الإقطاعية النبيلة التى ألغاها البطالمة . وقد قسمت الأرض بأكملها إلى نوعين اثنين فقط : أرض الملك بأضيق معانى الكلمة ، أعنى الأرض التى هى ملك يده ، والأرض الممنوحة . وكان يزرع أرض الملك . « الفلاحون الملكيون » أى « شعب الملك » . وهم شطر جوهرى من الفلاحين وسكان القرى ، وقد ظل أجدادهم يزرعون أرض الملك قروناً لا حصر لها . وكثير منهم فلاحون صغار ، ولكن فيهم مزارعون لهم بعض المكانة . وقد أصبحت بعض صكوك حيازتهم المعتادة تنقل إلى صيغ يونانية . فكانوا يسجلون فى السجلات تحت اسم المستأجرين بموجب عقود إيجار . ولكن لم يكن معهم عقود إيجار مكتوبة ، كما أن الملك لم يكن يضطلع من جانبه بواجبات المؤجر المترتبة على التأجير . ولما كانوا لا يستطيعون مغادرة قراهم ، لذلك كانوا ملزمين بزراعة أرضهم ، وكان فى الإمكان إلزامهم بزراعة قدر أكبر منها إذا خلت قطعة أرض من ساكنيها وفالحيها (وذلك لأن الدولة كانت تقوم على المبدأ القائل بأن أرض الملك ينبغى أن تظل مزرعة) . وكان من الجائز تسخير حيواناتهم ومواشيهم وكانوا يعملون بالسخرة على الجسور والترع ويقومون عليها . وفى الإمكان طردهم فى أى وقت من الأوقات . وإذن فالواقع أنهم لم يكونوا يختلفون كثيراً عن رقيق الأرض . ولا ندرى ما كان يمتلكه الملك من أرض مصر ، ومن المحقق أنه كان يمتلك شطراً كبيراً جداً ، وأنه كان يمتلك نصيب الأسد فى أرض الفيوم والدلتا .

وكانت الأرض الممنوحة هبة تنقسم إلى أربع فئات : (أ) أراضى المعابد ، (ب) أرض فى حيازة الجند الإقطاعيين (Cleruchic) (ح) أرض الهبات (د) ما يسمونه بالأرض الخاصة . أما عن النوع الأول فكان الملك بوصفه كذلك إلهاً مصريا يزرع الأراضى التى كانت من قبل تتبع المعابد ، وكان يخصص للمعبد نصيبه الذى يلزمه من المحصول ويحتفظ لنفسه بالباقى . والراجح أن

مقادير مترامية من الأراضي بالإقليم الطيبي كانت تنتمى إلى هـذه الفئة من الأرض.. وفى النوع الثانى كان الجنود الإقطاعيون (Cleruchs) وهم أصحاب الإقطاعات (Kleroi) أو الأنصبة العسكرية مستوطنين عسكريين، وهم فى الأصل مرتزقة من جنسيات كثيرة يغلب فيهم العنصر الإغريقى ، وهم يتجمعون فى مستوطنات وفى إنزالهم فى الأرض ضمان للدولة فى كل آن بما يلزمها من إمدادات عسكرية . وقد أعطوا فى القرن الثالث أرضاً جيدة . ولكن الحكومة كانت تنزلهم بعد ذلك فى الأراضى البور أو غير المزرعة حيث يباح لهم حق الانتفاع من هـذه الأرض بسعر منخفض على شريطة أن يستصلحوا أنصبتهم منها . وكان فى وسعهم أن يجعلوها أرض قمح أو أرض بساتين حسب هواهم (وكانت الكروم تحسب ضمن البساتين والحدائق) ، ويدفعون إيجارها على هذا الأساس ، حيث يدفع الواحد منهم عن أرض القمح قمحاً وعن أرض البساتين نقوداً ، ولم تكن إيجاراتهم عالية ، وذلك لأن التزامهم أداء الخدمة العسكرية كان جزءا من الإيجار فإن مات أحد الإقطاعيين العسكريين أو أخفق دون دفع إيجاره أو أداء خدمته العسكرية جاز للملك أن يسترد الأرض . ولكن « النصيب » من الأرض أصبح وراثياً منذ ٢١٨ وصار ينتقل إلى ابن صاحب الإقطاع ، كما صار فى الإمكان فيما بعد التنازل عنه أو تحويله لآخر . والنوع الثالث ويقصد به أرض الهبات كان يتضمن مزارع مترامية الأطراف تحتوى على قرية أو أكثر بما يحيطها من أرض وهبت لأحد الموظفين ، فيصبح بذلك صاحب السيطرة على سلطات القرية . وكان الغرض من ذلك تقدم الأرض واستصلاحها تماماً عن طريقه ، ولكن كان من حق الملك أن يسترد الضيعة . وقد أمدتنا وثائق زينون البردية بقدر كبير من المعلومات عن الضيعة التى وهبها الملك بطلميوس الثانى بالفيوم لوزير ماليته أبو للونيوس . والنوع الأخير يمثل الأرض الخاصة وكانت تشتمل أصلا على المنزل والحديقة والكرمة ، حتى لقد كان بيت الفلاح الملكى وحديقته أملاكاً خاصة . وكان الإغريق يسمونها أحياناً بالممتلكات (Property) ، ولكنها شأن كل شكل آخر فى الأوضاع البطلمية لم تكن ممتلكات بل حق انتفاع . ولو استثنينا المدن الإغريقية من حسابنا لم نجد الملكية والحق القانونى فى أى أرض بمصر يخرج من يد الملك أبداً . على أن الملوك

ما لبثوا أن أخذوا يعطون للمدنيين حقوق الانتفاع بصفة مستديمة فى أرض أخرى عدا البيت والحديقة — وهى الأرض البوز وأرض الإقطاع العسكرى التى خلت من أصحابها أو حتى أرض الملك التى خلت من ساكنيها ، وهذه الأرض أيضاً كانت تعد «خاصة». وقد زادت أهميتها زيادة عظيمة فى القرن الأول ، بل زادت أكثر وأكثر فى العهد الرومانى ، ولما كان الجند الإقطاعيون هم العنصر العسكرى فى الدولة ، فمن المحتمل أيضاً أن ساكنى الأملاك الخاصة كانوا العنصر الذى يزودها بالموظفين فى الوظائف الصغرى للجهاز الحكومى . وفى الإمكان عقد مقارنة بين النظم المتماثلة بمصر وآسيا السلوقية ، حيث قد توجد المستقرات المدنية إلى جوار المستقرات العسكرية (الفصل الرابع) .

وننتقل إلى النظام الاقتصادى نفسه . وكانت السلعة الرئيسية بمصر هى القمح . فكل أرض للقمح مهما تكن شخصية واضع اليد عليها ، كانت تدفع ضريبة عينية من القمح للملك رأساً ، ولم يكن أى جزء من المحصول فى أرض الملك يذهب لجيب الفلاح حتى يستولى الملك على نصيبه وهو الشطر الأعظم من المحصول وحتى يحمله الفلاح إلى شونة الملك فى زمام قريته . وبينما كان السلوقيون فى آسيا شركاء للفلاحين ولا بد أنهم كانوا يشاطرونهم الخسائر فى السنين العجاف (الفصل الرابع) ، فإنه فى مصر كان كل جزء من الأرض يزرعه الفلاحون من الأهالى يبدأ بتقديم الكمية المفروضة عليه للملك كواجب أول ولا تقع فيه الخسارة إلا على جانب الزارع وحده ، وكان هذا أحد أسباب الثراء العريض الذى توافر لبطلميوس . ولم يكن يتبقى للفلاحين الملكيين إلا الكفاف يعيشون عليه ، وكان الملك يزودهم بما يلزمهم فى العام القابل من بذور القمح . وينتقل القمح من شون القرية إلى الشونة العامة للقسم ومنها يؤخذ فى النيل إلى شونة الملك بالإسكندريه ويخزن هناك لقد كان القمح نيلا آخر ينساب إلى العاصمة وتغذيه آلاف من الروافد . وكان بطلميوس أعظم تاجر قمح شهده العالم على كر الدهور .

أما المواد الأساسية التى كانت احتكاراً ملكياً أو تحوى عنصراً من عناصر الاحتكار كالأقمشة والزيت ، فكانت المعاملة فيها تختلف حسب مقتضيات المواد الخام نفسها ، كما هو الحال فى مسألة المنسوجات مثلا . ومع أن الملك كان

يحدد فى كل عام مقدار ما ينبغى زراعته من الكتان بالبلاد ، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يقرر بالدقة عدد الأغنام التى يمكن تربيتها ، وأقصى ما كان يستطيع فعله هاهنا هو أن يفرض على الصوف الأجنبى ضريبة استيراد قدرها عشرون فى المائة داخل نطاق التعريفة الجمركية ، وهو أمر جعل أبوللونيوس يجرى التجارب فى تربية الغنم الميليطى (وهى الصنف المعادل لغنم المرينو ببلاد اليونان) إذ يلوح أن أحداً لم يحاول قط أن يحتكر الصوف والكتان على السواء بجعل بيع خاماتهما مقصوراً على الملك وحده . والراجح أن المصانع الملكية كانت تأخذ ما يلزم البلاط الملكى والجيش منهما وما يلزم تجارة الصادر (بالنسبة للكتان) . على أن صناعة نسج الصوف كان الشىء الكثير منها يترك لرأس المال الخاص وللجهود الفردية كذلك . ولكن نسج التيل كان يخضع لإشراف أدق وإن لم ينطو ذلك على احتكار تام . ومع أن كل قسم إدارى (Nome) بل كل ناسج كان ملزماً بمقتضى التعليمات أن ينتج للدولة بضاعة وسلعاً من نوع وقدر معين ، وكان على الفرد أن يعوض الدولة بالنقد عن أى نقص فى المقدار المقرر عليه ، فالظاهر أن القانون لم يكن يحظر على الأفراد إنتاج فائض عن النصيب الذى تطلبه الدولة ، إذ لم يزل مسموحاً للمعابد أن تنتج لنفسها ما يلزمها على شريطة أن تنتج النصيب المفروض عليها . أما تسويق منتجات المنسوجات فإنا لا نزال غير متحققين من مدى اضطلاع الحكومة بتنظيم الأسعار والكميات .

ولكن الزيت كان أهم الاحتكارات الملكية . فالزيتون كان نادراً على الرغم من أنه أدخل إلى مصر من زمن بعيد جداً . وكانت أشجاره تزرع ابتغاء الزينة ، ولم تكن الثمار تستخدم إلا كفاكهة تؤكل ، كما أن الزيت كان يستخرج من السمسم (وهو خير أنواعه) ومن حب الملوك ومن بذر الكتان والقرطم وبذر القرع . وكان الملك يحدد كل عام المساحة التى يجب زراعتها بالنباتات المنتجة للزيوت . وكان زرعها إجباريا ، كما كان الملك يستولى على المحصول بأكمله بسعر محدد . وكان الزيت يعتصر فى معاصر الحكومة التى يكون العمال فيها من موالى الأرض الذين يرغمون على العمل ويقيدون بمحال إقامتهم ما لم ينقلوا إلى مكان آخر بأوامر رسمية . وكان يوزع الزيت على الناس فى النهاية

تجار تجزئة بسعر محدد . ولمنع المنافسة فرض على الزيت الخارجى ضريبة استيراد ثقيلة . ففى ٢٥٩ باع بطلميوس الثانى زيته بمصر بسعر ٥٢ دراخمة للمكيال المعروف بالمترتيس (Metretes)، وكانت ضريبة الاستيراد خمسين فى المائة مع إلزام كل مستورد بأن يبيع الزيت المستورد للملك وحده بسعر ٤٦ دراخمة ، وكان الحال يجرى على هذا النحو . فالمستورد للزيت اليونانى كان ملزماً بدفع ضريبة قدرها ٢٦ دراخمة بطلمية، فضلا عن نحو دراخمتين كمكوس لميناء الإسكندرية وغيرها من المكوس ، ثم يضطر أن يبيع بستة وأربعين دراخمة بطلمية . وهذا كان يترك له نحو ١٨ دراخمة بطلمية فى المترتيس الواحد لتغطية سعر شراء الزيت ، عدا رسم الصادر بالمدينة التى أرسل منها الزيت وقدره ٢ فى المائة ونفقات النقل بحراً ، وذلك فضلا عن مكسبه وعلى ذلك لم يكن من المستطاع شحن الزيت إلى مصر مالم يكن ثمن تكلفته أقل كثيراً جداً من ١٨ دراخمة بطلمية وهى تعادل بالتقريب ١٥ دراخمة آتيكية (وهى دراخمة الإسكندر). ولكن حوالى ٢٥٩ كان سعر التجزئة للزيت الحر بديلوس يتراوح بين ٢١ ، ١٧ دراخمة آتيكية . فكأن الضريبة المصرية كان مقصوداً بها منع الاستيراد منعاً باتاً . وإذا فرض مع ذلك أن أبولونيوس استورد بالفعل زيت الزيتون مستخدماً سفنه الخاصة، فإن وزير المالية العظيم كان يستطيع دفع النفقات التى يستلزمها مزاجه وإشباع مآربه. ولكن بطلميوس لم يكن ليسمح بترك الأمور رهن ظروفها ، فإذا تراءى لأى فرد على الرغم من الضريبة أن ينقل زيتاً فى النيل ليستخدمه فى أغراضه الخاصة، وجب عليه أن يدفع ١٢ فى المائة أخرى من ثمنه. وإذا حاول بيعه صودر وغرّم المخالف ١٠٠ دراخمة عن كل مكيال قدره مترتيس. لقد كان الزيت احتكاراً دقيقاً لأقصى حد فكان كل شىء فيه مؤمماً : الإنتاج والصناعة والتوزيع . وكانت مكاسب بطلميوس تتراوح بين سبعين فى المائة على زيت السيرج ، إلى ٣٠٠ فى المائة أو يزيد على زيت القرع .

وهناك سلع كثيرة أخرى كانت إما احتكاراً فى يد الملك وإما له فيها نصيب من الربح . وربما أصبحت صناعة ورق البردى وهو مادة الكتابة فى العالم كله ، احتكاراً فى عصر بطلميوس الثانى . ففى سنة ٣٣٣ كانت لفة البردى تساوى دراخمتين ببلاد اليونان. وكانت الدراخمة الواحدة تشترى بها عدة لفات

فى ٢٩٦ عندما فتحت مصر أبوابها للتجارة ، ولكن الذى حدث بعد ٢٧٩ (أى بعد الاحتكار) كان سعر اللفة يقارب من جديد دراخمتين تقريباً أما الاحتكارات الأخرى فكانت فى المناجم والمحاجر والملاحات ومناجم النطرون (وهى كربونات الصودا التى كانت تستخدم بدل الصابون) . وربما كان ضمن الاحتكارات كذلك الاشتغال بتبييض القماش وتجهيزه بوساطة القصارين . وقد طبقوا على القنب نفس النظام الذى يطبق على الكتان . وتباع جميع التوابل المستوردة للملك بالسعر الذى يحدده ، وكان نصيب الملك من السمك والمصايد جميعها وعسل النحل كله خمسة وعشرين فى المائة فضلا عن فرض ضريبة استيراد أخرى قدرها خمسة وعشرون فى المائة لحماية مصالحه فى هذا الشأن . وامتلك جزءا من الأسطول التجارى فى النيل ، وربما أيضاً مصانع الجلد . وكان لكليوبطرة مصنع للصوف تعمل فيه على الراجح جواريها . وكانت أعمال المصارف احتكاراً فى حقيقتها ، حيث كان هناك مصرف للدولة فى الإسكندرية ، كما كانت هناك مصارف أخرى فى عواصم الأقاليم الإدارية وفى القرى . وقد طرح التزاماتها للأفراد الخصوصيين ، وكانت تقوم بعمليات الائتمان وفك النقود فضلاً عن قيامها بدور فرع مصرف الدولة (إن لم تكن فعلاً فروعاً حقيقية يتولى إدارتها موظفون) ، حيث تتلقى الضرائب النقدية وتدفع الأموال المحولة على الخزانة مثل تلك المصارف التى يسمونها مصارف الدولة فى المدن الإغريقية (الفصل الثالث) . وفضلا عن أعمال المصارف ، فإن هناك أعمالا كثيرة كصناعة الجعة وتربية النحل والخنازير لم يكن يجوز القيام بها إلا بشراء رخصة سنوية من خزانة الدولة ، ومن المعقول أن نتصور أن هذا كان يطبق على كل عمل لم يشمله الاحتكار . وكان الملك يملك جميع أرض المراعى وله قطعان كبيرة من الماشية ، وكان الفلاحون الملكيون ملزمين بعد حصد القمح بأن يزرعوا محصولا من المزروعات الخضراء تغتذى به الماشية الملكية . وكان الملك يملك أيضاً قطعانا ضخمة من الخنازير وأسرابا من الإوز كانت تمضى مطلقة السراح ، ولم يكن مسموحا بقطع شجرة بمصر إلا بإذن الملك وذلك لأنها كانت مزروعة فى أرضه .

وأخيراً يجىء النصيب المقتطع (Apomoira) وهو ضريبة تعادل سدس

محصول الكروم وتدفع عيناً وبالمثل ضريبة عن البساتين والحدائق وتدفع نقداً. وكانت ضريبة النصيب المقتطع هذه خاصة بالمعابد، ولكن بطلميوس الثانى حوّلها فى ٢٦٦ — ٢٦٥ إلى عبادة أرسينوى فيلادلفوس المؤلهة، وهو أمر ربما كان معناه أن جزءاً منها كان يذهب إلى الخزانة. ولما كان بطلميوس الثانى يأخذ بالإضافة إلى « النصيب المقتطع » المعروف بضريبة سدس محصول الكروم، ضريبة مقدارها ⅓ ٣٣ ٪ على منتجات الكروم والبساتين والحدائق يراعى فى تقديرها متوسط ثلاث سنوات، فإن شطراً كبيراً من الكروم كل عام كان يؤول إلى الملك، وإن كان النبيذ المورد عيناً يتحول على الفور إلى سلعة تجارية تباع بوساطة الموظفين الماليين، ومن هنا جاءت ضريبة استيراد قدرها ⅓ ٣٣ ٪ على الأنبذة اليونانية الممتازة وهى تقابل الضريبة التى حسبت بمنتهى الدقة بحيث لا تفسد تجارة بطلميوس فى النبيذ والخمور، ومع ذلك تسمح بدخول تلك الخمور الأيونية التى لم يكن فى مستطاع الإسكندرية أن تستغنى عنها. وكانت طريقة فرض الضريبة على الكروم تجعل بطلميوس شريكا لكل زارع كروم، وكلهم فى الغالب من الإغريق — وفى هذا نوع من التمييز العنصرى، وذلك لأنه لم يكن شريكا لمنتجى القمح المصريين، وإن لم يكن لدى الملوك بصفة عامة إلا القليل من التحيز العنصرى المتعمد. وماندرى شيئاً عما كان يحدث فى احتكار المواد الأولية فى البلاد التى كانت مصر تحكمها وهى نبات السلفيوم فى برقة وبلسم أريحا وقار البحر الميت.

ومعنى هذه الإجراءات أنه كما أن جميع أراضى مصر كانت ملكا لبطلميوس فكذلك حال جميع الأعمال بصورة ما، إذ يبدو أن جميع الأعمال التى لم تشملها الاحتكارات الملكية لم يكن يجوز مزاولتها إلا على أساس شراء رخصة تبيح العمل أو بشرط تقديم جزء من المحصول للملك.

وكان هناك بالإضافة إلى ذلك قائمة ضخمة من الضرائب والمكوس النقدية. وهناك ضريبة أبلولة على الضياع، ورسم مساكن قيمته خمسة فى المائة من الإيجار ورسم على البيوع قدره ١٠ ٪ واثنان فى المائة على مبيعات الأسواق و⅓ ٣٣ فى المائة على أبراج الحمام، وضرائب على الماشية والعبيد، وضريبة رءوس كانت فيما يظهر تؤخذ بنسب مختلفة على سكان القطر جميعاً عدا الكهنة وبعض الهيئات الممتازة، وهو

إجراء اقتصادى وليس «عبثاً سياسياً مفروضاً بقصد إبراز منزلة المصريين الدنيا» كما كان المظنون قبلاً . وكانت هناك ضريبة دخولية (Octroi) على التجارة والبضائع المنقولة من مصر العليا (الصعيد) إلى مصر السفلى ، ومن الريف إلى المدن ، ورسم اثنين فى المائة على الاستيراد والتصدير فى الموانى النيلية ، عدا الرسوم المقررة على التصدير والاستيراد وبعضها ثقيل جداً كان يُحصل بالإسكندرية وغيرها من الموانى البحرية . وكثيراً ما فرضت على الناس ضرائب لصنع تاج من الذهب عند تولى الملك عرشه ، وضرائب لصيانة الأسطول والمنارة ، وضرائب للأغراض المحلية كالخفر والشرطة والأطباء والحمامات ثم أدخل إصلاح تمّ بموجبه فصل الخزانة العامة عن إيراد الملك الخاص مع جعل هـــذا الإيراد تحت إدارة موظف يسمى صاحب الحساب الخاص (Idioslogos) وهو خاضع لوزير المالية . وفضلاً عن هذا وغيره(استنتاجا من لوائح وتنظيمات عهد أوغسطس) أن جميع اللقطاء يعدون ملكاً لبيت بطلميوس ، وكان صاحب الحساب الخاص يتولى جمعهم باعتبارهم سلعاً قابلة للبيع . وكانت العناية التى تعالج بها التوافه من الأمور مدهشة مذهلة ، فإن أبوللونيوس العظيم كان يجمع ما يساوى بضع شلنات من بيع وروده ، كما كان يعيد استخدام جرار الزيت المليطى . ومن سوء الحظ أن دخل البطالمة غير معروف ولكن الأسرة كانت على وجه العموم تعد أغنى أسرة فى العالم ، وأنها كدست ذلك « الكنز الخاص بالبطالمة » الذى أثار جشع الرومان وسال له لعابهم إلى أقصى حد .

ولا شك أن إدارة شئون دولة على مثل هـذه الأسس استلزمت وجود إحصائيات كاملة وافية ، ولذا فإن نظام التسجيل كان وافيا جداً . فكان لكل قرية سجل لأرضها به آخر ما طرأ عليها من تغيرات ، وهو يصف كل جزء من الأرض يقع فى زمام القرية ، وكان بحاضرة القسم سجل خاص ، تجمع بياناته من سجلات القرى . ولا بد أنه كان بالإسكندرية دار للتسجيل للقطر كله ، تجمع أصولها من سجلات الأقاليم . ولا بد أنه كان هناك سجل للمنازل ، وكانت جميع ثيران الجر ودواب النقل تسجل ، وإذا اشترى رجل رخصة ليصيد بها السمك تبعه مندوب للحكومة ليسجل ما يصيده . وكانت

سجلات الأرض الرسمية كافية كأساس لفرض الضريبة على الأملاك العقارية؛ وكان فرض الضرائب على المنقولات قائماً على نظام إعلان أصحابها لما عندهم مصحوباً بتفتيش رسمى. والراجح أن ضرباً من إحصاء السكان كان يجرى فى كل عام. وكان الإشراف يبلغ فى دقته مبلغ التسجيل؛ فالتفتيش يجرى على كل شىء، حتى ليعلم بطلميوس كل يوم قيمة ما يملكه كل فرد من أفراد رعيته وما يؤديه معظمهم من عمل. ولعله لم يكن هناك شىء اسمه تجارة مستقلة فى السوق الداخلية، إلا أن يكون ذلك فى المدن الإغريقية. ولم يكن تجار التجزئة إلا موظفين بالدولة، عملهم التوزيع مع تحديد أرباحهم. وحتى عندما كانت الضرائب المجموعة نقداً يمنح التزامها لأحد الناس، فإنها لم تكن عملية حرة، إلا أن يكون ذلك فى الممتلكات الخارجية. وكان ملتزم جباية الضرائب تحت هيمنة الحكومة — وذلك يكاد يكون أفضل شىء فعله البطالمة — كما أنه لم يكن إلا عضواً فى هيئة لجمع الضرائب، ولكن العناية كلها كانت موجهة نحو التحقيق من أنه جمعها فعلا، وذلك لأنه إن لم يدفع القيمة المقدرة أمكن مصادرة أملاكه وأملاك ضامنيه. ولم يكن الفلاحون الملكيون وحدهم هم الذين يتلقون الأمر بما ينبغى أن يزرعوه من المحاصيل، بل والمزارعون الآخرون كذلك، حتى لقد تلقى أبوللونيوس نفسه ذات مرة أمراً كهذا، وهو أمر لا يمكن صدوره إلا من بطلميوس الثانى شخصيا. وكانت جميع ثيران الحرث لدى فلاحى الملك تحت تصرف الدولة، وكانت توزع فى أثناء أوان البذر والحصاد بحيث تتيح للبلاد الانتفاع بالأرض على أحسن وجه وتأتى بخير الثمار. وكانت جهود عظيمة تبذل لتحسين الزراعة. وفضلاً عن وجود تنظيمات أدق، كانت التجارب تجرى على البذور الجديدة كما أن الأغنام العربية أدخلت إلى البلاد، واستورد أبوللونيوس أيضاً الأغنام المليطية لترعى فى ضيعته كما زرع أشجار الشربين ليرى ما إذا كان فى الإمكان علاج فقر مصر فى الأخشاب. ولما وافت أيام أغسطس كانت أشجار الزيتون كثيرة جداً بالفيوم. على أن زراعة الأشجار الأصلية بالبلاد والعناية بها لم تهمل.

واستلزم النظام وجود جيش ضخم من الموظفين الإداريين والماليين.

وكان كل قسم مقسماً من الناحية الإدارية إلى مراكز ويحتوى كل مركز (Topos.) منها على عدد كبير من القرى . وعلى رأس كل قرية وكل مركز موظفان وطنيان، كما أن كل قسم كان فيه اثنان أيضاً من الناحية النظرية هما ناظر القسم وكاتبه . ولكن الواقع أن القائد كان رئيس القسم ، وكانت اختصاصاته بصفة رئيسية مدنية وقانونية ، وإن ظل اسمه رمزاً يشير إلى الفتح . وكان وزير المالية (Dioiketes) وهو الرجل الثانى فى المملكة، رئيساً للجهاز المالى فى الدولة،وهو الذى يعين صغار الموظفين الماليين وكان يهيمن من دواوينه بالإسكندرية على المركزين العظيمين بها ، وهما شونة الملك الخاصة بالقمح والمنتجات العينية وبنك الدولة المخصص لجمع الضرائب النقدية . أما حواضر الأقسام وقراها ففيها شون القسم والقرية التى كان يجمع فيها القمح تمهيداً لنقله إلى الإسكندرية ، وفيها الموظفون المختصون ، وفيها أيضاً مصارف القسم والقرية التى كانت ترد إليها الضرائب النقدية. وكان يتولى الإشراف على هذه المصارف مندوب عن وزير المالية بكل قسم، أى المدير الاقتصادى (Oikonomos) ، ولكن هذه الوظيفة ازدوجت فيما بعد ، فصار هناك مدير للإنتاج العينى وآخر للنقدى . ولم تكن هناك أية ثقة فى أمانة الموظفين الماليين . فإنهم لم يكونوا فحسب ملزمين بإيجاد ضامنين لهم ، بل كان يخصص لكل واحد منهم رقيب أو مراجع . فإذا أحضر فلاح قمحه إلى الشونة لم يتلق أى إيصال حتى يتحقق المراجع من صحة وزن رئيس الشونة . وإذا لم يتطوع للعمل العدد الكافى من الرجال شغلت الوظائف الصغرى بطريق الإكراه .

وبطلميوس هو مصدر القانون بوصفه ملكا مطلق السلطان ، وكانت لأوامره قوة قانونية . بيد أن تطبيق العدالة فى الظروف العادية كان لا بد له أن يضع فى اعتباره وجود نظامين مختلفين ، النظام الإغريقى والنظام المصرى. وذلك أن الإغريق وإن وفدوا من مدن عديدة ، إلا أن قانونهم كان لا بد أن يعامل ككل متكامل . والواقع أن « قانون المدينة » الخاص بالإسكندرية يتجلى فيه خليط من العناصر ، فمنها ما نقل عن أثينا ومنها ما جاء (فيما يحتمل) من آسيا الصغرى . وكان البطالمة يعترفون بالمبدأ اليونانى القائل بأن القانون شخصى وليس إقليمياً ، ويسلمون بأن المصريين ينبغى أن يعيشوا فى ظل

قانونهم الخاص ؛ فكان لهم قضاتهم الوطنيون القدماء « اللاؤكريتاى » (Laocritae) ، وترجم قانون بلادهم المحلى إلى اليونانية ، ثم أنشئت فيما بعد أثناء القرن الثالث محكمة خاصة للفصل فى المنازعات القائمة بين اليونان والمصريين مع وضع قانون الطرفين فى الحسبان . أما محاكمة الإغريق فقد عينت لها هيئات من القضاة يسمون خريماتستاى (Chrematistae) تتألف كل هيئة من ثلاثة فى العادة ، ولكل هيئة دورة تقوم بها بمنطقتها الخاصة ؛ وكان الاستئناف منوطا بقاضى القضاة بالإسكندرية . وكان فى الإمكان الاستناد إلى القانون المصرى والتقاضى به أمام محكمة الخريماتستاى (Chrematistae) ولذلك اتجهت تلك المحكمة إلى القضاء على المحكمة الوطنية شيئاً فشيئاً . وطبيعى أن كلا من القانونين شرع يؤثر فى الآخر ، ولكن القانون اليونانى كان على الجملة آخذا فى النمو والاتساع على حساب نظيره المصرى . وأهم من ذلك كثيراً إعتداء السلطات الإدارية على القانون . فإن من الوثائق ما يدل على أن أحد القضاة تلقى الأوامر فعلا من أبوللونيوس . وحتى الإغريق أنفسهم لم يكن يحق لهم أن يستخدموا محامين للمرافعة عنهم إن كان بينهم وبين الخزانة خلاف . وشاعت فى البلاد أيضاً عادة رفع جميع المسائل الصغيرة إلى الموظفين الإداريين وهى المسماة «قضايا الحاكم الإدارى» بدلا من انتظار دورها لتنظر أمام محاكم الجنايات. ولم يحل القرن الثانى حتى كان الموظفون يفتاتون على سلطات القضاة وينتهكونها فى كل نوع من أنواع القضايا المدنية فيما يظهر . ومن الواضح أن قراراتهم لم تكن لها صفة قضائية رسمية ، ولكن الناس كانوا يقنعون بالإجراء الأسرع والأسهل . وإذن فإن ما كان جارياً بمصر هو نفس ما كان يجرى مع اللجان القضائية ببلاد اليونان (الفصل الثالث) : حيث كان التقاضى غير الرسمى يوطد مركزه على حساب القضاء العادى . ثم ترامى الأمر بمصر فى النهاية إلى أن طبقة الفلاحين الملكيين الماثلة بأكلها وعمال الاحتكار جميعاً ، استبعدوا من دائرة اختصاص المحاكم العادية ، ووضعوا تحت طائلة الاختصاص القضائى للموظفين الماليين ووزير المالية اللذين كانا يوقعان عقوبات قاسية عليهم . لقد اختلط الأمر بين السلطات الإدارية وما للقانون من سلطات واختبل أمرها ، وهو وضع يجعل الأمور فى غاية السوء ، كما أن الإدارة افتاتت على سلطات القانون .

وكان المجتمع المصرى مقسما تقسيما دقيقاً فى القرن الثالث ، فكانت الطبقة العليا التى تمد البلاد بهيئة الموظفين اللازمين للجهاز الإدارى تشمل طائفة الكهنة المصريين ، والجنود الإقطاعيين (Cleruchs) (الذين كانوا يجنحون إلى تكوين أرستقراطية عسكرية) ، ثم المدنيين الشاغلين للأرض الخاصة ، وإغريق المدن الثلاث . وكانت الطبقة الدنيا تتألف من الكتلة الضخمة من الفلاحين . ولم يكن الفلاحون يتلقون أى تعليم ، وكانت الأوامر وخاصة منها المتعلق بالضرائب ، كثيراً ما تصدر بالديموطيقية ، وهى اللسان المصرى فى صورته المتأخرة المستخدمة فى ذلك الزمان . وكانوا يقاسون الأمرّين من الدقة والإتقان الشديد للنظام الذى يعيشون بظله . وقد أُحكم ربط ذلك النظام حتى لم يبق هناك مخرج للتخلص من تلك القيود وكثيراً ما كانت تلك المخارج تخفف وقع الأحوال القاسية ببلاد الشرق. إنهم كانوا يعيشون حياة فقر مدقع وذل مضن ولا يعرفون شيئاً أحسن منها . ولكن الثورات العديدة التى قامت منذ ٢١٦ هى أسطع برهان على ما انتشر بين الناس من بالغ التذمر . أما الأجور فكان الصانع يتلقى من ٢ إلى ٣ أوبلات فى اليوم ، كما كان العامل يتلقى (فى ٢٥٤) أوبلاً واحداً لقاء العمل الشاق وأقل من ذلك عن العمل الخفيف . ولو قيست هذه الأجور حتى على المستوى اليونانى التعس نفسه لكانت مستحيلة غير معقولة ، ولكن الخبز كان من رخص الثمن بحيث كان يقال إن الأجور الحقيقية كانت أعلى منها ببلاد اليونان لو وضعنا فى حسباننا أسعار المواد الغذائية . على أنه لم يكن بمصر رق فيما عدا المناجم ، وإلا رقيق المنازل عند الإغريق ، ذلك أن العمال الوطنيين كانوا من ضآلة الأجور ومن سهولة الضبط والتحكم بحيث قضوا على كل قيمة للرقيق .

وقد سبقت الإشارة فى هذا الفصل إلى أن النظام البطلمى كان يقوم على مبدأين : أولهما أن لكل إنسان مكانه الذى لم يكن يستطيع مغادرته دون أوامر رسمية أو تصريح بذلك، وثانيهما أن زراعة الملك ينبغى أن تستمر. وربما لم يكن تنفيذ هذا النظام بالأمر العسير جداً فى عهد بطلميوس الثانى ، أى فى عهد ملك قوى يستطيع أن يُسير موظفيه ويسوسهم . قال أحد وزراء المالية عن ذلك النظام : « ليس لأحد الحق فى فعل ما يشاء ؛ فالتعليمات تصدر للجميع

ابتغاء أمثل النتاج وخير الثمرات». ولكن المصريين الوطنيين كانوا منذ البداية يكرهون هذا النظام، الذى كان أشد من أى نظام شهدوه قبله، حتى لقد كثرت فى مصر الاضرابات فى القرن الثالث نفسه وفيما بعده من أيام . والاضراب عادة مصرية قديمة . ولم تكن مجرد فتن يعتدى فيها بالضرب على مدير العمل ، بل ينسحب العمال ويتخلون عن العمل بصورة منتظمة . ويسجل التاريخ اضرابات لعمال المناجم والمحاجر والقوارب ومن عمال من جميع الأصناف ، ومن الفلاحين الملكيين ومن تجار التجزئة والخفر (الشرطة) بل حتى الموظفين . ولم يكن المقصود من إضرابات العمال تحسين حالهم أو زيادة أجورهم ، وذلك لأنه لم يكن هناك شيء من ذلك يمكن الحصول عليه . بل كانت اضرابات مردها اليأس القاطع الذى يزيد فى أواره فيما يحتمل حدث من الأحداث كالتأخر فى إرسال تقاوى القمح . وكان للناس سلاح واحد يخشاه رجال الدولة ، وذلك هو إيقاف دولاب العمل بتركهم مواطنهم وأماكنهم . وإليكم نص أحد إنذارات الإضراب: «لقد أرهقنا التعب والكلل لذا فإنا نعتزم الفرار». وكانوا يلجأون عادة إلى معبد يتمتع بحق حماية اللاجئين إليه . وكان الاعتصام بأحد المعابد يمثل عند المصريين حق الإنسان فى حرية التصرف فى شخصه (Habeas Corpus) ، ذلك أن سلطان بطلميوس كان ينتهى عند أسوار حرم المعبد ، ولم يكن لدى الموظفين الذين أهمهم القلق، من سلاح إلا الإقناع أو إجراء شيء من التنازل والتساهل ليستميلوا الرجال حتى يعودوا إلى أماكنهم ثانية . وقد خفض ملوك البطالمة الثلاثة الأول عدد المعابد التى تستطيع أن تجير اللاجئين إليها ، ولكنهم لم يجرؤوا على إلغاء ذلك الحق أو حتى خرقه. ومن أهم مظاهر كراهية المصريين للحكم الفارسى ، أن الكهنة المصريين أنكروا هم أنفسهم بإقرار من بطلميوس الأول حقهم ذلك على طبقة واحدة هى المقيمون بمصر من سلالة الفرس . ولم يكن هؤلاء كثيرى العدد فيما نظن ، بيد أن حرمانهم من ذلك الحق نجم عنه فيما بعد أسطورة قانونية عجيبة : فإن الدائنين الذين كانوا يرفعون القضايا كانوا يصفون المدين مهما يكن شأنه بأنه «من سلالة فارسية» لمنعه من الاحتماء والاعتصام .

ولكن الأمور أخذت تتغير عند القرن الثانى وخاصة فيما يتعلق بالفلاحين .

ذلك أن عدد السكان كان فى تناقص إما بسبب الحروب الأهلية والثورات ، وإما بسبب الفقر وعواقبه وكثرة ترك الناس لاطفالهم دون رعاية ، فقلّ عدد الزارعين وأخذت يد البوار تمتد إلى الأرض. فإذا حدث ذلك ، أمر الموظفون أشخاصاً آخرين بزراعة المزرعة الخاوية فوق زراعتهم هم . وهى حال كانت تقابل من الناس بالكراهية والنفور ، ويتردد أثرها وصداها فى مزاج صغار الموظفين وحالتهم النفسية وهم المسئولون شخصياً عن استيلاء الدولة على حقوقها ؛ وتزايدت شيئا فشيئاً صعوبة مواصلة زراعة الأرض زراعة كاملة ، فزادهم ذلك جورا ووحشية ، فكل من لم يسدد ما عليه من الضرائب كان يلقى فى السجون جزافاً وبلا حساب . وكانت سجون مصر مصدر الفزع الأكبر . ويلوح أن بعض الموظفين الكبار حاولوا ردحاً من الزمان أن يكونوا شرفاء فى تصرفاتهم وأن يصلحوا الأوضاع ما استطاعوا أيام الشدائد ، أو يعملوا على كبح جماح مرءوسيهم. فإن بين أيدينا نصيحة صادرة من أحد وزراء المالية يحض فيها مديرى الاقتصاد التابعين له بأن يعاملوا الأهالى برفق ، وإحسان وأمانة ، وهذا أكبر شاهد على أن الحال كان على عكس ذلك . ولكن شيئاً أهم من الإضرابات حدث ذات يوم ، وذلك لأن الإضراب بطبيعته ينم عن ضرورة العودة إلى العمل فى النهاية . فإن الفلاحين غير القادرين على دفع ما عليهم من ضرائب والخائفين من قساوة الموظفين ووحشيتهم ، كانوا يعمدون إلى هجر أراضيهم إلى الأبد ويحاولون الاعتصام (Anachoresis) ، وربما لم يزد الرجل على الاعتصام بحرم المعبد ، ولكن ربما تمكن لو حسُنَ حظه من الانطلاق تماماً والانضمام إلى أمير وطنى ثائر أو إلى قطّاع الطرق النازلين فى المستنقعات . وكان هذا يفضى بالموظفين إلى تحميل القرية كلها مغبة فرار ذلك الآثم . فكانت القرية تلزم بدفع ضرائبه وزراعة أراضيه وذلك هو مبدأ المسئولية الجماعية الذى كتب له أن يلعب دوراً رئيسياً فى القضاء على الإمبراطورية الرومانية. ومع ذلك فسواء فرّ الرجل أو سجن ، فإن الدولة كانت تحرم جهد رجل وعمله . لذلك ابتدعت وسيلة — لم يكن بد من ابتداعها — وهى أن يمنح السجين شهادة الأمان (Pistis) التى يطلق بمقتضاها سراحه لفترة معلومة (تكون مثلا مدة الحصاد) حتى لا تحرم الدولة نهائيا من جهوده وعمله . ولم يكن لذلك أدنى علاقة بحرية الفرد ، بل بجهده وعمله . وأخيراً

أخذ النظام الإدارى كله فى الانهيار ، وتجاوزت وحشية الموظفين وجشعهم كل حد ، أما ما بلغته أحوال البلاد من سوء تحت حكمهم بينما الملوك أصفار على اليسار أو ما دون الأصفار (أنظر ما يلى فى هذا الفصل) فأمر يجلى للقارىء من ذلك العدد الضخم من المراسيم التى أصدرها بطلميوس يورجيتس الثانى (ما يلى فى هذا الفصل) .

أما قوة طائفة الكهنة وهى البقية الوحيدة الباقية من الارستقراطية الوطنية القديمة ، فإنها تحطمت منذ زمن طويل ، فأخذ الملك أراضى المعابد ، ولم يعد الفلاحون القاطنون بها يختلفون حالا عن الفلاحين الملكيين ، وأجبر الكهنة جميعاً على الشخوص إلى الإسكندرية للاحتفال بعيد مولده ، وحرمهم من احتكاراتهم المربحة فى الزيت والكتان . على أنه سمح بالفعل للمعابد — وكان ذلك أهم ثغرة فى إحتكارات الدولة — بأن تصنع القدر الكافى من نسيج الكتان والزيت لتستخدمه المعابد فى أغراضها الخاصة . وطائفة الكهنة أيضاً هى التى تقدم العون للدولة بمدها بالرجال لملء الوظائف الإدارية الصغيرة التى كانت الخدمة فيها إجبارية . وكان من حق الكهنة أن يعقدوا المجامع الدينية (Sýnods) ، ولكنها لم تكن فيما يظهر تعقد إلا لتنظيم المسائل الدينية ولإضفاء آيات التشريف والإجلال على الملك . ولكن الملوك حرصوا فى الوقت نفسه على عدم المساس بما لدى الأهالى من مشاعر دينية بالغة القوة والحساسية ، فكانوا يفرقون فى تصرفاتهم بين الآلهة والكهنة ويكرمون العقيدة المصرية ويغذونها ويمدونها بالهبات . فبنوا المعابد الوطنية فى دندره وإدفو وكوم أمبو وفيلة (Philae) . وذلك لأن بطلميوس نفسه كان ، مثله مثل الفرعون ، رباً مصرياً وإبناً لإله الشمس .

كان اليونان يفدون إلى مصر ليجمعوا الثروات . وكانوا ينقلون إلى مصر أسلوب حياتهم بقدر ما يستطيعون ، وظلوا قرناً كاملاً يتحفظون فى اختلاطهم بالمصريين . فكانوا يجلبون معهم آلهتهم ويقرأون هوميروس ويوريبيديس ، وينشئون ما لا حصر لعدده من الأندية . ولم يكن تعليمهم الأولى إجبارياً ولا من الشئون التى تقوم بها الدولة ، وهو أحد الأشياء القليلة التى لم تكن الدولة تقوم بها بمصر . ولدينا اليوم من ذلك العصر كثرة من الكتب والكراسات المدرسية تتناول موضوعاتها القراءة والكتابة وبعض الأجرومية قواعد اللغة والحساب وذلك فضلاً عن هوميروس . وليس معنى ذلك أن

الأمية لم تشـع بينهم . وأنشئت الجنازيات (أى المعاهد الثقافية والرياضية) بجميع حواضر الأقسام ، بل حتى فى القرى التى يكثر بها عدد اليونان ، مثل فيلادلفيا بالفيوم، وقد عثر فيما بعد على أحدها بطيبة بل حتى فى مكان سحيق جنوباً هو أومبي (كوم أمبو) (١) قرب الشلال الأول. وكان يصحب الجنازيوم نظام الشبيبة (Ephebes) . أما التعليم الثانوى فكان يتناول فيما يبدو كثيراً من المؤلفين بالمطالعة والدرس ، بيد أن علم البيان كان المادة الرئيسية للدراسة ، وذلك لأنه كان يوصل الفرد إلى الوظائف العليا . وأقبل القوم على دراسة الرياضيات للاستفادة منها فى مسح الأرض وعمل المعادلات والمقابلات المعقدة بين التقويمين المصرى والمقدونى ، وهى من التعقيد بحيث أقلع أحياناً زينون وكيل أبوللونيوس ، عن محاولة حدس اسم اليوم والتاريخ حسب الحساب المقدونى . وانتقل تكوين الجمعيات الخاصة إلى المصريين الوطنيين . فإنا نعرف قائمة طويلة بأسماء نقابات الحرف وهيئاتها ، ولكنا لسنا متحققين من صبغتها وهل كانت مراكز دينية أو اجتماعية أو تتجاوز تلك الأهداف . وأسس المرتزقة أندية عديدة منها ما هو محلى كنوادى المرتزقة فى قبرص ، وثمة أخرى تقوم على أساس عنصرى سلالى وتسمى نفسها جاليات (Politeumata) كأنما هم جزء من الدولة — نعرف منها جاليات الكريتيين والإيدوماتيين والقليقيين والبؤوتيين . ومن البديهى أن قوميتهم سرعان ما أصبحت مجرد اسم ، بيد أن الإغريق أنفسهم بعد أن انتشروا فى كل أرجاء مصر ولم يستطيعوا أن يكونوا مدناً — لم يلبثوا أن كونوا من أنفسهم جاليات حقة ، وربما احتلت الواحدة منها حياً ضخماً بأكمله . فنحن نجد « الإغريق بالدلتا » والإغريق « بإقليم طيبة » . والإغريق « بالإقليم الأرسينوبتى » — ولكن الأعضاء كانوا يقلدون كل ما كانوا يستطيعون تقليده من تصرفات الجماعات الإغريقية المستقلة . والحياة الخاصة تصورها مقادير ضخمة من المراسلات الباقية لدينا إلى اليوم ومنها ما هو أحياناً شائق تماماً . فإن الخطاب المرسل إلى كليون مهندس الرى الذى كان يتولى صرف مياه بحيرة موريس ، من زوجته مترودورا بعد عزله وسقوطه يعد مفخرة للطبائع البشرية. وتظهر الرسائل أن النساء كن يستمتعن بقسط من الحرية أعظم كثيرا مما كان متوقعاً ، كما تبدى أيضاً أحد تلك المتناقضات العجيبة التى تمتلىء بها الحضارة الهلينستية وهو وجود قدر

(١) أنظر المعجم الجغرافى لمحمد رمزى مادة كوم أمبو . (المترجم)

جسيم من أواصر المحبة بين أفراد الأسرة وتعريض الأطفال بكثرة للموت (الفصل الثالث).

ولكن البطالمة على الرغم من ألوان النصر التى أحرزوها فى البداية — أخفقوا دون بناء دولة قوية وطيدة على الأيام وقائمة على استغلال أحد الشعوب. كما أن اقتصاد المملكة فى جد ذاتها على الرغم من كل ثروتها لم يكن من الثبات بالدرجة التى تبدو. ذلك أن الصدمات الخارجية والويلات الداخلية كان لها أثرها. فقد أدخل بطليوس الأول عملة فضية غريبة على معظم المصريين الذين لم تزد معرفة الجمهرة الغفيرة منهم قبل ذلك عن مستوى المقايضة. على أن العملة النحاسية البطلمية كانت هى أوسع العملات استعمالا عند العامة، فكانت نسبة العملة النحاسية إلى الفضية هى ٦٠:١ (وهى لا تختلف كثيرا عن النسبة المرعية فى ديلوس ثناء القرن الثالث)؛ ومع ذلك فإن بعض الضرائب لم يكن يصح دفعه إلا بالفضة، وثمة ضرائب أخرى لا تدفع إلا بالفضة أو بالنحاس مع تحويل فرق العملة. ولكن نسبة ٦٠ : ١ تعدلت بعد (٢٢٠) وذلك — فيما يظهر — بسبب ندرة أصابت الفضة (وإن لم يعم انتشار تلك الظاهرة حتى آنذاك كثيرا فى بلاد أخرى من البحر المتوسط). على أن مايترتب على ذلك من ارتفاع فى الأسعار (على أساس النحاس) قد أوقف عندما قررت الحكومة فى ٢١١ أن تقبل دفع الضرائب بالعملة النحاسية، فإن الميزان قد انقلب مرة ثانية نتيجة للقرار الصادر فى ١٨٠ والقاضى بمضاعفة نسبة العملة النحاسية إلى الفضية بحوض البحر المتوسط مضاعفة تقريبية. وفى ١٧٤ — ١٧٣ أصبحت النسبة ٤٨٠ : ١ (وهى النسبة المرعية فى السوق الحرة بمصر فى ذلك الأوان) مقبولة رسميا فى تحويل دفوع استحقاقات الضرائب بالعملة النحاسية، ولم يعوض الناس عن زيادة الأسعار على الفور بزيادة سريعة فى الأجور تقابل زيادة الأسعار. وأغلب الظن أن ذلك كان خشية حدوث تضخم لا سبيل إلى التحكم فيه. وهذا التضخم فى العملة النحاسية فى جملته كانت تقلباته بلا ريب عاملاً فعالاً فى تقويض الثقة فى العملة وإنزال العسر بأفقر الطبقات بوجه خاص. وينبغى أن يعد ذلك سببا إضافيا فى قلق الوطنيين إبان الفترة التى عقبت معركة رفح (عام ٢١٧). وكان السبب الرئيسى فى ذلك

هو معركة رفح ذاتها فإنها ، وقد جاءت فى نهاية قرن ظل فيه المصريون يُستغلون ، وإن لم يلقوا شيئا من الظلم الإيجابى ، إلا أن استغلالهم كان يجرى بطريقة منظمة على يد أجانب كانوا يعتبرون تفوقهم العنصرى أمرا مسلماً به .

ولكن ماكاد سيل اليونانيين يتوقف عن الانسياب حتى اضمحلت قوة البطالمة العسكرية نفسها بسرعة . وفى ١٦٨ لم ينقذ مصر نفسها من الغزو على يد أنطيوخوس إبيفانيس إلا تدخل روما . لقد كان النظام البطلمى يعتمد اعتمادا تاما على كفاية الموظفين وأمانتهم . وربما طُبق النظام على أحسن حال فى أيدى بطلميوس الثانى القوية ، ولكن المفاسد والعيوب أخذت تتكاثر فى عهد ملوك القرن الثانى الضعاف حتى انهار الجهاز الإدارى للموظفين نهائيا فى الحرب الأهلية الطويلة التى نشبت بين يورجيتيس الثانى وشقيقته كليوبطرة الثانية . وإن المجموعة الضخمة من المراسيم التى أصدرها يورجيتيس حوالى عام ١١٨ لأبلغ شاهد على مابلغته الدولة من الفوضى وانحلال النظام: فإن الموظفين كانوا يجمعون الأموال أو يبتزونها لأغراضهم الخاصة ، كما أنهم استولوا على أحسن أراضى الملك . وكانوا يجبرون الناس على العمل لهم دون أجر وينزلون الجند فى ضيافة من أعفى منهم من تلك الأعمال ويغشون دافع الضرائب بأوزان ومكاييل زائفة ، ويقبضون حتى على فلاحى الملك من أجل الديون ومعهم ماشيتهم وأدواتهم ؛ وكان المصريون يساقون سوقا ليقدموا إلى المحاكم الإغريقية . وأشد من ذلك كله وأنكى أنهم كانوا يسجنون دون محاكمة بأمر من الموظفين . فهل كان العيب فى الموظفين أو فى النظام ؟ من المحتمل أن العيب يشمل الطرفين معا. فلم يكن فى الإمكان تطبيق ذلك النظام تطبيقا كريما إلا على يد رجال تسمو أخلاقهم على نقائص البشرية . ولا شك أن الحرب الأهلية الطويلة زادت السوء تفاقما ، ولكن مهماتكن أخطاء يورجيتيس الثانى، فإن الحرب ماكادت تضع أوزارها حتى واجه الشر بقوة بلغت حد رصد عقوبة الإعدام ، وأوقف الحبس بدون محاكمة صحيحة ، كما أنه أعاد إلى القضاء الوطنى (Laocritae) سلطانه على قاعدة أنه ينبغى فى قضايا العقود بين اليونان والمصريين أن يكون المرجع فى اختيار نوع المحكمة إلى اللغة التى حرر بها العقد، ولكن جميع القضايا بين المصريين تحتم أن تقدم إلى المحكمة الوطنية. وأدخل

يورجيتيس أيضاً عدداً من الإجراءات لحماية شخص دافع الضرائب وممتلكاته ، وللتعويض عن خسائر الحرب . ولا شك أن تنظيماته التى يهدف بها إلى إقامة ميزان العدل والنزاهة تعلو كثيرا على معظم الأشياء التى كانت موجودة فى القرن الثانى . على أنه لم يُؤت إلا قدرا ضئيلا من النجاح ، وإن دامت الأسرة بعد ذلك قرنا كاملا آخر ، وظلت على الرغم من وجود سلسلة متعاقبة من ضعاف الحكام ، — قوية قوة كافية للقيام باستكشافات جديدة صوب الجنوب ولمقاتلة قيصر قتالا لا بأس به . ولكن يورجيتيس لم يبحث فى كنه النظام الاقتصادى نفسه ، وإنما كان الهدف الذى يرمى إليه هو إعادته إلى ما كان عليه من كفاية وإلى تطبيقه بالعدل .

وأيقظت معركة رفح وعى المصريين القومى ، وأصبح اليونان فى القرن الثانى يلتزمون خطة الدفاع . فإن المراسيم الكهنوتية التى صدرت تكريما لبطلميوس الرابع بعد معركة رفح ثم ما صدر منها من أجل الإشادة بحكم بطلميوس الخامس (وهى المسطرة بحجر رشيد) تعكس إلينا لونا مصريا قويا كما تضفى على الملكين الألقاب التى كانت لفرعون مصر . وتوِّج بطلميوس الخامس على الطريقة المصرية بمدينة منف ، التى أصبحت مقرا ملكيا ثانيا . وكثرت الثورات الوطنية منذ ٢١٦ ولكنها بلغت ذروتها فى الثورة الكبرى التى شبت فى عهد بطلميوس الخامس ، وظلت تهب على فترات متقطعة طوال القرن (الثانى) . وزاد يورجيتيس الثانى كثيرا فى قوة الكهنة وامتيازاتهم وأملاكهم محاولا بذلك استرضاء الأهالى . على أن هذا الرجل العجيب كان مكروها من الإغريق : فكرهه الأدباء منهم لأنه عطل الأكاديمية بصفة مؤقتة ، وكرهه أهل الإسكندرية لأنه ترك لجنده فى الحرب الأهلية العنان ، وأطلق أيديهم فى جموع الغوغاء المعادية له ، وكرهه الجميع لأنه كان فيما يظنون يؤثر المصريين ويحابيهم ؛ ولذا فإنهم أساءوا إلى سمعته كل الإساءة . بيد أنه فهم الموقف فهما جزئيا ، إذ أدرك مطامع روما ، وأخذ يفكر مليا فى فكرة عظيمة هى إنشاء ملكية إغريقية مصرية ذات طابع قومى . ومن إصلاحاته الكثيرة إعادة تنظيم الجيش الوطنى . وقد اتخذ من مصرى هو باؤس صهراً له وجعله حاكما على الإقليم الطيبى (Thebad) . وكان شأنه شأن أنتيوخوس إيفانيس ، يهدف إلى تقوية مملكته بصدر وماو إقامتها

على أساس جديد ، كما رجا من وراء تعاون المصريين وإشراكهم فى العمل تجنب الصعاب التى قضت على سياسة أنتيوخوس الرامية إلى طبع بلاده بالطابع الهللينستى البحت. ولكنه فشل بدوره هو أيضا فى إيجاد مملكة قومية ، وذلك لأنها كانت لا تستقيم والسياسة الاقتصادية التى وضعها بطلميوس الثانى ، كما أنه لم يحاول أن ينقح ذلك النظام الذى كان يدر عليه خير الثمار . ولذا لم يستطع أن يضم المصريين إلى جانبه ، وتواصلت الفتن حتى اضطر بطلميوس لاثيروس فى عام ٨٥ أن يقمع آخرها ، ودمر فى سبيل ذلك شطرا من طيبة .

وهناك دلائل كثيرة على النهضة القومية بعد عام ٢٠٠ على سياسة التمصير التى اتبعها الملوك. فلم يعد الموظفون اليونان يمنحون ضياعا واسعة ومُنح حق الإجارة لمعابد جديدة كثيرة أو أعيدت حقوق القديم منها . وأنشىء أربعة منها فى قرية واحدة هى ثيادلفيا ، بين عامى ٩٣ ، ٥٧ ، وبلغ من سوء استعمال الناس لهذا الحق أن روما قصرته إلى أضيق نطاق فى شىء من العنف ، وإن رجحنا أنه بقى حتى تبنته الكنيسة المسيحية. وانتهى فى عهد يورجيتيس الثانى الكفاح الطويل بين التقويمين بتعديل التقويم المقدونى واضطراره إلى مماشاة المصرى والتطابق معه . وبعد رفح ، أعيد بعث طبقة المحاربين المصريين (Machimoi)، فأصبحوا جنودا إقطاعيين ذوى أنصبة أقل . وعندئذ بدأ اسم المستوطنين (Katoikoi) يطلق على أصحاب الإقطاع العسكرى الإغريق تمييزا لهم من المصريين ، ثم غلب على لفظ المستوطنين الكاتويكيين هذا فيما بعد معنى أصحاب الإقطاع العسكريين ذوى الثقافة اليونانية . وأخيرا فقدت كل من كلمتى المستوطنين (Katoikoi) والمحاربين المصريين (Machimoi) كل معنى عنصرى، ولم يعد لهما من معنى سوى الدلالة على الرجال ذوى الأنصبة الكبرى أو الصغرى . وحدث فى ٢١٥ أن يونانيا ومصريا اشتركا فى عقد إيجار كمستأجرين .وبدأ اختلاط الدماء بين العنصرين بعد عام ٢٠٠ ، ولم تعد الأسماء علامة تدل على العنصر ، وذلك لأن بعض الوطنيين ارتقوا إلى أعلى الدرجات واتخذوا لأنفسهم أسماء إغريقية ، كما أن بعض الإغريق انحطت منزلتهم .ولذا فإن العائلة الواحدة تحوى أسماء إغريقية ووطنية فى نفس الحين . أجل لزم بعض الإغريق العزلة والترفع عن غير بنى جنسهم. ولكن ظهر عنصر جديد خليط كان وسطاً بين اليونان

والفلاحين، وصارت لفظة هللينسنى تدل على الرجل الذى له بعض الإلمام بالثقافة الإغريقية . وجاء أوان اضطرت فيه الأسرة المالكة أن تعتمد أيضاً على كثيرين ممن لايسمون حتى إغريقا مثل حورس الجندى غير الإغريقى الذى كان يتكلم لغتين . وحورس هذا أو هور الوارد اسمه فى مجموعة برديات أدلر، وهو شخص مهما يكن أصل عنصره، كان يُسمى « سليل الفرس » كما أن فى الإمكان اعتباره الطراز الغالب من الرجال فى عصره . وقد ظل يعمل فى الخدمة العاملة بإقليم طيبة مدة تقارب الثلاثين عاماً بدأت فى ١٢٤ ، حيث ظل يتولى الحراسة مع آخرين مثله فى إقليم كان بلا ريب بحاجة إلى المراقبة. وقد حلت محل اللغة اليونانية الحية المرعية فى برديات القرن الثالث لغة إغريقية أعجمية يتكلمها الوطنيون، وتعلم بعض اليونان أيضاً بالمثل اللغة المصرية . وكان اليونانى المتمصر يعتنق الديانة الوطنية ، ويتخذ عادات المصريين إلى حد تحنيط موتاه ، وظهر زواج الأخ والأخت بين الإغريق فى القرن الأول ، وانتشر بين الناس حتى اضطرت روما فيما بعد إلى إيقافه . وحتى الذين كانوا يتخرجون من المعاهد الثقافية والرياضية ، كانوا يقدمون القرابين للآلهة المصرية . وأخذ الأدب الشعبي يتنبأ بقرب سقوط الإسكندرية البغيضة . ولم يكن ماجلبه البطالمة إلى مصر هو الروح الإغريقية الصميمة، بل مجرد الأشكال والمظاهر الخارجية، فلم يحل القرن الأول حتى كانت مصر تمتص إلى حد كبير العنصر الأجنبي . ولكى ينقذ أوغسطس ماتبقى من الهللينستية، اضطر إلى العودة إلى سياسة بطلميوس الأول، وإلى بذل الرعاية للعنصر اليونانى وإلى توجيه العناية نحو الجنازيات وتدعيمها، كما اضطر فضلا عن ذلك إلى القضاء على مااستعاده الكهنة من قوة والعمل على تقليم أظافرهم .

كانت مصر ضيعة لبطلميوس . وهى تمكننا من دراسة نظام للتأميم بشامل صوره بلغ من دقتها أن كاتبا غير معروف من القرن الثالث ترك لنا قصاصة لاتقدر بثمن ، يصف فيها نظرية الملكية الهللينستية ويذم أحد الملوك — (ولاشك أنه كان يعنى بطلميوس المتربع على العرش آنذاك) ، لأنه كان يعالج ممتلكات شعبه كأنما هى ممتلكاته الخاصة ، كما تمكننا تلك القصاصة البردية من أن ندرس تلك البيروقراطية العظيمة فى كل من حالى كفايتها واتقانها فى العهد الأول ثم وحشيتها .

واضمحلالها في عهدها المتأخر وهو النظام البيروقراطي (الديواني) الذي منح روما الإمبراطورية إلى حد كبير النموذج الذي تحتذيه. أما ذلك الاعتقاد السائد بأن ملوك البطالمة الأول كانوا لشعبهم بمثابة الآباء المستعدين تمام الاستعداد لتنفيذ ماتقضي به تعاليم الفلسفة، فلا يكاد ينهض عليه دليل إلا بعض النصائح الموجهة إلى الموظفين بإحسان السيرة في الناس، حتى ولو اضطرت الظروف هؤلاء الموظفين إلى اتباع مالا يتبع في أي مكان آخر بإلقاء عبء الخسارة كله على عاتق الفلاحين. وكانا يعلم جيد العلم أن لاقيمة مطلقا للعواطف الرقيقة النبيلة التي لا يصحبها عمل. أجل إنه لاشك أن محاولات كانت تبذل أحيانا في هذا الصدد: فإن بطلميوس الثالث أجّل فعلا دفع الضرائب عن سنة انخفض فيها الفيضان وتفشت فيها المجاعة، كما أنه يقال إن بطلميوس الخامس عمد في قرار كهنوتي أصدره عند توليته العرش إلى التنازل عن عدد من الضرائب. ولكن لما لم يكن الملك إلا طفلا حدثا، فإن ماحدث لم يكن من عمل ذلك الحاكم القاسي، بل من عمل وزيره اليوناني ارستومينيس من أهل أكارنانيا. ومن المحقق أن البطالمة المتأخرين حاولوا بقدر ما يستطيعون، وقاية رعاياهم من جهاز الموظفين كالغول ابتدعه أجدادهم وواصلوا هم استخدامه. ولكن لم يعد لهم من القوة إلا القدر الذي يمكنهم من إصدار مراسيم لايعيرها جهاز الموظفين في الدولة أي اهتمام. ولم يكن هؤلاء الملوك مكروهين من الشعب، بل كانوا شيئاً بعيدا عنه جدا، وعلى صلة ضئيلة بتلك البيروقراطية التي كانت تتحكم في شئون ذلك الشعب وحياته اليومية.

ولا ريب أن البطالمة الأوائل كانوا يبغون الحصول على المال ليكون عونا لهم في تشييد دولة قوية. والتهمة الموجهة إليهم هي أن الأموال التي كانوا يحصلون عليها لم تكن تستخدم بأي حال لمصلحة من ساهموا فيها. أجل إنهم أصلحوا الأرض، بيد أنهم لم يصلحوا أحوال الشعب. ولم تكن هناك أي رغبة أو قصد في ظلم المصريين. ولكن لم تخالجهم رغبة في مساعدتهم بدرجة أكثر من جعلهم على الدوام صالحين للعمل وهو شيء يعمله كل صاحب رقيق ذي نزعة تجارية. بل إن ذلك نفسه أخفق في النهاية. ومع أن التاريخ السياسي يظهر لنا أنه كانت هناك مقادير كبيرة من الثروة لدى الطبقات العليا، إلا أن كثيرا من العامة

غرقوا فى الفقر وجمود الحس إلى الدرك الأسفل فى ظل «موظفين مرتشين جشعين لا يرعون شرعة ولا قانونا». فإن كانت المكتبة والأكاديمية (المتحف) تمجدان البطالمة فى عين التاريخ العالمى، فإنهما لم تساعدا رعاياهم بشىء. ونحن فى غنى عن أن تبهر أبصارنا الثروة المادية والثراء فى السلع والمواد فيخفى علينا الانبهار أن حكومتهم لو وزنت بميزان الأخلاق لكانت أدنى كثيرا من مستوى الأسرتين المقدونيتين الأخريين . فإن آل أنتيجونس على ضآلة موارده المالية، ولكونهم الحكام القوميين لشعب حر، كانوا الدرع الواقي للعالم الإغريقى من برابرة الشمال، ولذا أتاحوا السبيل لنمو ثقافة القرن الثالث البديعة إلى حد ما . أما السلوقيون الذين كانت تبهظهم ظروفهم وترهقهم أعباؤهم، فإنهم حاولوا دون أن يُحرموا قسطا من النجاح، أن يرفعوا مستوى الحضارة فى نصف قارة بأكمله. على حين أن البطالمة كانوا يزرعون أرض ضيعتهم ويملأون خزائنهم .

الفصل السادس

الهللينستية واليهود

الغرض من هذا الفصل دراسة آثار الأفكار الهللينسية فى اليهود دراسة موجزة : وأعنى بذلك قيام ومصير تلك الحركة التى دفعت العالم الإغريقى إلى الاتصال بالشعب الوحيد الذى أوتى القوة على مقاومة ثقافة الإغريق المظفرة .

وقلّ من الإغريق من أبناء الحقبة الهللينستية من حاول على الإطلاق أن يعرف الشىء الكثير عن اليهود . فإن الإسكندر الذى شهد بعينيه حضارة مصر وبابل وتحدث إلى زهاد الهند وجلب إلى أوربا أول بارقة من العلم بالأفستا الايرانية ، لم يزر أورشليم قط . وليس من المستبعد أن هيئة أركان حربه ظنت أنها دولة كهنة أخرى من الطراز المألوف لهم بآسيا الصغرى وسورية ، ولم يكن ثيوفراستوس يعرف عن اليهود إلا أنهم من المتفلسفة المتطلعين للنجوم وأنهم الذين ابتدعوا التضحية البشرية . على أن بصيصاً من العلم باليهود أخذ يبدو فى عهد بطلميوس الأول يوم تمكن معاصره هيكاتايوس من أبديرا فى بيان مشوب بشىء من التعقيد — من الإلمام فعلاً بحقيقتين بارزتين : — أولاهما أن اليهودى لا يصنع تماثيل للأرباب ، وثانيتهما أنه لا يمارس قتل الأطفال بأمر من صاحب شريعته موسى . وكان الإغريقى يشعر منذ البداية أن اليهودى يختلف عن غيره من الناس. ولكن أحداً من اليهود قبل يوسيفوس فى أخريات القرن الأول الميلادى ، لم يجعل الوصول إلى تاريخهم فى متناول الإغريق . وعند ما حاول العالم اليونانى الإسكندر الملقب بوليهستور(١) أى الواسع الاطلاع (حوالى ٥٠ ق . م) أن يقوم بهذه المهمة ، لم يستطع أن

---

(١) الإسكندر الملقب بوليهستور ولد فى عام ١٠٥ ق.م فى مليتوس أو كاريا ووقع أسير حرب فى روما وحرره سلا ولقب لوكيوس كورنيليوس الإسكندر — احترف التعليم ومات غروقا وكتب كثيرا فى موضوعات منها تاريخ اليهود وروما والأدب المقارن (المترجم) .

ينتج إلا مسخا ذا صورة مضحكة . وحتى استرابون نفسه وهو العالم الواسع المعرفة كان على تمام الجهل بالتاريخ اليهودى كما أنه من الواضح أنه لم يسمع قط بأى تراث أدبى يهودى . ذلك أن اليهود كان لهم على الدوام عالمهم المنعزل عما عداه .

ولم تكن دولة اليهودية (Judaea) الصغيرة القائمة فوق التلال التى استحدث فيها عزرا « العقيدة اليهودية الحديثة » تحتوى إلا على شطر من الجنس اليهودى ، عند ما استولى عليها بطلميوس الأول فى ٣٠١ . ولم تكن غزة ولا السهل الساحلى تابعة لليهود ، كما أن الصباغ الهللينستى قد غلب على مدن ذلك السهل الساحلى الذى كان قديماً يسمى فلسطين . وكان يسكن أرض السامرة شعب مخلط ، كان يعبد « يَهْوَهْ » فى شكيم . وكان أنتيجونس الأول قد أنشأ من قبل المستقرات اليونانية فى إقليم الجليل وفى إقليم بيرايا ، تلك المستقرات التى لم تلبث حتى عززتها مستوطنات البطالمة على الضفة الشرقية من الأردن بوجه خاص (الفصل الخامس) . وكان الإدوميون الذين كانت لهم عند مصر قيمة وأهمية كجند مرتزقة ، يحتلون جنوب دولة اليهودية والأراضى الواقعة جنوبى البحر الميت . ولم يكن لدولة اليهودية (Judaea) أى منفذ إلى العالم الخارجى . ولكن عدداً كبيراً من أبناء الجنس اليهودى كانوا لا يزالون يسكنون شرقى الفرات وخاصة إقليم بابل . وإن النبى يونان أو يونس (Jonah) حوالى ٣٠٠ ليمثل وجهة نظر يهودى آشورى ، على حين أن المشهد المذكور فى سفر توبيت(١) (Tobit) ليصور الوضع القائم بمستقر لهم بميديا . وهؤلاء اليهود الشرقيون — فيما تقول التقاليد اليهودية — هم « الأسباط أو القبائل العشر الشرقية » . على حين كانت القبائل المقيمة ببلاد اليهودية هى يهوذا (Judah) وبنيامين ولاوى . ولكن من المحتمل أن النظام النظام القبلى مهما كان ما يمثله فى الأصل قد فقد كل معنى محلى ، وصار من الجائز أن يهودياً فى بلاد اليهودية ربما انتسب من حيث الدم إلى أية قبيلة من القبائل . فكانت النبية « حنة » من قبيلة أشير (Asher) ، كما أن رسالة

---

(١) توبيت هو كاتب أحد الأسفار المحذوفة . (المترجم)

أريستياس تقول إن رئيس الكهنة أرسل ممثلين عن الاثنى عشر سبطاً بأجمعهم إلى بطلميوس الثانى ، وهو أمر ما كان الكاتب ليفعله البتة لو كان معلوماً أن ذلك مستحيل .

وظلت بلاد اليهودية حتى عام ٢٠٠ تحت حكم البطالمة. ولم يعد الناس يسمعون إلا القليل عن تاريخها اللهم إلا أن يكون ذلك حديثاً يدور حول خلاف بين عائلتين رئيسيتين : عائلة أونياس (Oniads) الذين كانت بيدهم وظيفة رئيس الكهنة وعائلة طوبيا (Tobiads) الذين كان معقلهم بالقرب من هشبون فى عمون ، وربما كانوا من دم عمونى إلى حد ما وربما لم يكونوا كذلك . أما الأدب فيبدو أن القرن الثالث خلو منه تماماً . وربما كان تاريخ سفر إرميا هو عام ٣٠٦ وسفر يونان (يونس) حوالى ٣٠٠ وربما كان جزء من سفر زكريا (٩—١٤) متأخراً عن الإسكندر. ثم لا يبدو أن هناك شيئاً آخر حتى سفر الجامعة (Ecclesiastes) قرابة عام ٢٠٠. ثم حدثت نهضة الأدب أثناء ماعقب ذلك من الفتن فى العصر السلوقى . وإذا صح أن عدم وجود تاريخ وأدب دليل على السعادة فربما كانت بلاد اليهودية على هذا القياس سعيدة نسبيا فى حكم البطالمة ، وإن كان من الواضح أن طبقة الأغنياء كانوا متذمرين حوالى ٢٠٠ ، ولعل ذلك يرجع فى الغالب إلى العبء الثقيل للضرائب المصرية . ولم يكن بد من أن ينتشر الشعب اليهودى فى الأرض بعض الشىء ، وذلك لأنه لما كان اليهود يربون أطفالهم جميعاً ولا يئدون منهم أحداً ، فإنهم كانوا يتزايدون بدرجة التطابق أسرع من الشعوب الأخرى. ومن ثمّ تكونت المجتمعات اليهودية فى شرق الأردن ، شأنها فى الجليل فيما بعد . ولا ريب أن البطالمة كانوا يحاولون أن يوجهوا الهجرة إلى ممتلكاتهم . ولكن أحداً لا يستطيع أن يعلم إلى أى حد كان اليهود المصريون ينتمون إلى أرض اليهودية .

والظاهر أن البطالمة الثلاثة الأول قد جروا على العادة الهللينستية المتبعة من عدم التدخل فى شئون رعاياهم الدينية . ولكن بطلميوس الرابع الذى كان من العبّاد المتحمسين لديونيسوس قد خدعه فيما يحتمل التطابق المزعوم بين سابازيوس وصباؤوت حتى اعتقد أن اليهود لم يكونوا يعبدون إلا يونيسوس فى صورة وشكل آخر. ولما كان ديونيسوس يقابل سرابيس ويطابقه بسبب

وجود عنصر أوزيريس فيه ، فمن الجائز أن بطلميوس حلم بإنشاء ديانة موحدة في إمبراطوريته هي ديانة ديونيسوس التي توحد عناصر السلالات الرئيسية فيها . غير أننا لسنا متحققين تماماً من الجهود التي بذلها لإدخال عبادة ديونيسوس في بلاد اليهودية ، إن كان بذل أي جهد في هذا السبيل . ولكنه أثار فعلا عداوة شطر من رعاياه فبذلوا كل جهد لتشويه ذكراه كما يتجلى ذلك في سفر المكابيين (٣) . ويقدم إلينا سفر الجامعة صورة منجعة لدولة اليهودية كما يصورها الجانب الأرستقراطي في نهاية حكم هذا الملك . وهي تصور البلاد مليئة بدموع المكلومين ، حتى لقد كان الموتى أسعد حالاً من الأحياء . وكان جواسيسه من الكثرة بكل مكان بحيث أن الطير في الهواء كان ينقل إليه الأخبار . وكان من الجلي أن الواعظ الأكبر نفسه كان مستعداً للترحيب بأنطيوخوس الثالث باعتباره ملكا كريم المحتد ولكن بوليبيوس يقول إن عامة الشعب كانوا متحازين لمصر ، ومن ثم فإن معنى ذلك أنه حدث قبل عام ٢٠٠ بمدة لا ندريها أن اختلف حزب أرستقراطي مع بطلميوس وأخذ أفراده يتحولون عنه إلى غريمه . ولا بد لنا الآن من بحث أمر هذا الحزب .

كان الحكم المصري هو والمدن الهلينستية المجاورة قد عودت اليهود على الدراية باللغة اليونانية والأسماء اليونانية وغيرها من المظاهر الخارجية للحضارة الإغريقية ، ومع أن سلطان عزرا(١) ظل قوياً في بلاد اليهودية فإن عناصر من الطبقة الحاكمة وهم المحيطون بالكاهن الأعظم كانوا ميالين للهلينستية . وكانوا يدعون أنهم يهود صالحون كإخوانهم تماماً ، وكل ما في الأمر أنهم يرغبون في اقتباس المظاهر الخارجية للحضارة المتسلطة آنذاك . وكان ذلك هو الحزب المناصر للسلوقيين في حين أن اليهود المتشددين كانوا يميلون لمصر ويشخصون بأبصارهم عادة إليها . وكان العلماء الذين يلتمسون في الأدب اليهودي أي أثر للروح اليونانية ، على حق تام حين اتخذوا من سفر الجامعة مرجعاً يتصيدون فيه طلبتهم . وقد أثار هؤلاء اليهود المشايعون للروح الهلينستية أشد العداوة مرارة بين صفوف المتزمتين والأتقياء ، فهم الذين تشير

(١) هو الكاهن الكاتب ، كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل (عزرا ٧ : ١) . (المترجم)

إليهم الكتابات اليهودية التالية بأنهم « أعداء الله » . وربما كانت الهللينستية اليهودية هى « المرأة الأجنبية الغريبة الملقة بكلامها » التى يذكرها سفر الأمثال ولكن بيتها « يهبط إلى جذور الموت » . وقد اتهموا بإهمال الختان وأنهم يتصفون بكل النقائص الخلقية التى تنسب عادة فى العهد القديم للمارقين المرتدين . وكانت خاتمة المطاف أن التهمتين المحددتين الموجهتين إليهم فى (١٦٩) هى أنهم يميلون إلى الألعاب الرياضية الإغريقية التى تشمل عُرى الأجسام وأنهم يرتدون القلنسوة اليونانية . وفى (٢٠٠) تغير حكام بلاد اليهودية فانتزع أنطيوخوس الثالث جنوب سورية بأكمله من مصر . وكما هى العادة مع الممتلكات الجديدة ، رفع عن كاهل الناس أنواعاً متعددة من الضرائب بصفة مؤقتة . ولكن البلاد لم تستقر استقراراً حسناً فى ظل الحكم السلوقى وإن تبنّت التقويم السلوقى واحتفظت به . وكانت الأحزاب تميل إلى محاولة الإيقاع بين سورية ومصر ، ولم تتحسن الأحوال بطبيعة الحال عندما حاول هليودورس وزير سلوقوس الرابع أن يستولى على كنوز الهيكل . وحاول جماعة من اليهود المتشددين أن يصلحوا بعض ما يتصل بالهيكل من أمور شاذة ، ولكنهم أخفقوا فغادروا أرض اليهودية (Judaea) بزعامة من يدعى « النجم » وذهبوا إلى دمشق حيث أقاموا « ميثاقاً جديداً » وعهداً بالتوبة والندم . تلك هى الأوضاع العامة للموقف عندما وجه أنطيوخوس إبيفانيس إلتفاته إلى أرض اليهودية .

ولم يكن اليهود الورعون يستطيعون الطعن فى أنطيوخوس وإظهار الكثير من مساوئه وهو الرجل ذو الثياب الأرجوانية ، الشرس الظالم النارى الطبع المولود كالصاعقة ، كما تصفه كتب النبوءات(١) . وقد اضطهد عباداتهم وخضب الأرض بدمائهم . ويبين سفر دانيال كيف كان « البوق الصغير » مكروها ، كما أنه أصبح الطراز والمثال الأول للمسيح الدجال . ولكن الذين بدأوا الشر هم اليهود الميالون إلى مشايعة الهللينستية وليس أنطيوخوس. وكان أول تدخل منه فى خلاف داخلى نشب بين أسرهم ، وإن كان أولى

---

(١) كتب النبوءات Sibylline Books : هى كتب النبوءات الثلاث التى اشتراها ملك روما تاركوين بثمن فادح عرضه فى البداية لتسع كتب . (المترجم)

له أن يظل بمعزل عن الأمر كله . ذلك أن الكاهن الأعلى أونياس الثالث كان ذهب إلى أنطاكية قبل تنصيب أنطيوخوس على العرش ليضم الملك إليه في شأن من الشئون يتعلق بالخلاف المستحكم بين حزبه وبين حزب طوبيا ، ولكن أخاه ياسون (Jason) وهو أحد زعماء الحزب المشايع لليونانيين ، تآمر عليه وأقنع أنطيوخوس بخلع أونياس وتعيينه كاهناً أعظم ، واعداً إياه بدفع جزية أكبر . وحصل من الملك أيضاً على إذن لليهود بإقامة جمنازيوم بأورشليم ، وأن يسموا أنفسهم بالأنطاكيين . ومعنى هذا أن يبدل اسم أورشليم إلى أنطاكية . ولكن أنطيوخوس استبد به السخط في (١٧٠) على ياسون ، فعزله وعين مكانه منيلاوس كاهناً أعظم ، وهو أحد أعضاء حزب طوبيا . ولعله هو نفسه من آل طوبيا . وقد عرض عليه بدوره دفع جزية أكبر . وكان كل من آل أونياس وطوبيا من دعاة الحضارة الهلينستية ولم يكن لخلافهما أي أساس ديني . وفي (١٦٩) وبينما كان أنطيوخوس مشغولاً بغزو مصر ، عاد ياسون واستولى على أورشليم كلها ماعدا القلعة التي اعتصم بها منيلاوس . وأعمل الذبح في أنصار منيلاوس . ومن هنا يتجلى أن ياسون كان له في الناس سند ونصير قوي ، ولكن أنطيوخوس رأى المسألة بصورة أخرى فإنه تصور أن أورشليم قد ثارت من وراء ظهره . لذا فإنه دخل المدينة في طريق عودته من مصر وفر ياسون وذبح الجند السورية أتباعه ، وأعيد منيلاوس إلى سلطانه فاقتاد أنطيوخوس إلى الهيكل ووضع في يديه جزءاً من الكنز . ودخل أنطيوخوس قدس الأقداس ، ثم رويت فيما بعد حكايات عجيبة عما شهد هناك (الفصل السادس فيما يلي) .

وظاهر أن أنطيوخوس لم يمس العقيدة اليهودية حتى تلك الساعة بأي سوء . وينبغي لنا أن نتذكر أنه وإن كان ذا أهمية لدى اليهود ، فإنهم لم يبلغوا لديه نفس الدرجة من الأهمية . فقد شغل في البداية في فتح مصر ، وشغل بعد ذلك بما رسمه من خطة لغزو باكتريا والقضاء على بارثيا (الفصل الأول) ، ولم تكن أرض اليهودية عنده إلا دولة صغيرة تابعة له مع غيرها من الدول يترك شئونها على الجملة للقواد الإقليميين . ولكن حدث في (١٦٨) أن روما حذرته بضرورة الخروج من مصر على صورة انتهكت كل مجاملة

مرعية فى العلاقات الدولية ، وأثارت العالم الهلينستى كله فى شخصه . ورأى ذلك الصديق لروما ما ينبغى له أن يتوقعه منها . وأيقن أن فرصته الوحيدة تنحصر فى أن يجعل من إمبراطوريته شعباً متحداً فى الثقافة والديانة ، وهى إمبراطورية لا يمكن أن تكون بالمثل إلا إغريقية بحتة . وإذن فقد وجب على بلاد اليهودية أن تخضع للضرورة العامة كسائر البلاد الأخرى سواء بسواء. ولعل منيلاوس قد أفهمه أن ذلك الأمر لا ينطوى على أية صعوبة ، وكما أوضح الأستاذ إدوين بيفان ، فإن الروايات اليهودية الأولى (انظر المكابيين ١ و ٢) لا تمثل أنطيوخوس فى صورة الملك المعادى لليهود أنفسهم . والواقع أنه ليس هناك أى شاهد يدل على أنه منع قط عبادات اليهود بإقليم بابل . ولكن الشغل الشاغل لفكره فى تلك الأيام هو أن تتاح له فرصة التحول صوب الشرق . لذا احتل قائده أبوللونيوس مدينة أورشليم فى (١٦٧) وهدم السور وبنى فى «مدينة داود» قلعة جديدة ملأها بالجند . وجاء فى أعقابه مندوب يحمل أمراً بتحريم الديانة اليهودية . ووُضع هيكل إغريقى هو « رجسة الخراب » فوق المذبح اليهودى بفناء المعبد . ولا شك أن الخنازير كانت تقدم على هذا المعبد الإغريقى التماسا للتطهير الشهرى . وأصبح الهيكل يسمى معبد زيوس الأوليمبى الذى يتجلى على الناس فى شخص أنطيوخوس نفسه . وبالمثل صار معبد يهوه فى شكيم معبداً لزيوس كسينيوس (Xenios) بناء على طلب السامريين (على حد قول اليهود) .

ووافق كثير من اليهود على الدخول فى تلك العقيدة ، وذلك لأن حزب المشايعين للهلينستية كان يناصر أنطيوخوس ، بيد أن الكثيرين وقفوا موقف المقاومة السلبية . ومن المحقق أن بعضهم لقى الموت شهيداً بمنتهى البسالة ، وإن كانت التفاصيل المبالغ فيها إلى حد كبير غير جديرة بالثقة . وتقول الروايات المتواترة إن المقاومة الفعالة قد بدأت بمدينة مودن ، حيث بدأها متاتيا من عائلة حسمون . وقد لقى الموت فى ١٦٦ — ١٦٥ وجمع ابنه يهوذا الملقب بالمكابى (المطرقة) شرذمة من الرجال لهم نفس النزعة وأثاروا حرب العصابات ، واستطاعوا فى (١٦٤) أن يهزموا ستة آلاف مقاتل بقيادة جورجياس ، أرسلهم حاكم سورية . ولم يكن يهوذا يُعد فى نظر أنطيوخوس إلا مجرد ثائر

لا أهمية له ، خرج على السلطة الشرعية. وفي تلك الأثناء عبر الملك الفرات لمهاجمة بلاد بارثيا ومات في (١٦٣) . واستولى يهوذا على الهيكل وأعاد عبادة يهوه سيرتها الأولى ولكنه لم يتمكن من فتح القلعة . وفي ديسمبر (١٦٤) أقيمت صلاة شكر عظيمة بأورشليم . وفي (١٦٢) حضر لسياس الوصي على أنطيوخوس الخامس الملك الطفل بشخصه وقبض على زمام الأمر في البلاد وحاصر مدينة أورشليم ، ولكن زحف خصمه فيليبوس على أنطاكية ، وهو وزير الشئون لدى إبيفانيس ، جعله يعود أدراجه . ولكي يضمن انضمام اليهود إليه أعاد إليهم ديانتهم دون أن يحتفظ إلا بالسيادة السلوقية فقط ، وأمر أيضاً بإعدام منيلاوس . وتلك هي نهاية حرب الدين وذلك لأن محاولة أنطيوخوس توحيد الديانة بالبلاد لم تدم أكثر من يوم وفاته . ومع أن يهوذا قام بدور الوطني الصميم فإن الذي أنقذ عبادة يهوه لم يكن سيفه ، بل الشقاق الذي دب بين السلوقيين .

وأدى هذا الشقاق نفسه إلى تمكين المكابيين من إقامة دولة مستقلة . وقبل مجلس الشيوخ الروماني يهوذا كحليف له جريا على سياسته التقليدية ، وهي العمل على تحطيم دولة السلوقيين . ولكن ما كاد ديمتريوس الأول يتولى العرش السلوقي حتى فتح بلاد اليهودية . وبعد أن تمكن يهوذا في ١٥ آزار (مارس) عام ١٦٠ من هزيمة وقتل قائده نيكانور — وهو يوم جعله اليهود عيداً لأمد طويل ، استطاع باخيدس القائد الذي خلف نيكانور ، وقد انضم إليه الكاهن الأعظم الجديد ألكيموس وهو من أبناء بيت الكهانة — أن يهزم يهوذا ويقتله ، ثم أودع بالبلاد حامية عسكرية وثبت على حكمها ألكيموس في منصبه . ولكنه لم يتدخل في المسائل الدينية . وطلب يوناثان شقيق يهوذا الصلح واستسلم رجال عصاباته وبدا كل شيء مستقراً . ثم راح مدعي العرش الإسكندر بالاس ، يهاجم ديمتريوس . وطلب كلاهما من يوناثان العون . على أن بالاس ما لبث أن ضمه إلى جانبه بأن جعله كاهناً أعظم . وعندما قهر بالاس ديمتريوس في (١٥٠) أصبح يوناثان الكاهن الأعظم — وهو رجل ماكر لا عهد له ولا ذمة — حاكماً عسكرياً إسمياً للسلوقيين بأرض اليهودية ، ولكنه كان في واقع الأمر أميراً مستقلاً . وفي (١٤٧) استولى على يافا (Joppa) وبذلك

حصل لبلاد اليهودية على منفذ إلى البحر ، وبعد وفاته نهض أخوه سيمون (سمعان) منتهزاً فرصة ما قام بسورية ثانية من منازعات ، فطرد الحامية من قلعة أورشليم . وفى (١٤٢) عقد الصلح مع ديمتريوس الثانى وهو صلح عُد بداية الحرية ، واتخذ اليهود من سيمون كاهناً وحاكماً ووراثياً واعترفت به روما على هذا الوضع .

والآن ينبغى أن ننتقل إلى تاريخ التشتت (Diaspora) ، وهم اليهود المقيمون خارج بلاد اليهودية . وكان لليهود بمصر منذ أزمان طويلة مستوطنات يهودية . ومنذ القرن السابع إلى الخامس عاش منهم بجزيرة فيلة (إلفنتين) (E ephan:ine) فى أعلى النيل جماعة أصلهم فى البداية من المرتزقة وقد أسكنهم فيها أحد الملوك ، وكان لهم هناك معبد ليهوه الذى كانوا يعبدونه هو والربتين أسخيا وآنات (Anaitis) وكانوا تحت ولاية حاكم مصرى ويحلفون بالأرباب المصريين ، وصاروا فى القرن الخامس يتكلمون الآرامية وهو اللسان الدولى الدارج (Lingua franca) للإمبراطورية الفارسية . ولديهم كتاب شعبى آرامى يحتوى قصة أحيقار(١) الحكيم . وسكن يهود آخرون مصر فى عهد إرميا(٢) ، كما أقامت منهم جالية قديمة بمنف . ثم أحضر بطلميوس الأول عدداً منهم إلى الإسكندرية فيما بعد ، ولعله أعطى الطبقة العليا منهم نفس المرتبة من الامتيازات التى كانت للمقدونيين . وظل اليهود يواصلون الهجرة إلى مصر طوال القرن الثالث ، وينزلون بوجه الإجمال بمدينة الإسكندرية . وإن نزلوا أحياناً بريف البلاد ، حيث كان لهم فى عهد بطلميوس الثالث ثلاث بيع . وقد نذرت ثنتان من هذه البيع للملك والملكة وأطفالها ، على حين أن البيعة الثالثة بمدينة ليونتوبوليس(٣) منحها بطلميوس الثالث حق إيواء اللاجئين والاعتصام بها .

---

(١) أحيقار الحكيم وقصته قديمة ، وجدت بالآرامية وترجمت إلى معظم لغات العالم وعرفت فى الآداب القديمة . (المترجم)

(٢) نبى عبرانى ولد بالقرب من أورشليم وناصر نبوخذنصر ، وبعد سقوط المدينة (٥٨٥ ق.م.) انسحب إلى مصر . (المترجم)

(٣) ليونتوبوليس محلها الآن تل مقدام بالقرب من ميت غمر ، شرقى الدلتا. (المترجم)

ومُنح اليهود حق امتلاك الأرض ، وعملوا جباة للضرائب ، ولكنهم قلما قاموا بأعمال البنوك أو تسليف النقود . ولا يكاد يحدث أن يكون من بينهم تاجر (الفصل السابع) . وقطنوا بصفة رئيسية حيا بأكمله بالإسكندرية ، حتى إذا تزايد عددهم ، أقام الزائدون لأنفسهم تنظيمات منفصلة ، ولم يعودوا يُعتبرون « مقدونيين » . أما اليهودى الذى كان لا يزال يسمى نفسه مقدونياً فى عهد أوغسطس فكان يُعد دخيلاً فى العقيدة أو رجعياً .

وكثرت مستقراتهم بمصر فى أثناء القرن الثانى . وقد بنيت بيع اليهود بأماكن عديدة ، وكانت السلطات فى القرى تفرق تفريقاً تاماً بين اليهود والإغريق . وتذكر السجلات حدوث زواج مختلط بين اليهود والمصريين ، وقد حضر أونياس الثالث الكاهن الأعظم إلى مصر فى عهد بطلميوس السادس . فأهداه الملك معبداً خرباً بليونتوبوليس ، حيث بنى على أرضه فى عام (١٦٠) تقريباً صورة مصغرة لهيكل (معبد) أورشليم ليكون مركزاً دينياً ليهود مصر ، كما قلد فيه طريقة إقامة الصلوات بالمعبد الأصلى . ودام ذلك المعبد حتى عام (٧٣) للميلاد ، بيد أن اليهود الأتقياء حقاً ما زالوا يشخصون بأبصارهم إلى أورشليم . ويُروى أن كلاً من بطلميوس السادس ثم كليوبطرة الثالثة من بعده قد استخدم قواداً من اليهود ، كما أن أحد المرتزقة اليهود « أبرام » يبدو عضواً فى جمعية عسكرية إغريقية مصرية . وحدث أثناء الحرب الأهلية التى نشبت بين كليوبطرة الثالثة وابنها بطلميوس لاثيروس أن انحاز اليهود إلى جانب الأم ، فكان ذلك هو بداية حالة التوتر بالإسكندرية بين اليهود واليونان ، وذلك لأن اليونان كانوا يناصرون الملك الظافر لاثيروس ، ولكن التوتر — وهو سياسى فى أساسه — لم يتجلّ إلا فى هيئة مشادات كلامية ؛ فإن « معاداة السامية Anti—semtism » المصحوبة بالعنف لم تعرف بمصر قبل عهود الإمبراطورية الرومانية . وكان يهود الإسكندرية فى القرن الأول يمثلون أكبر هيئة لهم خارج بلاد اليهودية . ويُقدر عددهم بمصر بعد الحقبة المسيحية بمليون نسمة ، وكانوا يملأون إلى حد كبير إثنين من أحياء الإسكندرية الخمسة الموجودة داخل سور المدينة ، ولكن لم يكن هناك حى يهودى من

النوع المعروف بالغيتو(١) (Ghetto) كما أن بعضهم كانوا يعيشون متناثرين في أرجاء الأحياء الأخرى .

على أن تتبع إقامة اليهود بآسيا أمر أعسر من أن يدرك . وترجح بعض الظواهر الدينية (نفس الفصل فيما يلي) أن الشيء الكثير من هجراتهم التي حلت بآسيا الصغرى كان مصدره إقليم بابل (بابلونيا) . فإن كان الحال كذلك ، فمعناه بلا ريب أن الهجرة بدأت قبل أن يخسر السلوقيون آسيا الصغرى في (١٨٨) ، وذلك لأنه يظهر أنهم كانوا كالبطالمة يؤثرون اليهود ويحبونهم بوصفهم مستوطنين من طراز جيد . وليس من سبب يدعونا إلى عدم الأخذ بالقصة القائلة بأن أنطيوخوس الثالث أسكن في ليديا وفريجيا ألفي عائلة يهودية ، وإن كانت الرسالة المنسوبة إليه في هذا الصدد زيفت خدمة لأغراض الدعاية وحدها . وينبغي لنا أن نتصور وجود ظاهرة مماثلة لتلك المستوطنات بمصر وإن كانت معرفتنا الفعلية بالمستوطنات اليهودية الكبرى بمدن كثيرة بآسيا الصغرى لا تعود إلا إلى القرن الأول الميلادي ؛ ولكن الذي حدث حوالي (١٤٠) هو أن «كتب التنبؤات السيبيلينية» كان في وسعها أن تدعى أن كل إقليم من الأقاليم كان مملوءاً باليهود . وقد خصص لهم حي خاص في سارديس وفي مدن أخرى فيما يحتمل . وكان لليهود جمع شامل بجزيرة ديلوس قبل عام (١٠٠) ، وهناك بنيت بيعتهم الرشيقة قبل (٨٨) . وليس معقولاً أن المستوطنات التي عرفناها فيما بعد ببلاد الإغريق ومقدونيا قد أسست قبل أن أصبحت مقدونيا ولاية رومانية في (١٤٨) . ولما وافت الحقبة المسيحية كان عدد اليهود كبيراً جداً بدمشق وسورية بصفة عامة بما في ذلك مدينة أنطاكية . ولكن متى بدأت الجالية الكبيرة بأنطاكية تتكوّن؟ ذلك ما لا يمكن القطع فيه بقول . وفي هذه الناحية أيضاً كما هو الحال في مصر ، يعتقد العلماء أنه لم تكن هناك أية معاداة للسامية ذات أثر فعال قبل زمن الإمبراطورية الرومانية . ولكن المحقق أن يهود ديلوس استنزلوا اللعنات يوماً ما على أشخاص مجهولين

---

(١) الغيتو : حي اليهود بإحدى المدن وبخاصة في مدن إيطاليا ، حيث كانت تحدد إقامتهم ومعيشتهم بدقة . (المترجم)

أراقوا ظلماً وعدوانا دماء امرأتين يهوديتين بريئتين . ولكن ليس من الضروري أن يدل ذلك على وجود ثورات ضد اليهود من حيث هم يهود .

وبينما كان اليهود ينتقلون رويداً رويداً إلى إحدى المدن اليونانية ويتسربون إليها ، كان مركزهم فى البداية يقارب مركز النزلاء الأجانب المقيمين (Metics). ولكنهم لا يكادون يكثرون فى مكان ، حتى يقيموا لأنفسهم بيعة ويؤلفون فيما يرجح جماعة خاصة للعبادة ، كما هى عادة غيرهم من النزلاء الأجانب المقيمين (الفصل التاسع) . ولابد أن يكون لمجتمع كهذا موظفون هم « حاكم البيعة » وغيره — وإليه كان اليهود يقدمون منازعاتهم طبقا للشريعة اليهودية بدلاً من التقدم إلى المحاكم اليونانية . ولاشك أن ذلك الوضع يكون إجراءً غير رسمى فى البداية . ولكن لما كان جميع الحكام مستعدين لإضفاء عطفهم على اليهود ، فإن امتياز قضائهم بين أنفسهم حسب شريعتهم أصبح حقاً ممنوحاً بصفة رسمية فى كثير من الأماكن . ولم يكن المجتمع اليهودى بروما أى هيئة تجمعه إلا تلك الجمعيات المنشأة بالبيع . وعندما أطلق سراح الأسرى اليهود الذين اقتادهم بومبى إلى روما وأعيدوا إلى بلادهم ، أقاموا حتى بأورشليم نفسها بيعتهم الخاصة بهم . وقد بناها شخص اسمه ثيودوتس وبنى فيها مضيفة ومقاصير للجلوس اليومى وحمامات . ولكن الذى حدث فى المدن الإغريقية أن هذا النوع من مجتمع البيعة انتهى به الأمر حينما وجد ، إلى الانتقال من الشريعة الخاصة إلى القانون العام ، وأصبح هو الشكل السياسى الذى تتصرف بمقتضاه الهيئة اليهودية . ومع أن تتبع هذا الأمر قبل الحقبة المسيحية غير ممكن ، فلا شك أنه يسبق تاريخ تدمير أورشليم .

على أن المنظمات اليهودية تجاوزت هذا الحد تجاوزا كبيرا فى مدن كثيرة لا يستثنى منها المدن الهلينستية الجديدة . فقد كان يؤذن لليهود عندما يتكاثرون أن يشكلوا جالية (Politeuma) (الفصل الرابع) أو يوجهون إلى فعل ذلك . وهذا أمر كان يجعلهم مستوطنين شبه مستقلين ذاتيا ، يستمتعون بحقوق أعظم من حقوق النزلاء الأجانب المقيمين . وبطبيعة الحال كانت الجاليات اليهودية كغيرها من الجاليات (Politeumata) تدير شئونها الداخلية والدينية ، ولكنهم كانوا يمتازون من ناحية واحدة أكثر من الجميع : فإنهم

حصلوا فى نهاية الأمر — وإن لم يحدث ذلك فى الإسكندرية إلا بعد القرن الثالث — على الحق فى أن يقضى بينهم موظفوهم العموميون وحكامهم حسب ماتقضى به شريعتهم الخاصة ، وهو أمر معناه فى الراجح استثناؤهم من التقاضى أمام المحاكم الإغريقية . ولعل ذلك الأمر ، وليس مسألة الاعتزال الدينى ، هو مرد التذمر الذى شرع الإغريق يحسونه فيما بعد ، وذلك نظراً لأن الإغريق الهللينستيين كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بالمبدأ القائل بأن عقيدة المرء شأن من شئونه الخاصة وليس لأحد حق التدخل فيها . وإن وجود هذه الجاليات اليهودية لأمر مشهود بوضوح فى الإسكندرية ومدينة برنيقة بإقليم برقة ، كما يلوح أنه موجود بصورة محققة بمدن كثيرة ، منها بوجه خاص هيرابوليس بآسيا الصغرى . وكانت جالية الإسكندرية فى عهد أوغسطس تحت حكم كبير القوم أعنى الإثنارك (Ethnarch) ، وكان يحكم الشعب طبقا للشريعة اليهودية ، ولكنه يدخل مراسيم بطلميوس فى حسابه وأضاف أوغسطس إليه مجلساً من الكبار المسنين . وكانت الجالية ببرنيقة فى عام ١٣ ق.م تحت حكم مجلس من تسعة من الحكام الأراكنة (Archons) وهؤلاء قد وردت إشارات إليهم بأماكن أخرى . ولعل هذا الطراز من الحكم أصبح هو الشكل الشائع بعد أوغسطس .

وكان كثير من العلماء يعتقدون بناءً على رواية يوسيفوس أن اليهود كهيئة كانوا مواطنين كاملى المواطنية بكل من الإسكندرية وأنطاكية ومدن أيونيا . ولكن كان هذا من الأمور المستحيلة دائما . وذلك لأن المواطنية الكاملة ، وهى التى تتضمن الإشتراك فى الحكم وتسيير شئون الحكم ودولاب الإدارة القضائية ، كانت تستتبع عبادة آلهة المدينة ، وهو أمر كان معناه عند اليهود المروق والكفر . ومع أن بعض أفراد اليهود قد ينحنى الواحد منهم فى دار رِمّون (Rimmon) مثلما فعل نيكيتاس الأورشليمى بمدينة ياسوس حين أسهم فى أعياد ديونيسوس ، أو كاليهوديين اللذين قدما الشكر فى معبد پان (Pan) بإدفو ، فإن اليهود بوجه عام سواء أكانوا من دعاة التهلن أو غير دعاته كانوا يستمسكون أشد التمسك بعقيدتهم . والواقع أن اليهود القاطنين بإحدى المدن كانوا يسمون أنفسهم وحدة عنصرية أى شعبا (Laos) ، ولم يسموا أنفسهم البتة

فيما يظهر : «عامة محررين Demos » . كما أن رسالة الإمبراطور كلوديوس تعد فى نظرى قاطعة فى دلالتها على أن اليهود بالإسكندرية - باعتبارهم هيئة - لم يكونوا قط يعتبرون مواطنين أحرارا . والواقع أن يوسيفوس كان أحيانا غير جدير بالثقة فيما يرويه عن المسائل الهلينستية ، حتى لقد استخدم مستندات ووثائق مزيفة لأغراض الدعاية . وفى هذه الحالة بالذات يداخلنى الشك — وإن غلب شيء من الإضطراب على عباراته ومصطلحاته — فى أنه قصد الادعاء بأن اليهود كانوا يستمتعون بكامل المواطنية ، كما أنى لا أجد أساسا أقيم عليه الشك فى عباراته حيث يقول إن اليهود بأنطاكية والإسكندرية كانوا يسمون أنفسهم بالأنطاكيين والإسكندرانيين أو فى روايته عن الموضوع الخاص بإفسوس عندما التمس يونان إفسوس من م . أجزيبا أن لا يسمح لليهود بالإسهام فى مواطنيتهم . وفوق هذا ، فبغض النظر عن يوسيفوس ، لابد لنا من النظر بعين الاعتبار إلى ذلك الادعاء الذى قتل بحثا ، وهو ادعاء القديس بولس بأنه مواطن من طرسوس . والحق أن تفسير ذلك بسيط جداً ، فحينما كان الملوك أصحاب قوة ونفوذ كشأنهم فى المؤسسات الجديدة مثل الإسكندرية أو أنطاكية أو فى مدن مثل إفسوس أعاد فيها السلوقيون الديمقراطية واستطاعوا الوصول إلى تسويات ، كانوا يعطون المستوطنين اليهود المساواة فى الحقوق المدنية (Isopolity) (الفصل الثانى) أى إمكانية المواطنة ، وأعنى بذلك أن اليهودى كان يستطيع أن يصبح مواطنا إذا طلب ذلك ، على شريطة أن يكفر بعقيدته بطبيعة الحال ، ويعبد آلهة المدينة . وهذا أمر لا يفسر القضية الإفسوسية فحسب ، بل ويفسر لفظتى «الأنطاكيين والإسكندرانيين» . فعندما وهبت أيطوليا حق المساواة فى الحقوق المدنية (Isopolity) لكيوس سمى أهل كيوس أنفسهم أيطوليين . وهو أمر يوضح لنا بطريقة دقيقة حرفية ، سبب إصرار يوسيفوس وجيروم على ما لقيه اليهود من « المساواة فى التكريم» . والواقع أنه لا يبدو هناك أى تفسير جدى لادعاء بولس إلا هذا النوع من إمكانية الحصول على حقوق المواطنية . وذلك إما بسبب تمتع يهود أنطاكية وطرسوس « بالمساواة فى الحقوق المدنية » وإما لأنه هو (أو أبوه) منح مواطنية شرفية لم يستخدمها بطبيعة الحال . والبديل الوحيد لهذه الحالة هو أنه كان يعبد آلهة المدينة ، وهذا أمر لا محل لبحثه . وكان يجوز « للمواطن بحق

الإمكانية » أن يلجأ فى حالات الضرورة الملحة إلى المطالبة بمواطنيته . وهناك حالة مماثلة لحالة القديس بولس : فإن هاربالوس صاحب خزائن الإسكندر وهو مواطن شرف فى أثينا ، عندما تمرد وحرمته أثينا كثائر ، حق الدخول فيها ، أمر جيشه بالرحيل ، وطلب شخصيا استخدام حقه ، « كمواطن بحق الإمكانية » فسمح له بالدخول .

والأثر الخالد العظيم الذى خلفه فى الهلينستية تشتت اليهود هو « كتاب التوراة السبعينية »(Septuagint) وهو ترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقية ، وهو الكتاب المقدس الذى عرفه بولس وفيلون ، ولكنه أثر خالد من حيث الشكل وحده ، لا من حيث المادة . فإن الرواية التقليدية اليهودية التى تقول إن بطلميوس الثانى دعا سبعين شيخا يهوديا مجتمعين ورجاهم أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اليونانية ، وأن الترجمات السبعين وجدت متطابقة تماما وبالضبط ، إنما هو حديث خرافة . بيد أنه أمر يكشف عن اعتقاد اليهود أنه عندما وافى الجيل الثانى كان يهود الإسكندرية قد أصبحوا يستخدمون اللغة اليونانية وفقدوا لسانهم الأصلى ، كما يكشف أيضاً عن اعتقادهم بأن بطلميوس الثانى كان صديقا لهم بدرجة جعلت مثل ذلك العمل ينسب إليه . والواقع أن الترجمة امتدت على فترة طويلة من الزمن ، فتم نقل كتب الأسفار الخمسة الأولى وهى توراة موسى (Pentateuch) فى القرن الثالث ، وتُرجم أشعيا وإرميا بين (١٧٠ ، ١٣٢) ونُقل سفر الأنبياء وسفر المزامير بصورة عامة حوالى (١٣٢) ، على حين أن الكتاب الأخير وهو سفر الجامعة (Ecclesiastes) لم يترجم إلا حوالى ١٠٠ للميلاد . وبغض النظر عن الاختلافات الراجعة إلى النقل عن متن عبرى أقدم كثيراً مما لدينا الآن ، فكثيراً ما تعرض الترجمة لموضوعات من التاريخ المعاصر لها . فمن أمثلة ذلك أن لفظة اليونانيين تحل محل لفظة الفلسطينيين بوصفهم الظالمين ، وأن حزقيال يشير إلى تجارة ميليتوس (مليطة) فى الصوف .

وقد ظل اليهود فى عصر الشتات على الإجمال يعبدون يَهوَه (Yahweh) ويشخصون إلى بيت المقدس بوصفها مدينتهم المقدسة ويدفعون جزية نصف الشاقل السنوية من أجل إقامة الصلوات بالهيكل . وقد أوقف أحد الولاة الرومان فى (٦١) تحصيل الجزية فكشف ذلك عن عدد اليهود الكبير بولاية آسيا .

ولكن قامت داخل هذا الإطار اختلافات وتباينات كثيرة ، وذلك لأن يهود التشتت كانوا من الناحية الروحية — ولو لم يكونوا من الناحية العنصرية — ورثة « المملكة الشمالية » ، وكانوا يبدون شيئا من الميل إلى ديانات من حولهم من الناس مع بعض الميل إلى مذهب الخلاص للبشر جميعا . ذلك أن بعضهم كانوا ميالين إلى الاعتقاد بأن دينهم ربما اتسع لغير اليهود من الشعوب (Gentiles) فضلا عن اليهود أنفسهم ، كما أن سفر يونان (يونس) إنما هو مناشدة لليهود أن ينشروا عقيدتهم فى كل أرجاء العالم الهلينستى . ولا شك أن يهود التشتت كانوا فى جملتهم مستمسكين بالشريعة اليهودية ، ولكن بينما كان بأرض اليهودية (Judaea) يهود تتسع عقولهم للفكر الإغريقى وتسيغه ، فإن مثل هذا الاتساع والاستساغة لابد أنهما كانا أعم لدى يهود الشتات ، وهم الذين كانوا فى جملتهم معرضين للمؤثرات الهلينستية . وكان فقدان كثير من اليهود للغتهم العبرانية واستخدامهم للآرامية مما سهل عليهم كثيراً استخدام لغة أخرى جديدة . ولذا فإن كثيراً من اليهود شرعوا فى كل مكان يتكلمون الإغريقية ويتخذون لأنفسهم أسماء إغريقية مفضلين منها ما اختلط بكلمة ثيوس (Theos) أى إله مثل ثيودوتس ومعناها عطية الله وثيوفيلوس ومعناها حبيبَ الله ودوراثيا أى هبة الإلهة . وبلغ من جهلهم بلغتهم أنه حتى فى القرن الثالث نفسه كانت الكتب المقدسة العبرانية غير ذات نفع لكثير من يهود الإسكندرية . وكانت الصلوات فى كثير من المعابد (البيع) تقام بالإغريقية. وقد جمع بعض العلماء قائمة طويلة من الكلمات الإغريقية التى طبعت بالطابع العبرانى ، وهى تتراوح بين المصطلحات السياسية وبين أسماء الأدوات المنزلية . وبالبداهة انتقلت العادات الإغريقية مع اللغة الإغريقية . فكان المستوطنون اليهود يقلدون جيرانهم اليونان ، وأسسوا رابطات للحرف كرابطة صباغى الأرجوان وصناع الأبسطة بمدينة هيرابوليس ، وأصدروا المراسيم على النمط الإغريقى ، وأقاموها على أعمدة وحوامل أمام معابدهم . ومنحوا ألوان التكريم المعتادة مثل التيجان ، وكانوا يمنحون المقاعد الرئيسية فى المعبد على غرار منح المقاعد الأمامية فى الألعاب ، وكانوا كالإغريق يمنحون النساء الرتب ومظاهر التكريم . وقلدوا طرائق عتق الأرقاء لدى اليونان كما قلدوا نقوش القبور لديهم . وتسامح بعض يهود آسيا الصغرى فى الزواج المختلط وأغفلوا عادة

الختان ، وفى مقابل هذا الوضع كان هناك إلى جوار المريدين الشديدى التدقيق ، قوم يعطفون على العقيدة مجرد عطف ولا يرون أنفسهم ملزمين بالختان ولا الاستمساك بالشريعة بحذافيرها ، ولكنهم يحافظون على احترام يوم السبت والتعاليم المتعلقة بالطعام ويعبدون يهوه . وكان دعاة المحافظة على يوم السبت وهم السباتيون (Sabbatistai) بقليقيا فيما يرجح جمعية من غير اليهود يراعون السبت ويعبدون يهوه بوصفهم أصحاب المذهب السبتى . ويدل وجود هؤلاء الدخلاء فى العقيدة أن الدعاية اليهودية كان لها شىء من التأثير بين غير اليهود . وربما حدث أحيانا أن تبنى الإغريق أيضاً أشكال النظم اليهودية مثل تلك الجمعيات اليونانية بمصر وخيوس التى كان رئيسها يسمى كبير البيعة (Archis.nagogus) .

ولكن الذى حدث بآسيا الصغرى وسورية هو أن بعض اليهود ذهب أبعد كثيراً من مجرد محاكاة أشكال النظم الإغريقية . فإنهم اعتنقوا النحل والعبادات الاغريقية الشرقية . وربما عُدَّ ذلك شاهداً على أنهم جاءوا من إقليم بابل (الفصل السادس) وذلك لأن اليهود الشرقيين كانوا على الدوام على استعداد لتقبل الآراء الجديدة . وتعلمت نساؤهم أن يعولن ويبكين على تموز(١) (Tammoz) وأن يصنعن الكعك لربة السموات . واتخذ اليهود الأسماء البابلية ، وهو أمر يدل على كل حال على تقمص يهوه مع بعل ومردوخ ونيبو (Nebo) ، كما أن شيطانا فارسيا يظهر فى سفر توبيت(٢)(Tobit). وجعلوا ليهوه نفسه بآسيا الصغرى اسما إغريقيا بحتا هو تيوس هبسستوس (Theos H psistos) أى الرب الأعلى وهو اسم استخدمه فيلون فيما بعد . وتبين النقوش المنقولة عن بيعة ديلوس بصورة قاطعة أن هبسستوس غالبا مايكون معناه يَهْوَه (Yahaweh). ولكن عندما حدث بمصر أن معبد أتريبيس (Athribis) وملحقاتها ، كرسه لهبسستوس اليهود المحليون بالاشتراك مع قائد الشرطة بالمدينة باسم بطلميوس الخامس وزوجته الملكة ، فلعل اليهود أرادوا شيئا وأراد

(١) تموز : إنه النبات عند السومريين ، مات فى منتصف الصيف. وأرجعته إلى الحياة فى الربيع عاشقته عشتار . وانتشرت عبادته فى بابل وسورية وفينيقيا وفلسطين . (المترجم)

(٢) سفر توبيت من الأسفار المحذوفة . (المترجم)

القائد شيئا آخر . وذلك أن لفظة هيبستوس كان يمكن أن تعنى آلهة أخرى عدا يهوه ، أهمها زيوس كما أن ذلك الاسم نفسه أطلق فى سورية على زيوس أو بعل (Baal) رب هليوبوليس : كما أطلق على أرباب غيره . وربما أشارت « معابد الشيطان » بمدينتى أزمير وفيلادلفيا ، وهى التى تدعى أنهم يهود ولكنهم ليسوا كذلك ، إلى خليط من العبادة من نفس النوع ، وذلك بالنظر إلى أن هيكل زيوس ببرجامة يصوّر فى سفر الرؤيا على أنه « مجمع الشيطان ». وقد جعلوا من « ساباز يوس » أيضاً نظيراً وصنواً لرب اليهود عن تقمص وهمى وتطابق بين الرب ساباز يوس مع الرب صاباؤوت . وكان فى الإمكان التوفيق بين أسراره التى تدور حول تطهير الناس من خطايا الأسلاف وبين أى دين يؤمن بخطيئة آدم الأولى . وهناك جمعية من عبّاد سابازيوس عرفت ايضاً بأنها تعبد هبستوس ، كما أنه حدث فى (١٣٩) أن بعض اليهود طردوا من روما علناً لإدخالهم إليها عبادة زيوس سابازيوس. وأخيراً ربما كان الاسم سامباتايوس أى المولود فى السبت ، وهو اسم شائع بين يهود مصر ، مشتقاً فى الحقيقة لا من السبت بل من سامبيثى (Sambethe) السيبولة أو الكاهنة الكلدانية التى كان لها سامباثيون (Sambatheion) أعنى مقصورة مقدسة فى ثياطيرا . وربما كان الأمر من قبيل المطابقة بين اسمها وبين السبت . ولا مراء فى أن المتعبدين القانتين فى هذه النحل اليهودية الوثنية كانوا يعتقدون أنهم لا ينفكون يعبدون رب آبائهم . ولكنهم كانوا واقعين تحت تأثير مذهب الهللينستيين فى المطابقة بين الأديان ، وهى الاعتقاد بأن الشعوب المختلفة إنما تعبد فى الحقيقة الإله نفسه تحت أسماء مختلفة ، وأنه يمكن بناءً على ذلك توحيد الأسماء والنحل . ومن المعقول أن هذه النحل كان لها من الأهمية القدر الكافى الذى جعل أنطيوخوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة شديدة تستعصى على إدخال عبادة زيوس حتى فى بلاد اليهودية نفسها .

ولو صرفنا النظر عن هذه النِّحَل لوجدنا أن كل ما أخذه اليهود عن الهللينستية لم يكن إلا أشكالاً ظاهرية ليس غير ، وقلّ منهم من تعلم من روحها شيئاً . وسواء أتبنى اليهودى الأشكال الإغريقية أو نبذها ، فإنه كان يظل يهوديا على كلا الحالين ، أى رجلاً تختلف مُثله العليا عن مُثل الإغريق ، وإن

عبرّ عنها الطرفان بنفس الألفاظ . كان الطرفان يطلبان الحرية السياسة . ولكن الإغريقى كان يرى الحرية غاية ، وسيلة التعبير عنها هى المجتمع الحر الذى يحكم نفسه والذى يصوغ قوانينه ويعبد الآلهة التى ترضيه ، بينما كانت الحرية لدى اليهودى وسيلة ، تمنع كل تدخل فى إخلاصه لشريعة سماوية مُنزلة لايستطيع بشر أن يغيرها ، وفى تعلقه برب لايمكن أن يكون معه معبود آخر . وكان كل من الطرفين يمتدح الحكمة . ولكن اليونانى كان يرى فى الحكمة شيئاً ينمو بكدٍّ كثير من العقول ، على حين أن الحكمة كانت لدى اليهودى مخافة الله ، وهى شىء لا يتغير إلى أبد الآبدين . . وكانت العقيدة اليهودية فى القرن الأول ذات وضع عجيب ، فهى من ناحية نظام يرفض تقبل الأفكار الإغريقية ، فى حين أنه يفتح بابه على مصراعيه لتقبل مؤثرات الشرق الأقل منه منزلة بدرجة متناهية : — كعلم التنجيم وعلم مس الشياطين والسحر . ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل بفضل هذه الأمور على خدام يخدمن روحها ، على حين أن الروح الإغريقية لم يكن فى الإمكان أن تكون خادما لأحد . ولكن لئن تنازعت المثل العليا عند اليهودى والإغريقى ، فإن العالم كان مقدّراً له أن يحتاج إليهما كليهما . لذا كان من المصلحة عندما كانت الأفكار الإغريقية تغمر الشرق غمرا ، أن يبرز لها اليهودى مناضلا مقاتلا .

ولكن هناك ناحية واحدة كان لليهود فيها خبرة موازية لخبرة الإغريق . ذلك أنه كما أن الاضمحلال السياسى لدولة المدينة المتمتعة بالحكم الذاتى بعد عهد الإسكندر جعل الروح الفردية أمرا محتوما لدى الإغريقى ، فإن تدمير الدولة القومية القديمة ودولة المعبد قد جعل تلك الروح الفردية شيئاً حتميا بالنسبة لليهود . وانتهى الأمر بأن استعيض عن فكرة المستقبل الزاهر المبارك لإسرائيل وحل محلها فكرة المستقبل الزاهر المبارك بالنسبة للإسرائيلى . وكما أن الإغريقى كانت عنده مذاهبه وقضاياه فى الفردية وشمول الخلاص للبشر جميعاً ، فكذلك كان شأن اليهودى ، وإن كان هذا فى اتجاهات أخرى : فهل يتفضل يَهْوَه فيبسط ظلال الأمل فى ذلك المستقبل المبارك على البشرية كلها ؟ وهل كتب للبشر حقا أن يكونوا إخوة ، لافى هذا العالم (كما كان يأمل الزواقيون) ولكن فى النهاية على كل حال ؟ وفى القرن الثانى استقرت لدى دوائر يهودية

معينة استقرارا أكيدا ثابتا فكرة الخلود الشخصى ، أو بالحرى فكرة البعث من تحت أطباق الثرى ومن العجيب أن يعتقد بعضهم أن اليهودى نقل اعتقاده فى الخلود عن الإغريق ، وذلك نظرا إلى أن الإغريقى الهللينستى لم يكن لديه ذلك الاعتقاد : فإن أشخاصا معينين ربما بلغوا منزلة الخلود ، ولكن هؤلاء مجرد أفراد . فالمكافأة العادية لأى شخص طيب القلب لم تكن إلا الذكرى الخالدة . أما ذلك السؤال الصعب عما اقتبسه اليهود من فارس — إن كانوا قد اقتبسوا شيئاً — فسؤال لاسبيل إلى بحثه فى هذا المقام. والأرجح أنهم هم الذين أنشأوا لأنفسهم هذا الاعتقاد ، وإن اختلفت الآراء عن الأسباب التى دعتهم إلى ذلك . وقد نسب ذلك تارة إلى اضطهاد أنطيوخوس لهم (فما لم يعش الموتى مرة ثانية ، يكون المستمسك بالشريعة الذى لقى الشهادة أكثر خسراناً من غير التقى الذى استسلم) . ونسب تارة أخرى إلى الوعى المتزايد بأن المملكة السماوية : مملكة المسيح المنتظر ، لا يمكن تحقيقها فى هذا العالم ، وتنسب طورا إلى زيادة الخبرة بالإتصال الشخصى بالله . وربما اجتمعت هذه الأسباب جميعاً على إظهار الاعتقاد الجديد .

والآن ينبغى لنا أن نعود إلى بلاد اليهودية حيث تطورت أشياء أخرى عدا الاعتقاد فى الخلود فى ظل ما تولد عن اضطهاد أنطيوخوس وقيام المكابيين من خمائر . وتلك الأشياء هى : ظهور حركة قوية جديدة من النشاط الأدبى وتكوين الطوائف اليهودية وانتشار فكرة الرجاء المسياوى الذى يمثله المسيح المنتظر وما داخلها من تعديل . أما الطوائف فشهيرة لا تحتاج هنا إلى كثير من الاهتمام . فقد كان هناك منذ عهد عزرا هيئة قوية هى هيئة الربانيين أى « الأتقياء » (Chasidim) ، وهم أنصار الشريعة بكاملها . وبديهى أنهم كانوا من المعارضين للهللينستية ، وتفرع منهم الفريسيون فى عهد المكابيين ، وقد جاء ذكر الفريسيين لأول مرة فى عام (١٢٠) وكانوا يحافظون على التقاليد الشفوية محافظتهم على الشريعة المكتوبة ، كما نشأ خلفاؤهم الكتبة . ويفسر اسم الفريسيين عادة بأنهم «شراح» الكتب المقدسة ، ولكن بعض العلماء يعتقدون أن معناه هو « المعتزلون » . ونشأ الصدوقيون « أتباع صدوق » — ولعله ليس كاهن داود بل مؤسس آخر مجهول — نشأوا عن الطبقة الثرية الحاكمة

المحيطة بالكاهن الأعظم . كانوا يهودا متشددين يأبون الأخذ بالتقاليد الشفوية كما يرفضون الاعتقاد الجديد في الخلود ، ذلك الاعتقاد غير المعروف في العهد القديم . ولا علاقة لهم بالمتشيعين للهلينستية ، وكانوا أنصاراً للدولة المكابية التي كان يعارضها الفريسيون أحياناً بعد أن أصبح يوناثان كاهناً أعظم . وكانت هناك طوائف أصغر مثل طائفة الزهاد الإسينيين والمعاهدين من أهل دمشق الذين سبق ذكرهم ، وكانوا يعتقدون أنهم بقية من أوحى الله إليهم بالأشياء المستورة التي تخطىء فيها إسرائيل كلها ولاسيما الفريسيين والذين لعلهم عادوا إلى بلاد اليهودية في عهد المكابيين . ثم تجيء جمهرة السكان من وراء هذه الطوائف جميعاً ، وقد ظاهروا المكابيين حتى حكم ينّا (Jannaeus) وكان أنبياؤهم هم كتاب الوحي والرؤى (Apocalyptic) .

وينبغي لنا أن نسأل الآن أيوجد من المؤثرات الإغريقية ما يمكن تعقبه في الأدب اليهودي الخاص بتلك الفترة ؟ وماهي تلك المؤثرات ؟ ولم يتلق اليونان عن اليهود أية مؤثرات يهودية . والظاهر أن أحداً من اليونان لم يدر بخلده طوال هذه القرون أن لليهود أدباً لا ينفك يعيش وينمو ، أدباً ربما نافس أدبهم . وفيما عدا النهضة البابلية يمكن القول إجمالاً بأن الآداب الشرقية الأخرى كانت ميتة تقريباً . مثال ذلك ، أنه يلوح أن المصريين لم ينتجوا إلا « نبوءة (الفخراني) الخزاف » التي تكهنت بقصة سقوط الإسكندرية ، وإلا تلك المجموعة المخلطة من النبوءات المسماة باسم السجل الديموطيقي ، وهو حنين مبهم إلى فرد من أبناء جلدتهم يجيء من إثيوبيا ، ويخلصهم من البطالمة . ولكن اليهود أنتجوا منذ (٢٠٠) فصاعداً أدباً ضخماً هائل المقدار اجتمعت فيه ثلاث لغات هي العبرانية والآرامية والإغريقية ولعبت فيه أدوارها . وكان منها أجزاء من شريعة العهد القديم ، وهي أسفار الجامعة ودانيال (وهو أثر خالد مشرق الديباجة يسجل اضطهادات أنطيوخوس) وجزء من سفر الأمثال وربما أيضاً بعض المزامير ومعظم الأسفار المحذوفة(١) . وكان هذا الأدب يحتوي التراتيل وأدب الحكمة ، وكان بعضه ممتازاً من الطراز الأول . ويتجلى فيه الاتجاه الديني الجديد الذي اتخذه كُتّاب الوحي والرؤى . وكان فيه التاريخ ، الزائف منه والصادق وفيه الحكايات والأمثال والدعاية وكتب السحر والتزييفات

(١) هي ١٤ سفراً من التوراة السبعينية يحذفها اليهود والبروتستنت . (المترجم) .

المنحولة : — فهو من ثمّ أدب به تيارات كثيرة معقدة يشهد بحيوية الشعب الذى أنتجه . وفيما عدا سفر الحكمة (Ecclesiasticus) وسفر المكابيين الثانى وبعض كتابات الدعاية ، فإن أسماء المؤلفين مجهولة فى جميع الحالات . ذلك أن اليهودى كان على عكس الإغريقى لا يحس بأى فخار شخصى فى التأليف ، ولعل مرد ذلك أنه كان غالباً ما يرى نفسه مطية لتنفيذ شىء تتوارى إزاءه شخصيته فى ظلال عدم الأهمية .

اختلف العلماء فى مدى ما كان للمؤثرات الهللينستية من أصداء فى ذلك الأدب . فمنهم من تعقب تلك المؤثرات فأوغل إلى درجة كبيرة ، على حين أنكرها بعضهم إنكاراً تاماً . ولا بد لنا من توجيه الأنظار إلى بعض الاعتبارات العامة هنا لأهميتها . فإن كلا من اليهود واليونان كانوا إبان العصر الهلليستى مولعين بنسبة المؤلفات الجديدة لأسماء عظيمة ظهرت فى أيام سالفة . ولكن لما كان كل من الشعبين قد بدأ تلك العادة قبل أن يحتك بالآخر ، فإنا لا نجد بين يدينا والحالة هذه إلا ميلاً ساذجاً يغلب على العقل البشرى . ولكن لو حدث فى حالة واحدة لا يتطرق إليها الشك أن توازى العقلان الإغريقى واليهودى ، لأمكن حدوث نفس الظاهرة فى حالات أخرى . مثال ذلك أن سفرى المكابيين الأول والثانى يوردان وثائق الدولة سواء منها الحقيقى والزائف — كمؤرخى الإغريق سواء بسواء . بيد أن المثال الذى احتذاه الكُتّاب هو أسـفار الملوك ، ولا يستتبع ذلك أنهم اقتبسوا هذه العادة الواضحة عن الإغريق ، وإن كان هذا الاحتمال غير مستبعد . هذا إلى أن مجرد المشابهة بين فقرتين عند اثنين من الكتّاب ليس لها معنى ما لم يكن ذلك التشابه من القوة بحيث لا يكاد رجلان يفكران فيه منفصلين . ولا شك أنه قل من الناس من يستطيع أن يدفع بأن يشوع بن سيراخ(١) عند ما كتب مديحه الشهير لأسلافه فى سفر الحكمة كان يفكر فى المديح الذى لا يقل عنه شهرة فى نفس الموضوع فى مسرحية اليعاسيب (Wasps) لأرسطوفانيس أو أنه عند ما يشير ثيوقريطس إلى الثعالب بين الكرمات ، فهو ينقل عن « نشيد الأنشاد » ، وذلك لأن كثيراً من الناس ربما

(١) يشوع بن سيراخ هو صاحب سفر من الأسفار المحذوفة . (المترجم)

مدحوا آباءهم أو لاحظوا عادات الثعالب . ولكن عندما يقول مؤلف سفر دانيال إن نبوخذنصر أكل العشب كالثور فلا شك أنه يستقى أقواله من تفجع وعويل « شوبسى - مشرا - نرجال » الذى يقال إنه « أيوب البابلى » ، وذلك لأن البشر لا يأكلون العشب ، كما أن هذا التعبير البلاغى لم يحدث البتة بمكان آخر فيما يلوح لنا . فلو طبق هذا الصنف من الاختبارات ، لتوارت على الفور معظم المؤثرات الإغريقية المزعومة . ولعل الشيء الوحيد المقطوع به فى أدب تلك الحقبة الرفيع بغض النظر عن سفر الجامعة ، — هو أن ذلك اليهودى الإسكندرى العالم الذى كتب فى نهاية القرن الأول القسم الأول الجميل من إصحاحات الحكمة ، قد قرأ فيما يحتمل مؤلفات أفلاطون ، فالله عنده يسمو فوق كل شيء وليس له بالعالم أى اتصال مباشر ، كما أن الخلود هنا دوام روحى خالص . وقد أشار بعضهم إلى أن أفلاطون ربما كان مصدر الإلهام فى الفقرة التى مطلعها « إن أرواح الأبرار لفى يد الله » . ومع ذلك فمن المقطوع به أن المؤلف يكتب بوصفه يهوديا ويستمسك بفكرة الثواب والعقاب بعد الموت ، وإن كانا ثواباً وعقاباً روحيين . وقراءة الشيء لا تعنى التأثر الحتمى به .

أما سفر الجامعة فأمره مختلف قليلاً . فإن المؤلف الارستقراطى لهذا الكتاب الفاتن كانَ يعيش بفلسطين حوالى (٢٠٠) . وهو يعتبر أحد الكفرة فى سفر الحكمة (الإصحاح الثانى) وهو أمر يدل على أنه كان يُعد من بين أنصار التهلّن ، كما يقال إن لغته جاءت متأثرة إلى حد ما بالإغريقية . ويحس المرء أنه فى زمانه قد عاش فى جو إغريقى بمكان ما . وهناك آراء مختلفة كثيرة عن علاقته بالفكر الإغريقى وكلها قد وجدت لها من يساندها ويعتقد بصحتها ؛ ولكن على الرغم من أوجه التشابه الممتعة التى عرف الدكتور رانستون كيف يستخرجها ووجد نظائر لها فى ثيوجنيس (Theognis) ، فإن أحداً من العلماء لا يستطيع أن يجد أى شاهد على وجود أى اقتباس مباشر ، ولا حتى فى الفقرة الشهيرة بالإصحاح ٩ ، الآية ٧ فما بعدها ، وهى التى كان جيروم أول من أشار إلى أنها مستقاة من أبيقور . وذلك لأن هناك تشابها واضحا كهذا تماما قدم إلينا مصحوباً بفقرة من ملحمة جلجامش البابلية . وعلى حين أن الإغريق

كانوا يعتقدون أن فكرة « لنأكل ونشرب ، لأننا غداً نموت » كانت فكرة أقدم عهداً من أبيقور ، وأن قائلها هو أحد ملوك الأشوريين ، فإن دانيال يُظهر أن بعض يهود ذلك العصر كانوا ملمين بالأدب البابلى . ولكن ليس من الضرورى مطلقاً أن نعتقد أن سفر الجامعة اقتبس من أى مصدر من المصدرين ؛ وذلك لأن الفكرة قديمة قدم البشرية نفسها ، ولابد أنها كانت ولا تزال إلى اليوم معمولاً بها بأمكنة عديدة عند الكثيرين ممن لم يقرأوا البتة سفر الجامعة ولا أبيقور ولا الأدب البابلى .

إنى لأحس بإحجام شديد عند التصدى لإبداء آرائى فى الأدب اليهودى ، ولكن سفر الجامعة خير مثل يرشدنا إلى ما يبدو لى أنه الرأى الصحيح . ذلك أن الإغريق واليهود كانوا جميعاً يتطورون فى عالم واحد ، ومنهم من كانوا يتطورون فى نفس الطريق . وكان الأمر كما هو اليوم تماما ، فكانت هناك مجموعة من الأفكار تملأ الجو ، وهى شىء تستطيع أن تسميه « روح العصر » أو أى اسم آخر يرضيك — ولا شك أنه كان يؤثر فى الناس لا شعورياً . وإنى لأستبعد أن سفر الجامعة كتب فى عهد أشعيا ، ولكن لا حاجة بنا إلى البحث عن الاقتباسات المحددة . لقد كان الواعظ يعيش فى عالم يعرف أن حاله على ما كانت عليه ، وكان يحس بذلك الأمر . ولكن إذا أمكن تعقب جو هللينستى معين عند هذا الكاتب اليهودى أو ذاك ، فلن يعثر فى أى مكان على آية واحدة تشهد بتغلغل الأفكار الإغريقية تغلغلاً حقيقياً .

وأهم شىء ظهر فى العالم اليهودى فى ذلك الزمان هو الأدب الذى يسجل الوحى والرؤى . وكان هذا الأدب عند غالبية الشعب يُعد بديلاً من الأنبياء الذين طوى سجلهم ، كما أن أعظم عملين فى ذلك الأدب — وهما مجموعة الكتابات المسماة سفر أخنوخ(١) ووصايا البطاركة الإثنى عشر — أثرا تأثيراً كبيراً فى كتّاب العهد الجديد ، وهو أدب يعالج المستقبل الذى كان مفروضاً أن

---

(١) أخنوخ هذا صاحب كتاب من الكتب المحذوفة ، وجد نصه كاملا باللغة الحبشية وضاعت أصوله الأخرى إلا قليلا . (المترجم)

« يَهْوَه » أسفر عنه وأوحى به لبعض حكماء العصور الحوالى مثل أخنوخ أو موسى . والفكرة الأساسية التى يدور حولها الحديث هى المسيّا الذى هو «مناط الأمل لكل من داخل القلقُ نفوسهم » ، المخلّص الذى لا بد أن يجيء والذى يسمى أحياناً « ابن الإنسان » — و « المسيح » . وقد اختلفت التعاليم المتعلقة بالمسيا (المسيح) اختلافاً عظيماً : فمن قائلة بأنه قدسى إلهى موجود قبل خلق العالم ، ومن قائلة بأنه بشر معرض للموت ؛ بيد أن الفكر كان فى تغير دائم ، فقد انتقل من مملكة للمسيح على الأرض مع بعث الأجساد بعد الموت إلى مملكة خالدة سرمدية فى السموات يصحبها الخلود الروحى . وكان الاعتقاد الشائع أن الخلود لا يدخل فيه إلا اليهود الأبرار دون غيرهم . ولكن الذى كان يحدث أحياناً — وتلك أعظم فكرة ظهرت فى ذلك الزمن — هو أن الأمر بُسط حتى شمل الناس جميعاً . وقد كان لهذا المذهب أثره فى العالم منذ ذلك الحين إلى اليوم ، شأن المذهب المقابل له ، مذهب الثواب والعقاب بعد الموت ، الذى يبدو أن أقدم إشارة عبرت عنه لأول مرة وردت فى أقدم جزء من سفر أخنوخ (حوالى ٢٠٠ — ١٧٠) . وكلاهما مرتبط بمشكلة شغلت الإغريق واليهود أيما شغل : — وهى مشكلة استمتاع الفاجر بمباهج الدنيا . ومعالجة هذه المشكلة تكشف عن العقليتين . فإن الفيلسوف كارنياديس بحثها (الفصل العاشر) وذهب إلى أنه لو أن هناك آلهة تهتم بالعالم لما سمحوا بذلك . ولذا فإنه حتى لو كانت هناك آلهة ، فإنهم لم يكونوا يهتمون . أما كتاب اليهود الذين هم على يقين بأن هناك رباً يهتم ، فقد استنتجوا أنه لا يمكن رؤية العملية بأكملها . ولذا فلا بد من حياة أخرى يصحح فيها وضع الميزان ، فيثاب ذو البر والصلاح ويعاقب الفاجر الشرير . وهذا أمر لا علاقة له بتاتاً برجاء هذا العصر فى الوصول يوماً إلى القيم الحقة ، وذلك لأن الكتاب كانوا يهوداً صالحين وكان البر والصلاح عندهم فى العمل بالشريعة . وقد كانوا هم أنفسهم يقتصرون على ذكر ثواب البر كحقيقة ، ولكن سرعان ما اقتادهم هذا المبدأ إلى إساءة استخدامه . ولعبت تلك الإساءة دوراً ضخماً فى العالم « كن صالحاً حتى تلقى الثواب » . وكتب على البشرية أن تتجافى كثيراً عن المذهب الرواقى الحافل بالرجولة : — « اجعل الفضيلة ديدنك لأن هذا واجبك » .

وثمة كتاب يقف بمفرده ولابد من ملاحظته هنا هو قصة سوسنه (١) (Susannah) ، فإن الفريسيين حاولوا حوالى (٩٥ — ٨٠) أن يصلحوا الإجراءات القانونية . وقصة سوسنه هذه بحث جدلى متسم بالقوة البالغة ويدعو إلى الأخذ بنظام الاستجواب بوصفه وسيلة لاستخلاص الصدق فى التحقيقات القانونية . ومن الشائق هنا أن نجد مسألة دنيوية بحتة كان اليهود فيها متقدمين على الإغريق ، وذلك لأنه يظهر أن هذه الأداة القوية من أدوات العدالة كانت مجهولة للعالم الهللينستى . ومع هذا فإن أحدهم أشار إشارة ممتعة إلى الأثر الذى أحدثته القواعد الفنية لعلم البيان الهللينستى فى الطرائق التى استخدمها رجال الدين (الحاخامون) فى تفسير الكتب المقدسة .

وفضلا عن ذلك الأدب اليهودى العظيم قامت مجموعة من كتاب الدعاية الذين كتبوا باليونانية. وقد أكثر هؤلاء الدعاة من الاقتباس من الهللينستية ، ولكن المعين الذى نقلوا عنه لم يكن الفلسفة ولا التاريخ ، بل التاريخ الزائف (شبه التاريخ) الذى يجتذب إليه دائما أنصاف المتعلمين . وقديماً عبر مانيتون (حوالى ٢٨٠) عن بغضه لليهود ، ولكنه كان كاهنا مصرياً . ومع ذلك فإن بعض كتاب الإغريق دأبوا قبل (١٠٠) على مهاجمة اليهود . وفارس الحلبة فى هذا المضمار هو أبوللونيوس رجل البيان والبلاغة وقد عاش فى رودس. وبلغ الأمر بهم أن تنزل بوسيدونيوس إلى حد نشر القصة التى تقول (سواء أكانت هى الأصل أم الثمرة فى الفضيحة القائلة بأنه يوجد فى قدس الأقداس رأس حمار) بأن انطيوخوس الرابع وجد هناك تمثالا لرجل (لعله موسى) يركب حمارا — وكان من الطبيعى أن ينبرى اليهود للدفاع عن أنفسهم . ولسنا نستطيع الآن أن نقول من كان البادىء بالشر من الطرفين ، ولكن حرب الكلام بلغت ذروتها فى القرن الأول الميلادى فى هجوم أبيون ومارد به يوسيفوس عليه . وكانت التهم الموجهة إلى اليهود ، هى أن ثقافتهم لاتعدو أن تكون منقولة عن الغير ، وأنهم لايشاطرون من حولهم أى شعور بالأخوة البشرية ، بل ينطوون على أنفسهم ، وأنهم فى الحقيقة ملحدون ، لأنهم يقولون بأن لا وجود فى الحقيقة لأى إله إلا « يهوه » ، وهى تهمة كانوا هم أنفسهم

---

(١) قصة سوسنه جزء من سفر دانيال وقد اختلف رجال الكنيسة فى قانونيته. (المترجم)

السبب فى إثارتها بإصرارهم على أن ماتعبده الشعوب الأخرى هو الصورة والتمثال الفعلى ، وليس (كما هو الواقع) الله الذى لم يكن التمثال إلارمزآله.

وقد حفظ لنا الإسكندر الملقب بوليهستور مابذله كثيرمن اليهود المتهلنين(١) من جهود لإظهار أن الثقافة اليهودية كانت أقدم ثقافة فى العالم وأن اليهود قد علموا الشعوب الأخرى فى الحقيقة . وكان ديمتريوس أول كاتب قدم التاريخ اليهودى بصورة صحيحة إلى حدما ، ولكنه كان يهتم بأشياء تافهة مثل إثبات أن أبناء يعقوب الثلاثة عشر كان فى الإمكان أن يولدوا فى مدى سبع سنوات وتصبح ليئة (Leah) لغزاً حسابيا . وليس للتاريخ أى معنى مطلقا لدى يوبوليموس : حيث يقول إن ابراهيم كان أحد العمالقة الذين عاشوا بعد الطوفان وبنوا مدينة بابل ، وهو الذى استكشف التنجيم من جديد بعد أن اكتشفه فى الأصل أخنوخ الذى هو أطلس ، والذى علم المصريين، على حين أن موسى وهو الفيلسوف الأول، اخترع الأحرف الهجائية وعلَّمَ اليونان. ويتراسل حيرام مع سليمان على منوال البلاطات الهللينستية الملكية، كما أن سليمان يبز الإسكندر بإنفاقه على إنشاء هيكله ١٦٠ ألف تالنتا فى الأجور فقط.ولا يخجل ارطبانوس من أن يسوق خرافات وكتابات لاأصل لها ، وهى تلك الفقاعات المتواترة بين الكتابات الهللينستية : ومنها أن يوسف أصبح وزير المالية (على عهد البطالمة) بمصر وقام باستصلاح الأرض البور ، وأن موسى اخترع كل شيء تقريباً من أسلحة وماكينات وسفن وفلسفة — وعلم المصريين عبادة الحيوانات، وأنه ألهوعبد بعد مماته بعبارات وأساليب هللينستية صحيحة. وأما كليوديموس وهو أقل طموحا ، فيجعل أبناء ابراهيم يبزون البطالمة لا بفتح بلاد التروجوديتين (Trogodytes) فحسب، بل وأيضاً جميع أقطار التوابل من بلاد العرب وإفريقية. وبلغ الارتباك بالاسكندر بوليهستور بسبب الهراء الذى جمعه، أن جعل موسى امرأة أسماها موسو. ولعل ممن يرتبطون بهذا الأدب جماعة من ، شعراء اليهود، وقد عمد فيلون وثيودوتوس إلى كتابة التاريخ اليهودى فى مقطعات شعرية بحرها العروضى هو السدس الوزن (Hexameter) الهللينستى ، كما أن حزقيال كتب مأساة عن الخروج روى فيها قصة نكبة البحر الأحمر على غرار أحسن الأنماط الأدبية الإغريقية .

---

(١) اليهودى المتهلن هو المصطبغ بالصباغ الهللينستى . (المترجم)

ومن الطبيعى أن اليهود كان فى إمكانهم أن يكتبوا دعاية أفضل من هذه . فالرسالة المنسوبة إلى أرستياس مديح جدى للشريعة اليهودية وللكتب المقدسة اليهودية . وجاء على لسان وثنى يحاج بأن الناس قاطبة يعبدون « يهوه » ، وإن لم يعرفوه. والسفر الثالث من كتاب النبوءات السبيلينية (وقد كتب باقيه بعد العهد المسيحى) يجعل إحدى النبيات الوثنيات تشهد بلغة يونانية كتبت بشعر من بحر العروض السداسى الأوزان ، — بتفوق الديانة اليهودية على الديانات الأخرى جميعاً . وأهم من ذلك — لو صح أنه أصيل — ذلك العمل الذى يدعون أن يهوديا إسمه أرستوبولس كتبه فى عهد بطلميوس السادس، والمؤلف وهو من المشائين ، كان يعرف الفلسفة الإغريقية ، وقد حاول أن يظهر أن الشريعة اليهودية كانت تحتوى بالفعل على خير ماجاءت الفلسفة من أمور ، وأن فيثاغورس وأفلاطون تلقيا العلم عن موسى . ولكن بعضهم يرى أن ذلك الكتاب عمل زائف كتب فى عهد متأخر .

وهكذا صار بعد الشقة بين أعلى أنواع الفكر وأخفضه عظيما عند اليهود كشأنه عند اليونان ، وعند ماحدث إبان الفترة الهللينستية المتأخرة أن أخذ الضعف يدب فى قبضة الإغريقى الفاتح ، وأخذ الشرق يعود إلى التدفق نحو الغرب فى صورة تيار ضخم من التنجيم والسحر ، لعب اليهودى فى ذلك دوراً بارزاً ، فلم يكن أحد يستطيع أن يسبق السحرة اليهود فى سحرهم ، كما أن طارد الأرواح الشريرة اليهودى ظل شخصية مألوفة مدة قرون عديدة. وكان لدى اليهود كتبهم الخاصة الحاوية لتعاويذ السحر ورقاه ، مثل تلك التى اتخذت وقوداً للنار فى إفيسوس بفضل نفوذ القديس بولس . وأشهرها تلك المجموعة التى تنسب لسليمان ، والتى قالت الأسطورة عنها إن حزقيا حظر فى بعض الأوقات استخدامها لأنها تغرى الرجال بمعصية « يَهْوَه »

ولابد لنا من تتبع مصائر الهيللينستية فى بلاد اليهودية نفسها بعد أن حصلت تلك البلاد على استقلالها فى (١٤٢) (كما سبق فى هذا الفصل). ففى (١٣٥) خلف سمعان ولده يوحنا هيركانوس . ولكن حكمه بدأ بداية تعسة ، وذلك لأن

آخر السلوقيين الاقوياء أنطيوخوس السابع الملقب سيديتيس استولى على أورشليم وهدم أسوارها . ولم يستطع سيديتيس هذا أن ينفذ سياسة إبيفانيس ، وذلك لأنه لم يعد له حزب من اليهود المناصرين للتهلن يظاهرونه فى البلاد . ذلك أن يوناثان وسمعان قد تمكنا من محو ذلك الحزب محواتاما تقريبا . فنصحه مجلس مشورته بإبادة اليهود والتخلص من الشر تماما . بيد أنه اتبع طريق الاعتدال فترك رئاسة الكهانة لهير كانوس ورفض التدخل فى الشئون الدينية، مكتفيا بجعل هير كانوس تابعاً له يقوم بدفع الجزية . ولكن وفاته فى (١٢٩) كانت فيها نهاية قوة السلوقيين وسلطانهم، وبذلك انطلقت يد هير كانوس فى العمل بحرية . وكانت المدة الباقية من حكمه هى العهد الذهبي للأسرة المكابية . فأنشأ يعمل لاستعادة مملكة داود ، وأعاد تحصين أورشليم وفتح إدوم (Edom) وأجزاء من شرق الأردن . وتمكن من عقد محالفة مع روما واستولى على شكيم ، كما استولى أخيرا على السامرة ودمرها بعد أن أبدت مقاومة عنيدة . وترتب على نهضة المكابيين الذين كانوا من اللاويين ، أن كتاب الرؤيا أخذوا يتوقعون إذذاك ظهور « مسِيّا : مسيح » ، لا يكون من أسباط يهوذا وآل داود ، بل من لاوى وبيت هرون ؛ إن ذلك الجليلي الذى ألف ذلك الأثر الخالد فى عهد هير كانوس ، ألا وهو وصايا الآباء الإثنى عشر ، بما احتوت عليه من توقعات رفيعة جاءت فى عظة الجبل ، قد خيل إليه أن هير كانوس وهو النبي والكاهن والملك (الملك فى الحقيقة والواقع وإن لم يتلقب باللقب) قد تحقق فى شخصه الأمل المسيانى المرجو فى ظهور مسيح ؛ وإليه وجه الكاتب ترتيلتين مما ينشد للمسيح .

ولكن المجد سرعان ما ذوى واضمحل . فإن أرستوبولس (١٠٥ — ١٠٤) أكبر أبناء هير كانوس قتل أمه ، كما أن ابنه الثانى إسكندر حنايوس (١٠٤ — ٧٦) الذى ورث اللقب الملكى كان على أسوأ خلق يمكن أن يتدلى إليه إنسان . وثار شطر عظيم من الأهالى على ذلك الجندى الفظ وتلك المعاملة الوحشية التى يلقاها منه . وكان الفريسيون يعطفون على حركتهم ؛ وانقضت

ست سنوات من الحرب الأهلية والتعاسة الشاملة استطاع بعدها إخماد نار الفتنة . والمشهد الأخير من القصة يمثل حنايوس مضطجعا ساعة الغداء بين حريمه وهو يرقب صلب آخر من بقي من الثوار وعُدتهم ستمئة . وعندئذ لم يعد هناك محل لما يسمى بالمملكة المسيانية اللاوية ، ومن ثم فسيكون المسيا (المسيح) بعد ذلك من يهوذا ، وأرجىء الأمل بظهور المسيح المنتظر إلى لحظة ترقد بين طيات المستقبل المجهول فى هذه الأرض ، أو حتى فى بعض الأحيان إلى مملكة روحية فى السماء . على أن هنالك شيئاً واحداً اكتسبه المكابيون ما بين عهدى يوناثان وحنايوس . فكما أن أجدادهما قضوا على الكنعانيين والعمالقة ، فإنهم هم أيضاً قضوا على كل متمسك بالروح الهللينستية وعلى تلك المدن السورية المجاورة التى كانت الثقافة الإغريقية تسود فيها . وقد جمعت قائمة طويلة بأسماء المدن التى دمروها أو خربوها على يد حنايوس فى معظم الأحوال . وانقضت العشرون سنة التى عقبت وفاة حنايوس فى حرب ضروس بين ولديه هيركانوس الثانى الكاهن الأعظم وأرستوبولس الثانى ؛ وكان من الخير العميم أن ظهر بومبي فى (٦٣) واستولى على أورشليم وألغى الملكية ونفى أرستوبولس ووضع هيركانوس تحت سيطرة الحاكم الرومانى لسورية ، وشرع فى إعادة بناء المدن التى دمرها المكابيون .

لقد ذهبت الجهود التى بذلت لتهلين بلاد اليهودية هباءً ملطخاً بالدماء ؛ ومع ذلك فقد جاءت عليها فترة قصيرة تم فيها التهلين بجهد من الخارج ، يوم لم يعد بالبلاد إلا قلة صغيرة ترغب فيه . وكانت السلطة الحقيقية فى بلاد اليهودية لعهد هيركانوس الثانى الضعيف مُركزة فى يد وزيره أنتيباتر الإدومى . وبعد مقتل أنتيباتر استطاع ولده « هيرودس » أن يقنع حكومة حلف الرجال الثلاثة فى روما (Triumvirs) بأن يجعلوه ملكاً على بلاد اليهودية . وفى (٣٧) استولى على أورشليم ووطد لنفسه بها سلطانا قدر له بفضل روما ونفوذها أن يستمتع به مدة ٤٣ عاما . وكان هيرودس شخصية بارزة بين الملوك الخاضعين للرومان فى أثناء فترة الانتقال ، وقد عرف بالاقتدار والقسوة وموت الضمير .

وتتجلى طبيعته الحقة فيما أدلى به من نصح في مقومات النجاح، وهو رأى يجمع بين الصحة والبشاعة في وقت واحد، حيث تقدم إلى ماركوس أنطونيوس وقال له: « اقتل كليو بطرة ». لقد نجح ذلك الرجل حيث فشل أنطيوخوس إبيفانيس مع أنه أعظم منه كثيراً، وتمكن بالقوة من أن يجعل من بلاد اليهودية صورة تحاكي بدرجة مقبولة جداً أي مملكة هلينستية. إنه لم يكن ملكا هلينستياً، بل هو أجنبي (متبربر) إدومي جيد الصقل جدا إلى حد ما؛ ولكن النظام الهلينستي كان النظام الوحيد الذي استطاع تطبيقه على مملكته المختلطة الممتدة من لبنان إلى مصر. وكان حكامه وموظفوه يقلدون أنظمة الحكم السلوقية المعتادة، بيد أن مدنه الإغريقية الكثيرة لم تكن سوى مدن خاضعة، كما كانت تلتمس من روما أن تضمها إلى ولاية سورية التابعة لها. أما فيما يتعلق باليهود، فالظاهر أنه لم يستطع البتة أن يعزم في أمرهم على شيء فحاول أن يصالح الفريسيين، ولكنه أعمل الذبح في الصدوقيين. وقد امتنع عن بناء معابد قيصر في أورشليم نفسها، بيد أنه بنى حلبة لسباق الخيل بأورشليم كما بنى مسرحا ومدرجا خارج سور المدينة، وحاول استجلاب رضا الشعب عنه بإعادة بناء الهيكل في قدر عظيم من الفخامة، في حين أنه ربما كان هو نفسه يتوق أن يصبح رباً. وأخيرا عبر هيرودس عن رغبته هذه بأن وضع على المعبد نسراً هو طائر زيوس — وهذا أسوأ أنواع الاستفزاز التي يمكن أن يتلقاها يهودى. وقد بنى عدة مدن هامة منها سباستى لتحل محل السامرة وقيصرية على الساحل ولها ميناء أكبر من ميناء بيرايوس (مرفأ أثينا) — واشترك في تزيين أنطاكية ومدنا كثيرة غيرها، ولكن اليهود كرهوا منه ما كان يبتنى من مبان إغريقية، وذلك لأن المال اللازم لذلك كان يغتصب منهم غصبا. إنه كان بحاجة إلى مقادير هائلة من المال، فصادر مقادير ضخمة من الأرض، ولابد أن أملاكه الخاصة كانت عظيمة جداً هي وإيراداته، وكانت ضرائبه عالية مبهظة، كما كانت مصدرا دائما للسخط. أجل إنه منح البلاد السلام والرخاء، ولكنه كان في الواقع يحكم بلاد اليهودية بالخوف ويقمعها بالمعاقل والحصون. كان يعين الكهنة العظام ويخلعهم حسب هواه ومشيئته. وكان السبب الرئيسى في كراهية اليهود له خشيتهم من الخطر الذى يتهدد ديانتهم من وجوده. فثاروا مرات عديدة حتى أصبح أقوى من أن يغلب. وكان حكمه في السنوات

الأخيرة حكم إرهاب ، لذا عادوا إلى الثورة فى اللحظة التى هلك فيها ، وانتقموا منه انتقاما فظيعاً — ولكن بعد فوات الأوان، إذ ادعوا أنه مات موتة أبشع من أن تروى هنا (ولعل سببها هو سرطان الأمعاء) . على أن محاولته صبغ بلاد اليهودية بالصباغ الهللينستى لم تتجاوز مدة حياته ، وذلك لأنه أمر كان مفروضاً بالقوة من الخارج على شعب متأبٍّ غير راغب . توفى عام ٤ ق.م، وفى عام ٦ للميلاد صارت بلاد اليهودية (Judaea) ولاية رومانية ، وبدأت صفحة جديدة فى تاريخها . وكل ما يمكن قوله هنا ، أن إخلاص اليهودى لقوميته ولعقيدته قد أظهر فى المستقبل كما أظهر فى الماضى على السواء أنه قوة أقوى من كل ضغط تفرضه عليه الحضارة الإغريقية الرومانية ، وأن ما تبقى فى النهاية هو قوة الشريعة كاملة .

الفصل السابع

التجارة والاستكشاف

فتح الإسكندر أمام النفوذ والتأثير الإغريقى رتاج عالم كان يمتد من بحر إيجة إلى جبال هندوكوش ومن نهر سيحون(١)(Jaxartes) إلى شلالات وادى نهر النيل . ولو أنه عاش لزاد فى رقعته واتساعه ، وذلك لأنه أعد قبيل وفاته مشروع ارتياد بحر قزوين ومحاولة لإكمال الطريق البحرى من الهند إلى مصر (الذى ارتاد منه القسم الممتد من الهند إلى بابل) بالدوران بحراً حول بلاد العرب ، وكانت سفنه قد بلغت من قبل بلاد البحرين ورأس موصندام فى جانب واليمن فى جانب آخر . ومع أن هذه الخطط أهملت عند وفاته ، إلا أن خلفاءه عادوا فاضطلعوا بتنفيذها ، ولكن فيما عدا ما عمله الإغريق — الباكتريون (Graeco—Bactrians) ، من جهود فى هذا السبيل فإن الخطط الوحيدة التى تم تنفيذها فى الأزمان الهللينستية عدا خطط الإسكندر كانت حملة بطلميوس الثانى العربية (الفصل السابع فيما يلى) ثم الاستكشافات الإفريقية التى قام بها البطالمة المتأخرون . وهناك بوجه خاص تلك الرحلة المدهشة التى تمت بمحاذاة ساحل بريطانيا صعداً حتى بلاد النرويج أو شبه جزيرة جتلندة وقام بها بيثياس(Pytheas) من أهل مرسيليا وهو معاصر للإسكندر. وهو أول إغريقى سمع باسم المحيط المتجمد الشمالى ، ولكنها رحلة عقيمة لم تؤت أية ثمرة . وقد أوشك الجغرافيون بما اجتمع لديهم من التجربة والخبرة أن يفندوا صدق هذه الرحلة، وإن قبلها عن حكمة عالما الرياضة إراتوستنيز وهيبارخوس، وهما أدرى وأوسع علماً.

وكان السلوقيون من شدة الانشغال باتجاهات ونواحى أخرى بحيث لم يكن فى وسعهم أن يوجهوا للاستكشاف قدراً كبيراً من تفكيرهم . وطبقا للخطة التى أزمع الإسكندر تنفيذها من الانتفاع بالخليج الفارسى ، احتفظ سلوقوس فيه بأسطول وأنشأ المستقرات على طول القسم الأدنى من نهر دجلة وحول رأس ذلك الخليج ، وأقام العلاقات الطيبة بينه وبين الجرائيين (Gerrhaeans) النازلين على الشاطىء العربى لتلك البلاد ، والذين كانوا يزودون دولة السلوقيين بالتوابل. ولكنه بطبيعة الحال لم يحاول مطلقاً أن يدور

---

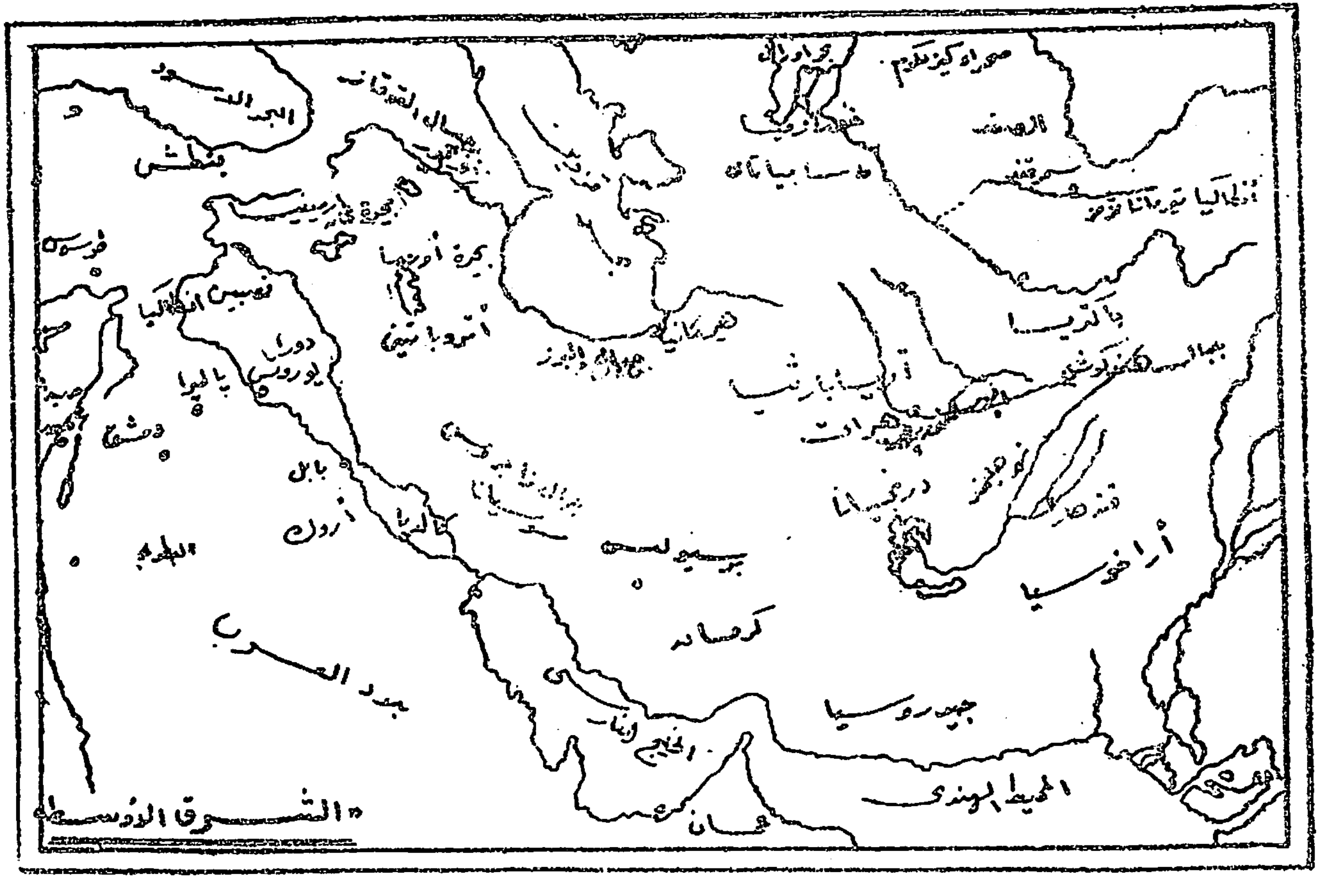
(١) واسمه العصرى نهر سرداريا وهو يصب فى بحر آرال . (المترجم)

بالسفن حول بلاد العرب، فيحول بذلك التجارة من سلوقيا إلى البحر الاحمر ابتغاء منفعة البطالمة . وفى الشمال الشرقى عبر قائده ديموداماس للمرة الثانية نهر سيحون . وأرسل ابنه أنطيوخوس الأول قائده باتروكليس (Patrocles) الشهير كقائد وكجغرافى ليستكشف بحر قزوين . وكان أرسطو والإسكندر يعلمان من قبل أن هناك بحيرتين ، تسميان البحر الهركانى (وهو بحر قزوين الحالى) وبحر قزوين (وهو بحر آرال عندنا) ، وحدث فيما بعد أن كان الإسكندر فى حيرة من أمر فكرة قديمة نبذها أرسطو، وهى تتلخص فى أن البحر الهركانى لم يكن بحيرة بل خليجاً متفرعاً عن محيط ، ودار بخلده أنها قد لا تكون على كل حال فكرة صحيحة ، ومع ذلك فقد نسى الناس إلى الأبد كل علم لهم ببحر آرال فى مدى جيل واحد من وفاته . بدأ باتروكليس رحلته من كيزيل يوسن فى آتروباتينى (أذربيجان) ، وارتاد الساحل الجنوبى وأجزاء من الساحل الشرقى والغربى ، ولكن استنتاجه أن البحر الهركانى كان خليجا فى محيط ، ربما كان السبب فيه قصة يتناقلها الأهالى أسىء تفسيرها ؛ وذلك لإنه حدث بعد ذلك بمئة وخمسين عاماً أن مجمع الصينى تشانج كائين تلك القصة نفسها تقريباً ، ولكن على صورة جديدة تقول إن بحر آرال هو البحر الشمالى. ثم لم يتم بعد ذلك شيء فى الشمال الشرقى حتى استعمر الملوك الإغريق الباكتريون إقليم فرغانة وبذلك اتصلوا بالتركستان الصينية، فبدأوا أول خطوة فى تمهيد السبيل للتوسع نهائياً نحو الشرق بالمؤثرات الفنية الإغريقية الفارسية .

وحالت الإمبراطورية الموريانية (Mauryan) بين سلوقوس وبين الهند . ولم يحدث بعد ذلك أن جنديا إغريقياً مسلحاً واحداً اخترق تلك البلاد حتى زالت تلك الإمبراطورية من الوجود فى ١٨٤، بيد أن هناك شخصاً اسمه ميجاثنيز أرسله سلوقوس مبعوثاً له إلى جندركبت (Chandragupta) فى عاصمته « باتاليبوترا » بالقرب من مدينة باتنا على نهر الكنج ، وقد أزيل عنها الآن جزئياً ما كان يغطيها من أتربة ؛ وبفضل هذا المبعوث زادت معلومات الإغريق عن بلاد الهند زيادة بالغة . أجل إنه نقل إلينا بعض قصص الرحالة ؛ ولكنه كان أول من أحاط الغرب علماً بنهر الكنج وبمملكة مجادا (Magadha) العظيمة ، كما أن مارواه من روايات عن تنظيمات البلاد فى حكم جندركبت ، تلك الروايات التى يمكن الآن موازنتها بالأرتاساسترا (Artha—Sastra) تعد روايات من الطراز الأول . وظل كتابه أساساً لكل علم بشمال الهند حتى تم ديمتريوس الباكترى من آل يوثيديموس حوالى ١٨٠ بفتح ذلك القطر المهجور أو استلحاقه ببلاده وظل بضع سنين يحكم الشقة الممتدة من باتاليبوترا إلى كاثياوار .

كان نشاط السلوقيين مرتبطاً بمسألة التجارة الهندية أو الشرقية — وهى عامل بقى متسلطاً طوال تلك المدة . والمتواتر لدينا أن لهذه التجارة ثلاثة طرق : أولها شمالى وثانيها متوسط وثالثها جنوبى ، ويرتبط هذا الطريق الأخير بتاريخ البطالمة . ولا حاجة بنا إلى إطالة الحديث عن الطريق الشمالى . وكان يُظن أنه يمر بمدينة باكترا (بلخ) حتى أدنى نهر جيحون أموداريا (Oxus) ، ثم عبر بحر قزوين ، وعلى إمتداد نهرى « كور » و « فاسيس » إلى البحر الأسود ، ولكن المحقق تماماً أن ذلك الطريق لم يوجد قط . وكان لا يزال مظنوناً إبان عهد سلوقوس أن المحيط كان يضرب بأمواجه السفح الشمالى لجبال الهملايا وأنه كان يمتد قريباً من نهر سيحون (سرداريا) . ولاشك أنه كان من مهام باتروكليس أن يتحقق مما إذا كان فى الإمكان إيجاد طريق بحرى شمالى ، بل إن الأساطير التى تواترت بعد ذلك جعلته يستكشف جزئياً ذلك الطريق البحرى وجعلت الهنود ينتقلون بواسطته إلى الساحل الألمانى . وبعد وفاة سلوقوس انقطعت صلة السلوقيين بالبحر الأسود ولم يعد لهم أى اهتمام بعد ذلك بأى طريق شمالى .

وكان الطريق الهام أثناء القرن الثالث هو الطريق الأوسط . وهو يسير بحراً من الهند إلى الخليج الفارسى ، ثم ينطلق أعلى دجلة حتى سلوقية وتكمله تجارة القوافل البرية التى كانت تتجمع بسلوقية ، وكان هناك طريق يسير إليها من الهند ماراً بمدينتى برسيبوليس وسوسا ، ولكن أهميته كانت موضع الشك . أما الطريق الرئيسى الكبير الذى تشهد له بذلك الروايات الإغريقية والصينية ، فكان يبدأ من باتاليبوترا ويمر بطريق تاكسيلا وإسكندرية ببلاد القوقاز وطريق باكترا ثم هيكاتومبيلوس وطريق إكباتانا حتى سلوقية ، وكان يتصل به طريق محدودب يبدأ من إسكندرية بالقوقاز ويمر بكابول وغزنة وإسكندرية المسماة بروفثازيا Prophthasia (على بحيرة سيستان Seistan) — فهيرات ثم هيكاتومبيلوس . وكانت التجارة المجمعة تنتقل غرباً من سلوقية ، إما بالطريق السلوقى الجديد أعلى الفرات حتى أنطاكية أو بالطريق القديم شرقى الدجلة ، الذى يعبر ذلك النهر بأرض الجزيرة عند أوبّا (آشور) ، ثم ينحرف شمالا ماراً بنصيبين (Nisibis)، حيث يجمع التجارة الأرمنية ثم إلى الرّها (Edessa) التى عندها يتفرع جزء من التجارة فى الطريق التقليدى إلى دمشق وصور ، بينما كان شطر آخر يذهب إلى أنطاكية ، عابراً نهر الفرات عند زوجما التى حلت آنذاك محل ثابساكوس . ومن أنطاكية كان يخرج طريق عظيم ، وهو الطريق الملكى القديم الذى يمر بمدينتى طرسوس



البحر الأسود
بنطس
جبال القوقاز
بحيرة أورميا
أتروباتين
نصيبين
دورا يوروبس
بالميرا
دمشق
بابل
هيركانيا
جبال البرز
بارثيا
باكتريا
هرات
درنجيانا
قندهار
أراخوسيا
برسبوليس
كرمان
جيدروسيا
المحيط الهندي
الخليج العربي
عمان
جزيرة العرب
الصغد
سمرقند
صحراء كيزيلقوم
الشرق الأوسط

وأباميا فى فريجيا حتى يصل إلى البحر عند إفيسوس (الفصل الرابع) . والصراع الذى نشب بين السلوقيين والبطالمة واستمر من حوالى (٢٨٠ — ١٩٨) ، وإن كان يرجع فى المقام الأول إلى مطامع أسرة البطالمة ورغبتهم فى توسيع أملاكهم بمنطقة البحر الإيجى ، إلا أنه كان يرتبط ارتباطاً جزئياً أيضاً بطريق التجارة ذاك ، وتداولت مخرجه عند إفيسوس عدة أيد أكثر من مرة ، والراجح أن البطالمة تمكنوا باستيلائهم على فينيقية ووادى مرسياس بين دمشق وأنطاكية أن يضغطوا على دمشق السلوقية . وانتهى الصراع فى (١٩٨ — ١٩٧) بطرد مصر من سورية وآسيا الصغرى ، وبقيت الطرق الرئيسية للتجارة قائمة حتى فقد السلوقيون إقليم بابل (بابلونيا) ، فلما انتقل الطريق الأوسط إلى يد البارثيين إذا هو يخلى السبيل للطريق الجنوبى الذى انتعش عند ذاك . وحدثت بعد ذلك تغيرات متنوعة . وفى القرن الأول استخدم الطريق الذى يمر بالرها — قيصرية (Mazaca) — أباميا تاركاً من ورائه أنطاكية ، وفى (١٠٠) أصبح الناس فيما يرجح يترددون على الطريق المختصر الممتد من إقليم بابل إلى دمشق عبر بادية تدمر (Palmyra) . وأخيراً جاءت روما سائرة فى خطى بومبى ومتقدمة من إقليم بنطش نحو أرمينية والقوقاز التماساً لمعادن لم تستغل مواردها ، فرفعت إلى حد ما من شأن طريق بحر قزوين والبحر الأسود وهو المار بوادى نهر كور .

وننتقل الآن إلى الطريق الجنوبى وإلى استكشاف البطالمة لأفريقيا . كان هذا الطريق يسير من الهند بحراً إلى المستودعات التجارية القائمة على الساحل الجنوبى أو الجنوب الشرقى لبلاد العرب ، حيث كان أصحاب السفن الهنود ينزلون بضائعهم ، فتصبح جزءاً من تجارة بلاد العرب ، وكان الطريق فى أيدى الهنود والعرب لا ينازعهم فيه منازع ، بحيث أن وجوده فى القرن الثالث لم يتم تحقيقه تاريخياً إلا أنه تصادف أن إراتوستنيز قد عقب بقوله إن القرفة (التى لم تكن تزرع إلا بالهند) كانت تجىء من بلاد العرب شرقى حضرموت . وبلغ من شدة غيرة العرب على تجارتهم وحرصهم عليها ، أنهم لم يكونوا يسمحون لأية سفينة هندية أن تلج باب المندب ، وأن البطالمة الأول لم يكونوا يعلمون عن جنوب بلاد العرب إلا القليل ، فلم يكن إراتوستنيز ليعلم عن أى شىء يقع إلى

الشرق من حضرموت ، التي سمعت عنها من قبل البعثة التي أرسلها الإسكندر . وتاريخ بلاد العرب الجنوبية تاريخ كله حروب واتحادات بين شعوبها المختلفة بقصد التحكم في تجارة الهند وسلعة البخور . ولعل كلمة «أوفير» (١) (Ophir) المأثورة عن سليمان لم تكن إلا اسماً يطلق على أى مكان يتخذ فى ذلك الزمان مستودعاً هندياً للتجارة . وفى القرنين الثالث والثانى اجتمعت القوة فى يد حلف يجمع بين حبشات من المهرة (Habashat of Mahra) وبين السبأيين وهم سكان جنوبى اليمن ، وكان المركز التجارى الرئيسى الهندى هو مدينة عدنة (عدن) السبأية ، وكانت التجارة المجمعة تجلبها شمالاً إلى البطراء قوافل السبأيين والمنأيين فى « طريق البخور » التقليدى المار بيثرب (المدينة) والعلا (Dedan) . وفى قريب من (٢٨٠) أرسل بطلميوس الثانى أريستون لاستكشاف الساحل العربى ، والظاهر أنه أتبع ذلك ببعثة أريد لها أن تفرض نفوذه على العلا وأن تسيطر على جانبي طريق البخور الواقع جنوباً تحت سلطان النبط — (Nabataeans) المعادين له . أما التجارة التى كانت تصل إلى البطراء فكان جزء منها يبلغ البحر إما عند غزة أو يصل إلى أرسينوى (السويس) ومن ثم تنقل إلى الإسكندرية ، وربما كان شطر منها يعبر الصحراء إلى سلوقية ، على حين يحمل الباقى شمالاً . والعادة أن هذه البقية الأخيرة تنقل إلى أنطاكية عن طريق دمشق ، كما حدث بعد (٢٠٠) يوم تتجلى أهمية استيلاء السلوقيين على سورية فى موكب الذهب والعاج والأفاويه الهندية الذى أقامه أنطيوخوس إيفانيز أثناء موكب النصر العظيم الذى أقامه بدافنى (Daphne) . ولكن التجارة كانت إبان استيلاء البطالمة على سورية تتخذ كذلك طريقاً يمر بعمان (ربات عمان) وجرش (Jerash) عبر وادى الجليل إلى بطلمية (Ptolemais) (عكا) ومنها إلى بلاد الفينيقيين . وتتجلى أهمية مدينة بطلمية (عكا) من احتفاظها بذلك الاسم فى ظل السلوقيين . وربما كان لسقوط مملكة سبأ عام (١١٥) الفضل فى منح البطالمة منفذاً ينفذون منه ، ولكن الحركة التى أفضت فى النهاية إلى تمكن مصر من الاشتراك فى الطريق الجنوبى إلى الهند ، كان الأصل فيها مسألة ثانوية هى رغبة بطلميوس الثانى فى الحصول على الفيلة .

---

(١) أنظر الكتاب المقدس سفر الملوك الأول (٩ : ٢٨) . (المترجم)

شرع بطلميوس الأول فى استكشاف البحر الأحمر ، واستكشف قائده البحرى فيلون « جزيرة الياقوت » التى طهرها أحد البطالمة مما كان بها من ثعابين . وحدث فى زمن مبكر من حكم بطلميوس الثانى أن قائده ساتيروس أسس مدينة فيلوتيرا على خليج السويس. ولا بد أن مدينة أرسينوى الموجودة عند رأس ذلك الخليج ترجع إلى ذلك العهد نفسه ، ومعها فيما يرجح برنيقة على خليج إيلات (العقبة) . وعندئذ دفع بطلميوس الثانى باستكشافاته جنوباً ، وأسس قواده على التعاقب مدن مايوس هورموس (ميناء الموصل) عند القصير وبرنيقة بمنطقة التروجوديتيين على الخليج الضحل (أى المملوء بشعاب المرجان) وهى التى لا تزال أطلالها (عند خط عرض أسوان) موجودة إلى اليوم، كما أسسوا بطلمية المتحدة لتكون محطة لمصايد الفيلة بالقرب من سواكن ؛ وأسس بطلميوس الثالث مدينة برنيقة الذهبية (ولعلها أدوليس) بالقرب من مصوّع ، وربما أيضاً كولوئى (كوهايتو) بإثيوبيا ، التى يقال إن أطلالها بطلمية ؛ وقد صارت فيما بعد مستودعاً للعاج الذى كان يصل إلى البحر عند أدوليس . وأصبح كثير من هذه المستقرات مدناً ، وإن بدأت فيما يحتمل على صورة مراكز تجارية محصنة ، وذلك لأن الغرض الرئيسى الأول من هذا الاستكشاف كان جمع العاج وصيد الفيلة لاستخدامها فى الحرب . ونظم بطلميوس الثالث عمليات الصيد على أسس عسكرية بقيادة أحد القواد . وكانت البعثات تنظم فى برنيقة الشمالية التى كانت الفيلة ترسل إليها بالسفن ؛ وكان هناك طريق مزود جيداً باللوازم يصل بينها وبين قفط (Coptos) على نهر النيل ، على حين كانت الحديقة الرئيسية للفيلة تقع بمدينة ممفيس . واحتفظت الدولة فى البحر الأحمر بأسطول ضخم، وقاية من القراصنة.

ولما خسرت مصر سورية ومنطقة بحر إيجة فى عهد بطلميوس الخامس ، نجم عن ذلك تغيير فى موقف مصر نحو التجارة الهندية، إذ أنها أصبحت آنذاك مضطرة أن تعتمد اعتماداً كلياً على الطريق الجنوبى . وحدث أيضاً فى عهد بطلميوس الخامس نفسه أن صيد الفيلة أخذ يتضاءل ، ولم تلبث المنظمة التى أنشئت لذلك الغرض أن تحولت للوقت إلى هدف آخر هو حماية التجارة وإن وضعت تحت قيادة حاكم الإقليم الطيبي (Thebaid) ؛ وصارت مهمته فى (١٣٠)

تضم الإشراف على السفن وجمع الياقوت الأصفر ، وحماية من يجلبون البخور عن طريق قفط . ووجه قدر أكبر من الالتفات إلى النقل البحرى إلى أعلى البحر الأحمر حتى الإسكندرية ، ليكون هذا الطريق منافساً لتجارة القوافل عند السبأيين. ونشطت حركة النقل نشاطاً عظيماً على ذلك البحر أثناء القرن الثانى ، فأسست فى الشمال مدينة كليوباتريس بالقرب من السويس ، وأسست فى الجنوب أرسينوى الجنوبية وهى لا تبعد كثيراً عن باب المندب . ودفع فيلوميتور أيضاً بالحدود أعلى النيل حتى جنوب وادى حلفا ، وأنشأ مستقرات جديدة . ومن المحتمل أن يكون القواد المصريون وصلوا من قبل فى وقت مبكر من القرن الثانى إلى « قرن الجنوب » وهو رأس غردفوى ببلاد الصومال ، وهى التى سميت فيما بعد باسم رأس التوابل ؛ ولم يؤسسوا أبنية مصانع ، بل استكشفوا قبائل كثيرة غريبة من المتوحشين وضموهم إلى المتوحشين الوحيدين المعروفين حتى آنذاك لدى الإغريق وهم أكلة السمك فى جدروسيا (Gedrosia) الذين استكشفهم نيآرخوس ، وأطلق على الساحل بأكمله من خليج السويس إلى رأس غردفوى اسم ساحل تروجوديت (وهى تكتب عادة تروجلوديت خطأ) وسمى شعوبه باسم أكلة السمك وأكلة الجذور وأكلة الترسة وأكلة النعام وأكلة الجراد .

حتى إذا قارب القرن الثانى نهايته تزايد الطلب فى إيطاليا على منتجات بلاد العرب وبلاد الهند تزايداً جعل هذه التجارة أهم كثيراً لدى الإسكندرية منها فى أى وقت مضى ، على حين أن البطالمة أسعدهم القدر بحظين : فتحطمت دولة سبأ ، كما حدث حوالى (١٢٠ — ١١٧) فى عهد بطلميوس يورجيتيس الثانى أن بحاراً هندياً التقط بين الحياة والموت فى البحر الأحمر وهو الوحيد الذى ظل على قيد الحياة بين زملائه البحارة ، وبارشاده تمكن يودوكسوس من أهل كيزيكوس ، وكان يعمل فى خدمة بطلميوس من أن يكون أول أوربى قام برحلة بحرية إلى الهند وعاد منها ، بمحاذاته للساحل . وأفضت هذه الرحلة إلى استكشاف الرياح الموسمية الجنوبية الغربية واقترن هذا باسم هيبالوس ؛ وإن كان هذا الكشف دون ريب معروفاً لدى الهنود من زمن بعيد ، وهو أمر سهل نسبياً على الملاحين المخاطرة بالخروج من باب المندب . ومن يومها

صارت سفن من أعقب ذلك من البطالمة تزور الموانى الجنوبية ببلاد العرب ، فاستكشفت سقطرى وبذلت بعض الجهد فى تحطيم احتكار الوسطاء العرب ، بل كانت أحياناً تمضى فى رحيلها حتى تبلغ الهند ، بيد أن الرحلات الأولى التى اتجهت مباشرة عبر المحيط الهندى إلى جنوب الهند ليست أقدم من عام ٤٠ — ٥٠ بعد الميلاد. ووطد البطالمة الأخيرون أقدامهم فى مضيق باب المندب بإعادة تأسيس مدينة ديرى على المضيق باسم برنيقة الجنوبية ، على حين شرعت مايوس هورموس الأقرب منها تحل محل برنيقة الجنوبية كمرفأ لمدينة قفط . ولما وافت ٧٨ ، إن لم يكن فى وقت أبكر لعله عام (١١٠ — ١٠٩)، كان الحاكم العام (Epistrategos) على الإقليم الطيبي قد أصبح أيضاً قائداً للبحر الأحمر « والمحيط الهندى » ، وهو اسم جديد يشير إلى قيام علاقات منتظمة مع الهند . فأما التجار الهنود فقد شرعوا من جانبهم يفدون مباشرة إلى موانى بلاد الصومال وظهر الهنود فى مصر . فإن شاهداً حجرياً لمقبرة نقشت عليه هيئة العجلة والترزولا (وهى حربة ذات ثلاث شعب) يشهد بوجود البوذيين بالإسكندرية . وبفضل هذه الرحلات عرف الناس جنوب الهند لأول مرة . ويعدنا الفلفل بأمارة قيمة على وصول محاصيل جنوب الهند . وقبل ذلك بزمن بعيد وجدت مقادير ضئيلة منه طريقها إلى بلاد الإغريق ، وإن كان ثيوفراستوس يعده عقاراً طبياً ، ومتى علمنا أنه حدث فى عام ٨٨ ، أن رجلاً بأثينا كان يملك ملء نصف جالون من الفلفل بمنزله ، كان معنى ذلك أن حدثاً جديداً قد وقع . من هذا نرى أن التجارة مع الشرق واستكشاف أرجائه كان يحدث فيها تطور متواصل طوال تلك الفترة البطلمية ، وعندما اقترحت كليوبطرة السابعة التخلى عن البحر المتوسط والاتجاه إلى حكم البحار الهندية بدلاً منه لم يكن حديثها لغواً ، ولعلها قد تكهنت سلفاً باراء ألبوكرك .(١)

أما عن رأس غردفوى وهل سار أحد قط فى ذلك الزمان إلى الجنوب منه ، فذلك أمر يتوقف على قصة أخرى رواها بوسيدونيوس . فإنه يقول إن «يودوكسوس» سار فى رحلة أخرى بعد ذلك محاذياً شاطىء أفريقيا « وراء بلاد إثيوبيا » وأنه أحضر معه مقدم سفينة محطمة قيل إنه مقدم سفينة من قادس بأسبانيا ، عندئذ ذهب إلى قادس وحاول أن يدور بسفينته حول إفريقيا

(١) البوكرك ١٤٥٣ — ١٥١٥ القائد البرتغالى البحرى الذى وضع أساس الاستعمار البرتغالى بالشرق الأقصى (انظر للمترجم « آسيا والسيطرة الغربية ») .

إلى الهند سائراً فى إثر سفينة قادس ، ولكنه عاد أدراجه عند جنوبى مراكش بالضبط لخلاف نشب بينه وبين ملاحيه . وهذه القصة ممكنة تماماً ، ولكن تشوهها التفاصيل السخيفة — مثال ذلك أنها تظهر يودوكسوس بمظهر الجاهل بالنظم البطلمية المتعلقة بالتوابل المستوردة ، وما كان بوسيدونيوس بالرجل الذى يستطيع أن يفرق بين الصدق والكذب ، ولا هو يقول لنا لماذا يصدق هذه القصة بينما هو لا يصدق رواية هيرودوت عن طواف الفينيقيين حول إفريقيا . وربما جاز قبول الدور الذى لعبه يودوكسوس ، فأما قصة سفينة قادس فينبغى أن يكون حكمنا فيها بأنها « قضية لم تتوافر فينا الأدلة » .

وكان المنافس الرئيسى للبطالمة فى هذه الفترة المتأخرة هو البطراء تلك المدينة النبطية المدهشة ومعنى الاسم باليونانية « السكنى فى شقوق الصخور » . ولما أن احتل البارثيون بلاد بابل وتحكموا فى الطريق الأوسط الآتى من بلاد الهند ، أصبحت البطراء من أعظم أسواق آسيا ، فإن أهلها فضلا عن تجارة القوافل أخذوا آنذاك يضعون أيديهم على تجارة البحر عن طريق العقبة (أيلانا Aelana) وهى إيلات الحاضرة ، كما أنهم قطعوا مستوردات مصر المباشرة من العلا (ديدان)عن طريق امبيلون ميناثها ببلاد العرب ، والراجح أن ذلك كان بالاستيلاء على امبيلون وتسميتها اسما جديداً هو لوكى كومى . فمدوا سلطانهم شمالا كما مدوه جنوباً ، بل لقد بلغ بهم الأمر أنهم ظلوا يحكمون دمشق مدة من الزمن ابتداء من (٨٥). وكان بالبنط نبوغ فى التجارة ، وقد تنبه الإغريق إلى حقيقة عجيبة هى أنهم لم يكونوا يختلفون ويحتكمون قط إلى القانون ، ومن المحتمل أنهم كانوا شأن تجار الصين يحافظون على كلمتهم بشرف .

فإذا انتقلنا إلى تفاصيل التجارة ، التقينا منذ البداية بحقيقة عجيبة ، هى أن جميع ما كتب فى الهللينستية على ضخامته لم يسجل التاريخ فيه كتاباً واحداً يعالج التجارة صراحاً على مبلغ أهميتها . وما التجارة الهللينستية فى أغلبها إلا كقرطاس عفت على مادرس من سطوره تجارة الإمبراطورية الرومانية ، مثلما غطت على شبكة الطرق الهللينستية الطرق الرومانية ، ومن العسير على المرء

منا أن يقتصر فى بحث الموضوع على السير إلى الخلف والابتداء من الظاهرة الرومانية المعروفة لنا بدرجة أحسن . ولا شك أن بعض المواد التى توافرت لدى المصنفين المتأخرين هللينستية بحتة ، بيد أن هـــذه تحتاج إلى تحليل دقيق .

كان الفرس قد نجحوا فى إبعاد التجار الإغريق عن وسط آسيا والأجزاء الداخلية منها ، وذلك على حين نشطت التجارة بقوة دفع هائلة بفضل فتح أبواب هذه القارة على مصاريعها على يد الإسكندر وخلفائه ، وبفضل زيادة آسيا ومصر ثراءً وسكاناً ، والعدد الضخم من جديد المدن والمستقرات، وارتفاع مستوى المعيشة بين الطبقات العليا . ولقد ازداد حجم السفن التجارية حتى بلغ ذروته فى سفينة هيرون المسيرة القياد المسماة سيراقوزيا التى بلغت حمولتها ٤٢٠٠ طناً ، على حين أن العادة الجديدة التى استنوها وهى الإبحار المباشر من نقطة إلى أخرى بدلاً من السير بحذاء الساحل زادت كثيراً من سرعة العمليات التجارية ومداها . وعمدت كثير من المدن فى القرن الثالث إلى تحسين موانيها ، كما أن كتاب «الموانى» "On Harbours" الذى ألفه تيموسثينيز الرودسى كان يملأ نفس الفراغ الذي يشغله الآن «كتاب ربان البحر المتوسط» "Mediterranean Pilot" ووقعت كثير من المدن الإغريقية مواثيق لتنظيم وتسوية شئون المنازعات على العقود التى تنشب بين مواطنيها ، وهى حركة قامت رودس على رعايتها وبذل بعض الجهد بقصد سد الفراغ الذى أصبحت تشغله الآن عمليات المصارف والائتمان عندنا . وكانت خطابات الاعتماد معروفة لديهم ، وإن لم يعرفوا صكوك الدفع بالتبادل (Bills of Exchange) . وكان كل ملك هللينستى (فيما عدا ملوك أسرة أنتيجونس فيما يحتمل) ، تاجراً عظيماً ، كما أن بعض المدن الإغريقية حذت حذوهم وأخذت تتجر هى الأخرى ، وبذلك وجد نظام تجارة البلديات ، وبطبيعة الحال لم يحدث قط أن المناجم كانت من الأملاك الخاصة ، ولكن الذى كان يحدث عندئذ هو أن رودس وكنيدوس وغيرها كانت تصنع الجرار مما لديها من مناجم الصلصال وتضع عليها أختامها ، وكانت كل من بريني وأوروك تملك مصانع استخراج الملح ، وكانت لميليتوس مراعى للأغنام ومصانع للصوف تملكها بلدية المدينة .

وكان التجار أيضاً بنجاة من القلق الذى ينتاب أمثالهم فى عصرنا الحاضر ؛ وذلك لأن الطلب كان فى العادة يفوق العرض ، وإذا كان فى وسعك الحصول على سلعة أمكنك بكل تحقيق أن تبيعها . ولو حكمنا على الأمور قياساً على ديلوس ، لعلمنا بأن مكاسب تجار التجزئة كانت جسيمة ، إذ تسجل الكتب مكاسب قد تصل إلى مئة فى المئة ، وإن كان العرف الجارى أن عشرين فى المئة إلى ثلاثين فى المئة مألوفة أكثر .

زاد مقدار النقود المتداولة فعلاً زيادة هائلة ، وذلك بعد أن أنشأ الإسكندر عملته الدولية التى كانت أمراً ضرورياً لاغنى للتجارة المتزايدة عنه ؛ حتى إذا وافى القرن الثالث إذا بنا نجد العالم منقسماً إلى نطاقين رئيسيين للعملة . وكانت دراخمة الإسكندر مطابقة للدراخمة الأتيكية من جميع الأوجه ، واستخدمت هذا المعيار كل من أثينا ومقدونيا وتوابعها والإمبراطورية السلوقية والشرق الأقصى وبرجامة وبيثينيا وكبادوكيا والبحر الأسود (عن طريق نقد ليسياخوس) وإبيروس ، وغزت تلك العملة أيطوليا وبووتيا ، ولم تلبث روما فى النهاية أن انضوت فى هذا المضمار كذلك بجعل دينارها (denarius) معادلا للدراخمة الأتيكية . واستخدم بطلميوس الأول فى البداية المعيار الرودسى ، بسبب العلاقات التجارية الوثيقة القائمة بين رودس ومصر ؛ بيد أنه عاد بعد أن استولى على فينيقيا فانتقل إلى المعيار الفينيقى الذى ما لبثت أن التزمته رودس أيضاً فيما بعد . وكان هذا المعيار سائداً فى مصر وتوابعها وقرطاجة وإمبراطوريتها ورودس وسيراقوزا ومرسيليا . فكأن المعيارين الدوليين للنقد يعكسان الخصومة القديمة بين أثينا وفينيقيا . وكان المعيار الأيجينى لا يزال مستخدماً فى دلفى وبعض أماكن أخرى ، بيد أنه لم تكن له أهمية كبيرة ، واحتفظت كورنثة أيضاً بمعيارها القديم ، غير أن عملتها كانت تقبل مع العملة الأتيكية . وأخذت قرطاجة تجرب التجارب فى النقود المتداولة بقيمة أقل من قيمتها الحقيقية .

وفى القرن الثالث انتقل رجحان الميزان التجارى نهائياً إلى مصر ورودس وساحل آسيا ، ولكن كتاب التاريخ غالوا فى تقدير هذه الحقيقة كثيراً ، وشاهد ذلك أن الرخاء الذى كانت تنعم به ميسينى حوالى (١٠٠) (الفصل

الثالث) يبين أنه ليس من اليسير الخوض فى حديث عن فقر بلاد اليونان قبل عصر سولا . أجل اضمحلت بالتأكيد تجارة أثينا حتى عاد اليها ازدهارها أثناء النهضة فى أخريات القرن الثانى ، بيد أن كورنثة بمالها من تجارة الترانسيت بين آسيا وإيطاليا ، ربما كانت تستطيع فى القرن الثانى أن تنافس إفيسوس ، ألا ترى إلى هرقليدس كيف يقول فى (٢٠٥) إن خالكيس كان بها أحسن أسواق هلاس تموينا واعدادا ، على حين كانت بووتيا مليئة بالمال ، وأصبحت أيطوليا ثرية ثراء فاحشاً مقرونا بسوء السمعة، وازدهرت أمبراكيا بوصفها ميناء التجارة الوافدة من إيطاليا حتى حولت روما عنها التجارة العابرة إلى ديراخيوم، كما أن الفن المزدهر فى باجاساى (الفصل التاسع) يشهد باستمتاعها بحياة رغدة ميسرة. أما ما كان يحدث فعلاً فهو أن الشىء الكثير من الزيادة الضخمة فى الثروة كان يذهب إلى الأقاليم الجديدة ، فنى (١٧٠) كانت رسوم الإثنين فى المئة عن الصادر والوارد تغل فى رودس مليون دراخمة (الفصل الرابع) ، مقابل ٢٠٠،٠٠٠ فى أثينا فى (٤٠١) . ولكن من العجيب أن غالبية أكثر مدن العالم ثراء : وهى سلوقية وأنطاكية ورودس وإفيسوس وكيزيكوس وكورنثة وديلوس ، كانت تعيش على تجارة الترانسيت. وأخذت إفيسوس وهى مركز للترانسيت تتغلب باطراد على منافستها ميليتوس الصناعية ، وهذه الحقيقة تومىء إلى الدور المتسلط الذى كان يلعبه كل من انتاج الشرق ومصنوعاته فى التجارة الدولية . وإلى جوار ميليتوس كانت الحالتان الاستثنائيتان الرئيسيتان هما الإسكندرية وبرجامة بما حوتا من مصانع يعمل بها موالى الأرض والأرقاء ، وهذا فضلا عن صور ؛ على أن الإسكندرية وصور كانتا تقومان أيضاً بتجارة ترانسيت ضخمة . ومن الشائق أن نوازن بين الإسكندرية ، أعظم ميناء هللينستى ، وبين بوتيولى فى كامبانيا ، عندما أصبحت هذه المدينة الأخيرة بعد (٨٨) ميناء ورود التجارة الشرقية إلى ايطاليا . وكانت الإسكندرية تستورد الخشب والمعادن على أنواعها والصوف والثياب الإرجوانية والرخام وأنواع النبيذ الممتازة والأفاويه والخيل — وهى قائمة ضخمة . ومع ذلك فإن صادراتها وهى القمح والبردى والزجاج والكتان والبضائع الصوفية والمراهم والعطور والعاج وأدوات الترف بوجه عام — كانت تفوق وارداتها إلى درجة كبيرة . ومن هنا يتضح مصدر جزء من كنوز البطالمة .

ولكن واردات بوتيولى كانت تفوق صادراتها كثيراً ، ولما كانت مواردروما لاتفى بما للمنطقة الإيجية من العملة والنقد ، فإن الميزان التجارى كان يمثل شيئاً جديداً فى العالم : وهو النهب والسلب الذى كان يرتكبه ملتزم الضرائب الرومانى .

ننتقل الآن إلى السلع التجارية . فأما فيما يتعلق بالمعادن، فإن الفكرة العامة عنها واضحة لدينا ، ذلك أنه فيما خلا الحديد والنحاس ومعها الفضة إلى حد ما، كانت موارد حوض البحر المتوسط الشرقى من المعادن قد استنفدت ولا سيما فيما يتعلق بالذهب . فإن ذهب باكتولوس وتمولوس فى ليديا وآسيا الصغرى بوجه عام ، أصبح فى خبر كان ، شأن طبقة ذلك المعدن الموجودة بالرواسب الطينية فى إسكابتسيلى ومناجم الذهب بجبل برميون وبيريا بمقدونيا . أجل بقيت هناك بعض مناجم للذهب على امتداد نهر استرايمون ، ولكن أحداً من ملوك آل أنتيجونس لم يسك أية عملية ذهبية . وإلى الشرق كان نهر هكتانس فى كرمانيا يجلب الذهب فيما يقال ، ولا يستطيع أحد أن يقول إلى أى مدى استغل هذا الوضع . وكان ذهب الإمبراطورية الفارسية يجىء عن طريق باكتريا من مورده الأسيوى الرئيسى ، وهو سيبيريا التى كان يرد منها أيضاً التبر الخاص بغرب الهند ، على أن طريق الذهب السيبيرى سدا جميعاً فى منتصف القرن الثالث ، ولم يعد يصل الى آسيا الغربية إلا القليل من الذهب . ومن المحتمل أن ذهب أسبانيا ظل حتى (٢٠٢) يرسل إلى قرطاجة أو يمر من خلالها . بيد أن البطالمة عندما وسعوا حدودهم جنوباً فتحوا مناجم ذهب ثمينة ببلاد النوبة وفى الجبال الواقعة أعلى مدينة برنيقة الذهبية ، كما أنهم ربما حصلوا على شىء من الذهب من بلاد العرب ، وكان لهم عملة ذهبية منذ البداية . وكانت الفضة تستخرج من مناجمها بمقادير لا بأس لها على يد كل من المدن والملوك بآسيا الصغرى ، وقد كان جبل بانجانوس فى مقدونيا يستغل طوال تلك الفترة ، وإن كانت منطقة لاوريوم قد أخذت تتأخر فى انتاجها باطراد حتى لم يعد يستغل منها فى عهد أوغسطس إلا الحفر العميقة فى قيعان الأنهر بيد أن مقدارا كبيرا جداً كان ينتقل نحو الشرق من أسبانيا وهى خزانة الإمبراطورية ، حيث « لم يكن للفضة أى حساب » : ولا بد أنها

كانت تجيء من قادس إلى قرطاجة أو فينيقيا . وعندما رغب جونا حوالى (٣٠٠) أن يفر إلى طارطسوس (وهى فى ذلك الزمان قادس) وجدعلىالفور سفينة ذاهبة إلى هناك . كان العالم يحتاج إلى قناطير مقنطرة من الفضة ليصنع منها عملته وأدوات الترف عنده ، بيد أن الناتج كان كافيالجميع تلك الأغراض . واستطاع البطالمة أن يضعوا عملة مصر على قاعدة من الفضة وجمعوا منها كنزا عظيما ، وفى ٩١ صارت صحاف الذهب شائعة بميسيني ، وهى مدينة صغيرة بعيدة عن تيارات الأحداث (الفصل الثالث) ، وكان النحاس محتكرا تقريباً بيد البطالمة منذ استولوا على قبرص ، التى كانت فيما يحتمل غنية جداً بالنحاس بحيث لاتخشى حتى منافسة أسبانيا لها . بيد أنهم لم يستغلوا قط مناجم النحاس بشبه جزيرة سيناء ، التى أخذت فى الواقع تنتقل إلى يدالنبط . واستغل نحاس يوبيا ، ولكن أسرة أتالوس كان لها بعض مناجم محلية . وكان الحديدلايزال موجودا فى كل مكان ، ولئن نضبت مناجم معينة مثل مناجم لاكونيا ، فقد كانت هناك ركاز ثمينة منه بالجزر لم تكد يد تمسها . وكانت أجود أنواعه (وهى التى تقارب الصلب) التى تجيء بحرا إلى كزيكوس ، — مما ينتجه الخاليبون (Chalybes) (الفصل العاشر) الذين كانوا مشتتين عندئذبأرجاء بنطش وأرمينية . وفى القرن الأول تسامع الناس بصيت الحديد الصينى الذى كان يستورد إلى بارثيا عن طريق مرو . وكان القصدير يردمن كورنوال وبريتانى ، حيث جاء فى البداية عن طريق قادس وقرطاجة ، ولكن طريقه تغير بعد (٣٠٠) فأخذيتحول بدرجة متزايدة إلىطريق نهراللوارفالجارون ثم بطريق البرالى مرسيليا . ومن المحتمل أن شيئاً منه كان موجودا بأسبانيا ، على أن الحديث عن « جزائر القصدير » إما أن يكون حديث خرافة أو من قبيل سوء الفهم . فأما الزئبق الذى كان يظهر على شكل الزنجفر (الزئبق الاحمر) وهو يستخدم فى صنع السيلقون فكان يستخرج من مصادر ثلاثة : هى مناجم كبا دوكيا التى كانت تمون فى الماضى سينوب «بترابها السينوبى » ومناجم زيزيما الجديدة بالقرب من لاؤدئكيا « المحترقة » فضلا عن ركاز منه قرب إفيسوس ، وكانت الكمية بأكملهاتجيء آنذاك إلى إفيسوس .

وعلى الجملة كان التعدين أسوأ وصمة منى بها التاريخ الهللينستى . فإن هناك

حكايات مروعة تروى عن القتل وإزهاق الأرواح بمناجم الزئبق فى لاوريوم وكابا دوكيا . ولكن حسبنا أن نقتبس من أجاثرخيدس كلمة فى وصف مناجم الذهب النوبية ، التى كان البطالمة يستغلونها لا باستخدام الأرقاء والمجرمين فحسب (وهى العادة المتبعة) ، بل وبأسرى الحرب الذين ربما كانوا من اليونان الأحرار . وكان الشبان الذين يزحفون وعلى رؤوسهم المصابيح ، يحفرون الأنفاق ويشقون طريقهم بأيديهم فى حجر الكوارتز متتبعين عروق الذهب . ويسحب الأطفال إلى الخارج الكوارتز المنحوت من الصخر ، على حين يكسره بالمطارق الرجال الأكبر سنا ، وبعد ذلك تتم عملية التمهيد للغسل بالماء : فتطحن القطع المتكسرة لتتحول تراباً فى طاحونة الحجر التى لاتديرها الثيران ولا البغال — بل النساء اللائى كن يعملن عاريات ، ثلاثا لكل طاحون . وكان يحرسهم نوبيون مسلحون ، وكانوا جميعاً مقيدين بالأغلال يضربون بالسياط ويشتغلون دون أدنى راحة أو عناية بأجسامهم ، وكانوا جميعاً فيما قال أجاثرخيدس ، يرحبون بالموت من صميم أفئدتهم متمنين أن يوافيهم .

أما عن المواد الغذائية ، فإن القمح كان فيما يرجح أعظم السلع التجارية جميعا بما فيها الفضة الخام ، وكانت أثينا وكورنثة وديلوس وجزر كثيرة أيونيا وربما أيضاً مدن أخرى ، — تستورد القمح عادة ، على حين أن أكبر البلاد المنتجة له هى مصر (ومعها برقة) وبلاد القرم . وكانت بلاد اليونان تتمون به من مصر وبلاد القرم . فلما أن أخذ المصدر الثانى يضمحل فى القرن الثانى ، كانت نوميديا مستعدة لتتبوأ مكانه ، وفى (١٨٠) أرسل ماسينيا إلى ديلوس قمحا بسعر رخيص . ولسنا ندرى هل كانت دولة بابل تنافس مصر فى تزويد أيونيا بالقمح ، ولا ماذا كان القوم يصنعون بفائض القمح البابلى . ومرد ذلك أننا لاندرى شيئاً مطلقا عن الأمور الداخلية فى دولة السلوقيين . وكانت صقلية تصدر بعض قمحها إلى بلاد اليونان ، ولكن مهما يكن الأمر فإن أحداً لايرتاب فى تفوق مصر التام فى سوق القمح . وأهم مستودعات تجارة القمح الدولية هى رودس وديلوس (الفصل السابع) . أما النبيذ فينتج فى كل مكان على أن أجود أنواع النبيذ كانت مما اختص به قطران : شمال سوريه التى كان نبيذها يصدر من لاودكيا (اللاذقية) على البحر ، وأيونيا هى والجزر الساحلية (عدا ساموس) . وكانت لسبوس وخيوس وكوس وكنيدوس وإفيسوس

وأزمير وتمولوس وكاتاكيكومينى البركانية ذات شهرة عظيمة بالنبيذ . وكانت الإسكندرية تصر على احتساء الأنبذة السورية والأيونية مهما تكن المكوس المقررة عليها إصرار لندن على احتساء الشمبانيا ، على حين أن نبيذ اللاذقية كان يصدر حتى الى جنوب بلاد العرب ؛ وكان السبب فى امتناع أيونيا عن زراعة القدر الكافى من القمح هو انتشار كروم العنب بها ، وذلك لأن الكروم كانت تغل فى نفس المساحة خمسة أضعاف انتاج القمح تقريبا . أما عن بقية أنواع الأطعمة ، فإن أثينا كانت تصدر أجود أنواع الزيت ، . وكانت أثينا وجزر السيكلاديس تصدر عسل النحل وتصدر بيزنطة السمك المملح الذى كان بعضه من سلع البحر الأسود المعاد تصديرها ، وكانت بيثنيا تصدر الجبن ، وبنطش الفاكهة والبندق ، وإقليم بابل وأريحة الملح ، وهناك التين المجفف الذى تنتجه أنطاكية على نهر المياندروزبيب كوس وبيروت . كما أن برقوق دمشق سلعة ذائعة الصيت . وكان السكر الهندى معروفا ولكنه يستخدم فى التداوى .

أما عن المنسوجات ، فالإسكندرية كانت أهم مصدر للتيل والكتان ، وكانت منافستاها الوحيدتان هما بورسيا آكلة الخفافيش وكولخيس ؛ وقد ظهرت صناعات الكتان فى إيليس وبلاد اليهودية بعد ذلك بزمن بعيد . وكانت كل من أيوليس وبرقة تنتجان الصوف ، كما أن برجامة والإسكندرية كانتا تصدران الأقمشة الصوفية ، الا أن المركز الحقيقى لصناعة الصوف هو ميليتوس ، فإن صوف أغنامها كان حتى آنذاك أحسن ماقى العالم من صوف ، وإن كانت ليديا كلها وفريجيا بأكلها تغزل الصوف . وكانت القطعان العظيمة من الأغنام تغشى المنطقة المحيطة ببحيرة تاتا الملحة التى كان ماؤها يباع بالنقود ، ومنطقة كاتاكيكومينى التى كان صوفها ينسج فى لاءودكيا على نهر ليكوس . ولا شك أيضاً أن صناعة الصوف ازدهرت أعظم ازدهار فى سورية ، وذلك لأنه ليس من المعقول أن تبدأ تلك الصناعة فى عهد روما كاملة الازهار . وكانت لأماكن عديدة سلعها التى تخصصت فيها : فاشتهرت برجامة مثلا بأستارها وقماشها المنسوج بقصب الذهب وأيوليس ببسطها وقيلقيا بعباءاتها الخشنة . وذلك على حين أن الإسكندرية كانت تنتج أيضاً بضائع رخيصة تتجر فيها مع

الشعوب الإفريقية السوداء . والقطن الذى كان يزرع فيما سلف من الزمان بآشورصار إذ ذاك معروفاً بوصفه تحفة من التحف . ولا يخالجنا شك فى أن الموسلين الهندى كان يستورد ، وذلك أثناء القرن الأول على الأقل . ولم يرد حرير الصين إلى الغرب قط حتى فتح تشانج كان فى (١١٥) طريق القوافل الأسيوى الأوسط ، ولاشك أنه وصل من بعدها إلى بارثيا ، ويحتمل أن المنسوجات الحريرية الصينية كانت معروفة بمصر فى القرن الأول ق . م. ولكن يمكن القول جملة أن جميع الحرير المستخدم آنذاك ، كان يستخرج من دودة القز البرية بآسيا الغربية . وكانت كوس تستورد الشرانق طوال تلك الحقبة وتنسج خيوطها نسيجا شفافا لملابس النساء ، وأثرت كوس ثراءً عظيما من تقلبها بين تجارة النبيذ والحرير والعلاج بالإيحاء الدينى ، بيد أن «ثياب كوس» لم تكن إلا إسماً تجارياً ، ومن المؤكد أن فينيقيا قامت بها للحرير صناعة ضخمة (تقوم بتصنيع مستوردات بلاد العرب) ، وذلك لأن الحرير شاع استعماله فى البلاد حتى لقد حرم على النساء بعيسينى لبس الثياب الشفافة أثناء أداء بعض الطقوس الدينية . على أن حرائر كليوبطرة كانت صينية فيما يحتمل ، سواء أكانت تجىء عن طريق بارثيا أو بالبحر من الهند .

ولو سردنا على مسامعك قائمة كاملة بسلع التخصص المعروفة الإنتاجية منها والصناعية ، أى السلع التى اختصت بها الأماكن المختلفة لطالت القائمة كثيراً . لقد كانت الإسكندرية تزود العالم بالورق (البردى) ، وتزوده الإسكندرية وصيدا بالزجاج ، وإن قيل إن صناعة الزجاج كانت نادرة بمصر قبل عهد الرومان . وكان الرق إحتكارا لبرجامة وحدها ابتداء من القرن الثانى ، ولكن القصة القائلة بأن يومينيس الثانى هو مخترعه ، كاذبة مافى ذلك ريب . ذلك أن الرق كان معروفاً منذ القدم ، وكل مافعله ذلك الملك أنه استخدم ثروته فى اقتناء الماشية وصناعة الجلد ، كما استخدم عبيده فى إنتاجه على أساس الإنتاج الكبير . وتنافست مقدونيا وجبل إيدا فى إقليم ترواذة فى تزويد العالم بالقار ، وكان لآل أنتيجونس نظام لرسوم الواردات أو الرخص تمكنوا بمقتضاه من تخفيض الأسعار لأصدقائهم ورفعها بالنسبة لأعدائهم . وكانت مصر تستورد القطران اللازم للتحنيط من مصايد أسماك البحر الميت ، وكان القطران مادة

متوفرة فى بلاد بابل ، وكان التراب المخلوط بالقطران والمستخدم فى وقاية الكروم من الحشرات يصدر من رودس وسلوقية الواقعة على سفح جبل بيريا. ولم يواصل أحد قط عملية استكشاف الإسكندر لزيت البترول على نهر جيحون (أموداريا) . وكانت لرخام بوپوس قيمته فى كل مكان وجد به ، وبعد (١٦٦) كانت لأثينا تجارة فى رخام جبل : بنتليكوس ، واستخدمت أنواع أخرى كثيرة منه وإن كان ذلك فى بعض الأحيان بصفة محلية ليس إلا ، ولكن يغلب على الظن أن ذوق الاستمتاع بالرخام الملون الوارد من يوبيا وثاسوس والرخام المموج أو المعرق من مصر وتينوس والاتجار فيها جميعاً ، كان فى معظم أمره نزعة رومانية ، وذلك لأن الرومان هم الذين فتحوا مناجم الرخام الأخضر فى تيجيتوس ، واستغلوا الرخام المشرب بعروق حمراء والمجلوب من دوكيميوم ، وهو شيء لم يكن يجرى استخدامه أثناء العصور الهللينستية إلا على قلة شديدة . وكانت مقدونيا تزود بلاد الإغريق بالخشب ، كما أن مصر الفقيرة فى الأشجار أخذت تستمد العون فى هذا المجال من خشب الأرز بلبنان (وكان على الدوام من الممتلكات الملكية) ،ومن أشجار صنوبر قبرص وبلوط باشان ، على حين مدت يدها عن طريق أرسينوى الواقعه بقيليقية لتأخذ ماتستطيع أخذه من غابات جبال طوروس . حتى اذا فقدت امبراطوريتها الشمالية كانت قد أعدت نفسها لاستيراد الخشب من الساحل التروجوديتى . وكانت الأخشاب النادرة تجىء من بلاد بنط(١) والصومال ، كما أن الأبنوس وهو المعروف فى ديلوس ومصر كان يرد من الهند . وكانت النوافذ فى انحاء العالم تصنع من الميكا الشفافة الواردة من كبادوكيا . وكانت مصر تصدر شيئا من الجرانيت، وذلك لأنه كان يستخدم حوالى (١٣٠) فى بناء المرافىء الجديدة للسفن بديلوس . وكان محار الأرجوان والأسفنج يستخرجان من أماكن كثيرة ببلاد الإغريق ، ولكن صباغ الأرجوان كان لايزال الصناعة الرئيسية بفينيقية، التى عاشت فيها صور وأرادوس فى رغد مفرط وارتفع شأن الصباغة أيضاً فأصبحت صناعة عظيمة فى أيونيا وغرب آسيا الصغرى .وظل العاج الوارد من الهند احتكاراً للسلوقيين ، حتى طرح بطلميوس الثانى بين (٢٦٩ ، ٢٥٠) قدرا من العاج الأفريقى فى السوق، كان كافيا لخفض السعر السائد آنذاك . ذلك أنه لابد أن العاج الافريقى أخذ يتغلب باطراد على منافسيه بسقوط دولة

(١) بنط : اسم أطلقه قدماء المصريين على المنطقة المحيطه ببوغاز باب المندب (المترجم)

الماورياس واستغلال موارد إثيوبيا . وفى القرن الأول قدم البطالمة هبات فاخرة من العاج لمعبد ديديما (Diydma) . واشتهر القرن الثالث وأوائل الثانى بتدفق مستمر من الرقيق إلى المدن الاغريقية من تراقيا وسوريا وآسيا الصغرى (الفصل الثالث) ، حتى لقد كان بديلوس قبل عام (٢٠٠) ذاته فيما يحتمل سوق للرقيق ، وإن قام على نطاق محدود . وأخيراً نذكر بنطش التى لم تستغل ثروتها العظيمة استغلالاً حقيقياً حتى القرن الأول ، فإنها كانت هى المصدر الرئيسى للعقاقير الطبية .

أما عن أدوات الترف : فالجواهر كانت تجىء من الهند وبلاد العرب ، وإن كانت مصر تنتج الجمشت وتحصل على الياقوت الأصفر من البحر الأحمر والزمرد من تلميس بإثيوبيا ، وكانت الهند والخليج الفارسى ترسلان اللؤلؤ ، وهو شىء لم يعرف قبل عصر الإسكندر ، ولكنه صار آنذاك موضع التقدير العظيم من النساء كحلى يتحلين بها . وهل كانت النساء تستخدمن الأحجار الثمينة ؟ ذلك شىء يخيم عليه الشك الكثير . كان الماس مجهولا ، وأحجار الياقوت نادرة ندرة مفرطة ، وفيما عدا اللؤلؤ لم يتناول ثيوفراستوس إلا مسألة استخدام الأحجار المستعملة فى حفر الجواهر . وكان الصرد (العقيق الأبيض) الوارد من سارديس وبابلونيا ذا شهرة ملحوظة ، وازدهر فن النقش على الجواهر فى الإسكندرية . على أن هناك تجارة توقفت ، هى تجارة الكهرمان . ذلك أن هجرات الغالة قضت على النظام المتبع فى طريق الكهرمان القديم الممتد من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتى . وتحول الكهرمان إلى تحفة من التحف وظل كذلك إلى أن أعيد فتح ذلك الطريق فى عصر نيرون . وكان محار السلاحف يجلب من الهند ومن الساحل التروجوديتى ، وذاعت شهرة الإسكندرية كمركز عظيم لفن الصياغة ، على أن تجارة الترف الحقيقية انحصرت فى التوابل . وقد اشتد عليها الطلب اشتداداً بالغا . وكانت الهند ترسل القرفة والدارصينى وسنبل الطيب الهندى من جبال الهملايا ، والناردين وصمغ البدليوم النباتى (والأخيران كانا يأتيان أيضاً من جيدروسيا) وفضلا عن اللبان كانت بلاد العرب ترسل أيضاً المر . وكانت بيسيديا تنتج شجيرة الميعة (وهو حصا البان) وأنواعاً مختلفة من الصموغ ، ولعل ذلك هو مرد الرغد الذى كانت

تنعم به مدينة سلجى . وكانت بحيرة جنسارث تنتج ممار الحصر الفاخرة وكانت أريحا تحتكر البلسم ، وقد منعت زراعة هذا النبات فى كل مكان (مثلما فعل المولانديون يوما بالقرنفل)(١) ماعدا حدائق البلسم الشهيرة التى أهداها ماركوس أنطونيوس بعد ذلك لكليوبطرة ، وربما كان نبات البلسم مقدساً شأن أشجار اللبان (انظر ما بعده) ، وذلك لأن العادة جرت بقطعها بسكين من حجر ، وهو أمر ربما نم عن بعض الشعائر الدينية القديمة . وكانت القرفة ذات قيمة عظيمة جداً ، على أن تجارتها كانت بأيدى العرب دون غيرهم ، حتى لقد حسب الإغريق أنها تنمو فى بلاد العرب وبلاد الصومال . وتركزت تجارة التوابل بالإسكندرية . كما أصبحت رودس هى مستودعها للتصدير ، وكانت التوابل احتكاراً ملكياً ، ويشرف عليها موظف يجب أن نسلم إليه كل التوابل الواردة لمصر ، وكان صنع هذه الواردات مراهم وعطوراً وتصدير السلع المجهزة منها يؤلف صناعة عظيمة . فأما معنى المرهم وقيمته آنذاك فيمكن إيضاحه من أن الدهان الذى كان يستخدم فى تتويج ملوك البارثيين كان يحتوى على سبعة وعشرين عنصراً مختلفاً . وذلك فى مقابل أربعة فقط كانت تستعمل فى المادة المعدة لرسامة الكاهن الأعظم بأورشليم . والظاهر أننا لا نعرف ما الذى كانت الهند تأخذه فى مقابل صادراتها ، ولكن كان المظنون أن جنوب بلاد العرب لا يأخذ إلا شجيرات الميعة (حصا البان) ونبيذ لاؤدكيا ، وزجاج الإسكندرية ومنسوجاتها ، ومن هنا نشأت الأسطورة القائلة بأن جنوب بلاد العرب كانت تتفجر فيه ينابيع الثروة المتكدسة ، وهى أسطورة لعبت دورها قويا فى حملة جالوس (Gallus) السيئة الطالع فى عهد أغسطس .

وهناك سلعة واحدة هى اللبان الذكر كان لها مقام خاص بين السلع الأخرى جميعاً ، وذلك لأنها كانت من شئون الدين قدر ما هى من شئون التجارة . إذ لم يكن فى الإمكان الاستغناء عنها فى القيام بأية عبادة سواء أكانت إغريقية أم يهودية أم بربرية . وكان دخانها يتصاعد فوق كل هيكل « بالعالم المأهول : المسكونة » وكانت المقادير المطلوبة من هذه السلعة عظيمة ، وقد استولى الإسكندر فى غزة على مقدار من اللبان تزيد زنته على ٦٠٠ تالنت ،

(١) انظر للمترجم « آسيا والسيطرة الغربية » تأليف بانيكار (الدار المصرية)

وكان هيكل بعل فى بابل وحدها يستهلك منه أكثر من ١٠٠٠ تالنت سنويا . وكان موطن اللبان هو المنطقة الساحلية بجنوب بلاد العرب من جبال اليمن باتجاه نحو الشرق خلال حضرموت إلى ما وراء سهل ظُفار . وكانت أشجاره مقدسة ، ولم يكن يجوز لأى إنسان استنزاله من أشجاره إلا لرجال من عائلات معينة . ولا يتم ذلك عندئذ إلا بطقوس دينية ، وذلك لأنهم كانوا بذلك يسيلون دم الحياة من كائن مقدس ، وكانت الأشجار نفسها يستجلب رضاها فى أثناء استنزال العصارة منها بحرق بخور الميعة (Atyrax) لها ، كما يحرق للآلهة. وكان العمال بمصانع الإسكندرية التى يعالج فيها اللبان يجردون من ثيابهم عندما ينتهون من العمل ويفحصون كما يفحص العمال السود من الزولو (الكافير) بمناجم الماس بكمبرلى . ومع هذا فإن الاغريقى كان من ضآلة الحظ من الترف بحيث إن هذا المحصول الذى يقدرونه فوق كل محصول ، كان بعد كل ما تتكلفه رحلته الطويلة بالقوافل من نفقات وما تتعرض له من أخطار ، يحصل عند وصوله إلى المنطقة الإيجية على ثمن للرطل الواحد يعادل بالتقريب أجرة أسبوع لصانع ماهر . وما ندرى ما إذا كانت مصر نجحت فى الحصول على اللبان مباشرة عن طريق الصومال دون وساطة العرب ، فإن ذلك مما لا سبيل إلى استجلاء حقيقته .

وكانت الشعوب التجارية الكبرى — عدا الإغريق — هم عرب الجنوب والنبط الذين سبق ذكرهم ، ثم الفينيقيون . ولقد بلغ الأمر بالتجار الفينيقيين أن أقدموا على اتباع خطى الإسكندر فى زحفه المروع فى إقليم جيد روزيا ، كما أن مستقراتهم فيما بعد على جزيرة ديلوس تشهد بأن حيتهم لم تتأثر قط . وليس هناك دليل يدل على أن اليهود لعبوا أى دور خاص فى التجارة . ويقول يوسيفوس صادقا إنهم لم يكونوا شعباً تجاريا . وكانت مدينتا رودس وكيزيكوس لا تسمحان بدخول غير الإغريق إليهما ، ولكن تلك حالة غير عادية . وكان التجار الأجانب الذين بإحدى المدن يؤلفون على الجملة جمعية تضم شمل أبناء وطنهم ، وربما أحضروا معهم آلهتهم ، وربما كان من أمثلة ذلك هيئة الفينيقيين البوسيدنيين بديلوس ، الذين كان مبناهم يحتوى على معبد وسقائف بأعمدة لعرض البضاعة وعلى مبان إضافية أخرى . ومع ذلك

فهناك من الجمعيات ما لم تقم على رابطة وحدة القومية ، بل على وجود نوع خاص من التجارة ، كتجار الزيت الإيطاليين بديلوس ، أو الجمعيات التى كان ينشئها بأثينا والإسكندرية جميع تجار التصدير . وشهدت الفترة الهللينستية التالية ظاهرة جديدة ، هى ظهور التاجر الرومانى بشرق البحر المتوسط . ومما شجعه على ذلك إنشاء ميناء ديلوس الحرة فى (١٦٦) وتكوين « ولاية آسيا » فى (١٣٠) .

وعبارة التجار الرومان تضم تحتها كل من كان له ولاء لروما ، حتى لقد كان بعضهم من اليونان الإيطاليين . وكان أول من عُرف منهم بديلوس هم سردون ، وهو « رومانى » فى ٢٥٩ ونوفيوس فى ٢٥٠ وميناتوس وهو من كمبانيا فى ٢٢٠ ، ولم تحل ٢٣٠ حتى كان بعضهم ينزل فى إبيروس . وصار عددهم كبيراً ببلاد الإغريق عام (١٣٠) ، حيث كانوا إلى حد كبير أكثر الهيئات عدداً بديلوس ، وحيث أخذوا يتدفقون على آسيا ، ومما سهل عليهم السبيل تداول الدينار هناك (الفصل السابع) . وقد أصبحوا فى (٧٤) موفورى العدد فى بيثينيا ، ولكنهم لم يتوغلوا بآسيا الصغرى شرقاً أكثر من هذا ، بيد أنه حدث بعد أن ضم پومبى سورية إلى دولة الرومان ، أن صارت جالية قوية منهم تسكن أنطاكية ، ووصلوا إلى البطراء فى عهد أوغسطس ، ولكن ذلك لم يتم إلا وقد أوشكت البطراء أن تصبح محمية رومانية . وقد ظهروا بالإسكندرية منذ ١٢٧ فما تلاها ، ولكن لم يكن لهم كبير وزن ، وكانت أكبر مساهمة من روما قبل عهد أوغسطس فى تنشيط حركة التجارة المصرية هى إنشاء خط سياحى يرتاده السياح فى أعالى النيل . ولم يكن التاجر الرومانى فى البداية مكروها من الناس فى بلاد الإغريق وآسيا ، وكثيراً ما كان يغدو مواطناً ويتزوج امرأة يونانية ويملك الأرض ويسهم فى حياة المدينة ، بل ربما عين فى منصب الحاكم ، وأرسل ابنه إلى الجمنازيوم وجعله ينضوى فى سلك الشبيبة (Ephebate) ، وكثيراً ما كان بعضهم مثل زوسيموس فى پرينى يقلدون أثرياء الإغريق بإنفاق المال بسخاء على أعمال البر والخير بالمدينة . وكانوا ينشئون بيوتاً تجارية منظمة ولها فروع . بيد أن كثيرين منهم لم يكونوا من الأحرار ، فإن هناك ٢٣١ رومانيا معروفة أحوالهم بديلوس ، كان منهم ٨٨

من الأحرار (وفيهم ٢٧ يونانيا) إيطاليا ؛ و٩٥ من العتقاء ، و٤٨ من الأرقاء، وهى حالة يقال إن نسبة الأحرار فيها عالية . وكان السناتو الرومانى يتوقع منهم أن يتبعوا قوانين المدينة التى بها يقيمون ، (بل يصدر إليهم الأوامر بذلك أحياناً) ، بيد أنهم امتازوا بميزة هائلة على منافسيهم من الإغريق والشرقيين ، حيث كانوا يستطيعون أن يتحولوا من قانون المدينة إلى القانون الرومانى، وغالباً ما كانوا يفعلون ذلك، ويحصلون على مزايا المراسيم أو التيسيرات التى يأذن لهم بها بعض الولاة الرومان السمحاء من قبيل المجاملة ، وكان الميزان من الناحية السياسية جانحاً نحو مصلحتهم . وهذا هو أحد الأسباب التى دعتهم إلى التشبث بالعيش فى الأقطار الواقعة تحت الحكم الرومانى . وانتهى هذا الوضع ولا سيا فى آسيا بإثارة تذمر لم تكن المنافسة التجارية هى السبب فى وجوده ، وذلك لأن الإغريقى لو أتيح له العدل والمساواة فى المعاملة لاستطاع الصمود فى موقفه فى تلك الحلبة بالذات ..

وفى ١٦٦ حطمت روما قوة رودس وكسرت شوكتها بجعلها ديلوس مرفأ حراً ، أعنى أنها ألغت الرسوم والمكوس المقررة على الاستيراد والتصدير والميناء، ومع أن رودس ظلت متعشة من الناحية التجارية ، فإن ديلوس سرعان ما استولت على مكانها كمركز لتجارة الترانسيت الدولية فى بحر إيجه . وأدى تدمير كورنثة فى (١٤٦) إلى إتاحة فرصة أخرى لديلوس كذلك . وقد أخذ الشك يتسرب الآن إلى الرأى الذى قال به الأستاذ مومسن متضمناً أن روما دمرت كورنثة لأغراض تجارية . إذ ليس محتملاً أن كورنثة كانت تقصى الرومان عن المشاركة فى تجارتها ، ومع أن تدميرها صادف فى النهاية بالمنفعة الجزيلة على الرومان النازلين بديلوس ، فإن من المشكوك فيه أن موميوس نظر فعلا نظرة بعيدة إلى هذا الحد ، والراجح أن هذا التصرف القاضى بتحطيم كورنثة لم يكن إلا مجرد تحذير لبلاد اليونان . وفى إمكاننا أن نعلم شيئاً عن تجارة بلاد الإغريق نفسها بعد (١٤٦) بملاحظة المواطن والأماكن التى كان التجار الرومان ينزلون بها . فإن مجموعتهم القوية فى تسبياى توحى بأن تسبياى هذه حصلت على بعض ما كان لكورنثة من تجارة الترانسيت ، كما أنهم اجتاحوا إبيروس لأن ذلك القطر المقفر قد حول آنذاك إلى تربية الماشية والخيل .

والظاهر أن مينائى سالونيك (تسالونيكا) وباتراس (بتراى) الحديثتين كانتا لا تقومان آنذاك إلا بالقليل من التجارة ، وسقطت تسالونيكا بسقوط أسرة أنتيجونس ، وعندئذ انتقل المركز التجارى لمقدونيا إلى أمفيبوليس مرة أخرى ، على حين أن التجارة الإيطالية لم تنفك تعتبر الأدرياتى من برنديزى إلى أمبراسيا ، كما كان يحدث أيام الملك بيروس ، ولم تصبح باتراس ذات أهمية إلا منذ جعلها أوغسطس مستعمرة . والتجارة الوحيدة التى يظن أن الرومان أنشأوها هى تزويد إيطاليا بالتماثيل (الفصل التاسع) .

ولم تبرح ديلوس فى القرن الثالث محتفظة بمركزها بوصفها الجزيرة المقدسة ، بيد أن تجارتها كانت تزداد باطراد كلما زاد الرخاء فى المنطقة الأسيوية الواقعة فيما وراءها ، كما يتجلى ذلك من التناقص المتواصل فى الإيجارات الزراعية بعد ٢٥٠ والزيادة الهائلة فى إيجارات المساكن (الفصل الثالث) ، وكانت تلك الجزيرة بالفعل سوقا عظيمة للقمح ، يفد إليها موظفو دولة أنتيجونس من تسالونيكا ، والراجح أنها كانت تدين بجزء من رخائها إلى مساعدة أسرة أنتيجونس . وقد زينها كثير من الملوك بالمبانى ، ومن أمثال ذلك تلك المنازل التى شادها بطلميوس الأول للسفينة التى دشنها ، والسقائف المعمدة (الساباطات) التى ابتناها أنتيجوس جوناتاس وأتالوس الأول وفيليب الخامس ، وقد أقيمت هذه الأخيرة بالتحقيق ليستخدمها التجار وعندما منحت روما تأييدها لأثينا فى (١٦٦) لم تكن تلك الجزيرة مجردة من الاستعدادات الطيبة التى تؤهلها لتكون مركزاً تجاريا دولياً على الرغم من سوء حال مينائها ، فلما أن صارت تحت حكم أثينا وأرباب الإقطاعات الزراعية (cleruchs) من الاثينيين الذين طردوا أهالى الجزيرة الديلوسيين ونزلوا بها حدث تدفق عظيم للأجانب عليها ، وتقاطر الرومان إليها ليلتقوا بالشرقيين ، كما فعل الشرقيون ليلتقوا بالرومان . وانعكس أثر نجاحها وانتعاشها على سيادتها ، وظلت أثينا حتى (٨٨) تستمتع برخاء مقلقل كصيف الهند ، وأخذت السفن تؤم من جديد ميناء بيرايوس ، وتزايدت الثروات وحل رجال الأعمال محل أصحاب الأراضى القدماء ، وغدت العائلات الكبيرة العدد شيئاً مألوفاً ، وفضلا عما كانت تصدره اثينا من الرخام المستخرج من جبل بنتليكوس والتماثيل ، كانت تصنع أدوات

منزلية كثيرة كالزهريات والمصابيح والأسرة . ولكن هـذا الرخاء تولد عن حيف عظيم وقع بأهـالى ديلوس ، كما أنه لا يرجع إلى الأثينيين أنفسهم ، بل إلى الرومان والفينيقيين الذين كانوا يعملون بديلوس تحت ستار أثينا .

وفى عام ١٣٠ قام رقيق ديلوس بثورة ، فأسقط فى يد أصحاب إقطاعات الأراضى من الأثينيين ، ولم يتم القضاء على الثورة إلا بتكاتف مجتمع الماليين وأرباب الأعمال بأكملهم . ومن ثم فصاعدا انتهى سلطان أصحاب إقطاعات الأراضى وزال حكمهم ، وصار لديلوس نوع فريد فى بابه من أشكال الدولة ، وهى شكل الدولة المكون من الجاليات (Politeumata) بعد أن تقدم خطوة أخرى إلى الأمام : فصارت جمعيات أرباب الأعمال من الأجانب هى قوام المستوطنين ، ويظهر أنهم صاروا بمجموعهم يمثلون «ديلوس» ، دون أن يكون لها فيما يبدو أى شكل من الأشكال المعروفة للمدن ، ولكنها كانت تحت سيطرة حاكم أثينى ، وكان معنى ذلك أن التقاليد السياسية أخضعت لمقتضيات التجارة ومستلزماتها . ولئن كان الذهب يستطيع أن يخلق عصراً ذهبيا ، فإن ديلوس آنذاك أصبحت تنعم بذلك العصر . لقد حظيت بجزء من تجارة رودس فى الترانسيت ومعظم تجارة كورنثة فضلا عن جميع ما اكتنزته من الثروة نتيجة لإقبال إيطاليا المتزايد على سلع الترف . وأقبل الأفراد والهيئات على تشييد المبانى على أوسع نطاق ، وقسمت البيوت الموجودة إلى طوابق للسكن ، وشيدت مستودعات جديدة لتخزين البضائع على طول الجبهة البحرية ، مع إنشاء أرصفة مكسوة بالجرانيت المصرى ، وفى (١٢٥) تم بناء الميناء الصناعية التى دام العمل فيها طويلا ، وهناك نشأ عدد ضخم من المعابد والمخازن وأماكن كثيرة كانت ملتقى القوميات المختلفة ومستقر عباداتهم ، وبلغت هذه الحركة أوجها فى نهاية القرن ببناء ساحة السوق للإيطاليين ، وهى أبنية بنيت بناء رخيصا . والشطر الأعظم منها محلى بتماثيل لا تبعث إلهاماً وبأشكال من الفسيفساء منقولة عن فن أقدم منها . وكانت عناصر من شعوب آسيا المختلفة تلتقى هناك : — ما بين مصريين وفينيقيين وسوريين ورجال من بنطش وبيثينيا ، وأحضر المتأون من جنوب بلاد العرب معهم ربهم

« واد » ، وفى ١٠٠ صار بالجزيرة يهود شادوا لأنفسهم بيعه . . وأخذت الجمعيات والهيئات الفينيقية تقلل باطراد بين القرنين الثالث والأول من سمعتها الدينية وتزيد من نزعتها التجارية . وكان الأثينيون خاصة يمثلون الإغريق كما يمثلهم أقوام ذوو نزعة عالمية مثل سيالوس القبرصى ؛ الذى حصل على مواطنية تارنتم وسجل اسم ابنه فى أحد أحياء أتيكا ، وهناك قلة وفدت من بلاد الإغريق نفسها ومن مقدونيا والجزر أو من المدن الآسيوية الإغريقية القديمة . . وكان أقوى العناصر جميعها إذ ذاك هم الرومان ، وكانوا يلقون الرعاية الخاصة من الحكام الأثينيين ، حيث كانت أثينا على الدوام صديقة لروما ، وصاروا إذ ذاك أصحاب السلطة الحقيقية فى الجزيرة .

واختصت ديلوس بتجارة الترانسيت المحضة دون غيرها من التجارة ، وكانت تتلقى بوصفها ذاك جميع أنواع التجارة الوافدة ، على حين أن الخليط الكبير من السكان المكدسين على الجزيرة الصغيرة جعلها بالضرورة مستودعاً للمواد الغذائية ، بيد أن جزءاً كبيراً من ثروتها كان يرجع إلى سبب غير كريم . ذلك أن نظام المزارع الكبيرة الذى أخذ ينتشر فى إيطاليا وصقلية ، كان يتطلب جماهير غفيرة من الأرقاء ، على حين أن رودس التى ضعفت سياسياً ، لم يعد لها أى أثر فى كسر شوكة القرصنة ، وتعاهدت ديلوس والقرصنة عهداً دنساً بأن تزودا إيطاليا بما تحتاج إليه من هذه السلعة البشرية وأصبحت ديلوس أعظم سوق للرقيق عرفه العالم حتى ذلك الحين ، وعندما أخذ الضعف يدب فى أوصال الحكومات الشرقية ، أخذت النخاسة تقتنص رعاياها وتستنزف سكانها ، فيقال إن نصف عدد السكان قد سحب من بثينيا ، وقل من الإغريق من كان طاهر اليدين من ناحية الرقيق والنخاسة ، بيد أن انحطاط ديلوس وتدهورها حين وقعت تحت تأثير روما شىء صريح لا خفاء فيه ، وذلك لأنه بينما كان أبولون فى دلفى الإغريقية يبذل قصارى جهده لتحرير الأرقاء ، كان أبولون على تلك الجزيرة العالمية التى لا وطن لمن فيها ، ينظر باحتقار إلى تلك الحال من عدم المساواة القائمة بصورة لم تشهدها من قبل أية أرض إغريقية : وهاهى الجزيرة التى كانت فى يوم من الأيام مقدسة لا يجوز التقاتل بين الناس داخل حدودها ، صارت تفاخر بأنها تستطيع بغاية اليسر أن تسلم أكثر من عشرة آلاف عبد فى اليوم . لقد كان ذهب ذلك العصر الذهبى ملوثاً دون أدنى ريب .

وانعكس ظل عار ديلوس على أثينا ، ولكن لا يبدو أن أحداً من الإغريق عدا الأثينيين كان يقوم بدور كبير فى هذه التجارة الشائنة ، التى كان الشطر الأكبر منها يقوم به الرومان والشرقيون. وأخيراً تفاقمت قوة القراصنة وزادت جرأتهم بعد أن نظموا أنفسهم كدولة لها كيانها بقليقلة الغربية — فاضطرت حكومة الرومان إلى التدخل ، وعندئذ كفت ديلوس عن الترحيب بسوط العذاب ، ولكن التاريخ أوقع بها نكال عدالته ، فإن المدينة بعد أن نهبت (٨٨) على يد أحد قواد ميثريداتس حليف القراصنة ، عادت فى النهاية فدمرت فى (٦٩) تدميراً نهائياً باعتبارها مركزاً تجاريا . وكان ذلك على يد أحد قباطنة سفن القراصنة .

أما عن التجارة بعد تلك الكارثة الكبرى فى (٨٨) ومذبحة التجار الرومان بآسيا (الفصل الأول) ، فلم يعد لدينا إلا القليل من القول عنها هنا . وبحسبك أن بلاد الإغريق وديلوس لم تفق قط من هذه الكارثة ، وحلت بوتيولى « ديلوس الصغرى » محل ديلوس كمستودع للتجارة الشرقية الوافدة على إيطاليا ، وسار الشرقيون فى أعقاب التجارة ، ومن ثم كان ينزل بوتيولى مستوطنون من النبط والفينيقيين ومن هليوبوليس (بعلبك) وبالميرا (تدمر) . وعاد التجار الرومان إلى التقاطر على آسيا بعد التسوية التى أبرمها سُلا ، ونحن نعرف عن هيئات ضخمة منهم نازلة بمواطن عدة ، على حين أن النبط كانوا ينزلون ميليتوس . ولم تتأثر الإسكندرية بتلك الكارثة ، بيد أن فينيقيا لا بد أنها كابدت كثيراً من جراء تمزق الكيان السلوقى فيما وراءها ، كما أن متاعب آسيا بوجه عام على يد نفر من القواد المتنازعين فى الحروب الأهلية الرومانية لا بد أنها عادت على التجارة بالكساد ، والراجح فى هذا المجال وفى كثير غيره ، أن إعادة السلام والحكومة الكريمة واستقرار الأوضاع على يد أوغسطس جاءت متأخرة جداً .

الفصل الثامن

الأدب والعلوم

كان من الطبيعي بعد الوثبة الكبرى للحضارة التي تولدت عن أعمال الإسكندر ، أن يتزايد تزايداً هائلا عدد أولئك النفر الذين يحاولون أن يعبروا على الملأ بطريقة ما عما يجول بخواطرهم . وكلما تقدم العصر انتشر التعليم انتشاراً عظيماً ، ولكنه كشأنه اليوم لم يشكل جمهوراً واحداً بل جمهورين اثنين ، أحدهما خاص بتعليم ذوى المواهب والآخر خاص بالتعليم فى نطاق أعم وأشمل لمن أوتوا من العلم حظاً يؤهلهم للقراءة بنهم وشراهة ، ولكنها ليست قراءة جدية ، ومن ثم أنشأ الكتاب لكل من الجمهورين ما يقرآن ، أحدهما أنشأه المتخصص فى المادة وثانيهما سطره صاحب القلم فى الأدب الشعبي . وكان تنظيم عمليتي إنتاج البردى على يد الإغريق ، ثم إنتاج الرق من بعده بالإضافة إلى استخدام العبد المتعلم مما ساعد على إصدار الكتب على نطاق واسع لم يعرف له مثيل حتى آنذاك ، وظهرت بالتبعية على الفور ظاهرتان ، أولاهما : رجل الادب ، الذى كان يكتب لا لأنه كان لديه شيء يقوله ، بل لأن كتابة الكتب تعليقا على كتب أخرى كانت شيئاً لذيذاً وممتعاً ، وثانيتهما : مُحبا اقتناء الكتب مثل أربليكون من أهل تيوس (حوالى ١٠٠) ويرجع إليه الفضل فى استكشاف جزء من مكتبة أرسطو كان مخبأ فى قبو . وقد هيأت العواصم الهللينستية الكبرى للكتاب أن يتجمعوا فى مراكز معينة أو يتوافروا على خدمتها ، وهى مراكز كان يقطنها جمهور وفير العدد ، على حين أن تحسن وسائل المواصلات وانتشار نوع مشترك من الحضارة واستعمال « لغة واحدة مشتركة » فى شطر كبير من « المسكونة أى العالم المأهول » ، — كان معنى ذلك كله أنه حتى الرجل الآتى من مدينة أجنبية مثل بوروستنيز أو أرتميتا ، كان يضمن أن يجد جمهوراً يقرأ له ، وفى الإمكان إنشاء قائمة كبيرة بأسماء كتاب من ولايات الفرات بل حتى مما وراءه شرقا ، وكانت مدينة كسوسا مثلا تدور فى دائرة الفلك الثقافى الإغريقى تماما . وكان حكام الممالك الجديدة

على الجملة يعاونون ذلك كله ، بل كانوا أحيانا متحمسين له ، وأصبح العلم قوة ، ثم صار حينا من الدهر يوضع بمنزلة الثروة . وربما صار الشعراء أو المؤرخون أصدقاء للملوك ، وأصبح علماء فقه اللغة أو المهندسون المعماريون سفراء لهم ، وحدث ذات مرة أن اقتباسا تجلى فيه الاقتدار غيّر مصير إحدى المعاهدات . وشرع الكتّاب يقحمون شخصياتهم ويبرزونها بدلا من إخفائها[1] ، أجل لا يستطيع إنسان أن يركن إلى الحدس فيتصور شكل ثوسيديدس ولا شكل مؤلف قصة « أهاب وإيليا » ، ولكننا جميعا نعرف بوليبيوس والواعظ .

وفوق كل هذا ، كان الملوك يؤسسون المكتبات بعواصمهم وحواضر بلادهم . ولعل فكرة المكتبة قد انتقلت إلى القوم عبر الحقب من بلاد آشور وبابل ، ولكن العالم الإغريقي قبل الإسكندر لم يكن يظهر فيه إلا بين الفينة والفينة طاغية يبلغ من الثراء ما يمكّنه من جمع الكتب ، ولئن أتيح لأرسطو أن يكون أول من أسس مكتبة خاصة على أى معيار من المعايير ، فقد كان السر فى ذلك أن الإسكندر كان يزوده بالموارد المالية . وقد ظهرت آنذاك مكتبات الدولة بكل من أنطاكية وبرجامة ، كما ظهرت فيما بعد برودس وأزمير وربما بمدن أخرى أيضا ، ولكن كان يغطى على كل ذلك تلك المكتبة الذائعة الصيت المقامة بحى البروخيون (Bruchcion) بالإسكندرية ، وهى المكتبة التى أسسها بطلميوس الأول وتم تنظيمها وتنسيقها فى عهد بطلميوس الثانى الذى أسس المكتبة « الإبنة » بالسرابيوم ، ولعل ذلك كان ابتغاء إيجاد نسخ أخرى من الكتب . وفضلاً عن المكتبة أسس بطلميوس الأول الأكاديمية بالإسكندرية. وسواء أكان ديمتريوس الفاليرى هو الذى أعطاه الفكرة أم لم يكن ، فلقد كان إنشاؤها متمشياً مع الروح التى أوجدها أرسطو . ومع أن أثينا احتفظت لنفسها بالفلسفة منذ ذلك الحين ، فقد سطعت الإسكندرية وغلب ضياؤها على أثينا تماماً ، فصارت الإسكندرية مركز العلم والأدب ، وصارت تجذب إليها

---

(١) فى هذا إشارة إلى ميل قدماء المؤلفين إلى إخفاء شخصياتهم ونسبة مؤلفاتهم إلى كتاب لامعين أقدم منهم . (المترجم)

المشتغلين بهما من كل صوب . ولسنا ندرى إلا الشيء القليل عن الأكاديمية (Museum) وهى تضم شمل هيئة من العلماء ، على رأسها كاهن لربات الفنون (Muses) ، وكانوا يعيشون ويعملون داخل المبنى على نفقة بطلميوس، وقد رفعت عنهم بفضله جميع الأعباء الدنيوية . وكان تيمون المتشكك يسميهم « بالدجاج المسمن فى الأقفاص » . وقد ألغاها يورجيتيس الثانى ، ولكن يظهر أنه أعيد تشكيلها فيما بعد . ووكلت شئون المكتبة إلى أمين من الموظفين، كان إلى جانب ذلك مؤدبا لولى العهد . وكانت السفن من كل بلد تنزل لفائف الكتب على الأرصفة ، ولم يتم فرزها وتنظيمها إلا بعد أن تقدم العهد طويلا بحكم بطلميوس الثانى ، وقد اجتمع فيها من لفائف الكتب عند القرن الأول ما لعله يبلغ سبعمائة ألف لفة ، وإن كان ذلك الرقم غير مؤكد . ولم يكن ما أحرقه قيصر هو المكتبة بل كان إما كوماً من الكتب على رصيف الميناء وإما كتبا كدست هناك لتحمل من البلاد ؛ ولكن ماركوس أنطونيوس ما لبث أن عوض كليوباطرة عنها بمكتبة برجامة التى تبلغ عدتها مائتى ألف لفة ، وإن كنا لا ندرى هل نقلت هذه الكتب فعلا أم لم تنقل. وقد مزقت مكتبة الإسكندرية ودمرت تدميراً جزئياً فى ٢٧٢ م ، عندما أحرق أورليان حى « البروخيون ».

وأمناء المكتبة الذين شغلوا المنصب إبان عصرها الذهبى هم زينودوتس من إفيسوس وأبولونيوس الرودسى وإراتوسثنيز (الفصل التاسع) وأرستوفانيز البيزنطى ، ثم أبولونيوس آخر ثم شخص اسمه أرستارخوس من ساموتراقيا . ومن المحتمل وإن يكن أبعد ما يكون من المحقق ، أن كاليماخوس تولى أمانة المكتبة بين زينودوتس وأبولونيوس : وكان أربعة على الأقل من هؤلاء الرجال من علماء فقه اللغة ، وقدر لفقه اللغة الذى أسسه من قبل براكسيفانيس من ميتيلينى تلميذ ثيوفراستوس أن يجد بالإسكندرية مجالا فسيحا وأن يصبح أساسا لتحصيلها العلمى . وابتدع زينودوتس نقد النصوص بمقارنة المخطوطات بعضها ببعض ، كما أن المدرسة الإسكندرانية أسست وأقرت نصوص الأدب الكلاسيكى الإغريقى وأسلمتها وديعة للخلف كما أدخلت نبرة النطق على مقاطعها . وثبت زينودوتس نصا معترفا به لأشعار

هوميروس ، ماحياً منها كثيراً من الشعر المدسوس . وتوافر أرستوفانيس وأرستارخوس على دراسة هذا النص ، كما أن نسختنا المعتمدة الحالية هي في الغالب نسخة أرستارخوس . وعولج كثير من أعمال الكتاب الآخرين بمثل هذه الطريقة . وبدأ زينودوتس أيضا عملية تنظيم الكتب : فتناول شعراء الملاحم والشعر الغنائي ، وتناول مساعداه الشاعران ليكوفرون والإسكندر الأيتولي التمثيليات ، واختص الأول منهما بالكوميديات والثاني بالتراجيديات ، ونظم كاليماخوس المؤلفات النثرية ، وأنشأ قائمة المكتبة ونشرها ، وهي عمل هائل باعث للذهول يسمى البيناكا (Pinakes) كان بمثابة مرشد للمؤلفين يحتوي على التراجم وغيرها من المعلومات ، وكتب أرستوفانيز ملحقاً للقائمة على حين أن عملا آخر مماثلا أنشئ بعد ذلك لمكتبة برجامة ، ولعل مصنفه هو كراتوس من ملوس . لقد جعل هؤلاء الرجال من فقه اللغة علماً ظل الكثيرون يعملون فيه حتى أيام الرومان ، وأخرجوا التعليقات والنقد ، وأدبا كاملا يتألف من الكلمات النادرة ، فكان هذا أساس وضع المعاجم كقائمة الكلمات المقدونية التي جمعها المقدوني أميرياس . وقد أمكن رد جزء من تعليق ديديموس الإسكندري (قرابة ٤٠) على ديموستنيز إلى حاله الأصلي . وهو والحق يقال عمل ضخم يدور حول ديموستنيز مليء بالاقتباسات المنقولة عن عن المؤرخين ويزودنا بمادة تاريخية نافعة . وكتب ديديموس عن معظم المؤلفين ، ويقال إنه أنتج كتبا أخرى (٣٥٠٠ لفة) تزيد على ما أنتجه أي رجل قبله أو بعده ، وقد اكتسب بحق كنية الرجل الجسور أو صاحب الأمعاء النحاسية (Chalcenteros) .

ولو أدخلنا في حسباننا العلوم والفلسفة لوجدنا عدد المعروفين من الكتاب الهللينستيين يزيد على ١١٠٠ ، ولكن معظمهم ليسوا إلا أسماء لا أكثر ولا أقل ، وذلك أن الكتلة الكبرى من الأدب الهلينستي قد بادت تماما . وكل ما نملكه منه إن هو إلا حطام ، وإن كان ما تخبئه لنا مصر بين طيات رمالها يزيد في مقدار ذلك الأدب يوما بعد يوم . ولكن الواقع أن هذا العدد القليل من أسماء الكتاب الهللينستيين هو الذي بلغ القسطنطينية — فكيف حدث هذا ؟ إن التعليل المتواتر لهذا الأمر والقائل بأن رد الفعل الأتيكي في القرن الثاني للميلاد جعل الناس

ينظرون نظرة الاحتقار إلى الإنتاج الهللينستى، — ليبدو تعليلاً غير كاف ؛ وذلك لأن أقبح أنواع الأساليب الهللينستيه وهو الآسيوى كان لا يزال حيا بعد ذلك بقرنين من الزمان . ولا مراء أن المختصرات التاريخية الملخصة نقلاً عن ثلاثة مصادر متوالية أدت فى النهاية إلى القضاء على المؤرخين ذوى الأصالة. والروح الهللينستية نفسها هى المسئولة عما ساد من مغالطة خاصة بأقصر الطرق إلى المعرفة . ثم إن كثيراً من الكتاب اندثروا أيضاً لأن مؤلفاتهم لم تكن تقرأ بالمدارس . فإن إحدى المدارس كانت تستخدم فى ٣ — ٢ ق م. كتاباً ألفه يودوكسوس فى الفلك البائد العهد والطراز . ولكن الواقع على وجه الجملة أن أسباب تلك الكارثة الكبيرة والدور الذى لعبته روما فى ذلك لا تزال غامضة .

وربما جازلنا أن نبدأ بالشعراء . فلقد أوشك أن يكون مصير الشعر فى عهد الإسكندر القضاء المبرم بسبب عظم وزن الأساتذة الكبار وطول باعهم فيه بصورة أيأست اللاحق من تقليد السابق . فإن أحداً لا يستطيع اللحاق بهم ، كما أن معاناة الشعر أمر لا يكاد يستحق أن يحاوله الناس . والاسم الوحيد الذى أوتى شهرة منذ عصر يوريبيدس هو أنتيماخوس من كولوفون ، وديوانه المسمى الليـد (Lyde) هو مجموعة من القصائد القصيرة حول موضوعات الحب ، وجهها إلى خليلته ، وقد قلدها أسكليبيادس من ساموس (حوالى ٣٠٠ ، وهى غنائيات أكثر منها مراثى) ، وأسكليبيادس هو الذى ابتدع نوع الشعر المسمى « بالأسكليبيادى » ، كما قلدها هرميسياناكس من كولوفون (حوالى ٢٩٠) ، وهو الذى ذكر أسماء أفراد منوعين من ذوى الأهمية — وقعوا فى شرك الغرام فى زمانهم — وهى مادة ضعيفة جداً ، كما حاكاها فيليتاس من كوس (حوالى ٣٠٠) . وقد أظهر أبناء عصر أوغسطس تقديرهم لمراثى فيليتاس لزوجته بيتيس . على أن مؤدب بطلميوس الثانى ومؤلف المعجم اليونانى الأول كان يعيش فعلاً فى دائرة العلماء التى كونها، ومنهم زينودوتس وهيروداس وكاليماخوس وثيوقريطس . وهذا النوع من شعر الغزل أثر من حيث الشكل فى بروبرتيوس . ولكن مستقبل الشعر فى

بلاد اليونان انحصر فى شعر الحكمة وهو النوع الذى كان فيه أسكليبيادس أستاذاً مبرزاً .

واستمر إنتاج المآسى (التراجيديات) فى مقادير يعتدبها ، وذلك لأن مقادير منها كانت لازمة للاحتفالات ، الجديد منها والقديم ، وقد أوتى سبعة كتاب من القرن الثالث الشهرة المؤقتة ماخول لهم أن يسموا باسم : عناقيد الثريا (Pleiad) ، ولكن الشخص الوحيد الجدير بالذكر هو لوكوفرون الصديق الشاب لمينيديمس ، الذى عاد إلى أسلوب فرينيكوس وكتب فى موضوعات عصرية : ومن ذلك مسرحية له تمثل آلام بلدة كساندريا تحت حكم ديكتاتوريتها البروليتارية ومسرحية ساخرة عن أستاذه مينيديمس ، حيث لا شك أنه نحا نحو أفلاطون الكوميدى فى استخدامه لأشكال سيلينوس القبيحة المحفورة(١) ، فحاول جعل المحارة العجيبة الشكل تكشف عن القدرة الإلهية الموجودة . وقد بقى لنا من هذه المسرحية وصف أخاذ لوجبات العشاء الشهيرة التى كان يقيمها مينيديمس وهى ولائم كانت تقام لاعتصار بنات القرائح أكثر منها لاحتساء بنات الحان وكذلك الملهاة (الكوميديا) فإنها ظلت تزدهر طوال ذلك القرن ، وإن أذنت وفاة فيليمون فى (٢٦٢) بنهاية خير عصورها . وكان شكلها — وهو المسمى « بالكوميديا الجديدة » ، أو كوميديا السلوك الخالية من جوقة المرددين (الكورس) ، وهى من حيث الأصل تنتمى إلى أرستوفانيز ، — أشد أنواع الأساليب الفنية شيوعاً وأكثرها استخداما بأثينا فى ذلك الوقت . (ونحن نعرف من كتابها حوالى سبعين كاتباً) ، ولكنها كانت أثينية روحاً ودماً بصورة استحال معها كل بذل من محاولة لنقلها إلى الإسكندرية أو لأى مكان آخر . ومن عجب أن وفاة فيليمون وقعت بالصدفة على نحو درامى فى موعد تصادف وقوعه وانتهاء أهمية أثينا سياسياً . والاسم العظيم الذى اشتهر بالكوميديا الجديدة هو ميناندر (المتوفى ٢٩٢—٢٩١) ، وقد استخرج من بين دفائن مصر الآن القدر الكافى الذى يمكننا من أن ندرسه دراسة مباشرة ، وليس عن طريق ما سطره عنه تيرنس فقط . وأهميته لعصره أمر لاشك فيه ، هذا إلى أن الاقتباس منه سهل سهولة هائلة ، وهو ما يسر له سبيل الخلود ، وقد أصبحت

---

(١) سيلينوس (Silenus) : إله يونانى . وهو مربى باخوس وتصوره الأساطير والساتير بصورة بشعة وأخلاق داعرة . (المترجم)

ثلاثة من أبياته أمثالا إنجليزية(*) . وكان خفيف الروح رشيق الأسلوب أقرب إلى نفوس خليلات الرجال منه إلى نفوس زوجاتهم ، ولذا طبع على التاريخ الأدبي طابعا دام حتى عهد شكسبير وموليير ، وليس من ذنبه أن عمد الناس إلى ما نقله عن الحياة (بصورة ما) فجعلوه تقليداً جامداً أمد قرون عدة . واعتاد الناس أن يمدحوه دون قيد ولا حد ، ولا شك أنه كان يعمد إلى حسن الإخراج ، في حين أنه بين الفينة والفينة يبرز شيئا أجود بين تضاعيف تسامحه الهين اللين ، فيستطيع فعلا أداء هذه الشخصيات — مثل شخصية دافوس في رواية البطل (Hero) وجلوكيرا في رواية « بريكيروميني » Perikeiromene أي الحليقات . ولكنه يلوح هو ومقلدوه في عين كاتب هذه السطور كأنما هو أشد الصحراوات جدبا في دنيا الأدب . فليست الحياة مكونة من أولها لآخرها من غواية للنساء ومن أطفال منبوذين وغير مرغوبين ، ولا من مصادفات تسنح ولا من اكتشاف للبنات المفقودات من زمن بعيد ولا من آباء مغيظين وعبيد وقحاء . أجل لا شك أنه التقى في حياته بهذه الأمور ، ولكن على الرغم من أن شخصياته طرز شائعة بين الناس ، إلا أن الحياة ليست قياسية وعلى وتيرة واحدة . ومع ذلك فإن العالم اختار أن تكون الحياة طرازية وقياسية . وعلى أساس المادة التي نستقيها من « الكوميديا الجديدة » يسود الاعتقاد التقليدي بتدهور أثينا ، وربما فات أوان قلب هذا الحكم إلى ضده . ولكن في وسع كل من شاء أن يستنتج من المسرح المتدني في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين صورة لتدهور انجلترة مثيرة أكثر كثيراً من تلك . فإذا كان ينبغي لنا أن نعيد النظر في الحالة الأخيرة فنقدرها حق قدرها ، فلماذا إذن نقبل الحالة الأولى على علاتها ؟ .

وفيما عدا الكوميديا ، كانت نهضة الشعر متركزة إلى حد كبير على الإسكندرية . ذلك أن هدف الناس في كل مكان من قول الشعر كان المحافظة على الشعر حياً وليس تحدي الأساتذة العظام ، وتحقيقاً لتلك الغاية كانوا

(*) وها هي ترجمة هذه الأمثال : —

١ — إنما يعجل بأحبكم إلى الآلهة .

٢ — قرناء السوء مفسدة لكريم الأخلاق .

٣ — الضمير يجنبة لأشجع الشجعان . (المترجم)

يريدون أن ينتفعوا بالاهتمامات المتعددة النواحي التي وجدت في حياة ذلك العصر الموسعة الجنبات ، وأن يخلقوا وسيلة للاتصال بين الشعر وبين ما يقوله الناس وما يفكرون فيه . واتخذ ذلك الأمر أشكالا جمة ، الرئيسية منها هي شعر التعليم والتثقيف : فمنها أنشودة الرعاة وقصيد الحكمة (وكل منهما كان يحتوي على شعر الرثاء) إلى الملحمة الرومانسية . ومن عجب أن الشعر التعليمي المرتبط بالعلوم كان هو الشكل الشعري الوحيد الذي لم يستوطن الإسكندرية ، موطن العلم . وأشهر اسم فيه هو أراتوس من سولي وكان صديقاً لأنتيجونس جوناتاس ، وكان يقضي أوقاته متنقلا بين أثينا وبلاّ ، وهو الذي كتب أناشيد زواج جوناتاس (سنة ٢٧٦) . وقصيدته «الظواهر» (Phaenomena) وهي من البحر السداسي (Hexameter) فنظم بالشعر مباحث يودوكسوس القديمة المسماة قائمة النجوم وكانت من أشد القصيد رواجا لدى القراء واستثارا بتقديرهم ، وهي التي لها الفضل في إلهام فرجيل لفكرة أرجوزته الزراعية (Georgies) ، كما أن تأثيرها ظل قائما حتى العصور الوسطى . غير أن ما لقيه هذا العمل الفلكي الجاف من إقبال شعبي وعجبة ، يعتبر لغزاً يحير اللب حقا . ويرى أحد النقاد أنه راق الجمهور الذي كان يرغب في وضع المعرفة المنقولة إليه في صورة سهلة ، ويرى آخر أن الناس رحبوا بما في القصيدة من استقامة وبساطة نظراً لشعورهم بالارتياح لتخلصهم هنا من اغترارات الشعراء وتيههم في الخيال . وربما كان التعليلان صادقين كليهما ، على أني أفضل أن أعلل أسباب نجاحها بصورة رئيسية بما عمدت إليه من تصوير لمذهب الرواقيين الخاص بالعناية الإلهية المتجلية ، في نفع النجوم للملاح والفلاح — وهي نغمة دقت على الفور في الافتتاحية النبيلة الشبيهة «بالنشيد العظيم» الذي دبجه كليانثيز (Cleanthes) ، وكان اقتباس القديس بولس لها بمثابة تحبب للرواقيين . وضرب أراتوس للناس طرازاً جديداً . فإن معاصره نيكاندر من كولوفون نظم بالشعر رسالة علمية في السموم والترياق نقلت إلى اللاتينية كما نظم أيضاً مؤلفات في الزراعة وتربية النحل ، قرأها فرجيل ، على حين استخدم أوفيد مجموعته التي نظمها في التغير والانسلاخ (Metamorphoses) وهناك أشعار منوعة سطرها آخرون في الفلك والجغرافيا وصيد الأسماك وكلها مدونة . ولعلها كانت ضعيفة النصيب من الشعر والشاعرية . وهناك قصيدة تاريخية باقية إلى اليوم

هى قصيدة « الكسندرا » ، التى تنسب إلى ليكوفرون ولكنها متأخرة دون ريب عن موقعة كينوسكيفالاى (سنة ١٩٧ ق . م .) ؛ وهى لاتنتسب إلى أى طبقة من طبقات الشعر . وقد بقيت إلى اليوم لأن الغموض المطلق فى تعبيرها راق علماء فقه اللغة، ولكنها أبرزت اليناقى أضيق الحدود موضوعا ضخما، هو الكفاح بين أوربا وآسيا من عهد طروادة إلى أن فرضت روما سلطانها فى البر والبحر .

وكان الأسلوب الشعرى الذى تمتاز به الإسكندرية هو أنشودة الرعاة ، وهى صورة صغيرة كاملة فى حد ذاتها ؛ وربما اتخذت أشكالا كثيرة ، وكان المقصود منها أحياناً هو الإلقاء والتلاوة . وكان أستاذ « أنشودة الرعاة » المبرز فى عين معاصريه والشاعر الإسكندرى الطرازى إلى أقصى حد هو كاليماخوس البرقاوى (حوالى ٣١٠ — ٢٤٥) ، وهو أحد رجال البلاط وعلماء فقه اللغة . وكان من تلاميذ فيليتاس ، وهو الذى جعل شعر المراثى الأداة الشائعة الطراز على الصورة التى قدر لها أن تظل عليها . ولدينا الآن بعض أناشيد، وأجزاء من قصيدته المسماة «ضفائر برنيقة » (C ma Berenices) ، كما تعرفها ترجمة كاتالوس لها كما لدينا أجزاء من الملحمة الصغيرة « هيكالى » (Hecale) ، ومن قصيدة حول موت أرسينوى ، وفقرات من أهم أعماله جميعاً ، وهى قصيدة « الأسباب Aitia » وأعنى بذلك أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات . ولولا ما خلف لنا من مقطوعات شعر الحكمة لأوشكنا أن نقول إنه لم يكن شاعراً بل عالماً تصدى لصياغة الشعر . ذلك أنه كان يستخدم كل ما فى مستطاعه من وسائل العناية والصقل ؛ وإن المرء ليدين له بالشكر على حسن صنيعه حيث تجنب النواحى العاطفية والبيانية ؛ بل لقد كان وايم الحق شديد التدقيق فى تجنبها ، وقد سماه ناقد متأخر باسم « المبرأ من الخطأ » ؛ ولعل ذلك هو تهمته الكافية . ذلك أنه لم يكن ليستطيع أن يطلق لنفسه العنان ؛ وهو فى كل ما أدخله بغاية التدقيق والأمانة من تغييرات وتنويعات على أساطير ورطازات (ميثولوجيا) ميتة — أجل ميتة حتى فى أيامه نفسها بالنسبة للمتعلمين — لم يكد يسطر بيتا واحداً فيه لمسة إنسانية ، كما لم يكتب على التحقيق بيتاً واحداً دفع نبض أى إنسان إلى الحركة . فهو صورة بلا حياة .

على أنه قد ضرب للناس معياراً يحتذى وأثر فى كثيرين ، كما أنه من حيث الشكل أثر فى كاتالوس ، بيد أنه من حيث الروح لم تكن فيه أدنى شرارة من النار التى تنفجر فى قصيدة كاتالوس « أكره وأحب» (Odi et Amo) . ولكن من أعجب العجب أن معاصره الأصغر يوفوريون (Euphorion) كان له فيما بعد أثر أكبر من أثره ، وإن كان ما جمع من شعره يبدو كأنما هو ضرب من التقليد الضعيف لكاليماخوس . وكان يوفوريون يعيش ببلاط الإسكندر الكورنثى (حوالى ٢٥٠) ، ثم صار فيما بعد أميناً لمكتبة أنطاكية ، وكان له أثر ملحوظ فى عصر أوغسطس كما أنه أثر فى فرجيل فى وقت من الأوقات .

ومع ذلك فإن أشعار الحكمة عند كاليماخوس من مستوى مخالف ، فإنه هنا يستطيع أن يؤثر فينا أحياناً . فالأبيات الجميلة التى دَبجها عند وفاة صديقه هرقليتس معروفة للكثيرين عن طريق ما نقله كارى وجونسون فى كتابهما : « أيونيكا (Ionica) » الأيونيات ، ولا يقل عن هذا جودة وإن اختلفت النغمة — قصة الرجل الذى منعه من الزواج من زوجة أدنى منه مرتبة ، سماعه الأطفال وهم يلعبون بالخذاريف ويتنادون قائلين « الزم خطك » ، أما الحديث الصغير الذى فاهت به محارة النَّوْطل فلا يفوقه شىء فى رشاقته وطلاوته . ولكن لعمرى لقد كان يريم على العصر ظاهرة هى شدة تسلط شعر الحكمة عليهم وتمكنهم فيه ، وأن الكتاب كانوا فيه لا يخجلون من إظهار ما تكنه مشاعرهم . وقد ظل شعر الحكمة هذا مزدهراً من عهد ليونيداس وأسكليبيادس فى الفترة الباكرة حتى زمن المجموعة السورية : — أنتيباتر الصيداوى وملياجر وفيلوديمس من جادارا وهم الذين عاشـوا فى فترة الاضمحلال السياسى فى القرن الأول ، حقاً إن هذا الأسلوب من مقطوعات شعر الحكمة عاش طويلاً بعد أن بادت جميع أشكال الشعر الأخرى ولم ينقرض إلا بضياع اللغة اليونانية . وأشعار الحب التى أنشدها ملياجر تستعيد برشاقتها وحنانها ذكرى الأزهار التى لشدَّ ما أحبها الشاعر ، وقد صنف لأحد أصدقائه مجموعة كان المظنون أنها أول ديوان شعرى من المختارات أو أول « باقة أزهار » حتى استكشفت فى مصر أمثلة أقدم منها . وكل ما قدمه فيلوديمس أنه صوّر الناحية الحسية المترفة فى حياة إحدى المدن السورية ،

وقد يأخذنا العجب عند ما نكتشف أنه هو المصنف الفلسفي المجدّ لبرديات هركيولانيوم .

وكان كاليماخوس هو الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه . ولكن هناك شخصاً آخر استخدم « نشيد الرعاة » بطريقة أخرى : ذلك هو ثيوقريطس السيراقوزي (المولود حوالى ٣١٥ — ٣١٢) . ولعله حصل على تلميحات وجهته تلك الوجهة من شعراء صقليين أقدم منه ، وهو مدين بعض الشيء إلى أغاني الفلاحين بحوض البحر المتوسط ، بيد أن أناشيد الرعاة التي ذاع صيتها في الأدب ، إنما هي له وحده دون سواه — وهي له تماماً بحيث أصبح المصدر الذي يستمد منه المعنى العصري للفظة « نشيد الرعاة » واستعمالاتها . والظاهر أنه قضى فترة صباه بصقلية وأمضى شبابه مع فيليتاس بمدينة كوس (وليس صديقه أراتوس من أهل كوس وهو المعروف لنا الآن من النقوش ، هو أراتوس الشاعر) ، وكان يقيم بالإسكندرية حوالى ٢٧٦ — ٢٧٠ . ولسنا ندري كم أقام بها ، وإنا لنرجو أن يكون قد حن إلى الوطن وإلى أشجار صقلية وأزهارها ، وأن يكون هو — وليس ميناكاس بطله — الذي نادى بركان « إتنا Etna » بيا أماه ! ... حين زاره . ولم ير للثروة والسلطان أدنى قيمة إزاء استطاعته الجلوس مع حبيبته في ظل إحدى الصخور ومشاهدة بحر الوطن الأزرق . والحق إنه مارس تجارب كثيرة على أشكال مختلفة من « نشيد الرعاة » ، وعلى يديه تهيأ حتى لقصيدة رسمية قيلت في مدح بطلميوس ، أو لحديث النساء السوقيات وثرثرتهن في مهرجان الإسكندرية ، أن تصبح شعراً حقيقياً . ولكن قصائد المراعي هي التي جعلت الناس يعتزون به ويقدرونه حق قدره ، إنها القصائد الغنائية المتشابهة لراعي الضأن وراعي الماعز . والفتاة المنبوذة التي تحاول أن تسترد حبيبها وتستميله إليها ، والصيادان الشيخان في كوخهما المصنوع من البوص والغاب ، وعيد الحصاد في كوس ترافقه أغنية لوكيداس الجميلة — من أجل هذا كله ومن أجل حبه للحيوان والنبات والزيزيات التي تسقسق سابحة في ضياء الشمس ، والكلب الحالم بطراد الدب وصيده ، والثعلب الصغير الذي يحوم ويداور حول غداء الصبي . إن رجاله وفتياته صور حية من الفلاحين والفلاحات . لقد بلغ بأغاني الرعويات (Pastorals)

منزلة الكمال ، ولم يترك شيئاً لمن عداه ، وكان من جاء بعده أدنى منه بكثير ، كما أن قصائد فرجيل فى أناشيد الرعاة (Eclogues) المختارة تبدو نسخا مصطنعة مما ديج ، وهى نزعة من الاصطناع ظلت تنمو حتى بلغت ذروتها فى صور الرسام واطوه (١٦٨٤ — ١٧٢١) (Watteau) (١) ، التى صور فيها الراعيات على وجوههن المساحيق وقد وسعن ثيابهن بالأطواق . وهو وحده دون الإسكندريين قد أصبح من عمد الأدب الكلاسيكى ، لأنه وحده دون غيره من الإسكندريين استطاع أن ينبذ كل ما كانت الإسكندرية تناصره وتنهض له وعاد ثانية إلى الطبيعة . وهو ليس شاعراً عظيماً من شعراء الطبيعة ، وذلك لأنه لم يستطع أن يستشف ما وراءها ، فإن « النحل الأصفر فى زهرة اللبلاب » لم يكن لديه إلا نحلاً فقط يئز أزيزاً يبعث البهجة فى النفوس . أما عظمة الطبيعة فهو لا يبدى نحوها أية مشاعر أكثر مما أبداه غيره من اليونان ؛ ومن أجل ذلك ينبغى أن نتجه فى الفترة الهلينستية إلى ذلك اليهودى غير المعروف الذى دبج « أغنية الأطفال الثلاثة » ؛ وعرف أن الله يُسبّح بحمده الريح والإعصار والفيضان والثليج . ولكن حلاوة الأشياء الطبيعية وجمالها البحت كان لها عند ثيوقريطس وجدان لم يؤته أى إغريقى آخر ، ولن يموت ما غرد غدير أو نهير فى الوادى كما غرد هو .

وتواصلت كتابة الملاحم ، وكانت إحداها على الأقل مثيرة وهى قصة ريانوس (Rhianus) (قرابة ٢٥٠) ، وتصف الحرب المسينية وبطولة أرستومينيس ، وهى قصة لا تزال بفضل استخدام بوسينياس لها تجد مكانها فى كتب التاريخ التى تقدم لشبابنا ؛ ولو لم توجد لكانت خسارتنا بها كبيرة وإن لم تزد عن قطعة من الأساطير ، والحق إن الملحمة كان لها مستقبل لا بأس به كوسيلة للتعبير عن شعور الوطنية المحلية ، وذلك أنه لما كانت المدينة قد ضاع سلطانها إزاء الملكية ، فإن الفخار بماضيها وأساطيرها كان ينمو ويتزايد ، ومن ثم نظم الشىء الكثير من الشعر الذى كان فى الغالب يسمى شعر ملاحم لتمجيد المدن والشعوب ، فكل شاعر وفد إلى إحدى المدن وألقى قصيدته فى تاريخها كان يكرم ويحتفل به بسخاء وكرم . ولكن كانت هناك ملحمة من

---

(١) أنطوان واطوه هو رسام وحفار فرنسى . (المترجم)

طراز مختلف هى « الأرجونوتيكا » لأبولونيوس الإسكندرى وهو الملقب بالرودسى ولا نزال سبب الخلاف الذى شجر بين أبولونيوس وكاليماخوس وتفاصيله ، سراً خافياً إلى اليوم . ولكن من المحقق أن « الأرجونوتيكا » تعبر عن ثورة على كاليماخوس ، الذى قال فى شأنها إن الكتاب الضخم مبعث كبير للإزعاج . وهو يحاور ويجادل مهاجماً مؤلفها ، ولكن ربما جاز لنا أن نشك فى أن هذا هو السبب الحقيقى فى مغادرة أبولونيوس للإمبراطورية المصرية . بيد أن كاليماخوس وإراتوسثنيز ، خليفة أبولونيوس ، كانا من برقة ، كما أن بطلميوس الثالث تزوج أميرة من برقة ؛ فهل كان سبب تلك الخصومة سياسياً ومظهراً لخصومة برقة للإسكندرية ؟ ومهما يكن الأمر فإن ملحمة أبولونيوس تقف علما فريداً . وهى على الجملة تمثل إخفاق رجل من العلماء . فلقد استطاع أن يرسم صورة ، ولكنه لم يستطع أن يروى قصة ، فإن للمقادير السماوية فيها صرير اً قبيحاً ، كما أن اللغة عقيمة . بيد أن جزءاً منها هو « قصة غرام ميديا » الواردة بالكتاب الثالث ، يمتاز بالإجادة بدرجة فائقة ، وللمرة الأولى والأخيرة ببلاد الإغريق جرأ إنسان أن يرسل صورة بنت وقعت حقاً فى شرك الغرام ، وكانت تلك الفتاة بنتاً معينة من كولخيس (١) وليست طرازاً من الطرز التى يصطنعها الشعراء . ولم يظهر لأبولونيوس خليفة حتى جاء فرجيل فاتخذ منه نموذجاً له يحتذيه . ولكن شخصية ميديا بالكتاب الثالث أجود تأليفاً بكثير من شخصية ديدو . ومهما يكن ما اقترفته الإسكندرية فى حقه فإنه حصل على انتقامه ، فبينما لن يقرأ أحد مدى الدهر كاليماخوس عدا الراسخين فى العلم ، فإن أبولونيوس (وإن انقطعت حلقات السلسلة) هو البشير الآذن بظهور أدب شبه عصرى .

بيد أن نشيد الرعاة وأسلوب الملحمة كانا يصنفان للمتعلمين خاصة ؛ أما أنصاف المتعلمين فكانوا أيضاً بحاجة إلى التسلية . وكان المنهل الذى رواهم هو الميماء (Mime) (٢) بنوعيها المنطوق والغنائى ؛ وكان المصدر الأصلى للأولى

---

(١) كولخيس (Colchis) إقليم شرق البحر الأسود. (المترجم)

(٢) الميماء : رواية هزلية ساخرة . (المترجم)

يرجع فى النهاية إلى صقلية ؛ كما أن مصدر الثانية هو «الأغانى الأيونية» الخليعة بآسيا الصغرى ؛ ومنذ القرن الثالث كانت الفرق المتجولة من الممثلين المحترفين لهذا اللون (المياه) قد أصبحت قوية راسخة القدم . وكانت المياه المنطوقة إحدى (الاسكتشات) التى تصور حادثة من حوادث الحياة اليومية ؛ سواء أكانت أدبية أم غير ذلك ؛ ومن أمثلتها مياه ثيوقريطس المسماة « نساء سيراقوزة » . ولدينا الآن من مصر مجموعة مختارة بأكلها لمياهات هيروداس الأدبية (حوالى عام ٢٤٠) ؛ (وهو فيما يظهر عضو آخر من أعضاء حلقة فيليتاس وهى مكتوبة فى مقطعات من البحر الغمبى الأعرج المسمى بالأسكازونى (Scazona) (١) ؛ والكثير منها يدور حول موضوعات منفرة ؛ وهى صورة تتجلى فيها المهارة ولكنها تمثل أشياء لا تستحق التصوير ؛ على أنها ذات قيمة فى توضيح الطريقة التى كان يتكلم بها عامة الناس . ومما يرتبط فيما يظهر بهذا الشكل الأدبى لون يعرف بعلم الرفث أو المجون (Cinaedology) وهو ينطوى على مصنفات تعتمد فى أساسها على الخروج عن آداب اللياقة ؛ فإن قصيدة سوتاديس (Sotades) التى قالها لمناسبة زواج بطلميوس الثانى والتى أغرقه من أجلها باترو كلوس أمير البحر بأسطول بطلميوس ، تحتوى مادة غير قابلة للنشر . وكانت المياه الغنائية تنقسم إلى صنفين : الهيلارودى والماجودى محاكاة منها على التعاقب لكل من المأساة (التراجيديا) والملهاة (الكوميديا) ؛ ولكن لو صدق أن « نحيب العذراء » وهى التوسل الحار من فتاة تقف على باب محب غادر — كانت مياه حقاً ، فإنها لم تكن أحد هذين النوعين السالفين ؛ بل قطعة أعدت لتلقى من على المسرح . وقد تهيأ للعلماء إحياء مثال للنوع الهيلارودى (Hilarody) ؛ وهو هيكل (لا بد للممثلين من ملئه بالحشو المدسوس) كما أنه محاكاة تهكمية لمسرحية «إفيجينيا فى تاوريس» ؛ وفى تلك المحاكاة يتحدث الملك المتبربر ببعض الرطان الهندى ولا يزال الأخ والأخت به يسقيانه الخمر حتى يثمل فينجوان بنفسيهما.

وقد استخدمت المحاكاة التهكمية بطبيعة الحال فى أدب أحسن من المياه ؛

---

(١) الإسكازونى : مشتقة من كلمة يونانية بمعنى يعرج وهى فى العروض البحر الحولياى أى الغمبى (Iambic) الأعرج . (المترجم)

فإن تيمون المتشكك كتب قصيدة مسلية فيها تعريض وسخرية تسمى سلُّوى (Sil'oi) عن الفلاسفة الآخرين ،الأحياء منهم والأموات ، وهى شيء لم يرق طبعاً إلا لعين الصفوة الممتازة، كما أن كراتيس الكلبي أنتج محاكاة تهكمية جيدة حقا لشعر هوميروس فى قصيدة عنوانها « مخلاة الشحاذ » مجد فيها ذلك الرمز للفقر الكلبي بوصفه الملاذ الوحيد للرجل النزيه الأمين الناهض كالجزيرة من بين غمرات المياه الدكناء كالنبيذ ، فى بحر كله ختل ومخادعة بيد أن قصيدة كراتيس وإن كانت فى شكلها محاكاة تهكمية ، إلا أنها كانت من الجد بدرجة كافية ، ولعلها أدت إلى أن الفلسفة أحيت طريقة عفى عليها الدهر من زمن بعيد ، وهى طريقة إستخدام الشعر الجدّى وسيلة لها . وخير مثال على ذلك هو تلك القصيدة الممتازة المسماة « نشيد إلى زيوس » التى أنشأها كليانثيس (Cleanthes) ، والتى هى الذروة التى بلغها الشعر الدينى عند اليونان ، وهى تختلف تماماً عن الأناشيد المتبعة لسنن السلف والتسابيح المكتوبة حسب الطلب والتى نعرف الآن منها عدداً لا بأس به . ولكن يكاد يدانيها فى امتيازها من حيث موضوعها ، تلك القصيدة التى كتبها كيركيداس من ميجالوبوليس ، وهو سياسى ذو ميول كلبية — وذلك أن كل من لم يرتح إلى النظام القائم إذ ذاك كان يسمى كلبيا . وقد انبرى ينصح فيها لأصدقائه أن يقابلوا التهديد باشعال نار الثورة الإجتماعية ، بمعالجة المرضى والبذل عن سعة للفقراء ؛ وهى قصيدة تبرز فريدة بين الشائع من شعر ذلك الزمان الدائر حول المغازى الخلقية — مثل قصيدة الفينيكس (Phoenix) لكولوفون حوالى ٢٨٦ — وهى سطحية لاعمق فيها . ونذكر أخيراً أن لدينا أغنية شعبية (سياسية) ، كانت تغنى بشوارع أثينا فى عام ٢٩٠ ، وهى أخاذة تستهوى النفس. كان تأثير الشعر الإسكندرى على الرومانى عظيما . وهو أمر شهدت بعض الملاحظات المعروفة ولا تزال ملاحظات أخرى تتكشف باستمرار لم نكن نعرفها ؛ وهناك اكتشاف حديث وجدناه فى مقالة حفظها لنا عمل فيلودمس المسمى « قصائد عن الشعر » ؛ وهو اكتشاف رفع اللثام لنا عن الأصل الهللينستى للمذاهب التى يحتويها كتاب هوراس المسمى « فن الشعر » ، (Ars Poetica) وكثير من تفاصيله . بيد أن الهللينستية لم تقدم للرومان إلا الشكل الأدبى والموضوعات التى تعالج. فهى لم تعطهم المادة الحيوية للشعر نفسه ، وهذا هو

الفرق الجوهرى بين الشاعر وبين رجل الأدب المدقق . ومن أجل ذلك يمكن القول بأن الشعراء العظام، وهم لوكريتيوس وكاتولوس وفرجيل، — كانوا ينظرون فى مرآة نفوسهم .

وقبل الانتقال إلى النثر الحق، ينبغى أن نلقى نظرة إلى الكلمة المنطوقة . ذلك أن اللجان القضائية قضت على الخطابة فى ساحة القضاء — وليس ذلك بالخسارة العظيمة — بيد أن الخطابة السياسية ازدهرت لمدة قرن بعد الإسكندر . إذ الواقع أن دينارخوس وديموخارس ابن شقيقة ديموستنيز لم يكونا إلا بقايا لعصر ديموستنيز، وإن كان ديمتريوس الفاليرى (٣١٧ — ٣٠٧) قد انتهج لنفسه نهجا خاصا، على أن أراتوس من سيكيون (٢٧١ — ٢١٣) كان خطيبا عظيما حقا، وذلك لأنه ظل حياته الطويلة يؤثر على الدوام فى الجمعية الاخية ويسوس أمورها كما لم يؤثر ديموستنيز قط فى الجمعية الأثينية . ونظراً لأنه لم يبق خطاب واحد من خطبه، فإن أحدا لا يعرف طريقته فى الخطابة ومبلغ قدرته على التأثير . بيد أن بلورتاخوس (بلوتارك) يقول إنه كان يحتقر الأساليب الفنية التى يتطلبها علم البيان ولعله كان يرتجل الكلام ارتجالا ويتحدث بما يدور بخلده بالضبط . وربما كان وقع ذلك مروعاً على الرجال الذين ألفوا وسائل الصنعة البيانية . وأهم خطبة حفظ لنا بوليبيوس ملخصا لها، وهى مناشدة أجيلاوس اليونان التمسك بالوحدة فى مؤتمر نوپاكتوس (٢١٧)، تحتوى على صورتين خياليتين لا تنسيان على الدهر أبداً . ولا بد أنها كانت خطبة جيدة حقاً . وكان المعاصرون يضعون كينياس وزير بيروس على مستوى ديموستنيز نفسه .

على أن الخطابة السياسية مالبست أن ماتت هى الأخرى فى النهاية ؛ حتى إذا تنفس القرن الثانى أصبح البيان يغمر كل شىء . وليس من المهم البتة تعداد أساتذة هذا الفن، الذين ظل عددهم يتزايد حتى العهود الرومانية . وقد ساعد هيجيسياس من ماجنزيا بسفح السيپيلوس (حوالى ٢٥٠) على تبسيط الأسلوب الأسيوى المزخرف، الذى يمكن تقطيع أسجاعه المكدودة إلى أطوال تماثل الشعر الحر (Vers libre) العصرى (ولسنا متحققين هل كان هو مخترعه أم تيايوس) ؛ ويؤذن هرماجوراس تمنوس (حوالى ١٥٠)، الذى أصبح

كتابه المتداول مرجعا معتمدا ، بمرحلة فى طريق العودة إلى النزعات الآتيكية (Atticism) . وكان علم البيان ينطوى على شىء من الخير حيث يتعلم الناس بفضله كيف يرتبون أفكارهم بوضوح ، ولكنه أصبح إحدى اللعنات التى ابتليت بها الهللينستية . فاستنتج الناس أن الأسلوب هو كل شىء وأن المادة لاشىء . فكل ماتقوله لاوزن له على شريطة أن تقوله وفق القواعد المقررة وأن تتجنب حدوث ثغرات . ولأمر ما خَدَّرَ البيان عقول الإغريق ، وأسكرتهم نشوته. فقد احتل المكان الذى تملؤه الآن الصحافة الرخيصة والسينما ، وكان الرجال يتقاطرون على حلبات البيان تقاطرهم على أحد المسارح . وكان البيان يهوى إلى الدرك الأسفل بكل شىء تمسه يده . قال بترونيوس إن البيان كان يعلم الناس أشياء كثيرة عن القراصنة ومن اليهم ، ولكنه لايعلمهم إلا القليل عن الحياة. وقد لخص مارشيال موضوع البيان فأجمل القول عنه فى تنديده المرير بمحام استطاع أن يلقى أبدع الخطب عن هانيبال ولكنه لم يغن شيئاً فى قضية سرقة تافهة .

وفى مجال النثر ، تبوأ التاريخ أرفع مكان . ذلك أنه حدث بفضل الدوافع التى تولدت عن فتح آسيا ، أن الجيلين اللذين أعقبا وفاة الإسكندر شهدا إنتاجا تاريخيا ضخما . ولكن هؤلاء المؤرخين بادوا جميعا ، وإن كان بعضهم معروفاً لنا جزئياً عن طريق استخدام كتّاب متأخرين لمادتهم التاريخية ، ولم تكن تلك الرذيلة القبيحة وهى رذيلة الكتابة التماساً للتأثير فى النفوس وهى التى ابتدعها إزوقراط وتلاميذه ، — قد ماتت ولا أخذت تموت. ولكن تجلى فى العالم الجديد إحساس بالحقيقة والواقع أدى بالبعض ، ولا سيا فى الدوائر التى كانت تعرف الإسكندر — إلى العمل ضد البلاغة والبيان . وعندما كتب بطلميوس الأول (وذلك فى الراجح بين ٢٨٨ — ٢٨٣) كتابه عن تاريخ الإسكندر مستقياً معلوماته عن الجريدة الرسمية ومعتمدا على وثائق أخرى رسمية مضيفاً إليه ملحوظاته وذكرياته ، كان يعمل شيئاً جديداً — وذلك لإنه رجل عمل وحركة يسطر ماعلم ورأى . ومن الخير لنا أنه فعل ذلك . وبالمثل أيضاً أنتج نيارخوس فى وصفه لرحلته (قبل ٣١٢) مالعله أجدر سجل تاريخى بالثقة فى بلاد الإغريق ، وكان كل من هذين الرجلين صديقاً للإسكندر منذ الصبا وكل

منها عرف طريقته فى القصد إلى الغاية . وكان أرستوبولس من كساندريا (الذى كتب حوالى ٢٩٤—٢٨٨)، أحد المؤرخين الفنيين الإغريق الذين عملوا فى خدمة الإسكندر ، وله نظرة مختلفة إلى حد ما عن نظرة بطلميوس العسكرية، وكان كاتباً واعياً متزناً يعرف الكثير عن الإسكندر شخصياً ، وكان على علم جيد بالجغرافيا والمؤرخ أريان هو الذى يمثل هؤلاء الثلاثة، أما أرستوبولس فهو الشخصية التى تقف وراء صورة الإسكندر المحببة الأولى التى نجدها عند ديودورس . وكتب كاليستنز من أولينثوس وهو ابن اخت أرسطو (حوالى ٣٣٠) كتابا مليئا بالتملق والتدليل السخيف ، كان المقصود منه تمجيد الإسكندر ولكنه لم يترك فى التقاليد المتواترة عن الإسكندر إلا أثراً ضئيلا . أما الكتب التى أنتجتها الدائرة الخارجية من غير أخصاء الإسكندر كالتى ألفها خاريس التشريفاتى أو إفبوس مروج الشائعات وناهش الأعراض ، فكانت مليئة بالتفاهات التى لا وزن لها ، وذلك لأن الرجل منا لا يستطيع أن يبصر إلا ماتسمو قدراته إلى بلوغه. ولكن أونيسكريتس الربان البحرى لا ينتسب إلى هذه الزمرة ولا يكاد يستحق كنية « الكاذب » التى أطلقت عليه جملة وتفصيلا ، وذلك لأنه لم يكن يكتب تاريخا للإسكندر بل قصة ورواية على نسق قصة « الكيروبيديا » لزينوفون . ثم حدث رد فعل لهذا كله ، بدأته مدرستان من المدارس الفلسفية : هما المشاؤون والرواقيون ، وتناوله كاتب ثانوى، هو كليتارخوس الإسكندرى، وهو رجل لم يكن لدى أى ناقد جاد فى تلك العصور الخوالى من كلمة طيبة يقولها فيه سوى أنه كان خبيثا ماكراً ، وهو الذى كتب (وليس ذلك قبل ٢٨٠ — ٢٧٠ وربما بعد ذلك) تاريخا للإسكندر بأسلوب بيانى لاتنطوى نغمته بحال ما على الرضا، فقد صوره فى صورة الشخصية التى تجنح إلى التقليد وتُعمل الذبح فى الناس وتغش وتكذب على السماء ، وإن جاز أن هذه الرذيلة الأخيرة لم ينقلها سواه . وقد استهوت مبالغات كليتارخوس المسرفة أذواق الرومان فيما بعد ، ومن ثم يقول بلينى إن « قراءته تلقى إقبالا كثيراً » ، وقد استخدم مادة أرستوبولس واقتضبها فأخلّ، وكان يعتمد اعتمادا كبيراً على القصص التى رواها الشعارير(١) الذين كانوا يرافقون الإسكندر ، كما يعتمد على شائعات

(١) الشعارير جمع شعرور وهو الشاعر التافه . (المترجم)

الإسكندرية ونشأتها ، فضلا عن اعتماده على خيال مشرق . وهو المصدر الذي استقيت منه الصورة غير الكريمة التي يصورها ديودورس للإسكندر ، والتي استخدمها إلى حدما كيرتيوس .

وبعد عام ٢٦٤ بقليل أتم تيمايوس من تاورومنيوم تاريخه الكبير للإغريق الغربيين حتى تلك السنة وكان ذلك بمدينة أثينا، وظل هذا الكتاب يحظى مدى قرنين من الزمان بتأثير عظيم . ذلك أن مؤلفه كان عالما مجدا كثير الأسفار شديد الاجتهاد في جمع شواهد الكتابات التذكارية والنقوش المسطرة على المباني والتماثيل ، ولكن عقله حرم نعمة العمق ، كما أنه لم يفهم على الوجه الحق ما كتبه ديونيسوس وأجاثوكليس، وقد كتب بالأسلوب الآسيوى كأى كاتب يونانى آخر وروى العجائب والأساطير ، وإن استخدم الأسلوب العقيم الذى يقوم على التأريخ بدورة الألعاب الأولمبية والذى لقى بعض الرواج واستخدمه بوليبيوس وكاستور . وإليه ترجع قصة أجاثوكليس التى كتبها ديودورس . وشرع دوريس ، وهو طاغية ساموس فترة من الزمن فى ابتداع بدعة جديدة ، فكتب تاريخاً للفترة الممتدة بين معركة لوكترا إلى ٢٨٠ ، وكان يهدف من ذلك إلى جعل التاريخ مشوقا للقراء بصوغ شخصياته وما كان لهم من الدوافع صوغاً مسرحيا مع استخدام كل المقومات الضرورية للمسرح . وغنى عن البيان أن ما يحتويه عمله من حقائق بعيد عن الواقع إلى حدما . وهناك رجل أفضل هو نيمفيس من هرقليا الواقعة على البحر الأسود (بنطس) (وكان ناشطا حوالى ٢٨٠)؛ كتب تاريخا لخلفاء الإسكندر ولكن كتابه اندثر ولم يعثر له على أثر، وإن كان كتابه فى تاريخ هرقليا التى يمثلها ممنون، يلوح أنه كان يجمع بين الجودة المتوسطة والوضوح . ثم كتب ديولوس فى أثينا تاريخا لبلاد اليونان منذ الحرب المقدسة حتى وفاة كساندر فى ٢٩٨؛ وهو يظهر على كساندر شيئا من العطف ؛ ويرى بعض الثقات أنه له بعض الأثر فى ديودورس . وقد ترك ديمتريوس الفاليرى تاريخا لحكمه بأثينا فضلاً عن أعمال أخرى كثيرة . وسطر ديموخاريس تاريخا عن عصره بأسلوب توخى فيه البيان وضمنه وجهة النظر الوطنية . وروى ديمتريوس البيزنطى فى تفاصيل دقيقة غزو الغاليين لآسيا . وكتب بروكسينوس يؤرخ لإبيروس على عهد بيروس . كما أن الملك بيروس نفسه ترك مجلدا من

المذكرات تناول فيه حروبه ؛ إن لم يكن ذلك العمل في الواقع لا يعدو أن يكون صورة من الجريدة الرسمية التي كان يصدرها .

بيد أن التأريخ العظيم لنصف القرن التالي لوفاة الإسكندر ، وهو فيما يرجح من أعظم كتب التاريخ التي انتجتها بلاد اليونان ، قد كتبه هيرونيموس من كارديا ، وهو صديق يومينيس الكاردي ، ولعله أيضاً قريبه . وبعد وفاة يومينيس انضوى في خدمة أنتيجونس الأول وديمتريوس وجوناتاس كقائد وصاحب ادارة وتدبير . وكتاب هيرونيموس يبدأ من وفاة الإسكندر حتى وفاة بيروس (فيما يحتمل) . وهو المصدر الذي استقى منه ديودورس الفصل الثامن عشر فما عقبه من فصول كتابه . كما أن ماألفه أريان عن خلفاء الإسكندر (Dsaduchi) ، انتهل منه بلوتارخوس (Plutarch) انتهالاً جزئياً في ترجمته ليومينيس وديمتريوس، وكان له أثر قوي في دعم كل مالدينا من روايات بتراء عن تلك الفترة . وكلما زدنا إمعانا في دراسة تلك الفترة ، زدنا يقينا بأن كاتبا عظيما مفقودا يقوم وراءها . وكان يؤرخ بسنوات الحملات العسكرية ، مثل توسيد يدس ، كما أن أرقامه يبدو أنها جدرة بالثقة ، وتلك ظاهرة نادرة. لقد أهمل ذلك الكاتب الأسلوب ، فكانت جزاؤه أن اندثر ؛ بيد أنه حرص أن يقول الحق كما شاهده. وواضح من كتابته أنه لعب دورا فعالا في التاريخ الذي روى — وهناك من الدلائل مايدل بدرجة كافية على أنه كان في وسعه رسم كل من الصور والشخصيات . وهناك شيء يضع ذلك المؤرخ المجهول في منزلة يفوق مستواها كل مؤرخ سبقه ، إذ أن مما يدهش له الإنسان أننا حتى في عصرنا هذا نستطيع أن نتعقب ظهور بعض التطورات التي ألمت بشخصية ديمتريوس إذا كان الفضل في تسجيلها راجعا إلى ذلك الكاتب (وهو أمر لانكاد نشك فيه)، يضعه من هذه الناحية في منزلة فوق مستوى أي مؤرخ سبقه، وذلك أن الخُلق كان يعتبر عند الإغريق بصفة عامة شيئاً ثابتا لا يتغير. وهو كمؤرخ مثالي وقد أوضح ماأكده بوليبيوس، حيث قال إن بلاد الإغريق لايقوى على كتابة التاريخ الجيد أو الصحيح فيها إلا ذوو الهمم من الرجال . وكان من حسن حظ أسرة أنتيجونس أنه دخل في خدمتها ، وهو ييسر علينا إلى حين من الزمن فهم شئون مقدونيا قليلا . ولم تنجب آسيا السلوقية ولا مصر البطلمية في أي وقت من تاريخها مؤرخا مقتدرا ؛ وقد كان السلوقيون الأول

على الأقل يستحقون مصيراً أفضل مما حاق بهم من نسيان التاريخ لهم لعدم وجود المؤرخ الكفء المقتدر .

والفترة التى انصرمت بين عصرى هيرونيموس وبوليبيوس ، قد غطاها فيما يتعلق ببلاد الإغريق فيلارخوس الذى كتب بمدينة أثينا تاريخ هذه الحقبة، وواصل العمل فيما صنفه دوريس من تاريخ حتى وفاة كليومينيس (٢١٩) ، وتمثله عند بلوتارخوس تراجم آجيس و كليومينيس التى نقلها عنه ، كما أنه يضفى ألوانه على عدد آخر كبير من التراجم . وقد جرت العادة بمعاملته كأنه مجرد دوريس آخر ليس غير، ويرجع بعض ذلك إلى مُقدماته الدرامية لشخصياته النسائية، ومع أنه كان مناصرا لكليومينيس مقتنعا بصواب آرائه ، فإنه يزداد أهمية كلما أمعن فى تحليل عهده ، وحينما اختلف مع بوليبيوس ، لم نجد بوليبيوس على الدوام مصيبا فى آرائه .وقد غطى أراتوس من أهل سيكيون شطراً كبيراً من النصف المتأخر من القرن فى مذكراته التى هى فى الحقيقة ترجمة حياته الخاصة ، وهو وإن كان شديد التحزب بعيدا عن العدل مع الخصوم ، إلا أنه مع ذلك يتيح لنا أن نعرف ماهو الحلف الآخى ، كما أنه كان صريحا حول نقاط ضعفه وعيوبه . وهو بارز الأثر فى قصص « الحياة » عند بلوتارخوس ، كما أنه كان المصدر الأول لبوليبيوس عن تلك الفترة . ولاشك أن ضياع تاريخ هانيبال لسوسيلوس خسارة حقيقية ، كما تدل على ذلك القصاصة الوحيدة الباقية منه ، وذلك لأنه صحب هانيبال فى إيطاليا .

والقرن الثانى هو قرن بوليبيوس من ميجالوبوليس (حوالى ١٩٨ — ١١٧) ، وهو رجل لعب دوره فى سياسة الحلف الآخى وحروبه ، وحمل إلى روما بعد معركة بيدنا، وأصبح صديقا لباناتيوس واسكيبيون أيميليانوس ، وعاد إلى بلاد الإغريق فى ١٤٦ . وتاريخه العظيم يذكر قصة « المسكونة » (من ٢٢١ إلى ١٤٦) . ولا يبقى منه الآن سوى الكتب الخمسة الأولى فضلا عن مقتبسات وقطع طويلة من بقايا سائر الكتب الأخرى ، ولكن ليفى يمثله ويقتفى أثره ، وإن خلط عمله ببعض عناصر ومواد أحط منه . وهو يعامل إفورس وتيمايوس بوصفها سلفيه ، كما أنه قدم بيانا تمهيديا عن روما وبلاد الإغريق لملء الثغرة الموجودة بين عهد تيمايوس وعام ٢٢١ . وقد استلفته

واسترعى انتباهه إلى ذلك اتساع المضمار الذى يغطيانه ، وإن كان يكره البيان كل الكراهية ، كما أنه نبذ جميع العجائب تمشيا مع مايليق بصديق مثله لباناتيوس. ومن سوء الحظ أنه تجاهل هيروتيموس ، لأنه كان يكره مقدونيا. والراجح أن التطور فى خلق شخصية أراتوس يرجع إلى أراتوس نفسه . وليست كتابة بوليبيوس بالشيء الذى تلذ القارئ مطالعته ، فإن أسلوبه هو أسلوب الأوامر والكتب الرسمية ، كما أنه ميال إلى الإسهاب الممل إملالا مزعجا .. وهو كتيماوس ، كثيراً مايتوقف عن السرد التاريخى للدخول فى مسائل جدلية ما كانت توضع فى عصرنا هذا إلا فى تذييلات الكتب . وهو من ناحية الشئون العسكرية أسوأ نقيض لهيرونيموس . كما أن ليفى كان يعرف السفن أكثر مما كان ذلك الأركادى يستطيع أن يعلمه إياه . وكان يستخدم المحفوظات الرسمية حينما استطاع ، كما أنه استخدم كثيراً من مصادر البينات والشواهد ، ولكنه كان شديد الإعواز من حيث التدريب العلمى . ذلك أن عقله كان عقلاً سياسيا ، كما أنه كان يكتب لرجال السياسة . وكان يعتقد أن فى مستطاع الحاضر أن يتعلم من الماضى . وهو فى السياسة صارم ، وإن يكن غير مشرق ولا ذكى ، وإن ترك ثغرات عجيبة فى تاريخه كتخلفه عن وصف الدستور الآخى . وهو ليس بالرجل الذى لايتحزب ، وحزبه بين الآخيين يماثل من يسمهم بعض الكتاب الإنجليز باسم « أحرار الله Godswhigs» ، كما أن موقفه من أيطوليا ومقدونيا يلزم القارئ بتعديل موقفه على الدوام ليتوافق معه ، ولكنه وإن كان مشايعا لروما إلا أنه يبذل بعض الجهد حتى يكون عادلا إزاء هانيبال . وإن لم يكن موقفه كذلك مع قرطاجة . ولكن لئن كنا نؤكد نقائصه ، فما ذلك إلا لأنه يكاد يكون من كبر الشأن بحيث يدفع تلك النقائص جانبا . لقد كان بين يديه موضوع عظيم لم يأل جهدا فى إعطائه كامل مجاله ، وكان بطله الذى به يتغنى هو روما ، وأنشودته هى توسيع رقعة روما فى عالم البحر المتوسط ، فكل مناهل فكره وروافده تجرى نحو ذلك النهر . وتاريخه هو ملحمة عصر البطولة عند روما .. لقد كان يفهم العصر ومن أخرجهم العصر من الرجال ، وكان عليما بدخائل كل من بلاد الإغريق وروما . وكان يستطع رسم صور ممتازة متى شاء ، وقد حاول فعلاً وإن لم تكن محاولته ذات عمق كاف ، أن يفهم أسباب الأحداث ، كما أنه لم يكن ليخشى إصدار الاحكام

الخلقية . وفوق كل شيء، كان يؤكد أن هم التاريخ الوحيد هو تحرى الصدق. وستظل نظرة ممسن إليه بأنه الثانى بين المؤرخين الإغريق هى النظرة الصائبة، حيث يقول : وازن بين الظلمة التى كانت قبله والتى رانت بعده، وبين المدة التى بددت فيها شمسه سحائب الظلمات .

وواصل بوسيدونيوس كتابة تاريخ بوليبيوس (الفصل العاشر) . وعرف بوسيدونيوس بأسلوبه الجذاب وإكثاره من التفاصيل ، ولكنه كمؤرخ كان سطحياً تماماً . وقد روى كثيراً من العجائب ، وتنم صورته التى دبجها للكلت وقوبلت بالثناء الكثير ، عن ضآلة حظه من الاستبصار بخلق الكلت . ولئن صدق القول بأن قيصر ذهب إليه حقاً يلتمس عنده العلم بسيكولوجيتهم، فلا عجب فيما لقى قيصر من متاعب . ذلك أن وجهة نظره لم تختلف عن وجهة نظر أشراف الرومان ، كما أن ظلاماً نسبياً بات يخيم على روما بين عهد الأخوين الجراكيين وعصر سولا . ولسنا نحس فى أى مكان بوجود كاتب عظيم وراء التقاليد المتواترة الموجودة، وتتجلى صفته وكنهه من بيانه المسهب الموجود إلى الآن عن انضمام أثينا لميثريداتس ، فبدلاً من توضيح طبيعة وأسباب الكراهية التى أثارتها روما ضدها فى نفوس الناس ، راح يقص أن شعباً آمناً فى داره مسالماً ، لم يشترك فى حرب لمدة قرن من الزمان ، هب فجأة وأخذ يقاتلها حتى الموت كما قاتل من قبل إجزرسيس — وما ذلك إلا لأن سفسطائيا زائف القول طلى الحديث فى ظاهره طلب إليهم فعل ذلك . وهناك مؤرخ آخر ربما كان أفضل منه هو نيقولاوس الدمشقى ، وهو فيلسوف ومؤرخ ببلاط هيرود الأول ،أوتى بعض الخبرة العملية بتسيير دفة الشئون . وقد كتب تاريخاً للعالم ، ولا تزال مادة ما سطره عن هيرود موجودة فى كتاب يوسيفوس ، وهذا هو السبب فى أننا نعرف مثل ذلك القدر الكبير الذى نعرفه الآن عن هيرود ، على حين أن رجالا أعظم منه قدراً أصبحوا فى طى النسيان . ولسنا نعرف شيئاً عن التاريخ العالمى العام الذى ألفه أجاثرخيدس من كنيدس (حوالى ١٢٠) ، وليس من المحقق تماماً هل كان كتاب تماجينيس الإسكندرانى (حوالى ٢٠) المسمى « عن الملوك (Of the Kings)» تاريخاً للملكيات المقدونية حقاً أم لم يكن . وكتب أبوللودورس من أرتميتا

تاريخا للبارثيين، لم تبق منه إلا اجذاذات قليلة عن الإغريق الباكتيريين. وأخيرا لا بد لنا من أن نقدم واجب الشكر إلى ديودورس الصقلي، الذى كتب كتابه « المكتبة التاريخية » فى بواكير عهد أوغسطس. وهو كمؤرخ لم يكن كفؤاً للعمل الذى تجرد له، وكتابه بما تضفيه قراءته من تسلية لطيفة دائماً، يكون حسناً أو رديئاً حسب الكاتب الذى ينبرى لتلخيصه فى كل وقت. ولكنه بهذا قد حفظ لنا أشياء لولاه لبادت وضاعت من أيدينا مثل كتابات إيامبولس مثلاً، وإليه يرجع الفضل الأول فيما نعرفه عن هيرونيموس. .

وكانت هناك أشكال أخرى للكتابة التاريخية عدا كتب التاريخ العادية. ففى عهد مبكر من القرن الثالث حاول كاهنان هما بيروسوس البابلى ومانيتون المصرى أن يجعلا تاريخ بلديهما فى متناول الإغريق؛ ولكن قل من أولئك الإغريق من كان يعنى بدراسة تاريخ المتبربرين دراسة جدية؛ وإن كان ثيوبوميوس قد عرف الآفستا، فضلا عن أن علم الكاهن بيروسوس بالفلك كان يقابل بالترحاب. ومع ذلك فإن تقويم سايس، وهو تقويم للسنة المصرية والأعياد والمواسم كتب بالإغريقية حوالى ٣٠٠، جدير بالملاحظة والذكر؛ وذلك على حين أن كالما خوس كان يعرف فيما يظهر إحدى الحكايات الخرافية البابلية؛ فضلا عن أنه قلدها. وفى عهد بطلميوس الأول كتب هيكاتايوس من أبديرا عن مصر كما يراها إغريقى؛ وحدث فيما بعد أن شخصاً اسمه ميناندر وسع باسهاب بعض الأخبار التاريخيه الفينيقية. وقد احتفظ لنا الإسكندر المليطى الملقب بوليهستور (حوالى ٥٠) ببعض الدعاية اليهودية؛ وهو رجل تجرد لجمع مؤلفات تدور حول كثير من البلدان ما بين إغريقية ومتبربرة (الفصل السادس). على أن الوطنية المحلية التى أثرت فى الشعر أثرت كذلك فى التاريخ. ومن ثم أصبحنا نعرف الآن قائمة طويلة من المدونات التاريخية المحلية. وربما احتوت مثل هذه المدونات التاريخية أيضاً جهود الكاتب الأثرى وجامع النقوش الأثرية من المبانى والتماثيل — وذلك مثل الأتلس (Atthis) وهى مدونة تاريخية عن أثينا للعالم فيلوخورس (المتوفى ٢٦١)؛ وهى التى زودتنا بكثير من المعلومات عن دستور أثينا وأعيادها ومراسم الاحتفالات. ولا شك أنه كانت هناك مؤلفات مماثلة لهذه أدت نفس الغرض لمدن أخرى. فإن

كراتريوس الذى يقول التواتر إنه الأخ غير الشقيق لجوناتاس (وهو أمر مشكوك فيه) ، جمع مجموعة من المراسيم الأثينية أرفقها بتعليق تاريخى رصين ، بيد أن الاسم البارز فى مجال علماء الآثار هو پوليمون من إيليوم (القرن الثانى) . إذ إنه قضى نصف حياته يدرس النقوش فى كثير من البلدان، حتى إذا اجتمعت له المعرفة الرحبة ، كتب بإسهاب عن تأسيس كثير من المدن، وقديم تاريخها ومأثور عرفها ، كما كتب عن علم النقوش على الآثار وفن قراءتها وجمعها ، فضلا عما دبج من مذكرات شتى أودعها انتقاداته . وكان يعد جديراً بالثقة وأهلاً ، ولكن شيئاً منه لم يبق لنا ، ولعل ذلك أكبر خسارة منينا بها بعد هيرونيموس . وقلد الكثيرون أسفاره وتجولاته وكتاباته ، وإن لم يصلوا إلى محيط معرفته الواسعة ، والراجح أن يوستياس استخدمه وانتفع به أكثر مما اعترف بذلك . وأما إراتوستنيز (الفصل التاسع) ، وهو الذى كان فضلا عن مجالات نشاطه الأخرى الكثيرة ناقداً تاريخيا أصيلا ، — فإنه أسس دراسة علم التأريخ ، وحول أبوللودورس الأثينى فى ١٤٤ تاريخه إلى مدونة مسجوعة، ولذا كان لبقاياها قيمة لا يستهان بها . هذا إلى أن كاستور الرودسى (المتوفى ٤٢) استخدم ماسطره أبوللودورس فى تصنيف مجموعة من الجداول التاريخية ذات الأحداث المتحدة فى الزمن ، ثم عاد « ڤارو » فاستخدمها ، كما استخدمها من بعده « يوليوس أفريكانوس » سلف يوسيبيوس ؛ فهناك إذن سلسلة تربط إراتوستنيز بخطة يوسيبيوس الطموحة فى علم المدونات التاريخية .

وكان من الطبيعى أن مدرسة المشائين بما درجت عليه من حب لجمع الحقائق ، قد عالجت الشئون التاريخية منذ البداية. فكتب ثيوفراستوس تاريخا للدراسات العلمية ، وكتب آخرون تواريخ للطب والرياضيات ، وأنتج اثنان من تلاميذ ثيوفراستوس ، هما دوريس المؤرخ وخامايليوس من هراقليا الواقعة على شاطىء البحر الأسود أول كتابين فى تاريخ الفنون والشعر على التوالى ، وقدر أن يكون لهما أتباع كثيرون ، وكتب ديكايآرخوس (حوالى ٣٠٠) كتاباً هاما يسمى « حياة هلاس » ، ولعله تاريخ للثقافة . وقد ضاعت جميع هذه المؤلفات كما ضاع كتاب ديكايآرخوس الهام المسمى « دستور إسبرطة » . ولم يبق لنا الآن سوى مخططات مختصرة لثيوفراستوس عن الطرز البشرية

المسماة « بالشخصيات » ، ولها بعض الأهمية من حيث التاريخ الاجتماعى . بيد أن تأثير المشائين على التاريخ نفسه قدر له أن يصبح سيئاً سوءاً تاما ، فإنهم ابتدعوا أو ثبتوا نظرية الخط التى ذاعت بين الناس ذيوعاً هائلا (الفصل العاشر) . ونجم عن شدة نشاطهم فى جمع فتات كل شىء ، أن نشأت العادة الشائعة جداً وهى عادة الخلط بين الصدق والأساطير دون تمييز ، وهى عادة ما لبثت أن تحولت سريعاً إلى شىء آخر هو التلهف الشديد على الفضائح . وليس لهذا العصر ظاهرة أقبح من تلك الدعاية التى حملوا لواءها ضد الإسكندر وأهل بيته ، بل إنهم لم يرزقوا الفطنة البسيطة التى تجنبهم ما كان ينبغى استبعاده لدى الطرفين من مزاعم وادعاءات متبادلة ، وكانت هذه الدعاية — وهى أول ما نعرف من حملات الدعاية — مسمومة حقاً ، وتخصصوا فى التراجم ، وهو اتجاه لم يكن مفر لاتجاهات القرن الثالث ونزعته الفردية من رفع شأنه ، غير أنهم اعتادوا عادة أصابت التراجم فى الصميم هى الخلط بين الحقيقى والزائف ، وهى الشىء الذى يبدو مكتمل النمو والازدهار فى عمل مبكر جداً ، هو كتاب « السير » تأليف كليارخوس من سولى . أما ذوو النفوذ من كتاب التراجم والسير بالإسكندرية فهم ساتيروس (قرابة ٢٢٠) ، الذى ظهر أن كتابه « حياة يوريبيديس » الذى أمكن رده إلى حاله الأولى كان مكتوباً على طريقة المحاورة — فهو أفضل مما كنا نتوقع . وفيهم أيضاً هرميبوس الأزميرى تلميذ كاليماخوس ، وفى أعقابهم جمعت الإسكندرية أكداسا من التراجم وموادها ، ولكن ذلك كان جمعاً خالياً من التمحيص والنقد ، بحيث إن بلوتارخوس عندما تناول تلك المواد واستطاع بفضلها أن ينتج مؤلفات فنية عظيمة ، كان الصدق والزيف قد انصهرا بعضهما ببعض بصورة ضاع معها كل رجاء ، مثال ذلك أن أحداً منا لم يوفق حتى الآن إلى تحليل « حياة الإسكندر » لبلوتارخوس وتنقيتها من الشوائب . على أن الهللينستية أنتجت مع ذلك كاتب تراجم واحد جاد وقادر ندين له بالشىء الكثير ، وهو المثال أنتيجونس من كاريستوس (المتوفى بعد ٢٢٥) ، وهو الذى كتب سير فلاسفة القرن الثالث ، ولا يزال جزء منه باقياً ، هو ومواد أخرى أدنى منه مرتبة بكثير عند ديوجينيس اللائرتى(١) .

(١) من لائرته Laerte فى سيلبشيا بآسيا الصغرى (المترجم)

والجغرافيا فى العصر الهلينستى تبدأ تحت بند العلوم (الفصل التاسع) تنتهى عند بند الأدب . وكتاب إراتوستنيز العظيم المسمى « الجغرافيا » كان يحتوى على وصف للعالم المعروف له ، وهو جيد بالنسبة للبحر المتوسط وللمناطق التى عرفها الناس عن طريق الإسكندر وباتروكليس وميجاستنيز وبثياس (واقتضت حكمة إراتوستنيز أن يعترف بصحة رحلة بثياس) (الفصل السابع)، أما الحديث عن أطراف ذلك العالم فقائم على الحدس والرجم بالغيب ، وذلك لأن إراتوستنيز كان بطبيعة الحال لا يعرف شيئاً عن أشباه الجزر الإفريقية والهندية ، ولا عن العالم شرقى نهر الكنج ولا عن شمال أوربا وآسيا، ولكن ما كتبه عن آسيا فيما وراء الفرات ظل أمداً طويلا مرجعا ثقة يعتمد عليه ويملأ الفراغ كله . بيد أن نزعة بوليبيوس النفعية هى التى حولت أفكار الناس بوجه رئيسى إلى الجغرافية الوصفية . وقد ترك معاصره الأصغر أجاترخيدس من كنيدس وصفاً رائعاً عن ساحل البحر الأحمر وشعوبه العجيبة ، يقوم على تغلغل سلطان مصر جنوباً (الفصل السابع) . وهناك أبوللودورس من أرتميتا ، وقد كتب عن باكتريا والتركستان الصينية ، أما أرتميدورس الإفسوسى (حوالى ١٠٠) وهو الرحالة الكثير الأسفار ، فأخرج مؤلفاً هاماً فى الجغرافية العامة ، استخدم فيه مادة كل من سبقوه من الكتاب وملأه بالتفاصيل الوفيرة ، على أنه لا يعرف إلا عن طريق استخدام استرابون لهذا العمل . وكانت مؤلفات بوسيدنيوس (الفصل العاشر) مليئة بالجغرافيا الوصفية ، وتمتاز بالذكاء والجمال . والاعتقاد السائد الآن أن استرابون نقل عنه بياناته وأوصافه عن شعوب أوربا الغربية وعن ثراء إسبانيا فى المعادن وعن المناطق البركانية بآسيا الصغرى وغيرها من الأماكن (وهى التى يرجح أن استرابون عرفها بنفسه) . وعن المناطق العجيبة المسماة ثلمة أرليس (Crand, Arles) عند مصب نهر الرون ، وكذلك أيضا وصف ديودورس المتوقد لعجائب بلاد العرب .

ومع أن استرابون من أماسيا أصدر كتابه فى « الجغرافيا » فى عصر تيبريوس ، فلابد من ذكر اسمه هنا . وذلك لأنه قل بين الكتاب من ندين له بالفضل أكثر منه وكتابه هو أغنية البجعة المحتضرة(١) بالنسبة للهلينستية لأنه آخر

(١) هى فى الخرافات آخر أغنية للبجعة قبل مفارقتها الحياة. (المترجم)

ما ظهر عنها من أبحاث ، فنحن من خلال نظرة عينيه نستعرض ذلك العالم فى مجمله وهو يتوارى عن الأنظار . وهو ليس بالجغرافى الأصيل ، بل هو يضمن معلومات سابقيه من الكتاب ، ولكنه يجيد الكتابة كما أنه ناقد سليم العقل بدرجة معقولة ، وربما ذهب بعضهم إلى أننا ما كنا إلا لننقص من تقديرنا له لو كان بين أيدينا أعمال أرتميدورس وبوسيدونيوس ، وهذا حق ولكنه ينطوى على نكران الجميل . وكم كنا نتمنى لو أن الدنيا التى شهدها من حوله ، والتى عرفها حق المعرفة وكتب عنها ما كتب ، كانت هى الممالك الهللينستية وهى فى أوج ازدهارها ، وكم كنا نتمنى لو خص الباكتريين بنصيب أعظم ومنح الملوك التابعين للرومان شطراً أقل . بيد أن كتلة المعلومات التى جمعها عن الشئون الجدية : — كالنظريات الجغرافية والمدن الإغريقية والمسائل الاقتصادية ، عظيمة ما فى ذلك ريب ، وذلك على حين أنه كان أوسع علماً عن داخل المناطق القصية من آسيا (وليس الشاطئ) ، مما بلغه أى إنسان بعد ذلك حتى ظهور ماركو بولو . وكتابه حافل بالأوصاف والصور من أوله لآخره . وفيه يتجلى مجد الإسكندرية وورودس والنظام الاجتماعى للبنغال . ويمر أمامنا فيه أوصاف الملوك والكهنة الكبادوكيين والفقراء الهنود والكاهنات الجرمانيات والدراويد من الغالة . وهو يتحدث عن الحفلات العجيبة التى تقام بتراقيا وفارس ونفاس(١) الرجال الزائف لدى الأيبيريين وقبائل كرمانيا المتوحشين الذين يجمعون رءوس أعدائهم . ونحن نستطيع بصحبته أن نستكشف بريطانيا مع بيثياس أو نرتاد بحر قزوين مع باتروكليس أو نشهد النمس يقتل التمساح أو نجمع الزعفران فى الكهف الكوريكيانى ، ونستطيع أيضاً أن نبحث عن الماء العذب فى البحر الفينيقى وأن نضرب بحرابنا سمك السيوف بالقرب من صقلية أو نترصد النعام ببلاد النوبة أو نخرج الأرانب بإسبانيا من مكامنها . فليس باقياً لدينا منذ عهد هيرودوت كتاب أجمل من هذا ولا أكثر روعة .

وكان الشطر الآخـــر المكمل للجغرافيا هو « قصص الرحالة » ، « وأنتيفانيز » من برجى هو الذى صاغ طرادها فى صورته النهائية ، وهو

(١) النفاس الزائف (couvade) هو نوم الرجال فى الفراش عند مولد الأبناء بصورة أشبه ما يكون بالنفاس عند المرأة . (المترجم)

مؤلف القصة التى تجرى حوادثها فى القطر الذى يقال إنه من البرودة بحيث إن كلمات الإنسان كانت تتجمد فى الخريف فى الهواء ، ولذا فأنت لا تسمع مايقال لك حتى تذوب الكلمات فى الربيع . ومن ثم أصبحت كلمة «البرجية» [(Bergean) هى اللفظة الإغريقية الدالة على « حكايات الفشر » . ومن الكتب التى من هذا الطراز كتاب هيكاتايوس عن الهيبربوريانيين وكتاب أموميتوس عن (الأتار كورين) Uttara Kurus بالهملايا ، عدا عينة باقية هى ما سطره لوكيان فى كتابه المسلى المسمى « حكايات واقعية »، وهى المصدر القديم لقصة « السندباد البحرى » . والجانب الباطنى المكمل للتاريخ الذى كانت تشغله الأقاصيص الرطازية (Mythical) والرومانتيكية ، يكاد يكون أكثر خصباً. وهناك أشياء كثيرة صيغت فى الدوائر الهللينستية هى وغيرها ، منها أسطورة إينياس وقصة تأسيس روما ، ولاشك أن جيوفرى من مونماوث ما كان ليلقى فى تلك الدوائر إلا ترحاباً عظيماً كزميل فى صنعة التزييف والفشر . ولكن العمل الرئيسى الفذ وهو قصة الإسكندر الرومانسية ، وهى خليط تتناقض أجزاؤه أحياناً ، يتألف من مواد مستقاة من متواتر الروايات بمصر وبابل وبلاد الإغريق ، ومن حكايات من مصادر كثيرة ؛ والنص الإغريقى الموجود فى أحسن الصور وهو الذى يرمز له برقم أ١ يحتوى على بعض نقاط تاريخية أصيلة . وقد صارت هذه النسخة المرقومة أ١ تسمى باسم كاليسثنز المنتحل ، وإن لم تكن لها أدنى علاقة بذلك الكاتب. ومع أن بعضهم حاول أن يبرهن على أن نصها لم يصل إلى شكله النهائى حتى قرابة عام ٣٠٠ للميلاد، إلا أن كثيراً من فقراتها هللينستى دون أدنى ريب ، هذا إلى أن أشهر نوادر تلك القصة الرومانسية، وإن لم توجد فى النسخة المرقومة أ١ إلا أنها كانت معروفة ببلاد الإغريق فى القرن الثالث ق.م. وهذه القصة الرومانسية انتقلت آخر الأمر إلى آسيا تمازجها تغييرات لا نهاية لها إلى أن بلغت الملايو وسيام ، ووصلت غرباً إلى فرنسا وبريطانيا . أما التاريخ فى حد ذاته فأخذ ينزع أكثر فأكثر إلى صورة الكتب المدرسية والمختصرات ، بعد نقله فى صورة مختصرة عن الكتاب الكبار وتكراره من أحدهم للآخر مع تدهور حاله رويداً رويداً. وإن جستن وأورسيوس ليمثلان ذلك النوع من التأليف ، وإن جاءا متأخرين .

والحق أن أشكال الكتابات النثرية ومحتواها كانت كثيرة كثرة لا يحصيها عد ، وذلك لأنه ما من فرع من فروع الفكر أو النشاط الإنسانى إلا واتخذ موضوعاً للتأليف والأدب. وقد أسلفنا إليك ذكر اليوتوبيات(الفصل الثالث). وأصبحت «الرسائل» مركباً جدياً هاماً يستخدمه الفلاسفة . بيد أن الرسائل بين زائفها ومموهها لعبت أيضاً دوراً فى نشر التاريخ الأدبى وفى حرب النشرات والدعاية التى صحبت المنازعات العسكرية بعد وفاة الإسكندر ، أما الرسائل المنشورة للإسكندر وأولمبياس وأنتيجونس جوناتاس وغيرهم ، فعلى أحسن الفروض لم يكن أصيلاً منها إلا شطر صغير فقط . وكتبت محادثات خيالية بين بعض الشخصيات التاريخية (وقد عثر منها حتى الآن على اثنتين) ، كما أن القطع الساخرة لمنيبّوس من جدارا (قرابة ٢٨٠) التى أكثر لوكيان من الانتفاع بها والتى كتبت بالنثر والشعر ممتزجين ، كانت تُسبك أحياناً فى صورة المحاورة ، شأن قصص حياة الأفراد لساتيروس . وكانت طبقة كبيرة من الناس ترغب فى قراءة كتابات قصيرة سهلة ، ولذا تكاثر بالبلاد « أدب » كامل من التتف المدبجة فى كل موضوعات — منها التاريخ والحرب والولائم والمسارح والفلسفة الخلقية والشائعات المنوعة ، وهى تتفاوت ما بين المقتطفات التاريخية الأصيلة وبين النوادر غير الجديرة بالثقة إلى أقصى حد . وبوليائنوس (Polyaenus)وآيليان هما اللذان يجلّيان ذلك الطراز من الكتابة، كما أن كشكول أثينايوس الضخم ، إن هو إلا مثال لذلك الاتجاه يقابل بالتجيد ، ويزداد قدراً بما حوى من ذكر لكتاب لولاه لذهبوا من ذاكرة التاريخ وبفضله حفظت أسماؤهم . وما تلك «الخطط» التى تنسب للإسكندر إلا تصنيفات من ذلك النوع ، دونت فى القرن الأول وجمعت بين قليل من الصدق وكثير من الزيف ؛ والظاهر أن بطلميوس يورجيتيس الثانى نشر كتابه الخاص وهو كتاب عادى.ولم يكن لدى الإغريق أى إحساس بخطأ انتحال الآثار الفكرية ، وكان النقل عن أحد السابقين ينطوى على تكريم عظيم . وفى الإمكان رؤية نتيجة ذلك فى تصرف جوبا الثانى ملك موريتانيا وهو ممن شملهم أوغسطس برعايته، وكان جوبا يبدى استعداده لشراء أى شىء زائف، وينسب إليه أنه صنف أعمالا ضخمة يعوزها التمحيص الناقد فى موضوعات كثيرة بمجرد استخدام عجينة اللصق والقص، وكذلك أيضاً ليس « التاريخ

الطبيعى » لبليني إلا مثالا أفضل لنفس الطراز ونفس الطريقة . وبطبيعة الحال احتفظ مثل هؤلاء الكتاب بأشياء كثيرة حقيقية وأخرى زائفة أيضاً، ولكن النوعين اختلطا معا بحيث أصبح من المستحيل الآن فى غالب الأحيان تفريق أحدهما من الآخر .

وهناك آخرون كانوا يجمعون القوائم، فهناك مثلا الخطباء «الأتيكيون العشرة » «وعجائب الدنيا السبع » ، وأكثر من قائمة بأسماء « المخترعين » وكلها أشياء هللينستية بحتة ، وقد أنشاء فليجون قائمة بأسماء المعمرين الذين بلغوا المائة عام، كما أن أحد الناس أعد قائمة بأسماء دعاة منع المسكرات. كان هناك أدب كامل قوامه العجائب والمدهشات ، غالباً ما كان ينسب إلى أسماء عظيمة من رجال الماضى ، كما كانت تنسب إليها لعمرو الحق أنواع كثيرة من الكتب . وإن قصص الحب الرومانسى (وهى ليست بالمحاولات الجدية لتصوير الحب ، مثل قصة أبوللونيوس) لتظهر فى أماكن وأحوال وملابسات عديدة — مثل قصة هيرون ولياندر ، وسافو وفاءون ، وبيراموس وثسبي ، وأنطيوخوس الأول واستراتونيكى — وهى التى تمهد السبيل لما يسمى بالرواية الإغريقية الطويلة التى ظهرت فى العصر الرومانى . والمعروف أن بارثينيوس النيقى استحضر إلى روما (فى عام ٧٣) كتاباً حاوياً لمثل هذه القصص الغرامية .وكتبت أعمال أدبية عديدة فى موضوعات خاصة منها الجيد، ككتاب تيموسثينيز الرودسى المعنون « عن الموانى » ، وقد ترك أسكليبيودوتس تلميذ بوسيدونيوس كتاباً حافلاً بالحذلقة يبحث فى التدريب والتكتيك العسكرى . ونحن نسمع عن كتب فى الزراعة وتربية النحل وأشجار الفاكهة والحدائق وتربية الخيل وصيد السمك والأحجار الثمينة وتفسير الأحلام ، وهناك أوصاف للحفلات الخاصة أو السفائن الضخمة التى شادها بطلميوس الرابع وهيرون، وديوان كامل من الكتب يدور حول فن الاستمتاع بتذوق المآكل وحياة الفجور والخلاعة . وكان من الطبيعى ان ينسب كتاب فى وسائل التجميل لكليوبطرة .

وثمة عمل لا بد من ذكره لما تسبب فيه من شر : ذلك هو الكتاب الذى صدر فى أخريات القرن الثالث بعنوان « ما فى سالف الأزمان من خلاعة

وفجور » . وكان هدف الكاتب الذي دعا نفسه أرستيبس تلميذ سقراط ، أن يلصق بكل اسم كريم من الفضائح ماشاء له هواه وماجاء به خياله، وقد أصبح الشيء الكثير منه الآن مفسّقا مكذباً بفضل ما احتواه كتاب « حياة » الفلاسفة تأليف ديوجينيس اللائرتى . وهو لا يكاد يكون الكتاب الوحيد من ذلك النوع ، وكل من شاء أن يفهم الهلينستية ينبغى له أن يكون مستعداً لهذا النوع ، من تصيد الفضائح ، الذى يلقاه مبثوثاً فى بعض المصادر الأدبية الموجود حالياً وأن يعامله بما هو جدير به من ازدراء . فإن فيليب الثانى الذى لم يكن بالرجل المثالى خلقاً ، ربما غمر بالخجل كثيراً من الكتاب عندما شخص ببصره بعد معركة خيرونيا إلى سرية طيبة المقدسة وهى راقدة ميتة فى صفوف عسكرية ولعن من فاه بالسوء عن مثل هؤلاء الرجال .

الفصل التاسع

العلوم والفنون

لم تبلغ العلوم ببلاد الإغريق أوج اكتمالها إلا بعد عهد الإسكندر الأكبر. وكانت هناك بداية حسنة بدأت قبل عصره بزمن طويل فى الرياضيات والطب، ذلك أن أتباع فيثاغورس وأفلاطون ومدرسته بلغوا بالهندسة مرحلة متقدمة، وإن النقش المكتوب على باب أكاديمية أفلاطون: « لا يدخلها من لا يعرف الهندسة » لشيء مشهور معروف — كما أن أبقراط الذى لا يزال الأطباء العصريون يقسمون قسمه — وضع دعائم قوية لعلم الطب، على حين أن أرسطوطاليس الذى كان الإسكندر يمده بالمال فى عمله بسخاء كبير، لم ينظم فقط دولة العلم كلها، بل إنه أقر ورسخ أقدام المبدأ الذى يتحكم فى كل بحث، وهو التوفر على جمع مادة علمية أولاً ثم العمل على استقراء النتائج منها. وكان كل شيء مهيأ لانبجاسة من النشاط، ما لبثت أن جاءت بمجرد تمكن الإسكندر من مضاعفة حجم العالم المعروف أربعة أضعاف. وقد زود هو بنفسه العالم بالمادة اللازمة لزيادة المعرفة فى كثير من حقولها: — كعلم النبات والحيوان والجغرافيا وعلم وصف السلالات البشرية (Ethnography) وعلم مساقط المياه وأوصافها، ولكن لعل ما هو أهم من ذلك أنه أدخل بابل فى نطاق الدائرة الإغريقية. وكانت النتيجة أنه حدث إبان بضعة أجيال بعد وفاته نمو فى العلم الحقيقى لم ير العالم له بعد ذلك مثيلاً أمد قرون كثيرة جداً. وقد ظل الاعتقاد بتفوق هذا العصر منيعاً على كل شك حتى عهد قريب جداً. بيد أن ذلك الاعتقاد كان ينطوى على إحدى تلك المتناقضات التى زخرت بها الهلينستية، ونحن نعد العلم شيئاً أوربيا فى جوهره، ولكن علم الفلك الهلينستى كان يرجع الفضل فى بعضه إلى البابليين.

وربما جاز لنا أن نبدأ حديثنا بالفلك. فإن بابل ظلت أمداً طويلا تجمع من السماء المشاهدات التجريبية، هذا إلى أن الصورة الإغريقية للسماء وما حوت

من كواكب ومجموعات نجمية ، كانت كخطريطتنا الراهنة بابلية ، وذلك في حين أن خرائط المجموعات النجمية البابلية ذاعت في رحاب الأرض حتى بلغت الصين نفسها قبل ٥٢٣ ، ولكن حدث في أثناء الفترة الفارسية — وهي تؤرخ حتى ٥٢٢ — أن ابتدأ ببابل علم الفلك العلمي بمعناه الصحيح القائم على استخدام المشاهدات المسجلة ، وكانت ببابل ثلاث مدارس ، هي مدرسة أوروك وسيبار وبابل ومعها بورسبا . والاسم العظيم الذي اشتهر بعد عهد الإسكندر هو كيدينو من سيبار (كيديناس Kidenas باليونانية) ، وإن لم يعرف على وجه التحقيق ما إذا كان ظهوره في أواخر القرن الرابع أو الثالث . وقد نسب إليه الأستاذ ب . شنابل في ١٩٢٣ ذلك الاستكشاف المثير ، وهو المسمى « استقبال نقطتي الاعتدالين » ، وإن كان ذلك موضع جدل بين أهل الرأي ، كما أنه يجعل تقديره للسنة ٣٦٥ يوماً ، ٥ ساعات ، ٤١ دقيقة ، ٤,١٦ ثانية ، أقصر فقط بمقدار ٧ دقائق و١٦ ثانية من التقديرات العصرية وذلك بالنسبة لعام ٣٠٠ ق . م .

وكانت النظرية التي يقبلها الإغريق عن العالم منذ عهد يودوكسوس (القرن الرابع) هي أن الشمس والقمر والنجوم كانت تدور حول كرة أرضية ثابتة ، في دوائر ومجالات ذوات مركز واحد ، بيد أن هيراقليدس من هرقليا البونتيكية (على البحر الأسود) وهو معاصر لأرسطو ويصغره ، استكشف أن الأرض تدور حول محورها ، وأن عطارد والزهرة إنما تدوران حول الشمس . وكانت هذه الآراء موضع القبول من كل من أريستارخوس من ساموس (حوالي ٣١٠ — ٢٣٠) وهو أحد تلاميذ استراتون المشائي ، الذي أتبع ذلك باكتشافه أن الشمس أكبر كبيراً من الأرض — وأنها في ظنه تقارب ضعف حجمها ثلاثمائة مرة . والراجح أن ذلك الاستكشاف هو السبب الذي من أجله صارت نظرية تمركز المجموعية الشمسية في الأرض مستحيلة في نظره ، وهو الذي بسط الرأي القائل بأن الأرض والكواكب السيارة جميعاً تدور حول الشمس في دوائر ، على حين أن الشمس ثابتة هي والنجوم الثابتة . والنجوم تبعد عنا بمسافات هائلة . ولا شك أن مثل هذا الرأي كان ينبغي أن يحدث لدى الدوائر الفكرية في الدنيا انقلاباً يؤذن

بقيام عصر تاريخي جديد، وإن لم يستطع صاحبه إثباته. وبطبيعة الحال لم يستطع علماء الهندسة الكبار الذين خلفوه وهم أرشميدس وأبوللونيوس وهيبارخوس أن يجعلوا الظواهر التي تقع تحت مشاهدتهم تتفق مع اتخاذ الشمس مركزاً للدائرة، ولذلك نبذوا نظامه. وكان هيبارخوس على صواب تام من الناحية الهندسية حين قال: إن الإنسان ينبغي أن «يحافظ على الظواهر» أي يستمسك بالمشاهدات. ومن سوء الحظ أن ذلك لم يؤد إلى استكشاف المدارات الإهليلجية، بل إلى جلب المزيد من التطور إلى فكرة هراقليدس عن الدوائر التي تكون مراكزها على محيط أخرى، ثم جاء شخص في القرن الثالث ولعله أبوللونيوس فطلع على الناس بفكرة النظام المنسوب إلى «تيخوبراهي(١)» — وهو أن الكواكب تدور حول الشمس والشمس حول الأرض، ولم يقدر لهذه النظرية أن تدوم هي الأخرى. وعدا ذلك فمن الفلكيين الآخرين في القرن الثالث الذين ينبغي ذكرهم، صديق لأرشميدس اسمه كونون الأسكندري، فهو الذي سمى مجموعة النجوم باسم ضفائر برنيقة Coma Berenices على اسم خصلة الشعر التي نذرتها برنيقة من أجل سلامة زوجها بطلميوس الثالث، وهي من مجموعات النجوم القليلة في سمائنا التي لا يرجع الفضل في الكشف عنها لبابل. وفي نفس الحين كانت مجموعة من البابليين الذين يبرز بينهم اسم سودينس (Sudines) ينقلون ويترجمون إلى الإغريقية، واستطاعوا عند القرن الثاني أن يضعوا في متناول الإغريق كثيراً من المواد البابلية بما في ذلك مؤلفات كيديناس.

وكان الاسم العظيم الذي ظهر في القرن الثاني هو هيبارخوس النيقي (حوالي ١٤٦ — ١٢٦). وكان معاصره الفلكي سلوقوس، وهو إغريقي من سلوقيا على الخليج الفارسي ومن الشخصيات الدساسة، يدافع عن نظرية أرستارخوس القائلة بمركز العالم حول الشمس ويحاول أن يتلمس لها البراهين. وتناول هيبارخوس بالبحث تلك الدوائر التي تكون مراكزها على محيط أخرى والدوائر اللامركزية، وعالجها خيراً مما عالجها أبوللونيوس، واستنبط ذلك النظام القائل بمركزية الأرض (Geocentric System) الذي نقله فيما بعد كلوديوس بطلميوس وقدر له أن يتسلط على العالم حتى ظهر

(١) تيخوبراهي (١٥٤٦ — ١٦٠١) فلكي دانيمركي ظهر في العصور الوسطى (المترجم)

كوبرنيق (١). وخسر سلوقوس المعركة ، وانتهى نظام أبوللونيوس ، واستقر العالم وهدأ جانبه إلى النظرية القائلة بأن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض. ولكن هيبارخوس أدرك حقيقة حركة الشمس الظاهرية إدراكاً صحيحاً ، على أنه لم يستطع قط أن يجد تعليلا للقمر . ووجه الأسف فى الموضوع هو أنه لو تهيأ إقرار نظرية مركزية الشمس (Heliocenticism) لقضت على التنجيم وأنقذت العالم من متاعب لا نهاية لها . وكان الناس يعتقدون أن هيبارخوس هو الذى استكشف نظرية « استقبال نقطتى الاعتدالين » ، وكانت تقديراته الحسابية هى التى جعلت نقطة الاعتدالين تتقدم ٣٦ً ثانية فى السنة (وهى فى الحقيقة ٥٠,٣٧٥٧ً) . فأما كونه هو المستكشف الحقيقى أو أن المستكشف شخص آخر غيره ، فذلك أمر يرجع إلى ما يدعى بعضهم لكيديناس من أسبقية مزعومة (انظر ما قبله فى نفس الفصل) . فقد جاء أوان كان فيه أهل الرأى العصريون يميلون — من قبيل المعادلة والتوازن — إلى ترجيح كفة كيديناس . ومن المحقق أن هيبارخوس استخدم أنواع الكسوف البابلية المدونة وقدراً عظيما من المعلومات الأخرى — حتى لنكاد لا ندرى أين ينتهى دينه لبابل — وكان عليما بأعمال كيديناس ، وذلك أنه يقال إن مساجلة صريحة كشف عنها النقاب تبين أنه أخذ عن كيديناس هذه المعادلة : ٢٥١ دورة قمرية = ٢٦٩ شهراً من الأشهر القمرية القياسية من الحضيض إلى الحضيض . (٢) ومع ذلك فإن تقديره للسنة كان يختلف عن التقدير المنسوب إلى كيديناس ، وهو أطول من معـدل السنة المدارية أو الفلكية بمقدار ٦ دقائق ، ١٤,٣ً ، بيد أن الحقيقة التى وضعوا أسسها ، وهى أن السنة لم تكن ٣٦٥ ¼ يوماً ، قد أهمل استخدامها حتى ظهر التقويم الجريجورى . وكان تقدير هيبارخوس لطول معدل الشهر القمرى أقل من ثانية واحدة بالضبط ، كما أن أرقامه التى وضعها لبعد القمر وقطره كانت قريبة جداً من الحقيقة . وقد جعل كتلة الشمس تعادل كتلة الأرض ١,٨٨٠ مرة ، وشرع يدرك بعدها الهائل زاعماً أنه يعادل قطر الأرض ١,٢٤٥ مقابل ١٨٠ التى ارتآها

---

(١) هو الفلكى البولندى كوبرنيكوس (١٤٧٣ — ١٥٤٣) [المترجم]

(٢) وعدة الشهر فيها ٢٧٫٥٥٤٠٥ يوماً وعدة السنة الفلكية ٣٦٥/٥/٤٨/٤٠ يوماً . (المترجم)

أرستارخوس . ومن المؤسف أن بطلميوس رجع إلى ٦٠٥ . وقد استخدم فى أرصاده الترييح(١) (اختلاف موقع النجوم) الذى كان معروفا من قبل لأرشميدس . وكان أعظم أعماله هو كتالوجه الحاوى على أكثر من ٨٠٥ من النجوم الثابتة . وقد وضعت فيه على أساس خطوط العرض والطول وقسمت إلى ثلاث درجات بحسب اللمعان ، وهو كتالوج وسع فيه بطلميوس قليلا . كان ذلك الرجل آخر رجال الفلك العلميين ، إلا إذا اعتبر بطلميوس أحدهم وقد واجه بالفعل عالماً جديداً ، هو عالم التنجيم الذى رسخت قدمه من قبل (الفصل العاشر) .

على أن هناك اسماً من القرن الأول ينبغى إدراجه هنا هو بوسيدونيوس، لأنه زكن زكنتين لماعتين . فإن بوسيدونيوس جعل قطر الشمس قدر قطر الأرض ½ ٣٩ مرة مقابل ما ارتآه هيبارخوس من أنه ⅓ ١٢ مرة وما زعمه أرستارخوس من أنه ¾ ٦ مرة ، كما جعل بعدها عن الأرض قدر قطر الأرض ٦٫٥٤٥ مرة مقابل البعد الذى زعمه هيبارخوس وهو ١٫٢٤٥ ، وذلك يكون على التعاقب ⅜ ، ⅝ الأرقام الحقيقية . ولكنه حصل على المسافة بأن أخذ عن أرشميدس قطر مدار الشمس الظاهرى ، وأنه يعادل قطر الأرض ١٠٫٠٠٠ مرة ، بينما كان أرشميدس يوضح لغرض آخر أنه لا بد أن يكون أقل من ١٠٫٠٠٠ مرة — وهو مثال حسن على مناهج بوسيدونيوس . ومن سوء الحظ أن بطلميوس زعم لحجم الشمس وكتلتها أرقاما أصغر كثيراً حتى من تلك التى اقترحها أرستارخوس ؛ وظل بطلميوس يعتبر المرجع الثقة لمدة قرون كثيرة جداً .

وكانت الرياضة شديدة الارتباط بالفلك ، وكثيراً ما كان نفس الرجال يعملون ناشطين فى كل من الحلقتين . والراجح أن ما كسبه القرن الثالث فى الرياضيات كان فى الواقع أعظم كثيراً من أى كسب فى أى علم آخر . وكان لا بد من أن تكون الهندسة أساساً لكل شىء ، حيث لم تكن للأرقام

(١) الترييح : هو التغير الظاهرى (الذى يقاس بالزوايا) فى مركز جرم سماوى إذا رصد من نقاط مختلفة) . (المترجم)

رموز تكتب بها ، والراجح أن ما اتصفت به الهندسة عند الإغريق من الكمال كان هو نفسه الذى حال دون اختراعهم علامات للأرقام . ولم يكن إقليدس (حوالى ٣٠٠) رياضياً أصيلا ، وإن كتب فى موضوعات كثيرة ، كما أن هندسته المشهورة ، لم تكن فى الحقيقة إلا كتابا تعليمياً متداولا وحاوياً على معلومات معروفة من قبل ، وإن أحكم إقليدس حبك بعض البراهين وتقويتها ، بيد أنه كان رجلا عاقلا ، يعتقد كأفلاطون وأرشميدس بضرورة الانتهال من المعرفة من أجلها هى ذاتها كما ، أنه قال يوماً لبطلميوس الأول إنه ليس هناك « طريق ملكى » يوصل إلى الهندسة . واستمر كتابه هو الكتاب المدرسى للهندسة فى العالم فى أثناء عصور الإغريق والرومان والعرب والقرون الوسطى والعصر الحديث حتى عهد جيل لا يزال على قيد الحياة . وكانت الهندسة عند الإغريق تحتوى على الدوام على أشياء كثيرة تعد اليوم من موضوعات الجبر ، ولكن يرى أهل الرأى أن المعادلات الرباعية كانت تستخدم بالفعل فى إيجاد القيم العددية فى عصر إقليدس ، ومع ذلك فإن الخطوة الإيجابية نحو التدوين الجبرى لم تتخذ حتى جاء ديوفانتوس فى القرن الثالث الميلادى . وعالج إراتوستنيز الرياضة فيما عالج من مناشط أخرى ، وقدم إليه أرشميدس إهداء كتابه « عن المناهج » ، وعندما اشترطت الآلهة لإيقاف طاعون حل بديلوس ، أن يضاعف حجم هيكل لديها مكعب الشكل ، كان إراتوستنيز هو المستكشف لطريقة مضاعفة حجم المكعب . ولعل أبوللونيوس من بيرجى وهو من مدرسة إقليدس وأصغر بقليل من أرشميدس ، — هو الاسم الثانى فى الرياضة البحتة ، وإن مؤلفه العظيم فى القطاعات المخروطية ، الذى أهدى شطره الأخير إلى أتالوس الأول ، ليسجل من التقدم فى المعرفة ما يظهر أنه لم يترك لمن يكون بعده إلا القليل . والراجح أنه هو الذى كان أول من بدأ العمل فى حساب المثلثات ، وإن كان أول استخدام منظم لحساب المثلثات إنما يرجع فيما بعد لهيبارخوس الذى قام (فيما قام به من أعمال أخرى) باستخدام التثليث فى نقده لخريطة إراتوستنيز .

وأعظم الأسماء طراً هو أرشميدس السيراقوزى (المتوفى فى ٢١٢) . وقد كتب مباحث فى العديد الجم من الموضوعات ، كما أن مجرد سرد قائمة

بجهوده وأعماله الفنية شيء يطول ؛ فإنه عمل فيما عمل من أشياء ، حسابا لقيمة النسبة التقريبية : « ط » (وهي النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) ، وإن استطاع أبوللونيوس فيما بعد أن يصل إلى نتيجة أدق ، واخترع مصطلحات للتعبير عن الأرقام إلى أية قيمة عالية يراد الوصول إليها ، ووضع أسس حساب التكامل والتفاضل ، وأسس علم الهيدروستاتيكا (توازن السوائل) بأكمله . وقد حفرت على قبره بناء على طلبه (وقد ضاع ذلك القبر منا حتى عاد شيشرون فاستكشفه لنا ثانية) صورة كرة داخل شكل إسطواني ، وذلك كناية عن أنه كان يعتبر البرهان الذي أقامه عن العلاقة بين حجم كرة وإسطوانة قائمة الزاوية محيطة بها ، أبدع ما أخرج للناس . وكان أيضاً أعظم ميكانيكي نظري ظهر في العالم القديم ؛ ومع أنه كان متفقا في الرأي مع أفلاطون بأن الفيلسوف ينبغي ألا يضع معرفته موضع التجريب العملي ، فإن الواقع أن التطبيق العملي الذي أجراه على ما لديه من معرفة هو الذي استولى على خيال الدنيا بأجمعها . وقد أنشأ جهازاً يمثل حركة الكواكب السيارة تديره المياه لتمثيل حركات الأجرام السماوية (ولا بد أن الكواكب كانت تحرك باليد) ؛ واخترع رافعة البكرات المركبة ودولاب الرفع لتحريك الأثقال العظيمة ، كما اخترع الطنبور المستخدم لنزح الماء من السفن وصرف المياه من الحقول بعد فيضان النيل ، وهو لا يزال موجوداً في صورة المخارز الأرشميدية . ولا شك أننا جميعاً نعرف ما يروى عنه من حكايات : وكيف أنه كان من شرود الذهن بحيث ينسى أن يتناول طعامه ؛ وكيف حدث يوما أنه استكشف الثقل النوعي بملاحظته الماء المزاغ في أثناء دخوله الحمام بجسمه وكيف وثب منه وجرى إلى المنزل عريان وهو يصيح « وجدتها » (Eureka) وكيف تمكن عندما نشأت صعوبات في سبيل إنزال سفينة الملك هيرون العظيمة المسماة بالسيراقوزيا من إنزال السفينة إلى البحر بنفسه ، ثم قال للملك : « أعطني موطئ قدم أقف فيه ، أحرك لك الأرض » ، وكيف حدث في أثناء حصار سيراقوزة أن عالم الهندسة استطاع بمفرده صد قوة روما بكاملها وأوقعها في ضنك وحرج لمدة ثلاث سنوات بما استحدث من كلابات وخطافات وما أدخل من التحسينات على المجانيق . وهو الرياضي الوحيد الذي أصبح أسطورة على مر التاريخ .

وفيا عدا أرشميدس وحده ، يمكن القول بأن فن الميكانيكا العملية (متميزاً عن الهندسة) لم يصل إلا إلى القليل ، وكان أهم ما بلغه بوجه خاص آلات الحصار ومجانيقه ، التي كتبت عنها مقالات منوعة لا تزال باقية وكذلك اللعب الميكانيكية ، فقد كانت الأيدى العاملة رخيصة جداً وبدرجة لا تسوغ الإكثار من التفكير فى الآلات ، وإن اخترع إكتيسبيوس منجنيقا يدار بالهواء المضغوط ، كما اخترع ساعة مائية واستحدث آخر طاحونة مائية ، واخترع إكتيسبيوس الأصغر أرغنا مائياً كان يستخدم فى الكنيسة فى أوائل عهدها . وصنع أرستارخوس مزولة شمسية محسنة . وكانت تخامر هيرون الإسكندرى فكرة ما عن قوة تمدد البخار . ولكن بعضهم يذكر أنه عاش بعد عام ٢٠٠ للميلاد ، وإن كان القرن الأول ق . م أرجح الاحتمالين . وكان أنفع الاختراعات ميزان الماء للمساح (الديوبترا) (Dioptra) أو ميزان الماء القابل للحمل ، الذى حل محل المزوى (الثودل) فى مسح الأراضى ، وأنشأ هيبارخوس شكلا أكثر إتقاناً لآلة تستخدم فى الفلك ، وقد فكر فيها على أساس النماذج البابلية السابقة . وظلت الرياضة قوية ، بيد أن اتجاه القرن الأول يتجلى عند الأبيقورى زينون الصيداوى الذى هاجم أسس الهندسة ذاتها ، ورد عليه پوسيدونيوس مفنداً . وتنتهى الفترة بظهور كتاب ضخم فى تاريخ الرياضة ألفه جيمينوس تلميذ پوسيدونيوس ، وأودعه خلاصة للنتائج التى أمكن الحصول عليها .

أما علم الجغرافيا وجانبه العلمى متميزاً عن الجغرافيا الوصفية ، فحدث فيه نشاط عظيم مالبث أن انتعش ثانية فى عهد الأنطونيين . وكان استهلاله سلسلة المقاييس التى قام بها قسم المساحة (Bematists) التابع للإسكندر وتتألف من تلك المقاسات التى ظلت لمدة طويلة أساساً لجغرافية آسيا . وحدث حوالى ٣٠٠ أن المشاء ديكايارخوس تمكن بفضل المساعدة المالية التى تلقاها من كساندر أو ليسياخوس من صنع خريطة للعالم ومن تقدير ارتفاعات العديد من الجبال اليونانية ، كما أنه (فيما يحتمل) حسب طول محيط الأرض ، مستخدماً الخط ما بين أسوان وليسياخيا أساساً لذلك وجعله ٣٠٠٫٠٠٠ استاديوما(١) وهو رقم مبالغ فيه كثيراً ، ولكنه جدير بالذكر والتقدير لأنه أول محاولة .

(١) الاستاديوم مقياس طولى يونانى مقداره حوالى ٦٠٠ قدم (المترجم)

بيد أن الجغرافى العظيم فى القرن الثالث ويعد من أعظم من أنتج ذلك القرن من الرجال ، هو إراتوسثنيز من برقة (٢٧٥ — ٢٠٠) ، وهو تلميذ لأرستون الرواقى الملحد بأثينا ، وكان يعمل بالإسكندرية ، ولكن كانت له بالأكاديمية صلات وروابط . وقد أوشك أن ينافس أرسطو فى عدد ميادين العلم التى بحث فيها . ففضلا عن دراساته فى النقد التاريخى وعلم تدوين التاريخ ، فإنه أصدر مؤلفات فى الرياضة والفلسفة وصنف تاريخاً للكوميديا حل محل تاريخ ليكوفرون ، كما كان يكتب الشعر . وكانت كنيته « بيتا Beta » (أى رقم اثنين) ، ومعنى ذلك أنه لو أجريت قرعة بين رجال العلم لحصل على «صوت تميستو كليس » فى كل فرع من فروع العلم . وقد قاس محيط الأرض بأن حسب مقدار كسر قوس خط الزوال الذى يعادل تلك المسافة المعروفة بين الإسكندرية وأسوان وقدرها بمقدار ٢٥٢,٠٠٠ من الاستاديومات ، ولكن طول الاستاديوم الذى استخدمه مجهول لنا ، ولذا فالتحقق من شىء فى هذا المضمار أمر لا يمكن الوصول إليه . بيد أن أعظم التقديرات احتمالاً تجعل قياسه ٢٤,٦٦٢ ميلاً ، بينما معدل المحيط الحقيقى ٢٤,٨٥٧ ميلاً . ومهما يكن مقدار غلطته الفعلية فالواقع أنها نشأت عن عدم إمكانه الحصول على وسيلة لمعرفة ما إذا كانت الإسكندرية وأسوان تقعان بالضبط على نفس خط الطول (وهما فى الحقيقة لا تقعان) ؛ ولكن ذلك العمل كان جهداً مدهشاً رائعاً ، لم يستطع أحد أن يزيد عليه شيئاً حتى الأزمنة الحديثة . وقد جعل مساحة « الأرض المأهولة بالسكان » « ٨,٩١٠ فى ٤,٣٤٠ ميلا » ، يقسمها من حيث خطوط العرض — خط عرض رودس (٣٦°) ، الذى اعتبره معادلا لخط طوروس — هندوكوش ؛ وقد اقتبس هذا التقسيم الأخير عن تقويم البلدان فى إمبراطورية الإسكندر وهو العمل الذى تم قبل وفاة الإسكندر بقليل . ورسم كذلك بعض خطوط طول وعرض معينة .

وقد وجد الإسكندر حلا لمسألة طالما حيرت أرسطو ، وهى مسألة اتصال الهند بإفريقية أو عدم اتصالها ، كما أن عقلية إراتوسثنيز الناقدة الجبارة لم تشك لحظة فى أن المحيطات وحدة واحدة مياهها متصلة بعضها ببعض ، وأن العالم المأهول « أوربا ـ آسيا ـ إفريقية » إن هو إلا جزيرة واحدة .

وقد أشار إلى تشابه المد والجزر فى المحيطين الهندى والأطلسى ، واستنتج وهو على جانب الصواب أن فى الامكان الإبحار من إسبانيا إلى الهند رأساً حول إفريقية ، وهى رحلة لم تتم فعلا قبل فاسكو داجاما ، وإن كان العالم اللغوى قراطيس من ملّوس (حوالى ١٦٨) ، فى مجادلاته مع العالم بفقه اللغة أريستارخوس حول ما لدى هوميروس من جغرافيا ، قد جعل مينيلاوس يقوم بتلك الرحلة ، كما أن بوسيدونيوس انتفع بالفكرة فى قصة طواف يودوكسوس (الفصل السابع) . وكان إراتوسثنيز أيضاً أول من رأى أن الإنسان يمكنه الإبحار غرباً من إسبانيا إلى الهند .

لقد كانت له بطريقة ما آراء أضبط من آراء أى فرد جاء بعده ؛ ولكن نقطة الضعف لديه هى ما كان يعترضه من صعوبات فى خطوط الطول، واستطاع هيبارخوس بما تهيأ له من زيادة فى المعرفة أن يوجه إلى إراتوسثنيز سهام النقد الخطير من هذه الناحية . وقد دارت بخلد هيبارخوس نفسه تلك الفكرة الممتازة الداعية لتثبيت خطوط العرض وخطوط الطول تثبيتاً فلكياً عن طريق تعاون مجموعة من المشاهدين فى جميع أرجاء العالم . وكان الموقف السياسى يجعل تنفيذ تلك الفكرة مستحيلا ، فأما أنها وصلت فى النهاية إلى بعض الثمار فشىء يومئ إليه عدد الأماكن التى ذُكر طولها وعرضها فى كتاب الجغرافيا الأخير الذى ألفه كلوديوس بطلميوس ، والذى ظل متسلطاً على العالم حتى عهد كولمبس، وإن كانت إحداثيات النقط التى وضعها بطلميوس فيما يتعلق بمناطق الشرق الأقصى وخطوطها لا تخرج عن الرجم بالغيب .

وبذل بوليبيوس جهوداً شاقة ليحول الجغرافيا الإغريقية من بعده إلى النوع الوصفى ، باعتبار أن ذلك النوع هو الوحيد النافع للمؤرخ . كما أن التقدم الوحيد الذى ظهر فى الجغرافيا العلمية بين زمن هيبارخوس والعصر الرومانى كان مصدره بوسيدونيوس (الفصل العاشر) ، الذى بلغ حب الاستطلاع لديه إلى ما بالأرض من أشياء حداً لا نهاية له ، وكتب عن الأرصاد الجوية والظواهر البركانية إلى جوار ما سطر فى كتابه الشهير « عن المحيطات » ، وهو عنوان مستعار من بيثياس . إنه لم يكن بالعالم ولا الناقد ، ولكنه مع ذلك أدى خدمات جليلة للعلم . وإن مجموعته الضخمة من الظواهر

البركانية والمائية ، التى جمعها ليوضح التغيرات الحادثة بسطح الأرض ، لتشهد بمبلغ فكرته عن أهميـة الشواهد . وسواء كان تدمير أتلانتس أو هلاك (مسخ) هليكى من نسج الرطازات أو من حقائق التاريخ ، فإن الأمرين كانا عنده بمنزلة سواء ، ولكن المهم أنه تولد عن الأمر كله نظرية نطاق الزلازل الأوربى الأناضولى فى مجمله . وقد استخدم بعض فروض عجيبة فى حسابه لمحيط الأرض ، ولسنا نعرف طول الاستاديوم الذى استخدمه ، ولكن مهما تكن الحال فإنه جعل الأرض مصغرة تصغيراً شديداً وهو مبتدع فكرة المناطق الخمس الموجودة لدينا الآن ، وذلك أن بوليبيوس جعلهن ستاً ، كما جعلها إراتوسثنيز سبعاً بتقسيمه المنطقة المدارية إلى نطاقين متقدين حارقين ومنطقة استوائية قابلة للسكنى بينهما ، وهى زكنة(١) مدهشة الجودة حول ما يوجد بالعالم فعلا من النطاقات الصحراوية . وقد اتخذ بوسيدونيوس الظل ساعة الزوال مقياساً ، سواء أكان فى أثناء السنة يقع فى اتجاه واحد أم فى اتجاهين متضادين أم فى جميع الاتجاهات . ومن حسن الحظ أنه اتبع رأى إراتوسثنيز من أن جميع المحيطات وحدة واحدة متصلة ، وهو اعتقاد قدر له أن يضيع من يد العالم مرة ثانية بسبب رفض الفلكيين هيبارخوس وسلوقوس له ، وقد قام برحلة شهيرة إلى قادس ، حيث درس المد والجزر فى المحيط الأطلسى . وكان أرسطو وديكايارخوس يزعمان أن الشمس هى التى تسبب المد والجزر بأن تبعث لها ريحاً ، وكان الرحالة العظيم جداً بيثياس أول من أظهر أن السبب هو القمر . وعندما أخذ سلوقوس يرقب الخليج الفارسى اكتشف عدم تساوى المد واختلافه فى يوم عن يوم (المد الأعلى والمد الأدنى) ، ونسب ذلك كله إلى موقع القمر من منطقة البروج ، ودفع بوسيدونيوس بملاحظة عدم التساوى هذه خطوة أخرى ونسبها إلى أوجة القمر . ولكنه عندما بحث عن مسبب ذلك عاد ثانية إلى نظرية الريح عند أرسطو ، وذلك على حين أن سلوقوس كان يظن أن التفاعل بين القمر والأرض كان يثير شكلاً ما من الضغط أو التيار ، ولعله كان كمن يتحسس طريقه فى الظلام فى اتجاه لو سار فيه الناس من بعده ، لأدى إلى استكشاف الجاذبية .

على أن رحلة بوسيدونيوس ألقت الضوء على أشيـاء أخرى عـدا المد

(١) زكن الأمر زكناً : ظنه ظناً كان عنده بمنزلة اليقين — كما ورد بمعجم الوسيط (المترجم)

والجزر ، فإنها أفضت فى النهاية إلى استكشاف أمريكا . وقد أشار بعضهم، ولعله إراتوسثنيز ، إلى أن المحيط الأطلسى ربما يكون منقسماً بالأرض (أعنى بأمريكا) انقساماً طولياً ، وهى إشارة أوحت إلى سنيكا بنبوءته المشهورة عن استكشاف عالم جديد . ومع ذلك ، فإن بوسيدونيوس لم يقتصر على رفض هذه الفكرة . بل كان يعتقد نتيجة لتقديره حجم الأرض تقديراً أصغر من حجمها الحقيقى بكثير ، أنه عند خط عرض رودس (٣٦°) ، يكون « العالم المأهول » الذى قدر عرضه بسبعين ألف استاديوم من الشرق إلى الغرب — يعادل نصف محيط الأرض ، ولذلك فإنه عندما نظر إلى المحيط الأطلسى لاحظ — وطبيعى جداً أن يلاحظ — أنه لو أبحر إنسان ٧٠,٠٠٠ استاديوم غرباً لبلغ الهند ، حتى إذا أقر « روجر بيكون » هذه الملاحظة ونقلها (مشاركاً فى ذلك آخرين) ، كانت هى الأساس النهائى فيما تولد لدى كولمبس من ثقة . ومن الصدف العجيبة التى تحمل معنى الإنصاف للتاريخ أنه أبحر إلى الهند من مدينة قادس التى ذكرها بوسيدونيوس .

أما فى الطب فإن الاسمين العظيمين فى أوائل القرن الثالث هما هيروفيلوس من خلقدونية وإراسستراتوس من إيوليس فى كيوس ، وقد أسسا مدرستين متنافستين، وكان هيروفيلوس يعمل بالإسكندرية ، وصار اسم مدرسته مقترناً باسمها ، وإن غزت آسيا . ولسنا ندرى إلا القليل عن حياة إراسستراتوس ومكان مزاولته عمله ، وذلك لأن القصص التى تدور حوله وبخاصة تلك التى تجعله طبيباً خاصاً لسلوقوس الملك ، قصص لا قيمة لها . وكلاهما أحرز تقدمات هامة فى التشريح والفسيولوجيا . واستكشف هيروفيلوس الأعصاب وكانت مجهولة قبله ، وكان يفهم أنها تمتد من المخ والحبل الشوكى ، وكان يميز بين المخيخ والمخ ، كما أنه استكشف أيضاً أن الشرايين تحمل الدم ، وليس الهواء (كما كان مظنوناً قبله) . وأنها لا تنبض من تلقاء نفسها بل بفعل القلب ، وبذلك يكون قد أوشك فعلا على استكشاف الدورة الدموية التى ضاعت من يد الإنسانية مرة ثانية حتى ظهر هارفى(١). ولا يزال بعض الأسماء التى أطلقها مستخدما إلى الآن مثل لفظة الاثنى عشرى(Duodenum)وعضلة هيروفيلوس الضاغطة(Torcular Herophi.i)وأدخل إراسستراتوس تحسينات

(١) هو الطبيب الإنجليزى وليم هارفى (١٥٧٨ — ١٦٥٧) الذى اكتشف الدورة الدموية . (المترجم)

على التركيب التشريحي للقلب، ولكن استكشافه الرئيسي هو التفريق بين أعصاب الحس وأعصاب الحركة. ومما يؤسف له أنه عاد إلى الاعتقاد بأن الشرايين تحمل الهواء. وكان كل من الرجلين يقوم بعمليات جراحية خطيرة، ويشرّح الجثث. وكان تشريح الحيوانات حية معروفاً من قبل عند أرسطو، ولكن كلسوس وهو كاتب متزن مقتدر يذكر قصة رهيبة تقول إن هيروفيلوس كان يشرّح المجرمين أحياءً حين يسلمهم إليه بطلميوس الأول (ولم تكن مواد التخدير معروفة)، ويقال مثل ذلك تماماً عن إراسستراتوس.

ولكن مدرستيهما لم تصلا إلى تقدم كبير فوق الذى أحرزه المؤسسان، ولم تلبثا أن غطت عليهما أضواء مدرسة ثالثة، هى المدرسة التجريبية التى أسسها فيلينوس من كوس أحد تلامذة هيروفيلوس، وهى التى تأثرت فيما يحتمل بنزعة التشكك التى رانت على الأكاديمية. لذا يظن بعض الناس أنها أهملت علم التشريح وذهبت إلى أن الأمراض قابلة للشفاء دون أدنى ضرورة للمعرفة بالفسيولوجيا. ولكن أبرز من عرف من رجالها وهو هيراقليدس من تارنتوم مارس التشريح فعلا، كما أن تركزها على الاهتمام بشئون الطب والعلاج كان له أثر كبير فى سبيل دراسة العقاقير. وهناك شخصية مشوّقة هى إسكليبيادس من بروسا ظهرت فى القرن الأول، ولم يكن طبيبا مدربا، ولكنه كان يتولى شفاء الأمراض بدون عقاقير وبالتغذية والمشى والتدليك والحمامات الباردة، وحصل من النجاح ما حاك أسطورة حوله تقول بأنه قد رفع إنسانا من بين الموتى فأحياه (مثلما فعل إمبيدوكليس). على أن فى الإمكان تتبع الأصل فى هذه الأسطورة بصفة قاطعة، وذلك أن كلسوس يقول إنه عرف يوما أن رجلا حُمل إلى المدافن وهو لا يزال حياً. وفى عهد أوغسطس يختتم كلسوس العصر بإنشائه دائرة معارف طبية، وهى خلاصة التقدمات التى أحرزت فى مضمار المعرفة منذ عصر أبقراط، وتماثل تاريخ الرياضة الذى أنشأه جيمينس. وعلى مدى الفترة الهللينستية من أولها لآخرها كان للطب القائم على أساس علمى غريمه الذى يقاسمه المرضى وهو التطبّب والتداوى فى معابد أسكليبيوس وسرابيس حيث كان المرضى ينامون فى حرم المعبد ويشفيهم الإله عن طريق الأحلام. وتدور حول بعض ألوان الشفاء المدونة حكايات مسلية لا يصدقها

العقل ، ولكن مامن شك في أن بعض المرضى كانوا يشفون بالإيحاء الذاتي . وفي القرن الأول كان الساحر المتجول منافساً خطيراً لكل من الطبيب والكاهن .

ولم يتهيأ لعلمي الحيوان والنبات إلا مرحلة لاتتجاوز مرحلة البداية ، وقد كتب ثيوفراستوس وخليفته إستراتون عن علم الحيوان . ولكن العلم ظل من حيث جوهره واقفاً حيث تركه أرسطو ، وكل ماتم صنعه هو تعريف العالم الإغريقي ببعض أنواع جديدة مختلفة من الحيوان وجعلها مألوفة لديه . فإن سلوقوس أرسل بَبراً Tiger هندياً إلى أثينا ، كما أن بطلميوس الثاني كانت له حديقة حيوان، تحتوي على الفهود والوشق وغيرها من أنواع القطط، فضلا عن ٢٤ أسداً كبيراً ، وبها الجاموس الهندي والإفريقي وحُمر وحشية من مؤاب ومن الحيات أصَلَة (بيثون) طولها ٤٥ قدما وزرافة وخرتيت ودب قطبي (لاشك أن رحلته نحو الجنوب كانت مثيرة جداً) ، وبها فوق ذلك البيغاوات والطواويس والدجاج الحبشي ، ومن الطيور الدرّاج وكثير من الطيور الإفريقية الأخرى. وكان حظ علم النبات أحسن قليلا ، فإن كتاب ثيوفراستوس «تاريخ النباتات»، الذي كان يضم بين دفتيه نتائج حملة الإسكندر، ظل أمداً طويلاً أعلى ما بلغه ذلك العلم ، وكل ما أضيف إليه لم يتجاوز معلومات أكثر دقة أضيفت عن بعض النباتات مثل شجرة اللبان العربية والعقاقير . وكانت هنالك مكتبة كاملة عن السموم والترياقات، اهتم بها أتالّوس الثالث وميثريداتس يوباتور اهتماما خاصا ، وأنشأ أتالّوس حديقة للنباتات العجيبة ليتمكن بها من دراسة ذلك الموضوع. ولكن علم النبات لم يحظ بامتداد أيدي العلماء إليه بالتصنيف والتسمية ، وإنْ بذل كراتيوآس طبيب ميثريداتس شيئا من الجهد لتقليل الشك والارتياب الناجم عن الوصف الشفوي بإدخاله طريقة تمثيل النباتات بالرسوم .

ويجب ألا نغالي في تقدير « العلوم » في العصر الهلّينستي مهما يبلغ من إثارتها لنفوسنا ، وذلك لأننا لو تأملنا العلمين اللذين يظهران اليوم بمظهر ضخم عظيم وهما الطبيعة (الفوزيقى) والكيمياء ، لوجدنا أن الكيمياء (فيما عدا كيمياء الصنعة القديمة) لم تبدأ قط ، كما أن علم الطبيعة (الفوزيقى) مات

بموت إستراتون الذى استخدم بصورة محدودة النظرية الذرية لديموقريطوس (التى لم تكن فى الواقع إلا نظرية للجزيئات). وذلك أن اقتباس أبيقوروس لهذه النظرية ليس له أية صلة بالعلم (الفصل العاشر)، وإن كان بيان لو كريشيوس عن النشوء والارتقاء القائم على فكرة أمبيدو كليس القائلة بأن كثيراً من أشكال الحيوانات السيئة التكيف والملاءمة قد بادت من الوجود، فيه ما فيه من نواة لنظرية حقة للنشوء والارتقاء لم يُقدر للعلم أن يتناولها بالتنمية. ولم يتقدم الإغريق خطوة واحدة على التى ذكرنا لأنه لم تكن لديه أية أدوات علمية، كما أنه فيما عدا ناحية الجراحة قلما أجرى تجربة واحدة. ذلك أنه لسعادة حظه فيما يحتمل، لم يوهب قط موهبة العمل اليدوى بالعدد والآلات. والراجح أنه سار فى طريقه بقدر إمكانه دون أن تتاح له بطبيعة الحال الاستعانة بالمرصاد (التلسكوب) ولا المجهر (الميكروسكوب) ولا أنبوبة الاختبار. وقد قال كورنفورد إنه لو قُيض للإغريق أرشميدس آخر من أى نوع فتغلب لهم على تحزبهم ضد الصناعات اليدوية والميكانيكية واخترع زجاج النظارات لتغير وجه التاريخ بأكمله، بيد أن أشياء كثيرة منها: منظار نيرون والإشارات إلى العدسات الحارقة وفوق كل شيء (مرآة الإسكندر) على منارة فاروس التى كانت تمكن الناظر من الشاطئ من مشاهدة السفن وراء مجال الرؤية — تشهد بأن خواص العدسة المقعرة كانت على الأقل ملموسة، بيد أن أحداً لم يتابع العمل فى هـذا الاتجاه، وذلك لأن العقل الإغريقى كان مجبولاً على محاولة وضع حلول فكرية لكل شيء على حدته. وكانت الربة التى دأبوا على تقـديم الصلوات والقرابين لها هى الفلسفة لا العلم، ومن أجل ذلك السبب فاقت الرياضة العلوم الأخرى إلى أبعد حد.

وقد عبر فنّا العمارة وتخطيط المدن عن مرحلة الانتقال من العلم إلى الفنون، وذلك أن فن العمارة الهللينستى كان من بعض الأوجه يجمع بين فن العمارة الإغريقى الأقدم وبين الهندسة. ولعل مولد هذا كان بصورة قاطعة فيما أخرجه فيلون لأول مرة من إنشائه للترسانة وبناء أحواض السفن بأثينا فى عهد الإسكندر. فإذا كانت ضخامة المبانى التى تشاد تدل على أى شيء، فإن مدة القرن (أو نحو ذلك) التى عقبت الإسكندر كانت من أعظم عصور ازدهار

العمارة ، بما اجتمع فيها من حشود من المدن الجديدة التي كانت كل منها — مادامت محتفظة بالطابع الإغريقي تحتوي على مسرح وسوق ودار للبلدية (وجمنزايوم) ومعبد واحد على الأقل . وكان مسرح إفيسوس يتسع لعدد ٢٤,٥٠٠ مشاهد، كما أن قاعة المجلس بميليتوس كانت شيئاً يمتاز بالفخامة . وقد سبق لنا وصف الإسكندرية وبرجامة . كما أن أنطاكية وسلوقية الواقعة على الدجلة كانتا في الحقيقة لاتقلان كثيراً في عدد سكانها عن الإسكندرية . وكانت أنطاكية مكونة من أربع مدن متميزة (أو أحياء) مسورة ويحيط بها سور دائري عام، وكانت ديمترياس (الفصل الثاني) مدينة مزدوجة ، إذ كان هناك سور دائري يحيط بديمترياس وباجاساي معا . وقد أدى التقدم العظيم في أجهزة الحصار ، الذي يرجع الفضل فيه إلى دياديس مهندس الإسكندر، بل يرجع أكثر من ذلك إلى ديمتريوس — إلى ظهور تحسينات مقابلة لها في أسوار المدن ، ولا يزال في إمكاننا حتى الآن تعقب التحصينات الفاخرة التي كانت حول « هراقليا لاتموس » ، وهي مدينة من الدرجة الثانية ، وكانت هذه تحصينات تسير قدماً عبر الجبال والخوانق مع أبراج بين كل مسافة وأخرى ، وكانت البلدة الصغيرة ميليتايا في سلسلة جبال أويتا[1] محاطة بأسوار لا يستطيع أي سلم أن يرقاها . وكانت العادة المرعية أن السور يسير مع الخط الذي يحد محيط المدينة في الأرض المنبسطة ويضم جزءاً من التل الواقع خلفها، ولم يكن يترك أي براح لتوسع ، وهو أمر يفسر لنا لماذا أصبحت أنطاكية مثلاً عندما نمت ، مجموعة متراصة من المدن تحيط بها أسوار منفصلة . ولم يحدث قط أن مدينة هللينستية تفوقت على سور سيرا قوزة البالغ طوله سبعة عشر ميلا . ويحتمل أن سور الإسكندرية العظيم كان يمتد حولها لمسافة طولها عشرة أميال . وكان سور إفسيوس ٧½ أميال وميليتوس ٧ ، بيد أن محيطات الأسوار الخارقة للمألوف في بعض المدن الأكارنانية التي كان يقصد منها إيواء سكان الريف ، ربما نافست إفيسوس في طولها . ومن البديهي أن الإسكندرية وسلوقية كان يسكن بهما خارج الأسوار عدد ضخم من السكان .

---

(١) أويتا : سلسلة جبال وعرة في جنوب تساليا بشمال بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الطابع المميز للمدينة الهلينستية هو شوارعها المستطيلة الشكل ، التى كانت تقسمها إلى خُطط كرقعة الشطرنج ، وكان هيبوداموس من ميليتوس قد أدخل ذلك النظام فى (مرفأ) بيريه فى عهد بركليس ، ولكنه ما لبث أن أصبح فى ذلك العصر شيئاً مألوفاً . ويقارن بوليبيوس بين المدينة الهلينستية وبين معسكر فرقة رومانية ، وفى هذه المدينة كانوا يجعلون شارعين رئيسيين يتقاطعان متعامدين ، ويقسمان المدينة إلى أربعة أحياء ، ولها أربعة أبواب ، يقوم كل واحد منها عند نهاية الشوارع الرئيسية. ونحن نعرف بسوريا مدنا من هذا الطراز ، والراجح أن الإسكندرية وسلوقية وغيرهما كانت على ذلك النحو . بيد أن البلدة الوحيدة التى جاء وصفها الباقى إلى اليوم فى المراجع الأدبية مطابقاً لهذه الصورة هى أنتيجونيا — نيقية فى بيثينيا . على أن بعض المدن كانت بطبيعة الحال يتعدل رسمها حسب سطح الأرض : وربما كانت بيرينى طرازية فى تمثيلها للشكل العادى المقام على منحدر أحد التلال . ومع أن نموذج رقعة الشطرنج قد احتفظ به هناك ، إلا أن الشارعين الرئيسيين كانا يسيران موازيين للمحور الطويل ، أما مدينة ميليتوس الواقعة على أرض منبسطة فيبدو أن التخطيط بها يقوم على توزيع المبانى العامة على أحسن وجه ممكن . وكانت أزمير على شكل حدوة حصان حول تل ومبنية فى ثلاث كتل منفصلة ، كل منها ذات شوارع مستطيلة الشكل ، لكن تنسيقاتها واتجاهاتها مختلفة الأشكال ، وهو أمر ربما وضح عدد الملوك الذين يقال إنهم «بنوها». وكانت سلوقية الواقعة عند سفح جبل بيريا تقوم فى شرفات متدرجة فوق صدر صخرة . أما ديلوس فكانت تنمو وتتسع كيفما اتفق . والحق إنه لم يكن لدى القوم تخطيط ثابت للمدن ، فكان مهندسو العمارة يحصلون على ما يهدفون إليه من توخى الجمال بتكييف الأشياء لغاياتهم ، مثال ذلك أن الشارع الرئيسى كان فى العادة يؤلف جانباً من السوق ، بيد أن الشارع كان يصمم بحيث يؤدى إلى السوق ، ولم يكن السوق امتداداً للشارع . وهناك مع ذلك بعض الدلائل التى تشهد بأن الاتجاهات المرعية فى التصميم كانت بحيث تضمن للبيوت فى الشتاء الحصول على أكبر قدر من التعرض لأشعة الشمس ، وذلك بطبيعة الحال فيما عدا دولة بابلونيا حيث كانت المنازل بمدينة سلوقية تتجه بالطبع نحو الشمال التماساً للهواء .

وبصرف النظر عن الإسكندرية حيث يقال إن عرض الشارع الرئيسى بها كان يبلغ مائة قدم ، فإن الشوارع لم تبلغ بعدُ عرض الشوارع الرومانية. وفى برجامة كان القانون ينص على أن عرض الشوارع الرئيسية ينبغى أن لا يقل عن ٣٣ قدماً ، وكان أعرض شارع فى بيرينى يقارب ٢٤ قدماً ، وهو فى ماجنيزيا ٢٦ ½ قدماً . وكان عرض الشوارع القاطعة حوالى ١٤ إلى ١٥ قدماً ، وإن عرفت شوارع عرضها ١٠ ½ ، وأكبر شاهد على رخص العمال أن مدينة أسوس الصغيرة كانت تقطع الشوارع فى صميم الصخر الأصم . وكانت أزمير تفاخر بأنها أول مدينة رصفت شوارعها ، بيد أن رصف الشوارع عند الهللينستيين كان نادراً وإن عرفوه ، كما أن ميليتوس وأنطاكية والإسكندرية لم ترصف شوارعها قط . وكان أول من بنى البواكى وهى مجموعة من الأعمدة المسقفة على جانب شارع رئيسى هو هيرودس الأول فى أنطاكية ، وهذا أمر كان معروفاً وشائعاً فى العصور الرومانية . وأبدى القوم عناية عظيمة بموارد المياه ، فيعمدون حينما أمكن إلى توجيه الماء إلى أسفل التل بفعل الجاذبية ليجمعوه بأحد المستودعات ثم منه يوزع . وقياساً على بيرينى ، يتبين أن توزيع المياه لكل بيت على انفراد لم يكن إلا عملية نادرة الحدوث . ولكن صهاريج المياه المبنية تحت الأرض بالإسكندرية كانت شيئاً آخر ، كما أن القول بأن كل منزل بأنطاكية كان يزود بالماء ينطبق على فترة متأخرة عن هذه كثيراً . بيد أن العقوبات المفرطة الصرامة التى كانت توقع فى برجامة بحكم قانون الصحة العامة بها على تلويث مياه المدينة ، لتشهد بظهور اهتمام جديد بالصحة . فإذا كان الحصول على الماء بطريق الانحدار غير ممكن ، كان القوم يفهمون الضغط والضخ . وكانت المياه التى تزود بها منطقة التل ببرجامة ترفع ضخاً طول الميلين الأخيرين داخل أنابيب من المعدن تحت ضغط يعادل ١٨ ضغطاً جوياً . وشاعت الحمامات، وصارت موجودة بكل جمنازيوم جيد الترتيب والإعداد ، ويلوح أن برجامة كانت بها دورات مياه عامة ، كما أن المجارى النازلة من البيوت كانت بنص القانون واجبة التغطية كما هو الحال بأثينا . بيد أنه يحتمل أن المجارى المكشوفة كانت هى الأصل ، كما هو الحال فى بريني ، حتى بنى الرومان المجارى .

وتغير التطبيق الفنى لهندسة العمارة شيئاً قليلا . فإن العقود والقبو اللذين

عرفتهما دولة بابل من زمن بعيد ، فضلا عن القباب ظهرت فى أثناء هذه الفترة وزادت فى أنواع البناء القديمة المنقولة عن الخشب ، ولكنها نادرة لا نلتقى بها إلا بين الحين والحين . وتظهر العقود (البواكى) فى برجامة وديديما ، بيد أن إنشاء العواضد الذى يحتمه بروز العقد نحو الخارج ، يلوح أنه كان شيئاً غريباً تماما على غرائز الإغريق . ويقال إن أقبية صهاريج الماء بالإسكندرية كانت من صنع العرب . وكان تاج العمود الكورنثى يلقى من الناس إقبالاً مطرداً وذلك على حساب الأنواع الأقدم منه . وقد وجدت بآسيا أعمدة تجمع تيجانها بين الطرازين الأيونى والكورنثى . وفيما عدا ذلك كانت جميع التجديدات المعمارية مرتبطة بأشكال المبانى . وكانت الدور الخاصة لا تزال من ذلك الطراز الذى يطل على فناء أوسط ، ولكن أدخلت عليها تحسينات كثيرة وزادت فيها وسائل الترف . وفى القرن الثانى بدأت الأروقة وهى مجموعة من الأعمدة المحيطة بالفناء (Peristyle) فى الظهور بمدينة ديلوس . وكان لا بد من أن يتشكل البناء حسب مواد البناء التى يمكن الحصول عليها ، وكان يقال إن الإسكندرية لا يمكن أن ينال منها الحريق لأنه لم يكن بها مبان خشبية فى أى مكان منها ، على حين أن عدم وجود الرخام بمصر أدى إلى اختراع «التلبيس» وهو تكسية الجدران الداخلية بلوحات رقيقة من تلك المادة ، هذا إلى أن الجدران كانت تلون بألوان تجعلها بشكل الرخام ، فى حين أنه كانت هناك من الناحية الأخرى مدن مثل ميلاسا ، حيث كان الرخام المحلى الوفير يستخدم حتى فى بناء المنازل الخاصة . وربما حدث أيضاً فى بعض الأحيان أن ألواح الجدران بإحدى الحجرات كانت ترسم بالألوان أو تصور عليها الحدائق أو أروقة ذات أعمدة ، بحيث يلوح لك أنك بقاعة مفتحة الفجاج من جميع النواحى . وهناك فى صور وأرادوس — التى كانت مواقع مدنها المقامة على الجزر أضيق من أن تسمح بوجود أى متسع جانبى من الأرض — كانت البيوت ترتفع عدة طوابق إلى أعلى ؛ وربما كان هذا هو الحال بالإسكندرية داخل أسوار المدينـــة حوالى ١٠٠ ، وذلك لأن المدينة ابتدأت ببيوت لا يفصلها عن بعضها بعضاً إلا نصف المسافة الفاصلة التى كانت إجبارية بأثينا . والظاهر أن المسافة الفاصلة كان فى الإمكان التشييد عليها نظير دفع مبلغ من المال .

وقد يكون من الخير أن يمثل فن العمارة الهلينستى بذكر وصف لحى القصر الملكى بالإسكندرية ، ولكن شيئا لا يعلم عن ذلك الحى ، اللهم إلا أن القصور به كانت تقوم وسط حدائق . ولذا فإنه لابد عن إعمال الخيال لتصور مقر بطلميوس ومثواه ، لا بوصفه قصراً شرقياً ، بل كشىء إغريقى بحت ، أى مجموعة من القاعات والأبهاء المتجاورة وغرف الجلوس اليومى ، وربما كان خير ما يمثل الطراز عوامة فيلوباتور وهى فيلا فخمة مكونة من الأبهاء والمقاصير تحيط بها مجموعة من الأعمدة ومقامة على صندل ضخم. ولا بد أن الرخام المستورد كان يستخدم لديهم بسخاء وإسراف . لقد كان العصر عصر أروقة معمدة تقام للتجارة خاصة ، وكثيراً ما كان الملوك يتبرعون بإقامة مثل هذه الأروقة ، شأن الأروقة المعمدة التى أنشأها أنتيجونس جوناتاس وأتالوس الأول وفيليب الخامس « بديلوس » (الفصل السابع) ، وكذلك الرواق الذى شاده أنطيوخوس الأول بميليتوس . وكان الطراز العادى من الأسواق يحاط بمجاميع أعمدة من جهات ثلاث ، على حين تتاخم الجهة الرابعة الطريق . وأخذت المدن الكبرى فى التفريق بين وظائفها التجارية والسياسية مثلما فرقت بين الاغراض والمهام التجارية والعسكرية للميناء . وأقبلت المدن على محاكاة ميناء الإسكندرية المزدوج حينما سمح وضع الأرض بذلك، والمدينة الهامة هى التى تستطيع أن تغلق أحد مينائيها بالسلاسل ، وإن جاز أنه ما من مدينة أخرى عدا كيزيكوس ، تهيأ لها أن تنافس المزايا العظيمة التى استمتعت بها أثينا من حيث قدرتها على إغلاق جميع موانيها . بيد أن منارة سوستراتوس على جزيرة فاروس بالإسكندرية ، وهى التى بنيت بشكل برج من ثلاثة طوابق تدق كلما علت وترتفع ٤٠٠ قدم تقريباً ، كانت شيئاً فريداً فى بابه . وكان الطابق الثالث هو « المصباح » ، حيث كانت ثمانية عمدان تحمل قبة تتقد فيها نار الخشب الراتنجى ، ويحتمل أن الضوء كانت تقذفه إلى الخارج مرايا مقعرة ، وكان بالمنارة مصعد يعلو إلى النار ، ولعلها هى التى أعطت مهندسى العمارة العربية فكرة المآذن . أما المسرح المدرج فهو وإن لم يكن بالشىء الشائع ، إلا أنه على التحقيق يرجع إلى العصور الهلينستية، ذلك أن الهلينستية كانت تروقها المبانى المستديرة ، مثل مدرج الفيليبيون بأوليمبيا والأرسينيوم

بساموتراقيا. وهناك بساموتراقيا معبد دورى(Doric) له قباحنية (apse) مدور مثل الذى بكنائس البازليق المسيحية .

وكان عدد المعابد المشيدة عظيماً جداً ، وذلك لأنه فضلا عن حاجة المدن الجديدة إليها كان كثيرمن المستقرات والهيئات بحاجة كذلك إلى المعابد . بيد أن معبد السرابيوم بديلوس يشهد بأن هذه المعابد الأخيرة لابد أنها كانت فى الغالب إنتاجاً هزيلا رخيصاً . إذ ليس من المعقول أن ناديا به خمسون عضواً يستطيع إقامة معبد ، إلا أن يكون حقيراً . وفى دورا يوروپوس كانت غرفة ذات صفوف مرفوعة من المقاعد كما هو الحال فى المسارح ملحقة بمعبد أرتميس — نانايا (قرابة ٣٢ ق . م) وألحقت غرف مماثلة بمعبدين متأخرين — وأغلب الظن أن تلك الغرف كانت لغاية تتعلق بالعبادات ، ويرى البعض أن الغرض منها هو أداء الرقص المقدس . وأشهر المعابد العظمى فى ذلك الزمن كله معبد السرابيوم العظيم بالإسكندرية ، حيث لا يزال عمود رومانى يحدد موقع عمود سرابيس ، ويليه معبد زيوس الأولمبى بأثينا ، الذى أتمه هادريان فضلا عن معبد أبولون بديدما بالقرب من ميليتوس ، وهو معبد لم يتم بناؤه فى واقع الأمر أبداً . ويقال إن من أروع المعابد جمالاً معبد أرتميس الملقبة باللوكوفرينية ، أى ذات الجبهة الناصعة بماجنزيا على نهر المياندر ، وقد صممه هرموجينيس وتم بناؤه فى ١٢٩ . أما معبد الأرتمسيوم (Artemision) بإفيسوس ، وهو درة العالم المدهشة ، فلا يحق ذكره هنا ، وذلك لأنه أصلاً من مبانى القرن الرابع . غير أنه لا بأس من الإدلاء هنا بوصف موجز لمعبد ديدما . يقول إسترابون إن معبد ديدما هو أعظم المعابد الإغريقية طراً ، ولكن الواقع أن صقلية أحرزت قصب السبق فى هذا الشرف ، وإليكم أطوال أعظم خمسة من هذه المعابد مقدرة بالأقدام : —

معبد زيوس بأكراجاس	٣٦٣ × ١٨٢
« أبولون بمدينة سيلينوس (بصقلية فى العهد اليونانى)	٣٦٠ × ١٦٣
« ديدما	٣٥٤ × ١٦٠
« أرتميس بإفيسوس	٣٤٢ × ١٦٤
« زيوس بأثينا	٣٥٤ × ١٣٥

وقد أحرق المعبد القديم بديديما فى أثناء الثورة الأيونية ، وسرعت ميليتوس فى بناء المعبد الجديد حوالى ٣٠٠ ؛ ولم يكن من الممكن الوصول إلى ديديما إلا عن طريق البحر ، وكان الطريق المقدس الموصل بين المرفأ والمعبد لا تزال قائمة على جانبيه تماثيل المتعبدين الأصلية القديمة ، ومن العجيب أن هذه الفكرات التى نقلوها عن طريق الكباش والشوارع التى تحف بها تماثيل أبو الهول بمصر ، عادت آنذاك ثانية إلى مصر نقلا عن ديديما . وكان الطريق الموصل إلى معبد سرابيس بممفيس تحف به تماثيل النابهين من الإغريق . وقد جعلت المنطقة الواقعة فى حرم المعبد على شكل « استاد » أى ملعب رياضى . ويعتقد بعض أهل العلم أن حلبات السباق كانت تعقد هناك . ذلك أن الألعاب الرياضية الإغريقية كانت على الدوام جزءاً من حفل أساسه الأول دينى . وكان المعبد ذا جناحين وعشرة أعمدة ، أعنى أنه كان يحيط به صفان من الأعمدة ، كما أن عرضه على امتداد الجبهة كان عشرة عواميد ، ولم يكن عرض أى معبد آخر ليتجاوز الثمانية . وبدلا من العمودين المعتادين فى قبوة الردهة بين جدران الهيكل (Cella) ، كان هناك اثنا عشر عموداً فى ثلاث صفوف ، فى كل منها أربعة أعمدة ، وكان الأثر الذى يحدثه ذلك المنظر فى الزائر المقترب من المكان هو شعوره بأنه أمام غابة من الأعمدة الأيونية الهيفاء ، وهو أمر كان يوحى بوجود قاعة فارسية أو مصرية ، وكان المقصود منه تحويل نظره عن حقيقة الأمر بأنه لن يستطيع رؤية أى ناووس (Naos) ، وهو الغرفة المسقوفة التى كانت تحتوى على التمثال الذى بالمعبد . وذلك أنه عندما كان يدخل إلى الدهليز ، كان ينهض أمامه ستار من الحجر يحجب ناظريه عن مشاهدة أى شىء وراءه وكان بوسطه الباب العظيم « لمقر نزول الوحى » ، وهو الذى كساه بطلميوس الحادى عشر بالعاج ، والذى كانت النبوءات يتم تناولها منه فيما يحتمل . وكان هناك على كلا الجانبين سلم له سقف معقود ، فإذا هبط المرء أحدهما دخل إلى مكان آخر بديل للناووس ، وهو فناء غير مسقوف يهبط عن مستوى البلاط بأربع عشرة قدماً . وفى الطرف البعيد من المكان توجد المقصورة المقدسة لأبولون الكناخوسى ، (رب جزيرة ومدينة كناخوس) الذى حمله معه دارا الأول ورده سلوقوس فى ٢٩٥ ، ولكن الزائر إذ يدير ظهره لأبولون كان يرى أمامه طريق سلم فاخر من ٢٢ درجة ،

وهو يؤدى به إلى العودة حيث أتى ويصعد به إلى الغرفة القائمة بين الفناء « ومقر نزول الوحى » (prodromos) . وكان بأعلى السلم ثلاثة أبواب ، اثنان منها يؤديان إلى غرف عليا يحتمل أنها هى الخزائن . وهكذا يتجلى أن معبد ديديما يختلف اختلافاً بيناً عن الصورة المتداولة عن كل معبد إغريقى آخر . بيد أن القاعدة المحفورة لأعمدته — بل وأكثر من ذلك الأعمدة الاثنا عشر الموجودة فى قبوة الردهة (In antis) إنما تدل على أنها ترجع إلى معبد أرتميسيوم بإفيسوس المقام فى القرن السادس، مثلما كان الطريق المقدس يرجع إلى عالم أقدم . على حين أن أحد مهندسى العمارة الذين أنشأوا معبد ديديما وهو بايئونيوس ، كان ممن اشتغلوا قبل ذلك فى الأرتميسيوم الجديد ، ويرجح أنه رغب فى تجنب تكرار نفسه . وهكذا أصبح معبد الديديما خليطاً فريداً فى بابه يجمع بين التجديد الجرىء والتمسك الواعى بالقديم .

وقد غيرّ الفن من صفاته وخصائصه بظهور الروح الهللينستية . فذهب التقيد الكلاسيكى ، ولم تعد هناك حدود ولا قيود ، فالحقبة الهللينستية زمان يؤمن بضرورة تجريب الأشياء جميعاً وارتياد طرق عديدة جديدة . وتتجلى جميع ميول العصر ونزعاته فيما خلّف من نحائت : فمنها إعوازه وحاجته إلى الراحة والاطمئنان ، إذ الحق أن ذلك العصر لم يذق إلا القليل من الراحة ، ومنها الوعى الذاتى الذى تعبر عنه النزعات المصطنعة والروح المسرحية التى تركت طابعها ببرجامة ، ومنها النزعة الرومانتيكية والنزعة الواقعية التى قد تصل إلى حد القبح ، ثم إن النزعة الفردية تنفذ بروح قوية فيما انبثق فجأة من إكباب على صنع تماثيل الأشخاص ، كما تظهر روح الأخوة بين الكائنات البشرية فى تمثيل القوم للعمال المسنين ، مثل التمثالين المدهشين للراعية العجوز والصياد الشيخ الموجودين بسراى الكونسرفاتورى بروما . وتذكرنا إلهة الحظ بأنطاكية بأن الحظ كان هو المعبود التقليدى فى القرن الثالث ، وذلك مثلما كان ظهور إيزيس ربة ديلوس مؤذناً بظهور العالم الجديد فى القرن الأول ق.م. ويتمثل «الكفاح» كمعبود فيما هو مصور فى أفاريز الجدران ببرجامة ، ويمجد النصر فى صورة « نصر ساموتراكى » بشكل لم يحدث من قبل ذلك ولا من بعده . ومن حسن الحظ أن كل محاولة للتعبير عن شىء بطريقة مغايرة لطريقة

فيدياس أو براكسيتيليس لم يعد يُذم ارتجالا دون تردد ، ولم يعد هناك من داع لأن يُحس أى إنسان بشعور الإثم لإعجابه ببعض الأعمال الهللينستية الفنية . وأخيراً أخـــذ التدهور يدب إلى ذلك الإنتاج الفنى . وإن أشياء من أمثال أشكال الإسكندرية الغريبة وتحقير إيروس وتحويله إلى كيوبيد ، والانتقال فى مذاهب الشعر من أصالة ثيوقريطس إلى شعر «الطبيعة» المصطنعة الذى تمثله الرعويات فى النقوش الغائرة ، والتماثيل من أمثال اللاءوكون[1] الذى كان موضع الإعجاب فيما سلف من الزمان ، لتشهد كلها بميول واتجاهات كانت تعمل عملها . وما لبثت النزعة المثالية أن أخذت تضمحل شيئاً فشيئاً ، وبدأ الإلهام يستمد لا من روح الفنان ، بل من الماضى . ولكن رغم ذلك كله لم تضمحل المهارة الفنية أبداً حتى أصبح النحت فى النهاية صناعة للإيجار ، كما أن استمرار حب الجمال يمكن الاستدلال عليه من أن أفروديت ميلوس (المسماة فينوس ميلو) وأفروديت الملقبة « أناديومينى[2] » من برقة قد نسبتا كلتاهما إلى الشطر المتأخر من القرن الثانى .

وقد بذل العلماء جهوداً ضخمة فى سبيل بحث ميول تلك القرون الثلاثة ودراسة نزعاتها ، فمنهم من تعقب بأبحاثه المدارس المحلية ، ومنهم من قسم العصر إلى فترات دون نظر إلى ناحية المكان ، ووضع لها أسماء تحوى مصطلحات فن أجنبي مثل البروق Baroque والريكوكو . وربما جاز لمن ليس بخبير فى الفنون أن يظهر شيئاً من التشكك إزاء « علم النقد » الذى نجح إبان السنوات القليلة الأخيرة فى نسبة تمثال النصر بساموتراكى إلى أوقات كثيرة ومختلفة فى الفترة ما بين ٣٢٢ و٣١ ، معددا فى ذلك تواريخ هى فى نظر المؤرخ سخيفة سخفاً واضحاً . فأما أن فن النحت كان قوة حية ، فيتجلى من الإنتاج الهائل ومن الأثمان التى كانت تدفع أحياناً ، وإن كان ما يقارب نصف ثالث

---

(١) تمثال الكاهن أبولون الثيمبرائى من أهل طروادة ، وهو الذى حاول عبثاً أن يصرف الطرواديين عن سحب الحصان الخشبى الذى تركه اليونان على الشاطئ إلى مدينتهم والتمثال موجود بالفاتيكان (المترجم)

(٢) أناديومينى : فى نقش لأفروديتى قام به أبليس صورت الإلهة وهى خارجة من البحر واشتهرت الصورة فى العالم القديم بذلك اللقب [المترجم] .

هو الثمن المعتاد لتمثال من النوع الجيد ، ويقال إن أتالوس الثانى دفع مرة مائة تالنت فى أحد التماثيل ، ووجد فيليب الخامس ألفى تمثال قرب ترموم وأخذ الرومان عدداً ضخماً جداً من أمبراكيا ، وكلاهما مكان لم يكن بالتحقيق من المراكز الفنية . وإن المقادير الوفيرة من الأعمال الهللينستية التى لاتزال معروفة ومشهورة ، سواء كانت فى صورها الأصلية وجذاذاتها المحطمة ونسخها المنقولة كل ذلك لا علاقة له ألبتة بما كان موجوداً يوما ما ؛ وذلك لأن هذا كان عصر إقامة التماثيل من قبيل التكريم والتماثيل للوفاء بالنذور . وكانت كل مدينة إغريقية تقيم منها أعداداً جمة ، منها ما هو جيد الصنع دون أدنى ريب . بيد أن العائلات المعروفة من المثالين المتوارثين للصنعة توضح الانتقال التدريجى من الفن إلى الاحتراف .

وجاءت الخطوة النهائية بعد الفتوح الرومانية ، عندما كان النهب الذى يأتيه رجل مثل موميوس أو فريس يثير فى روما تذوقاً هائلا للتماثيل الإغريقية بغير تمييز ، وذلك مثلما ينشئ رجل عصامى لنفسه مكتبة . وقد كان السبب فى بعث النشاط التجارى بأثينا بعد ١٤٦ راجعاً إلى رغبتها فى إشباع حاجة روما من هذه الناحية بتزويدها بأعمال فنية أصلية مؤسسة على تماثيل قديمة وبالنماذج الجيدة ، وعندئذ أخذت مدن أخرى تقلدها ، وخير ما يهذا النوع من أشياء يمكن مشاهدته فى تمثال هرقل الفارنيسى ذى العضلات البارزة وتمثال أبولون بلفيدير المبالغ فى رشاقته . وأخيراً عمدت شركة رومانية هى شركة الكوسوتيين إلى إنشاء فروع لها بكل أرجاء بلاد الإغريق حيثما وجدت إلى نحائت الرخام سبيلا ، وكلفت الإغريق بصنع التماثيل بالجملة وتوريدها للسوق الرومانية . وهكذا كان النحت فى بدايته عقيدة وديناً ثم انتهى سلعة وتجارة .

وكان هناك فيما يظهر مدرسة بالإسكندرية ، وإن كانت قبل كل شىء مركزاً للتجميع ، على أن ما وجد بمصر حتى آنذاك من الإنتاج كان عملا من الدرجة الثانية فى أغلبه ، كما أن النقوش البارزة على القبور بالإسكندرية لاتكاد تصل حتى إلى ذلك المستوى ، إلا فى أثناء فترة الجيل الواحد الذى غادر فيه أثينا الفنانون الأثينيون ونزحوا إلى الإسكندرية ، لأن تحريم ديمتريوس

الفاليرى لنقوش القبور ، قد أفسد عليهم مورد رزقهم . وفى مصر نشأت عادة إضافة شعر للتماثيل عن طريق الطلاء بالجبس . وظل تأثير براكسيتيليس عظيماً، ولم يقتصر على الإسكندرية وحدها ، كما أن طريقته فى ملاسة تكوين البشرة قد بولغ فيها . والتمثال الجميل لأفروديت من برقة خير مثال على ذلك الطراز الذى كان فى بعض الأحيان يمثل عملاً يغلب عليه طابع التراخى والإهمال . على أن قوة الإسكندرية الحقة إنما تتجلى فى الفنون الصغرى ، ولعلها اخترعت الفسيفساء والحفر البارز على الجواهر . ومن العجب أنه رغم أن النزعة المثالية كانت سيئة الحظ فى الفن الإسكندرى ، فإن المدينة كانت تحتوى على عمل واحد امتاز بقوة مثاليته ، هو تمثال عبادة سرابيس . وربما كان هذا التمثال من صنع برياكسيس تلميذ إسكوباس ، مهما يكن المكان الذى أحضره منه بطلميوس الأول ، كان مطلياً باللون الأزرق الداكن ، وكانت بمحاجر العينين جوهرتان لكى تلتمعا فى ظلمات المعبد المعتم من داخل الناووس المضاء وسط زخرفة بالغة ، ويوصف الوجه بأنه رادع جليل غامض ، كما يتناسب مع رب العالم السفلى ، وكان على الرأس صواع (Modius) أى مكيال للقمح رمزاً إلى مصر، ذلك البيدر العظيم .

وظل تأثير ليسيبوس حياً برودس ، حيث رأى تلميذه خاريس من أهل لندوس أن يخلد مقاومة رودس لديمتريوس فى ٣٠٤ ، فنحت ذلك التمثال الهائل الجبار للشمس الذى كان إحدى أعاجيب الدنيا ، وقد دمره زلزال عام ٢٢٥ ، وليس هناك أى شىء يدل على شكله . وكانت المدرسة الرودسية مدرسة غنية أخرجت تماثيل رجال رياضيين ونساء ملتفعات بالثياب بعناية ، فإن التمثال الشهير للغلام المتعبد ببرلين والتمثال الذى يطلقون عليه اسم الحاكم الهللينستى بنابولى ربما كانا مثالين على أزهى عصورها ، وحتى فى القرن الأول نفسه يوم أن انحطت تلك المدرسة إلى مستوى تلك الأشكال المعذبة فى تمثال اللاءوكون وجماعات الثيران بفارنيمى ، ظل تبريزها الفنى رائعاً . ولكن أقوى أعمال مدرسة ليسيبوس أثراً ، هو التمثال الشهير لإلهة الحظ بأنطاكية وهو الذى صنعه لتلك المدينة تلميذه يوتيخيديس، وهو يمثل امرأة رشيقة ساحرة على وجهها سيما التفكر والحزن، جالسة على جبلها وأورونتيس (نهر العاصى) الإله النهر ،

جالس عند قدميها ، وهى ملففة لفاً كاملاً بالثياب،وعلى رأسها تاج ذو أبراج ظل منذ ذلك الحين العلامة الشائعة الدالة على ربة المدينة ، وتمسك خوصة أو غصن نخيل فى يدها . ولو قلنا كما يقول برون (Brunn) إنه يعوزها وقار الربات القديمات وصرامتهن ، لكان ذلك من سقط القول . وذلك لأنها لم تكن ربة ، (وإن أصبحت كذلك فيما بعد) . إنها كانت التشخيص الماثل المميز لمجموعة أفراد من الرجال والنساء، كناية عن أنطاكية نفسها (الفصل العاشر) . وقد نقلت هذا الطراز مدائن لا عداد لها بكل أرجاء آسيا ، قاصيها ودانيها مع إدخال تغييرات كثيرة عليه لتتواءم والظروف المحلية .

أما مدرسة برجامة ، فإن تاريخها الباكر ليست له أهمية فنية . والفن البرجامى العظيم الذى بُعث فيه تأثير إسكوباس من جديد يرجع إلى النصرين اللذين أحرزهما أتالّوس الأول على الغاليين (قبل ٢٣٠) . وهناك بعض نسخ رخامية لعلها معاصرة له ، لا تزال موجودة وتمثل أشخاصاً غاليين أخذت أشكالهم عن الأثر التذكارى الذى أقامه تخليداً للنصر . وخير ما فيها هو النحيتة التى تمثل « الغالىّ المحتضر » فى الكابتول والتى خلدها الشاعر اللورد بيرون بقصيدته « المجالد المحتضر » ومجموعة الغالىّ الذى قتل زوجته ثم طعن نفسه . فهذه القطع تلقى تقديراً عظيماً ؛ فلقد أتيح لفنانى ذلك الأثر التذكارى نوع جديد من الواقعية ، فتمكنوا من إظهار الطراز العجيب للبرابرة والتقاطيع الخشنة الوعرة لسحنتهم ، وهم قوم لا يهابون الموت ويضيقون صدراً بالهزيمة؛ لقد أدركوا من الروح الكلتية قدراً أكبر مما أدركه رجال الأدب فى أى عصر من العصور . والمرحلة الثانية فى هذا الفن تظهر فى الإفريز الضخم لهيكل زيوس فى برجامة ، وهو إفريز يربى طوله على أربعمائة قدم ، وهو يكشف عن قدر هائل من العلم ويمثل معركة الآلهة ضد الجبابرة (Titans) . فإن الأشكال الغريبة لكل ما أقلته البسيطة من أشياء ، تلك الأشكال التى ينتهى بعضها بثعابين ، والمواقف والأحداث العديدة الكثيرة لكل شكل من أشكال النزاع ، ومنها ما هو رهيب ومنها ما هو مسرحى ، والاضطراب والحركة الضاريان اللذان يعمان الوضع بأجمعه ، — كل أولئك ليس كمثلها شىء فى الفن الإغريقى . ومهما يكن وراء ذلك الإفريز من أغراض أخرى ، فلابد أنه كان قوى

عبرّ عنها الطرفان بنفس الألفاظ . كان الطرفان يطلبان الحرية السياسة .ولكن الإغريقى كان يرى الحرية غاية ، وسيلة التعبير عنها هى المجتمع الحر الذى يحكم نفسه والذى يصوغ قوانينه ويعبد الآلهة التى ترضيه ، بينا كانت الحرية لدى اليهودى وسيلة ، تمنع كل تدخل فى إخلاصه لشريعة سماوية مُنزلة لايستطيع بشر أن يغيرها ، وفى تعلقه برب لايمكن أن يكون معه معبود آخر . وكان كل من الطرفين يمتدح الحكمة . ولكن اليونانى كان يرى فى الحكمة شيئاً ينمو بكدٍّ كثير من العقول ، على حين أن الحكمة كانت لدى اليهودى مخافة الله ، وهى شىء لا يتغير إلى أبد الآبدين . . وكانت العقيدة اليهودية فى القرن الأول ذات وضع عجيب ، فهى من ناحية نظام يرفض تقبل الأفكار الإغريقية ، فى حين أنه يفتح بابه على مصراعيه لتقبل مؤثرات الشرق الأقل منه منزلة بدرجة متناهية : — كعلم التنجيم وعلم مس الشياطين والسحر . ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل بفضل هذه الأمور على خدام يخدمن روحها ، على حين أن الروح الإغريقية لم يكن فى الإمكان أن تكون خادما لأحد . ولكن لئن تنازعت المثل العليا عند اليهودى والإغريقى ، فإن العالم كان مقدّراً له أن يحتاج إليهما كليهما . لذا كان من المصلحة عندما كانت الأفكار الإغريقية تغمر الشرق غمرا ، أن يبرز لها اليهودى مناضلا مقاتلا .

ولكن هناك ناحية واحدة كان لليهود فيها خبرة موازية لخبرة الإغريق . ذلك أنه كما أن الاضمحلال السياسى لدولة المدينة المتمتعة بالحكم الذاتى بعد عهد الإسكندر جعل الروح الفردية أمرا محتوما لدى الإغريقى ، فإن تدمير الدولة القومية القديمة ودولة المعبد قد جعل تلك الروح الفردية شيئاً حتميا بالنسبة لليهود . وانتهى الأمر بأن استعيض عن فكرة المستقبل الزاهر المبارك لإسرائيل وحل محلها فكرة المستقبل الزاهر المبارك بالنسبة للإسرائيلى . وكما أن الإغريقى كانت عنده مذاهبه وقضاياه فى الفردية وشمول الخلاص للبشر جميعاً ، فكذلك كان شأن اليهودى ، وإن كان هذا فى اتجاهات أخرى : فهل يتفضل يَهْوَه فيبسط ظلال الأمل فى ذلك المستقبل المبارك على البشرية كلها ؟ وهل كتب للبشر حقا أن يكونوا إخوة ، لا فى هذا العالم (كما كان يأمل الرواقيون) ولكن فى النهاية على كل حال ؟ وفى القرن الثانى استقرت لدى دوائر يهودية

أما بلاد الإغريق الرئيسية ، حيث كانت السيادة لشعوب غير فنية ، هى الآخيون والأيطوليون، فقلما جاء منها شيء من الإنتاج خصب الخيال ، بيد أن محاولة داموفون (القرن الثانى) كانت شائقة بما أنتج من مجموعة هائلة الضخامة لتماثيل دسبوينا وكورا ببلدة ليقوسورا (Lycosura) بأركاديا ، التى أنشأها ابتغاء إعادة السكينة الممزقة للآلهة القدامى إلى نصابها . ومع ذلك فإن الصور التى عملها ليسيبوس للإسكندر كانت حافزاً هائلا لصناعة الصور لم يلبث أن عمّ وانتشر من بلاد الإغريق الأصلية نحو الخارج . وتمتاز صورة دِموستنيز الشهيرة التى رسمها بوليوكتس (حوالى ٢٨٠) بالجودة والإتقان ، والتخمين اليوم يلعب دوراً كبيراً فى تخيّل العدد العظيم من رءوس الصور الموجودة الآن ، ومنها ما هو رائع أخاذ . ولكن ينبغى لنا أن نرجع إلى العملة لكى ندرك ما أمكن القوم عمله ، حيث يوجد بين القدر الكبير من الأنواع التقليدية منها بعض الجيد الممتاز حقاً ، مثل تلك القطع من عملة ليسيماخوس الحاملة لرأس الإسكندر الجميلة ذات الهيئة المثالية ، ونرى ذلك السر الفنى ، الذى بلغ الذروة العالية فى فن صنع الصور عند الإغريق ، وهو الذى تجلى فى رءوس ملوك باكتريا على عهد الإغريق . ولدينا فضلا عن العملة ، الشيء الكثير من النقش البارز. بيد أن المجموعة الضخمة التى جمعها شريَير من النقوش الهللينستية البارزة لا تمت إلى الهللينستية إلا بأضعف الصلات . وهناك مجموعة بالغة الجمال من أقدم النقوش البارزة ، وهى ملونة تضمنتها تلك المرسومة على ناووس صيدا ، وتصور معركة للإسكندر ورحلة قام فيها بصيد الأسود . ويتكاتف النحت والتصوير بالألوان مع النقش البارز ويتبادل كل منهما التأثير فى الآخرين ، ففضلا عن النقوش البارزة للقبور وهى ملونة بأكلها ، توجد شواهد قبور أخرى مصورة بالألوان فقط .

وشواهد القبور هذه هى التصاوير الهللينستية الملونة الوحيدة الموجودة إلى اليوم فى صورتها الأصلية — وخير أمثلتها ما وجد فى باجاساى وإن كان من الدرجة الثانية ، وذلك لأن تلوين الزهريات كان قد انتهى عهده . وتدل الشهرة التى بلغها كبار الأساتذة على أن الإغريق كانوا يقدرون تصويرهم حق قدره وينزلونه نفس منزلة أعمال النحت عندهم ، على أن حالته وهو فى أوجه ،

لا يكاد أحد أن يصل إليها إلا بالتخمين ، وذلك لأن الصور ذات الحجم الصغير قد فنيت ولم يبق شيء من التصوير التاريخي لأبيللس وعصره ، اللهم إلا بضع ملاحظات أدبية ونسخة واحدة هي فسيفساء تمثل معركة خاضها الإسكندر. وكل ما بقي لدينا هو زخرفة جدران، وهي فن هللينستي في جوهره ، فيما عدا قبر أواتنين ، فإنها لا تتمثل إلا في مدينة بومبياي(١) ، التي تنهل الفترة الأولى بها من الإسكندرية نقلا وتقليداً . ولكن بومبياي يندر مع ذلك أن تزودنا بنسخ من التصاوير . إذ إن الكثير منها صنعه تجارية ، منقولة في حد ذاتها من نسخ تجارية رخيصة وتدور كلها حول موضوعات رطازية (ميثولوجية) ورسومات ممسوخة مضحكة وتصاوير عديمة الحيوية لكيوبيد . وهناك قطع رشيقة صغيرة من الأزهار ومناظر طبيعية ، ولكنها لا تدل على فن عظيم إلا بمقدار ما تدل المختارات الشعرية الإغريقية (Greek Anthology) على الشعر الرفيع . ويلوح أن في الإمكان نعتب الكيفية التي تهيأ بها للصورة الملونة أن تخلص نفسها بالتدريج من صلاتها بأعمال النحت في أثناء القرن الرابع — ولعل ذلك هو العمل الحقيقي الذي قدمه التصوير الهلليني — وكيف أنه ترتب على ذلك ظهور المعرفة بالمنظور وبالمناظر الطبيعية . على أن الإغريقي وإن كان يحب الشمس والهواء ، إلا أن شعره لا ينم عن أي مشاعر قوية نحو المناظر الطبيعية . فالمناظر الطبيعية التي عثر عليها في بومبياي تقليدية وخالية من كل روح. كما أن الراجح أن تصوير المنظر الطبيعي بالألوان لم يكن ألبتة ليزيد عن خلفية وراء الأشخاص .

على أن في بومبياي مع ذلك مجموعتين من الصور تبرزان بمفردهما عن الصور جميعاً . وفي الإمكان النظر إليهما باعتبار مالهما من قيمة وليس بوصفهما تحفا أثرية . وأولاهما هي المجموعة الجميلة من النساء في أقصى اليمين من المنظر الطويل لشعيرة ديونيسوس (أو رطازته) الموجودة في فيلا (إيتم) التي يرى بفول أنها ترجع دون ريب إلى أحد التصاوير الجصية العظيمة ، وثانيهما وهي أكبرها شأناً أو تكاد ، هي التصاوير الجصية (Fresco) على جدران فيلا بوسكوريالي ، التي تقدم إلينا تصاوير لأشخاص ، لم يعرف لها مثيل إلا في صناديق المومياءات الرائعة بالفيوم . ويسود الاعتقاد بأن هذه التصاوير الجصية نسخ أصيلة (القرن الأول) لأعمال ممتازة ظهرت في بواكير القرن الثالث،

(١) بومبياي : مدينة إيطالية غمرها حمم بركان فيزوف فحفظ مبانيها وصورها . (المترجم)

تمثل أفراد عائلة ديمتريوس الأول، ولها صلات ترجع بها إلى مدرسة ليسيبوس. وإن الشكل المشعث للفيلسوف، برأسه الضخم ولحيته البيضاء المتدلية — وهي صورة مما أبدعه فن التصوير لا النحت — قد يكون لشخص مثل يوحنا المعمدان وقد كبرت سنه. وإن نظرة التأمل الحزينة في عيني المرأة المسماة يوريديكي ليس من السهل نسيانها. وفوق كل شيء، فحتى النسخة نفسها تحمل إلى رائيها الإشارة إلى أن هؤلاء كانوا في الحقيقة من عظماء الرجال والنساء.

والفن الذي نشاهده في معبد ديديما تطور إغريقي بحت، وذلك فيما عدا بعض مؤثرات أخرى أثرت فيه. إذ حدث بعض التفاعل بين الفنين الإغريقي والشرقي في أثناء هذا العصر؛ بيد أن هذه المسألة العويصة هي بالضرورة من اختصاص الخبراء، كما أن معظم مالدينا من مادة متمثلة في فن العمارة السوري والتصاوير الملونة المأخوذ من دورا أو مدرسة النحت الهامة بجندهارا بالهند والجبانة التي عثر عليها بكوم الشقافة بمصر — كل هذه المواد تنتسب إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، سواء امتدت جذورها على أي حال إلى الفترة الهللينستية أو لم تمتد. والنحائت الموجودة بأثر أنطيوخوس الأول في كوماجيني (الفصل الرابع) تمثل قطاع الحجر المحليين وهم يقلدون العمل الإغريقي المتأخر. وهناك الأطلال الضخمة لمعقل طوبياس قرب «أراك الأمير» قرب بلدة حشبون (القرن الثاني) ويتجلى فيها (سواء كانت معبداً أو قلعة) مبنى إغريقي أضيفت إليه بعض الاقتباسات من العمارة الفارسية والفينيقية. ولا شك أن القبر النبطي لحمراث بالسويداء بإقليم حوران (حوالي ٨٥—٦٠) إنما هو إغريقي أيضاً؛ بيد أن المعبد النبطي العظيم لبعل شامن في سي (Si) بإقليم حوران (حوالي٣٣) لايبد وفيه إلا القليل من أثر الإغريق، اللهم إلا بعض النقوش وشيئاً من تأثير العمود الكورنثي؛ وهو تأثير يمكن تعقبه في ترتيب خوص النخيل على تيجان أعمدة المعابد المصرية (البطلمية) عند إدفو وإسنا. وتنم بعض لوحات شواهد القبور بالإسكندرية عن مؤثرات مصرية. وقد حدث في أثناء القرن الأول أن دبت الحياة من جديد في فن النحت المصري القوي وأخذ ينتج التصاوير متأثراً بالمؤثرات الإغريقية. ولكن

أشد ما يبعث على الدهشة قبر الموظف المصرى (الكاهن) بيتوسيريس الذى الذى استكشف بالقرب من تل العمارنة فى ظاهر ملوى عند (تونة الجبل) فى ١٩٢٠ إن كان ينتسب فعلا إلى تلك الفترة . وهو يماثل أحد القبور الإغريقية المبنية على شكل معبد لتخليد ذكرى الأبطال (Heroon) وإن كانت العمارة به مصرية وموضوعات النقوش البارزة مصرية بحتة، ولكن الأثر الإغريقى فى الإخراج والتنفيذ قوى، وبخاصة فى التضحية من أجل البطل وفى النساء النادبات . على أن النساء والفلاحين يلبسون أيضاً الأزياء اليونانية ؛ كما أن الفنان الذى يعرف شيئاً عن المنظور، حاول أن يدخل النزعة الواقعية الإغريقية فى الاتجاهات والمواقف . غير أن مزج العناصر الهلينستية والآسيوية بعضها ببعض على الصورة التى تتجلى فيما تبقى لدينا من الفن البارثى ثم المؤثرات التى نقلت فى النهاية الموضوعات الإغريقية إلى الهند وعبر أواسط آسيا ، تخرج عن مجال هذا الكتاب .

ولا بد أن يظل هذا الفصل ناقصاً غير مكتمل ؛ وذلك لأنه لا يمكن ذكر شىء فيه عن الموسيقى الهلينستية. إلا أنها كانت تلعب دوراً كبيراً كالذى تلعبه اليوم . وإن تذوقها والمسرة بها لم يكونا قاصرين على المتعلمين وحدهم . وقد أمكن استرجاع أنغام نشيدين من دلفى كتبا على زمن إيقاع الخمسة ، وكان أحدهما جميلا جداً، بيد أن موسيقى الإغريق عالم مفقود، ليس فقط لأنها بادت وذهبت، بل لأنها لو بقيت لنا إلى اليوم لكان عدد من يفهمونها قليلاً . وذلك لأن الموسيقى الإغريقية كانت تقوم على استخدام مسافات بين النغمات أدق من أنصاف المقامات .

الفصل العاشر

الفلسفة والدين

كانت فلسفة العالم الهلينستي هي الفلسفة الرواقية، وكان كل ماعداها من فلسفات يعد في المرتبة الثانية. وجملة القول، أن كل ما نراه إذا نحن أرجعنا البصر كرة إلى تلك القرون الثلاثة، هو أن مدرسة أرسطو تفقد كل أهمية لها، كما أن فلسفة أفلاطون أصبحت تعيش على هامش الفلسفة الرواقية أمد قرن ونصف، بمعنى أن حياتها كمدرسة للتشكك تقوم بأجمعها على مصارعة المذهب الرواقي. واستمرت مدرسة أبيقور في سبيلها لم يداخلها تغيير، بيد أنها لم تكن تجتذب إليها سوى الأقليات الصغيرة. ولكن المذهب الرواقي، الذي وضع تحت حمايته في الحين نفسه الديانة بشعبيتها الشعبية والنجمية، وأشكالا كثيرة للخرافات، لم يلبث في النهاية أن كبح مذهب التشكك، ولو لم يكن ذلك في الواقع من حيث المسائل الجدلية. وضم إلى نفسه القدر الكافي من أفلاطونية مبتعثة ليكون ذلك المذهب الرواقي المعدل، أي مذهب الفلسفة الانتقائية (Eclecticism) وهو الفلسفة التي تميز عصر الإمبراطورية الرومانية الأولى.

وكانت أثينا هي مركز الفلسفة إبان الفترة بأكلها، وإن حدث فيما بعد أن رواقيين عظيمين ظهر فعلاً بجزيرة رودس. فبعد ٣١٧ بعهد قصير حصل ديمتريوس من أهل فاليروم لثيوفراستوس الأجنبي خليفة أرسطو على الحق في تملك الأرض وتحويل مدرسة أرسطو، (وهي مدرسة المشائين)، إلى مؤسسة ينظمها القانون شأنها شأن أكاديمية أفلاطون. وفي ٣٠٦ وفد أبيقور الأثيني قادماً من لامبساكوس وأقام مدرسته في حديقته، وحضر زينون إلى أثينا في ٣١٧ وأخذ يعلم الناس في السقيفة المعمدة الملونة أي الرواق في ٣٠٢. وشهدت بواكير القرن الثالث المدارس الأربعة جميعاً وهي كالجامعات الكبيرة تعمل جنبا إلى جنب، ومر بمدرسة أرسطو أمد وجيز من القوة والمجد من ٣١٧ فصاعداً، وحباها الإسكندر بعطفه. وكان ثيوفراستوس هو الذي

أوحى بالقوانين التى أصدرها ديمتريوس الفاليرى ، كما أن ديمتريوس نفسه راح بعد سقوطه يساعد بطلميوس الأول على تأسيس الأكاديمية . وكان ثيوفراستوس رجلا متعدد الجوانب فى نشاطه واسع المعرفة . على أن المدرسة ما لبثت بعد وفاة خلفه إستراتون أن نبذت جانباً مبدأ مؤسسها من البحث عن المعرفة النظرية . وما كاد القرن الثالث ينتصف حتى انتهى كل عمل لها ، لقد أدت خدمات جليلة للعلم بقدر ما أساءت إلى التاريخ كثيراً . ولكنها لم تفعل للعالم شيئاً أكثر من أنها أسهمت ببعض العناصر فى الفلسفة الانتقائية . وكانت كأرسطو نفسه أجنبية عن أثينا كما كانت على الجملة معادية لآل أنتيجونس ، ولو أنها انتقلت إلى الإسكندرية مع ديمتريوس ، فلربما أتيحت لها فرصة أحسن . أما مدرسة أفلاطون فلم يكن فى الإمكان أن تموت ، لأنها أثينية ومصدرها أثينا . وقد نبذت هى أيضاً كل بحث عن المعرفة . وعندما بعث فيها أركسيلاوس الحياة من جديد ، كان ذلك على أسس لا علاقة لها بأفلاطون ، وإن أمكن أن تمت إلى سقراط بسبب .

واندثرت المدارس المحلية الصغيرة أواندمجت فى « أكاديمية أركسيلاوس الوسطى » ، وإن كان منيديموس من إريتريا ، معلم أنتيجونس جوناتاس وصديقه ، شخصية جذابة وممتازة ورجلا قوى الحس والخلق كما كان مركزاً لحلقة أدبية مزدهرة . وكان أصدقاؤه يشبهونه بسقراط ، ولكنه لم يترك من ورائه ورقة مكتوبة ولا خليفة ، وبموته مات تأثيره الذى كان يعتمد على شخصيته . ومع ذلك فإن الكلبيين ظلوا هيئة ناشطة . ولم يكن لهم مركز ولا مقر معلوم . وهذا هو النحو الذى يتناسب واتخاذهم الفقر منهاجاً ، بيد أنهم لقوا إلى حد كبير قبولا لدى الفقراء ، كما أن خشونتهم وإهمالهم المدروس المتعمد لأدب اللياقة العادى والمجاملات العادية أو شكت أن تفسد رجولية موقفهم من الحياة ، وإن أثرت تلك الصفات فعلا فى الرواق ومذهبه إبان عهده الباكر . ولكن يبدو أن قراطيس (Crates) الكلبى « طبيب النفوس » ومعلم زينون كان رجلا حقاً . فقد أوتى ذكاء متوقداً وحماسة بالغة ، فجرد نفسه من ثروة عظيمة ليعيش عيش المتسول والواعظ . ومع أنه كان دميا ، فقد بلغ من فوزه بإخلاص تلميذته هيبارخيا أنها هى أيضاً نبذت كل شىء لتتزوجه وتشاركه طريقة عيشه وأسلوب حياته . ولا شك أن رجلا فى ذلك العصر يهاجم الفسوق الجنسى

بطريقته المؤذية ، كان أعجوبة من الأعاجيب . ولكن نقطة ضعف الكلبيين تنحصر بالضبط فى « مخلاة الشحاذ » التى كان قراطيس يمجدها . لقد كانوا ينقذون أرواحهم بالعيش على حساب العامة الذين لم يكن لديهم وقت لإنقاذ حياتهم هم . وهناك ذلك المخلوق العجيب بيون (Bion) من مدينة بوريسثنيز[1] وهو صديق آخر لأنتيجونس جوناتاس، وكان أيضاً كلبياً فى أغلب أموره وأحواله ، نشأ من أصل وضيع ، كما أنه كان مغتراً بذكائه يحيط به شىء من جو المهرج السوقى، ولكن الخشونة الظاهرية كانت تكمن من دونها الإنسانية ونوع من الرجولة والبساطة، وكان سلطانه على الناس عظيما ، وذلك أنه كان الأول فى سلسلة طويلة من المعلمين المتجولين الذين جعلوا الفلسفة فى متناول الشعب ، والذين شبههم « أوريجينس » فيما بعد بالوعاظ المسيحيين المتجولين، وقد منحوا العصر ضرباً من القاعدة الروحية يتكىء عليها. وهو وإن لم يكن مفكراً أصيلا ، إلا أنه أعطى من القوة ما يكفل له إجبار الناس على الإصغاء إليه . وكان حتى فى أحواض السفن برودس يجتذب إليه جماهير غفيرة من البحارة برسالته المألوفة : « أد واجبك ، واقنع بالقليل إن كان ما وهبته قليلا ، وواجه حظك رجلا» ولكى تفهم معنى ذلك معنى العمل الباهر، فما عليك إلا أن تترجمه إلى ما كان يقال بالأمس القريب فى منطقة أحواض السفن بلندن.

وكانت الفلسفتان الجديدتان اللتان وضعهما أبيقور وزينون ثمرتين من ثمرات العالم الجديد الذى صنعه الإسكندر ، كما نشأتا قبل كل شىء نتيجة للشعور بأن الرجل لم يعد بعد ذلك مجرد جزء من مدينته « ذلك أنه فرد ، وبوصفه كذلك يحتاج إلى إرشاد جديد » . ولم تكن الفلسفتان جميعا تهدفان إلى استكشاف الصدق ، بل إشباع الحاجات العملية ، ومن ثم كانتا تشتركان فى أشياء معينة . وكان هدف الفلسفة هو سعادة الفرد ، والأمر الذى يهم الخلق والسلوك . لذا فان الفلسفتين جميعاً تجاوزتا أفلاطون وأرسطو ومرقتا وراءهما إلى سقرط . وكانت كل واحدة منهما قانعة بقبول آثار الحواس وانطباعتها كحقائق ، فأبيقور يقول إن كل شىء حقيقى، فى حين أن زينون

---

(١) تقع بالقرب من مصب نهر الدنيبر وتسمى تلك المدينـة كذلك أوليبا (Olbia) (المترجم)

جعل ميزان الصدق هو الانطباعة التى تقبض عليك بشدة بحيث تجعل عدم التصديق أمراً محالا ، وكلاهما عالج مسألة العالم — بما فى ذلك روح الإنسان باعتباره مكوناً من شيء مادى (وإن كان الرواقيون الذين كانوا فى الحقيقة شديدى الروحانية ، يرون ذلك مجرد ألفاظ تقال) ، وكلاهما تبنى التفسيرات المادية الموجودة ، حيث تبنى أبيقور آراء ديمقريطوس واتخذ زينون آراء هيراقلتوس . وكان كل منهما يرغب فى تجنب الشهوات والانفعالات، التى تجلب للناس التعاسة الناجمة عن عدم إشباع الرغبة . وراح كل منهما يشدد نكير التأكيد بكامل قوته على الأخلاق والآداب العامة التى فصلاها فصلا مطلقاً عن السياسة، ولم يعن أى منهما أدنى عناية بالعلوم أو المعرفة . ولكن إلى هنا تنتهى المشابهة بينهما . فقد كان الرجلان فى المسائل الجوهرية متباعدين بعد القطبين، وكان العالم الجديد يؤرق الرجال بطريقتين . فكانت الغالبية تحس أنها تنتسب إليه ، ولكنهم ماضون فى بحر خضم لا أول له ولا آخر وليست أغواره معروفة . بيد أن أقلية فيه شعرت بالظلم والخوف ينوشانها ، ورغبت فى الخلاص ، وإلى هؤلاء أشار أبيقور بإصبعه إلى الطريق .

قال أبيقور « إن العالم الذى يرهبونه إن هو إلا آلة ، فلا آلهة خير ولا شر تؤثر فيه ، لم يصنع على خطة مصممة ولا هو يقاد بمقتضى قصد معين، كما أنه ظهر إلى الوجود عن طريق بعض السنن الآلية المعينة » . وبذا أعاد الفيلسوف إلى الحياة نظرية ديموقريطوس الذرية : (وكان معنى الذرات عنده هو الجزيئات) وهو يرى أن الذرات تسقط على صورة مطر لا نهاية له خلال الفضاء ، وأن اصطدامها بعضها ببعض هو الذى كون العالم . ولكنه سرعان ما اصطك بصعوبتين . فالذرات الساقطة فى خط مستقيم خلال الفراغ لم تكن لتستطيع أن تتصادم — كما فهم هو ذلك . وكذلك أيضاً أنه لم يداخله أى اهتمام بالذرات ، بينما أبدى عناية شديدة بالأخلاق ، ولن تقوم لمكارم الأخلاق (morality)أى قائمة دون إرادة حرة . على أنه حل مسألتيه جميعاً : فزعم أن للذرات القدرة على الانحراف قليلا بقصد لكى تلتقى ، ومعنى ذلك أنه منحها حرية الإرادة . وإذن يكون عالمه الآلى محكوماً منذ البداية بشيء أكثر من النظام الآلى ، وإذن لم يكن فى وسع صاحب المذهب المادى مطلقاً أن يصنع

عالماً إلا بإنكار مبادئه هو . وكل ما تبقى بعد ذلك كان مسألة سهلة ، كما أنه ساعدته فكرة إمبيدوكليس التى تقول بأن الطبيعة جربت أشكالا كثيرة من أشكال الحيوانات أقل ملاءمة وصلاحية للتكيف ، ثم ما لبثت تلك الأشكال أن انقرضت ، وفى الإمكان رؤية نتيجة ذلك فى الوصف المدهش عن تطور الحياة على الأرض فى ذلك الأثر الخالد لهذه المدرسة ، ألا وهو قصيدة لوكريتيوس « عن طبيعة الأشياء » . وكان هدف أبيقور أن يتمكن بوساطة إقامة العالم على أسس علمية ، من تخليص الناس من الخوف من الآلهة ومن شر الخرافات . فروح الإنسان تتحلل عند الموت من جديد إلى الذرات التى صنعتها . وقد أسدت مدرسته خدمة جليلة برفضها معالجة العرافة والتنجيم ، ولكنه تسامح فى قدر معلوم تركه لاعتقاد عامة الناس ، بأن الآلهة موجودة وكل ما فى الأمر أنها لا تعمل شيئاً إلا أن تعرض علينا سعادة مثالية . فهم ليسوا إلا زمرة صغيرة من الفلاسفة الأبيقوريين وأطياف فى غاية الضآلة تعيش فى الفضاء الكائن بين العوالم ، وتتحدث على الدوام باللغة الإغريقية فيما يحتمل ، وهنا ينزلق المرء على غير وعى منه إلى تهكمات شيشرون ، حيث يقول إن وظيفتهم الوحيدة هى أن يقول كل منهم للآخر « كم أنا سعيد ».

على أن علم الأخلاق عنده كان جدياً تماماً . وهدفه هو السعادة ، والسعادة معناها اللذة والسرور ، واللذة هى الخير الحق الوحيد . ولكنها ليست اللذة الجسمية أو الحسية التى كانت عند سابقيه أصحاب الفلسفة القورينائية(١) وإنما هى فى المقام الأول لذة ذهنية ، وذلك لأن العقل أهم الأشياء طراً . وهى لذة سلبية أكثر منها إيجابية : كالإخلاد إلى الراحة والخلو من الشهوات والرغبات والحاجات وفوق كل شىء انعدام الألم . وينبغى أن يكون مفتاح السر لجهود الإنسان هو « الفرار من القلق والهم» (Alaraxia) . والفضيلة عنده حيوية الأهمية ولكنها لا تطلب من أجلها هى كما كان الرواقيون يعلّمون — فذلك شىء

---

(١) الفلسفة القورينائية : — نسبة إلى قوريني : مدرسة للفلسفة اليونانية القديمة أسسها حوالى ٤٠٠ ق.م أرستيوس . وخير اللذة عنده هى الشىء الجدير بالاهتمام فى الحياة ، ولكن ضبط النفس والذكاء ضروريان لاختيار اللذات . (المترجم)

لا معنى له ، وهى حيوية لأنه بدونها لا يمكن أن توجد سعادة . ومعنى ذلك نشوء مذهب التخلى والنبذ ، التخلى عن الجهد الناشط والسعادة الإيجابية ؛ ولذا كان أتباعه يؤلفون خلايا صغيرة يشملها الهدوء والانعزال وتربطها الصداقة التى كان الفيلسوف يؤكد عليها بشدة . ولولا عيشهم بين أترابهم واستمتاعهم بالحياة العائلية ، لأمكن الإنسان أن يسميهم من الناحية الروحية بأول الرهبان . وهم لم يؤثروا قط فى العالم المترامى المحيط بهم ؛ إذا لم تخالجم رغبة فى ذلك . ولم يغيروا أو يضيفوا حرفاً واحداً إلى ماقاله مؤسسهم . بيد أنهم حققوا حاجة إنسانية دائمة . ولم تندثر جماعتهم قط . وفى القرن الثانى للميلاد سجل مجهول اسم ديوجينيس فى أو ينواند بإقليم ليقيا تعاليمهم فى نقش طويل حفر على حجر ، لأن تلك التعاليم جلبت عليه من السعادة والسلام ما أراد أن يشاركه فيه أبناء جلدته من البشر . وكان أبيقور نفسه — وقد مات فى ٢٧٠ (ق.م.) رجلاً رقيقاً مقلاً فى الطعام ، تحمل آلام مرضه الأخير بتجلد هادئ ؛ وكان نجاحه الشخصى بأثينا عظيما كما أن سير حياة أفراد دائرته الخاصة وهى تضم النساء أيضاً ، لم تكن نموذجاً يحتذى فحسب ، بل واحة عطرة فى عصر عاصف . ولئن أسىء فهم وتطبيق مبدأ اللذة أحياناً ، فلم يصدر ذلك من أولئك الذين كانوا يتبعون تعاليمه حقاً . واللوم الوحيد الذى يوجه إلى فلسفته هو أنها كانت تعلم الناس الإعراض عن العيش ؛ إنها كانت فراراً .

وكم كان يختلف عنه جداً ذلك الزاهد الفينيقى الضامر الذى أسس مذهب الرواق (Stoa) ، وهو زينون من كيتيوم بقبرص ، أنبل من أظلته السماء فى عصره . كان خجولا صموتاً ، وكان أجنبياً يكتب ويتحدث بإغريقية وسط . كان نجاحه يسير قدماً ولكن ببطء وريث ؛ ولم يكن لديه مركز يجتمع إليه فيه أتباعه كحديقة أبيقور ، وكان يتحدث إلى من حضروه فى بهو عام ذى أعمدة ، هو السقيفة المنقوشة . وفى ذلك شىء من التنبؤ بحقيقة واقعة ، وهى أن المعلمين الرواقيين لن يرتبطوا ألبتة بمركز ما فى أثينا ، بل سينتشرن فى كل أرجاء العالم . ولكنه ما لبث وهو بعد فى مقتبل عمره أن استلفت إليه نظر أنتيجونس جوناتاس الذى أصبح تلميذه وصديقه مدى حياته كلها . ولا شك أن ذلك كان ينطوى على عون له بالمعنى الدنيوى . وقبل وفاته بزمن مديد

كانت شخصيته قد قهرت أثينا ، وبخاصة شبابها الذين يقال إن تأثيره فيهم كان عظيماً جداً. ومع أنه كان صديقاً لأنتيجونس ، فإنه ظل متباعداً عن السياسة. ولما أن مات بعد الحرب التى نشبت بين أنتيجونس وأثينا ، تلك الحرب التى لا شك أنها كانت مثار عذاب أليم له — أقامت له أثينا جنازة عامة ودبجت له شهادة من أجمل ما تلقاه أى إنسان على مر الأيام . وذلك أن المرسوم المدهش الذى صحب ما صدر من أجله من آيات التكريم بعدوفاته اختتم بهذه الكلمات: « لقد جعل حياته نموذجاً وأسوة يحتذيها الجميع ، وذلك لأنه كان يتبع تعاليمه هو ويطبقها » .ترك مجموعة من التلاميذ جديرة بالذكر والإجلال ، منهم أرستون الذى علم إراتوسثنيز . ومنهم برسايوس الذى لحق بأنتيجونس مشيراً روحياً له ، ومنهم سفاريوس الذى عاون فى ثورة كليومينيس بإسبرطة . ومنهم كليانثيس من أسوس وهو خلف زينون ومؤلف أعظم ترتيلة دينية بالإغريقية ـ وهو الذى أبرز الناحية الدينية لمبدئه . وجاء خريسبوس من سولى خليفة كليانثيس وهو كاتب مسهب وفير الإنتاج ، وقد توافر على تسطير شعائر المدرسة بإتقان وإسهاب فى عدة كتب ، وسنتناول فيما بعد باناثيوس وبوسيدونيوس . ومن سوء الحظ أن كتابات زينون وخريسبوس قد فقدت إلا شذوراً . ولا توجد أية كتابات رواقية بكاملها حتى نصل إلى أساطين الفلسفة الانتقائية Eclectics التى ظهرت فى عهد الإمبراطورية الرومانية — وهم سنيكا وماركوس أوريليوس وإبكتيتوس ، وإن كان كتاب شيشرون المسمى « عن الوظائف De Officiis » يمثل مقالة باناثيوس المسماة « عن الواجبات » وكان زينون يدين فى البداية بشىء لهيراقليطيس وبشىء آخر فيما يحتمل لبابل (الفصل العاشر فيما يلى) ، وبالشىء الكثير للكلبيين . بيد أن المذهب العظيم فى الأخلاق الذى طوره هو نفسه وخلفاؤه ، كان يختلف اختلافاً بيّناً عن أى شىء آخر فكر فيه الكلبيون فى أى يوم من الأيام .

وقد سبقت الإشارة إلى فكرة الرواقيين عن الإخوّة والدولة العالمية (الفصل الثالث) . وكان العالم عندهم فى الحقيقة مدينة عظيمة ، وكانت تحكمه قوة عليا واحدة تصورها الرواقيون فى أشكال وأسماء كثيرة : — منها القدر وزيوس والعناية (الإلهية) والناموس العام والطبيعة . وعن هذه « القوة »

وتتجلى طبيعته الحقة فيما أدلى به من نصح في مقومات النجاح، وهو رأى يجمع بين الصحة والبشاعة في وقت واحد، حيث تقدم إلى ماركوس أنطونيوس وقال له: « اقتل كليوبطرة » . لقد نجح ذلك الرجل حيث فشل أنطيوخوس إبيفانيس مع أنه أعظم منه كثيراً ، وتمكن بالقوة من أن يجعل من بلاد اليهودية صورة تحاكي بدرجة مقبولة جداً أى مملكة هللينستية . إنه لم يكن ملكا هللينستياً ، بل هو أجنبي (متبربر) إدومي جيد الصقل جدا إلى حدما ؛ ولكن النظام الهللينستي كان النظام الوحيد الذى استطاع تطبيقه على مملكته المخلطة الممتدة من لبنان إلى مصر . وكان حكامه وموظفوه يقلدون أنظمة الحكم السلوقية المعتادة ؛ بيد أن مدنه الإغريقية الكثيرة لم تكن سوى مدن خاضعة ، كما كانت تلتمس من روما أن تضمها إلى ولاية سورية التابعة لها .

أما فيما يتعلق باليهود ، فالظاهر أنه لم يستطع البتة أن يعزم في أمرهم على شيء فحاول أن يصالح الفريسيين ، ولكنه أعمل الذبح في الصدوقيين . وقد امتنع عن بناء معابد قيصر في أورشليم نفسها ، بيد أنه بنى حلبة لسباق الخيل بأورشليم كما بنى مسرحا ومدرجا خارج سور المدينة ، وحاول استجلاب رضا الشعب عنه بإعادة بناء الهيكل في قدر عظيم من الفخامة ، في حين أنه ربما كان هو نفسه يتوق أن يصبح رباً . وأخيرا عبر هيرودس عن رغبته هذه بأن وضع على المعبد نسراً هو طائر زيوس — وهذا أسوأ أنواع الاستفزاز التي يمكن أن يتلقاها يهودى . وقد بنى عدة مدن هامة منها سباستى لتحل محل السامرة وقيصرية على الساحل ولها ميناء أكبر من ميناء بيرايوس (مرفأ أثينا) . واشترك في تزيين أنطاكية ومدنا كثيرة غيرها ، ولكن اليهود كرهوا منه ما كان يبتنى من مبان إغريقية ، وذلك لأن المال اللازم لذلك كان يغتصب منهم غصبا . إنه كان بحاجة إلى مقادير هائلة من المال ، فصادر مقادير ضخمة من الأرض ، ولابد أن أملاكه الخاصة كانت عظيمة جداً هى وإيراداته ، وكانت ضرائبه عالية مبهظة ، كما كانت مصدرا دائما للسخط . أجل إنه منح البلاد السلام والرخاء ، ولكنه كان في الواقع يحكم بلاد اليهودية بالخوف ويقمعها بالمعاقل والحصون . كان يعين الكهنة العظام ويخلعهم حسب هواه ومشيئته . وكان السبب الرئيسى في كراهية اليهود له خشيتهم من الخطر الذى يتهدد ديانتهم من وجوده . فثاروا مرات عديدة حتى أصبح أقوى من أن يغلب . وكان حكمه في السنوات

جميعاً متساوين . ولكن الواقع أن الناس يختلفون خُلقاً وقدرة وظروفاً ، وذلك كما جاء فى تعبير خريسبوس المجازى بأنه لا شىء يحول دون أن تكون بعض المقاعد بالمسرح خيراً من بعضها الآخر ، ولذا فإن الناس جميعاً لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا متشابهين ، كما أن المساواة إن هى إلا شىء نظرى . وكذلك أيضاً كانت دولتهم العالمية غير قابلة للتحقيق من الناحية العملية ، وذلك أن العالم كان يتكون من رجال عاديين ، ويحكمه قوم ليسوا فلاسفة ولا علم لهم بالناموس العام . ومن حسن الحظ أن الرواقيين كانوا يقنعون بأداء ما كان فى وسعهم عمله ، فكانوا يعضدون عرش الملك ويقدمون إليه النصح ، وكانوا كغيرهم من الفلاسفة يكتبون الرسائل عن الطريقة التى ينبغى أن تُحكم بها الدول ، وكانوا مستعدين لمناهضة الحكومات السيئة ، وبخاصة الطغيان ، أو كانوا شأن سفايروس بأسبرطة وبلوسيوس ببرجامة ، متأهبين للعمل فى خدمة أى إصلاح من شأنه زيادة المساواة بين الناس ، واتخاذ أى خطوة نحو تحقيق شكل الاشتراكية الخاص بهم ، وهو شكل كان ينطوى على الاتفاق والوئام وإلغاء كل حروب الطبقات.

وتمشيا مع مبادئهم لم يكونوا إذن يستطيعون فيما يظهر أن يقبلوا فكرة حرية الإرادة والاختيار أو عدم المساواة . ومع ذلك ، فإن الظروف اضطرتهم أن يتقبلوها جميعاً . وكان حلهم بالنسبة للمعضلتين كلتيهما هو الرجوع إلى المبدأ الأساسى ، مبدأ الحكمة أو العقل . فإن العقول البشرية كانت شرارات من « النار » المقدسة ، بيد أن الجسم البشرى صلصال من طين ؛ ولذا فإن الجسم لا يهم فى قليل ولا كثير . وقال زينون إن كل ما له علاقة بالجسد — سواء منه القوة والضعف والمرض والصحة والثراء والفقر — شىء لا يؤبه له ؛ وظل ذلك موقفهم — من الناحية النظرية — على طول المدى . وإن الحكيم الرواقى ليعمد إلى أن يهمل مثل تلك الأشياء ولا يلتفت إلا لما يتعلق بالروح من أمور . بيد أن هذه الخصال كانت أو يمكن أن تكون ، عند الناس جميعاً ؛ فالعبد العامل بمناجم الفضة الذى يُسام سوء العذاب ويُعامل معاملة البهائم ، ربما ظل فى روحه يتعقب الحكمة ويُصبح قريباً للفيلسوف أو القديس . وإذن فإن الرجال متساوون بعد كل شىء ، وذلك لأنهم جميعاً لو شاءوا

لأمكنهم أن يكونوا متساوين من حيث الروح ؛ وفى هذا الميدان قد يصبح الشحاذ ملكاً .

وعن طريق الحكمة حلوا كذلك مسألة الجبرية . ولا شك أن حكيمهم كان وحشاً عديم الشعور عديم الشفقة ، بارعاً ، فهو قد يفعل الخير ولكن دون أى إحساس نحو الآخرين ، وذلك لأن هدوءه ينبغى أن لا يكدره شىء ؛ فهو عند حد تعبير القديس بولس قد يكون مستعداً أن يقدم جسمه ليحرق ، بيد أنه ليس لديه حب . ومن العجيب أن زينون الذى أسس الدولة المثالية عنده على الحب ، لم يدع لحب الآخرين أى مجال فى تكوين الرجل الحكيم . ولكن الإنسان يؤوّل مثاله الأعلى حسب مشيئته . وكون الرجل الحكيم ينهج فى تصرفه سبيلاً يجعل منه مثلاً أعلى ، أمر لا يداخله شك ؛ فهو (أى الحكيم) شىء يتخذ هدفا . ولكن أحداً (لحسن الحظ) لا يستطيع الوصول إليه . بيد أن الحكمة قطعة من القبس الإلهى ؛ ولذا فإن الحكمة الحقة على الأرض ينبغى أن تتطابق تماماً مع الله ، وإن الرجل الحكيم ليرضى بما قدره الله ، وما رسمه له القدر بحكمته . ومن ثم فإن التناقض بين الجبرية والإرادة الحرة ، قد استعلى عليه وتخطاه عند الرواقيين معنى عام فلسفى جديد هو الواجب ؛ فإن للإنسان إرادة حرة ، ولكن واجبه الحتم يقضى عليه أن يستخدمها على شاكلة تقرب بينها وبين الإرادة المقدسة . وسواء استكان للمقادير أم أخذ يرفس بقدميه مناضلاً للوخزات ، فإن ذلك لا يحدّث أى فرق يعتد به فى النطاق المادى . ومن هنا كان عليه أن يسير فى الطريق المرسوم له . ولكنه بنفس النسبة التى يبلغ بها الحكمة ، سيدرك أن ذلك الطريق هو طريق الصواب ويجد السلام والهدوء الفكرى . والحكيم حقاً لن يحتاج سَوْقاً ولا جرّاً ، إذ أنه يستطيع أن يرى ويتوقع مسروراً ما كان يخبئه له القدر . وممارسته الحرة لإرادته الخاصة هى السبيل الذى يفضى ببساطة إلى التوافق والانسجام وفق ما تقضى به إرادة الله . ومتى جاء الرجل المثالى قال لنفسه : « فلتكن إرادتك » .

وبذلك أيضاً حل الرواقى لنفسه تلك المسألة القديمة ، مسألة السعادة . والعادة أن التعاسة تنشأ عن الحاجة إلى شىء لم تحصل عليه أو لم تستطع

الحصول عليه ، فطريق السعادة إذن هو أن تريد ما حصلت عليه ، أعنى أن تسير وفق الإرادة الإلهية . وذلك هو ما كانوا يعنونه بقولهم « العيش وفق الطبيعة » ، وليس المقصود به ذلك المعنى الشبيه بالمادى الذى استخدم فيه الكلبيون تلك العبارة ، وذلك لأن الطبيعة أيضاً إله . ولاشك أنهم استخدموا تلك الفكرة ليطرحوا من اعتبارهم موضوع اللذة والترف والثروة والنجاح ، وهى شوائب الحضارة ، التى لم تكن من الخطة الإلهية فى شىء . ولكن التوافق مع الإرادة الإلهية معناه أشياء أخرى بعيدة كل البعد عن إهمال هذه الأمور المادية : فالرواقى لا يحزن على وفاة ابنه ، وذلك لأن أمر الله ومقدوره حكمة شاملة ، ولم يكن فى المستطاع حدوث شىء أفضل منها . وذلك أن العزة الإلهية ليست حكمة كلها فحسب ، بل هى أيضاً فضيلة كلها ، وما تفعله هو خير ما يُفعل . ولذا فلكى يتحقق الوصول إلى الانسجام مع تلك القوة السماوية ، كانت الفضيلة أشد الأشياء لزوماً ، كما أن الفضيله دون أى شىء آخر ، هى إذن السعادة ، والفضيلة فى حد ذاتها تفى بالجزاء . وظل كثير من الناس قروناً عدة يعتقدون هذا المعتقد ، كما أن بعضهم كانوا يمارسونه .

وكانت الفضيلة المحور الرئيسى فى علم الأخلاق عند الرواقيين . ولم يُبد زينون فى هذا الشأن أدنى تساهل ، فقد كان يقول إن انتواء فعل الشر معادل لفعله . وقد قال فى البداية إن كل ما ليس فضيلة مطلقة فهو رذيلة ، ولكن هذه القاعدة كانت غير عملية بحيث اضطر فى النهاية أن يُعدّلها بنفسه قبل موته بتسليمه لوجود مرحلة وسطى بها أشياء محايدة . وهذه ما لبثت أن أصبحت بعد ذلك مقسمة إلى أشياء مفضلة وأشياء أخرى منبوذة ، وعلى الرواقى أن يختار الصنف الأول من تلك الأشياء ، وعلى هذه الأسس تعززت بقوة الفكرة الرواقية الرئيسية عن الواجب . أما أنه يجب عليك أن تتبع سبيل الخلق الشريف فذلك أمر ليس فى نظرهم من قبيل الافتراض ، وذلك أن أول ما يسلم به المذهب الرواقى هو أن هذا المذهب كان فى حد ذاته نظاماً خلقياً ، وكان فى وسعه أن يدعى أن النهج المناقض له لا بد أن يكون خاطئاً وذلك لأنه يدعو إلى وجود الاختلاف فى نظام الكون ، وذلك النظام شىء أعظم من البشرية . ولما كانت وسيلة الإنسان إلى الانسجام والوفاق مع الله

هى الحكمة والفضيلة ، وكان سبيل التقدم فيما يتعلق بهذين الأمرين جميعا أمراً ممكناً ، اضطر الرواقى من ثم إلى فحص مبلغ ما أحرزه من التقدم ، وهنا نشأت فكرة النمو الخلقى الواعى . هذا إلى أن القوة الربانية كانت تسهر على رعاية شئون الناس وتدبير أمورهم ، ولذا تلقوا العون وهم فى الطريق . وقد ظهرت آنذاك فى الفلسفة فكرة الضمير التى ظلت حتى ذلك الحين فكرة شعبية شائعـــة بين الناس . وكان الضمير والواجب ركنى علم الأخلاق عند الرواقيين .

وقد قدر لهذه الأخلاق أن يكون تأثيرها عظيما على العالم وعلى المسيحية . وربما اكتسح النقاد أمامهم المعاقل الأمامية لهذا النظام ، وربما أربك الأذكياء الحكيم بما يوجهون إليه من سهام ، ولكن القلعة الرئيسية ، ألا وهى فلسفة الخلق قد صمدت ثابتة كالجبل . والواقـع أن المذهب الرواقى كان عقيدة ودينا بقدر ما هو فلسفة ، كما أنه كان مذهبا موسوما بالحيوية والقوة ، كما أظهر ذلك فيما بعـد . وكانت القوة ضرورية لاحتقار أمـور الجسد ، وكانت فى الطبائع القوية تعمل عمل الدواء المقوى ؛ وكان الرواقى الحق — مهما يكن له بعد ذلك من أحوال — سيد نفسه ، أو على حـد تعبيرهم متمتعا بالكفاية الذاتية (Autarkes) وكان سيداً لمصيره ومتحكما فى مقاديره ؛ ولم يكن القضاء والقدر بقـادر على أن يؤذيه ، وذلك لأن ما كان يجلبه إليه إن هو إلا ما كان يختاره هو لنفسه . ولكنه بالنسبة للجميع قويهم وضعيفهم ، كانت له رسالة : هى إصراره على الأشياء المتعلقة بالروح . فمهما يكن ما فعله العالم لك ، فان هناك نطاقا واحدا لا سلطان لذلك العالم فيه ؛ فأنت تستطيع أن تنسحب إلى دخيلة نفسك ، وهناك تجد السلام ؛ إذ أنه ما من شىء يستطيـع أن يؤذيك هنـاك إلا نفسك .

بدأت مدرسة التشكك بالفيلسوف بيرون (Pyrrhon) من إليس ، الذى صحب الاسكندر إلى الهند فى شبابه ولكنه لم يكتب شيئاً ، ولا يُعرف إلا عن طريق تلميذه تيمون الهجّاء (الفصل الثـامن) . وكان مـذهب تيمون بسيطا . ذلك أن أصل البلاء هو تضارب المعرفة ، ولكن ما من شىء يمكن معرفته على سبيل اليقين . لذلك وجب عليك أن توقف حكمك ، وأن لا تصدر

أحكاما جازمة أبدا ، وتذكر أيضا أنه لاشيء يهم ، ولا حتى ما إذا كنت تعيش أو تموت ، وبهذا تبلغ الهدف : وهو الا تزان ورباطة الجأش . وقد حصل على مبلغ طائل من المال بالتبشير بهذا الكلام فى طول العالم وعرضه ، ولكنه لم يبلغ حد الا تزان ورباطة الجأش ، وذلك لأنه قضى شطرا عظيما من حياته فى مهاجمة أركسيلاوس لتعديه على الموضوعات الخاصة به ؛ ولم يترك من بعده خليفة على مذهبه ، وذلك لأن مذهب المتشككة انتقل مع أركسيلاوس (حوالى ٢٦٤ — ٢٤٢) إلى الأكاديمية . وكان أركسيلاوس أثينياً مخلصاً لوطنه ، ذا خلق ممتاز ، ولكنه كفيلسوف لم يكن إلا قوة سلبية . وكان يؤمن هو أيضاً بأن المعرفة مستحيلة ، وكان يظن أنه لم يبرز ذلك إلا بمجرد القضاء على نظرية المعرفة عند الرواقيين « تلك الانطباعة التى لاتقاوم » ، وفى ذلك مافيه من التقدير للمركز الذى بلغته الرواقية . وبلغ من شدة إنشغال كارنياديس (٢١٣ — ١٢٩) خلفه الأعظم منه بمحاربة المذهب الرواقى أنه قال عن نفسه أنه ماكان البتة ليصبح له أى شأن لولا خريسبوس . وقد قام بخدمة لابأس بها بمهاجمة الناحية المعتمة من الرواقية ، وهى العرافة والتنجيم ، فضلا عن إرغام باناثيوس بتعديل موقفه من هذه الناحية . ولم يكن من الصعب تدمير « الانطباعة التى لاتقاوم » . إذ أنه لم يستطع أن يمس بسوء أساسيات الفلسفة الرواقية ، وكانت نتيجة ذلك أن مر العالم عليه مر الكرام . وذلك لأن العالم مضطر بشكل ما أن يعيش ويتصرف ، وفى هذا لم يكن لدى كارنياديس شيء يقدمه إليه . ولكن كارنياديس لم يحدث أى أثر حقيقى . ولما كانت المعرفة مستحيلة ، فإن أركسيلاوس قال إن المرشد الهادى فى التصرفات ينبغى أن يكون هو « المعقولية » ، وهو قول لامعنى له ؛ واستخدم كارنياديس « الاحتمال » بدل « المعقولية » ، ولكنه لم يستطع تفسير ذلك لاحتمال إلا بحيث يعنى « افعل مايفعله جيرانك » ثم إنه أيضا جعل نفسه عرضة للشيء الكثير من سوء تركيب العبارة بما جري عليه من عادة الجدل دفاعا عن أى موضوع أو دحضا له بغير تمييز ، وذلك على سبيل التدريب الذهنى ؛ وقد حاول ذلك فى روما ١٥٦ ، وصعق عامة الرومان لمثل ذلك الطيش الفاجر . بل إن تلميذه نفسه وهو هازدروبال — كليتوماخوس القرطاجى ، الذى ألف أربعمائة لفافة بردية فى سبيل محاولته تدوين تعاليم كارنياديس وآرائه

الشفوية ، — قد اعترف بأنه لم يكن يدرى أحيانا ماذا كان رأى كارنياديس الحقيقى . بيد أن كارنياديس ، وإن كان لديه ضرب من شهوة التدمير ، إلا أنه كان رجلا يتمتع بسمعة شخصية طيبة ، كما أنه كان من ألمع العقول التى أنتجتها بلاد الإغريق فى تاريخها كله . ولم يتح لأحد البتة أن يجيب على بعض الصعاب التى أثارها . وبموته مات مذهب التشكك ، ولكنه بُعث من جديد على يد أينيسيديموس ، معاصر شيشرون وأيضاً أثناء حكم الأنطونيين ، وقد أشبع ذلك المذهب بالفعل حاجة كانت قائمة ، وذلك لأنه كان من المفيد أن يقوم بعض الناس بنقد وتهذيب الفلسفة الاعتقادية (Dogmatie) .

وقد قيل بحق إنه فى المجال الدينى كانت الأشياء الحيوية الوحيدة لدى الهللينسية هى الفلسفة والديانات الشرقية . لقد أخذ الغسق يرخى بالفعل سدوله على آلهة الأوليمب على الرغم من المظاهر الخارجية — فثم تجليات جديدة ، وثم مهابط وحى جديدة ، وثم أعياد وحفلات جديدة ، وذلك فى محاولة لإنهاض الديانة ببلاد الإغريق بعد ١٤٦ (الفصل الأول) . كما أن المعابد الكبيرة التى بنيت واستكملت بناءها كانت على وجه العموم لبعض الآلهة الأجنبية مثل سرابيس الاسكندرى أوربة مغنيسيا ذات الجبهة الشقراء ، وهى خليفة الأم دنديمينى . فما كان يحدث يمكن مشاهدته فى المعبد الوحيد العظيم الذى صممته إحدى المدن الإغريقية لإله إغريقى ، فإن معبد أبولون فى « ديديما ظل ناقصا ولم يكمل بناؤه بعد ذلك بأربعة قـــرون ، وليس ذلك لقلة المال بميليتوس ، بل لقلة ذلك الإيمان الحى الذى كان يمكن المدن فيما سلف من اتمام معابدها فى مدى جيـــل واحد . وقد حدث ذات مرة أن زيوس فى مهبط وحى دودونا(١) تكلم هو نفسه إلى عباده كما يتكلم الإله ، فى مهب الريح

(١) أقدم مهبط وحى ببلاد اليونان . والمعبد مقام فى إبيروس ، مكرس لزيوس وكانت إجابات الإله تلقى عن طريق حفيف أشجار البلوط وغيرها وأزيز الريح . (المترجم)

العاصف في شجرة البلوط وفي حبب النبع وفقاعاته ، وفي ديديما كان تلقي الوحي عملية تجارية يتولى إدارتها مكتب خاص. وتآمرت عوامل كثيرة على تقرير مصير آلهة الاولمب . إنهم كانوا ينتمون لدولة المدينة وقد سقطوا بسقوطها . لقد أهلكتهم الفلسفة عند المتعلمين ، وقضت عليهم النزعة الفردية عند العامة ؛ فالرجل العامي لم يعد جزءا من المدينة قانعا بأى شيء يمكن أن تسفر عنه عبادتها الجماعية، بل كان يريد شيئا يتحدث إلى نفسه . ولكن ربما كان الشيء الذي فصل في الأمر هو فتح آسيا ومصر ، وذلك لأنه كان فتحاً بالسيف وحده وليس بالروح . لقد كانت بلاد الإغريق مستعدة لتبنّي آلهة الأجانب ، ولكن أولئك الأجانب قلما بادلوها ذلك العمل بمثله ؛ ألا ترى كيف أن مدينة دورا الإغريقية قبلت وبطيب نفس آلهة بابل ؟ على أن رباً إغريقيا واحداً لم يدخل مدينة أوروك البابلية . أجل إن الآلهة الأجنبية قد تتخذ أسماء إغريقية ، ولكن الأمر يتجاوز ذلك الحد بكثير . ذلك أنها كانت هي الأقوى ، كما أن فتح آسيا لم يكن أمامه بد من أن ينتهي إلى فشل بمجرد تمكن الشرق من أن يعجم عوده في مجال الدين ، ويتبين قوته وضعف الإغريق ، وذلك أن ما كانت بلاد الإغريق تستطيع إعطاءه لآسيا وهو العلم والفلسفة ، لم يكن ليستطيع فهمه واستيعابه إلا النخبة القليلة ؛ فإن هذين الأمرين لم يكونا بتاتا مما خُلق لجمهرة الشعب . فلو أن بطلميوس الأول توج زيوس بالإسكندرية واضطهد أوزيريس ، لحاربت مصر دونه ولأدركت معنى ذلك أيضاً . فأما أن البطالمة أقدموا بدلاً من تتويج زيوس على بناء المعابد للآلهة المصريين ، فقد فسره المصريون بالضعف لا التسامح — إذ لم يكن للفاتح في نظرهم أى إيمان بآلهته . وقد وقعت الهللينستية منذ القرن الثاني بين المطرقة والسندان : سيف روما وروح مصر وبابل . وكان أن أدرك تلك الحال رجل واحد هو أنطيوخوس إبيفانس — فأطلق عليه منذ ذلك الحين لقب المجنون . بيد أن محاولته توحيد مملكته على أساس من ديانة اليونان وثقافتهم فشلت تماماً ، ولم تتح للديانة الإغريقية فرصة ثانية بعدها .

وتجلت النزعة الفردية في ذلك التفشي الهائل للجمعيات الخاصة بعد ٣٠٠

(الفصل الثالث) . وكانت هذه الجمعيات والنوادى هى السبيل العادى الذى كانت العبادات الأجنبية تدخل عن طريقه إحدى المدن الإغريقية . وذلك أن نفراً قليلاً من الأجانب ممن يقيمون بها كانوا يؤلفون نادياً يجتمعون فيه لعبادة إلههم الخاص ، وربما انضم إليهم بعض الإغريق . ومن المحتمل أن هذه الجمعيات كانت مبعثاً على التنويع فى ممارسات النحَل والعبادات ؛ مثال ذلك ، أن كثيراً من أندية ديونيسوس بمصر كان لها كتاب شعائرها الخاص (Aieoslogos) وإن نادياً أجنبياً ربما عبد أعضاؤه رب المدينة التى يسكنون بها ، مثلما كان أعضاء الجالية الهلياستية (Haliastai) برودس يعبدون هليوس (إله الشمس) . على أن الأندية الإغريقية ، وإن كانت غالباً ما تعبد بعض الآلهة الأوليمبيين — لم تكن تعبد البتة رب مدينتها الخاص . وقد برزت ربات الفن والشعر كآلهة رسمية للهيئات الكبرى المحتضنة للعلوم والمعرفة : وهى المدارس الفلسفية الأربعة بأثينا ثم الأكاديمية بالإسكندرية . وكانت تجرى عبادة طبقة كاملة من الشياطين المساعدة والواقية منها أمينوس وهيبودكتيس ودكسيون (الذى كان اسمه سوفوكليس) بأثينا وباسيوس فى كوس وأنتستر فى ثيرا ؛ وإن أندية تضم شمل الأسر والعائلات لتعبد جدها كبطل ؛ بيد أن هناك شيئاً واحداً فى القرن الثالث لم تفعله الأندية قط : فإنهم لم يعبدوا قط الملك المؤله ، وهى دلالة قوية على أن عبادة الملك كانت فى البداءة ظاهرة سياسية صرفة . وكانت أولى حالات عبادة الملك هذه بأحد الاندية هو يوم راح الفرع الأسيوى لهيئة الفنانين الديونيسية بزعامة كراتون من تيوس ، يعبد يومينيس الثانى ، وأسس كراتون نادى الأتاليين(Attalistai) وذلك لأن النادى المصرى لعبادة الملك (Basilistai) إنما يبدو كأنما يقدم التقديس لأحد الآلهة من أجل الملك (بطلميوس يورجتيس) .

وكان أهم الآلهة الاغريق طراً فى ذلك العصر خارج بلاد الإغريق هو :—ديونيسوس الذى قام الفنانون الديونيسيون بنقل عبادته إلى كل أرجاء العالم ؛ وكأنى بالفن والأدب قد منحاه موكب نصر تقدم به عبر آسيا على غرار موكب نصر الإسكندر . وقد طوبق بين اسم سابازيوس (أى الرجاف)وبين صاباءوت ، وهكذا أثر فى يهودالتشتت (الفصل السادس) ؛ وراح الأورفيون

يطابقون بينه وبين كثير من الآلهة ، ووحد القوم فى مصر بين شخصه وبين سرابيس عن طريق عنصر أوزيريس الموجود فى الإلهَ الأخير . وأصبح جداً من أسلاف البطالمة وأسرة أتالوس أيضا ، ويحتمل أن عابده القانت المتحمس بطلميوس الرابع كان يحلم بجعله الرب الأكبر فى امبراطوريته المتحدة (الفصل السادس). ولا شك أنه لو قدر لأى رب إغريقى أن يفتح العالم ، فإن ديونيسوس كان هو الرب الوحيد الذى يمكنه أن يفعل ذلك . ولكن مهما يكن بعد الشأو الذى بلغه نفوذ الأورفيين فيما بعد ، فإن الأمور لم يقدر لها أن تصوغ نفسها على هذه الأسس .

وهناك عامل مسيطر فى ذلك العصر ، ألا وهو بذل الجهود فى سبيل وحدة الإله . وقد تسامى الإسكندر فوق الدول القومية ، وهو أمر معناه الضمنى التسامى فوق التحلل القومية. ومع أن الإمبراطورية الواحدة قد زالت ولم يعد لها وجود ، فقد صار هناك عالم مسكون واحد وثقافة واحدة ، جلبت من الخارج (فيما يظهر) إلهاً واحداً، وهى فكرة هيأتها الفلسفة للمتعلمين وعودتهم عليها . وربما اتخذ هذا شكل الرب القومى ، الذى يدعى أنه رب الأرض قاطبة شأن يهوه (Yahweh) ببلاد اليهودية. بيد أن حركة أخرى ، طرازها هلينستى للغاية كانت تنطوى على توسعة كبيرة فى المطابقة بين رب وآخر أو صهره معه، بوصفهما شكلين متماثلين للإلهَ الواحد القائم وراءهما . ويستطيع الناس أن يعبدوا أى إله منهما دون أدنى تفريق. وعندما وهبت إسترتونيكى زوجة أنتيوخوس الأول إلى أبوللو بديلوس الهيئات الجزيلة وأعادت بناء معبد الإلهَ السورى أتارجاتيس بمدينة هيرابوليس وانضمت إلى عضوية ناد بأزمير يعبد الإلهَ المصرى أنوبيس، فلا شك أنها كانت ترى فيهن جميعاً مجرد أشكال وصور لإلهَ واحد. وكان المذهب الرواقى عوناً لتلك العملية . فلم يكن من دأب الرواقيين رفض آلهة الناس ، بل أدخلوها فى سلك نظامهم القائم على مذهب وحدة الوجود وذلك باستخدام جميع الرطازات (Myths) على سبيل الرمز مهما تكن تلك الرطازات أجنبية أو غريبة عليهم . لقد وجهوا همهم إلى التفسير لا إلى التدمير ، وذلك لأن الآلهة هى أيضا جزء من النظام الدنيوى

البار بالناس وهى أقنعة الرحمة منحها للرجل العادى لإنقاذ عينيه من بريق ضياء الصدق الحق الخاطف للابصار .

ومع ذلك فان هناك ربة واحدة ظلت بمعزل عن ذلك كله ، تلك هى ربة الحظ (Fortune) التى لم يستطع أحد حتى الرواقيون أنفسهم أن يتمثلوها . «والحظ » فكرة هلينستية بحتة . وقد صاغ شكلها أوائل المشائين وهما ديمتريوس الفاليرى وثيوفراستوس . وأشار ميناندر أنها قدتكون « العناية » وقارنها شاعر مجهول بالملاك إيريس(Iris)مبعوثة الآلهة . وقد تسلطت إلهة الحظ على الناس إبان القرن الثالث ، بل لقد حدث أن بوليبيوس نفسه ومن بعده بوسيدونيوس لم يحتقرا الإذعان للاعتقاد الشعبي المنطوى على استخدام اسمها. ولم تكن هى الصدفة العمياء ، بل نظاما وترتيبا لشئون الدنيا لم يستطع الناس فهمه بيد أن الناس جميعا كانوا يستطيعون مشاهدتها ، فالحظ وحده هو الذى رفع هذا القائد من قواد الإسكندر إلى العرش ودفع بذاك إلى القبر، والحظ قضى بأن مقدونيا تحطم فارس ، وهى من بعد ذلك (كما تنبأ بذلك ديمتريوس) ستغلب بدورها . وبعد معركة « كينو سكيفا لاى » أخذ الإغريق يعطفون على فيليب الخامس لأن الحظ قلب له ظهر المجن . وهى لم تكن ربة قاسية قسوة مطلقة ، وذلك لأنها لم تحرم الناس نعمة الأمل : « إنها اليوم لك ولكنها غداً لى . » ولكل امرىء حظه الخاص أى (Daimon)على حد تعبير الإغريق ، وهو عبقر(Genius)على حد تعبير الرومان، وهو يكاد يكون شخصية المرء وذاته . وكانت المدن والمواطنون على السواء يقسمون بحظ الملك(Daimon) وقد تملك الناس اعتقاد راسخ فى حظ الإسكندر أو أنتيجونس دوسون ، كما أن النفوذ العظيم الذى اكتسبه التمثال الذى صنعه يوتيخيديس لربة الحظ فى أنطاكية ترامى فى النهاية إلى تحويل حظ إحدى المدن إلى ربة لتلك المدينة.

فأما عند المتعلمين فان مكان الدين قد حل محله من قلوبهم الفلسفة والعلوم. بيد أن هذه أمور قلما أثرت فى الرجل العادى . إذ لا بد له من أن يعبد شيئاً، وخاصة وأن قوة آلهة الأوليمب كانت اضمحلت ، فأخذ ينمو فيه شعور دينى حقيقى أكثر ، وصار دعاء العبادات الشرقية الخالصة المطمئنة إلى نفسها ، أمراً

لا سبيل إلى مقاومته. وفى هذا المضمار تغلب الشرق على فاتحه واقتاده أسيراً. ومع أن تلك الحركة ربما لم تبلغ ذروة شأوها إلا بعد الحقبة المسيحية، إلا أنها كانت تلم شملها ويشتد عودها طوال العهد الهلينستى كلـه . على أن المرء ينبغى أن يفرق بين إقليم وإقليم . فأما إقليم فارس ، وهو فى النهاية تلك القوة العظيمة ، فليس لدينا عنه شىء نقوله هنا ، والأمر معقد يغشاه الإبهام والحق يقال . ولكن لا شك أن يوم ميثراس (١) الذى لا يقهر لم يحن بعد ، وإن عبده القراصنة القيليقيون فى القرن الأول ، وليس معبد « الميثرايون » الذى ورد ذكره بمصر إلا محرابا محلياً لبعض الجند المرتزقة من الفرس . وجاء المؤثران العالميان من بابل ومصر ، وكان لنحل سوريا والأناضول سلطان محلى ملحوظ، ولكنها لا تكاد تستمتع بدرجة واحدة من الأهمية ، وإن اجتاحت العقائد السورية بلاد الإغريق (الفصل العاشر) ومصر ، كما أن آلهة الأناضول ترامى سلطانها بعيداً (الفصل العاشر فيما يلى) .

وإما سوريا فقد نمت فيها قوة الديانات القديمة ، وإن جاءت أشكالهـا مهلنة إلى حد ما . وتدل العملات وبخاصة عملات العهد الرومانى على وجود خليط كبير من النحل والمطابقات(٢) بين الأديان. ومع أن التاريخ يذكر كثيراً دول الكهنة القديمة ذات الطراز الأناضولى ، إلا أنه لم يكن هناك إله متسلط حقاً . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أن سوريا ظلت على الدوام مقسمة تقسيما سياسياً بين ممالك عديدة أو مناطق نفوذ . وكان أقوى الآلهة هو « هدد » الدمشقى (وهو الذى ورد ذكره فى العهد القديم باسم رمون Rimmon) الذى استوعب كثيرا من «البعول» المحليين ، وصار اسمه زيوس الدمشقى كما صار زيوس الهليوبوليسى نسبة إلى بعلبك ، بيد أن معبده الرئيسى كان فى هيرابوليس

---

(١) إله النور والحكمة عند الفرس . (المترجم)

(٢) المقصود بالمطابقات بين الآلهة والنحل (Syncretism) هو (أ) التوفيق بين نظم دينية مختلفة ؛ أو (ب) مزج الأديان أو خلطها ، كأن يكون ذلك بتوحيد آلهتها والمطابقة بينها أو الجمع بين أحسن مرعيات كل منها ؛ أو (ج) التراضى فى الدين على غير أساس من المنطق . (المترجم)

بامبيكى (مبوج) ، حيث كان اسمه زيوس قبل ١٥٠ . وكانت زوجته بدمشق وهيرابوليس وهى أتارجانيس التى هى « الربة السورية » فيما يرى لوكيان ، — وهى فى الأصل حجر مدبب (Betyl) ولكنها أصبحت امرأة من زمن بعيد بتأثير الربة الفارسية الفاتحة أناهيتا (Anaitis) ، وحدث فيما بعد أنها غالباً ماأصبحت ربة مدينة إغريقية ، وأصبحت عند زواجها من أنطيوخوس إبيفانس أعظم ربة فى سوريا . وأشهر معابدها على الإطلاق هى المقامة فى هيرا بوليس ، حيث كان الرجال يفدون إليها من كل أرجاء آسيا فى عيدها الذى كان يقام كل سنتين ، ليتطهروا فى بركتها المقدسة ، وحيث كانت الأسود والدببة الأليفة تعيش فى أرباضها . ومن أشهر معابدها كذلك المعبد المشيد فى عسقلان حيث كانت تتخذ هيئة عروسة بحر لها إسم محلى هو « دركيتو » . وحيثما ذهبت أحضرت معها بركتها المقدسة وسمكها المقدس ، وهى أسماك الفرات التى حضرت مولدها وكوفئت بمقعد فى منطقة البروج . ولا شك أن وجود بركة السمك ثم الخصيان والأسود يربط بينها وبين أرتميس بافيسوس وأكربة الأناضولية ، « سيدة الضوارى » وكانت معابدها مسكناً لأسراب من الحمام كبعض المساجد فى عصرنا هذا . وقد وصل الإله « هـدد » إلى ديلوس قبل (١٠٠) ولكن أتار جانيس تقدمت إلى أبعد من ذلك ، وكانت أحد عنصرى تلك «الأفروديت السورية» حيث كان العنصر الآخر هو الفينيقية التى جابت كل أرجاء بلاد الإغريق بل كادت تبلغ مقدونيا ، والتى كان ناديها بأثينا يتاخم ويشارك مبنى قريبتها الأم الأناضولية .

ولم تكن أتار جانيس هى الحجر المدبب (Betyl) الوحيد فى سوريا . فكان هناك عدد منها من بينه اثنان فى صور ذاع صيتهما . وقد كتب للحجر الأسود فى إميسا وهى حمص ويسمى Elagabal (إلاجابعل) ، أن يلعب فيما بعد دوراً عظيماً بروما . وثمة حجر مدبب آخر يلقى ضوءاً على إحدى المدن السلوقية هى سلوقيا الواقعة فى سفح جبل بيريا . وذلك أن الإلهين اللذين كانت سلوقيا تعبدهما كانا رباً للرعد هو زيوس كيرونيوس الصاعقة (والراجح أنه بلساميم «رب السماء») وزيوس كاسيوس ، وهو حجر مخروطى أودع مزاراً مقدساً على جبل كاسيوس المجاور ، فكأن سلوقيا بذلك قد تبنت العبادات القومية المحلية ، كما اقتبست مدينة

«دورا» رسمياً من بابل كلا من «أداد» ونانايا . وانتقل زيوس كاسيوس إلى مصر ومنها إلى ديلوس ، ولكنه ظل فى سلوقيا حجراً ، ولم يصل إلى الصورة الإنسانية حتى عصرها دريان . وعلى نفس هذه الشاكلة عاش مولوخ العمونى (Moloch) طوال تلك الحقبة ربا لمدينة ربات عمان (فيلادلفيا) . كما أن مارنيس Marnes « مولانا » بغزة ، ينبغى أن لا يفلت منذا كرتنا ، فإنه كان أجرأ نصير للوثنية على المسيحية ، وظل صامداً حتى دمر معبده المسمى « مارنيون » فى ٤٠١ . على أن أمتع الآلهة طرا هو الإله المحلى لمدينة دوليخى الصغيرة (دولوك) فى كوماجينى . وكان يعيش « حيث موطن الحديد » ؛ وذلك أنه كان فى الحقيقة تشباس (وبالحيثى أو الحورانى تشوب Teschubl) وهو رب ذلك الشعب العجيب المقهور المسمى بالخالديين أو الخالبيين ، وهم أعظم الحدادين فى العالم غربى الصين . وقد حكموا يوماً ما مملكة فان بأرمينية ، ولكنهم تفرقوا تللاً حينما وجدوا مقداراً من الحديد يمكنهم من إقامة أكوارهم وممارسة فنهم الموروث ، وحدث فيما بعد أن ربهم الصغير رب الحديد بمطرقته التى يرى فيها بعضهم صورة البلطة الحثية المزدوجة ، كتب له أن ينتشر بين الناس فى طول الأمبراطورية الرومانية وعرضها فى أعقاب السيف الرومانى ـ تحت اسم جوبيتر دوليخينوس أو الدوليخينى .

وقد أسلفنا عليك من قبل وصف دول المعبد بآسيا الصغرى (الفصل الرابع) فكم كان عمر عبادة ربة الطبيعة الأناضولية وابنها وزوجها؟ — ذلك أمر لا يمكن معرفته ، بيد أن الإغريق كان لديهم فكرة متوارثة مستمرة بأن « الفريجيين » هم أقدم جنس على سطح الأرض ، وأن ديانتهم أقدم من الديانة المصرية . والراجح أن العبادة الأناضولية الحقيقية كانت أقدم كثيراً من الفريجيين أو الحثيين . ولـكن ليس فى الإمكان تحديد ذلك الشعب المفقود الذى ترجع إليه تلك العبادة ولا ماذا كانت الأسماء الأصلية للربة وابنها ، وهى التى لعلها كانت تتغير دائماً بتغير المكان ، وربما بدت «ما» قديمة قدماً سحيقا . وقد انطمست العبادة الاصلية وغطت عليها أو إمتزجت بها وخالطتها طبقة بعد طبقة من الآلهة الغازية . والظاهر أن الحثيين أسهموا فيها برب للفلاحين ، عزز قوة الإلهة . وأحضر الفريجيون وهم من اصل هندوأوربى إله السماء

الخاص بهم ، فراح فى الهياكل التى غزاها يرفع من شأن الرب على حساب الربة ويتخذ لنفسه الاسم المبجل « زيوس » . واستجلب الفرس « أنائيتس » ، فشدّت من أزر الربة . وكانت عاهرات المعبد أيضاً معروفات فى إقليم بابل ، ولكن لا يمكن البت فى أى المعبدين اقتبس الفكرة عن الآخر، ولا ما إذا كانا جميعاً يرجعان إلى عالم أبكر فيما يتعلق بتلك الممارسة. ومن المحقق أنه وإن أحضر الإغريق آلهتهم الخاصة إلى المدن ، إلا أن كثيراً من الأسماء الإغريقية بالأناضول تسميات عصرية لآلهة محليين . وربما كانت العلاقة بين الربة الأناضولية وبين بلاد الإغريق قديمة قدماً مفرطاً . ولكن تلك الربة الأناضولية الأم فى العهود الهللينستية ، رغم أنها تسمت باسم ميتر ، فقد تألفت جمعيات لعبادتها بأثينا ابتداء من القرن الرابع كما أنها تحت اسم « ما » أو « سيبيلى » ، بلغت فى النهاية مقدونيا وسوسا وروما . ومع أن آتيس (Attis) وأدونيس سرى تغلغلها فى الأندية الهللينستية ، فإن الديانة الأناضولية ظلت على الجملة مغروسة فى أرض الأناضول . بيد أنها كانت ببلادها الأصلية قوية قوة هائلة ؛ وقد حافظت أرتميس على نفسها حتى فى إفيسوس ، كدولة داخل الدولة حتى عهد ليسياخوس . وقد جمعت احصائيات قيمة عن ليديا ، وهى أشد الولايات انطباعاً بالطابع الهللينستى خارج نطاق المدن الإغريقية . وتحوى تلك الاحصاءات ١١٧ نقشا تشير كلها إلى نحل إغريقية و ٢٣٧ نقشاً تشير إلى عبادات آسيوية ، منها ١١٢ تتصل بالربة الأناضولية وابنها ؛ وتلك الأرقام توضح مبلغ الفشل التام الذى منيت به الروح الإغريقية فى السيطرة على الأناضول . ولما كانت هذه النقوش تشمل العهد الرومانى بأكمله ، فإن الاحصاءات المتعلقة بالفترة الهللينستية وحدها تكون أبلغ فى الدلالة على أنها ليست فى مصلحتها .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد تاريخ « مين أسكاليوس » الذى كان هو الرب الأناضولى الذى جرت مطابقته وصهره فى أغلب الظن مع الرب البابلى القمر « سن Sin » وعندما ابتنى السلوقيون مدينة أنطاكية البيسيدية ، وجدوا أن من الضرورى رعاية للمستوطنين من الأهالى أن يؤسس على جبل كاراكويو بقرب المدينة هيكل جديد للرب « مين » ؛ وقد أزيلت الأتربة فى العهد الأخير

عن « الطريق المقدس » والقاعة المخصصة لتكريس الأفراد فى العقيدة . وتدل النقوش أن أنطاكية الإغريقية كانت هى الأخرى تعبد « مين » فى القرن الأول . وأحل أوغسطس مندوباً من قبله محل الكاهن ، وبذا أصبح هو نفسه ربا لفلاحى الرب ، ولكن « مين » وإن كان يسكن إلى جوار مدينة هللينستية كبيرة ، قاوم طويلا كل محاولة لإحلال آخر مكانه . ومن العجيب أن رمز مريديه — وهو هلال الرب القمر — وهو فى صورة حذوة حصان يماثل تماماً أقدم شكل لحذوة حصان وجدت باسكتلندة ، وربما ابتسمنا ساخرين من أولئك الذين يعلقون حذوة الحصان اجتلاباً للحظ ، إذ نرى فى ذلك مظهراً لآخر من يمارسون عبادة وثنية كان الشيب قد كلل رأسها يوم ميلاد بلاد الإغريق .

وكان الجهد العظيم الذى أسهمت به بابل هو عبادة النجوم التى نسميها التنجيم . وهى عبادة ترجع أصولها إلى آماد بعيدة جداً من الماضى السحيق ، ومع أنه حدث أثناء عصر السلوقيين أن كثيراً من الفلكيين البابليين رفضوا أن يمسو التنجيم ، إلا أنه تطور فى بابل حتى أصبح نظاماً مكتمل النمو . ذلك أن النجوم وفوق كل شىء الكواكب كانت فيما يبدو تسير فى قبة السماء وفق قوانين ثابتة . ونشأ مذهب يقول بالتقابل والتوافق — وأن السماوات من فوق والأرض من تحت شقيقان متكاملان ، فما كان يحدث فى العالم النجمى كان يعاد إخراجه على الأرض ، وهذا هو الأمر الحيوى فى الموضوع . بيد أن حركات العالم النجمى ثابتة ، فإذا كان هناك إذن تقابل ، فكل ما يحدث على الأرض كان ثابتاً كذلك ، والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضاً فهى ثابتة ، وذلك لأن الإنسان إنما هو « كون مصغر » فهو الشقيق المكمل للعالم الكبير ، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التى تتوهج فى صفحة النجوم . ومن هنا نشأ مذهب من أفظع المذاهب التى عذبت الإنسانية على مر الزمان ، وهو المذهب البابلى المسمى « القضاء المحتوم Heimarmene » الذى كان يتحكم على السواء فى النجوم والأرض والناس . فحركات هذه الكائنات جميعاً ثابتة بفضل قوة باقية لا تتبدل ، وهى قوة لا علاقة لها بالأخلاق ،

قوة لا تحب ولا تكره ، ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لا هوادة فيها مواظبة النجوم فى مسارها عبر القبة الزرقاء .

وقد سمع الإغريق بالتنجيم حوالى ٤٠٠ ؛ فأظهر أفلاطون شيئاً من العلم به فى أواخر أيامه . وكان يودوكسوس وثيوفراستوس يعرفان أن الكلدان كانوا يحسبون الطوالع . وكان بيروسوس أول من اجتلب إلى بلاد الإغريق (حوالى ٢٨٠) المعرفة المحققة بعبادة النجوم لدى البابليين ، بيد أن إبانها لم يظهر حقاً إلا فى القرن الثانى ، يوم أخذ العلم فى الأفول ، ويوم أخذ زحف روما الذى لم يكن من سبيل إلى مقاومته يبدو تماماً كأنما هو صورة «القضاء المحتوم» على ظهر الأرض . وقد استطاع التنجيم فى النهاية أن يتغلغل فى كثير من الديانات ويصبغها بلونه . وربما كان فى وسع الفلك أن يقضى عليه ؛ ولكن التنجيم تمكن بدلا من ذلك من القضاء على الفلك عند نهاية القرن الثانى (الفصل التاسع) . ومنذ ذلك التاريخ خلاله الجو حتى أيام كوبرنيق . وبلغ مصر أيضاً إبان القرن الثانى قبل عام ١٥٠ يوم ظهرت تلك الكتابات التى تنسب اكتشاف التنجيم إلى ملك مصرى أسطورى هو نيخيبسو وكاهنه بيتوسيريس . وعن طريق الإسكندرية المفتحة الأبواب لكل وافد وبوصف كونها مركزاً ثانوياً ، انتشر التنجيم فى كل أرجاء عالم البحر المتوسط.

ومن المحتمل أن تفاصيل عبادة النجوم ظلت تزداد إحكاماً طوال الفترة الرومانية بأكلها . وكان هناك أكثر من نظام واحد ؛ كانت الكواكب فى أحدها أبرز ما يكون ، على حين أن النظام الآخر كانت البارزة فيه هى أبراج الفلك وعلاماتها الاثنتا عشرة ، التى تطورت بمصر وصارت العشرات الست والثلاثين ، المقابلة للعقود(١) الست والثلاثين فى السنة المصرية ، ويحكمها ٣٦ شيطاناً لها أسماء شاذة ، منها أخنومن وأخناخومن وأسمان وأسترات وسيكات — الذين كانوا كذلك يحكمون فى أجزاء الجسم الستة والثلاثين . بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم ؛ فالكواكب السبع وهى : الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل — كانت

---

(١) العقد يعادل عشرة أيام . (المترجم)

الميسرات للقضاء والقدر وهى مُستقر عروش « حكام هذا العالم » الذين أصبحوا فيما بعد معادين لروح الإنسان وشراً عليها بصورة قاطعة . وخصصت للكواكب السبعة ألوانها الخاصة ، المقابلة للطوابق السبعة للمعبد البابلى ؛ كما خصصت لها معادنها الخاصة ونباتاتها وحيواناتها . وأصبحت حروف الحركة السبعة فى الأبجدية الإغريقية علاماتها ؛ ومن هنا نشأ ذلك الإصرار على استخدام رقم ٧ الذى لا يزال قائماً فى أسبوعنا (الهللينستى) ؛ والذى ظهر فى أهل الكهف السبعة وفى عجائب الدنيا السبع ؛ وأعمار الإنسان السبعة (التى اقتبسها شكسبير عن علم التنجيم) ؛ وفى الثنيات السبع لوشاح إيزيس ؛ وفى سُلم ميثراس ذى السبع درجات ؛ وفى المسرات السبع للصالح التقى فى كتابات الرؤى السالثية (Salathiel Apocalypse) (١) والملائكة والدنان السبعة التى نزل بها الوحى ، وأبواب الجحيم السبعة ، ثم السماء السابعة .

وعلامات أبراج الفلك كانت تتحكم فى مصائر شعوب ومدن منوعة ؛ وتشهد العملة بأن أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل ، والرّها تحت سيطرة برج الدلو ، وأن سنجارا وريسابنا تحت برج القوس . ولكن الذى كان يهم الناس هو أن مصائرهم كانت ثابتة منذ الولادة بفضل نجومهم ، كما أن المنجِّم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل عن طريق حسبانه لطوالعهم . واللغة الإنجليزية مليئة بمصطلح هذه العقيدة البالية ؛ فما برحنا نقول عن الرجال أنهم طربون Jovial (تشبهاً بأبى الآلهة Jove—Jupiter) أو خفافاً طائشين (Mercurial) نسبة لعطارد (Mercury) أو متجهمين نكداء (Saturnine) متأثرين بزحل (Saturn) ، وما برحنا نتحدث عن الاقتران السعيد للحوادث ، ونعتقد فى الأرقام الشؤم ، ونحمد نجمنا . وفى إبان القرن الأول كان « للقضاء والقدر » الكفة الراجحة كفيصل فى حياة الناس ، وتمكن

(١) ضرب من الكتابات الدينية نشأ عند اليهود فى العصر الهللينستى . وأقدم مثال له سفر دانيال فى العهد القديم . واللفظ يشير بوجه خاص إلى رؤيا القديس يوحنا فى العهد الجديد . وتشترك جميع كتابات الرؤى فى هدف واحد ، هو استثارة الإيمان بالله إبان المحن بتصوير المستقبل بدلالة النصر والخلاص . وهى تؤكد أيضاً أن انتصار كلمة الله فى نهاية العالم سيسبقها الشرور والآلام .

من إقصاء « الحظ » (Fortune) الأوسع رحمة . وحدث فيما بعد — ولعل ذلك كان بتأثير النفوذ الرواقى ، أن بعض الناس أخذوا يرحبون « بالقضاء والقدر » كمهرب لهم من نزوات « الحظ » وخداعات الأمل ، ولكن الأغلبية كانت ترى فى « القضاء والقدر Fate » إنكاراً للحرية وطغياناً مستحيلاً غير معقول ، كما أن الضغط على عقول الناس أوشك أن يصبح شيئاً لا يطاق لولا ما قيض لهم من وسائل معينة للفرار سنشير إليها من فورنا . ومن سوء الحظ ، وإن كان هذا فى أغلب الظن أمراً لا مفر منه أن الرواقيين الذين كان الكثيرون من كبار شراحهم من أصل أسيوى ، قد عالجوا التنجيم ، وكانت نقطة الضعف فى المذهب الرواقى هى انعزاله عن الروح العلمية . وكتب للتنجيم أن يكون الناحية المعتمة فى ذلك المذهب . وقد قيل إن زينون تأثر بالتنجيم منذ البداية ، ولاشك أن خريسبوس كان يعد الكلدان حلفاء له ، كما أن نواحى التشابه بين النظامين كانت جلية . إذ كان كل منهما يرى أن العالم وحدة متكاملة مؤلفة من كائنات عضوية وتحكمها قوة واحدة قادرة على كل شىء . ويربطه بعضه مع بعض شىء يسميه الرواقيون التعاطف ويسميه البابليون التقابل ، وكان كل منهما يرى أن الإنسان عالم مصغر وأن روحه شرارة من النار الأثيرية ، وتدمير العالم وتجديده بشكل متطابق عند نهاية كل حقبة عالمية ، كان شيئاً مشتركاً بين الطرفين على نحو ما . ولكن كان هناك فرق حاسم : فإن « القضاء والقدر » عند البابليين كان قوة لا علاقة لها بأية اعتبارات خلقية . على حين أن « المقدور Destiny » عند الرواقيين يمثل « عناية Providence » خلقية . أخذت نفسها منذ البداية برعاية أحوال الناس . وجاهد المذهب الرواقى بشدة ليصوغ « القضاء والقدر » فى صورة تشبه « العناية » . وكان ذلك شيئاً غير منطقى . لولا أن حاجة الناس كانت عظيمة . ومن المحتمل أن من أسباب بقاء شهرة كتاب أراتوس المسمى « الظواهر Phaenomena » (الفصل الثامن) ، يرجع إلى احتجاجه فى ذلك الكتاب بأن « العناية » هى التى خلقت النجوم . ومما يشرف مدرسة أبيقور أنها رفضت التنجيم . فانبرى كارنياديس لمهاجمته مثلما هاجم الرواق تماما . وأخذ يعرض هذا اللغز المحير : « لماذا كان الناس المقدر عليهم الموت

فى أوقات مختلفة يموتون فى نفس السفينة المحطمة ؟ » . بيد أن التنجيم كتب له أن ينجو من مصاعب أنكى من هذه وأشد ، فأفلت بفضل نظرية تقول بالمؤثرات العامة التى غلبت على المؤثرات الخاصة . على أن الرواقى العظيم باناثيوس الرودسى صديق بوليبيوس واسكيبيون نبذ فعلا من نظامه كلا من التنجيم والآلهة الشعبيين . وكان من المهم أن المذهب الرواقى الذى بلغ روما عن طريق اسكيبيون وأفراد حلقته كان مذهب باناثيوس بما انطوى عليه من الروح التعقلية ونزعة خلقية قوية ، ولذا فإن ما أخذته روما عن الرواق كان قاصراً فقط على فلسفة الخلق . والرجل الذى كان يحتمل أن يصنع أكثر مما فعله كارنيادس كان الفلكى الإغريقى هيبارخوس (الفصل التاسع) ، فلو أنه استخدم مقدرته الرياضية الهائلة فى إصلاح مذهب أرستارخوس فى مركزية الشمس بدلا من هدمه ، لأنقذ العالم من التنجيم عدة قرون ، وذلك لأن مركزية الشمس للعالم كان معناها لدى التنجيم (أو كان يجب أن يكون معناها) هو الموت . وحقيقة الأمر ، أن كل ماعمله هو أنه قلب الأوضاع بالنسبة للأدوار التقليدية لكل من أوربا وآسيا ، وعلى حين حدث على ضفة الخليج الفارسى أن سلوقوس تلميذ الكلدان (الفصل التاسع) كان يدافع عن نظرية مركزية الشمس للعالم ، كان هيبارخوس يدافع عن العلاقة التى تربط بين الروح والنجوم . ولكن مهما تكن مسئولية هيبارخوس ، فإن الرجل الذى بذل أكبر الجهد فى تثبيت أقدام التنجيم وما ماثله بأوربا هو بوسيدونيوس خليفة باناثيوس .

وبوسيدونيوس هذا من أهل أپاميا بسوريا (١٣٥ — ٥١) . وقد عمل برودس وشغل منصباً مدنياً عالياً هناك إلى حين ، وهو يمثل آخر قوة عقلية عظيمة أنتجتها الثقافة الهلينستية غير متأثرة بروما ، وكان علمه يشمل ميادين كثيرة . وكان شيشرون تلميذاً له . وقد تسلط على النصف الأول من القرن الأول كما تسلط إراتوستنيز على نهاية الثالث . وكان عمله ملحوظاً كمؤرخ وجغرافى وكاتب يصف مايشاهده ، وهو يكشف الستر عن نقاط قوته وضعفه . ويظهر فيه عقلا واسع الأفق رحب المجال ذا رغبة فى المعرفة لا حد لها . بيد أنه حرم كل قدرة على النقد وكل روح علمية . أما فلسفته فقد خلط فيها بين

شيء من الأفلاطونية والرواقية ؛ على أنه خلط أشياء أكثر كثيراً من ذلك . فإنّ فَهمَ نشاطه الديني الفلسفي من أعسر الأمور ، ولم يبق من كتاباته شيء ، كما أنه لا ينسب إليه بصوره قاطعة إلا الشيء القليل من كتلة المواد الموجودة عند من جاء بعده من الكتاب وقد جرت العادة بنسبة كل شيء تتجلى فيه ميول معينة إلى اسم پوسيدونيوس وبتصويره في صورة صاحب العقل المزدوج، الذي يقف بين الشرق والغرب وينتهل منهما جميعاً، وفي صورة الفيلسوف والعالم والمنجم والمتصوف الشرقي إلى غير ذلك من نعوت ، وأنه مستحدث نظام فلسفي عظيم جمع بين جميع نزعات الزمان المتداولة، العلم منها والخرافة، وعبادة النجوم والعبادة الشعبية ، والسماء والأرض ، والناس والآلهة والشياطين . فهو فرد التقت فيه الأشياء جميعها ومنه انطلقت لتؤثر في المستقبل . فهل هذا هو پوسيدونيوس حقاً ، أم هو ليس إلا عنواناً على الروح السائدة في القرن الأول ؟ وفي الحق إن ظلالاً كثيرة تحيط به حتى أصبح من الامعان في الوهم أن نستطيع التعرف على كثير من شأنه ؛ على أن ذلك الخليط المركب من العوامل والمؤثرات الذي كثيراً ما يطلق عليه اسم پوسيدونيوس ربما كان من العسير تمييزه واستخلاصه من الشوائب والإضافات . ومن المحقق أنه رفع زيوس فوق « المقدور Destiny » بدلا من اعتبارهما شيئاً واحداً، ومعنى هذا أن عالمه كان عالما دينياً ، يحكمه « العقل والإرادة » . وليس من المستبعد أنه كان يعمل على أساس خطة مرسومة ؛ كان يريد أن يثبت وجود العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الأرض والسماء . وقد كانت الفلسفة والعلم حتى آنذاك يسيران في طريقين مفترقين ؛ أما هو فيعمل على المزج بينهما ، ولكن على أساس أن يجعل العلم خادماً للفلسفة . وذلك لأنه ليس حقيقياً أن يقال إنه كان يبغى في مضمار العلم أن يكتشف سبب الأشياء ؛ بل كان يبغى أن يجد فيه سببه هو الذي يعلل به الأشياء . وهو العلاقة بين الأرض والسماء . وقد عنى بأن يظهر أن القمر هو المتسبب في المد والجزر ، وأن المناخ يؤثر في الشعوب ؛ وأن الشمس تصبغ طاووس الهند أو تنضج الزبرجد في مناجم بلاد العرب ، وذلك

لأن هذه الأشياء جميعاً كانت تخدم نظريته ، وتؤيد مذهبه عن القوة الحيوية التي كانت السماء تؤثر بها في الأرض والتي كانت تنبض في العالم كله . وكان المقصود من مجموعته الهائلة من الحقائق والمعلومات الرامية إلى توضيح التغيرات التي تلم بسطح الأرض ، إثبات التوازي بين الأرض والإنسان ، والتوازي بين النار والماء اللذين يجريان في عروق الأرض وبين الهواء والدم اللذين يسريان في عروق الإنسان ؛ فلو سددت العرق في كل منهما لقاسى كلاهما نفس الآلام — فالبركان ينفجر ، وعرق الإنسان ينفصد .

ولكن ما الذي دخل بعد هذا إلى نظامه الكوني علاوة على السماء والأرض ، وزيوس والإنسان ؟ وإنا لنعرف أن الآلهة دخلته فعلا ، أما التنجيم فدخوله محقق إلى حدما . ولقد كان ينفي عن نفسه تهمة الخرافات ؛ وكان إلهه القائم على وحدة الوجود والداخل في كل جزء من أجزاء الكون ، هو الطبيعة ، فكل ما هو موجود فهو في الطبيعة كذلك . والمشكل هو عدد الأشياء التي كان يسلم بوجودها . وكان يؤمن بالعرافة كما أنه كتب عنها ، ذلك أن العرافة موجودة في «الطبيعة» ، وكتب عن الشياطين . وهناك من كتاباته ما يكفي لإظهارنا على أنه كان يعتقد فعلا أن الروح كانت شيطاناً وتسكن الهواء الأعلى ، وأن الكائنات الخارقة للطبيعة تتحدث إلى الناس في الأحلام . وإذن فإن نظامه الخاص ، على علوه من بعض النواحي ، مثل أفكاره عن تداعي الكون وترابطه تحت حكم « عناية » إلهية ، لم يبعد كثيراً عما أسميناه روح الزمان . وكانت فكرة «الكون» لديه تتسع للشيء الكثير جداً ، وذلك لأنه لم يميز بين ماهو موجود وبين مايعتقد الناس أنه موجود ، ففتح الباب لعلم الشياطين(١) ولكثير غيره . فأما أنه لم يدخل الباب المفتوح مع الجمهور فأمر لا يهم كثيراً ، اما ما كان يرتأيه الجمهور فهو أن وجوده معهم كان يجعل إجراءاتهم أكثر لياقة واحتراما وذلك أنه إذا ظهر الشيطان في الأحلام ، فلماذا لا يظهر في بلورة ، وإذا ظهر في بلورة . . . وهنا يبدأ منزلق لا نهاية له ولا إمكان فيه لتوقف . فكل عاشق مهجور أو تاجر مضارب استأجر مصريا شارداً ليستنزل له من السماء شيطاناً ببيضة طائر الإيبس (أبي منجل) وقطعة

(١) علم الشياطين Demonology هو دراسة الشياطين وتصرفاتها . (المترجم)

من الثوم — ربما ادعى أنه إنما يطبق تعاليم بوسيدونيوس العظيم ويصل بها إلى نتيجتها المنطقية . ونتقل الآن إلى الطرق والأساليب التي كان الإنسان يستطيع الفرار بها من « القضاء والقدر » . فمنها ما كان مصدره السماء نفسها ؛ فهناك ظواهر معينة كالمذنبات مثلا لم يكن في الإمكان تحديد نظام ثابت لها فكأنه كانت هناك أشياء أخرى تعمل عملها بجانب الدوران الثابت للأجرام السماوية . وفي مقابل ذلك أدخل التنجيم هو نفسه عناصر كثيرة غير منطقية تماماً ، وقد استطاع أن يضم الحظ إليه ، ومالبث أن أخرج من جعبته مذهب « الفرص » ، أي الإقترابات المحظوظة للكواكب التي قد ينتهزها الجسور . بيد أنه كانت هناك على الجملة ثلاثة خطوط رئيسية حاول بها الإنسان الفرار من نجومه وكلها تعتمد على الاعتقاد بأن إلها ما كان أقوى حقاً من ذلك «القضاء والقدر » الذي يتحكم في الآلهة ، وذلك الإله هو العقل البشري . وقد أخذ كدأبه على الدوام يتفاعل من أجل نفسه ضد ثقل « الجبرية » القاهر ؛ ويعلن أنه لا ينبغي أن يكون هناك شيء من هذا القبيل. وكان سلاحه اعتقاد البشر اعتقاداً راسخاً لا يمكن استئصاله بوجود إله مساعد ــ وما عليهم إلا أن يحثوا عنه ويجدوه . والخطوط الثلاثة المذكورة هي: المعرفة الروحانية والسحر والديانات الشرقية ذات الأسرار الخفية . أما المعرفة الروحانية فهي العلم بكنه الأشياء وليست هي المعرفة التي تتوافر للفيلسوف . إذ حدث مرة أن أحد الأرباب كشف مباشرة عن مفتاح سر الكون لروح مختارة . فلو أن إنسانا وفق إلى العثور على هذه المعرفة الروحانية التي أخفيت عن غيره من الناس ، لأصبح بمأمن حصين من « القضاء والقدر » . وبذلك يصل إلى النجوم بطرق مختصرة . أجل إنها قد تعذب جسده . ولكن روحه بعيدة عن منالها ، وذلك لأن العقل كان فوق « القضاء » . وكان أن أخرجت المعرفة الروحانية (Gnosis) بعض المبادىء الرفيعة . ومع أن أصول هذه المعرفة وجذورها ترجع إلى العصر الهللينستي إلا أن يومها وموعدها لم يحن بعد ، وغني عن البيان أن المذاهب الكبيرة أجمع متأخرة بالضرورة عن الحقبة المسيحية .

ولم يحدث حتى اليوم أن عصراً أو قطراً خلا يوماً من السحر . على أن طوفانا جديدا منه انصب في القرن الثاني من آسيا إلى العالم الإغريقي في أعقاب

التنجيم . فإن جميع أنهار السحر وموارده : الأشورية منها والبابلية والأناضولية والفارسية واليهودية — كانت تصب في مصر كأنما تجتمع في خزان عام . ثم تخرج من مصر لتسقى الأرض . وكانت الفكرة الأساسية فيه هي أنه باستخدام الوسائل الصحيحة يمكن إجبار يد الآلهة على العمل . وإليكم نص وصفة لإرغام القمر(١) « لا بد أن تفعل ذلك سواء أحببت أم لم تحب » ويرى البعض أن السحر أشبه ما يكون بالرغبة القديمة لدى اليونان فى التعطش إلى الحرية . وقد بعث مرة أخرى فى نطاق جديد . فأصبح فى الإمكان إرغام الرب أو الشيطان على تغيير قضائه فيك . بيد أنه أى السحر بالنسبة لعامة الناس الذين لم يكن معنى عبادة النجوم عندها نظاماً ضخماً يجثم على الصدور كالكابوس ، بل هو أشبه الأشياء فى تصورها بشخص كلدانى متجول يحمل قوائم طوالعه ، لم يكن ذلك السحر إلا مجرد طريق مختصر للحصول على شيء مادى مطلوب . وهناك كثير من برديات السحر . جاء بها التعازيم والمراسم المناسبة لكل نوع من أنواع الفوائد والمنافع الشخصية ، وإنها لتمنح النجاح والتوفيق فى الحب أو فى جمع المال ، وتشفى الأمراض وتعزم على الشياطين للاستعاذة منها وتقضى على العدو . ومن بين البرديات رقى عامة شاملة تصلح لأى غرض . وكانت جميع أنواع المواد تستخدم فى أغراض السحر : — من البصلة المتواضعة الحقيرة إلى التعزيمة الجادة ، التى قلما استخدمها الناس فى أغلب الظن والتى تبدأ « خذ زمردة غالية الثمن واحفر عليها صورة الخنفساء » وطبيعى أن طير الإيبس المقدس (أبى منجل) والقرد الذى اكتشف جثة أوزيريس ، كانا يلعبان دوراً كبيراً ، والجنى الذى يستدعى قد يظهر بطرائق كثيرة . فالساحر يستطيع رؤيته نيابة عنك فى الماء أو فى المداد أو فى البلور ، حيث يلعب الإيحاء دوراً جسيماً . بيد أنه كان فى المستطاع أيضاً إظهاره بشخصه . فإن كنت مزوداً بما يلزم ، صرت على الفور سيده المتحكم فيه ، ولكنه قد يضرك فيما بعد .

---

(١) باعتبار القمر أحد الآلهة . (المترجم)

وفضلا عن الرقى الواقية فهناك وصفات لصرف الجنى مرة ثانية وعودته فى هدوء إلى مكانه الأصلى . وهى الناحية التى كان فيها سحر القرون الوسطى على قدر محزن من الضعف . والعادة أنك تستدعى أحد الجن أو الأرواح من طبقات الهواء الأوسط ، بيد أن أحد الأرباب العظام يمكن استدعاؤه أيضا . كما حدث فى كلمة الإبتهال الذائعة الصيت الخاصة بتيفون (Typhon) وخير طريقة للتحكم فى أحد الجن هى النطق باسمه الحقيقى ، ولكن يحتمل أنه يعمد إلى إخفائه فى شىء من العناية والحرص . وللتأكد من ذلك كان عليك أن تنطق عدداً ضخماً من الأسماء والصيغ الفاسدة المستقاة من كل لغة بآسيا مع سلسلة طويلة من الكلمات المصطنعة التى لا معنى لها . ويستدعى تيفون بحق « الإسم ذى المئة حرف » . ولم يكن السحرة اليهود يتورعون عن استخدام اسم يهوه ؛ كما أن أقواها جميعاً ، إن كان فى وسع أحد أن يتعلمه هو ذلك الإسم الذى لا يتصور والذى كان سليمان قد ختم به على قماقم من نحاس حبس فيها ٩٩٩ر١٩ جنيا من حزب الشيطان . والواقع أن بعض الوصفات لا تحتوى إلا على أسماء ، وكان اليهود الإسينيون(١) (Essenes) يقسمون أغلظ الأيمان أن لا يبوحوا بأسماء الملائكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستخدمون تلك الاسماء فى أغراض السحر . وأوشك السحر أن يصبح نظاماً دينياً . وكان الكثيرون يؤمنون به إيماناً خالصاً . وتحتوى البرديات صلوات لتخليص المرء من نجومه . وكانت للسحر صلات بأشكال المعرفة الروحانية السفلى ، فأنت تستطيع أن تجبر الإله أن يطلعك على ما لديه من خفايا وأسرار . بيد أن المعرفة الروحانية فى أسمى مراتبها كانت تنبذ السحر . وتقول إحدى الكتابات الهرمسية(٢) إنه يجوز إجبار القضاء والقدر .

بيد أن الشىء الذى فاق السحر كثيراً فى أهميته هو الديانات الهلينستية

---

(١) الإسينيون : جيئة من الزهاد اليهود ظهرت بفلسطين قبل المسيحية . وكانوا يمارسون المشاركة فى السلع . (المترجم)

(٢) الهرمسى Hermetic المنتسب بأى طريقة إلى المعتقدات السائدة فى العصور الوسطى تحت اسم هرمس المثلث العظمة . (المترجم)

ذات الأسرار الخفية . فالسحر قد يغير قضاءك المقدر لك ، ولكن الدخول فى العقيدة والاطلاع على أسرارها يرفعك فوق فلك « القضاء والقدر » تماماً ، فالرب يستطيع أن يُعنى بشئونه بل لا بد له من فعل ذلك ، ومع أن النجوم قد تنفذ إرادتها فى جسمك ، إلا أن روحك حتى فى هذه الحياة بعيدة عن منالة أيديها ، وإنها لترتفع بعد الموت فوق أفلاكها إلى فلك الأقداس وتعيش مع الآلهة ، وبذلك تكون أنت فى الحقيقة ناجياً من كل سوء . والأساس العام للديانات ذات الأسرار الخفية هو أنك تطلب هذا الخلاص (Soteria) بالإندماج والاتحاد الشخصى مع إله مخلّص مات هو نفسه وبعث من جديد ، أو كما تقول العبارة الأورفية المعروفة : لقد كففت عن أن تكون عابداً وحاملا لعصاك وأصبحت متقمصا لإله الخمر باكخوس وكنت كالرب نفسه . لقد كانت الأسرار الخفية ظاهرة قديمة ببلاد الإغريق ، أما الشيء الجديد فهو أنها راقت فى أعين الناس على نطاق واسع على أثر سقوط الديانة الإغريقية . وما أكثر تهم الدجل والشهوانية التى كانت تكال لأتباعها ، ولكن لا يجوز أن يحكم على العقيدة بالشريرين من الرجال الذين يوجدون بين من يعتنقونها . وكانت هذه الديانات تولد فى نفوس الآملين المتطلعين إحساساً جديداً بالخطيئة وفكرة جديدة عن القداسة . وليس ثمة ريب فى أن منسك القبول والكشف عن الأسرار الخفية وهو الذى يبلغ ذروته فى معرفتك بأنك ناج تمّ لك الخلاص ، كان ينطوى على تجربة زاخرة بالعواطف الجياشة . وقد أخذ شعور الناس الدينى يعمق منذ القرن الثانى فما تلاه . وكانت هناك ديانات كثيرة ذات أسرار خفية ، كل منها تدّعى استئثارها بقواعد القبول الأصلية وتزعم لنفسها القوة الشاملة ، وكل منها تدّعى أن كل ما تفعله الأخريات هو مجرد عبادة ربها تحت أسماء أخرى ، وأصرت الأشكال القديمة على البقاء ، وأتيح الظهور والرواج الكبير لعبادات معينة من الأورفية بما فيها من نشوة (Ecstasy) دينية ومن فكرات عن النقاء والطهارة وعن العداء بين الجسد والروح ، والراجح أن التراتيل الأورفية تشكلت فى برجامة . ولكن ما ينبغى ملاحظته هنا هو الأشكال الجديدة التى دخلت العالم الإغريقى بسبب احتلال اليونان للأناضول ومصر .

وقد تمكن المرحوم السير و . رامساى نقلا عن مصادر منوعة من إعادة

تجميع الشكل السوى لعقائد الخفايا الأناضولية على ما كانت تمارس فى كاراكويو (الفصل العاشر). بيد أن العلماء على خلاف بالغ حول قيمة ذلك الشكل. ولو غضضنا النظر عن كاراكويو ونظرنا فى بعض تلك الأسرار لوجدنا المريد المبتدىء فيها يشهد وفاة الرب وبعثه، ويسمع الكاهن وهو ينطق برسالة العزاء: «طيبوا نفساً يا أيها الداخلون فى أسرار العقيدة Mystae فإن الرب قد تم له الخلاص، وهكذا سنجد نحن الخلاص بعد متاعبنا».

وكانت بعض عقائد الخفايا الأخرى تحتوى تمثيلا صوفياً للزواج المقدس بين الرب والربة، فى حين أنه فى بعضها الآخر لابد أن منسك الدخول فى أسرار العقيدة كان — قياساً على مراسم إيزيس (الواردة بعد) — يختتم بالإعتراف بأن المريد الجديد كان هو نفسه ربا. وقد راح رامساى يؤكد ظاهرة الزواج المقدس فى هذه العقائد والطقوس السرية ذاهبا إلى أنها تمثل نمو الأخلاق والحضارة وبلوغ القانون منزلة أرقى، وذلك كنقيض لظاهرة عاهرات المعبد. وقد لقى هذا الرأى معارضة على أساس أن الشيوع فى النساء ليس له سند تاريخى، ولكن ليس من الضرورى أن يوجد الشىء حتى يكون له تأثير هائل — كالعقد الاجتماعى (Contrat Social) مثلا، والموضوع ببساطة هو: هل كان الناس يظنون أن مثل ذلك العقد كان موجوداً بين ظهرانيهم أوعند من سلفوهم؟ الظاهر أنهم كانوا يظنون ذلك فعلا. وكان الإغريق ينسبون الفسوق الجنسى إلى الأثينيين الأوائل وإلى المعاصرين لهم من المتوحشين، كما فعل المصريون إذ نسبوا ذلك إلى البشرية كافة فى البداية.

ولكن الديانة المصرية كانت أهم الديانات ذات الخفايا والأسرار التى غزت العالم الإيجى. وقد كشف السرابيوم المقام فى ديلوس أن الثالوث الذى قُدِّر له أن يؤثر فى الهللينستيين لم يكن ثالوث إيزيس وسرابيس وابنهما حوروس أوهاربوقراطيس، بل ثالوث إيزيس وسرابيس وأنوبيس، وهو الإله الذى كان يقتاد الأرواح إلى دار الحياة الخالدة. وكانت تلك الديانة تؤكد منذ البداية أن هبتها الكبرى للناس هى الخلود، وإن أوضحت إيزيس أيضاً بكل جلاء أنها فوق القضاء، وأن القضاء (Fate) لم يصبح له أدنى سلطان على

أولئك الذين يلجأون إليها . ولابد أنه كان يبدو للجميع إبان القرن الأول أنه إذا كان للناس أن يحصلوا على ديانة عالميـة شاملة ، فهذه هى تلك الديانة دون غيرها . وكان الناس يشخصون بأبصارهم من كل مكان إلى سرابيس وإيزيس بوصفهما المخلّصين . وقد انتشرت عبادتهما فى طول البلاد وعرضها، وبلغ من قوة تغلغلها فى الأنفس أن إيزيس وحدها دون سائر الآلهة الأجنبية نجحت فى الدخول إلى « أوروك » البابلية ، على حين أن سرابيس بلغ الهند . وكان الناس يظنون أن سرابيس هو الإله الوحيد الذى وفق إنسان عصرى إلى ابتداعه . وكان المصريون بمنفيس يعبدون أوزريس فى هيئته كأبيس تحت اسم أوزريس حابى ، وهو عند الإغريق أوزورابيس . وقد جمع بطلميوس الأول أو من حوله من خاصة ، بين هذا الإله وبين عناصر إغريقية ، وأنشأ من ذلك المزج ما كان فى الواقع ربا جديداً ، هو سرابيس . ولعل المقصود منه هو توحيد الإغريق والمصريين فى عقيدة واحدة . ولكن المصريين أبوا أن يقبلوه ربا . ومع أنه احتفظ بخصائص أوزريس المميزة وبإيزيس زوجة له ، إلا أنه أصبح رب الإسكندرية الإغريقى ، الذى أصبح تمثال نحلته العظيم برأسه المموهة بالذهب وعينيه المرصعتين بالجواهر واللتين تلمعان فى ظلمة مقصورته المقدسة ، — من أعظم أمجاد تلك المدينة . وكان سرابيس وإيزيس يمثلهما على الأرض الزوجان البطلميـان ، وكان كل من زيوس وهاديس وأسكليبيوس ومردوخ يساهم بدوره بعناصر فى طبيعة سرابيس ؛ وقد أصبح الحاكم العام الشامل ، الذى يصوره عباده حسبما تهوى نفوسهم .

وذاعت فى القرن الثالث دعاية قوية لمصلحة سرابيس فى المدن الواقعة فى نطاق مصر ، وانتشرت عبادته سريعا فى أرجاء العالم الإيجى، كما أنه كان أحيانا يحل بمعبد قديم لإيزيس كما حدث فى إريتريا ، وغالبا ما كانت عبادتها تمهيداً لعبادته هو مثلما حدث بأثينا . وكانت عبادته فى البداية — كعبادة إيزيس — قاصرة على جمعيات خاصة ، ولكنها بعد ذلك غالبا ما أصبحت ديانة رسمية ، كما حـدث بأثينا وديمترياس وتناجرا ولينـدوس وديونيسوبوليس وخيرونيا وثسالونيكا وديلوس . وقد جلبه إلى ديلوس مثلا كاهن مصرى اسمه أبولونيوس قبل ٣٠٠ ، وبعد أن عاش الرب فى بعض الدور مدة جيلين . شاد له حفيد

أبولونيوس بيتا مستقلا ، وفى ١٦٦ كان له ثلاثة معابد ، وفى تلك السنة (أو قبلها) استولت المدينة على أحدها ، ولم يلبث هذا السرابيوم الرسمى حتى وسع توسيعا كبيراً فيما بعد . ويقال إن مصر كان بها ٤٢ معبداً له (وربما انطوى ذلك على شىء من المبالغة) ، بيد أن المقرين الرئيسيين له كانا معبدى الإسكندرية ومنفيس . ويقال إن بطلميوس الأول أحضر من أثينا تيموثيوس اليومولبى Eumolpid Timotheus (أى المرتل) ليفتتح أسراره الخفية على غرار الأسرار الأليوسينية . وغالبا ما تشير البرديات إلى نفر خفى من الناس يُسمون الكاتوخيون (Catochoi) . وهؤلاء كانوا يعيشون فى حرم معبد السرابيوم بمنفيس . وتفسير الأستاذ فيلكن لهم بأنهم كانوا عباداً قانتين ممن وهبوا أنفسهم للرب سرابيس ، لا يكاد يفسر لنا السبب فى أنهم لم يكونوا يستطيعون مغادرة المكان متى شاءوا ، وعندى أن رأى الأستاذ فوس (Woess) ربما كان أرجح : وهو أنهم كانوا لاجئين اعتصموا بحمى المعبد وأصبحوا غير قادرين على مغادرته (خشية ثارات ودماء يُطالبون بها أو ما إلى ذلك من أسباب)، ولذا فإنهم كانوا يلجأون أحيـــانا تجنبا للطرد إلى تكريس أنفسهم لخدمة الرب (وهو شىء معروف فى مواطن أخرى) ، بل حتى يلتمسون أن يعتنقوا تلك العقيدة . وهناك تفسير أحدث من هذا ولعله أيضا أفضل منه هو أن السلطات المدنية ربما كانت تحول بينهم وبين مغادرة المعبد، مثلما صارت تفعل فيما بعد مع الرهبان . وقد اعتبر العالم تدمير السرابيوم الإسكندرى وتمثاله فى ٣٩١ للميلاد على يد الأسقف تيوفيلوس ، — اعتبره آية وعنوانا على انتصار المسيحية انتصاراً حاسماً .

ومهما يكن شأو الأهمية التى بلغها سيرابيس ، فإنه لم يكد يضارع زوجته . وعلى حين لم يكن يُبتهل إليه البتة بدونها فإنها غالبا ما كانت يُبتهل إليها بمفردها . والراجح أن إيزيس صاحبة آلاف الأسماء كانت أعظم الآلهة الهللينستية طراً . وقد أوشك الناس أن يطابقوا بينها وبين كل ربة وكل امرأة مؤلهة فى العالم المعروف ، وكانت هى الحقيقة الواحدة التى كنّ جميعا يتخذنها طرازاً يحتذينه على صورة ما ناقصة . إنها سيدة الكل ، المطلعة على كل شىء والقوية القاهرة مليكة العالم المأهول ، وهى نجمة البحر وتاج الحياة ومشرّعة القانون

والمخلصة المنقذة ؛ فيها تتمثل الرشاقة والجمال ، والحظ والوفرة ، وهى الحق والحكمة والحب . والحضارة بأجمعها هبتها وتحت تصرفها . تماثيلها تصورها فى صورة الأم الشابة ذات الثياب المحتشمة والملامح الرقيقة الخيرة ، المتوجة رأسها بزهرات اللوتس الزرقاء أو الهلال . وهى تحمل أحيانا بين ذراعيها طفلها حوروس . وكانت الأضحيات تقدم إليها فى كل يوم ، مثلما تقدم لأتارجاتيس فى بامبيكى ولأناثيس فى إكباتانا . على أن تمثالها نفسه لم يكن يعرض لعابديها إلا فى الأعياد الكبيرة ، وقد ألبست الثياب الفاخرة ، وتلألأت بالجواهر ، وذلك لأن كهنتها المتشحين بالسواد كانوا يفهمون كل فن من فنون المراسم التى تستهوى قلوب الناس . وكانت حفلة نوفمبر المسماة إيسيا (Isia) تمثل آلام تعذيب أوزيريس : — مصرعه على يد تيفون وبحث إيزيس الصادق عن جسده ، وبعثه الإلهى . وأعظم من هذا احتفالات الربيع بإنزال سفينتها إلى البحر ، يوم الاحتفال بافتتاح الملاحة ويوم كان الركب الفاخر الذى وصفه أبوليوس يتخذ طريقه من المعبد إلى شاطىء البحر لإنزال السفينة الرمزية الخاصة بالربة . وكانت طقوس عبادتها تعد ضرباً من القتال أو الجهاد ؛ وكان مريدوها جنود جيشها . وما كان الانضواء فى طقوسها بالأمر الهين . وربما خدم المريد المبتدىء عدة سنوات كثيرة قبل أن « تدعوه » الربة أى تتقبله ، وكان الدخول إلى مقصورتها المقدسة بغير دعوة معناه الموت . وكان الموت أيضا جزاء الدخول إليها بعد الاستدعاء وبعد تلقى التعليمات اللازمة من رائد القبول فى سلك الأسرار المقدسة (Mystagogue) ؛ ولكنه كان موتا لحياة المريد المبتدىء القديمة ومولدا لحياة جديدة هى حياة الخلاص . وفى الاحتفال نفسه كان الراغب فى القبول يطهَّر أولا بالماء ، ثم يتجول فى الأماكن المظلمة للعالم السفلى ، كما فعل أوزيريس بين وفاته وبعثه — حيث يتعرض لاختبارات معينة يحتمل أن « يموت » أثناءها بالفعل « ويدفن » . والراجح أن الإيحاء يلعب أثناء ذلك دوراً جسيما ، وكان يخرج فى النهاية إلى فيض وهاج من ساطع الضياء ، يخرج وعليه ثوب قدسى وبيده مشعل مضىء فيُعْرَضُ على المجتمعين للصلاة بوصفه ربا هو نفسه ، وتكون روحه منذ تلك الساعة حرة طليقة من سلطان « القضاء » ومن الموت أيضا .

بيد أن عبادة إيزيس كانت تنطوى على ما هو أكبر من المراسم والشكليات أو حتى من الأسرار المقدسة نفسها ، على ما لهذين الأمرين من أهمية . إذ كانت إيزيس ظاهرة لم تظهر فى البحر المتوسط إبان العصور التاريخية ، لكنها وقد ظهرت، لم تغادره بعد ذلك أبداً . إنها كانت دُربة النساء حيث كان نصف البشرية فى أشد الحاجة إلى صديق يلوذ به بحكمة النساء . بينما كانت أثينا ربة « الرجل » على نحو فريد . ولئن استنجدت النساء مستغيثات بأرتميس أثناء الولادة والوضع ، لقد كان ذلك إلى حد كبير بسبب عدم وجود من عداها . وكانت المرأة الكريمة العادية ترى أن أهم حقائق الحياة أنها زوجة وأم ؛ ولم تكن هناك أدنى رابطة تربطها بمقاتلة عذراء ترعى الفنون ، ولا بصائدة عذراء باردة(١) كقمرها تماماً ، ولا أدنى علاقة بربة الخصب لعصر قديم سيطر فيه نظام الأمومة ؛ وهى أقل ارتباطاً بأفروديت وإن كان من المحقق أن الناس يستطيعون بث الروحانية فى أى شيء . فأما الآن فقد أصبح للمرأة صديقة ، هى أعظم من هؤلاء جميعاً ، صديقة كانت زوجة وأماً مثل المرأة البشرية تماما ، صديقة قاست مثلما قد تقاسى هى ، صديقة تفهم وتدرك . والحق إن إيزيس نفسها لا تدع فى الأمر غباراً من شك ؛ فهى « مجد النساء » ؛ وهى التى تمنحهن « القوة المعادلة لقوة الرجال » . وإليكم نص عقيدتها وهى ترنيمة إيزيس التى عثر عليها فى إيوس (Ios) :

« إنى أنا إيزيس .. أنا من تسميها النساء الربة . وقد جرت إرادتى بأن يحب الرجال النساء ، وأنا التى ألفت بين قلبى الزوج والزوجة ؛ وابتدعت عقد الزواج . وأنا التى أمرت بأن يحمل النساء الأطفال ، وأن يحب الأطفال والديهم...» بهذه الصفة الممتازة اكتسحت إيزيس حوض البحر المتوسط . حتى إذا انتهى الأمر بنصر المسيحية وخلع زيوس وأبولون وسرابيس والآلهة النجوم

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى وظيفتى أثينا وأرتميس فى أساطير اليونان حيث كانت الأولى ربة الحكمة والفنون والحرف والحرب ، وكانت الثانية ربة العفة والصيّادة العذراء التى ترعى مولد الأطفال . (المترجم)

عن عروشهم ، كانت إيزيس وحدها هى التى نجت — بصورة ما — من غائلة ذلك السقوط الشامل ، وقد أدخلت عبادة العذراء قبل نهب السرابيوم ، وانتقل القانون من عبادة إيزيس فى هدوء إلى عبادة أم أخرى هى أم المسيح. ويمكن الاستدلال على مبلغ ذلك الهدوء من أنه يقال إن تماثيل عديدة معروف أنها لها ، أصبحت تستخدم فيما بعد لتمثل السيدة مريم العذراء .

وأهم ما يشوقنا فى الديانات الهللينستية أنها تصور ذلك العالم الذى قامت بين أكنافه المسيحية . فإن ذلك العالم زود الناس بشىء أكثر من الوسط اللازم للحضارة المشتركة التى قدر للمسيحية أن تنتشر بين أحضانها ، بل هو قد مهد لها الطريق إلى حد ما. لقد كان الناس يلتمسون تلك الوحدة التى لا بد أنها تكمن وراء مختلف الآلهة وعقائدهم ، وذلك على طريقة الإسكندر حين دعا جميع الناس يوما أبناء لأب واحد . وذلك بينما كانت فورة الأضطرابات الفظيعة التى أحدثتها الحروب الأهلية الرومانية قد زادت كثيراً من رغبة الناس الشديدة أصلا فى الحصول على مخلص ، كان الكثيرون منهم يتطلعون إليه فعلا خارج نطاق البشرية . ومع أن الهللينستية قد زودت الناس بالشوق ودوافعه ، بل لعلها أمدت بعضهم بشعور مرهف من النقاء (وإن يكن نقاء من حيث المراسم فقط) ومن الإيمان، إلا أنه قدر أن يكون هناك شيئان حيويان فى الديانة الجديدة لم يكونا موجودين فى الهللينستية ، بغض النظر تماما عن شخص « المؤسس » الذى لم تلمس الهللينستية روحه . وقديما صرح أفلاطون أن جميع الأرواح خالدة ، وأدركت قلة من اليهود نفس هذه الفكرة العامة ، على حين أن الرواقيين كانوا يمنحون أرواح المتحلين بالفضيلة خلوداً محدوداً ينتهى بنهاية عمر العالم، بيد أن الهللينستية عامة كانت ترى أن الخلود لم يكتب إلا لعدد معين من المحسنين للبشرية أو لقلة من معتنقى بعض عقائد الخفايا ، فهو لم يكن إذن للكافة من الناس ، كما تشهد بذلك نقوش قبورهم، الأمر الذى يؤسف له حقا . ولم تكن واحدة من العقائد الهللينستية قائمة على حب الإنسانية . ولم تكن لواحدة منها رسالة للفقير أو البائس وصاحب الماخور والآثم . وكان المذهب الرواقى أقربها إلى ذلك ، فإنه أعاد النظر فعلا فى تقييم بعض القيم الدنيوية ، وأثار زينون — على الأقل — السخط عليه عندما أبى أن ينبذ الفقراء والقذرين

الذين كانوا يأتون إليه ، ولكن الفلسفة الرواقية لم يكن بها موضع للحب ، كما أنها قلما نزلت لتلتقى بتعاسات العالم ولتخبر أرقاء المنجم أنهم لو فكروا تفكيراً صحيحاً لشعروا بلذة السعادة . فالكادحون المتحملون لفادح الأثقال كتب لهم أن يرحبوا بأمل يختلف عن أى أمل آخر تستطيع الهلينستية تقديمه .

فهرس أبجدى للكتاب

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط) و (ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

استدراكات وتصويبات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٥	١٦	مسئولية	مستولية
١٥	٢٧	كيرانووس	كيراونوس
١٦	٦٠	أنطيوخونس	أنطيوخوس
١٦	٢٠	أنتتجونونس	أنتيجونس
٧١	٢٠	بايؤنيا	بايؤنيا
١٠٦	١	وعقودا	وعقدوا
١١٠	١٥	الحرية التنسبية	الحرية النسائية
١١٦	٢٧	الأقارة	الأرقاء
١٢١	١٨	أفوافها	أفواهها
١٢١	٢٢	لقد أخر	لقد أثر
١٢٢	١٨	الموثرين	الموسرين
١٢٤	٣	الأكثر أنفاقا	الأكثر نفقة
١٢٤	٢٤	٥	٥٠
١٢٦	٢٦	بتوئيا	بؤتيا
١٣٧	١٠	لاجزام	لا جَرَم
١٣٨	٩	إمتناعاً	إمتاعاً
١٤٠	١٥	طازات (My ha)	رطازات (Myths)
١٤٢	٢٤	الفالين	الغالين
١٤٤	٢٦	إلهادليس	الهاليس
١٤٦	٢١	الإيجازات	الإيجارات
١٤٧	٤	الأعلين	الأعلين
١٥٠	٧	لنا	لذا
١٥٥	١	كان .... لإمبراطوريتم	كانت .. لإمبراطوريتهم
١٥٦	١٤	عن	على

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٦٥	١٠	تسما	تسمى
١٧٥	٢٣	أنطاقية	أنطاكية
١٧٦	٤	أدنى من مستوى أصدقاء	وحلفاء أصدقاء
١٧٦	٢١	فى ثيابهم آثار حمراء الأرجوانية	فى ثيابهم الأرجوانية
١٧٦	٢١	والتعذيب من على	والتعذيب من آثار حمراء على
١٨٩	٣	التماثل الحبارة	التماثيل الجبارة
١٩٩	٢	أعدا رض	عدا أرض
٢٠٨	٨	على المركزيين	على المركزين
٢٠٨	١٤	الوظيفة أزوجت	الوظيفة ازدوجت
٢٢٤	١٩	بدرجة التطابق أسرع	بدرجة أسرع
٢٢٩	١٦	آزار (مارس)	آذار (مارس)
٢٥٠	١٧	عظة الجيل	عظة الجبل
٢٨١	٢٠	بوروشنيز	بوروسثنيز
٢٨٦	٤	اؤتى	أوتى
٢٨٧	٢	ولذ	ولذا
٣٠٦	١١	لم يكن مقر	لم يكن مفر
٣٠٧	٢	وتنتى	وتنتهى
٣١٠	٢٨	يدى	يبدى
٣١٤	٨	التقيق	التحقيق
٣٢٦	١٦	أمداً المعنون طويلاً	أمداً طويلاً
٣٥١	٢٤	الكلبيين	الرواقيين
٣٦١	١٨و١٩	إستر نو نيكى الهيئات	إسترانو نيكى الهبات
٣٦٣	١٣	وإما	وأما
٣٦٤	١٤	وأكربة	والربة
٣٦٤	١٧	هو الفينيقية	هو أستارتى الفينيقية
٣٧٣	٦	العُرق	العروق
٣٨٢	٤	دُبة	ربة

استدراكات وتصويبات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٣	٨	ألزم . . . . . على	أرغم . . . . على
٣٤	١٩	فكان رهيبة	فكان رهينة
٣٥	٢	بدأوا يلجأون	بدءوا يلجئون
٣٦	٣	وأقرباؤهم	وأقربائهم
٤٤	٢٣	فصلا	فضلا
٤٧	١٣	له عقب	له فيه عقب
٦٦	٦	لداولة	الدولة
٦٨	٩	ثلاثة مجموعات	ثلاث مجموعات
٧١	٢٠	بايؤنيا	بايؤتيا
٧٢	٥	وصارت قادرين	وصاروا قادرين
٨٠	٦ ، ٧	يستطيعون عزله متى شاءوا .	يستطيع عزله متى شاء .
٨٠	٢٧	مدنها قليلة كانت	مدنها كانت
١٠٥	١	نوادى	نواد
١٠٦	١	وعقودا	وعقدوا
١٠٨	٢١	حقيقية	حقيقة
١١٢	٢٥	سرة	أسرة
١٧٧	٦	اثنين	اثنتين
١٨٢	٥	تلويت	تلويث
١٨٢	٢٢	ساترابيات	ساترابيات
١٨٦	٢١	فما يرجع	فيما يرجع
١٨٩	٣	التمائل الحيارة	التماثيل الجبارة
٢١١	٢٢	هى المقيمون	هى طبقة المقيمين
٢١٣	٢٦ ، ٢٧	وبعض الأجرومية قواعد اللغة	وبعض قواعد اللغة
٢١٥	٨	عن مستوى	على مستوى
٢١٧	٢٧	إيبفانيس	إيبفانيس

(تابع تصويب الأخطاء)

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
الحراسة	لحراسة	٨	٢١٩
بدرجة أسرع	بدرجة التطابق أسرع	١٩	٢٢٤
ديونيسوس	يونيسوس	٢٦	٢٢٤
نتنقل	ننتق	٦	٢٣٠
يوجهوا	يوجهون	٢٣	٢٣٣
على أن الدعاية	أن الدعاية	٧	٢٣٨
الإثنتا عشرة	الإثنى عشر	٢٣	٢٤٥
D D	D D	١٦	٢٥٠
عظة الجبل	عظة الحيل	١٧	٢٥٠
بالنبط	بالبنط	٢٠	٢٦٢
طن	طناً	١١	٢٦٣
يجلب	بجلب	١٣	٢٦٦
سدا في منتصف	سدا جميعا في منتصف	١٧، ١٨	٢٦٦
ديج	ديج	٣	٢٩٢
جرؤ إنسان على أن يرسل	جرأ إنسان أن يرسل	١٤	٢٩٣
فينجوا	فينجوان	٢٤	٢٩٤
شهدت به بعض	شهدت بعض	٢٢	٢٩٥
بلوتارخوس	بلورتاخوس	١٣	٢٩٦
فكان جزاؤه	فكانت جزاؤه	١٥	٣٠٠
الأتس	الأتنس	٢٤	٣٠٤
الاحتمال	لاحتمال	٢٢	٣٥٧
إستراتونيكي	إسترنونيكي	١٩	٣٦١
الهبات	الهيئات	٢٠	٣٦١
والربة	وأكرية	١٥	٣٦٤
هو أستارتي الفينيقية	هو الفينيقية	١٨	٣٦٤
بغزة	بعزة	٥	٣٦٥
الست والثلاثون	الست والثلاثين	٢١	٣٦٨

(تابع تصويب الأخطاء)

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٦٩	١٩ ، ٢٠	خفافا طائشين . . . متجهمين . . . متأ ثرين	خفاف طائشون . . . متجهمون . . . متأ ثرون
٣٧٠	١٢	كل منها	كل منهما
٣٧٠	١٤	ويربطه	ويربط
٣٧١	٩	كان الفلكى	هو الفلكى
٣٧٣	٦	العرق	العروق
٣٧٦	١٠	« الإسم ذى المئة حرف »	« الاسم ذى الحروف المائة »
٣٨٠	٨	الكاتوخييون	الكاتوخيين
٣٨٢	٤	دُبة النساء	ربة النساء

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشـــراف الفنـى: حـــسن كـــامـل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة